

# عالم الفكر

٢

■ ابن خلدون مؤرخاً

■ كتاب الفرج بعد الشدة

■ كتاب الالمام للنويري

■ أضواء على كتابات المقرئ

المجلد الرابع عشر - العدد الثاني

يوليو - أغسطس - سبتمبر ١٩٨٣



رئيس التحرير: أحمد مشاري العدواني  
مستشار التحرير: دكتور أحمد أبو زيد

مجلة دورية تصدر كل ثلاثة أشهر عن وزارة الاعلام في الكويت \* يوليو - أغسطس - سبتمبر ١٩٨٣  
المراسلات باسم : الوكيل المساعد لشئون الثقافة والصحافة والرقابة - وزارة الاعلام - الكويت : ص . ب ١٩٢

## المحتويات

### قراءات جديدة في كتابات قديمة

٣	بقلم مستشار التحرير	التمهيد
١١	الدكتور سعد زغلول عبد الحميد	ابن خلدون مؤرخا
٧١	الدكتور محمد حسن عبدالله	كتاب الفرج بعد الشدة للفاخر التنوخي
١٢٧	الدكتور عزيز سوريال عطية	كتاب الألام للتوري الاسكندراني
١٦٥	الدكتور سعيد عاشور	أضواء جديدة على المؤرخ أحمد بن علي القرظي وكتاباته

• • •

### شخصيات وآراء

٢١١	الدكتور جلال شوي	أبو بكر الرازي
-----	------------------	----------------

• • •

### مطالعات

٢٢٣	الدكتور محمد عيسى صالحية	الفيزياء والحلل عند العرب
-----	--------------------------	---------------------------

• • •

### من الشرق والغرب

٢٦٣	الدكتور احسان صدي الممد	قراءة ثانية من معجم البلدان لياقوت الحموي
-----	-------------------------	---

• • •

### صدر حديثا

٣٠٣	عرض وتحليل الدكتور عدنان الدوري	الصراع من أجل أن تكون إنسانا والجريمة وعلم الاجرام والقوضوية
-----	---------------------------------	---

الدراسات التي تنشرها المجلة تعبر عن آراء أصحابها وحدهم





## تمهيد

لم يختلف المثقفون في الوطن العربي في الوقت الحاضر حول شيء قدر اختلافهم حول أهمية التراث بالنسبة لحياتنا الثقافية والدور الذي يمكن أن يؤديه في حركة الفكر ، ان كان له فيها دور على الاطلاق ، وقد أثرت بذلك تساؤلات عديدة تتناول ماهية التراث وجدوى الاشتغال أو الانشغال به ، وإذا ما كان يستحق كل ذلك العناية الذي يبذله المتخصصون في التنقيب عنه وتنقيحه وتحقيقه ونشره ودراسته ومدى الفائدة التي يمكن أن تعود علينا من كل هذه الجهود ، والمحكات والمعايير التي يمكن الاسترشاد بها في اختيار وانتقاء الأعمال التي ننشرها ونقدمها لجمهور القراء . ولقد كان من الطبيعي أن تختلف وجهات النظر وتتعدد الآراء نتيجة لظروفنا الثقافية الراهنة والوضع الذي يجد فيه المثقفون أنفسهم ، والذي يكاد يصل الى حد التمزق النفسي الرهيب بين الرغبة في المحافظة على الهوية الثقافية العربية ، والدفاع عن مقومات الثقافة العربية والاسلامية ضد الغزو الثقافي ، أو ما يطلق عليه أحياناً اسم الامبريالية الثقافية والاستعمار الثقافي الواصل من الغرب من ناحية ، والرغبة في متابعة التطورات الثقافية والتيارات الفكرية التي يموج بها العالم في الخارج وما يرتبط بذلك من الاعتقاد بأن التراث القديم يمثل عبئاً ثقيلاً يعوق حركة الانطلاق في مجالات الفكر الحديث من الناحية الأخرى . وواضح أن هذه الأمور كلها تندرج تحت القضية الأساسية التي نعرف في الوقت الحالي بقضية الأصالة والمعاصرة . وهي قضية عامة تشترك فيها كل مجتمعات العالم الثالث ، أو المجتمعات التقليدية ، التي تخضع لعمليات التغير الاجتماعي والثقافي ، نتيجة لاتصالها المتزايد بالعالم الخارجي ، وقد تجاوزت القضية بذلك حدود الثقافة بالمعنى الضيق

## موقفنا من التراث

للكلمة ، الى مجال الثقافة بالمعنى الانثروبولوجي الواسع . ومن هنا كانت مشكلة التراث تنتمي الى دائرة أوسع وأعم وأشمل هي مشكلة العلاقة بين القديم والجديد التي تصادفها في كل المجتمعات التي تتعرض للتغير السريع الناجم عن احتكاك الثقافة التقليدية بثقافات أخرى غريبة أكثر تقدماً وتطوراً ، ووقوع الثقافة التقليدية الأصلية تحت وطأة وتأثير الثقافة الوافدة ، وشعور تلك المجتمعات بالأخطار التي تهدد ثقافتها ، والتي قد تصل الى حد طمس معالمها وهدم مقوماتها الأساسية ، ثم رد الفعل الطبيعي والمنطقي الذي يترتب على ذلك الشعور والذي يتمثل في أبسط صوره في الالتجاء الى التراث التقليدي للاحتياط به من هذا الخطر الثقافي الزاحف . فالوضع هنا يشبه الى حد كبير الوضع الذي سبق أن عالجته بقدرة وبراعة وعمق عالمة الانثروبولوجيا البريطانية الأستاذة مونيكاه هنتر Monica Hunter منذ حوالي نصف قرن في كتاب لها يحمل عنواناً له مغزاه هو « رد الفعل ضد الغزو Reaction to Conquest » ، وقد درست في هذا الكتاب الضخم العميق موضوعاً محدداً هو وطأة الحضارة الأوروبية على بعض الجماعات القبلية في جنوب أفريقيا . وكان لا بد لها أن تتناول بالوصف والتحليل نظمهم الاجتماعية الأصلية وعاداتهم وأنماط سلوكهم وقيمهم وثقافتهم التقليدية قبل الهجمة الثقافية الوافدة من الخارج ، ونوع الحلل الذي طرأ على هذه الحياة التقليدية ورد الفعل الذي تولد في المجتمع ازاء هذا الغزو الثقافي والصراع الذي نشب بين أنصار الجديد الذين ينادون بتقبل الحضارة الغربية ومسارعتها على اعتبار أنها هي حضارة العصر التي سوف تتيح لهم اللحاق بأحداث العالم وتطوراتها ، والخروج من حالة التفرقع الثقافي والفكري والاجتماعي التي يعيشون فيها ، وبين أنصار القديم الذين لا يرون في هذه الحضارة الجديدة الوافدة سوى التفتك الاسري والاجتماعي ، والأمراض الاجتماعية من دعاية وادمان للخمر ، وأمراض سرية وتناسلية وضياح للقيم والتقاليد ، بل وضياح للانسان ذاته نتيجة لازدياد الفردية ، وقتل روح الجماعة ، وهدم التماسك الاجتماعي ، وأن من الخير الرجوع الى التراث القديم بكل ما يحمله من تقاليد وآداب غير مكتوبة ، ولكنها تتناقل شفاهة عبر الاجيال ، حاملة في ثناياها كل قيم المجتمع وأخلاقياته . فالوضع كما عالجته مونيكاه هنتر له اذن جانبه الانساني العام الذي يتعدى حدود تلك القبائل الاقليمية المتخلفة ، ويتجاوزها الى كافة المجتمعات والثقافات التقليدية التي تتعرض للغزو الثقافي الأجنبي ومنها المجتمع العربي .

وعلى الرغم من الفوارق الجوهرية بين العالم العربي وتلك الجماعات الأفريقية القبلية ، فالموقف واحد في جوهره . والامر لا يخرج في النهاية عن أن يكون عملية هجوم أو غزو ثقافي من الغرب وحضارته على الثقافة العربية الاسلامية وتهديد لها ، مما أثار لدى بعض الأوساط إحساساً عميقاً بالقلق ، تمثل في المناداة بضرورة العودة الى التراث والعمل على احياائه كنوع من الملاذ الأخير الذي يمكن أن نحتمي به من ضياح شخصيتنا الثقافية ، وأن كانت هناك فئات أخرى ترحب بهذا الاحتكاك الثقافي وتقبله بدون مناقشة أو مع بعض التحفظات . فكان الاهتمام بموضوع التراث واثارة مشكلة جدوى الاشتغال به ، واختلاف الآراء حول ذلك ، كل هذا نجم - الى حد كبير - من الشعور العام بالضعف والتخلف ازاء الثقافة الحديثة الوافدة من الغرب والرغبة الطبيعية لدى البعض على الأقل في الدفاع عن « الهوية الثقافية » ، والالتجاء الى ذلك الى سلاح التراث ، على الرغم من كل ما قد يحمله ذلك من غاطر العودة الى الماضي ، والتفرقع على الذات ، والانفصال عن الحاضر ، والاعتماد - الى حد كبير - عن التيارات الثقافية والفكرية المعاصرة .

ولست أقصد هنا الى التعرض للآراء المختلفة والأفكار المتضاربة حول قضية التراث . ولكنني أرجو أن أعرض

الموضوع من وجهة نظر محددة بالذات ، تقوم على التسليم منذ البداية بأهمية التراث وضرورة العمل على احيائه - أو احياء بعضها على الأقل - والتعريف به وتقريبه الى ذهن الرجل العادي فضلاً عن خاصة المثقفين ، على أمل أن يصبح ذلك التراث جزءاً أساسياً في تكويننا الفكري والثقافي .

ونقطة الانطلاق في هذه المعالجة هي اعتبار الثقافة وحدة كلية متكاملة وعملية مستمرة تتعدى في وجودها كل المحطات الزمنية الأتية وتتصل حلقاتها بعضها ببعض ، بغير انقطاع على مر العصور ، على الرغم مما قد يطرأ على بعض مظاهرها من تغير واختلاف ، وما تتعرض له أثناء ذلك من إضافات واستعارات من الثقافات الأخرى التي تحتك بها . وهذا معناه أن الثقافة تنمو وتتطور وتكتسب قدرات جديدة باستمرار ، وأن العقبات التي قد تعترض سبيلها وتعوق نموها اثنا هي في آخر الأمر تجارب وخبرات جديدة ، من شأنها أن تزيد هذه الثقافة عمقاً وثراء اذا أحسن الاستفادة منها . وعلى ذلك فليس ثمة ما يدعو الى التنكر للجلود أو الأصول الثقافية القديمة أو قطع الصلة بها ، رغم أن ذلك سوف يساعد على تطوير واقعنا الثقافي ، وربطه بالحركات الفكرية السائدة في الخارج ، وإضفاء طابع المعاصرة على هذا الواقع . وأرى محاولة لقطع الصلة بين حاضر الثقافة وماضيها في أي مجتمع من المجتمعات لن يؤدي الا الى ظهور مسوخ ثقافية شوهاء لا تمت الى ذلك المجتمع بصلة .

ومن الناحية الأخرى ، فإن استعارة عناصر ثقافية من مجتمعات وثقافات أخرى وتغلغلها لن تؤدي بالضرورة الى ضياع المقومات الثقافية الأصلية واختلافها تماماً ، بل قد يكون ذلك عامل قوة وغو وإثراء . وإذا كنا نقول ان الثقافة كائن حي وعملية مستمرة ومتصلة الحلقات ، فإن بقاء هذه الثقافة واستمرارها في الوجود ، وتطورها مع الاحتفاظ بأصالتها ومقوماتها الأساسية ، تستدعي ربط الماضي المتمثل في التراث الثقافي بالحاضر والعمل على تحديثه « وعصرنته » - ان صح هذا التعبير - عن طريق تقريبه الى الأفهام ، وتقديمه بصورة تتلاءم وتتفق مع ظروف وأوضاع ومتطلبات الحياة الفكرية في الوقت الحالي ، بحيث يصبح عنصراً متكاملأ في الثقافة المعاصرة . فالمسألة فيما يتعلق بالثقافة العربية والتراث العربي الاسلامي تنحصر في كيف نضمن الاحتفاظ بذلك التراث العريق ونضمن في الوقت ذاته عدم تخلفنا ثقافياً عن التيارات والحركات الفكرية الحديثة المتلاحقة .

والذي يدعو الى الاستغراب ، ويستحق الملاحظة ، هو أن التراث الثقافي لم يؤلف في الحضارة الغربية مشكلة عويصة تستنزف قوى المثقفين هناك ، وترهق عقولهم وتدفعهم الى ذلك الانقسام الخطير حول أهمية وجدوى الاهتمام به ، مثلاً حدث في العالم العربي منذ أواخر القرن الماضي وحتى الآن . فعل الرغم من كل ما أحرزه الغرب من تقدم في العلم والتكنولوجيا ، ويختلف مظاهر الحياة ، وأوجه النشاط العقلي والفكري فإنه لم يتشكك قط في أهمية التراث ، أو على الأقل لم يعتبر ذلك مشكلة عويصة تستحق الوقوف أمامها طويلاً ، وتنقسم حولها الآراء ، وتباين وجهات النظر ، بل على العكس من ذلك ، كان دائماً يعتبر الاهتمام بالدراسات التراثية مسألة مسلماً بها ، وليس علامة على التخلف أو عاملاً من عوامله ، وإنه ليس ثمة تناقض على الاطلاق بين ذلك التراث سواء أكان هو التراث اليوناني الروماني ، أو تراث العصور الوسطى ، وحتى عصر النهضة ، وبين ما أحرزته حضارتهم وحققته من تقدم . فثمة إذن نوع من الاتصال والاستمرار ابتداء من الثقافة الهيلينية حتى الحضارة العلمية المعاصرة .

ولقد كانت هناك دائماً جهود طويلة مضيئة ومتصلة لدراسة التراث الثقافي في الغرب وتحليله ومحاولة فهمه وتطويره لتطلعات العصر وتقريبه الى أذهان الأجيال المتتالية حتى يؤلف جزءاً من ثقافتهم الخاصة وتكوينهم الذهني . وهو الأمر الذي نفتقر اليه نحن هنا بالنسبة لتراثنا العربي والاسلامي العريق . ولسنا نقصد بذلك تلك الجهود الثمرة التي تبذل في الغرب لنقل التراث اليوناني الروماني ، وترجمته من لغته الأصلية الى اللغات الأوروبية الحديثة فحسب ، بحيث نجد أن العمل الواحد يترجم أكثر من مرة في اللغة الواحدة ، ويتوفر على هذه الترجمات كبار المتخصصين من الأساتذة ، وإنما أقصد أيضاً ( ترجمة ) التراث داخل اللغة الواحدة من ( اللغة ) التي كانت سائدة في عصر من العصور الى ( اللغة ) السائدة الآن . والمثال الفذ في ذلك هو نقل ملحمة بيوولف Beowulf الشهيرة من اللغة الانجليزية القديمة الى الانجليزية الحديثة ، لتيسر قراءتها للرجل العادي . وذلك فضلاً عن الشروح والتعليقات والتفسيرات والدراسات المختلفة ، التي تتناول مختلف جوانب هذه الأعمال ، وتلقى الضوء عليها ، وتقربها الى ذهن الرجل الحديث ، وتساعد بالتالي على ( عصرنه ) ذلك التراث وتحديثه . بل لقد أخضع هذا التراث القديم للدراسة والتحليل في ضوء النظريات العلمية الحديثة بقصد التعمق في أغواره . فلم تهمل الأساطير اليونانية القديمة ، على زعم أنها خرافات تعارض مع نظريات العلم الحديث ، وإنما خضعت لتفسيرات التحليل النفسي وللتأويلات الاثنولوجية ، بل وكانت هي ذاتها مصدراً لقيام نظريات جديدة ، تحتل مكاناً مرموقاً في تاريخ العلم . والمثال الواضح لذلك هو نظرية فرويد عن عقدة أوديب التي تقوم وترتكز على أسطورة أوديبوس المشهورة . والدراسات التاريخية والاركيولوجية والانثروبولوجية والاجتماعية والسيكولوجية وغيرها حول تلك الأساطير تفوق الحصر . وليس ثمة ما يدعو الى الدخول هنا في تفاصيل هذا الموضوع . لأن كل ما نهدف اليه هو الإشارة الى موقف الحضارة الأوروبية العلمية العقلانية المعاصرة من التراث القديم ، وكيف أن هذا الموقف لم يسمح بوجود فجوة واسعة سحيقة ، تفصل بين الفكر القديم والفكر الحديث ، وذلك بعكس ما هو عليه الحال في الثقافة العربية ، حيث أدى الإهمال والتكرار الطويلين للتراث من ناحية ، والجري غير الواعي وراء الحضارة والفكر الغربي من ناحية أخرى ، الى قيام هذه الفجوة الرهيبة بين القديم الأصل ، والجديد المعاصر ، وهي فجوة تعبر عن نفسها بوضوح في ذلك التساؤل الذي يثور الآن حول جدوى التراث ، وهل نعمله على اعتبار أنه من مخلفات الماضي ، أم نعمل على إحيائه كوسيلة للمحافظة على الهوية الثقافية بصرف النظر عن قيمته في ذاته .

وتحمل هذه النظرة الضيقة . وهذا أقل ما يمكن أن يقال عنها . كثيراً من الخطر لأنها إنما تهتم بالتراث حتى يهرب من الحاضرات الواقع بشروره ومتاعبه ، ويعيش في الماضي الذي يمثل المرحلة الزاهرة السعيدة في تاريخ الفكر العربي والأصالة العربية . ولذا فإن أصحاب هذه النظرة لا يأبهون كثيراً بمسألة ( تحديث ) التراث ، أو العمل على تقريبه للأذهان والأفهام ، وتحليله في ضوء النظريات العلمية الحديثة بقدر ما يهتمون بمجرد التحقيق والنشر والشرح المغربي ، والدعوة الى التمثيل بالتراث ، وإحياء القيم التي كانت تلازمه ، والعودة الى أنماط الحياة المرتبطة به . ولست أعتقد أن ذلك هو خير أسلوب لخدمة التراث وتطويره . . فهو موقف يؤدي في آخر الأمر الى جمود ذلك التراث ذاته ، وإبقائه على ما كان عليه ، وزيادة التفور منه ولن يؤدي بحال الى أن يصبح ذلك التراث جزءاً من الحياة الثقافية والفكرية المعاصرة .

ولسنا ننكر أو نهون من شأن الجهود التي يبذلها المتخصصون في تنقيح التراث ونشره ، ولكن هذه كلها عمليات تتم في

نطاق ضيق محصور ، ويقوم بها متخصصون لخدمة غيرهم من المتخصصين ، ولا يكاد أثرها يتجاوز حدود المهتمين بالدراسات التراثية ، دون أن تحس في ذلك الغاري العادي ، أو من يمكن تسميته بالمتقف العام . وصحيح أن هناك بعض الجهود التي تبذل لاعادة كتابة التراث وتبسيطه ، وتقديمه في أسلوب عصري حديث بقصد تقريبه الى أذهان وأذواق وأفهام النشء ، وقد حققت هذه المحاولات - أو بعضها على الأقل - كثيراً من النجاح ، ولكنها مع ذلك جهود فردية وقليلة وينقصها عنصر الاستمرار . والطريف في الأمر هو أننا كنا الى عهد غير بعيد نعطي مسألة تقرب التراث من أذهان النشء أهمية وعناية أكبر مما نعطيها لها الآن ، وكانت كتب التراث المبسطة أو ( المهدبة ) توزع على طلاب المدارس في مرحلة التعليم الثانوي . وأفضل الأمثلة على ذلك كتابان كان لهما بغرضك شأن في تعريف الطلاب ببعض التراث العربي ، وكانا بداية لاثارة اهتمام الكثيرين بمتابعة الكتابات التراثية ، وأعني بهما كتاب ( مذهب رحلة ابن بطوطة ) بعد تنقيح الكتاب الأصلي من كثير من الشواثب والاطناب والتطويل الملل ، بحيث أصبحت قراءته متعة للكثيرين ، وكتاب ( كلية ودمية ) . بل الأكثر من ذلك أن بعض كتب التراث كانت تقرر على الطلاب في صورتها الأصلية بغير حذف أو تبسيط أو تعديل الا في أضيق الحدود ، ان كانت تناهوا يد التغيير على الإطلاق .

والمثل الذي يحضرني الآن هو كتاب قدامة بن جعفر ( نقد النثر ) الذي كان يقرأه طلاب السنوات الأخيرة من المرحلة الثانوية رغم صعوبته وعظمته . وما أظن أن الكثيرين من خريجي الجامعات العربية الآن ، بما في ذلك خريجو كليات الأداب ، قرأوا هذا الكتاب أو حتى سمعوا به وباسم صاحبه . وليس العيب في هذا الوضع هو عيب الأجيال الناشئة ، بقدر ما هو عيب نظام التعليم وفلسفته في الوقت الحالي ، والميل الغالب الى التبسيط والتسطيح . ولكن هذه مسألة أخرى ليس هنا مجال التعرض لها .

والمهم هنا هو أن الذي نفتقر اليه بحق هو العمل على نقل أو ( ترجمة ) التراث الى اللغة الحديثة السائدة بين أوساط المتعلمين كوسيلة أولى لتقريب التراث وإدخاله الى حياتنا الفكرية كي يصبح جزءاً عضواً من تفكيرنا ، وحتى يلتحم مع بقية مكونات الثقافة العربية المعاصرة بنفس المعنى الذي التحمت به الأعمال التراثية في الغرب بالثقافة العلمية الحديثة المتطورة .

وسوف يساعد ذلك بطريقة فعالة ومجدية على إحياء الأعمال التراثية الأصلية ذاتها . ولست أقصد بالأحياء هنا عملية النشر بعد تحقيق النص بالأسلوب التقليدي المتبع الآن ، وإنما المقصود بالأحياء هنا نفع الحياة من جديد في هذا التراث ، وبعثه من رقناته عن طريق تحديثه وإعادة النظر فيه ، في ضوء النظريات العلمية الحديثة ، سواء أكانت نظريات لغوية أم سيكولوجية أو اجتماعية أو اثربولوجية أو غير ذلك . وكما سبق أن ذكرنا فإن الأسلوب المتبع حتى الآن في تحقيق التراث ونشره ، يترك هذا التراث في آخر الأمر مادة ميتة خالية من الحياة بالنسبة لعامة المثقفين ، أو حتى خاصتهم من غير المتخصصين في شئون التراث ، لأنها تقنع بتقديمه في ضوء المعصر الذي ظهر فيه فحسب ، وبذلك يبدو جزءاً من ذلك الماضي الذي راح وانقضى ، ويظل بعيداً وغريباً عن الثقافة المعاصرة ، بل ومتعارضاً معها في كثير من الأحيان . وإذا كنا قد أشرنا الى بعض الجهود التي بذلت لتبسيط التراث ، وتقديمه لطلاب المدارس الثانوية في فترة

معينة من تاريخنا المعاصر ، فإن ثمة جهداً ينبغي الإشارة اليه والاشادة به لانه كان يحاول تقريب هذا التراث للغاريء المتشكك في العالم العربي ، ولكنه توقف هو أيضاً رغم ما حققه من نجاح . وأنا أعني بذلك الجهد المضني الذي بذل في اصدار مجلة ( تراث الانسانية ) التي كانت تنشر في مصر ، واستمرت في الصدور تسع سنوات ، وكان لي حظ الاشراف على تحريرها لفترة قصيرة ، قبل أن تعصف بها القرارات غير المدروسة والمتسارعة ، فتوقفت عن الصدور ، رغم ما كانت تؤديه من خدمات ممتازة في مجال التعريف بالتراث . فقد كانت المجلة تعني بتقديم أهميات الكتب التراثية العالمية ( وليس فقط كتب التراث العربي الاسلامي ) ، وتعرف بهذه الكتب وتقدم ملخصات وافية لمحتواها ، والعصر الذي ظهرت فيه ، وحياتة أصحابها ، ومقتطفات منها ، والأثر الذي تركته . وربما كان أهم نقطة عرضت لها بعض الكتابات التي ظهرت في هذه المجلة ، هو الاهتمام بابرار المنهج الذي اتبع في تلك الأعمال ، والموقف المنهجي والنظري لأصحابها . فهذه ناحية هامة وجوهية . بغير شك ، كما أنها هي الناحية التي تتعدى وتنخطى كل حدود الزمان والمكان . وإذا كان هناك من يرفض الاهتمام بأعمال التراث ، على أساس أن المادة التراثية تنتمي الى عصور غير عصرنا ، فليس هناك من يستطيع أن يرفض المشكلات والمواقف المنهجية ، التي تكشف عن التوجه العقلي ، أو الموقف الذهني الذي يصدر عنه الكاتب في كتاباته .

فكان الذي يهم في المحل الأول في دراسة التراث ومحاولة احياؤه والاهتمام به ، ليس هو المادة التي تضمها الأعمال التراثية وإنما المبادئ العقلية وقوانين الفكر التي كانت تحكم تفكير المفكرين والكتاب والعلماء والأدباء الذين تركوا لنا هذا التراث الضخم ، والأسلوب الذي كانوا يتبعونه في تأليف والدراسة والتحليل ، والمناهج التي كانوا يصيدرون عنها ، والتي كانت توجه دراستهم وبحوثهم ، على اعتبار أن المنهج هو في جوهره موقف عقلي يفقه الباحث ، ويتمسك به في نظريته الى الأشياء . فالذي يبقى من كل النتائج الفكرية بعد أن تزول أهمية وجدة المادة ، هو المنهج والطرائق والمعايير التي كان يتمسك بها أصحاب تلك الكتابات ، وربما كان ذلك أوضح في الأعمال التراثية العلمية منه في الكتابات التي تدور حول الموضوعات الانسانية ، من أدبية وفلسفية واجتماعية . فالمادة العلمية في كتب التراث لم تعد تتلاءم بغير شك مع العصر الحديث ، بعد كل ما أحرزه العلم من تقدم ، ومع ذلك فإن هذه الكتابات العلمية ذاتها تكشف لنا بغير شك عن نوع التفكير الذي كان يسود في العصر الذي تنتمي اليه ، والاهتمامات التي كانت تشغل بال العلماء وتستقطب جهودهم ، كما أنه تكشف لنا عن مدى ما تحقق من تقدم علمي في عصر معين من العصور . والأهم من هذا كله هو أنها تكشف لنا عن القيود والضوابط والمبادئ والمعايير التي كانت تحكم عملية التفكير والبحث العلمي . وهذه أمور أكثر بقاء واستمرارية ويمكن أن تكون جزءاً من موقفنا نحن الآن في نظرتنا الى الأشياء ، وذلك لو أمكن لنا دراسة هذه الأعمال التراثية من هذه الزاوية بالذات . فمسألة المنهج في الكتابات التراثية اذن مسألة محورية وتستحق أن تعطي ما هي جديرة به من عناية واهتمام .

وثمة ناحية أخرى قلما نلفت اليها في دراستنا للأعمال التراثية ، وإن لم تغب عن أذهان بعض المستشرقين والمهتمين بالتراث العربي والاسلامي من الأجانب ، واعني بذلك اخضاع بعض القضايا والأحكام الواردة في كتب التراث للفحص والاختبار ، ليس في ضوء الظروف التي أنتجتها ، ولكن في ضوء المعطيات والأوضاع الراهنة التي تسود الآن في

المجتمع العربي ، أو حتى في غيره من المجتمعات التقليدية ، بحيث تعتبر هذه القضايا والأسكام بمثابة الفروض التي يراد اختيار مدى صحتها ، بالرجوع إلى ملابسات وشروط جديدة . والمثال الذي أحب أن أشير إليه هنا لتوضيح ما أريد أن أقول ، هو مبدأ « العصبية » كما عرضه ابن خلدون في « المقدمة » فنحن نعرف أن كثيراً من علمائنا ومفكرينا درسوا « المقدمة » وظهرت حولها كتابات عديدة ، تتفاوت فيها بينها تفانواً شديداً في درجة العمق ، والقدرة على التحليل ، والقاء الضوء على آراء ابن خلدون ، أو مجرد العرض السريع الفحل والتلخيص المبسّر وتريد آراء ابن خلدون بعد صياغتها في عبارات أخرى كثيراً ما تكون أقل دقة واحكاماً من عبارات ابن خلدون نفسه . وهذا لا ينفي طبيعة الحال وجود عدد قليل من الكتابات الممتازة عن ابن خلدون ، ومقدمته وآرائه ونظرياته ، كما لا ينكر وجود دراسات أخرى تناقش هذه الآراء بالإشارة إلى بعض النظريات الاجتماعية الجديدة . فهذه كلها اسهامات تستحق الاحترام والاعجاب . ولكن ما أقصده هنا هو أن مبدأ العصبية عند ابن خلدون يستحق أن يعرض له بعض الباحثين العرب بالمناقشة ، في ضوء المادة الاثنوجرافية التي يتم جمعها من المجتمعات القبلية القائمة الآن في الوطن العربي ، فمثل هذا العمل خليل بأن يبين لنا في آخر الأمر مدى دقة نظرية ابن خلدون ، ومطابقتها للواقع ، وصلاحياتها لفهم وتفسير أحد أشكال التنظيم الاجتماعي في المجتمع العربي المعاصر . والمعروف أن نظرية ابن خلدون قد أثارت خيلة عالم اللاهوت ، المستشرق الشهير « ويليام روبرتسون سميت » وأنه استرشد بها في دراسته لنظام القرابة في بلاد العرب القديمة . وهو كتاب أثار بدوره خيلة عالم الاثنوبولوجيا البريطاني الشهير « إيفانز بريشارد » فاستعان بهذه النظرية ذاتها في دراسته لنظام القرابة لدى قبائل النوير في جنوب السودان ، وإلى حد أقل في دراسته الرائعة العميقة عن التنظيم الاجتماعي والقبلي في برقة ( ليبيا ) ، وذلك في كتابه الشهير عن ( The Sanusi of Cyrenaica ) وقد أوحى هذه النظرية لإيفانز بريشارد بالخروج علينا بمبدأ هام ، يفسر في ضوءه نسق القرابة والنسق السياسي في هذين المجتمعين ، وهو المبدأ الذي يعرف الآن في كل الكتابات الاثنوبولوجية المعاصرة باسم « الانشقاق والانقسام » . فهذا مجال طيب اذن لما يكن أن نفعله في مجال الاهتمام بالتراث العربي الضخم ، والعمل على إحيائه ، وتطويره لمطلوبات العصر والظروف القائمة الآن ، بدلاً من الاكتفاء بتحقيقه ونشره وتلخيصه وربطه طيلة الوقت بالعصر الذي أنتجه ، وبالتالي تقييده وتكبيله بقيود الماضي ومنعه من الانطلاق والتحليق (\*) .



ولقد كانت الفلسفة التي تكمن وراء هذا العدد الذي بأيدي القراء هي أن يقوم الأساتذة الباحثون بمحاولات رائدة في مجال إعادة النظر في بعض الكتابات التراثية ، وقراءة هذه الأعمال قراءة جديدة لا تقتنع بالتلخيص ، وأمثال ترمي في المحل الأول إلى تقديم هذه الأعمال في ضوء العصر الذي نعيش فيه ، مع الاهتمام بوجه خاص بالتواحي المتجددة .

( \* ) سبق لي أن افترضت هذا الموضوع على بعض الزملاء من أساتذة الاثنوبولوجيا في بعض الجامعات العربية ، عل أنبل أن يهتم واحد منهم أو أكثر ليس فقط بدراسة مبدأ العصبية ، وإسهام كل من روبرتسون سميت ، وإيفانز بريشارد وتلايها في فهم ابن خلدون ، وإنما القيام بمثل هذه الدراسات من وجهة نظر عربية من ناحية ، ومحاولة البحث من بعض الجاهلي، النظرية في كتب التراث الأخرى ، التي تصلح لأن تكون فرضاً موجهة لبحث أصلية جديدة ، مما يؤدي إلى ارتباط الماضي بالحاضر ، وبالتالي استمرار التراث في الكتابات المعاصرة . ولما ما يشير إلى استجابة البعض لذلك ، وقرب ظهور عدد من الدراسات في هذا المجال المحسب .

ولقد ركزنا في طلبنا اليهم جميعاً على ضرورة إبراز هذه النواحي ، باعتبارها الجانب الأكثر رسوخاً واستمراراً ، والتي يمكن أن توجه البحوث التراثية في المستقبل . وهذه على أية حال بداية لجهود طويلة ، نرجو أن نستمر فيها ، على أمل أن يؤدي ذلك الى الوصول الى نظرة متكاملة الى مناهج البحث في الأعمال التراثية ، والمبادئ العقلية التي كانت تحكم هذه الأعمال ، ومدى امكان الاستعانة بهذه المناهج والمبادئ في إقامة فكر عربي جديد ، يسترشد بجهود المفكرين السابقين مثلما يسترشد بالفكر الغربي المعاصر .

د. أحمد أبو زيد





### التمهيد :

#### حول المقدمة والتاريخ :

قد يظهر لأول وهلة أن اختيار ابن خلدون كمؤرخ ،  
والتعرض لكتابه العبر ، أمر مستغرب . فابن خلدون  
أشهر من أن يعرف ، وكتابه غلب على غيره من كتب  
التاريخ الاسلامي في المشرق وفي المغرب .

وإذا كان من المعروف ان الباحثين المحدثين كرسوا  
لدراسة ابن خلدون وكتاب العبر العديد من الأبحاث ،  
مما لم يحظ بمثله غيره من علماء العرب ومفكري  
الاسلام ، فانه من المعروف ايضا أن الجزء الأول من  
العبر ، الذي اشتهر باسم « مقدمة ابن خلدون » هو  
الذي أذاع صيت المؤرخ المغربي الكبير ، ورفعته - كما  
أراد الكثيرون بحق - الى مصاف الفلاسفة وكبار  
المفكرين .

والحقيقة ان الكتاب الأوروبيين بدأوا الاهتمام جددا  
بدراسة ابن خلدون منذ النصف الثاني من القرن التاسع  
عشر ، بعد أن قام دسلان (De Slane) ، الذي كان  
قد شغل منصب المترجم الرسمي للجيش الفرنسي في  
الجزائر قبل ان يصبح عضوا بالمجمع الفرنسي ، بترجمة  
الاقسام الخاصة بتاريخ البربر من كتاب العبر الى  
الفرنسية ، ثم بترجمة الجزء الأول من الكتاب الى  
الفرنسية تحت عنوان « مقدمات ابن خلدون » Les  
Prolegomenes . فكان الأوروبيين هم الذين  
أطلقوا اسم المقدمة أو المقدمات على الجزء الأول  
من تاريخ العبر . إذ أن ابن خلدون يسمى هذا الجزء  
من كتابه ب : « الكتاب الأول » في : « طبعة المعمران في

## ابن خلدون مؤرخاً تأريخ العرب والبربر في كتاب العبر

سعد زغلول عبد الحميد

قسم التاريخ - كلية الآداب - جامعة الكويت

الخليقة ، وما يعرض من البدو والحضر ، والتغلب والكسب والمعاش والصنائع والعلوم ونحوها وبهذا كانت من العلل والأسباب»<sup>(١)</sup> .

والصحيح ان لتاريخ ابن خلدون مقدمتين : أولاهما لا تحمل عنوانا ، وهي خطبة الكتاب في ٤ صفحات ٢١ - ٧ ، وتبدأ بالحمدلة والتصلة . أما البعدية فهي في التعريف بقن التاريخ ، موضوع الكتاب ، الذي يسمى « كتاب العرب ، وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأديب » ، ويرتب الكتاب على :

- مقدمة : في فضل علم التاريخ

- ثم ثلاثة كتب : - الأول في العمران

- الثاني في اخبار العرب

- الثالث في اخبار البربر

وهو يشير بعد ذلك الى انه انتهر فرصة الرحلة الى المشرق من اجل تكملة الكتاب فيها يتعلق بتاريخ المشرق ودول العجم هناك . ويختتم ابن خلدون خطبة الكتاب هذه بالإشارة الى عنايته بأولية الأجيال والدول ، واسباب التصرف والحول ، وما يعرض في العمران من بدو وحضر مع ايضاح البراهين والعلل . وهو يعرف قيمة كتابه بفضل علومه الغربية ، ويهدي نسخته الى السلطان ابي فارس عبدالعزيز ( ابن السلطان ابي الحسن ) المريني ، ليوقف على خزائنه طلبة العلم المرينية بجامع القرويين بفاس .

أما مقدمة الكتاب كما ألفها ابن خلدون فتقع في حوالي ٢٢ صفحة من طبعة بولاق ( ٧ - ٢٨ ) وهي تحمل عنوان : « فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه ، والاماع لما يعرض للمؤرخين من المغالط والأوهام وذكر شيء من أسبابها » . وهي مع الخطبة الأولى تكوينان موضوعا واحدا في علم التاريخ ، وتعتبران جميعا مقدمة الكتاب . وهكذا لا يخرج ابن خلدون في كتابة مقدمة كتابه التاريخي على ما كان متعارفا عليه ، عند من سبقه من كتاب العرب والمسلمين ، من مؤرخين وغيرهم . فهو يكتب مقدمة في عدد قليل من الصفحات بغرض بيان اهداف الكتاب ، من : التعريف بالعلم الذي يعالجه ، والمنهج الذي يتبعه في التأليف والمظان التي يرجع اليها ، الى جانب ما يرحي من انتهاز سبيل الحق والعدل - غرض كل بحث علمي .

### المقدمة في التاريخ :

يعرف ابن خلدون التاريخ في المقدمة بأنه « فن عزيز المذهب ، جم الفوائد ، شريف الغاية ( ج ١ ص ٧ ) ، وهو ينص قبل ذلك في الخطبة ( ج ١ ص ٣ ) ، على انه علم من النوع السهل المنتع ، كما نقول الآن ، اذ : « يتسأوى في

( ١ ) انظر طبعة بولاق ١٨٨٢ ، وهي الصورة في ط . بيروت باسم منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، ١٣٩١ - ١٩٧١ م ، والنص في ٣٤ ص بضاف اليها الفهرسة في ص ١١

فهمه العلماء والجهال « فهو علم له « ظاهر » و « باطن » . والظاهر هو الشكل الخارجي الممثل في الأحداث او الاخبار التاريخية في تسلسلها الزمني المعروف . اما الباطن فهو يعني كنه العملية التاريخية من حيث النظر في اسباب الوقائع وتحقيق عللها وبيان العلاقة بين المقدمات والنتائج في مسار الحوادث . ولكل ذلك فالتاريخ ، كما يراه : « اصيل في الحكمة عريق ، وجدير بأن يعد في علومها وخلقها » . بمعنى ان التاريخ علم عقلي بدلا من تصنيفه بين العلوم النقلية .

ومجرد النقل ، دونما تحقيق وتدقيق ، مرفوض في التاريخ ، فهو السبب الأول لما يقع فيه الناقلون من المغالط . والتاريخ محتاج الى معارف مساندة متنوعة ، من : « قواعد السياسة وطبيعة العمران ، والأحوال في الاجتماع الانساني » الى جانب قياس الحاضر بالماضي وعكس ذلك من قياس الماضي بالحاضر ( ج ١ ص ٧ ، ص ٢٣ ) .

وهو يفرق بين « فحول المؤرخين » في الاسلام وبين الأدعياء المتطفلين ، ويضع في طبقة الكبار : ابن اسحق ، والطبري وابن الكلبي والواقدي ، والمسعودي ( ج ١ ص ٣ ) ، وهؤلاء هم اصحاب التاريخ العام . اما اصحاب التواريخ المحلية من الكبار ، فمنهم ابن حيان مؤرخ الاندلس والدولة الاموية بها ، والرقيق مؤرخ افرقية والدول التي كانت بالقيروان<sup>(٢)</sup>

ويأتي بعد الطبقة الأولى من المؤرخين ، طبقة ثانية من المقلدين الذين يوصفون ببلادة الطبع والعقل ، فيكتفون باحتذاء المثال ، ويكررون في موضوعاتهم الأخبار المتداولة بأعيانها لا يذكرون اسباب نشوء الدول وتطورها ، ولا يعرفون علة الوقوف عند غايتها ( ج ١ ص ٤ ) .

ويصف ابن خلدون طبقة ثالثة من صغار المؤرخين الذين افرطوا في الاختصار ، فاكتفوا في تقليدهم بأسماء الملوك ، وعدد ايام ملكهم ، دونما اشارة الى الانساب ( ج ١ ص ٤ ) والانساب كانت مهمة في القديم من اجل معرفة العائلات المالكة ، والاسر الوزارية واصول اصحاب الوظائف العامة ( ج ١ ص ٢٦ ) . وهو يعطي نموذجاً لهذا النوع من التاريخ هو كتاب ابن رشيح القيرواني ، الموسوم بـ « ميزان العمل » ( ج ١ ص ٤ ) .

وهو يضيف بعد هؤلاء طبقة رابعة فمن يسميهم بالعوام ، ومن لا رسوخ لهم في المعارف وهم الذين استخفوا مطالعة التاريخ وحمله ، والحوض فيه والتطفل عليه ، فاختلط اللباب بالقشر ، والصادق بالكاذب ( ج ١ ص ٢٣ ) .

#### نقد طبقة الكبار من الفحول :

ولكن تصنيف مؤرخي الاسلام في طبقات اشبه بطبقات الخاصة والعوام والجماهير في المجتمع لا يعني وجود فواصل دقيقة بينهم ، أو ان طبقة الخاصة منهم كانت فوق مستوى نقد مؤرخنا الذي جعل التاريخ في مصاف العلوم الحكمية اي العقلانية الراقية .

(٢) العبر ، ج ١ ص ٤ - في الأصل : أبو حيان ، و « ابن الرقيق » .

فالمسعودي الذي وضعه في قمة الكبار من الفحول ، وجعله النموذج الذي احتذاه في موسوعته من اتي بعده فنحا منحا (ج ٤ ص ٤) ، وكذلك الواقدي لا تسلم كتبها ( من الطعن والمخمز ما هو معروف عند الالباب ، ومشهور بين الحفظة الثقات ) ورغم ذلك « فان الكافة اختصتهم بقبول اخبارهم ، واقتفاء سننهم في التصنيف واتباع آثارهم » . وهنا ينص على أن « الناقد البصير قسطاس نفسه ، في تزييفهم فيما ينقلون او اعتبارهم . فللمعمران طبائع في احواله ترجع اليها الاخبار ، وتحمل عليها الروايات والآثار » (ج ١ ص ٣) .

وهو عندما ينتقل في مجال النقد التاريخي من التعميم الى التخصيص ، ينكر على المسعودي اكثر من رواية وهمية ومغلوبة ، مما يتعلق بالتاريخ القديم او تاريخ الرسل وما يخص بتاريخ الخلفاء . وفي الرواية الاولى ينتقد الوهم في احصاء اعداد المساكين حيث اخذ المسعودي بالرواية التي تقول ان جيوش بني اسرائيل التي احصاها موسى ( عم ) بلغت ٦٠٠ الف رجل او اكثر (٣) والثانية متعلقة بالروايات الاسطورية التي تريد ان يكون ملوك اليمن القدماء ( التابعة ) قد غزوا افريقية وبلاد المغرب ، وان ملكهم افرقيش هو الذي سمي اهل المغرب باسم البربر ، وان قبائل صنهاجة وكنانة حفدة الحميريين من اليمنية . وهي الرواية التي اخذ بها كل من الطبري والجرجاني وابن الكلبي - الامر الذي يباه به بحق نسبة البربر (٤) .

وابن خلدون ينكر ايضا ان تكون قصة زواج العباسة اخت الرشيد بجعفر بن يحيى هي السبب في نكبة البرامكة ، ويأبى على العباسة ان « تدنس شرفها العربي بمولى من موالي العجم » كما يتساءل : « وكيف يسوغ من الرشيد ان يصهر الى موالي الاعاجم على بعد مهنته وعظم آباءه » . وهنا يطبق ابن خلدون نظريته في قياس الماضي بالحاضر او الغائب بالشاهد فيقول :

« ولو نظر المتأمل في ذلك نظر المصنف وقاس العباسة بابنة ملك من عظماء ملوك زناتة لاستكتف لها عن مثله مع مولى من موالي دولتها . وفي سلطان قومها ، واستكره ولج في تكذيبه » . وهو يقدم اثر ذلك الاسباب المنطقية للنكبة ، مما يتمثل في استبداد البرامكة بالدولة (ج ١ ص ١٣) ، وهو ما اخذ به ابن عبد ربه (ج ١ ص ١٤) .

أما ما عمو به الحكاية من معاقرة الرشيد للخمر ، فمرمودة عليه بما يشهد به الطبري له من الدين والعدالة ، وصحابة العلماء والعبادة (ج ١ ص ١٤) والمعروف ان الرشيد كان يمتنع الخمر ، وان كان يشرب النبيذ ( نبيذ التمر ) على مذهب اهل العراق (ج ١ ص ١٥) .

وقصة ابن عبد ربه التي تحكي عن زواج الخليفة المأمون ببوران ابنة الحسن بن سهل الر مغامرة قصصية مثيرة ، صعد فيها الخليفة الى سطوح بعض الدور العالية في زنبيل مدلي بمعالق وجدائل من الحرير ، مرفوضة هي الاخرى بالنسبة للخليفة الذي عرف بدينه وعلمه وكذلك بالنسبة لمنصب ابنة الحسن بن سهل وشرفها (ج ١ ص ١٧) .

(٣) وهو يند صيغة الرقيم من طريق عدم إمكانية ادارة مثل العدد في صفوف منتظمة في ميدان القتال ، وكذلك من طريق لغارة جيوش فارس في القديم وعند الفتح العربي حيث لم يزيدوا في الغامضة من ٦٠ ألفا أو ١٢٠ ألفا عند الكثرين ( انظر لاج ١ ص ٨ ، كما ثبت في الاسراليات ان جنود سليمان كانت ١٢ ألفا ( انظر لاج ١ ص ٩) .

(٤) ج ١ ص ٩ ، وانظر كذلك ص ١٠ حيث الاشارة الى أن ملوك اليمن غزوا المغرب وكذلك الشرق حتى بلاد الصين والروم حتى الفسطاطية ، وحيث يقول : وهذه الاعبار كلها بعيدة من الصحة ، فريقة في الوهم والغلط ، وأتبعه بأحداث القصص الموضوح .

وابن خلدون يعارض بعد ذلك من ينفي نسب الفاطميين ، ويستدل على صحة النسب بنجاح الدعوة . فكأنه يأخذ بالمبدأ القانوني الذي يقول بطلان كل ما بني على باطل . ويدلل على صحة هذه المقالة بما حدث للفرامطة الذين تلاشت دعوتهم بعد ظهورها بصفتهم ادعاء في النسب الشريف (ج ١ ص ١٨) أما عن موقف العباسيين من الفاطميين وانكارهم لنسبهم ، فأسبابه الأحقاد السياسية .

وهنا يشير ابن خلدون الى واحدة من نظرياته في السياسة فيقول « ان الدولة والسلطان سوق للعالم تجلب اليه بضائع العلوم والصنائع ... وتحدي اليه ركائب الروايات والاختيار وما تنفق فيه نفق عند الكافة . فان تنزهت الدولة عن التعسف والميل والأفن ... ولم تجر عن قصد السبيل نفق في سوقها الا بيزير الخالص واللجين المصفى وان ذهبت مع الاغراض والحقوق ، وماجت بسماسة البغي وألباطل نفق البهرج والزائف » وهو يتبع ذلك ببلدته النقدي الذي يقول : « والنقاد البصير قسطاس نظره ، ويميزان بحثه وملتمسه » (ج ١ ص ١٩) .

وابن خلدون عندما يدافع بعد ذلك عن صحة نسب الادارسة الشرفاء ، يجنح بعض الشيء عن قواعد النقد التي يقررها فالى جانب ما يدل به على صحة النسب ، من ظهور احوال البادية ، وعداء الدولة العباسية ، يقف بقوة الى جانب تنزيه اهل البيت ، وان فراش ادريس طاهر من الدنس ومنزه عن الرجس بحكم القرآن ، ومن اعتقد خلاف هذا فقد باء باثمه وولج الكفر من بابه .

وهو يفسر اطنابه في الدفاع عن الادارسة بسبب ما سمعه بنفسه من بعض القادحين في نسبهم افتراء ، على زعم انه ينقله عن بعض مؤرخي المغرب عن انحرف عن اهل البيت . ويختم ذلك قائلًا : « ونفي العيب حيث يستحيل العيب عيب ، لكني جادلت عنهم في الحياة الدنيا ، وارجو ان يجادلوا عني يوم القيامة » (ج ١ ص ٢١) . وهنا يخرج ابن خلدون عن موضوعه وعقلانيته في سبيل التشيع للادارسة - ملوك المغرب - وحسب آل البيت .

وهو بعد ذلك يدافع عن صحة نسب المهدي محمد بن تومرت صاحب الدعوة الموحدية ضد خصومه من ضعفه الرأي من فقهاء المغرب وقتئذ ، ويستند في تأييد صحة نسب الى نجاح دعوته ، فكأنه يقرر مبدأ في طبيعة الاشياء من حيث ضرورة : كون النتائج من جنس المقدمات . هذا ، وان عاد واكد ان سبب نجاح ابن تومرت هو الاستناد الى العصية في قبائل مصمودة لان النسب الفاطمي كان خفياً قد درس عند الناس ، وبقي عنده وعند عشيرته ، يتناقلونه فيها بينهم . فان ابن تومرت انسلخ من نسبه الاول ( الفاطمي ) « وليس جلدة هؤلاء ( المصامدة ) وظهر فيها ، فلا يضره الانتساب الاول في عصيته اذ هو مجهول عند اهل العصاة » ، وهو الأمر الذي له نظائر عند العرب (ج ١ ص ٢٣) .

#### نظرية التطور « تبدل الأحوال » :

وبعد ايراد تلك الأمثلة من مغالط المؤرخين يعود ابن خلدون مرة اخرى الى اسباب الخلط عندهم ، والعلوم التي يحتاج اليها المؤرخ ، واصول النقد التاريخي مما سبقت الاشارة اليه ، وكل ذلك كتمهيد لاهم نظرياته التاريخية ، وهي نظرية التطور التي يسميها بـ « تبدل الاحوال » .

والحقيقة ان ملاحظة التطور في المجتمع هي اهم اهداف المؤرخ ، فهي التي تميز بين التاريخ في شكله التقليدي القديم الذي يعني تسجيل الاحداث ، كما وقعت ، بمعنى الاخبار وبين التاريخ كعلم يعني بشرح اسباب الاحداث وبيان اولياتها . فكان التاريخ له وجهان كما يقال عن العملة وهما : الظاهر والباطن عند ابن خلدون . والظاهر هو القشر او الزيد الطائي على السطح ، والباطن هو اللب او القاع من البحر حيث الجوهر .

وفي التطور يقول « ان احوال العالم والامم وعوائلهم ونحلهم لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر ، انما هو اختلاف على الالام والازمنة ، وانتقال من حال الى حال ، وكما يكون ذلك في الاشخاص والاوقات والامصار ، فكذلك يقع في الافاق والاقطار والازمنة والدول سنة الله التي قد خلت في عبادته » ( ج ١ ص ٢٤ ) ويلاحظ ابن خلدون ان هذا التطور يكون بطيئا فلا تظهر علاماته بشكل واضح الا على المدى الطويل ، وهكذا لا يتفطن اى تلك الحركة الخفية الا « آحاد من اهل الخليقة » اى الموهوبين من اهل البصر والبصيرة ، كما نرى .

وهو يجعل هذا التبدل في الاحوال السبب الحقيقي في تقلب الامم والدول على مر العصور ، من : الفرس والسرانيين والنبط والتابعة وبنى اسرائيل والقطب من العصور القديمة المبكرة ، ثم تبدلت الاحوال فجاء الفرس ثانية والروم والعرب في العصور القديمة المتأخرة ، الى ان جاء الاسلام بدولة العرب ( مضر ) ، فانقلبت تلك الاحوال اجمع انقلابة اخرى ، وصارت الى ما اكثره متعارف لهذا العهد ، ياخذ الخلف عن السلف ، ثم درست دولة العرب . . . وصار الامر في ايدي سواهم من العجم ، مثل : الترك بالشرق والبربر بالغرب ، والفرنجة بالشمال ، فذهبت بذهابهم اعم ، وانقلبت احوال وعوائد نسي شأنها وأغفل امرها » ( ج ١ ص ٢٤ ) .

والرأي في المسار الخفي الذي يسلكه التطور ، والذي يؤدي ما بين دهر وآخر الى ذلك الانقلاب الذي يؤدي بأمم ودول ويحسم امما ودولا غيرها ، انه يسير في دوائر يرتفع من اسفل الى اعل في دور الرقي الذي يكون بطيئا ، ليشهي من اعل الى اسفل في شكل نقلة سريعة ، هي : ذلك الانقلاب الذي يمثل تمام التبدل . ويمكن لنا ان نتصور مسار التطور في نظرية ابن خلدون تلك ، بمسار سلك حلزوني الشكل ، مشدود افقيا بين قطبين فكان الاحداث التاريخية تسير اماما وفي شكل دوائر مترابطة فيما بينها ، تعلو وتهبط عبر الزمن ، حسبما تقتضي الاحوال .

أما عن أسباب التبدل الرئيسية فتتمثل بشكل اساسي فيما يطرأ على اصحاب الدول الجديدة من التغير ، عندما يأخذون في التحول عن اسلوب حياتهم المعتادة ، عن طريق النقل عمن كان قبلهم من اهل الدول السابقة ، فنقلدهم رعيتهم وذلك حسبما هو معروف في الامثال الحكمية ، من ان الناس على دين ملوكهم . فعن طريق التقليد والمحاكاة يتم التبدل والتغير ، ويتحول مسار الاحوال الى غير طريقها المرسوم اولا ، وغالبا ما يذهل الناس عن مراقبة هذا التحول ، فلا يلاحظه الا اللماح القطن .

ومن هذا المدخل يعرف ابن خلدون بما طرأ من التبدل على بعض الوظائف الهامة في دولة الاسلام ، مما يعالجه بالتفصيل في الكتاب الاول الخاص بالعمران ، مثل : التعليم والقضاء .

والذي دعاه الى ضرب المثل بالتعليم ، هو ما كان يقال من ان والد الحجاج كان معلماً بينما كان التعليم على ايامه هو ، في القرن الثامن الهجري ، من حرف المستضعفين من الناس الذين لا يحق لهم التطلع الى الترتب الرئاسية العليا التي ليسوا اهلها ، خشية وقوعهم في المهالك و لانقطاع الجدم او العصية ، اما التعليم في صدر الاسلام فكان من مسؤوليات العرب ، اصحاب الدولة من اهل الانساب والعصية ، الذين كانوا يقومون بنشر تعاليم الاسلام على سبيل « التبليغ الخبري لا على وجه التعليم الصناعي » (ج ١ ص ٢٥) كما آل اليه الحال فيما بعد .

والذي لم يقله ابن خلدون هنا ، هو : ان عديداً من كبار الثوار في دولة الاسلام اتخذوا مهنة التعليم ستاراً لهم ، ونجحوا بفضلها في جمع الانتصار حولهم ، وتآلف جماهير الناس ضد حكامهم . وأهم الأمثلة على ذلك ثلاثة عرفتهم الدولة الفاطمية ، أولهم : ابو عبدالله الشيعي ، الذي وقع على عاتقه اقامة الدولة الفاطمية في المغرب ( سنة ٢٩٦هـ / ٩٠٩م ، وثانيهم : الثائر الزناتي أبو يزيد المعروف بصاحب الحمار الذي ثار على القائم في المهديّة ( سنة ٣٣٣هـ / ٩٤٤م ) ، وثالثهم : أبو ركوة الأموي الذي ثار في برقة على أيام الخليفة الحاكم ، والذي هدد القوات الفاطمية في مصر ( سنة ٣٩٧هـ / ١٠٠٧م ) . كل هؤلاء اتخذوا مهنة التعليم مع قيامهم بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر ستاراً لثوراتهم . واطن ان هذه الأمثلة - الى جانب مثال المهدي ابن تومرت ، صاحب دولة الموحدين - هي التي كانت تشجع بعض سمتهي التعليم الى التطلع الى العمل السياسي الذي حذرهم ابن خلدون من مغبة الطمع فيه لعدم الاهلية .

ومثل هذا ما يقوله عن وظيفة القضاء قديماً حيث كانت الرياسة لبعض القضاة ، بل وقيادة الجيوش ايضاً ، وان احوال بيان ذلك الى فصل القضية من الكتاب الأول و (ج ١ ص ٢٥) مع النص على أنّ القضاء في القديم كان « لأهل العصية من قبيل الدولة ومواليها » كما هي الوزارة بالمغرب على ايامه في اواخر القرن الثامن الهجري (ج ١ ص ٢٦) .

#### انقلاب اواخر القرن الثامن الهجري (١٤م) :

ويغتم صاحب العبر مقدمته التاريخية بالعودة الى تعريف التاريخ ، في معناه الضيق بانه الاخبار المتعلقة بعصر او بجيل في رقعة مكانية محددة ، فكانه تسجيل للأحداث وذلك في مقابل التاريخ بمعناه الواسع الذي يعني بالترفع على الاحوال العامة مما يتعلق بالاقاليم العريضة على طول الحقب الزمنية الممتدة . فذلك هو الاصل الذي يتمتع المؤرخ في شرح اخباره والغرض النهائي الذي يهدف اليه في التأليف ( انظر العبر ج ١ ص ٢٧ ) .

#### المسعودي إماماً للمؤرخين :

وأهم من حقق مثل هذا هو المسعودي في كتابه مروج الذهب الذي ألفه حوالي سنة ٣٣٠هـ / ٩١٢م . فلقد شرح فيه أحوال الأمم والأقاليم شرقاً وغرباً ، « فذكر نحلهم وعوائلهم ووصف البلدان والجبال والممالك والدول ، وفرق بين شعوب العرب والعجم ، فصار اماماً للمؤرخين يرجعون اليه ، وأصلاً يعولون في تحقيق الكثير من أخبارهم عليه ( العبر ج ١ ص ٢٧ ) .

فكان إبداع المسعودي الذي جعل منه اماماً للمؤرخين في نظر ابن خلدون يتلخص في امرين اولهما : رؤية واسعة ( بانورامية ) الى التاريخ ، تخرج به من دائرة الأخبار المروية في سير الرجال الى تتبع احوال الشعوب والامم ، في مجالاتها الرحبة ، مما يتناول الاجتماع والعقائد والاقتصاد وغيرها . أما ثانيهما : فيتمثل في رؤيته النفاذة في التفرقة بين الشعوب الاسلامية في المشرق ، ما بين عرب وعجم ، بمعنى ختام حلقة جديدة في دور التطور . ففي ذلك الوقت - عندما كان يكتب المسعودي حوالي منتصف القرن الرابع الهجري - كانت الخلافة العباسية قد اضمحلت بعد ظهور وظيفة امير الامراء التركي ، كما كانت دولة العرب قد دالت تماماً في المشرق ، بقيام دول اعجمية ، من : فارسية وتركية . فكان المسعودي هو صاحب الفضل في تسجيل عملية التجدد التي تمت على ايامه ، والتي تغيرت فيها الاحوال فكانها خلقت خلقاً جديداً .

والذي لم يقله ابن خلدون هنا ، هو : ان اول من فطن حقيقة الى عملية تطور الاسلام في المشرق من دولة عربية الى دولة تركية اعجمية ، هو الجاحظ اديب العربية في كل عصر وزمان . فلقد سجل الجاحظ ملاحظات غريبة في شأن هذا التبدل ، في رسالته التي بعث بها الى الفتح بن خاقان - نديم المتوكل والمتوفي معه سنة ٢٤٧هـ / ١١ ديسمبر ٨٦١م - في فضائل الترك . فلقد لاحظ الجاحظ - دون غيره من المعاصرين - ما كان يطرأ على بنية الدولة الاسلامية من التغيير عند مقارنته بين العناصر التي تكونت منها جيوش الخلافة على ايامه ، من : الخراسانية والترك والعرب ، وغيرهم من عناصر المحاربين الذين عرفوا بالموالي والابناء . وكان تركيزه على الترك منهم بصفة خاصة ، وعلى صفاتهم القتالية<sup>(٥)</sup> .

أما عمن اقتدى بالمسعودي في منهجه التاريخي الجامع ، فهو البكري الأندلسي ( ت ٤٦٧هـ / ١٠٧٤م ) وخاصة في كتاب المسالك والممالك ، دون غيره ( العبر ، ج ١ ص ٢٧ ) فكان - تجربة البكري ، لم تنجح الا في مجال الجغرافية الوصفية ، وذلك انه لم تكن قد حدثت تطورات ذات بال مما سجله في كتبه التاريخية .

والمهم من كل ذلك هو ما يستشعره ابن خلدون من انه يعيش في المغرب فترة انقلاب تحتم دورة من دورات التجدد في تاريخ الدول ، مما يعني انهيار نظام قديم ايذاناً بقيام نظام جديد ، وذلك على ايامه في أواخر القرن الثامن الهجري ( ١٤م ) . فقد انقلبت احوال المغرب الذي نحن شاهده ، وتبدلت بالجملة . واعتاض من اجيال البربر ، اهله على القدم بمن طرأ فيه من لدن الملة الخامسة ، من اجيال العرب بما كسروهم وغلبيهم وانتزعوا منهم عامة الاوطان ، وشاركهم فيما بقي من البلدان للمكهم ، هذا ، الى ما نزل بالعمران شرقاً وغرباً في منتصف هذه الملة الثامنة ، من الطاعون الجارف الذي تحيف الامم وذهب بأهل الجليل ، وطوى كثيراً من محاسن العمران ومحامها ، وجاء للدول على حين هربها ، وبلغ الغاية من مداها ، ففلس من ظللها ، وفلس من حدها ، وأوهن من سلطاتها ، وتبداعت الى التلاشي والاضمحلال احوالها . وانتقص عمران الأرض بانتقاص البشر ، فخربت المصانع والمصانع ودرست السبل والمعالن ، ونحلت الديار والمنازل ، وضعفت الدول والقبائل ، وتبدل الساكن وكان في المشرق قد نزل به مثل ما نزل

(٥) انظر بحثنا في : الترك والاسلام في العصر الوسيط ، مجلة عالم الفكر ، المجلد ١٠ ، العدد ٢ ، ١٩٧٩ ، وخاصة من ٤٣٥ - ٤٣٦ .



بالمغرب ، لكن على نسبته ومقدار عمرانه . فكأنما نادى لسان الكون في العالم بالحمول والانتفاض فيأذر بالاجابة - والله وارث الارض ومن عليها .

واذا تبدلت الأحوال جملة ، فكأنما تبدل الخلق من أصله ، وتحول العالم بأسره ، وكأنه خلق جديد ، ونشأة مستأنفة ، وعالم محدث ( ج ١ ص ٢٧ ) .

فابن خلدون يسجل انه شاهد عيان لعملية تغير جذرية في تاريخ المغرب ، اعتبارا من منتصف القرن الـ ٨هـ / ١٤م . وأن هذه العملية تمثلت في فقدان دول البربر لما كان لها من السلطان بسبب القبائل العربية البدوية القاطنة في كل آفاق المغرب ، من بواديه وحواضره .

أما عن بدء مسار دورة التبدل هذه فيرجع الى منتصف القرن الخامس الهجري (١١م) حينما بدأت مسيرة قبائل بني هلال من صعيد مصر نحو بلاد القيروان على عهد المستنصر الفاطمي ووزيره اليازوري . فكانت الهجرة الهلالية العامل المحرك للعملية التاريخية التي اثارت الاضطراب السياسي وأودت بالازدهار الاقتصادي ، وقلبت عناصر البنية الاجتماعية رأسا على عقب ، فأدت الى التغير التام الذي عاشه ابن خلدون في منتصف القرن الـ ٨هـ / ١٤م .

فكان دورة التطور المغربية استغرقت ثلاثة قرون . وهي نفس المدة تقريبا التي استغرقتها دورة التبدل المشرقية الأولى التي لاحظها الجاحظ حوالي منتصف القرن الثالث الهجري (٩م) والتي سجل اكتمالها المسعودي في مروج الذهب ، بعد ذلك بقرن ، حوالي منتصف القرن الرابع الهجري (١٠م) .

وذروة التبدل الذي شاهده ابن خلدون تمثلت في الطاعون الجارف الذي اكتسح البلاد في وقت كان الاضمحلال قد بلغ غايته ، ففضى على الناس وحى معالم العمران ، وعلى الجملة قضى على كل مكونات البنية السياسية والاقتصادية والاجتماعية للبلاد .

وهو يرى أن موجة التغير هذه قد مرت ببلاد المشرق هي الأخرى ، وأن كان تأثيرها يظهر بشكل نسبي اقل وضوحا بسبب كثافة العمران هناك .

انه يرى ان ما أصاب العالم اشبه ما يكون بنوبة الخمود والانكماش التي تعرف في علم الحياة بمرحلة البيات الشتوي عند الحيوان ، والتي تنتهي بتحسن الأحوال الطبيعية وتجدد الحياة بشكل يوحى بميلاد جديد .

أما عن نعيه البلاد والعباد ، فانه يذكرنا بمقالة ابن الاثير - الذي نقل ابن خلدون الكثير عنه ، فيها تعلق بتاريخ المشرق ودوله - عندما بدأ في تسجيل غزوة جنكيز خان للمشرق الاسلامي على ايامه حيث اعلن انه يتردد كثيرا في

تسجيل الحادثة العظمى التي اعتبرها نعيًا للإسلام والمسلمين ، فقال « فيا ليت امي لم تلدني ، ويا ليتني مت قبل حدوثها ، وكنت نسيًا منسياً »<sup>(٦)</sup> ولقد أثبتت الأحداث أن الغزوة المغولية لم تكن شرًا مطلقًا ، إذا أنها أمدت الإسلام في المشرق بدماء تركية جديدة ، أعادت إليه الشباب والحياة ، وفتحت عن عصر جديد من النهضة على المستويات السياسية والحضارية والثقافية ، ما زالت آثارها باقية .

ومثل هذا ما لاحظته ابن خلدون حوالي منتصف القرن الـ ٨هـ / ١٤م ، من إمكانية تجديد بلاد المغرب وعودة الوحدة السياسية إليها والحياة العمرانية بفضل أعمال بعض كبار الرجال من مثال السلطان أبي الحسن المريني .

### ابن خلدون خليفة السعدي في إمامة التاريخ

والتنمؤج لمن يأتي بعده من المؤرخين :

ويحتم ابن خلدون المقدمة في علم التاريخ بأن العهد الذي يعيشه في حاجة إلى من « يدون أحوال الحليقة والأفاق واجيالها ، والموائد والنحل التي تبدلت لأهلها ، ويقفوا مسلك السعدي لعصره ، ليكون أصلاً يقتدى به من يأتي من المؤرخين من بعده » .

هذا ، ولو أنه يستدرك قائلاً أنه لن يعالج في كتابه إلا تاريخ القطر المغربي : « لاختصاص قصدي في التأليف بالمغرب وأحوال أجياله وأممه ، وذكر ممالكه ودوله ، دون ما سواه من الاقطار لعدم اطلاعي على أحوال المشرق وأممه ، وإن الأخبار المتناقلة لا توفي عنه ما أريده منه » .

وهو هنا رغم الحاجة إلى الاقتداء بالسعدي في كتابة تاريخ شامل لفترة زمنية عريضة وبشكل متكامل حتى يمكنه ملاحظة عملية التطور التاريخية التي عرفها بـ ( التبدل ) يرجع إلى قاعدة منهجية مضادة تتمثل في مبدأ التخصص ، أي الدراسة في العمق بدلاً من الاستعراض الأفقي ، وخاصة في الموضوعات المألوفة مما يتعلق بالتاريخ الوطني الذي تتوفر مصادره المباشرة ومن به حل هذا الأمر بالنسبة لتاريخ المغرب ، ابن الأثير في تاريخه الكامل ، حيث يقرن ما يقتبسه من المختصين في تاريخ المغرب مثل الرقيق القيرواني ، أو ابن رشتيق أو البكري بقوله : فهم أعلم ببلادهم أو : ورب البيت أدرى بما فيه<sup>(٧)</sup> .

وهو يحتاج للسعدي بأنه تمكن من استيفاء كتابه في التاريخ العام بفضل ما قام به من الرحلات البعيدة وتعرفه بنفسه على أحوال البلاد التي ذكرها في كتابه ، وإن كان قد قصر في استيفاء أحوال المغرب ( الذي لم يره ) .

(٦) انظر الكامل لابن الأثير ، أحداث سنة ٦١٧ هـ ، ج ١٢ ص ٣٥٨ ( ط . تور نيوج - العباد بيروت ١٩٧٩ )

(٧) انظر الكامل لابن الأثير ، أحداث سنة ٩٢ هـ ، ج ١ ص ٥٥٦ ( من فتح الأندلس )

وخلاصة القول في مقدمة كتاب العبر « في علم التاريخ » ان ابن خلدون عرض فيها بإيجاز كل نظرياته في علم التاريخ<sup>(٨)</sup>، من: التعريف به وبفوائده، ومناهج البحث فيه عن طريق النقد وأطراح النقل، ومعرفة العلل والأسباب، والألام بالنواميس الطبيعية من أجل قياس الحاضر بالماضي والماضي بالحاضر، وذلك في عملية تجعل من الماضي والحاضر والمستقبل نسيجاً واحداً، كما تجعل من التطور أس العملية التاريخية، ومن ادراك كنهه: الغرض النهائي الذي يقصد اليه المؤرخ من تأليفه.

هذا، كما عرض بسرعة في ثانيا علم التاريخ عددا من نظرياته في العمران وأشار الى بعض موضوعاته، مثل: العلم بقواعد السياسة وطبائع الموجودات، والعصبية، والتعليم والقضاء عما عالج به بتفصيل في الكتاب الأول، فاكفى بالاحالة اليه.

وأخيراً فرغم ما وجهه ابن خلدون من النقد الى السعودي من حيث انه اكتفى بالنقل في عدد من القصص التاريخية التي لا سند لها من الصحة، مما سبق عرضه، فإنه ظل يضع السعودي في طبقة الكبار من الفحول، لكي يجعله في آخر الأمر اماماً للمؤرخين، ويجعل من نفسه خليفة له أو مجدداً لتراثه التاريخي - الأمر الذي يتطلب النظر في مروج الذهب.

#### ما بين كتاب العبر ومروج الذهب :

ان اشادة ابن خلدون بالسعودي بصفته اماماً للمؤرخين المسلمين التي لا تعادها الا اشادة المحدثين من الأوروبيين بابن خلدون، بصفته رائد المؤرخين المحدثين وأول علماء الاجتماع المحدثين، تفرض علينا امعان النظر في مروج الذهب، بهدف ملاحظة مدى التزام مؤرخنا باقتفاء منهج السعودي، ابتداء من المقدمة.

والسعودي يجعل من مقدمته لمروج الذهب باباً من ابواب الكتاب، يسميه: « باب ذكر جوامع أغراض الكتاب »<sup>(٩)</sup>. فهو يجعل المقدمة اذن في أغراض الكتاب الذي يجعله ثالث كتبه المعتمدة، وهي:

- أخبار الزمان: وهو مطول يعالج الأحداث الى سنة ٣٣٢هـ / ٩٤٣م على عهد المنقي لله (٣٢٩ - ٣٣٣هـ).

- الكتاب الأوسط: وهو وسط بين المطول والمختصر، ويتناول موضوعات أخبار الزمان ملخصة، مع إضافة ما جدد من الأحداث المعاصرة بعد سنة ٣٣٢هـ / ٩٤٣م.

- مروج الذهب: موجز للكتاب الأول ومختصر للكتاب الثاني، ويركز فيه معلوماتها، إضافة الى ما جدد من الأحداث على عهد كل من المستنفي بالله (٣٣٣ - ٣٣٤هـ) ثم الطيع لله (٣٣٤ - ٣٦٣هـ) بعده، وهو آخر خلفاء بغداد من معاصريه، وان كان السعودي ينتم كتابه في فسطاط مصر سنة ٣٣٦هـ - على عهد انوجور الاخشيدي، تحت وصاية كافور - أي قبل عشر سنوات من وفاته (سنة ٣٤٦هـ / ٩٥٧م)<sup>(١٠)</sup>.

(٨) انظر مروج الذهب، تحقيق محمد عبيد الدين عبد الحميد، ط. دار المعرفة، بيروت ١٤٠٣ - ١٩٨٣، ج ١ ص ٩ - ١٨.

(٩) من تأليف للكتاب الثلاث، انظر مروج الذهب، ج ١ ص ١٠٩ ومن المستنفي انظر ج ٤ ص ٣٥٥، ومن الطيع ص ٣٧٦، ومن الانتهاء من تأليف الكتاب ص ٣٨٥.

### الأخبار أم العلوم :

والمسعودي يبين أن الباحث له على التأليف « في التاريخ وإخبار العالم » هوجة العلم ، واقتفاء أثر الحكماء ، حتى « يبقى للعلم ذكرا محمودا ، وعلميا منظوما عتيذا » ( مروج ، ج ١٢ ص ١٢ ) . وهو في متن الكتاب يبين أيضا فوائد التأليف ، إذ : « لولا تقييد العلماء غواطهم على الدهر لبطل أول العلم ، وضاع آخره » . فلا إخبار ( أي علم التاريخ ) هي أم العلوم : إذ يستخرج منها كل علم ، كما ينبت عليها الفقه ، ويتم القياس ، كما توجد فيها أمثال الحكماء وتقتبس منها مكارم الاخلاق وتلتبس فيها آداب سياسة الملك .

وبفضل هذه الشمولية أصبح التاريخ علما « يستمتع بسماعه العالم والجاهل ، ويستعذب موقعه الأحق الغافل ، ويأسى مكانه وينزع إليه الخاصي والعامي ، ويحيل الى رواياته العربي والعجمي » ( مروج ، ج ٢ ص ٦٧ ) وواضح ان ابن خلدون تأثر بهذه التعاريف المسعودية ، عندما قال : « ان التاريخ علم تسمو الى معرفته السوق والأغفال ، وتتنافس فيه الملوك والأقوال ، وتتساوى في فهمه العلماء والجهال ، اذ هو في ظاهره لا يزيد على اخبار عن الأيام والدول ... وفي باطنه نظر وتحقيق ... » ( العبر ، ج ١ ص ٣ ) .

### منهج المسعودي :

أما عن منهج دراسة المسعودي فهو يعتمد على معلوماته الشخصية كشاهد عيان عبر أسفاره في الصحراء والبحر والبر ، من الصين في أقصى المشرق الى الشام ومصر في الغرب ، وذلك كما قال الشاعر :

تيسم أقطار البلاد ، فتارة  
لدى شرقها الأقصى وطورا الى الغرب  
سرى الشمس ، لا تنفك تقذفه النوى  
الى أفق ناء يقصّر بالركب

فهو يستعلم بدائع الأمم بالمشاهدة ، ويعرف خواص الاقاليم بالمعاينة ، ويفاوض الملوك على تغاير اخلاقهم وتباعد ديارهم ، ويعرف كيف يفرق بين مواقف كل منهم ( مروج ، ج ١ ص ١١ ) وهو يلح على انه « ليس من لزوم جهة وطنه وقنع بما غمى اليه من الأخبار عن اقليمه كمن قسم عمره على قطع الأقطار ، ووزع ايامه بين تقاذف الأسفار ، واستخراج كل دقيق من معدنه وأثارة كل نفيس من مكمنه » ( مروج ، ج ١ ص ١٢ ) .

ورغم اهتمام المسعودي بطرائف الأخبار ، فانه يعرف أصول المنهج العلمي المبني على النقد والذي يهدف الى الوصول الى الحقيقة . فهو يشير الى كثرة العناء في العلم ، وقلة الذين يفهمون معانيه « فلا تعابن إلا بموها جاهلا ، ومتعاطيا ناقصا قد قنع بالظنون ، وعنى عن اليقين » .

وهو يسجل أنه لم يبدأ في تأليف كتبه - الأنفة الذكر - الا بعد أن عانى صناعة التأليف في ضروب من فنون العلم والآداب ، مثل : أصول الديانات ، وأصول الفتوى وقوانين الاحكام ، وموضوع الامامة وما يدور حولها من : النص والاختيار ، وعلم الظاهر والباطن ، الى جانب ما كتبه في السياسة والسياسة المدنية ، واجزاء المدينة ، وكيفية تركيب العوالم ، والأجسام السماوية وغيرها ( مروج ، ج ١ ص ١٢ ) .

مصادر المسعودي :

وفيهما يتعلق بمفاته التاريخية ، يبدأ بإشارة عامة في النقد التاريخي ، يذكر فيها اصابة بعض المؤلفين وخطأ البعض ، رغم اجتهاد كل منهم على قدر طاقته ، وامكان فطنته ، ثم يأخذ في تسجيل اسمائهم مع اسياء بعض كتبهم ، فمنهم ذكرهم من مشاهير الاخباريين والمؤرخين واصحاب السير والآثار :

وهب بن منبه ، وأبو مخنف ، وابن اسحق ، والواقدي ، وابن الكلبي ، وأبو عبيدة ، وابن المقفع ، وابن سلام ، والمدائني ، والجاحظ ، والنوفلي (علي بن محمد بن سليمان) وابن هبة المصري ، وابن عبد الحكم المصري ، واسحق ابن ابراهيم الموصلي (صاحب كتاب الاغاني) والبلاذري ، واحمد بن ابي طاهر ، (صاحب اخبار بغداد) ، وعلي بن مجاهد (صاحب كتاب اخبار الامويين) وابن قتيبة الدينوري ، والطبري (فقيه عصره وناسك دهره) وابن المشطة (وله كتاب الوزراء) ثم الجوزجاني .  
ومن المذكورين من اصحاب الوظائف الديوانية :

ابن أبي الدنيا ( مؤيد المكثفي بالله ) واحمد بن محمد خالد البرقي ( الكاتب صاحب التبيان ) ، وابن خرداذبه ( صاحب البريد ، وله : كتاب الكبير في التاريخ ، وكتابه النفيس في المسالك والممالك ) والقاضي ابو البشر الدولابي ، وابن زكريا الرازي ( الطبيب وله كتاب سير الخلفاء ) والصولي ( وله كتاب الاوراق في اخبار الخلفاء ) وقدامة بن جعفر ( الكاتب وله : زهر الربيع في الاخبار ، وكتاب الخراج ) وابراهيم بن موسى الواسطي ( الكاتب وله اخبار الوزراء ) وعلي بن الفتح المعروف بالطوق ( الكاتب ، وله : اخبار وزراء المعتز بالله ) وعبدالله بن الحسين بن سعد ( الكاتب ، وله كتاب التاريخ في اخبار الخلفاء من بني العباس وغيرهم ) ومسان بن ثابت بن قرة ( نديم المعتضد بالله ) .

هذا ، الى جانب من كتبوا في فنون تاريخية جانبية مثل : الخليل بن الهيثم الهرثمي ( صاحب الحيل والمكائيد في الحروب ) ومحمد بن زكريا الغلابي المصري ( صاحب كتاب الاجواد ) ويوسف بن ابراهيم ( صاحب اخبار ابراهيم بن المهدي ) ومحمد بن الحارث الثعلبي ( صاحب كتاب اخلاق الملوك ، المؤلف للفتح بن خاقان ) ، وابي سعيد السكري ( صاحب كتاب ابيات العرب ) ومحمد بن الأزهري ( وله كتاب المهرج والاحداث ) .

والمسعودي يقرر انه لم يذكر الا كتب المشاهير من المصنفين والمعروفين من المؤلفين ، وهو يعتذر عن عدم ذكر كتب « تواريخ اصحاب الاحاديث في معرفة اسياء الرجال واعصارهم وطبقاتهم » ، مشيراً الى انه ان على ذكر طبقات اهل العلم على اختلاف انواعهم وتنازعهم في آرائهم ، وذلك الى سنة ٣٣٢هـ / ٩٤٣م ) ، في كتابيه الاولين : اخبار الزمان - والكتاب الأوسط .

وهو يشيد من بين من ذكرهم ، بابن خرداذبه الذي « كان اماماً في التأليف ، متبرعاً في ملاحه التصنيف ، اتبعه من يعتمد واخذ منه ، ووطيء على عقبه ، وقفا اثره » . وهو لا يعلم احسن من كتاب فتوح البلدان للبلاذري في بابه .

أما الطبري فهو يكثر من البناء على تاريخه الزاهي على المؤلفات بما جمع من الأخبار وما اشتمل من صنوف العلم ، وهو كتاب تكثر فائدته وتنبغ عائدته ويكفي أن مؤلفه : فقيه عصره وناسك دهره الذي انتهت إليه علوم فقهاء الامصار ، وحملة السنن والآثار .

وهو يشيد أيضا بكتاب الأوراق للصولي ، من حيث أنه « ذكر غرائب لم تقع لغیره ، وأشياء تفرد بها لأنه شاهدها بنفسه » كما كان عظوظا من العلم ، ممدودا من المعرفة ، مرزوقا من التصنيف ، وحسن التأليف .

ومثل هذا يقال عن قدامة بن جعفر الذي « كان حسن التأليف ، بارع التصنيف ، موجزا للالفاظ ، مقريا للمعاني » في كل من : زهر الربيع ، والخراج ، حيث يكفي النظر فيها للتأكد من حقيقة ما يذكره وصدق ما يصفه ( مروج ، ج ١ ص ١٤ - ١٦ ) .

#### التقد لعلم الاختصاص

والغريب في هذا الباب الخاص بتقويم المصادر ، هو أن المسعودي يخلص بالنقد سنان بن ثابت ابن قرة الحراني ، وهو الفيلسوف ، دون غيره من أصحاب التأليف على اختلاف صناعاتهم : فلقد ألف سنان كتابا جمع فيه أخبارا « زعم أنها صحت عنده ولم يشاهدها ووصل ذلك بأخبار المتضد بالله » ٢٧٩ - ٢٨٩ هـ / ٩٠١ - ٩١٠ م ) وذكر صحبته أيام ، وأيامه السالفة معه ثم ترقى الى خليفة خليفة في التصنيف .

والذي يأخذ المسعودي على سنان بن قرة ، أنه انتحل - وهو الفيلسوف - ما ليس من صناعته واستنبح ما ليس من طريقته . فلقد استفتح الكتاب بجوامع من الكلام في أخلاق النفس وأقسامها من : الناطقة والغضبية والشهوانية ، وذكر لها من السياسات المدنية ، مما ذكره أفلاطون في كتاب السياسة المدنية ، ولما مما يجب على الملوك والوزراء . ورغم ما يقرره من أن سنان « أحسن في كتابه ، ولم يخرج عن معانيه » فإنه لم يغفر له أنه « خرج على مركز صناعته وتكلف ما ليس من مهنته » ( مروج ، ج ١ ص ١٦ - ١٧ ) .

فكان المسعودي يدعو الى احترام التخصص العلمي ، ويتنادى بمراعاة تصنيف العلوم وتحديد الفواصل فيما بينها . وهو هنا لا يأخذ على الفيلسوف اشتغاله بعلم التاريخ ، بقدر ما يعيب عليه الخلط بين المقدمات الفلسفية العقلية وبين الموضوعات الاختيارية العقلية ، مما يعني إخضاع عناصر علمية متنافرة الى نظام علمي موحد ، وهو الأمر الذي لا يتفق مع منهج الدراسات التاريخية ، والذي يخالف ما تعارف عليه المختصون في التأليف التاريخي .

وهو ينص في متن الكتاب على فضيلة علم الأخبار على كل علم ، وإن شرف منزلته صحيح في كل فهم ، وأنه لا يصير على فهمه ويتقن ما فيه وإيراده واصداره إلا إنسان قد تجرد له وفهم معناه ، وذائق ثمرته ، واستغفر من غرره ، وثناك من سروره - مما يؤكد إصراره على مبدأ التخصص في التاريخ ودفع للتطفل عليه ( انظر مروج الذهب ، ج ٢ ص ٦٧ ) .

والمسعودي يشعر بنفاسه كتابه ، ويحسن تسمين ما فيه من الفوائد فيسميه : « مروج الذهب ومعادن الجوهر » وهو لذلك يحذر من أن يعرض له أحد بالتحريف أو التبديل والتغيير ويستنزل غضب الله ويقمته على من يفعل ذلك - أيا كانت ملته ، وأيا كان رأيه ( مروج ، ج ١ ص ١٨ ) .

ومجمل القول في مقدمة المسعودي أنها عرضت لأصول التأليف ، كما عرفت ببعض قواعد النقد التاريخي ، وأهم مصادر التاريخ الإسلامي في قرونه الأولى . فمحة العلم هي الباحث الأول على التأليف والمؤلفات المعتبرة لا تكون إلا بعد ممارسة الكتابة ومعاينة التصنيف ، بدءاً بالعلوم المساندة مما يتعلق بالسياسة ونظم الحكم أو علم الظاهر والباطن . ونظن أنه كان للمسعودي تأثيره على ابن خلدون عندما عرف التاريخ بأنه علم له ظاهريتهم بالأخبار الشكلية ، وباطن يعنى بالمضمون والفهم والتعليل .

وتتلخص قواعد النقد التاريخي عنده في ضرورة أن تكون المعلومات أصيلة بمعنى أن يكون المؤلف نفسه شاهد عيان . وهذا يعني بالتالي كشف الجهال من المؤلفين الذين يأخذون بالظنون ويتهاونون في التحقق من صحة الأخبار .

ورغم ذلك فالمسعودي يعرف أن الأخبار تنقسم إلى قسمين ، أولها : ما يجب علمه والعمل به ، وهو ما شاع بين الجمهور ، ورواه الكفاة عن الكفاة ويسمى أخبار التواتر . والآخر ما نقله آحاد الرواة وقبوله أي الاعتقاد في صحته غير واجب ، إذ هو من النوع الممكن أي الذي ليس بواجب ولا ممتنع ، مثلها في ذلك مثل : الاسرائيليات من الأخبار ، والأخبار عن عجائب البحار ( مروج ، ج ٢ ص ٢٢٨ ) .

ومصادر المسعودي متنوعة تتراوح ما بين كتب في التاريخ وأخرى في العلوم المساندة . وهو يوجه المديح إلى كل من : ابن خردادبه ، والبلاذري ، والصولي ، وقدامة بن جعفر ، ويخص الطبري بتاريخه بالمزيد من الثناء . أما عن نقده لمؤلف سنان بن قرة بن ثابت فهو التزام باحترام التخصص ، ورفض لتدخل غير المختصين في علم التاريخ ، حتى لو كانوا فلاسفة . وكل ذلك مما يمكن أن يكون مصدر الهام لابن خلدون في مقدمته في علم التاريخ .

وأخيراً نلاحظ أنه رغم أن المسعودي سار في كتابته على نهج قدامى المؤرخين الذين اتبعوا طريقة الحوليات ، إلا أنه مزج بين هذه الطريقة ، وبين الترتيب الموضوعي الذي يحفظ للواقعة التاريخية وحدتها . فهو يفرق بآباً أو كتاباً لكل دولة ، ويخصص فصلاً لكل أمير أو حادثة فلا يفقد الموضوع وحدته .

### في مقدمة ابن الأثير في علم التاريخ

وهنا نستحسن الإشارة إلى مقدمة ابن الأثير ( ت ٦٣٠ هـ / ) في تاريخه « الكامل » وهو من مصادر ابن خلدون الأساسية فيما يتعلق بعلوم الأعاجم في المشرق ، من الفرس والترك . والحقيقة أن ابن الأثير يجمع ما بين صفة العلم

المدقق والمؤرخ الموهوب . ولقد تنبه المحدثون الى أهمية كتابه فبدأوا نشره في أوروبا اعتبارا من سنة ١٨٥١ بمعرفة تورينج الذي قام بترجمته الى اللاتينية أيضا . ولم تقتصر أهمية الكامل على تاريخ المشرق فقط بل انه زاحم كتب المغاربة - ويضمها عبر ابن خلدون - بصفته مرجعا لا غنى عنه بالنسبة لتاريخ المغرب والأندلس ، حتى استلقت منه الحوليات الخاصة بأخبار المغرب والأندلس وترجمت الى الفرنسية بمعرفة فانيان ( Fagnan ) وهو الأمر الذي أكدت صحته مكتشفات بروفنسال من الوثائق الخاصة بتاريخ المرابطين والموحدين <sup>(١٠)</sup> .

وابن الأثير يشير في بده خطبة الكتاب الى أهداف مطالعة التاريخ ، ومعرفة الحوادث ، ويذكر تبين المؤرخين في تحصيل الغرض من حيث الاسهاب المستقصى والاختصار المخل ، ويلفت النظر الى ما تؤدي اليه هذه المناهج من القصور ، مما يتلخص في ترك عظيم الحادثات والاهتمام بصغائر الأمور ، أو اهتمام كل مؤرخ بأخبار بلده ، والتقصير فيها سواء ، فالشرقي يخل بذكر أخبار المغرب ، والغربي يميل أحوال المشرق ( الكامل ، ج ١ ص ٢ - ط تورينج ) . وهو بعد ذلك ينتقد أعياد المعرفة ممن يحتقر التواريخ ويزدريها ، ظنا ان غاية قائلها انما هو القصص والأخبار ( الكامل ، ج ١ ص ٦ ) .

وابن الأثير خلال ذلك يفلسف التاريخ فيتكلم في « الجلي » من الحوادث و « الخفي » منها ، كما يتكلم في « العرض » و « جوهر المعرفة » وكذلك عن « القشر » و « اللباب » وهي المصطلحات التي تذكر بعلم الظاهر والباطن عند المسعودي ، ويعترف ابن خلدون للتاريخ بأنه علم له ظاهر وباطن ، مما سبقت الإشارة اليه .

أما عن المنهج الذي اتبعه ابن الأثير في التأليف فيختلف عن منهج الطبري وأقرانه من أصحاب الحوليات . فلقد تنبه الى سلبيات منهج الحوليات حيث تذكر الحادثة الواحدة في سنين ، فتأتي مقطعة ، فعمد - عندما لخص الطبري وأكمل ما في روايته من النقص - الى جمع الحادثة في موضع واحد بشكل متناسق ، « فجاء جميع ما في تلك الحادثة على اختلاف طرقها سياقاً واحداً » ( الكامل ، ج ١ ص ٣ - ٤ ) كما خص كل حادثة كبيرة مشهورة بترجمة خاصة بها ، ووضع الحوادث الصغار في آخر السنة ، تحت عنوان « عدة حوادث » :

والذي نراه أن هذه التعديلات التي أدخلها ابن الأثير في منهج الحوليين في الكتابة التاريخية لا تجعل منه مؤرخاً موهوباً فقط ، بل ترفعه الى درجة المجلدين أصحاب الطرق المبتكرة في التأليف .

وابن الأثير ينحي التاريخ عن مكانه بين العلوم الأدبية عندما يرتفع به عن مستوى القصص والحكايات ، ويصفه بين العلوم الشرعية ، حيث يعدد فوائده الدنيوية والأخروية . وهو هنا يشبه القراءة بالرؤية ، فمن يطالع أخبار قوم كأنه

(١٠) انظر Fagnan, annales du Maghreb et de l'Espagne, Alger, 1901 ورسائل موحدية ، تحقيق ودراسة بروفنسال ، النص العربي الرباط ، ١٩٣٤



يعاصرهم وهكذا يمد التاريخ في العمر على طول امتداد العصور التاريخية ، وعن هذا الطريق تتكرر تجارب الانسان - وان كانت نظرية - بفضل المعرفة بالحوادث - ويزداد بذلك عمقاً<sup>(١١)</sup> .

أما فوائد التاريخ الأخرى فتأتي بمشاهدة تقلب الدنيا بأهلها وتتابع نكباتها التي لم يسلم من نكدها غني ولا فقير ، مما يؤدي إلى الزهد فيها والاعراض عنها ، عن طريق التزود للأخرة بمحاسن الأخلاق ، من : الصبر والتأسي - رغم ما هو معروف من طلب الناس اليسير من حطام الدنيا ، ولعلمهم بحب العاجل<sup>(١٢)</sup> .

ونظرة مواجهة المتاعب الدنيوية - بصفتها موضوع علم التاريخ - بالرجوع إلى الله تذكرنا بمقالات أورويسوس ، مؤرخ القرن الخامس الميلادي ، وصاحب « تاريخ العالم » الذي ترجم إلى العربية في الأندلس في أواخر القرن الرابع الهجري ( ١٠ م ) ، والذي عرف عند الكتاب العرب باسم « تاريخ » و« هيرودوت » ، هذا ، وإن كان أورويسوس قد تأثر في مقالاته الدينية هذه بمعاصره أمستف مدينة بونة ( غنابة الحالية ) وهو القديس أغسطين . وهنا لا بأس من الإشارة إلى أن كتاب أورويسوس كان من المراجع الأثيرة لدى ابن خلدون الذي أخذ عنه كثيراً من النقول فيما يتعلق بالتاريخ القديم ولقد عني الدكتور عبد الرحمن بدوي بهذا الموضوع في ثانياً اهتمامه بتاريخ أورويسوس الذي انتهى مؤخرًا من تحقيقه ونشره ، مما يعتبر إضافة هامة إلى المكتبة العربية الحديثة<sup>(١٣)</sup> .

وهنا لا بأس من الإشارة إلى أن المسعودي يعتبر من أوائل المؤرخين المسلمين الذين أخذوا الكثير من النقول عن قدامى الكتاب من أصحاب تاريخ عصور ما قبل الاسلام وهذا ما يتضح في الأقسام من تاريخه التي يعالج فيها أخبار الهند والفرس واليونان والرومان . وما يؤسف له أن المسعودي لا يذكر أسماء مصادره ، مكتفياً بنسبة الأخبار إلى « الموثوق بهم من العلماء » مما يوحى بأنه لجأ إلى السماع وليس إلى القراءة . وهكذا يظل الكشف عن مصادر المسعودي القديمة من : يونانية ولاتينية ، من الموضوعات التي يربح أن نتال ما تستحقه من عناية الباحثين .

وابن الأثير أيضاً يرجع - بصفته مؤرخاً موسوعياً - هو الآخر إلى النقل من كتب التاريخ الأوروبي القديم ، وهو الأمر الذي يظهر بشكل واضح فيما يتعلق بتاريخ الأندلس قبل الفتح الاسلامي . وهو إذا لم يكن قد ذكر تاريخ أورويسوس ،

(١١) الكامل ، ج ١ ص ٧ - ولا بأس هنا من مقارنة كلام ابن الأثير بكلام أورويسوس الذي يفرق بين المشاهدة والسماع ، فيقول : إن الأمور السالفة كلها كانت أصعب حين مشاهدتها كانت أطرف عند من سمعها . . . ( كما يقول ) أن القليل من المشاهدة أرسخ من الكثير من الخبر . وإن مقاساً الأسير من الشدة الحق على النفس من تذمر الكثير مما فرط منها . . . فليعلم إذ رأي ذلك أن الذي أعجب فيه من الشكاية بزماته ليس لأفراط شدة الزمان ، لكنه لضعف صبره ولؤم طباعه .

وأما وأصعب من الحال السالفة ما أروى عندها كانت أشد وأصعب من الحال الحاضرة ، وإن كانت هذه مشاهدة ، وتلك خبراً ، انظر أورويسوس ، تاريخ العالم ، نشر عبد الرحمن بدوي ص ٢٥٧ - ٢٥٨ .

(١٢) لا بأس هنا من الإشارة إلى مقالة أورويسوس في غلبة « تاريخ العالم » ( من أن كل بلاد وحشة ، يكون لسبيين : أما لفرجة الأعيان ولما لعقوبة الأثام ) ( أورويسوس ، تاريخ العالم نشر عبد الرحمن بدوي ، ص ٥٣ ) أوما يقوله بعد ذلك من أنه لم يتم السلم في الدنيا ولا هدوء البال في أهلها إلا بعد عمر المسيح . واهم أن أولئك كانوا يقاتلون من محاربة الأجناس والنكبات في الحرب « تاريخ العالم » ، ص ٣١٧ .

(١٣) انظر عبد الرحمن بدوي ، ابن خلدون ومصادره اللاتينية ، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية بالرباط ، أعمال ندوة ابن خلدون ، مطابع النجاح الجديدة ، الرباط ١٩٧٩ ص ٣٥ - ١٥٩ ) وانظر عبد الرحمن بدوي ، أورويسوس ، تاريخ العالم ، الترجمة العربية القديمة ، بيروت ( المؤسسة العربية للدراسات والنشر ) ١٩٨٢ .

جريا على عادته في إهمال ذكر مصادره في بعض الأحيان ، وإذا كانت أخبار ملوك القوط إلى أيام اللريق التي يذكرها مما يعتبر متاخرا عن عصر أروسيوس ، فلا بأس أن يكون ابن الأثير قد نقل معلومات تلك الفترة المتأخرة عن إضافة أو ذيل لتاريخ هيروديشس الحق به فيها بعد - وهو الأمر المقبول (١٤) .

وأخيرا فإن ابن الأثير يدرك قدر نفسه ، ويعرف أهمية تاريخه ، كما فعل المسعودي من قبل وابن خلدون من بعد . فهو رغم اشارته - تواضعا - إلى أن من « بالموصل لابد أن يشد عنه ما هو بأقصى الشرق والغرب يشمر بقيمة كتابه ، فيقول : « ولكني جمعت فيه ما لم يجتمع في كتاب واحد » ( الكامل ، ج ١ ص ٣ ) وهو الأمر الذي يؤكد محمد السوي ، صاحب كتاب سيرة السلطان جلال الدين منكبري عندما يقول بمناسبة أخبار الغزوة المغولية في « الكامل » : « له در مقيم ببلاد الشام لا يخفى عليه ما يدور في أطراف بلاد الهند وأصمق بلاد الصين » (١٥) .

#### التاريخ بمعناه الحضاري عند كل من المسعودي وابن خلدون :

والمهم من كل ما تقدم هو وجود نوع من المشاركة أو أوجه الشبه بين المقدمات التاريخية لكل من المسعودي وابن الأثير وابن خلدون ، وإن كان ابن الأثير قد انفرد بأنه لم يجعل لمقدمته عنوانا خاصا ، بل تركها مجرد خطبة أو افتتاحية لكتابه « الكامل » الذي التزم في تأليفه إياه بأن يكون مؤرخا متخصصا ، بمعنى الالتزام بالحدود المتعارف عليها للتاريخ ، من حيث كونه تاريخا سياسيا أولا وقبل كل شيء . دون التاريخ الحضاري . وهو ما يفرق بينه وبين المسعودي وابن خلدون في فهمها للتاريخ .

والحقيقة أنه رغم أن ابن خلدون اقتدى بالمسعودي في فهم التاريخ بمعناه الحضاري الشامل فمن الواضح أنه يوجد ثمة خلاف ظاهر بين كل من كتاب العبر ومروج الذهب من حيث الشكل والمضمون . ولكي تسهل المقارنة فلا بأس من عرض سريع لمحتويات كل من الكتابين ، بعد أن عرضنا لمقدمتهما .

#### مروج الذهب :

ومروج الذهب كتاب في التاريخ العام ، يعالج قصة الانسانية منذ بدء الخليقة إلى وقت الانتهاء من تدوين الكتاب في جمادي الأولى سنة ٣٣٦ هـ / ٢١ نوفمبر ٩٤٧ م ، بفسطاط مصر ( مروج ، ج ٤ ص ٢٨٥ ) . والكتاب الذي بين أيدينا يقع في ٤ مجلدات تحوي ١٦٥١ صفحة ، تبدأ بالمقدمة التاريخية التي سبقت الإشارة إليها ، والتي أعطاها المؤلف اسم الباب الأول ثم التعريف بمحتويات الكتاب التي سماها بالباب الثاني ، وهما في ٢٧ صفحة . أما الخاتمة فيشير فيها

(١٤) مقارنة دراسة عبد الرحمن بدوي (أروسيوس ، تاريخ العالم ، ص ٣٧) حيث الإشارة إلى قول ابن خلدون أخيرا من عهد اللريق منسوبة إلى أروسيوس ، وانفراض أن يكون النقل عن هيرودس أو أروسيوس تصرف فيه مصنفه في الترجمة العربية .

(١٥) انظر محمد السوي ، سيرة السلطان جلال الدين منكبري ، ط . القاهرة ١٩٥٤ .

المسعودي الى طريقته في التأليف ، من حيث الالتئام على أخبار أهل كل عصر ، وما حدث من الأحداث ، وما كان من الكوائن الى جانب ما أسلفه في كتابه هذا من ذكر البر والبحر والعامر والفاقر ، كما يعد تأليف كتاب جديد يضمه فنونا من الأخبار وأنواعها من طوائف الآثار . . . ويسميه بـ « كتاب وصل المجالس بجوامع الأخبار ومختلط الآثار » ( مروج ، ج ٤ ص ٣٨٥ ) .

واخيرا ينتهي الكتاب بـ « ذكر جامع التواريخ الثاني ، من الهجرة الى هذا الوقت ( سنة ٣٣٦ ) ( مروج ، ج ٤ ص ٣٨٧ ) ثم « ذكر تسمية من حج بالناس من أول الاسلام الى سنة ٣٣٥ هـ ( مروج ، ج ٤ ص ٣٩٦ ) فكانها تلخيص تاريخي أشبه بفهرست للكتاب وبالنظر في متن الكتاب دون المقدمات والخواتيم يتضح لنا أنه ينقسم الى كتابين أولهما في التاريخ القديم ويبدأ بعنوان : « ذكر المبدأ وشأن الخليقة » ( ج ١ ص ٢٨ ) ويستغرق ٦٢٣ صفحة ، تنتهي بصفحة ٢٧١ من الجزء ( المجلد ) الثاني ، حيث يبدأ الكتاب الثاني في التاريخ الاسلامي ( ص ٢٧٢ ) ويستغرق ١٠٠٨ ص ، ويبدأ بعنوان : « ذكر مولد النبي ( صلعم ) ونسبه ، وغير ذلك مما لحق بهذا الباب » الى أن ينتهي بالخاتمة ( ج ٤ ص ٣٨٥ ) فيكون في ٩٨٥ صفحة دون الملحقات .

#### في التاريخ القديم ، وطريقة التجميع

والكتاب الأول يتناول الأنبياء ، وأخبار الأمم والملوك في العصور القديمة ، من : الهند والصين والترك والأكراد والسرمان والفرس بطوائفهم ، والروم واليونان والقبط والنيط ، والسودان - ومنهم : البجعة والحبش - والعصالبية والفرنجة والجلالفة ، والعرب البائدة ، من : عاد وثمود وطسم وجديس ، والعرب الباقية من : قريش وقحطان .

وطريقة المسعودي هي ألا يلتزم بموضوع في سرد الأخبار والسير ، بل يستطرد دائما الى موضوعات جانبية حسبما تؤدي اليه مصادفات الكلام ، دون التزام بحدود الموضوع وهو الأمر الذي يدركه بنفسه . فهو يعتذر عن الاستطراد في بعض الأحيان وإن كان يلتزم العذر بطريقته هذه في التأليف ؛ حيث يبين مزاياها التي تلخص في الشمول الذي يربط بين مختلف الأحداث على تباين طبائعها ، ويجعلها تأخذ بعضها برقاب بعض ، فكانها الفسيفساء البديعة التي لا يمل الانسان من النظر اليها بسبب تنوع ألوانها الأصلية . (١٦)

وهو يعتز بأصالة معلوماته ويتتقذ الجاحظ عندما يستدل على أن منبع كل من النيل ونهر مهران ( السند ) واحد بسبب وجود التماسيح في كل منهما ، ويأخذ عليه أنه لم يسلك البحار ولا أكثر الأسفار . . . وإنما كان حاطب ليل ، ينقل من كتب الوراقين .

(١٦) النظر ج ٢ ص ٣٣٥ - حيث يقول : « ولولا أن الكتاب يرد على كل أفراس ختلفة من الناس لا هم عليه من اختلاف الطباع والتباين في المراد لا ذكرنا بعض ما يورد له من أنواع العلوم وفنون الاعيان . وقد يلحق الانسان للكل لقراءته مالا يهوي نفسه فينقل منه الى غيره ، فيجتمعا له من سائر ما يحتاج الناس من ذوي المعرفة الى علمه ، ولا تغفل بنا الكلام في نظمته وتسميته ، واتصاله بعلوم من المماثل مما لم يتقدم ذكره . . . »

### المعلومات الجغرافية

والمسعودي - الى جانب الأخبار والسير- يعرف بالارض والبحار ومباني الأنهار والجبال ، فيتكلم عن الأقاليم السبعة ورأي بطليموس في صفة الأرض ، ويذكر البحر الحبيشي وبحر الروم ونيطش ( الأسود ) وبحر الصين وفارس والهند ، ويخبر عن الأنهار ، من : النيل وبيحون والفرات ودجلة . ويصف البلدان من : الشام ومصر واليمن والمغرب والعراق والحجاز ، الى جانب ما يعرف به من الأمم والممالك المجهولة في منطقة الأبواب ( منطقة جبال ما بين قزوين والأسود ) ، مثل : جيدان وعميق ، واللان ، وكشك وغيرها .

### تأثير البيئة

ومن المعلومات المفيدة التي يشير إليها في هذا المجال تأثير البيئة على الانسان : فسحب الشام ومرتفعاته ورياحه تحسن الجسم ، وتصفي اللون ، وان كانت تبذل العقل وتحفي الطبع ( ج ٢ ص ٦١ ) . أما حرارة مصر وركود هوائها فتكدر الألوان وتخبئ الفطن . والمغرب يقسي القلب ويوحش الطبع ، ويذهب بالرحمة ( ج ٢ ص ٦٢ ) والجبال ( همدان أو عراق العجم ) تحشن الأجسام وتبذل الأفهام لغلظ التربة وتكاثف الهواء . أما العراق ، سرة الأرض وقلبها ، حيث وقف الاعتدال ، فصفت أمزجة أهله ، ولطفت أذهانهم ، واستدنت بخواطهم ، فهو مفتاح الشرق ومنازه ( ج ٢ ص ٦٣ ) .

### أصل و العمران البدوي عند المسعودي

وتأثير البيئة على النامي من النبات والحیوان والانسان من الموضوعات التي اهتم بها ابن خلدون في المقدمة ، وجعلها من التواميس الطبيعية التي تفسر أحوال العمران وطبائعه ، وخاصة العمران البدوي وهو - على وجه الخصوص - العمران العربي الذي أطنب في وصفه وتفسيره .

ونظرية العمران البدوي واضحة عمدة المعالم عند المسعودي ، وان كان يستخدم مصطلح «البادي» بمعنى سكان البادية . وهو ان خص به العرب في المقام الأول ، فانه يشرك غيرهم في هذا اللون من الحياة البدوية ، مثل : الترك والكرد والبنجة والبربر ، وهي الأمم التي يصفها بـ « المتوحشة » ( انظر مروج الذهب ، ج ٢ ص ١١١ ، ١١٧ ، ١١٨ ) .

والمهم هنا أن المسعودي يعلل سكنى البدو بأنه يمثل طريقة الحياة على السجية كما عرفها الجيل الاول من سكان الأرض ، وهي تعني سكنى البيوت والأطلال ( السقائف وانتجاع الأماكن الرفهة الحصبة ) شتاءً وريبعاً ) والانتقال عنها

إذا اجبت ( صيفاً ) فهو نيج الأقدمين ( مروج ، ج ٢ ص ١١٨ ) . فالبدواة عنده هي النجعة ، وهي رحلة الشتاء والصيف سميا وراء الكلا ورعي الماشية . وهو التعريف الذي خالف على أساسه ابن خلدون المفسرين الذين قالوا بأن رحلة الشتاء والصيف عند قريش كانت من أجل التجارة : شتاء الى اليمن وصيفاً الى الشام ، فقال : ان ابلالاف قريش كان من أجل رحلة الانتجاع الطبيعية ، كما هو الحال عند غيرهم من قبائل البدو<sup>(١٧)</sup> بل وأهل الجبال أيضا<sup>(١٨)</sup> .

وفي حياة البادية يقول المسعودي ان العرب فضلوا حياة الأرض والسكنى حيث شاءوا - وهي ما عبر عنه قبل ذلك بالنجعة - لأنها تحقق الشعور بالعزة والأنفة ، من حيث الاستقلال وعدم الخضوع لغيرهم من ذوي السلطان أو أصحاب الدول<sup>(١٩)</sup> .

وهناك علة تضاف الى تلك ، وهي أن التقيد بسكنى الأبنية ( في المدن ) يحدد الحركة ويتتقص من الحرية ، بينما يسمح سكنى البادية بتخير البقاع الصحيحة الهواء التي تصون الأجسام ، وتحفظ صفاء الألوان وقوة العقول واعتدال الأمزجة ، وهي الأمور التي ميزت العرب على غيرهم من بوادي الأمم المنفرقة ، مثل : الكرد ( مروج الذهب ج ٢ ص ١٢٠ - ١٢١ ) .

وهكذا « تخيرت العرب في البر أنزالا منها : مشات ، ومنها مصايف » و « لجمع العرب مياه يجتمعون عليها ، وملكية يعرجون بها . . . » ولست تكاد ترى قبيلة من العرب توغل من الأماكن المعروفة لهم والمياه المشهورة بهم ( ج ٢ ص ١٢٢ ) وبناء على وجه الشبه بين أسلوب حياة كل من العرب والكرد ، قيل إن الأكراد عرب أصلا ، من قبائل ربيعة ، وان كانوا قد انحازوا الى الجبال ( ج ٢ ص ١٢٢ ) وقريب من هذا ما قيل من نسبة أهل التبت من الترك الى اليمنية من عرب حمير ( مروج ، ج ٢ ص ١٢٣ - ١٢٤ ) .

ولقد أخذ ابن خلدون نظرية المسعودي هذه في البدواة ، وجعل منها العامل المحرك في تاريخ العرب ، وعلى أساسها فسر تاريخ المغرب الاسلامي - بصفة خاصة - من حيث انه صراع بين ممالك المغرب ودوله وبين قبائل البدو فيه من : العرب والبربر .

والمسعودي يعدد - هنا - من بوادي البربر في المغرب ، عددا كبيرا من القبائل مثل : هواة وزناتة وضريسة ومقيلة وورفجومة ونفزة وكتامة ولوانة ومزاتة ونفوسة ونفطة وصدينة ومصمودة و ( زنارة ) وغمارة و ( قالة ) . . . الخ ( مروج

(١٧) انظر المبر ، ج ٢ ص ٣٣٦ - حيث يقول : « ويقال ان هاشم بن عبد المطلب أول من سن الرحلتين في الشتاء والصيف للعرب ، وذكره ابن اسحق ، وغير صحيح لأن الرحلتين من عوائد العرب في كل جبل لراعي ابلهم ومصالحها لأن معاشهم فيها ، وهذا معنى العرب . . . وهو معنى العروية . . . »

(١٨) انظر مروج الذهب ، ج ٢ ص ٦٥ - حيث النص على أن أهل بابل كانوا يشعرون بالعراق ويعيشون بالجبال . وانظر أيضا ص ٥٩ - عن الأبلال والطريش بمعنى أمن الطريق وجميع القبائل .

(١٩) انظر مروج الذهب ، ج ٢ ص ١١٩ . وايضا ص ١٢١ - حيث قال خطيبهم لكسرى أنهم ملوك الأرض ولم يملكونهم ، وأنهم آمنوا عن التمعن بالأسوار ، واعتمدوا على السيوف .

ج ٢ ص ١١٩) . وكما نسب الأكراد والأتراك إلى العرب بسبب طبيعة حياتهم البدوية ، كذلك كان الأمر بالنسبة لقبائل البربر التي نسب بعضها مثل : صنهاجة إلى قبائل اليمن ( القحطانية أو الحميرية ) ، كما نسب البعض الآخر ، مثل : زناتة إلى قبائل قيس ( مروج ، ج ٢ ص ١٤٤ ) .

#### المعلومات الحضارية في مروج الذهب

ويضمن المعلومات الجغرافية يقدم المسعودي في القسم الأول من مروج الذهب معلومات طريفة عن نخب مختارة من الحيوانات والطيور ، مثل : الكركدن ( وحيد القرن ) الموجود في السند والهند ، والبازي الأبيض والشاهين وأنواع من القردة ، والهاووس ، والزرافة ، والغيلة والزبرقان ثم السمك الرعاد ، وفرس البحر والتمساح في النيل .

وهو يظهر فطنة علمية عندما يرفض ما يقوله الجاحظ من أن مدة حمل الكركدن تصل إلى سبع سنوات وأنه يخرج رأسه من بطن أمه فيرعى ثم يدخل رأسه في بطنها ( وكأنه صغير الكائن ) وهو يسأل أهل الخبرة عن زار بلاد الهند ، ويعرف أن الكركدن نوع من الجواميس والبقر ويتسامل عما إذا كان الجاحظ قد قرأ ذلك في كتاب أم سمعه من بعض الرواة ( مروج ، ج ١ ص ١٧١ - ١٧٢ ) .

وهو يذكر أنواعا من الأحجار الكريمة مثل : الدر واليشب والزمرد ، ويعرف بمعادنها ( مناجها ) وكيفية استخراجها . كما يعرف بوسائل التسليية ، مثل النرد والشطرنج وبالعبادات الغريبة عند الشعوب ، مثل : عادة الهنود في الاحتفال بموت الملوك وعادة حرق الموتى عند الصقالبة والروس ، وعادة تعذيب أهل الهند أنفسهم .

أما عن الديانات والمذاهب ، فمروج الذهب مرجع من الطراز الأول ، لا يضاهيه في ذلك غيره من كتب المتقدمين والمتأخرين . فهو يجبرنا عن حكمة الهنود ورأيهم في بدء العالم وخالفه ، ويتكلم عن المراتب الدينية لرجال النصرانية ، ومبدأ النصرانية في مصر ، ومذهب الصابئة وعبادة الكواكب ، وزرادشت ( بنى المجوس ) والزندقة ومذهب ماني ومذهب بوداداف متنتي الهند ، والبرمك سادن معبد النوبهار ، والمجوسية ( عبادة النيران ) وعبادة الأصنام في بلاد العرب ، ومذاهب العرب القدماء في الاعتقاد في : النفوس والهام والغيلان والحوائف والجنان والنسناس والعنقاء .

أما أهم بيوت العبادة منذ القدم ، فهي : البيت الحرام ، ومعابد البوذية وأشهرها النوبهار ( قرب بلخ وكان سادنه يعرف بالبرمك ، واليه ينسب البرامكة ) ، البيوت المظلمة عند اليونانيين ( ويضمنها الأهرام بمصر ) وعند الصابئة ثم بيوت النيران المجوسية التي كانت منتشرة في خراسان وفارس ، والتي وصف المسعودي واحدا منها زاره بنفسه في مدينة اصطخر ( مروج ، ج ٢ ص ٢٥٤ ) .

وترد أيضا في سياق الأخبار ، آراء الفلاسفة من حكماء اليونان ، من : بطليموس إلى جالينوس وبليناس ، إلى جانب أهل التحصيل بمصر وغيرها من البلاد ، وذلك بمناسبة تقسيم العالم إلى الأقاليم السبع وصفة الأرض ، والقول

بأن الهواء مسكون ، والقول في الاسطسقات ، من : الارض والماء ( الثقيلين ) الى الهواء والنار ( الخفيفين ) ( مروج ج ١ ص ٨٨ ، ص ١٧٨ - ١٨٨ ) .

هذا الى جانب ما يتخلل كل ذلك من ملاحظات النقد التاريخي ، من الخروج على اصول التأليف أو الالتزام بالمنهج العلمي في انتقاء الاخبار . أو تقييم للكتاب التاريخي الذي « يجمع لك الأول والآخر ، والغائب والحاضر ، والناقص والوافر ، والشاهد والغائب والبهادي والحاضر . . » ( مروج ، ج ٢ ص ٦٧ ) .

من هذا العرض لموضوعات القسم الأول من مروج الذهب ، في التاريخ القديم وما تحلله من الجغرافيا وعجائب البلدان ، والديانات والمعتقدات ، وعلم التاريخ قد يخيّل لنا لأول وهلة ، أن هذا القسم يمثل مقدمة للموضوع الأساسي الثاني وهو تاريخ الاسلام . ولكن الأمر ليس كذلك إذ أن المسعودي سار في تأليفه للقسم الاسلامي على نفس التاريخ القديم ، من : تقديم المادة التاريخية في مزيج من أنواع المعرفة الأخرى . وهو يضع الأحداث الصغيرة الى جانب العظيمة ، ويخلط ما هو جاد صارم بما هو هزلي ساخر ، وكل ذلك في شكل فسيفساء مبرقة الألوان - يمكن ان ترضى سائر الأذواق - كما سبقت الإشارة .

#### في النظم والرسوم

فهو في ثنايا الرواية التاريخية يتكلم عن جهود الدولة في اقامة نظمها مثل : نظام تعبئة الجيوش على عهد علي ، وترتيب حلبة الخيل أيام الوليد بن يزيد ، والتفريق في الطواف حول الكعبة بين الرجال والنساء أيام ولاية خالد القسري ، وآثار الرسول التي كان يتداولها الخلفاء ، وتعليم أبناء الخلفاء أولياء العهد أيام الرشيد والمتوكل ، والبناء المسمى بالحيرى الذي أحدثه المتوكل ، وتطوير الملابس الرسمية على عهد المعتز والمستعين ، وهدم مطاعم العذاب على عهد المكتفى ، في الوقت الذي كان المسعودي يؤلف كتابه سنة ٣٣٢ هـ / ٩٤٣ م .

#### اخلاق الناس

وهو يتكلم في أخلاق الخلفاء من معاوية وحلمه الى سليمان وشهره ، وعمر بن عبد العزيز وزهده ، ويزيد بن عبد الملك وعشقه ، وهشام وبخله ، والوليد ( بن يزيد ) وقسقه والسفاح وكرمه ، والمنصور وحزمه ، وابراهيم بن المهدي واسرافه ، والمأمون وعلمه ، والمتوكل وطربه الى أخلاق رجال الدولة ، من : الحجاج الى البرامكة . وربما كان أهم من ذلك كلامه في أخلاق العامة ( ج ١ ص ٤٣ ) وتأثير العادة ، ومذج الصمت ، وبيان شر الرجال والنساء ، وسر كراهية الناس للموت ، وطبائع الخصيان وأخبار المحتالين .

#### الديانات والمذاهب

وفيها يتعلق بالديانات والمذاهب يعرف بالشيعية الكيسانية ، والخوارج وفرقهم وعلمائهم ، والمعتزلة وبيان أصولهم الخمسة ، والامامة واختلاف أهل النحل ، والراوندية ورأيهم في الامامة ، واعتقاد العباسيين في انتقال الخلافة اليهم

بمقتضى كتاب عندهم ، والخرمية والباطنية ، ويمن الله الذى يعاقب من حلف كاذبا ، والزنادقة من المانوية وبعض الفرق المهدية ، والقول بخلق القرآن .

والمسعودى يرجع كثيرا في هذا الباب الى كتابه الموسوم : ب « المقالات في أصول الديانات » كما يشير الى بعض كتب الجاحظ مثل : كتابه في الثمانيات ، وكتابه في الراوندية في الامامة .

### الطب وغيره من العلوم

وفي العلوم الطبية يذكر خبرة الطبيب الجبريل ابن بختيشوع في تدبير الطعام ، وفي الحوار بين الخليفة الواثق وبين جلسائه من الأطباء من : ابن بختيشوع الى ابن ما سويه وميخائيل ، وربما حنين بن إسحق يعرض للطب النظرى والتطبيب ، والغذاء ، وتفصيل الانسان ، وتأليف حنين بن اسحق في الطب للواثق ، كما يذكر خصائص الحجر المعروف بالشب ، والقول في الكيمياء وعجائب البلدان ، وفي علم الحيوان هناك وصف الخيل . وفي الشعر ينص على مازاده علماء العروض على ما استنبطه الخليل بن احمد من أوزان الشعر ، وكذلك في الغناء والتلحين والرقص .

### الطبخ والأطعمة

وفي الطبخ والطعام يورد حديث وصف الأطعمة للمستكفى ، من : السكاراج والكوامخ والسلحم ، ومن البوادر والنوادر كالجونة والطهوج ، والشطيريات والمجنبات ، الى جانب ما قيل من الشعر في : السنبوسج والحليون والأرزية والهريسة والمضيرة والجواذبة والقطائف . هذا ، الى جانب أطعمة العامة من الناس ، مثل طعام الفلاح الذى أطعم المهدى اياه ، من : البقل والكراث وخبز الشعير والزيت ، أو سكباج الملاحين الذى أثار فوحه شهية المتوكل .

وفي وسائل التسلية هناك مجالس الشرايب ، ومجالس الغناء والسمر ، واستماع حديث الملوك ، والمناظرات بين العلماء ، والغرام بالخيال والكلام في الشطرنج .

### طرائف الأخبار

أما طرائف الأخبار التى يقصد بها الترويح عن النفس وان دخلت في مجال الادب ، فمنها طرف أخبار الحجاج : بزواج والده بأمه وسبب ولوعه بسفك الدماء ، وأخبار ليل الأخيلية معه ، وبعض أخبار عمر بن عبد العزيز مثل : قصته مع قاضى الحجاز الذى هام بجارية مغنية ، وعشق يزيد بن عبد الملك ، ووصف أنواع الشراب للوليد بن يزيد ، وسعى الرشيد في زواج الشاعر أبي العتاهية ، وحديث جلساء البرامكة في العشق وأسبابه ، وقصة زواج العباسة أخت الرشيد من جعفر البرمكي ، وزواج المأمون ببوران ، وزواج الحسين بن الأفشين بآترجه بنت أشناس بمعرفة المعتصم ، وزواج المعتضد ببنت خمارويه .



### أخبار الخلفاء

أما أخبار الخلفاء فممتا ما يؤخذ منه العبرة والموعظة في إدارة دفة الحكم ، مثل : سواس بقى أمية وهم : معاوية وعبد الملك وهشام ، ومنها ما يتعلق بعصر النهضة من أخبار خلفاء العباسيين كما رواها محمد العبدى الخراساني للخليفة القاهر الذي كان مسمولاً مغلوعاً وقت تدوين مروج الذهب . فالمصور هو أول خليفة ترجمت له كتب الحكمة والمنطق والهيئة والهندسة والحساب من اليونانية والرومية ( اللاتينية ) والفهلوية ( الفارسية الوسطى ) والفارسية ، والسريانية وأخرجت الى الناس فنظروا فيها وتعلقوا الى علمها ، كما كان أول خليفة استعمل مواليه وعلمائه في أعماله وصرفهم في مهماته ، وقدمهم على العرب فامتثل ذلك الخلفاء من بعده ، فسقطت ويادت العرب .

٢٢٣

وهكذا يظهر المأمون الى جانب المصور كمعزم بأحكام النجوم ، سائر على سنن آل ساسان ، مجتهد في قراءة الكتب القديمة ، ممن في درسها ، مواظب على قراءتها الى ان ينتهى الأمر بأن افتن في فهمها ، ويلغ دراستها ، بمعنى أنه أصبح حكيماً فيلسوفاً . فكان عصر المأمون يمثل مرحلة تالية لعصر الترجمة هي عصر النهضة العلمى الذى يمثله الخليفة بشخصه . وهو الذى أظهر القول بالتوحيد وقرب اليه الجدلين والمناظرين ، والزعم مجلسه الفقهاء ، وأهل المعرفة من الأدباء وأجرى عليهم الأرزاق .

وعلى عهد المهدي ظهر الملحدون لما انتشر من كتب مانى وابن ديصان . ومرفيون مما نقله عبد الله بن المقفع وغيره ، وترجمت من الفارسية والفهلوية الى العربية ، وما صنّفه من ذلك ابن أبي العرجاء ، وحامد عجرد وغيرهم ، من : تأييد المذاهب المانية والديسانية والمرفيون ، فكثرت بذلك الزنادقة وظهرت آراؤهم في الناس . وكان المهدي أول من أمر الجدلين من أهل البحث من المتكلمين بتصنيف الكتب للرد على الملحدين .

أما الرشيد فأيامه كانت تسمى « أيام العروس » لنضارتها وكثرة خيرها وخصبها . ولقد شاركت زوجته زبيدة ( أم جعفر ) في أيام السعادة تلك فهي التي اتخذت الجوارى المقدودات الحسان الوجوه ، وعممت رؤى وسهن . وجعلت لمن الطرور والأصداء والأقفية ، والبستمن الأقبية والقراطق والمناطق ، فما ست قدودهن وبرزت ارفادفن ، وذلك من أجل خدمة ابنها الخليفة الأمين ، الذي أبرزهن للناس من الخاصة والعامة ، فشاع استخدام الجوارى الغلاميات على هذا النسق عند العامة والخاصة ( مروج ، ج ٤ ص ٣١٨ ) .

أما المتوكل فقد خالف ما كان عليه المأمون والمعتصم والوائق من الاعتقاد فنهى عن الجدل والمناظرة في الآراء وعاقب عليه ، وأمر بالتقليد ، وأظهر الرواية للحديث .

أما الأخبار المساوية في تاريخ الخلافة ، وهي التي تشد الانتباه بما تثيره من شجون حزنية ، فممتا مقاتل الطالبين ، وحصار مكة ، ونبش القبور ، ورفع رأس الأمين على خشبة في صحن دار أخيه الخليفة الفيلسوف ، وجلد أحمد بن حنبل ، وقتل الخلفاء وتعذيب الوزراء ( مروج ، ج ٤ ص ٢٢٩ ) .

### مقتل المتوكل

والمنظر يتمثل في مدينة سامرا ليلة الأربعاء ٣ شوال سنة ٢٤٧ هـ / ١١ ديسمبر ٨٦١ م ، في قاعة الشراب الفسيحة في القصر الخلفي . وعن توزيع الأشخاص : فالمتوكل على سريرته تحيط به بطانته من الندماء وعلى رأسهم الفتح بن خاقان ، أقربهم إلى قلبه الخليفة . وعلى بعد قليل جلست جوقة المغنين والموسيقين ، والخدم وقوف على رؤوس الحاضرين يديرون الكؤوس .

وعن الأدوار ، فعندما يعمل الشراب في الخليفة ، ويغني المغنون يقبل على البكاء وبعد مضي ثلاث ساعات من الليل كان المتوكل يتمابل على سريرته من شدة السكر ، والخدم عند رأسه يحاولون إقامته ، وهنا يقبل القائد التركي باغر ومعه عشرة نفر من الأتراك ملثمين يقتحمون المجلس والسيوف تبرق في أيديهم في ضوء الشموع . وعندما صعد باغر إلى سرير الخليفة صاح الفتح بن خاقان : ويلكم ، وهنا يفر الحضور من الجلساء والندماء ، ولم يبق في المجلس غير الفتح ابن خاقان الذي أخذ يدافع عن سيده ببطولة الشجعان .

« قال البحرني : فسمعت صيحة المتوكل وقد ضربه باغر بالسيف . . . على جانبه الأيمن ففقدته إلى خاصرته . ثم ثناه على جانبه الأيسر ففعل مثل ذلك ، وأقبل الفتح يمانعهم عنه فبعجه واحد منهم بالسيف الذي كان معه في يده فأخرجه من مته ، وهو صابر لا يتنحي ولا يزول . . . ، ثم طرح بنفسه على المتوكل فماتاً جميعاً . . . » ( انظر مروج الذهب ، ج ٤ ص ١٢٠ - ١٢١ ) .

### مقتل المهتدي

والمهدى في ورعه كان يريد أن يجدد عهد عمر بن عبد العزيز في بني هاشم : فلقد قلل الرجل من اللباس والفرش والمطعم والمشرب ، وكسر آنية الذهب والفضة وأمر بها فضربت دنائير ودراهم ، كما عمد إلى الصور التي كانت تزين حيطان المجالس الخلفية فمحييت ، وذبح الكباش التي كان يذبح بها بين يدي الخلفاء ، والديوك ، وقتل السباع المحبوسة . . . وخفض نفقته إلى ١٠٠ ( مائة ) درهم ، بعد أن كانت نفقة مواليه الخلفاء ١٠ ( عشرة ) آلاف درهم .

وما هو أغرب من ذلك ما يقال من أنه : كان يصوم الدهر ويقوم الليل وهو في جبة صوف ، والغل ( القيد ) في يديه ( مروج ، ج ٤ ص ١٨٩ - ١٩٠ ) فكانه واحد من متصوفة الملا متية .

أما عن مقتله ، فالمنظر يتمثل أولاً في شوارع مدينة سامرا ، يوم الثلاثاء ١٥ رجب سنة ٢٥٥ هـ / ١٠ يونيو ٨٦٩ م ، بعد محاولة فاشلة من جانب الخليفة في مواجهة خصومه من قواد الترك وعلى رأسهم القائد بابكال . فالمهدى يجري صالِحاً في الأسواق مستغيثاً بالعامّة ، قبل أن يخفى في إحدى الدور ، ويحمل منها إلى دار القائد التركي يارجوج ويدور جدل بين الخليفة وحرسه التركي حول مدى ما يصح من سيرة الخليفة في رجاله الذين يتراوح ما بين تركي وخزري وفرغانى ، من أنواع الاعاجم .

ويتهى الأمر بأن يأتي الأتراك بالخنجر ويقتلوا المهتدى على طريقتهم الخاصة « وكان أول من جرحه ابن عم لبايكال ، جرحه بخنجر في أوداجه ، واثكب عليه فالتقم الجرح والدم ينفور منه ، وأقبل يمس الدم حتى روى منه ، والتركي سكران . فلما روى من دم المهتدى قام قائماً وقد مات المهتدى ، فقال : يا أصحابنا قد رويت من دم المهتدى كما رويت في هذا اليوم من الحمر<sup>(٢٠)</sup> ».

هذه المآسي التي عرفها المشرق اعتباراً من منتصف القرن الثالث الهجري (٩ م) هي التي تمثل دورة التطور التي اكتملت على أيام المسعودي ، حسباً رأها ابن خلدون في المقدمة ، وعرفها بأنها حالة التبدل الطبيعية ، وشبهها بما كان يطرأ على بلاد المغرب من التغير على عهده ، في منتصف القرن الثامن الهجري (١٤ م) حيث كانت قبائل العرب من السلالة الهلالية تقوم بدور أشبه ما يكون بدور الأتراك في المشرق ، من حيث التسلط على الدول المغربية ، وإن كان بطريقة مخالفة .

أما ما تعرض له من الأخبار المتنوعة ، مما يعالج نظم الحكم والسياسة أو الأخلاق والعادات والمذاهب والديانات والعلوم وطرائف الأخبار وخصائص عهود الخلفاء فهي تجعل من المسعودي وكأنه مؤرخ حضارة . ومروج الذهب من هذا الوجه أشبه ما يكون بمقدمة ابن خلدون التي اعتبرها البعض تأليفاً في فلسفة التاريخ بينما رأى البعض أن موضوعها ( هو التاريخ كما ينبغي أن يكون ، بمعناه الشمولي الجامع ، وهو ما ينسجم مع رأي ابن خلدون في كتاب مروج الذهب .

وهكذا نجد أنه من المناسب أن تعرض بإيجاز لمحتويات المقدمة في محاولة لبيان مدى تأثير ابن خلدون بطريقة المسعودي في التأليف التاريخي .

#### مقدمة ابن خلدون : المحتوى

والكتاب الأول من عبر ابن خلدون المعروف بالمقدمة ، وهو المجلد الأول من طبعة بولاق سنة ١٨٨٢ ، يقع في ٥٠٦ صفحة دون المقدمة « في فضل علم التاريخ ، والفهرسة التي تقع في ١١ صفحة . وهو يحمل عنوان : « الكتاب الأول : في طبيعة العمران في الخليفة ، وما يعرض من البدو والحضر والتغلب ، والكسب والمعاش ، والصنائع والعلوم ونحوها ، وما لذلك من العلل والأسباب » .

والمقدمة مقسمة الى ٦ فصول ، على الوجه الآتي :

- فصل ١ ( ٦٧ ص ) : في العمران البشري على الجملة ، وفيه ٦ مقدمات في : ضرورة الاجتماع الانساني والجغرافيا - وخاصة أثر البيئة في الانسان - وفي أصناف المدركين للغيب ، وحقيقة النبوة والكهانة .

(٢٠) مروج الذهب ، ج ٤ ص ١٨٦ - هذا وإن كانت هناك روايات أخرى عن قتله ، من القول أنه عصرت مذاكيره حتى مات ، أو أنه جعل بين لوجين عظيمين وشده بالهبال ، أو أنه قتل خطأ - وهي الروايات التي تنقل مع حداثات الترك القديمة التي لا تسمح بإقامة دم البلاد .

- فصل ٢ ( ٢٨ ص ) : في العمران البدوي والامم الرحشية والقبائل . ومن عناصره فصول في : البدو والحضر والعصبية والانساب والملك ، واحوال العرب ، من : التغلب على البسائط ويعدهم عن سياسة الملك .

- فصل ٣ ( ١٥٧ ص ) : في الدول العامة والملك والخلافة والمراتب السلطانية . وفيه فصول في العلاقة بين الدولة والعصبية ، وبين الدعوة الدينية والعصبية ، ونظريات في عمر الدولة وانتقالها من البداوة الى الحضارة ، وتعريفات بالخلافة والامامة ونظم الحكم ، وما يلحق بذلك من العمران والمجاعات ، والمذاهب الفاطمية ، وعلم الحدثنان .

- فصل ٤ ( ٣٢ ص ) في البلدان والامصار وسائر العمران . وفيه فصول في : الدول واحوال المدن ، وتفاضل الامصار في العمران واسعار المدن ، والحضارة بصفتها غاية العمران ونهاية لعمره ، وفي لغات أهل الامصار .

- فصل ٥ ( ٤١ ص ) : في المعاش ووجوهه من الكسب والصنائع ، وفيه نظريات في : الكسب ووجوه المعاش ، والفلاحة والتجارة والصنائع ثم تعريف بأهم الحرف والصناعات .

- فصل ٦ ( ٦١ ص ) : في العلوم واصنافها والتعليم وطرقه وسائر وجوهه . وفيه فصول في العلاقة بين العلم والعمران ثم عرض لمختلف العلوم من نقلية وعقلية ، ومنها السحر والطلسمات واسرار الحروف ، والطب الروحاني ، واستخراج أجوية المسائل من زايجرة العالم . وآخرها فصل في اشعار العرب وأهل الامصار لهذا العهد - وفيه اشعار الهلالية والزنتانية - ثم الموشحات والأزجال الأندلسية .

#### أوجه الشبه والاختلاف ما بين مقدمة العبر ومروج الذهب

وبالمقارنة بين محتويات كل من مروج الذهب ومقدمة العبر نجد نوعاً من التشابه بينهما ، يظهر بصورة خاصة في المقدمات الجغرافية ، وأجيال البدو من العرب والبربر ( والاكراد والترك ) ، وفي نظم الحكم وما يتعلق منها بالامامة والخلافة والمهدية الفاطمية ، والأديان والمذاهب ، والعلوم ومنها : الفلسفة والطب والسحر والتنجيم وقبل كل ذلك الاهتمام بأخبار العامة من الناس ، من : السوقة والخدم واصحاب الحرف والصناعات .

والحقيقة أن تأثر ابن خلدون بالمسعودي لا يحتاج الى دليل ، فابن خلدون يرى في كتاب مروج الذهب النموذج الذي يجب أن يقتدى به ، وان طريقة المسعودي في تدوين التاريخ بشكل شمولي جامع هو المنهج الذي يخرج بالتاريخ من حدوده السياسية الضيقة الى آفاقه الحضارية الرحبة ، التي تجعل منه تاريخاً للامم والشعوب بعد أن كان أخباراً عن الأمراء والملوك .

ولكن رغم ما يشير اليه من أوجه الشبه هذه ، فان المقدمة الخلدونية تمتاز على مروج الذهب للمسعودي بوحدة الموضوع . فالمعلومات المتنوعة التي يعرضها المسعودي في شكل استطرادات أشبه ما تكون بفسيفساء مبرقة ، تظهر في

المقدمة عند ابن خلدون ، في شكل موضوعات متماسكة ، حسنة السبك جيدة الحلي . بل انها تتبلور في آخر الأمر في شكل نظريات عامة في العمران بمعنى الاجتماع الانساني ، وهي التي عرفت بفلسفة التاريخ ، هي التي رفعت ابن خلدون الى مصاف كبار المفكرين العالمين .

### تقديم المقدمة :

وهكذا رفع جوتييه في كتابه المعنون بـ « ماضي افريقية الشمالية : القرون الممتدة » ابن خلدون الى مرتبة القديس أغسطين ، وقال : ان القارة الافريقية فقيرة في الرجال من طراز أغسطين وابن خلدون<sup>(٢١)</sup> أما أرنولد توينبي ، مؤرخ الحضارات المعاصرة فقد وصف مقدمة ابن خلدون بأنها : عمل لم يقم بمثله انسان في أي زمان ولا مكان<sup>(٢٢)</sup> هذا ، ولو ان توينبي يقارن في نفس هذا البحث بين ابن خلدون وكل من ثيوديد ومكيافلي وغيرهما من المؤرخين العالمين ، مثل يوسيفوس ويوبليوس . وهنا نشير الى ان ايف لاکوست في كتابه عن ابن خلدون الذي عنوانه ، بـ «مولد التاريخ في العالم الثالث»<sup>(٢٣)</sup> ، لا يجب أن يقارن مؤرخنا الا بثيوديد . وفي تلك المقارنة يرى : ان اكتشاف المقدمة في القرن الـ ١٩ م ، وترجمتها في أوروبا ، وافق تطور علم التاريخ والاجتماع ، حيث أصبح التفكير التاريخي عقلياً مادياً بشكل لا يتفق مع التفكير الديني (ص ١٦٩ ، ص ١٧٢) وانه على عكس هيرودوت الذي ظل يهدف الى الحفاظ على القصص المدهش من النسيان ، كما ظلت فكرته ضعيفة عن الزمنية والسببية ، ظهر عند ثيوديد لأول مرة البحث الواعي لمعقولية الأفعال البشرية (ص ١٧٣) وبالمقارنة يتضح أن كتاب القديس أغسطين وهو «مدينة الله» أثر لاهوتي وتبريري ذو برهنة تاريخية (ص ١٧٥) . أما ابن خلدون فانه بفضل نظرياته في النقد التاريخي ، الذي يتمثل في : غياب الشرح والتعليل وقبول الأحكام الاعتباطية ، ونقل الأخبار التقليدية والروايات المنقبة والأسطورية ، وإهمال الوقائع الاقتصادية والاجتماعية ، مع الاهتمام بالبلاغة ووفرة الوقائع دون الربط بينهما ، كل ذلك جعل منه (ابن خلدون) المؤرخ الوحيد الذي تجاوز ثوسيديد قبل القرن التاسع عشر الميلادي وبناء على ذلك ، فاذا كان ثوسيديد هو مخترع التاريخ فان ابن خلدون هو الذي جعل من التاريخ علماً (ص ١٧٧) .

### ما بين المقدمة والتاريخ في كتاب العبر :

ولكنه اذا كانت المقدمة في نظر ايف لاکوست ، مؤلفاً موسوعياً الطابع ، يحوى عرضاً منهجياً وتحليلاً للبنى الاجتماعية والسياسية (ص ٨١) ، فان تاريخ ابن خلدون أشبه ما يكون بتاريخ سابقه من المسلمين . فطريقته في تاريخ البربر تتمثل في تبويب الوقائع في فصول تتعلق بمختلف السلالات الحاكمة ، واهتمامه الأكبر ينصب على الأحداث العسكرية (ص ٧٩) .

(٢١) E.F. Gautier, Le Passe de l'Afrique du nord, les Siecles Obscurs, Paris, 1942, P. 80

وانظر كتابنا في : تاريخ المغرب العربي الاسكتندرية ١٩٧٩ ، ج ١ ص ٣١ .

(٢٢) انظر محمد عبد الله حنان ، ابن خلدون ، القاهرة ط ٣٠ ، ١٩٦٥ ص ١٩١ ، ص ٢٨٨ - ٢٨٩ (حيث ترجمة توينبي الى العربية)

(٢٣) انظر الترجمة العربية بمعرفة ميشال سليمان ، نشر دار ابن خلدون ، بيروت ، ط ١٩٧٨ .

والحقيقة أن النقد الحديث يكاد يكون قد استقر على أن ابن خلدون أهمل قواعد النقد التاريخي التي أصر عليها في المقدمة ، فلم يطبقها في تاريخه الذي جاء تقليدياً ، مثل بقية كتب التاريخ الإسلامي من العصور السابقة . فهو يكتفي بالنقل ، ويهمل ذكر مصادره في كثير من الأحيان ، وهو لا يطبق نظرياته في قيام الدول وتطور العمران ، فيكتفى برواية الأخبار دونما سببية أو تعليل<sup>(٢٤)</sup> .

وإذا صح ذلك تكون المقدمة وحدها ، كتاب تفكير وجهد ، وهي في جزء واحد من سبعة أجزاء يتكون منها كتاب العبر ، ويكون التاريخ عملاً تقليدياً عادياً ، وهو في الستة الباقية من الأجزاء .

وهنا نصل إلى تحديد هدفنا من تلك المحاولة في دراسة ابن خلدون ، وهو هدف مزدوج يتلخص أولاً في : النظر إلى المقدمة التي رفعت من شأن المؤرخ المغربي الكبير على أنها عمل تركيبي قائم على تجميع عناصر التراث الإسلامي المختلفة ، في فترة كان هذا التراث قد فقد كثيراً من بريقه ، واستيعاب تلك العناصر في أطرها التاريخية ثم تمثلها في شكل نظريات عامة يمكن أن تفسر كيفية مسار المجتمع في حياته اليومية المعتادة ، عبر الزمن ، وبذلك يصبح التاريخ أبا للعلوم ، كما يقول المسعودي ويمكن لنا أن نعرض هذه الفكرة بطريقة موجزة ، فنقول : إن المقدمة تستمد قيمتها من حيث هي تلخيص عبقرى لتاريخ التراث الإسلامي . وهذا يعني : أن التقدير للتراث وأصحابه من متقدمين ومتأخرين ، بينا العبقري للمؤرخ المجدد الذي ظهر وكأنه في غيروقه - وهو ما حاولنا بيانه - مقتصرين بشكل عام على عمل المسعودي ، قدوة ابن خلدون .

وثانياً ، في النظر إلى التاريخ في كتاب العبر على أنه عمل ينسجم مع عبقرية صاحبه ، وهو الأمر الطبيعي ، رغم ما تواتر من أنه تاريخ تقليدي ، وذلك لا يتأتى إلا بالنظر الموضوعي في محتوى الكتاب ومضمونه ، وما يتعلق بذلك من ظروف تأليفه .

### موضوعات التاريخ في كتاب العبر

بعد المقدمة وهي الكتاب الأول ، يحتوي التاريخ في كتاب العبر على كتابين في ٦ أجزاء ( مجلدات ) ، وهما : الكتاب الثاني : « في أخبار العرب وأجيالهم ودولهم منذ بدء الخليقة إلى هذا العهد » ، ويقع في ٤ أجزاء ( أي مجلدات ) ، من طبعة بولاق هي : الثاني في ( ٥٣٤ ص بدون الفهارس )<sup>(٢٥)</sup> ، والثالث ( في ٥٤٢ ص ) ، والرابع ( في ٥٢١ ص ) والخامس ( في ٥٦٣ ص ) - بالإضافة إلى ٨٨ صفحة من المجلد السادس<sup>(٢٦)</sup> ، فيكون مجموع صفحات الكتاب الثاني ٢٢٤٨ بدون الفهارس .

(٢٤) انظر على عهد الواحد والي ، مقدمة ابن خلدون الفصل الخاص بالأدب الموجهة إلى يهوت ابن خلدون في التاريخ ، ج ١ ص ١٥٠ .

(٢٥) الجزء الثاني من طبعة بولاق يحتوي على فصلين : الأول من ص ٢ إلى ٣٣٨ ، وآخرها في قريش ولما فهرست خاص في آخرها ، والثالثة تبدأ في نفس المجلد والفهرست الخاص بها في ص ٣٤٢ ، ثم تأخذ تليها جديداً من ص ٢ إلى ص ١٩٠ ( حيث يهمل الحسن وتسليمه لحداوية ) .

(٢٦) القسم الخاص بالعرب في أول الجزء السادس يبدأ بالترقيم المتداول وهو ص ٢ . وسبب وضعه في المجلد السادس الخاص بالبربر هو أنه في أعمار الطبقة الرابعة من العرب - المعاصرين لابن خلدون من بني هلال ، فهو إذن وفق الصلة بتاريخ البربر

وهكذا يبدأ الكتاب الثالث ، في الصفحة ٨٩ من الجزء ( المجلد ) السادس ( في ٣٣٦ ص ) وهو : « في أخبار البربر والأمة الثانية من أهل المغرب ، وذكر أوليتهم وأجيالهم ودولتهم منذ بدء الخليقة لهذا العهد ، ونقل الخلاف الواقع بين الناس في أنسابهم » ويستغرق الجزء السابع ( في ٤٦٤ ص ) ، ويكون عدد صفحاته ( ٨٠٠ ص ) بدون الفهارس ..

وبذلك يكون القسم التاريخي من كتاب العبر في ٣٠٤٨ صفحة ، بدون الفهارس ، وهو مع المقدمة ( ٥٣٤ ص ) يكون عملاً ضخماً ، يقدره المقرئ ويصفه بالتاريخ الكبير ، بمناسبة ما ينقله من الترجمة التي ألفها ابن الخطيب في الاطالة لابن خلدون ، والتي ذكر فيها من تواليفه : شرح البردة ، وتلخيص كتب ابن رشد ، وتأليف كتاب في الحساب ، الى جانب ما نظمته من أشعار ، فيقول : « قلت هذا كلام لسان الدين في حق المذكور في مبادئ أمره وأواسطه ، فكيف لورأى تاريخه الكبير .. » ديوان العبر .. « وقد عرف في آخره بنفسه » ( ٣٧ ) .

وابن خلدون في تأليفه التاريخي ملتزم بعمل المقدمات ، فهو يخص الكتاب الثاني : في أخبار العرب ، بمقدمتين وبرنامج ، وأولى المقدمتين ، في : أسم العالم واختلاف أجيالهم والكلام على الجملة في أنسابهم ( ج ٢ ص ٢ وما بعدها ) وثانيتهما في : كيفية وضع الأنساب في الكتاب ( كتابنا ) لأهل الدول وغيرهم : كالأغصان للشجرة ( ص ١٤ ) . . . وهنا يحسن الاسراع بالإشارة الى أن ابن خلدون مغرم بالأنساب ، محب لتوضيح أخباره أو على الأصح تلخيصها في رسوم في شكل شجرة النسب من جذورها الى أغصانها . وهو يعرف بعلم الأنساب ويبين أهميته التاريخية وفوائده العملية مما يتعلق بالموايرث وعلم القرائض . أما البرنامج فيعني به محتويات الكتاب من الدول العربية على ترتيبها ، والدول المعاصرة لها من المعجم .

وهو مولى بالتقسيم والتصنيف ، مثل معظم الفلاسفة ، فهو يقسم العرب الذين يعرف بأخبارهم الى أربع طبقات :

- ١ - العرب العاربة : عاد وثمود ، ومعاصروهم
- ٢ - العرب المستعربة : اليمنية والسبائية ومعاصروهم من ملوك بابل ونيوى والقبط ، وبنو اسرائيل والفرس على طبقاتهم ، واليونان والروم . . . الخ .
- ٣ - العرب التابعة : من العدنانية والقحطانية ، وعمالكهم في الحيرة والشام الى قرش وظهور الاسلام ، وقيام دولة الخلافة حيث ينتهي الجزء الثاني بتسليم الحسن الأمر لمعاوية .

ويستغرق الجزء الثالث تاريخ الدولتين : الأموية والعباسية ، وقيام الدويلات المستقلة في عرض عام في ثلثي دولة الخلافة ، من : الصفارية والسامانية وثورات الزنج والقرامطة والدولة الطولونية والفاطمية ، والدول المتغلبة على بغداد ، من : الديلمية والسلجوقية حتى ظهور التتر وسقوط بغداد ، وانتقال الخلافة الى مصر .

وهو يعود في الجزء الرابع الى دراسة تاريخ الدويلات المستقلة في شكل كيانات ذاتية يبدأها بالثورات العلوية والدول التي قامت على أساس التشيع ، من : الزيدية والأدارسة والزنج ، والبيديين بالقيروان والقاهرة ، والقرمطية بالبحرين ، والاسماعيلية بالموت ، وبنو الحسن بمكة ثم الجواشم ، وأخيرا دولة بني الرسي أئمة الزيدية بصعدة .

بعد ذلك تأتي أخبار المعارضين للدولة العباسية من الأمويين في الأندلس ، وفيها يشير الى أخبار ثوار اشبيلية وبضمهم آله من بني خلدون ( ج ٤ ص ١٥ - ١٣٦ ) ، ثم من أتى بعدهم ، مثل : دولة بني حمود ( الأدارسة ) بقرطبة ، وملوك الطوائف ثم دولة بني الأحمر المعاصرة حيث لا يزيد ما بين المسلمين على أيامه على ما بين رندة من الغرب والبيرة من شرق الأندلس ، وهي مسافة حوالي ١٠ ( عشر ) مراحل طولا ، في مرحلة أو أقل من مرحلة عرضا : ما بين البحر والشمال ( الجوف ) ( العبر ، ج ٤ ص ١٧١ ) وأخيرا دول بني اذفونش من الجلالقة .

ثم تأتي دول العرب المتغلبين التابعة للدولة العباسية في المغرب من : الدولة الأغلبية وما يلحق بها ، ودول الاسلام في اليمن من تابعين لبغداد أو شيعة ، وبنو حمدان ، وبنو عقيل بالموصل ، وبنو مزيد بالحلة .

ثم دول العجم التابعين للدولة العباسية ، من : الطولونية ، والاخشيديّة والصفارية وآل سبكتين وبنو سامان ، والغورية والقراخانية والحطائية .

أما موضوعات الجزء الخامس فأولها دولة السلجوقية من الترك ، وتبدأ بمقدمات في أنسابهم وجغرافية بلادهم ، وفي طبيعة حياتهم البدوية التي يستتبعون فيها مساقط الغيث ومن الواضح أن هذه القطعة أضيفت كمقدمة دون ترتيب ، وربما وضعت في غير موضعها اذ تأتي بعدها معلومات عن آل ابرسلان ثم عنوان عن غزاته الى خلاط وأسر ملك الروم .

وبعد سلاطين السلجقة يأتي ملوك الغور ثم خروج التتر وفرار خوارزم شاه ، ثم سلاجقة الشام وآل زنكي ، وأخبار الفرنج في سواحل الشام ، والفرنج ( الصقليين ) في سواحل أفريقية والدولة الأيوبية والحروب مع الفرنج بالشام .

وأخيرا تأتي أخبار دولة الترك القائمين بالدولة العباسية بمصر والشام من بعد بني أيوب لهذا العهد ( المماليك ) وتبدأ بمقدمات في أنساب الترك ، ودخولهم في خدمة الخلفاء ، وجلب التجار لهم بمصر ، لكثرة رقيتهم نتيجة لغلبة التتر على شعوب الترك من القفجاق والروس والجرسكس وإن الغرض من جلبهم الى مصر ليس للاستعباد بل لتكثيف العصبية وتعليق الشوكة وبذلك تنتهي أخبار الطبقة الثالثة من العرب .

ويبدأ الجزء السادس بالطبقة الرابعة من العرب المستعجمة أهل الجيل الناشئ لهذا العهد ( عهد المؤلف ) وفيه أخبار دخول بني هلال وسليم المغرب في منتصف القرن الخامس الهجري ( ١١ م ) والتي تستغرق ٨٨ صفحة .



ولما كان الكتاب الثالث الخاص بالبربر يأتي بعد ذلك ويستغرق بقية الجزئين السادس والسابع فكان ابن خلدون قصد أن تكون قصة دخول الهلالية إلى المغرب مقدمة لتاريخ البربر ، بمعنى أن تاريخ البربر في المغرب ليس إلا تاريخ العرب في أفريقيا الشمالية ، وهو الأمر الذي لم يغيب عن فطنة مدير مطبعة بولاق . والا لكان بدأ الجزء السادس مع بداية الكتاب الثالث في أخبار البربر ، والأمة الثانية من أهل المغرب من صفحة ٨٩ .

وتبدأ أخبار البربر بالتعريف بمواطنهم ، وفضائلهم ، وأخبارهم على الجملة من الفتح الإسلامي إلى ولاية بني الأغلب ، وهو ما سبق أن تحدث فيه في الجزء الرابع ( ص ١٨٥ ) ثم يستعرض قبائل البتر وذؤلة بني واسول ملوك سجلماسة ، ثم قبائل البرانس ودولة آل زيري ، وآل حماد بالقلمة .

وتأتي الطبقة الثانية من صنهاجة : ويستعرض قبائلها ، من : المصامدة وبرغواطة وغمارة ، ويدخل في ثناياها أخبار الإدارة للمرة الثانية ( أنظر ج ٤ ص ١٢ ) وبني عبد المؤمن وبني حفص ، والصراع بينهم وبين بني مرين وبني عبد الواد ، وهي الفترة التي عاصرها ابن خلدون حيث ولاية الأمير أبي عبدالله الجبابة ، واستيلاء أبي الحسن على أفريقية وواقعة العرب مع السلطان أبي الحسن بالقبروان ( سنة ٧٤٩ هـ / ١٣٤٨ م ) ، وولاية السلطان أبي العباس ثم ابنه أبي فارس ، ورياسة بني يملول بتوزر .

والجزء السابع والأخير يستوعب خبر قبائل زناتة الذين كانوا يجاورون العرب في سكتي الحيام واتخاذ الإبل وركوب الخيل وإيلاف الرحلتين بمعنى تتبع القطر والكلأ في الانتجاع صيفا وشتاء .

وأسلوب الحياة البدوية هذا يسميه ابن خلدون « العربية » ( ص ٤ ) .

وهنا يظهر ابن خلدون دراية بأحوال البربر ، فيتكلم عن أنساب بعض القبائل المجهولة النسب ، من زناتة ، كما يكشف عن دراية بشيء من فقه لغتهم وصوتياتها . ثم هو يقسم زناتة إلى طبقات كما سبق له أن قسم العرب وصنهاجة ، تبعاً لأجيالهم .

والطبقة الأولى هم بنو يفرن ، ومنهم أبو يزيد النائر على الفاطميين بالمهدية ، كما كانت لهم وقتل دولة بوهراة وتاهرت . ومنهم مغراوة الذين دخلوا في خدمة الإدارة ثم ظاهروا دعوة المروانية بالاندلس ، وملكوا فاس إلى عهد لتونة المرابطين .

والطبقة الثانية هم بنو واسين ، ومنهم بنو مرين وبنو عبد الواد ، حيث العودة إلى الدولة الحفصية والفترة التي عاصرها ابن خلدون ، وهزيمة السلطان أبي الحسن ، واستيلاء أبي عنان ثم أبي سالم ثم أبي العباس على تلمسان ، ومحنة أخيه يحيى بن خلدون على يدي أبي تاشفين ثم يأتي بنو سلامة أصحاب قلعة تاوغزوت ( تازروت ) ، ويستمرسل أخبارهم إلى سنة ٧٨٣ هـ / ١٣٨١ م .

وفي الدولة المرينية تأتي أخبار يعقوب بن عبد الحق وجهاده في الأندلس حيث أجاز ٤ مرات ، وانتفاض ابن الأحمر ( صاحب غرناطة ) ومظاهرة للطاغية على طريف ، وانتقاد السلم مع الطاغية شاذجة . وتأتي أخبار السلطان أبي الحسن مرة أخرى ، وقضائه على دولة بني عبد الواد في تلمسان ، وهزيمته المؤلة في طريف سنة ٧٤٠ هـ / ١٣٤٠ م وواقعة الحرب مع السلطان بالقيروان سنة ٧٤٩ هـ / ١٣٤٨ .

ويتهيء الجزء السابع لمحقق في التعريف بابن خلدون مؤلف الكتاب تستغرق ٨٣ صفحة ( من ص ٣٧٩ الى ص ٤٦١ ) ( ٢٨ ) .

#### ما بين الكتاب والكتاب : ابن خلدون والعبر

والحقيقة ان تعريف ابن خلدون بنفسه كخاتمة لكتابه يعتبر مرشدا هاما لمن يرغب في دراسة كتاب العبر . فتأليف الكتاب الكبير بمقدمته العجيبة يمثل في حقيقة الامر خلاصة تجارب صاحبه على المستويين النظري والعملي . والذي نقصده بالتجارب النظرية هو تكوين ابن خلدون العلمي الذي يظهر بشكل فذ في الكتاب الاول في المقدمة ، أما التجارب العملية التي تعنى اشتغاله بالوظائف الديوانية وممارساته السياسية فتظهر بجلاء في الاجزاء المعاصرة من تاريخه ، وهي التي مكنته من بلورة كثير من نظرياته في التاريخ والاجتماع والسياسة .

فابن خلدون عاش زهاء ٧٦ سنة ( ٧٣٢ - ٨٠٨ هـ / ١٣٣٢ - ١٤٠٦ ) قضى معظمها في خدمة ملوك المغرب والأندلس المعاصرين ، متجولا ما بين : تونس وقسنطينة ووجاية وتلمسان وغرناطة وفاس ومراكش ، وغيرها من حواضر البادية في بسكرة وقلعة بني سلامة قبل أن ينتهي به المطاف الى مصر ( كما فعل السعودي ) . هذا ، ومن المهم الاشارة الى أنه بدأ العمل في الوظائف الديوانية مبكرا قبل أن يبلغ العشرين من عمره ، وأنه كثيرا ما استغل الوظيفة من أجل الدراسة والتحصيل العلمي ، وهو الأمر الذي كانت تسمح به ظروف العمل في بطاقة الحكام الذين كانوا يتجمعون بصحبة العلماء . هذا ، الى جانب أنه كان يسمح لنفسه بترك الوظيفة ما بين الحين والآخر ليأخذ قسطا من الراحة . . يقضي وحده في التأمل والقراءة والكتابة .

ومن المهم الاشارة قبل ذلك أو بعده ، الى أن مؤرخنا كان شخصا موهوبا ، وأنه سليل أسرة كبيرة كان لها نشاطها السياسي والعلمي منذ قرون طويلة ، في كل من الأندلس والعدوة الافريقية ( سبتة ) وتونس ، وكل ذلك له أثره في تكوينه العلمي وبنيت الشخصية .

( ٢٨ ) وهذا التعريف نشر مستقلا بعد أن وجدت منه نسخ مزودة ومصححة بمقبرة ابن خلدون بعد انتقاله الى مصر ، وذلك بإشراف محمد بن تايوت المنجي ، ونحت حنوت و التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا ، القاهرة ( لجنة التأليف والترجمة والنشر ) ، ١٩٥١ .

ولما كانت هذه الجزء المثل من الكتاب ، فلنأخذ من الرجوع الى التعريف كما هو في ختام الجزء السابع من العبر ، وهو يحقق الغرض الذي يهدف اليه من هذه الدراسة ، ان شاء الله ، مع الاشارة الى من رجع اليه اذا ظهرت الحاجة الى ذلك .

### بنو خلدون : ما بين اشيلية وتونس

تنسب أسرة ابن خلدون الى جددها خالد الحضرمي أصلاً ، الذي دخل الأندلس منذ وقت مبكر ، ونزل اشيلية ، حيث عرف - على الطريقة الأندلسية - باسم خلدون ، في شكل صيغة الجمع من أجل التعظيم والتفخيم . وشاركت الأسرة في العمل السياسي على أيام الأمويين (٢٩٩) ، واستمر لها شأنها في اشيلية حتى أيام بني عباد اذ شاركوا في موقعة الزلاقة (٤٧٩ هـ/١٠٨٦ م) ومع اضمحلال دولة الموحدين في الأندلس وانكشاف بسائط اشيلية أمام العدوات الأسرة الانتقال الى العدة المغربية ، فاستقرت في سبتة في كنف بني العز من سادة المدينة ، وذلك قبل أن يرحلوا الى أفريقية في رعاية أميرها أبي زكريا يحيى بن عبد الواحد الحفصي الذي استقل عن الموحدين سنة ٦٢٥ هـ/١٢٢٨ م وعلى عهد الأمير أبي اسحق ( ابن أبي زكريا يحيى ، وهو الرابع من أمراء الحفصيين ) عين جد أبيه أبو بكر محمد في وظيفة كاتب الأشغال ، المخصص بالارشف على الشؤون المالية في الدولة ( التعريف ، العبر ، ج ٣ ص ٣٨٣ ) ، ثم انتقل جده محمد ( ابن محمد ) الى بجاية حيث ولي حجابة أبي فارس ( ابن أبي اسحق ) الذي كان مبعداً من قبل أبيه هناك ، ولكنه لم يلبث أن استعفى من تلك الوظيفة ، ورجع الى الحضرة تونس .

ولما قامت ثورة ابن أبي عمارة المعروف بالدعي في تونس ، راح ضحيتها جده أبو بكر محمد اذ لم يكتف الدعي باعتقاله ومصادره ، بل انه دبر التخلص منه خفياً في محبسه . وعندما انتقل جده محمد مع السلطان أبي اسحق الى بجاية حيث كان يعمل من قبل حاجباً لدى الأمير أبي فارس بن أبي اسحق . قبض عليهم أبو فارس ، وأخرجهم معه عندما قاتل الدعي ابن عمارة قرب مرماجة .

وعندما استعاد أبو اسحق ملكه صار محمد بن خلدون حاجباً له بعد الفازاري ، كما استمر في الحجابة على عهد الأمير أبي عصيد ( حفيد المستنصر ) وان كان رديفاً للحاجب محمد بن الدباغ ( أي حاجباً ثانياً ) . وعلى عهد الأمير خالد ظل محمد بن خلدون محتفظاً بما كان له من الامتيازات دون منصب رسمي ، ولكنه عاد الى الخدمة على عهد الأمير أبي يحيى اللحياني ، ولكن في شكل وال أو قائد لمنطقة الجزيرة ، عندما ظهر للأمير خطر بعض بطون قبائل سليم في تلك الناحية .

وعندما انتهت إمارة اللحياني ترك محمد بن خلدون الخدمة ، وفي سنة ٧١٨ هـ/١٣١٨ م خرج لأداء فريضة الحج . والظاهر أنه كان قد قرر عدم العودة الى الاشتغال بالوظائف الديوانية ، اذ يقول مؤرخنا انه « أظهر التوبة » بعد الحج ، وأنه عاود الحج مرة أخرى سنة ٧٢٣ هـ/١٣٢٣ م ثم لزم كسرى بيته . وهكذا عندما عرضت عليه الحجابة سنة ٧٢٧ هـ/١٣٢٧ م ، عقب وفاة محمد بن عبد العزيز المعروف بالزوار ، « أبي واستعفى ، فأعفاه ( السلطان ) » ، ولكنه

(٢٩٩) فيما يتعلق بوقت دخول خلدون الى الأندلس يكثر مؤرخنا يشكك في أن يكون ذلك قد حدث لأول الفتح سنة ٧٠٠ من هجرة - اذ لم يعرف من أجداده الاشارة لفظ ، ومن المحتمل أن يكون عشرة منهم قد سقطت أسماؤهم ( العبر ج ٧ ص ٣٧٩ ) وهذا مادعا على عبد الواحد والي الفتح الاندلسي به يكون دخول خلدون على أسلافه الى الأندلس في القرن الثالث الهجري ، أي عندما شاركت الأسرة في العمل السياسي والثورة على محمد بن الأمير عبد الله ( انظر المقدمة ، دراسة على عبد الواحد ١٨ ص ٤٢ ..

أخذ بنصيبه في تعيين محمد بن سيد الناس حاجباً . وهكذا يكون محمد ، جد مؤرخنا قد قضى حوالي ٢٠ (عشرين) سنة ، زاهداً في الوظائف والخدمة عاكفاً على صلاته وصيامه ، حسبياً نظن ، الى أن توفي وهو ملازم لداره سنة ٧٣٧ هـ / ١٣٣٦ م ( العبر ، ج ٧ ص ٣٨٣ - ٣٨٤ ) .

ولم يكن من الغريب إذن أن يترع محمد بن أبي بكر ، والد المؤرخ وسمي جده الأقرب وجد أبيه « عن طريقة السيف والخدمة الى طريقة العلم والرباط » فلقد قرأ والد ابن خلدون وتفقه ، « وكان مقدماً في صناعة العربية - وله بصر بالشعر وفنونه » ولم يكن من الغريب أن يعنى الوالد بنشئة ابنه ( مؤرخنا ) تنشئة مناسبة لمركزه العلمي ، وإن لم يجعله القضاء طويلاً ، إذ توفي في الطاعون الجارف سنة ٧٤٩ هـ / ١٣٤٨ م ، تاركاً إياه ولم يتجاوز الثامنة عشرة من عمره .

ولم تمثل كارثة الطاعون في فقد مؤرخنا لوالده وسنده في مطلع شبابه ، بل في القضاء على المشيخة من أهل العلم والتحصيل ، وبذلك تم الاستئصال مادياً ومعنوياً في البلاد التونسية .

#### عبد الرحمن بن خلدون وتكوينه العلمي :

##### المدرسة التونسية :

ولد عبد الرحمن بن خلدون ، صاحب العبر ، في مدينة تونس ، أول رمضان سنة ٧٣٢ هـ / ٢٦ مايه ١٣٣٢ م في وقت ازدهرت فيه العاصمة الحفصية كمركز للثقافة والعلوم ، بفضل مشاركة علماء الأندلس الذين كانوا قد زحوا عن الأندلس الى المغرب وتونس اثر استفحال حرب الاسترداد بعد فشل الموحدين في مكافحة القشتاليين ، في مطلع القرن السابع الهجري ، ( ١٣ م ) ، واكتشاف أهم مراكز الاسلام في قرطبة وإشبيلية ، أي منذ حوالي مائة سنة حينما غادروا خلدون إشبيلية الى سبتة .

وأول من يذكر ابن خلدون من أساتذته ، هو :

- أبو عبدالله بن نزال الأنصاري ، وهو أصلاً من جالية الأندلس ، من أعمال بلنسية ، أخذ عن مشيخة بلنسية وأعمالها . ولقد قرأ عليه القرآن - بعد أن حفظه - بالقراءات السبع المشهورة كما عرض عليه قصيدة الشاطبي في القراءات ، وكتاب التفسير لأحاديث الموطأ لابن عبد البر ، كما درس عليه كتباً أخرى ، مثل : كتاب التسهيل لابن مالك ، ومختصر ابن الخطيب في الفقه ( العبر ، ج ٧ ص ٣٨٤ ) .

وفي اللغة العربية كان والده أول أساتذته ، الى جانب : الشيخ أبي عبدالله محمد الحصاري ، وله شرح على كتاب التسهيل ، وأبي العباس أحمد بن القصار ، المتخصص في النحو ، وله شرح على قصيدة البردة المشهورة في مدح الرسول ، وكان بتونس حياً وقت تأليف الكتاب ( ما بين ٧٧٦ هـ و ٧٨٣ هـ ) وأمام العربية والأدب بتونس في ذلك الوقت هو : أبو عبدالله محمد بن بحر ، الذي وجهه الى حفظ الشعر . ولقد حفظ مؤرخنا كتب الأشعار الستة ، والحامسة للعلم ، وطائفة من شعر المتنبي ، وبعض أشعار كتاب الأغاني .

أما امام المحدثين وقتئذ بتونس ، فهو أبو عبدالله محمد بن جابر ، الملقب بشمس الدين ، ولقد سمع عليه كتاب مسلم بن الحجاج ( الصحيح ) ، وكتاب الموطأ جميعه ، الى جانب بعض من الأهمات الخمس . ولقد حرص ابن خلدون على أن يأخذ منه اجازة عامة . والاجازة العامة تعتبر بمثابة الشهادة التي تعطى حاملها الحق في تدريس كل مؤلفات من أعطاها وما قام بتدريس من كتب الآخرين .

وفي الفقه أخذ ابن خلدون عن أبي عبدالله محمد الحلياني ، وأبي القاسم محمد القصير فدرس عليهما : كتب التهذيب لأبي سعيد البردعي ، ومختصر المدونة ، وكتاب المالكية ، كما حصل منها على الاجازة .

هؤلاء الأساتذة السبعة - ويضمنهم والده - الذين كانوا مدرسته الأولى في تونس ببرنامجها التقليدي في علوم القراءات والعربية والحديث والفقه ، درجوا كلهم في الطاعون الجارف .

#### مدرسة مغربية بتونس

ومن حسن حظ مؤرخنا أن الأحوال السياسية المضطربة في بلاد المغرب ، في عصر التبدل والتغير ، في القرن الثاني الهجري ( ١٤ م ) أدت الى أن تصبح العاصمة الحفصية ، تونس لفترة من الوقت ، مركزا للمدرسة علمية أخرى ، هي المدرسة المغربية ، ممثلة في بطانة السلطان أبي الحسن المريني ، من العلماء المعينين في مجلس علمه الذي كان يتجمل به ، وذلك عندما ملك أفريقية سنة ٧٤٨ هـ / ١٣٤٧ م ( العبر ، ج ص ٣٨٤ - ٣٨٥ ) .

ومن أخذ ابن خلدون عنهم من علماء المغرب هؤلاء ، حسبما يعرف بهم في التعريف بنفسه : - شيخ الفتيا بالمغرب وأمام مذهب مالك : أبو عبدالله محمد بن سليمان السطفي ، الذي تردد على مجلسه وأفاد منه (٣٠) .

وأمام المحدثين كاتب السلطان أبي الحسن ، و « صاحب علامته التي توضع أسفل مکتوباته - أبو محمد عبد المهيمن الحضرمي السبيعي أصلا ( ٦٧٥ - ٧٤٩ هـ / ١٣٧٦ - ١٣٤٨ م ) (٣١) . ولقد لازمه ابن خلدون وأخذ عنه « سماعا واجازة » : الأهمات ( الخمس ) ، وكتاب الموطأ ، والسير لابن اسحق ، وكتاب ابن الصلاح في الحديث ، الى غير ذلك من الكتب التي سقطت من ذاكرته .

(٣٠) انظر التعريف ، العبر ، ج ٧ ص ٣٨٥ ، وأبدا ص ٣٨٩ ( حيث الاشارة الى أن قبيلته سقطة من بطون أوربة بنواحي فاس ، وأنه أخذ العلم في فاس عن الشيخ أبي الحسن الصغير امام المالكية بالمغرب وقتئذ . وكان ضمن من قرأ عليه موسى بن خلدون اخوه مؤرخنا . ولقد حضروا قبة القبروان مع السلطان أبي الحسن ، وعلمس معه الى تونس وأقام بها نحوا من سنتين .

(٣١) العبر ، ج ٧ ص ٣٨٥ - ٣٨٦ ، ١٩١ - ١٩٢ . حيث الاشارة الى أنه أخذ العلم في بلده سنة ثم استكمل دراسته في غرناطة بعد أن استقر على سبيل الرئيس أبو سعيد صاحب الأندلس واشتغل كتابا في خدمة الوزير أبي عبد الله بن الحكم بغرناطة وعندما استعاد بنو مرين سبيل وطيفة الكتاب سنة ١٣١٢ هـ / ١٣٧٢ م حل هدها أبو سعيد ثم انه ترقى الى وظيفة رئيس الكتاب ، صاحب العلامة سنة ٧١٨ هـ / ١٣١٨ م ، وظل كذلك على عهد السلطان أبي الحسن وان كان قد تقلب عن والفة القبروان . وعندما اضطرت تونس لتواري عبد المهيمن في بيت بني خلدون ، عا استأبط السلطان عليه ، ولو أنه عاد ورضى عنه . وتوفي عبد المهيمن في الطاعون الجارف سنة ٧٤٩ هـ / ١٣٤٨ م .

وإبن خلدون يشير هنا إلى أن عبد المهيم لم يكن أستاذا في الحديث واللغة العربية والأدب فقط بل كان خبيراً في العلوم العقلية أيضاً. وهو يصير على دقة عبد المهيم العلمية، فكتبه مضبوطة كلها مقابلة، ولا يتخلو ديوان منها عن ضبط بخط بعض شيوخه المعروفين في سنده إلى مؤلفه، حتى الفقه والعربية الغربية الاستناد إلى مؤلفها في هذه العصور، (العبر، ج ٧ ص ٣٨٥). ولا بأس أن يكون لعبد المهيم تأثيره على ابن خلدون فيها أخذ به نفسه في التأليف التاريخي من التحقيق والتدقيق.

- أما ابن رضوان المالقي (أبو القاسم عبدالله بن يوسف بن رضوان)، كاتب السلطان، ومساعد أبي محمد عبد المهيم صاحب العلامة ورئيس الكتاب (٣٣٦) فهو من مفاخر المغرب في براعة الخط وكثرة العلم، واجادة فقه الوثائق، والبلاغة في الترسل، وجودة الشعر والخطابة على المنابر - لأنه كان كثيراً ما يصلي بالسلطان. وينص ابن خلدون على أنه أقاد منه وإن لم يتخذهُ أستاذاً لمقارنة السن بينها (٣٣٧).

وامام المغرب في القراءات: الشيخ أبو العباس أحمد الزواوي، الذي قرأ عليه القرآن بالجمع بين القراءات السبع من طريق أبي عمرو الداني وإبن شريح (وإن لم يكملها) وحصل منه على اجازة عامة (٣٤٠).

وإلى جانب من سبق ذكرهم ممن ينص ابن خلدون في التعريف على أنه أخذ منهم العلم يذكر آخرين من علماء المغرب ممن كانوا في جملة مجلس أبي الحسن، مثل: إبن الامام عبد الرحمن وعيسى (٣٤٠) ومحمد إبن الصباغ المكناسي، تلميذ الأبل، وكان اماماً في معرفة الموطأ، مبرزاً في المعقول والمنقول، ومحمد بن عبد النور التدرومي، وكان مبرزاً في الفقه المالكي، وأخوه علي بن عبد النور الذي هاجر إلى مصر واشتغل هناك بالكيمياء، الأمر الذي ورطه مع الناس (ج ص ٣٩٣ - ٣٩٥).

ومن هؤلاء: محمد بن التجار، تلميذ كل من امام التعاليم محمد بن هلال شارح المجسطي في الهيئة (في سبته)؛

(٣٣٦) العبر، ج ٧ ص ٣٨٥، وص ٣٩٢ حيث الإشارة إلى أنه أخذ مائة بعد وفاة طريف وزل سبته حيث تقرب من السلطان إلى الحسن الذي نظم في جملة الكتاب، واختص بخدمة عبد المهيم رئيس الكتاب.

(٣٣٧) العبر، ج ٧ ص ٣٨٩، ص ٣٩٢ - ٣٩٤ - حيث الإشارة إلى أنه بعد رحيل السلطان إلى الحسن بقي يدرس وصلى كتاباً لآبائه إلى الليل إلى أن استعاد الحضورين تروس على يدى الغسل بن أبي يحيى. كما حصل كتاباً لدى السلطان أبي عثمان، وأصبح كاتب العلامة من سنة ٧٥٤هـ/ ١٣٥٣م إلى سنة ٧٥٧هـ/ ١٣٥٦م إلى دولة السلطان أبي سالم صارت العلامة إلى حل بن محمد بن سمور (إلى جانب ديوان المسافر والانشاء) بينما صار التوقيع والسر لوزعنا عبد الرحمن بن عفدون. وبعد وفاة أبي سالم سنة ٧٦٢هـ/ ١٣٦١م عاد إبن رضوان إلى وظيفته كمصاحب العلامة على عهد كل من الوزير عمر بن عبد الله، والوزير عبد العزيز بن أبي الحسن. وعندما آتت السلطة بعد ذلك إلى السعيد في كفالة الوزير أبي بكر بن فاري بن الحسن ثم إلى السلطان أحمد، ظل إبن رضوان على ساه إلى أن ملك يازمور، في جملة (حركة) السلطان أحمد إلى مراکش خصاص عبد الرحمن إبن أبي يلفوس بن السلطان أبي حل.

(٣٤٠) العبر، ج ٧ ص ٣٨٥، وص ٣٩٤ - حيث الإشارة إلى أنه أخذ العلم والعربية من عشيقه فاس، وروي عن الرحالة إبن رشيده، وأنه كان له صوت جميل ومن مزاير آل داود.

(٣٤٥) أبو زيد عبد الرحمن وأخوه أبو موسى عيسى اللذان عرفا بمأب و إبن الامام، لأن والدهما كان اماماً لبعض المساجد في عمل تلمسان. ولقد قريبا أبو هو وبي على مدرسة، قبل ذلك. ولقد قريبا أبو الحسن بعد أن دخل تلمسان سنة ٧٣٧هـ/ ١٣٣٩م، وصحبها في وقته طريف بالاندلس التي تولى بعدها أبو زيد، بينما بقي أبو موسى في صحبة في حملة الفريفة سنة ٧٤٨هـ/ ١٩٤٨م، قبل وفاته بتلمسان في الطاعون الجارف (العبر، ج ٧ ص ٣٨٨ - ٣٨٩).

وابن البنا (في مراكش) الذي هلك في الطاعون (ج ص ٣٩٥) وأحمد بن شعيب (من فاس) الذي برع في الأدب واللغة والعلوم العقلية والطب ، وهلك في الطاعون (ج ٧ ص ٣٩٥) .

وأخبرهم صديق ابن خلدون : محمد بن مرزوق (المولود في تلمسان ٧١٠ هـ / ١٣١٠ م والمتوفي في القاهرة ٧٨٠ هـ / ١٣٧٨ م ) ، تلميذ ابن الامام ، وأسرته خدمة (سنة) تربة الشيخ أبي مدين بالعباد بتلمسان ، ويذكر له أنه ساعد السلطان أبا سالم في الوصول الى العرش ، وانه جعل ابن خلدون يشاركه في ذلك (التعريف ، العبر ، ج ٧ ، ص ٣٩٦-٣٩٨) .

#### شيخ العلوم العقلية في المدرسة المغربية الأبلية ( ٦٨١ - ٧٥٧ هـ / ١٢٨٢ - ١٣٥٦ م

أما مفخرة المدرسة المغربية حقيقة ، فهو : أبو عبدالله محمد بن ابراهيم الأبلية أصلاً نسبة الى بلد أبلة (AVILA) من شمال الأندلس (الجوف) قرب مدريد<sup>(٣٣)</sup> التلمساني منشأ حيث دخل أبوه وعمه كمجندين في خدمة بني عبد الواد ، شيخ العلوم العقلية . والحقيقة أن المدرسة المغربية كانت معروفة بأنها مدرسة تقليدية ، تأخذ الفقه المالكي ولا تنحرف الى غيره من المذاهب ، وهو الأمر الذي بلغ الذروة على عهد المرابطين الذين ينسب اليهم احراق أو تمزيق كتاب الاحياء للغزالي ، بناء على نصيح فقهاء المالكية . وكان فقهاء المالكية هؤلاء لا يعرفون شيئاً من الكلام أو الجدل المنطقي حتى أنهم لم يغيروا جواباً عندما تقدموا لمناظرة محمد بن ثورمت صاحب دعوة الموحدين ، اثر عودته من المشرق وتعلمه تلك الفنون العقلية . والحقيقة ان الحال كان على ذلك المتوال اواخر القرن السابع الهجري (١٣) وأوائل الثامن (١٤) م .

فالأبلية نفسه ، أستاذ ابن خلدون ، وشيخ العلوم العقلية كما يصفه مؤرخنا لم يكن يعرف شيئاً عن تلك العلوم ، الأمر الذي سبب له نوعاً من الصدمة النفسية ، عندما استمع الى أساتذة هذه الفنون العقلية لأول مرة في مصر ، فلم يدرك شيئاً مما يتكلمون فيه .

وقصة الأبلية تبدأ في تلمسان عاصمة بني عبد الواد ، عندما تعرضت للحصار في شعبان سنة ٦٩٨ هـ / ماية ١٢٩٩ م ) من قبل يوسف بن يعقوب بن عبد الحق الريني الذي ضرب حولها سياجاً من الأسوار ، واختط الى جانبها مدينة نزل بها ، سماها المنصورة : فلقد استمر ذلك الحصار أكثر من ثمانين سنوات ، توفي أثناءها أمير تلمسان : عثمان بن يغمراسن العيد وادي سنة ٧٠٣ هـ / ١٣٠٣ م ، وهي السنة الخامسة من الحصار ، وولي بعده ابنه أبو زيان محمد . وجهد بنو عبد الواد من الحصار حتى أكلوا الجيف والغيران وخربوا أسقف منازلهم من أجل الوقود . وعندما ابن خلدون بمعلومات عجيبة في طرافتها عن الأسعار في المدينة وهي تعاني الجوع أثناء الحصار . فقد بلغ ثمن البقرة ٦٠ مثقالاً ، والشاة ٧ ١/٢ مثقال . أما لحم الجيف ، فبلغ رطل لحم البغال والحمرة ١/٨ مثقال ، ورطل لحم الخيل ١٠ دراهم صفار وبلغ ثمن الرطل من الجلد البقري مئة أو مئتي ٣٠ درهما .

(٣٣) انظر التعريف ، العبر ، ج ٧ ص ٣٨٩ ، وانظر على عبد الواحد والي ، مقدمة ابن خلدون ، الدراسة ، ج ١ ص ٥١ .

أما أسعار الخضر والفاكهة فكانت كالآتي : الأصل الواخذ من الكرنب  $\frac{3}{8}$  المثقال ومن الخس ٢٠ درهماً ومن اللفت ١٥ درهماً ، والواحدة من القثاء والفقوس ٤٠ درهماً والخيار  $\frac{3}{8}$  الدينار ، والبطيخ ٣٠ درهماً ، والحبة من التين والأجاص درهماً .

أما الأدم ، فقد بلغ سعر الأوقية من الزيت ١٢ درهماً ، ومن السمن ١٢ درهماً ، ومن الشحم ٢٠ درهماً ، وبلغت الأوقية من الفول ٢٠ درهماً ومن الملح ١٠ دراهم ومن الحطب ١٠ دراهم . ولم ينقل أهل تلمسان من الحصار الميت سوى مقتل يوسف بن يعقوب . فجأة على يدي أحد خصيائه ، واستنصار حفيده أبي ثابت بأبي زيان ، فكان ذلك اليوم الفرج بالنسبة لهم ( انظر العبر ٢ ج ٦ ص ٩٥-٩٦ ) .

في هذا الوقت كان الآبلي الشاب ، الذي يناهز الخامسة والعشرين من عمره ، يشغل وظيفة القهرمان في دار بني بغمراسن ملوك تلمسان ، وهو واحد من مصادر ابن خلدون ، شهود العيان عن هذه الفترة ( ج ٦ ص ٩٦-٩٧ ) . وعقب الحصار عرف الآبلي أن والده إبراهيم كان قد أخذ رهينة بمعرفة يوسف بن يعقوب المريني عندما استولى على مرسى مئين أثناء الحصار وقرر الذهاب لرؤيته ، ولكن الشاب الذي كان قد نشأ له ميل إلى العلم صدم نفسياً عندما وجد أباه في خدمة المرينيين قائداً لجماعة الجند الأندلسيين بتاوريرت ، فنزع عن طوره وكره المقام في المنطقة ، فارتدى ملابس الزهاد ، وسار إلى رباط العباد حيث ضريح سيدي أبي مدين ، وهو يزعم المسير إلى الحج ، مختفياً في صحبة الفقراء .

وكان من حسن حظ الآبلي أن التقى بداعية علوي من أهل كبرلاء كان قد جاء إلى رباط العباد بقصد إقامة دعوته هناك ، ولكنه لما رأى كثرة العسكر المريني يش من تحقيق قصده ، واعتزم العودة إلى العراق ، فسار في صحبته . وعلى طول الطريق إلى تونس انكشفت للآبلي حقيقة أمر العلوي ، ومن تونس ركبت الجماعة البحر إلى الاسكندرية ، ومنها سارت إلى مدينة مصر .

وحضر الآبلي مجالس علماء مصر ، مثل : تقي الدين بن دقيق ، وابن الرفعة ، وصفي الدين الهندي والتبريزي ، وغيرهم فرسان المعقول والمنقول ، فلم يكن قصاره إلا تمييز أشخاصهم إذا ذكرهم ، وهو الأمر الطبيعي بالنسبة لعالم ناشئ ، وافتد من المغرب حيث لا تروج كثيراً علوم المعقول (٣٧) .

والظاهر أن الآبلي عندما عاد من رحلته المشرقية إلى تلمسان أراد أن يعوض ما أصابه من خيبة الأمل في سماع العلوم

(٣٧) هذا ولو أن الرواية التي نقلها ابن خلدون تقول : أنه كان قد أصيب باعتلال في عقله نتيجة لشره الكافور المتداوي من حيلة أصحابه في السفينة ، وهو الأمر الذي يشك في صحته ، إلا أن كان الآبلي قد تعرض للاصابة في عقله فإن ذلك يكون قد حدث عندما رأى والده في الخدمة العسكرية التي كان يكرهها ، وهو الأمر الذي أدى به إلى أن نزع من طوره ، وليس المسحوق ، قيل أن يسير مع الداهي العلوي نحو تونس ( التعريف ، العبر ٢ ، ج ٧ ص ٣٩٠ ، ومن الداعية العلوي انظر أيضاً المقدمة ، نشر عبد الواحد ، ج ٢ ص ٩٢٧ ) ومن العلماء المصريين المذكورين ، من ابن دقيق العيد وغيره ، انظر للمؤلف الأثر المغربي والأندلسي في الجيوسكندرية في المعصور الإسلامية الوسيطة ، بحث في كتاب وجميع الاسكندرية عبر المعصور ، طبعة جامعة الاسكندرية ١٩٧٤ ، ص ٣٢٧-٣٢٩ ( حيث الإشارة إلى أن مدرسة الاسكندرية كانت وقت الأبل تلبية متأخرة بالروافدين عليها من علماء المغرب والأندلس ، بينما القاهرة كانت مفتوحة على العلوم العقلية بتأثير علماء الشرق .



العقلية بمصر ، فهجم عليها عند من يعرفها في تلمسان ووجد ضالته في الشيخ أبي موسى عيسى بن الامام ، الذي كان تعلم المنقول والمعقول في تونس وجاء الى تلمسان بعلم كثير منها ، فبدأ بقراءة المنطق والأصولين . ومن الواضح أن تعلمه الحساب بين ما كان قد تعلمه من العقلية جعل سلطان تلمسان وقتئذ ، وهو أبو حوین یغمراسن بن زیان ، يستخدمه في الاشراف على الادارة المالية وجباية الأموال ، وهو الأمر الذي لم يرحب به الآبلي ، صاحب النفس الشفافة والميول العلمية العقلية ، فترك تلمسان وسار نحو المغرب ( التعريف ، العبر ٢ ج ٧ ص ٣٨٥ - ٣٨٦ ، ص ٣٩٠ ) .

هذا ، ولا بأس أن تكون الرغبة في استكمال دراسة العلوم العقلية ، هي السبب في هربه الى فاس ثم الى مراکش سنة ٧١٠ هـ / ١٣١٠ م . ففي فاس أقام متوارياً على عهد السلطان أبي الربيع ، لكي يأخذ التعاليم على أستاذها اليهودي : خليفة المغيلي . وعندما استوفى فنونها عليه غادر فاس الى مراکش ، حيث الامام أبو العباس بن البنا ، المبرز في التصوف علماً وحالاً ، وشيخ المعقول والمنقول في بلاد المغرب وقتئذ ( التعريف ، العبر ٢ ج ٧ ص ٣٨٦ ص ٣٩٠ ) .

فلقد نزل الآبلي على الشيخ أبي العباس ابن البنا ، ولازمه وأخذ عنه ، وتضلّع في علم المعقول والتعاليم والحكمة ، حتى أصبح خليفة ابن البنا دون منازع في تلك العلوم . وهكذا استدعاه شيخ المسكرة ، علي بن محمد بن تروميت ، الذي كان في طاعة السلطان ، ليقراً عليه . فصعد جبل مسكورة وبقي عدة سنوات يفيدهم ويعلمهم الى أن استنزله السلطان أبو سعيد مع شيخ الجبل ابن تروميت ، وأسكنه معه بالبلد الجديد من فاس . وعندما آل ملك المغرب الى السلطان أبي الحسن ، وفتح تلمسان ، استدعاه من فاس ونظمه في جملة العلماء بمجلسه .

وظل الآبلي ، وهو في بطانة السلطان - يحضر مجالسه ، ويشهد وقائعه ، كما حدث في طريف والقيروان - يقوم بتعليم العلوم العقلية : وينشأ بين أهل المغرب حتى خلق فيها الكثير منهم من سائر أمصاره ، ، وبذلك أصبح أستاذ الجيل في هذا الفن في كل بلاد المغرب .

وهكذا فعندما قدم الآبلي على تونس في جملة السلطان أبي الحسن ، لزمه ابن خلدون وأخذ عنه العلوم العقلية والمنطق وسائر الفنون الحكيمية والتعليمية ، وأثبت جدارته حتى شهد له الأستاذ الآبلي بالتبريز في ذلك ( التعريف ، العبر ، ج ٧ ص ٣٨٦ ، ص ٣٩١ ) ، فكان صاحب الفضل في تكوينه العلمي المميز ، واتجاهاته العقلانية التي جعلت منه مؤرخاً فيلسوفاً (٣٨) .

(٣٨) ولا بأس من الإشارة هنا الى أن العلامة المغربية التي كانت بين والد ابن خلدون وبين الآبلي كانت من الأسباب التي ساعدت على نشر مؤرخته بلسان الفيلسوف ، كما كان لابن خلدون تأثيره على الآبلي ، فهو الذي ربطه عن معاشية السلطان عندما غادر تونس الى أسطوله والذي فرق في الطريق الى المغرب . ولقد بقي الآبلي في تونس الى أن خلف السلطان أبو حسان والده أبي الحسن في ملك المغرب ، وفتح تلمسان فكتب فيه بطله من سلطان تونس أبي اسحق ابراهيم بن يحيى الذي كان في كتلة شيخ المرحومين ابن تافراكين ، الذي أسلمه الى سفيرو ، وبذلك عاد الآبلي الى بطانة سلطان المغرب ، متطابقاً في طيلة ألبقاءه من العلماء ، وظل كذلك الى أن توفي سنة ٧٥٧ هـ / ١٣٥٦ م ( التعريف ، والعبر ٢ ج ٧ ص ٣٩١ ) وفي أهمية الآبلي في تكوين شخصية ابن خلدون العلمية نسيب أن نشير الى كتاب الأستاذ محمد طه الحاجري ، ابن خلدون ما بين حياة العلم ودنيا السياسة ، حيث يفيض الآبلي بقصص يسبحه : القسم الثاني من الكتاب ، ويعمل عنوان « أبو حيدرة الآبلي ، صفحة مطوية . من الحياة العلمية في المغرب العربي » ( من ص ١٤٧ الى ١٧١ ) .

### ابن خلدون ما بين الوظائف الديوانية والتجارب السياسية والدراسة العلمية :

هذا التكوين العلمي المتين كان يهيء ابن خلدون ، من غير شك ، الى تولي الوظائف الديوانية التي يشغلها أعوان الأمراء والسلاطين في الحكم . فإذا ما عرفنا ما كان يتمتع به مؤرخنا من شخصية طموحة وذكاء فذ ، لم نعجب اذا نراه يرتقي في سلم الوظائف العالية وهو لم يبلغ العشرين من عمره .

أودى الطاعون الجارف سنة ٧٤٩ هـ / ١٣٤٨ بوالدي ابن خلدون ومعظم المشيخة وكان الأبلى من القلائل ممن نجوا منه ، فاستمر ابن خلدون في ملازمته والقراءة عليه الى أن استدعاه السلطان أبو عنان الى المغرب فارتحل اليه ، فكانت تلمذته على الأبلى ثلاث سنين .

وبعد رحيل الأبلى الى فاس ، دخل ابن خلدون ، في خدمة السلطان أبي اسحق صاحب تونس ووزيره المستبد به أبي محمد بن تافراكين ، كصاحب العلامة ، خلفا لصاحبها المزعول محمد بن علي بن عمر ، وذلك في وقت حرج ، انشقت فيه الأسرة الحفصية على نفسها ، فبدأ الصراع مع صاحب قسنطينة الأمير أبي زيد عبد الرحمن ، حفيد السلطان أبي يحيى (٣٩)

وفي أول سنة ٧٥٣ هـ / فبراير ١٣٥٢ م ، خرج ابن خلدون مع سلطانه والوزير والعسكر ومن انضم اليهم من عرب أبي الليل للقضاء المضموم ، ولكنه ما أن شعر بالهزيمة حتى ترك معسكره ناجيا بنفسه نحو قفصة من بلاد الجريد في الجنوب التونسي ، وفي هذا الوقت أتت الأخبار بأن السلطان أبا عنان ، صاحب المغرب ملك تلمسان عنوة ، وقتل سلطانها عثمان بن عبد الرحمن ، كما ملك بجاية من صاحبها الأمير أبي عبد الله ، حفيد السلطان أبي يحيى وعهد بولايتها الى عمر بن علي ، شيخ بني وطاس ، فأجفل صاحبه قسنطينة الأمير أبو زيد عبد الرحمن الذي كان يحاصر تونس ، ومرو بقفصة . فكانت فرصة انتهزها ابن خلدون للخروج في صحة بعض قواده الى مدينة بسكرة ، ومنها سار الى تلمسان ، واغدا على السلطان أبي عنان وفي الطريق التقى بحاجب السلطان محمد بن أبي عمرو الذي صاحبه معه الى بجاية التي اضطربت أمورها اثر مقتل واليها الوطاس ، بتدبير أعوان أميرها السابق ، وبعد وفوده على السلطان في تلمسان رجع الى بجاية حيث قضى شتاء سنة ٧٥٤ هـ / ١٣٥٣ م مع ابن أبي عمرو الحاجب . وفي السنة التالية ٧٥٥ هـ / ١٣٥٤ م كان الحاجب يستدعيه الى فاس ، وينظمه في أهل مجلس السلطان العلمي ، ويلزمه شهود الصلوات معه ، ويستعمله في كتابته والتوقيع بين يده ( ج ٧ ص ٣٩٩ - ٤٠٠ ) .

والغريب في الأمر أن ابن خلدون الذي فسر هربه من معسكر سلطان بجاية - حيث كان صاحب العلامة - بأنه كان يشعر بالوحشة لموت المشيخة ولعدم استكمال الدراسة على بقية العلماء الذين رحلوا الى المغرب ، وأنه كان يزعم للحاق

(٣٩) التعريف ، المبرج ج ٧ ص ٣٩٨ - ٣٩٩ - حيث يعرف ابن خلدون بأن العلامة التي كتبها عن السلطان ، والتي تعتبر بمثابة التوقيع في الخطابات الرسمية ، هي : و الحمد لله والشكر له ، بالظلم العظيمة ، ما بين البسلة وما بعدها من هطالة أو مرسوم .

بهم لولا اعتراض أخيه الأكبر محمد (ج ٧ ص ٣٩٩) ، يعود هنا فيقرر أنه قبل وظيفة الكتابة على كره منه ، استصغارا لشأنها « اذ كنت لم أعهد مثله لسلفي » - رغم ما قاله قبل ذلك من أنه لقي من السلطان في العام الماضي :- « ما لم احتسبه ، اذ كنت شاباً لم يعطر شاربي » (ج ٧ ص ٤٠٠) .

والهمم أنه يعود وينسجم مع نفسه عندما يقرر أنه عكف على النظر والقراءة ، ولقاء المشيخة من أهل المغرب ومن أهل الأندلس ، مثل الأستاذ محمد بن الصغار ، امام القراءات لوقته ، وشيخ المحدثين ، الرحالة : محمد بن رشيد الفهري ، وصديقه قاضي الجماعة بنفاس محمد المغربي (الذي عزل سنة ٧٥٦هـ/١٣٥٥ م) وتوفي آخر سنة ٧٥٨هـ/١٣٥٧ م والامام محمد بن أحمد الشريف الحسني (٧١٠هـ/٧٧١هـ-١٣١٠ م/١٣٦٩ م) ، فارس المعقول والمنقول وصاحب الفروع والأصول ، تلميذ أولاد الامام والآبلي في تلمسان ، وأستاذ القاضي ابن عبد السلام في تونس ، والذي انتصب لتدريس العلم وبته ، فعلاً المغرب معارف وتلاميذ (العبر ، ج ٧ ص ٤٠١-٤٠٢) ومحمد بن يحيى الرجي (من بوجة الأندلس) ، الذي كتب للأمير أبي زكريا ابن السلطان أبي يحيى صاحب بجاية ثم ابنه محمد ثم السلطان أبي عنان ، قبل أن يموت قاضياً للعسكر في عهد أبي سالم ، ومحمد بن عبد الرزاق ، الذي كان قاضياً لفاس قبل محمد المغربي ، الى غير أولئك وهؤلاء من أهل المغرب والأندلس حسبما يقول ابن خلدون ، « وكلهم لقيت وذاكرت وأفدت منه ، واجازني بالاجازة العامة » (ج ٧ ص ٤٠٢-٤٠٣) .

#### المحنة في فاس (٧٥٨-٧٦٠هـ/١٣٥٦-١٣٥٨ م)

كانت مدة سنتين من دخوله في حاشية السلطان العلمية ، وكتابه بين يدي الحاجب محمد بن أبي عمرو ، كافية لكي يوثق ابن خلدون صلته بالسلطان أبي عنان ، ويصبح كاتبه المقرب الأمر الذي كثر المنافسين وأثارهم . ففي أواخر سنة ٧٥٧هـ/١٣٥٦ م ، وبينما كان أبو عنان قد بدأ يعاني من مرضه الذي مات فيه ، نعى اليه أن الأمير محمد صاحب بجاية والمحددة اقامته في فاس تحت أنظار السلطان ، يحفظ للعودة سرا الى بلده ، وان ابن خلدون الذي كان على علاقة متينة بالأمير الحفصي ، يشارك في المؤامرة فقيض عليه هو الآخر وامتنح بالعذاب والسجن (٤٠٠) .

ومع أن الأمير محمد أطلق سراحه بعد فترة وجيزة ، فان ابن خلدون ظل في الاعتقال حتى اضطر الى مخاطبة السلطان قبل وفاته بقصيدة مديح طويلة الى نحو ٢٠٠ (مائي) بيت ومات السلطان أبو عنان في ٢٤ من ذي الحجة سنة ٧٥٩هـ/٣٠ نوفمبر ١٣٥٨ م ، ومؤرخنا رهن الاعتقال ، ولكن الوزير الحسن بن عمر أفرج عنه ، بل وأعادته الى ما كان عليه (ج ٧ ص ٤٠٣-٤٠٤) والمفروض أن يكون ابن خلدون قد عاد كاتباً للسلطان الجديد وهو السعيد بن أبي عنان ، ولكنه يكاد يوقننا في الخطأ عندما يصرح فجأة بأنه كان يومئذ يكتب عن القائم بأمر بني «مرين» منصور بن سليمان . . . . الذي نصبوه للملك .

(٤٠٠) العبر ، ج ٧ ص ٤٠٣ . حيث يحترف ابن خلدون بأنه غفل عن التحفظ بما قد تثيره علاقته بصديقه الأمير الحفصي من غيره السلطان .

والحقيقة أن أمور الأسرة المرينية الحاكمة كانت قد اضطرت تماماً عند وفاة أبي عنان . فبينما كان ابن خلدون يكتب للمنتصوري بن سليمان ، وكان السعيد محاصراً في قصره بالبلد الجديد من فاس ومعه وزيره الحسن بن عمر ، كانت هناك جماعة أخرى في فاس تدعو لمطالب جديد بالسلطنة ، هو : أبو سالم ، أخو أبي عنان الذي كان متغياً بالأندلس . ومن هؤلاء الخطيب ابن مرزوق الذي استعان بصديقه ابن خلدون الذي كان عليه أن يغير موقفه مرة أخرى فينتقل عن منصور وينضم إلى معسكر أبي سالم . وقام ابن خلدون بدور نشط في نجاح أبي سالم الذي دخل دار ملكه في ١٥ شعبان سنة ٧٦٠ هـ / ٢٦ نوفمبر ١٣٥٩ م بعد ١٥ يوماً فقط من انضمام ابن خلدون إلى معسكره . وكانت المكافأة : التعيين ( في كتابة السر والترسيل عنه والانشاء لمخاطباته ) ( ج ٧ ص ٤٠٤ - ٤٠٥ ) .

وهنا من المهم الإشارة إلى ما يقوله ابن خلدون ، من أنه انفرد بأسلوب الكلام المرسل الواضح في الكتابة بدلاً مما كان متعارفاً عليه عند الكتاب من استعمال الكلام المسجوع الخفي المعاني وإن كان قد عوض السجع والإيقاع باصطناع الشعر ، الذي « اختلف عليه من بحور توسطت بين الاجادة والقصور » ، ومن أهم ما يعتز به من أشعاره تلك القصيدة التي أنشدتها السلطان أبا سالم بمناسبة ليلة المولد النبوي سنة ٧٦٣ هـ / ديسمبر ١٣٦١ م ( ج ٧ ص ٤٠٥ - ٤٠٦ ) .

ومع مرور الوقت غلب ابن مرزوق على السلطان أبي سالم ، وفي سبيل ذلك أخذ في السعاية بأهل الدولة ، من ابن خلدون وأمثاله ، إلى أن انتهى الأمر بثورة الوزير عمر بن عبدالله ، وخلع أبي سالم وقتله . وفي عهد الوزير عمر بن عبدالله بقي ابن خلدون على ما كان عليه . وكان آخر ما وليه على عهد أبي سالم خطة المظالم ، ولكنه رغم ما زيد في جرابته ، يصرح بأنه كان يسمو إلى أرفع مما كان فيه بسبب طغيان الشباب ، ولمودة سابقة مع الوزير عمر منذ أيام أبي عنان ومؤامرة صاحب بجاية التي كان هو الآخر مشاركاً فيها ( ج ٧ ص ٤٠٨ ) .

والمهم أن ابن خلدون لم يرض عن وضعه الجديد فطلب العودة إلى بلده وسمح له بالرحيل بعد لأي ، ولكن شريطة ألا يمر بطريق تلمسان حتى لا يدخل في خدمة سلطانها أبي حوال العبد وأدي . وهنا اختار ابن خلدون الذهاب إلى أفريقيا عن طريق الأندلس .

#### الرحلة إلى الأندلس

والظاهر أن الذي وجه أنظار ابن خلدون إلى الأندلس هو ما سبق له من معرفة سلطانها أبي عبدالله المخلوع عندما وفد على السلطان أبي سالم لفترة من الوقت بفاس ، عن طريق وزيره أبي عبدالله ابن الخطيب ثم ما أداه له من خدمات عقب جوازه إلى الأندلس لاستعادة ملكه بمعاونة ملك قشالة ، أولاً ثم مؤازرة الوزير عمر بن عبدالله بعد ذلك ( أنظر التعريف ، العبر ، ج ٧ ص ٤٠٩ - ٤١٠ ) .

وهكذا بعث ابن خلدون في أول سنة ٧٦٤ هـ / أكتوبر ١٣٦٢ م بزوجته وولده إلى أخوالهم بقسنطينة ، وكتب إلى

سلطانها أبي العباس ( الحفصي ) بأنه يجيز عليه من الأندلس ، ثم سار الى سبنة ، حيث نزل بيت أبي العباس أحمد بن الشريف الحفصي ، ومن سبنة نزل ابن خلدون الى جبل الفتح ( طارق ) الذي كان يومئذ لصاحب المغرب ، ومنه الى غرناطة حيث رحب به ابن الخطيب والسultan ، في ٨ ربيع الأول سنة ٧٦٤ هـ / ٢٧ ديسمبر ١٣٦٢ م ( ج ٧ ص ٤١٠ - ٤١١ ) .

وأهم أعمال ابن خلدون في غرناطة : سفارته الى ملك قشتالة في أشبيلية نيابة عن سلطان غرناطة في السنة التالية ( ٧٦٥ هـ - ١٣٦٣ م ) من أجل الصلح . وكانت فرصة عاين فيها آثار أسلافه بأشبيلية ، كما التقى عنده بالطبيب اليهودي : ابراهيم بن زورور الذي كان في خدمة سلطان غرناطة ، والذي التقى به ابن خلدون في فاس عندما أتى ليعالج السلطان أبا عنان ، قبل أن يلتحق بخدمة الملك القشتالي . ويتص ابن خلدون على أن ابن زورور الطبيب مدحه لدى الملك ، وأن هذا الأخير عرض عليه البقاء عنده على أن يرد عليه ثراث آباءه الذي كان يبد زعماء الدولة ، وأن مؤرخنا تفادى من ذلك بما قبله الملك بظرو ( بتره ) ( ج ٧ ص ٤١٢ ) .

والظاهر أن ابن خلدون استحسن الإقامة في غرناطة فأخذ يتقرب من السلطان ، ويدبر أمر استقراؤه بأهله وولده فأخذ موافقته ، لولا ما ظهر من عدم ارتياح ابن الخطيب الى ذلك وكان من حسن حظ ابن خلدون أن صاحبه الأمير أبا عبدالله صاحب بجاية تنجح في استعادتها في رمضان سنة ٧٦٥ هـ / ١٣٦٤ م ، وأرسل اليه يستدعيه فاستأذن السلطان ابن الأحمر صاحب غرناطة في الرحيل فأذن له ، وأمر له بمرسوم بالتشجيع كتبه ابن الخطيب ، وكانت فرصة للحفاظ على ماكان بينه وبين الوزير الغرناطي الصديق (٤١) .

#### ولاية الحجاية في بجاية

ركب ابن خلدون البحر من مرسى المرية ، ووصل بجاية في منتصف سنة ٧٦٦ هـ / مارس ١٣٦٥ ، وأحسن أهل بجاية استقباله فتهافتوا عليه بمحزون أعطافه ويقبلون يده ، واحتفل السلطان صاحب بجاية بمقدمه ، وأسرع بتنفيذ ما كان قد وعده به كتابة في فاس من العهد اليه بخطة الحجاية حتى حصل على سلطانه ( ج ٧ ص ٤١٨ ) . وابن خلدون يعرف الحجاية في المغرب بأنها استبداد بالسلطة دون ولي الأمر ، كما كان الحال مع ابن الخطيب في غرناطة ، وحال من عمل معهم من وزراء بني مرين في فاس . وفي ذلك يقول : « واستقللت بحمل ملكه ، واستقرغت جهدي في سياسة أموره وتدبير سلطانه » . وهو يبين كيف أنه أحسن الخدمة خصوصاً بعد أن ثار الشقاق بين أميره أبي عبد الله وبين ابن عمه أبي العباس صاحب قسنطينة ، بفضل عرب أوطانهم ، من : الدواودة ، من رباح .

(٤١) انظر التعريف ، المبر ، ج ٧ ص ٤١٢ - ٤١٦ . أما موضوع ظهور (مرسوم) التشجيع ، فهو أمر الى الفراد أو الاشياخ والخدام في البر والبحر بتكريم ابن خلدون ، وتقديم كل ما يحتاج اليه من معونة في تنسيبه ونزوله الى أن يكمل الفرض من سفرته . وهو بتاريخ ١٩ جمادي الأولى سنة ٧٦٦ هـ / ١٢ فبراير ١٣٦٥ م ، وبعد التوقيع : العلامة بخط السلطان ، ونصها : « ص هذا » .

فبعد انهزام أمره الذي كان قد بدد ما كان جمعه له من الأموال الكثيرة ، التي أنفقها في العرب ، خرج ابن خلدون الى قبائل البربر بالجبال ، فاستباح جامهم وأخذ رهنهم على الطاعة حتى استوفى منهم الجباية التي كانوا ممتنعين منها منذ سنين . ولكن الصراع انتهى بمقتل أبي عبد الله على يدي ابن عمه أبي العباس بمدخلته بأهل بجاية ، وجاء الخبر الى مؤرخنا وهو مقيم بقصور السلطان بالقصبة ، وطلب منه البعض أن يبائع لواحد من أبناء صاحبه القليل ، ولكنه فضل استقبال المنتصر وتمكينه من البلد ، وأخيرا انتهت السعاية فيه بطلب الاذن في ترك الوظيفة ، والخروج من بجاية . وتم له ذلك ، فسار الى منازل العرب ثم انه قصد بسكوه من بلاد الزاب (ج ٧ ص ٤١٨ - ٤١٩ ) .

### في بسكرة

وفي بسكرة وصلته دعوة من السلطان أبي هو صاحب تلمسان للحاق به ، قبل أن يحاول التار لصهره أبي عبد الله ، على أمل أن يساعده في استئلاف قبائل عرب رياح ، مع وعد باعطائه وظيفتي الحجابة وكتابة العلامة ، وكتب له مدرجة بذلك ، أرفقها بالكتابات وتاريخها ١٧ رجب سنة ٧٦٩ هـ / ١١ مارس ١٣٦٨ م (ج ٧ ص ٤٢٠ - ٤٢١) .

ورغم أن ابن خلدون استعمل كبراء عرب رياح الى جانب أبي هو ، فانه لم يستجب لخدمته بل أرسل أخاه الأصغر يحيى ، الذي كان قد خرج من اعتقال أبي العباس ، الى السلطان أبي هو كالثائب عنه في الوظيفة . وهو يفسر ذلك بأنه كان قد تخلص من غواية الرتب بسبب اغفاله العلم لمدة طويلة . ومن تلمسان وصلت ابن خلدون رسالة من الوزير ابن الخطيب من غرناطة ، يعبر فيها عن شوقه اليه نثرا وشعرا ، وهي رسالة طويلة استغرقت ٥ (خمس) صفحات ، وتاريخها ١٤ ربيع الثاني سنة ٧٧٠ هـ / ٢٩ نوفمبر ١٣٦٨ م التعريف ، العبر ، ج ٧ ص ٤٢١ - ٤٢٢ . تبعثها رسالة أخرى بعث بها اليه أخوه يحيى من تلمسان . وتتميز هذه الرسالة بأنها لا تكتفي بالتعير عن الاشواق ، وما اليها من الأخبار الخاصة ، بل انها تتعرض لأخبار الوطن الأندلسي التي كانت جيدة في ذلك الوقت ، من حيث : الحصب ، والظهور على العدو ، وافتتاح عدد من الحصون ، مثل : آش وبرغة ووبرة ، ودخول بلد أطريه ( بنت اشبيلية ) عنوة ، وافتتاح رندة . وهو يشير أيضا الى وفاة الوزير المغربي عمر بن عبد الله واضطراب الأحوال بعده ، ويعرف باسم شيخ الغزاة الجديدي في الأندلس ، وبين استقر بالأندلس من رجال المغرب ، ويعود السلطان ملك النصراري بطرته الى ملكة باشبيلية ومناهضة أخيه له ، مما كان خيرا على المسلمين حتى ان سلطان الأندلس تلقب بـ «الغني بالله » مما يجعل تلك الرسالة التي تحمل تاريخ ٢ جمادى الاولى سنة ٧٦٩ هـ / ٢٤ ديسمبر ١٣٦٧ م ، وثيقة تاريخية من الطراز الاول (٤٢) .

ويورد ابن خلدون بعد ذلك اجابته على رسالتي ابن الخطيب فيشيد بانتصارات الخلافة النصرية والوزارة ( الخطيبية ) ، ويذكر مهلك صاحب بجاية على يد ابن عمه ، واستقرار السلطان أبي اسحق صاحب تونس بعد مهلك

(٤٢) انظر التعريف ، العبر ، ج ٧ ص ٤٢٥ - ٤٢٦ ولا بأس من الإشارة أيضا الى ان الكتاب يحمل في آخره أخبارا من آخر ما وصل الى غرناطة من مؤلفات المشاركة مع ذكر لآخر مؤلفات ابن الخطيب .

القائم بأمره أبي محمد بن تافراكين الذي كان يستظهر بالعرب على حساب الرعية . الى جانب الاشارة الى اخبار المشرق المتمثلة في اختلال طريق الحاج ، واضطراب أمور السلطنة المملوكية ، وكثرة المهرج في أزقة القاهرة وأسواقها ( ج ٧ ص ٤٢٧ - ٤٢٩ ) . كما يورد نص خطاب وصله من ابن الخطيب مع أحد الحجاج وطيه مدرجة فيها توصية بالطبيب أبي عبد الله الشقوري الذي استقر بتلمسان ( ج ٧ ص ٤٢٩ - ٤٣٠ ) .

#### ما بين سلاطين المغرب وعرب بني هلال

والمهم بعد ذلك ان ابن خلدون خرج من بسكرة مغرباً للقاء أبي حو الذي تحالف مع أبي اسحق ابن أبي بكر صاحب تونس ، والذي كان يطمح في أن يستنفر له ابن خلدون عرب الدواودة ، على أمل العودة معه الى بجاية ، ولكنهم تعرضوا لهجوم عرب زغبة ، الذين فاجأوا بعد ذلك معسكر أبي حو فقتلوه ، ورجع مهزوما الى تلمسان ، وظل ابن خلدون مستمراً في مشايعة لأبي حو ، والايلاف بينه وبين عرب الدواودة والسلطان أبي اسحق صاحب تونس وابنه خالد بعده . وفي أواخر سنة ٧٧١ هـ / أغسطس ١٣٧٠ م ، وفد عليه بطائفة من الدواودة ، الا أن أبا حو الذي استشعر الخطر من جانب سلطان المغرب الأقصى عبد العزيز ، أخذ يعد العدة للخروج الى الصحراء . ولما كان طريق العودة الى بلاد رباح قد تملأ بسبب الفتنة ، فان ابن خلدون استأذن في الانصراف الى الأندلس ، ولكنه ما أن نزل بمرسی هنين حتى أنفذ السلطان عبد العزيز - وكان قد وصل الى تازا - سرية قبضت عليه ، وأحضرتة أمام السلطان الذي عنفه على مفارقتها دارهم ، ولكنه قبل عذره وأطلقه من الغد .

وهنا تعرض ابن خلدون لصدمة نفسية شبيهة بتلك التي كانت قد أصابت شيخه الأبلى بعد حصار تلمسان الشنيع ، فعمد هو الآخر الى رباط الشيخ الولي أبي مدين بالعباد من أطراف تلمسان ، ونزل بجواره « مؤثراً للتخلي والانقطاع للعلم ، لوتركت له ، ( ج ٧ ٤٣١ - ٤٣٢ ) .

بعد أن دخل السلطان عبد العزيز تلمسان انسحب أبو حو الى بلاد رباح ، فرأى عبد العزيز الاستعانة بابن خلدون من أجل اكتساب عرب رباح الى جانبته ، فاستدعاه من خلوته بالعباد بعد أن كان قد أخذ في تدريس العلم ، ولم يسمه الا ايجابته . وودع ابن خلدون السلطان عبد العزيز بعد مكتابة عدد من زعماء الدواودة من أجل المساعدة في تسهيل المهمة ، وذلك في ١٠ من المحرم سنة ٧٧٢ هـ / ٥ أغسطس ١٣٧٠ م ، ولحق بمعسكر الوزير أبي بكر بن غزالي في أحياء عرب المغل وزغبة . وعندما وصل ابن خلدون الى المسيلة كان أبو حو وأحياء عرب رباح معسكرين قريبا منها . ( ونجحت المهمة إذ أعلن شيخ رباح طاعتهم وسمحوا للعسكر المريني بدخول وطنهم ، ومفاجأة أبي حو وهو في طريقه من المسيلة الى الصحراء ، واتتهاب غيظه ورجاله وأمواله ، فلم ينج الا بنفسه تحت ستار الليل .

وتحلف ابن خلدون أياما عند أهله ببسكرة ثم رحل الى السلطان بتلمسان في وفد عظيم من الدواودة . ولكن الأمور لم تلبث أن ساءت من جديد بعودة بطون من الدواودة الى الحلاف والتحالف مع أبي زيان العبدودي ، « واشتعل المغرب الاوسط نارا ، كما يقول مؤرخنا ، بثورة مغراوة في بلاد شلف ، وانقطع هو ببسكرة ولم يعد يستطيع الاتصال

بالسلطان عبد العزيز إلا بالكتب<sup>٥</sup>، وذلك في الوقت الذي كان ابن الخطيب قد فر من غرناطة ، مغاضبا لسلطانه ، ووصل الى تلميسان في كتف السلطان عبد العزيز هو الآخر<sup>(٤٣)</sup>

وكان على ابن خلدون أن يشارك في تهدئة الأحوال عن طريق الاستعانة بأهل الطاعة من الدواودة في اخضاع العصاة منهم . من عرب حصين بجبل تطرى ، بمنطقة القفطفا ، فقام بالمهمة التي انتهت بخضوع عرب الدواودة وفرار أبي زيان العبدواودي الى صحراء واركلا ورجع الى أهله ببسكرة من حيث خاطب السلطان بما وقع ، منتظرا لأوامره ( ج ٧ ص ٤٣٩ - ٤٤٠ )

#### العودة الى المغرب الأقصى :

وأدت أوامر السلطان عبد العزيز باستدعاء ابن خلدون فجأة عندما ضاق ذرعا باضطراب العرب ، وعزم على مطاردتهم . وخرج ابن خلدون بأهله من بسكرة في ١٢ ربيع الأول سنة ٧٧٤ هـ / ١٣ سبتمبر ١٣٧٢ م ، ولكنه لم يصل مليانة حتى وصله نبا وفاة عبد العزيز وتنصيب ابنه أبي بكر السعيد بعده ، في كفالة الوزير ابن غازي الذي رحل الى فاس وفي الطريق الى المغرب عبر الصحراء ، تعرضت قافلة ابن خلدون الى غارة قام بها عرب المعقل بتحرير من أبي حمو الذي كان قد عاد الى ملكه بتلسمان ، فكرهه غاريا الى ان وصل الى العمران . وفي فاس أكرمه الوزير ابن غازي لسابق صحبتها منذ ولاية أبي سالم ( ج ٧ ص ٤٤٠ - ٤٤١ ) .

ولم يمض شتاء سنة ٧٧٤ هـ / ٤٣ - ١٣٤٤ م حتى اضطربت أمور المغرب نتيجة لمناورة بين الوزير أبي بكر والسلطان ابن الأحمر بسبب ابن الخطيب . وانتهى الأمر بأن أطلق سلطان غرناطة أحد المطالبين بالعرش المريني من حبسه ، وهو عبد الرحمن بن أبي يفلوس الذي استولى على تازا ، كما أن ابن عم الوزير أبي بكر ، وهو محمد بن الكاس الذي كان قد كلف بالدفاع عن جبل طارق انتهى به الأمر الى التفاهم مع ابن الأحمر على أن يترك له الجبل في مقابل أن يؤيد ترشيح مطالب آخر بالعرش ، هو : السلطان أحمد بن أبي سالم الذي أخرج من حبسه في طنجة . وبفضل العسكر الأندلسي نجح السلطان أبو العباس أحمد في هزيمة الوزير أبي بكر ، وبفضل نصائح سلطان غرناطة تم الاتفاق بين السلطان أحمد والأمير عبد الرحمن على أن يكون للأخير إمارة سجلماسة . وعندما عجز الوزير أبو بكر عن مواجهة خصومه ، وافق على الصلح ، وعزل سلطانه السعيد بن عبد العزيز ، ودخل أبو العباس أحمد دار الملك في أول سنة ٧٧٦ هـ / يونيو ١٣٧٤ م ( ج ٧ ص ٤٤١ - ٤٤٣ ) .

(٤٣) ج ٧ ص ٤٣٢ - ٤٣٤ . ولقد كتب ابن الخطيب الى ابن خلدون من تلمسان بغيره بغيره ولكن ابن خلدون لا يسجل ذلك الخطاب الذي لم يكن يحضره ، فاكفى بسجل نص جوابه عليه . وهو يطعن على حسن عهد ، ويعد الله على خلاصه من ورطة الخدمة في غرناطة ، ويؤكد له حسن علاقته بالسلطان عبد العزيز ( الباب المجلدي ) . وسلم على ولده أبي الحسن . وتاريخ الخطيب ١ شوال سنة ٧٧٢ هـ / ٢٠ أبريل ١٣٧٠ م ، انظر ص ٤٣٤ - ٤٣٦ . وهو يسجل نسخة كتاب ابن الخطيب الى سلطان غرناطة عندما دخل جبل القنق في البلك بغير مرين . وفي ذلك الخطاب يمتنر ابن الخطيب لسلطانه من فعلته وان كان عزاءه أنه فارقه في وقت الأمان والهدنة ، وهو يسيء إليه النصائح من : تنوي الله والاقتصاد في اللهب ( ج ٧ ص ٤٣٦ - ٤٣٩ ) .



أما عن موقف ابن خلدون من تلك الأزمة ، فيقول إنه كان مقبلاً بفاس « في ظل الدولة وعنايتها ، حاكفاً على قرامة العلم وتدريسه » ، وأنه عندما كان السلطان أبو العباس أحمد والأمير عبد الرحمن يحاصران الوزير أبا بكر ، كان يباكرهما معا ، فكانا يكرمانه ، وإن ذلك أدى إلى القبض عليه بتحريض وزير أبي العباس أحمد ، وهو محمد بن الكاس ، ولكن الأمير عبد الرحمن أمر وزيره مسعود بن ماسي فأطلقه من الغد . وهكذا عندما خرج الأمير عبد الرحمن نحو مراكش خرج ابن خلدون معه وفي نيته الجواز إلى الأندلس مع الوزير مسعود من ساحل آسفى ( في الجنوب ) ، ولكنه عاد ورجع إلى فاس لا مستذناً السلطان بالجواز إلى الأندلس ، « بقصد القرار والدعة » - هذه المرة ( ج ٧ ص ٤٤٣ ) .

#### الأندلس محطة عبور بين المغربين : الأقصى والأوسط :

من تجارب ابن خلدون في الرحيل من افريقية إلى المغرب الأقصى والعكس ، يتضح لنا أن اضطراب الأحوال السياسية في ذلك القرن الثامن الهجري ( ١٤ م ) ، عصر التبدل والتغير ، كانت قد جعلت من الأندلس وكأنها محطة عبور ، أي « ترانزيت » ما بين طرفي بلاد المغرب : الأقصى والأوسط ، تماماً كما كان الحال بالنسبة للصحراوات المغربية الكبرى ، مع فارق أن ما يتهدد المسافرين في الصحراء هو التعرض لغارات العرب ، بينما كان قرصان النصارى يهددون المسافرين في البحر ، كما حدث لابن الشريف الحسنى رئيس الشورى في سبته ، الذي استضاف ابن خلدون في جوازه الأول إلى الأندلس ، فقد أخذ قرصان النصارى الأندلسيين والوالد في بحر الزقاق ، ولم يخلصا من الأسر إلا بعد سعي من السلطان أبي سعيد الذي دفع فدية مقدارها ٣ ( ثلاثة ) آلاف دينار ( التعريف ، العبرج ٧ ص ١٤٠ ) .

والحقيقة أن ما يقوله ابن خلدون في سفرته الأخيرة من أنه يجوز إلى الأندلس بقصد القرار والدعة ، لم يكن إلا أمنية خادعة في نوع من الحيلة الناعمة بعيداً عن ميدان السياسة المضطرب ، وهذا ما يتضح له بمجرد نزوله إلى الأرض الأندلسية في ربيع سنة ٧٧٦ هـ/ سبتمبر ١٣٧٤ م . فلقد لقي كاتب السلطان ابن الأحمر الذي خلف الوزير ابن الخطيب وهو الفقيه أبو عبد الله بن زمرك ، كان في طريقه إلى التهنة بفاس ، فأوصاه بأن يرسل إليه أسرته بغرناطة . ولكن أصابع الاتهام ما لبثت أن اتجهت نحوه من المغرب خشية أن يعرض ابن الأحمر على الميل إلى صنيعته الأمير عبد الرحمن صاحب مراكش وسجلماسة . وعندما امتنع ابن الأحمر من إرجاعه إلى المغرب أظهروا له أنه كان يسعى في خلاص ابن الخطيب قبل أن يقتل في محبسه . وهكذا نجحوا في إثارة سلطان غرناطة ضد ابن خلدون ، فرضى باخراجه من بلاده إلى المغرب .

#### الزفول في تلمسان

ونزل مؤرخنا في مرسى تلمسان وهو نين . ولما كان السلطان أبو حو سائخاً عليه بسبب تأليه عرب الزاب عليه ، فإنه أصدر أوامره بمقامه هناك ، قبل أن يقتل الشفاعة فيه ، ويسمح له بالقدوم إلى تلمسان حيث استقر بالعباد ، ولحق به أفراد أسرته في ١٠ شوال ٧٧٦ هـ/ ١٣ مارس ١٣٧٥ م .

والظاهر أن ابن خلدون كان قد تعب فعلا بعد حوالي ربع قرن من الخدمة الدبلوماسية في ذلك الوقت المتقلب ، فما أن عرض عليه السلطان أبو حوأن يعود إلى السعي في استتلاف الزواودة حتى كره تلك المهمة ومجتها نفسه . وهكذا خرج من تلمسان ، وهو يطمئن الفرار من الخدمة ، فلتحق بأحياء أولاد عريف في قبلة جبل كزول ، الذين رجبوا به وأحضروا أهله من تلمسان ، وأنزلوه بينهم في قلعة أولاد سلامة ، من بلاد بني توجين .

تأليف الكتاب في قلعة بني سلامة ( تازروت ) ( ٧٧٦ - ٧٨٠ هـ / ١٣٧٥ - ١٣٧٨ م )

وفي قلعة بني سلامة قدر لابن خلدون أن يعتزل بعيدا عن شواغل الدنيا لمدة ٤ ( أربع ) سنوات تقريبا ، وأن يشغل وقته بالتأليف وفي ذلك يقول « فشرعت في تأليف هذا الكتاب وأنا مقيم بها ، وأكملت المقدمة على ذلك النحو الغربي الذي اهتمت إليه في تلك الخلوة ، فسالت فيها شآبيب الكلام والمعاني على الفكر حتى امتنعت زبدتها ، وتألفت نتائجها ، وكانت من بعد ذلك الفتية إلى تونس ، كما نذكر أن شاء الله تعالى » ( ج ٧ ص ٤٤٤ - ٤٤٥ ) .

وابن خلدون يوضح أن اشتغاله بالتأليف وحيدا في بادية أولاد عريف كان بسبب استحاشه من كل من دولتي المغرب في فاس وتلمسان . وأنه خلال فترة تفرغه تلك انتهى من « مقدمة الكتاب إلى أخبار العرب والبربر وزناتة » ( ج ٧ ص ٤٤٥ ) ومن الواضح هنا أنه يقصد بـ [ المقدمة ] الجزء الأول من الكتاب ، وأنه يقصد بأخبار العرب والبربر وزناتة : الأقسام الأولى الخاصة بالعرب والأجزاء الأخيرة الخاصة بتاريخ البربر . وذلك أنه كان يخطط للكتابة في تاريخ المغرب ، مجال تخصصه ومعارفه ، حسبما ينص في المقدمة التاليفية .

وبعد أن أنهى العمل في شكله الأولي عن طريق الاملاء من حفظه أو النظر في بعض الأحيان فيما تسرله من المراجع في القلعة النائية رأى ضرورة الاطلاع على المصادر الأساسية التي لا توجد إلا في المدن الكبيرة ( الأمصار ) ، حتى يتمكن من تنقيح الكتاب وتصحيحه ، حسبما تقتضي أصول المنهج .

ويعد أن استرد عافيته من مرض طرأ عليه ، ربما بسبب الإرهاق في عمل الكتاب ، خاطب السلطان أبا العباس في السماح له بالانتقال إلى العاصمة تونس . وفي رجب من سنة ٧٨٠ هـ / أكتوبر ١٣٧٨ م ، ترك قلعة بني عريف ، وسلك القفر مع جماعة من عرب رباح أثناء نجعهم ومر على الدوسن بأطراف بلاد الزاب ، لكي ينزل على ضاحية قسنطينة . ولما كان السلطان أبو العباس قد خرج في العساكر لأقار الأمور في بلاد الجرن وكركشوة بجى بن بملول . هناك ، فإن ابن خلدون سعى إلى لقائه ، ولفق به بظاهر سوسة ، فأمره بالعودة إلى تونس ، التي وصلها في شهر شعبان .

وعندما عاد السلطان من حملته المظفرة قَرَّب ابن خلدون منه ، وكان ذلك سببا في سعيات الحاسدين ، مثل : شيخ الفتيا محمد بن عرفة ، إلى جانب نجاح دروسه في اجتذاب طلبة العلم . ويفضل تشجيع السلطان أبي العباس انكب مؤرخنا على الكتابة فأكمل منه : أخبار البربر وزناتة ، وكتب من أخبار ما قبل الإسلام ، وأخبار الدولتين : الأموية

والعباسية ما وصل اليه منها . وبذلك أتم من الكتاب نسخة أولى ، رقعها الى خزائنة كتب السلطان ، مع قصيدة في مدحه حتى لا يتهم بالقمود عن هذا الواجب ، استعملها منشداً :

هل غير بابك للغريب مؤمل أو عن جنابك لسلامتي معدل

وذكر فيها فتوحاته في العرب من أولاد أبي الليل ومهلل والمقل ، وفي وصف العرب يقول :

عجب الأنام لشأنهم بادون قد تذاقت بحبيهم المطي السائل  
ومنها ذكر الكتاب المؤلف بخزائنه ، من : تسميته ، ومنهجه ، ومضمونه

واليك من سير الزمان وأمله  
صحفاً تترجم عن أحاديث الأول  
لخصت كتب الأولين بجمعها  
وألنت حوشي الكلام كأنما  
(ع ٧ ص ٤٤٦ - ٤٤٩) .

(عبيراً ، يلين بفضلها من معدل  
درجوا فتجمل عنهم وتفصيل  
وأنتيت أولها بما قد أغفلوا  
يبهى السدى به ريزهر المحفل

ولم يبتأ ابن خلدون بمقامه في تونس بسبب سعاية بطانة السلطان ، وعمل رأسهم ابن عرفة ، حتى ظهر له سوء ظن السلطان به عندما أمر بخروجه معه في حملته الى توزر حيث كان ابن يملوك قد عاد اليها سنة ٧٨٣ هـ / ١٣٨١ م . ومع أن السلطان أمره بالعودة قبله الى تونس ، فإنه عندما قرر الرجوع من جديد الى بلاد الزاب سنة ٧٨٤ هـ / ١٣٨٢ م ، خشي مؤرخنا الذي كان قد جاوز الثانية والخمسين من عمره أن يمر بتجربة العام الماضي الشاقة مرة أخرى ، فانتهاز فرصة وجود سفينة مقلمة الى الاسكندرية لكي يتوسل الى السلطان أن يخلي سبيله لقضاء فريضة الحج ، فكان آخر العهد به بتونس ويلاذ للغرب والاندلس .

#### الاقامة في مصر (٧٨٤ - ٨٠٨ هـ / ١٣٨٢ - ١٤٠٦ م) :

لحق ابن خلدون وداعاً حافلاً في مرمى تونس في ١٥ شعبان سنة ٧٨٤ هـ / ٢٦ سبتمبر ١٣٨٢ م ، من قبل أمهات الدولة والبلد ، وعلبة العلم . وهو يقول عندما يركب البحر : « وتفرغت لتجديد ما كان عتدي من آثار العلم ، والله ولي الأمور سببانه » ، فكانه يرى أن الهدف من رحلته المشرقة هو التفرغ للعلم : قراءة وتدريساً وتاليفاً ، وهو ما حققه الى حد كبير في مصر ، وإن كان قد اشتغل بالقضاء ، ولقى في سبيل الوظيفة كثيراً من العنت .

وصلت سفينة ابن خلدون الى الاسكندرية بعد أكثر من أربعين يوماً ، في أول شوال ( يوم القطر ) وذلك لعشر ليال من جلوس الملك الظاهر على التخت ( ٣٠ أكتوبر - ١٣٨٢ م ) واقتعاد كرسي الملك دون أهله بني قلاوون وكما

يجلوه أن يضع هذا اليوم في موضعه من تاريخ مصر . وهو لا يفوته بالمناسبة - وهو يعرف أنه يكتب التاريخ ليقرأه الملك قبل العامة - أن يسجل أنه كان يترقب ذلك أي وصول الظاهر برقوق إلى سدة الحكم » ، لما كان يؤثر بقايسة البلاد من سموه لذلك ، فجهلده له « (ج ٧ ص ٤٥١) ، تماما كما فعل مع تيمورلنك ، وإن بالغ هناك بعض الشيء عندما قال أنه كان يعرف من كتب الأحداث ظهوره « قمر » قبل أربعين عاما ، ويتمنى رؤيته ، الأمر الذي أثار دهشة المترجم الفقيه عبد الجبار بن النعمان (٤٤) .

وبدلا من أداء فريضة الحج اكتفى بالانتقال في أول ذي القعدة (٧ يناير ١٣٨٣ م) إلى : « حاضرة الدنيا ، وبستان العالم ، ومحشر الأمم ، ومدجج الذرمن البشر ، وإيوان الاسلام ، وكروسي الملك . . . » . القاهرة . وهو عندما يجوب شوارع القاهرة يتذكر مقالات الشيوخ والأصحاب فيها . فكبير علماء المغرب أبو عبد الله المغربي يقول له عنها : « من لم يرها لم يعرف عز الاسلام » ، والشيخ أبو العباس ابن ادريس ، يقول : « كأنما انطلق أهلها من السحاب » يشير إلى كثرة أممها وأمنهم العواقب ، والفقيه أبو القاسم البرجي ، قاضي العسكرية بفاس ، وسفير السلطان أبي عنان إلى ملوك مصر ، يقول عنها على سبيل الاختصار : « إن الذي يتخيله الانسان فائما يراه دون الصورة التي تخيلها لا تساع الخيال عن كل محسوس ، الا القاهرة فانها أوسع من كل ما يتخيل فيها » (ج ٧ ص ٤٥١ - ٤٥٢) .

أما عن نشاطه في مصر فقد بدأ بالجلبوس للتدريس بالجامع الأزهر ، ثم الاتصال بالسلطان وعن طريقه سمح سلطان تونس لأهله باللاحق به . وبعد التدريس الحر في الأزهر ، ولّى وظيفة التدريس بالمدرسة القمحية بمصر - نسبة إلى قمح الفيوم الذي كان ينفق عليها منه - قبل أن يصل إلى منصب قاضي قضاء المالكية في مصر سنة ٧٨٦ هـ / ١٣٨٤ م .

وهو في معرض إشارته بالمنصب يسجل ما قد يقال عن قاضي قضاء الشافعية ، من : « أن مباشرة السلطان قديما بالولاية إنما كانت تكون له » (ج ٧ ص ٤٥٣) بمعنى أنه الذي كان يقوم بإجراءات تصويب السلطان في رئاسة الدولة .

وابن خلدون يسجل ملاحظات قاسية عن خطة القضاء في مصر على أيامه . وربما كان ذلك في معرض دفاعه عن ممارسته للقضاء على طريقة أهل المغرب ، الأمر الذي كان موضع نقد أقرانه من المصريين ، من أهل القضاء والفتيا . فهو يقول أنه قام المقام المحمود في ولايته لاتخاذ في الله لومة لائم ، مساويا بين الخصوم ، معرضا عن الشفاعات ، جانحا إلى الثبوت في سماع البينات ، مع النظر في عدالة الشهود . « فقد كان البر منهم غثظا بالفاجر ، والطيب ملتبسا بالخبث ، والحكام مسجون عن انتقادهم . . . فشت المفاصد بالتزوير والتدليس بين الناس منهم ، ووقفت على بعضها ، فعاقت منه مبرجع العقاب ومؤلم النكال ، وتآدى لعلمي الجرح في طائفة منهم فمنعهم من تحمل الشهادة ، وكان منهم كتاب الدواوين للقضاة . . . وهو يشير إلى ما كان قد فشأ من الضرر في الأوقاف وفيها أصاب الفتاوى من التعارض والتناقض بسبب الخلاف بين المذاهب وغيره » (ج ٧ ص ٤٥٣ - ٤٥٤)

(٤٤) انظر محمد عبد الله حنان ، ابن خلدون ، ص ٩٠

وكان من الطبيعي أن تواجه عملية الإصلاح التي يماولها ابن خلدون معارضة قوية بمن يتضررون منها ، وإن نجح منهم ومن أصحابه القضاء خصوصاً الداء له .

والظاهر أنه كان للوافدين على مصر من المغاربة دورهم فيها أصاب مؤسسة القضاء المصرية من الفساد ، فهو يذكر أنه كان بين من كافحهم بهذا الصدد من أهل الهوى « ملتقطون سقطوا من المغرب يشعوفون بمفترق من اصطلاحات العلوم هنا وهناك ، لا ينتمون إلى شيخ معروف مشهور . . . » اتخذوا الناس هزوا ، وعقدوا المجالس مثلية للأعراس ومأبئة للحرم ، فأرغمهم ذلك منى ، وملأهم حسداً وحقدًا على ، وخلوا إلى أهل جلدتهم من سكان الزوايا المتحللين للعبادة ، ليشترتوا بها الجاه ويحترثوا به على الله ، وربما اضطرب أهل الحقوق إلى تحكيمهم فيحكمون بما يلقى الشيطان على ألسنتهم ، يترخصون به الإصلاح . . فقطعت الحيل في أيديهم ، وأمضيت أحكام الله فيمن أجاروه ، فلم يغنوا عنه من الله شيئاً ، وأصبحت زواياهم مهجورة . . وانطلقوا يراطلون السفهاء من النيل في عرضى وسوء الأحداث عني . . ويدسون إلى السلطان التظلم منى . . ( ج ٧ ص ٤٥٤ ، محمد طه الحاجري ، ابن خلدون ، ص ٢٥٠ )

وكان من الطبيعي أن ينتهي الأمر بعزله من القضاء ، في الوقت الذي أصيب في أهله الوافدين من تونس بحرا بقرهم على مشارق المرسى بالاسكندرية ، فمكث على تدريس العلم والقراءة والتدوين لمدة ثلاث سنين ثم انه قرر قضاء فريضة الحج المرجأة منذ خمس سنوات ، وذلك في عام ٧٨٩ هـ / ١٣٨٧ م .

وفي البيع ميناء المدينة ، وصلته رسالة من ابن زمرك كاتب سر السلطان بن الأحمر ، صحبة أحد الحجاج وفي طي الكتاب قصيدة في مدح الملك الظاهر بريقوق ، وفي فصل منه تعريف بشأن الوزير مسعود بن رحو ، المستبد بأمر المغرب لذلك العهد . وتاريخ الكتاب ٢٠ محرم ٧٨٩ هـ / ١١ فبراير ١٣٨٧ م . هذا ، كما كتب إليه أبو الحسن على ابن الحسن البني ، قاضي الجماعة بغرناطة يواسيه - رداً على خطاب كان قد وصله من ابن خلدون كما يظهر - في صرفه عن خطة القضاء ، ويحمد له ثناء على السلطان الذي أنعم عليه بالاعفاء ، ويعرفه بأن سلطان غرناطة أثنى عليه عندما اطلع على خطابه . وتاريخ هذه الرسالة : صفر سنة ٧٩٠ هـ / فبراير ١٣٨٨ م .

وكان في طي الرسالة مدرجة يعتذر فيها القاضي الغرناطي عن كتابة « الرسالة بغير خطه ، وفيها يعرف ابن خلدون بأخبار المغرب مما يتعلق بما أصاب البلاد من المخرج بسبب ما حدث من النزاع بين السلطان أبي العباس وعسكر النصارى الذين كانوا في خدمته ( ج ٧ ص ٤٦٠ - ٤٦٢ )

#### نهاية التعريف في العبر ، واستكمالها في فترة تالية :

وهنا يجتمع ابن خلدون التعريف بنفسه في كتاب العبر ، مبرراً استطراداته وهو يقول : « لما كتبت هذه الأخبار ، وإن كانت خارجة عن غرض هذا الكتاب المؤلف ، لأن فيها تحقيقاً لهذه الوقائع ، وهي مذكورة في أماكنها ، فربما يحتاج

الناظر الى تحقيقها من هذا الموضوع وهو يتبع ذلك بذكر رجوعه من الحج الى القاهرة ، ومقابلته للسلطان بقوق ،  
والنكية التي لحقت به من خلعه وعوده الى السلطة ، ولزوم مؤرخنا « كسر البيت متعاً بالعافية لابساً برد العزلة ، عاكفاً  
على قراءة العلم وتدريسه لهذا العهد فاتح ٧٩٧ هـ / ٢٧ أكتوبر ١٣٩٤ م ، وكل ذلك في سبعة أسطر ( ج ٧ ص  
٤٦٢ ) .

ولما كان قد دخل القاهرة في عودته من الحج في جمادي سنة ٧٩٠ هـ / ٦ يونية ١٣٨٨ م ( ج ٧ ص ٤٥٥ ) ، فكانه  
لخص سيرته خلال سبع سنوات في تلك الأسطر السبعة ، وهو ما لم نعتده من مؤرخنا المدقق ، الذي لا تقوته شاردة ولا  
واردة . وإذا كان من المقبول أن يكون عدم مشاركته في أحداث الثورة التي بدأت في الشام وأدت الى سجن السلطان  
برقوق في الكرك ، واستمرت أكثر من عام قبل عودته الى كرسيه بمصر ( في غرة ٧٩٢ هـ / ٢٠ ديسمبر ١٣٨٩ م ) وهو  
ما يسجله ابن خلدون بالتفصيل في تاريخه ( العبر ، ج ٥ ص ٤٨٣ - ٤٩٣ ) ، هو ما جعله يمر عليها مروراً عابراً ، فإن  
ما يدعو الى الاستغراب أنه حدثت في الفترة ما بين سنة ٧٩٠ هـ / ١٣٨٨ م و ٧٩٧ هـ / ١٣٩٥ م ، أحداث كان يمكن  
أن يتم بها ، ولم يشر اليها في التعريف . من ذلك وصول هدية ملك تونس أبي العباس أحمد لبرقوق بعد عودته الى  
كرسيه ، والتي وصلت القاهرة في أواخر رمضان من سنة ٧٩٢ هـ / سبتمبر ١٣٩٠ م ( ج ٥ ص ٥٠١ ) . وكذلك الأمر  
بالنسبة لحج يوسف بن علي بن غانم أمير أولاد حسين من عرب المعقل الذي كان في طاعة السلطان المريني أبي العباس بن  
أبي سالم ، والذي حج سنة ٧٩٣ هـ / ١٣٩٦ م واتصل بالسلطان بقوق ، فتقدم ابن خلدون الى السلطان وعرفه بمحله  
من قومه ، « فآكرم تلقية وحمله بعد قضاء حجه هدية الى صاحب المغرب » واحتفى السلطان أبو العباس بالهدية وعزم  
على أن يرد عليها هدية مثلها من طرف المغرب ، مع نفس الأمير العربي يوسف بن غانم ، لولا أن وافاه الأجل قرب  
تأاز سنة ٧٩٦ هـ / ١٣٩٤ م ( العبر ، ج ٧ ص ٣٦٣ ) وكذلك وصول ملك بغداد أحمد بن أويس الى القاهرة في ربيع  
سنة ٧٩٦ هـ / يناير ١٣٩٤ م مستصرخا السلطان الظاهر بقوق بعد أن استولى قمر ( تيمور لنگ ) على ملكه وخروج  
السلطان الى دمشق في جمادى من أجل رصد تحركات تيمور لنگ الذي كان يحاصر ماردين ويحوس خلال بلاد الروم  
وقلاع الاكراد ، والذي يصفه ابن خلدون في تاريخه بالعدو ( العبر ، ج ٥ ص ٥٤٠ ، ٥٥٤ - ٥٥٦ ) .

ولما كان ابن خلدون قد قدر له أن يعيش إلى سنة ٨٠٨ هـ / ١٤٠٦ م فالظاهر أنه استركت مع مرور الوقت هذا  
النقص الذي ألم بالتعريف نفسه فأكماله الى سنة ٨٠٧ هـ / ١٤٠٥ م ، وذلك كما في النسخة التي حققها محمد بن تاروت  
الطنجي ، والتي نشرت في القاهرة ١٩٥١ م . ففي تلك النسخة المنقحة ذكر تعيينه مدرسا للحديث بمدرسة  
صرغتمش سنة ٧٩١ هـ / ١٣٨٩ م ، وبالتالي شيخا ( ناظرا ) لحائفة بيبس ، الأمر الذي زاد في روايته . أما عن  
الثورة على بقوق فقد خصها بفصل طويل طبق فيه نظريته في العصية ، كما لاحظ الأستاذ عنان ( ٤٥ ) ، وهو ما  
يسجله ابن خلدون في التاريخ بصدد كلامه « عن دولة الترك القائلين بالدولة العباسية بمصر والشام من بعد بني أيوب  
ولهذا العهد » ، اذ يقول ان جلب التجار للماليك الترك بمصر ، وتنافس أهل الملك في شرائهم لم يكن يقصد الاستعباد  
« انما هو اكتاف للعصية وتبليغ للشوكة ، ونزوع الى العصية الحامية » ( العبر ج ٥ ص ٣٧١ ) .

وخلال الفترة من ٨٠٣هـ / ١٤٠٠ م وحتى وفاته سنة ٨٠٨هـ / ١٤٠٦ م ، ولى القضاء خمس مرات وعزل أربع مرات ، إذ أنه توفي في ٢٦ رمضان سنة ٨٠٨هـ / ١٦ مارس ١٤٩٦ ، وعمره ٧٨ سنة ، وهو يشغل منصب قاضي قضاة المالكية ( ٤٦ )

أما أهم مغامراته طوال حياته المليئة بالمغامرات ، فتتمثل في لقائه لتيمورلنك في الشام سنة ٨٠٣هـ / ، وهي التي سجلها في التعريف بنفسه عندما نقحه وزاد فيه ، وإن لم يسجلها في تاريخه الذي وصل فيه في بعض المواضع الى سنة ٧٩٦هـ / بمناسبة وفاة السلطان الميمني أبي العباس وولاية ابنه ابي فارس ( ج ٧ ص ٣٦٣ ) أو بمناسبة فرار ملك بغداد أحمد بن أويس أمام تيمورلنك الى الشام ثم وصوله الى مصر مستصرخا السلطان بقوق في ربيع سنة ٧٩٦هـ / يناير ١٣٩٤ م ( ج ٥ ص ٥٥٥ ) ، وذلك ان تسجيله لبداية سنة ٧٩٧هـ / ١٣٩٤ م أتى في نهاية التعريف بمناسبة لزومه البيت عاكفا على القراءة والتدريس ( ج ٧ ص ٤٦٢ ) .

فبعد تأزم الأمور اترعودة السلطان فرج من الشام الى مصر ، أثبت ابن خلدون أنه قوى القلب ثابت الجنان ، اذ قرر لقاء « فاتح العالم الثاني » فتدلى من قلعة دمشق وسار الى معسكر التتر . هذا ، كما أظهر خبرة بالسياسة ومعرفة بكيفية اكتساب قلوب كبار الرجال من أصحاب السلطان . فهو بعد السلام يومئ اجماعة الخضوع ، ويقبل اليد التي تمد اليه . وهو بعد ذلك مفاجئ المترجم عندما يؤكد أنه - وهو رجل العلم والتحقيق - كان يتظر لقاء سلطان العالم وملك الدنيا منذ ٤٣ سنة ، وأنه لا يعتقد أنه ظهر في الخليفة منذ آدم لهذا العهد مثله ( ٤٧ ) .

وفيما يتعلق بالتأليف أسفر اللقاء عن طلب تيمور - الذي لفت انتباهه لباس ابن خلدون المغربي - أن يقوم مؤرخنا بكتابة وصف كامل لبلاد المغرب كلها : أقاصيها وأدانيها ، وجباله وأنهاره ، وقراه وأمصاره حتى كأنه يشاهدها . فكتب له رسالة في وصف المغرب بلغت ١٢ ( اثني عشرة ) كراسة صغيرة ، يظن أنها تمثل التمهيد الجغرافي للكتاب الثالث في تاريخ البربر ( المراجع السابقة ) .

وبذلك اكتمل الفصل الختامي من كتاب العبر المعروف بالتعريف ، كما اكتمل الكتاب نفسه ، من المقدمة الى التاريخ تنقيحا وتأليفا خلال ٢٤ سنة قضاه ابن خلدون في مصر عاكفا على التدريس والقراءة والتدوين والتأليف ، مما لم يخرج في معظمه عن دائرة كتاب العبر . وذلك اننا نرى أن مهنة القضاء التي اشتغل بها وأيقفه الصلة بصناعة التاريخ من حيث إنها ترفده بأسباب النقد في سبيل البحث عن الحقيقة ، مما يعرفه القضاء في الاجراءات وتعديل الشهود وتصحيح الوثائق ومعرفة القرائن وتقدير البينات ، وهي الأمور التي تمثل اصول البحث العلمي وقواعد النقد التاريخي ، وهي التي تفسر كيف نشأ التاريخ في كنف علم الحديث مبني - في سير الرجال - على قاعدتي الجرح والتعديل .

(٤٦) انظر حنان ، ابن خلدون ، ص ٨٨ ، ص ٩٧ ، على هذا الواحد والي ، مقدمة ابن خلدون ج ١ ص ١١١ ، ص ١٢٣ ، ص ١٣١ ، ص ١٣٢

(٤٧) انظر على هذا الواحد ، مقدمة ابن خلدون ، ج ١ ص ١٢٧ - ١٢٨ ، حنان ، ابن خلدون ٩٠ - ٩١ . وفي موضوع ابن خلدون . وينورلنك تشير الى دراسة فيشل W.J. Fischel. Ibn Khaldoun and Tamerlane Berkeley-Los Angeles 1952

## سيرة المؤلف وملحة الكتاب :

من ذلك العرض للتعريف بابن خلدون يتضح أن سيرة المؤلف تكاد تلتحم بالكتاب في بنية واحدة . فتكوين ابن خلدون العلمي في مراحل المختلفة ، سواء في المدرسة المغربية الأندلسية بتونس في صباه المبكر ، أو عند مقام السلطان أبي الحسن بالعاصمة الحفصية ، أو في كنف السلطان أبي عثمان في فاس ، أو في رحاب المدرسة المصرية بروافدها العلمية المشرقية ، في آخر الأمر ، ( كل هذا ) يمثل الجانب العلمي أو الثقافي في كتاب العبر ، كما يظهر في المقدمة أي الكتاب الأول ، متوجها - بطبيعة الحال - بالنظريات الخلدونية في النقد التاريخي والعمران البشري .

أما عن أشغاله الديوانية ونشاطاته الدبلوماسية والسياسية ، لدى الحفصيين بتونس أو بني عبد الواد بتلمسان أو بني مرين بفاس أو بني الأحمر النصرين بغرناطة ، فانها تلتحم بالجزء الأصيل من الكتاب ، متمثلا في تاريخ بلاد المغرب والأندلس في عصر ابن خلدون أو في ذلك القرن الثامن الهجري ( ١٤ م ) الذي عاشه والذي رآه بنحتم دورة تاريخية كانت قد بدأت في منتصف القرن الخامس الهجري ( ١١ م ) بهجرة العرب الهلالية ، فهو يعرف الدول والأسر الحاكمة ، ويعمل في تدبير سياساتها وينغمس في بؤرة مؤامراتها . وما هو أهم من هذا ، أنه يعرف الشعوب والقبائل وأحوال معاشها ، وعلاقاتها بحكامها وما ترجوه من الدول التي تعيش في كنفها . فهو يعرف عرب هلال وسليم على عهده معرفة جيدة ، وخاصة في الجنوب التونسي وفي بلاد الزاب ، وهو متخصص في أحوال بني رياح من الهلالية وخاصة بطون الداوادة منهم وهم الداوادية أصلا ، وهو يعرف أيضا القبائل البربرية في جبال أفريقيا والمغرب الأوسط ، ويستطيع أن يجوس خلال ديارها ، ويستبيح حماها - كما يحلو له أن يقول - وأن يجعلها تدفع الضرائب ( المغارم ) ، علامة خضوع الفرد للدولة ، الى جانب ضريبة الدم أو الدفاع .

وتاريخ جماعات العرب والبربر في ظل دول المغرب خلال القرن الثامن الهجري ( ١٤ م ) يمثل الجزء الأصيل من تاريخ البربر الذي يرجع فيه ابن خلدون الى الوثائق الرسمية التي عرفها في الدواوين ، وإلى مشاهداته الخاصة وما يسمعه من شهود العيان ، من : أساتذته أو من أهل الحرب والسياسة ، أو ما ينقله من عامة الناس من روايات شعبية تظهر في شكل قصص بطولي أو في شكل ملاحم شعرية ، مما ينفث الحياة في التاريخ ، وينقله من نطاق الأحداث السياسية الجافة الى وقائع المجتمع الحية ، وهذا ما تتردد أصدأؤه في النصف الثاني من كل من الجزئين السادس والسابع في تواريخ قبائل صنهاجة وزناتة . وهو ما تمثل فيها سماء في المقدمة بعصر التبدل والتغير ، وهو ما يسميه بعض المحدثين بأزمة القرن الرابع عشر .

أما عن الأندلس : الرقعة من الشواطئ الجنوبية على امتداد ١٠ (عشر) مراحل في عمق مرحلة أو أقل ، فكانت وثيقة الصلة بدولة المغرب الأقصى المرينية التي كان لها بعض الأقاليم الأندلسية ، مثل : جبل طارق وزندة ، وعن هذا



الطريق ارتبط البلدان في بنية تاريخية واحدة . فالجهاد كان يتطلب تدخل المبرزين في الأندلس ، والعلاقات بين غرناطة وفاس كان تتحسن وتسوء بناء على ذلك ، واللاجئون السياسيون من كل من البلدين يوجدون في البلد الآخر : أبو سالم في الأندلس ثم ( الغني بالله ) وابن الخطيب في المغرب . . ومثل هذا يقال عن العلاقة بين قشتالة من جهة وكل من غرناطة وفاس من جهة أخرى ، بل إن العلاقات المتدهورة بين الممالك الأسبانية المسيحية هي الأخرى سمحت لغرناطة في بعض الأحيان أن تقف موقف الحكم بينها ، بل وأن تستعيد عددا من القرى والحصون من أحوار أشبيلية ، كما شرح ابن الخطيب في بعض رسائله لابن خلدون .

والى جانب ذلك بينت رحلات مؤرخنا كيف أن الأندلس كانت في بعض الأحيان أشبه ما تكون بمحطة عبور ( ترانسيت ) بين كل من طرفي المغرب : الأقصى والأدنى ، عندما يزداد اضطراب الأمور في العدو المغربي ، وكل هذا من القطع التاريخية النادرة في كتاب العبر ، التي تجعل منه مصدرا أصيلا لتاريخ الفترة المعاصرة للمؤلف والغريبة من عهده .

والحقيقة أن تلك الأصالة لم تتوقف عند تاريخ المغرب ، كما كان يظن ابن خلدون وهو يبدأ الكتابة في المغرب ، ويقول أنه سيكتفي بتاريخ بلاده التي يعرفها دون غيرها من بلاد المشرق . فبفضل رحلته المشرقية وأقامته الطويلة في مصر تمكن من تأصيل معلوماته ليس عن مصر والشام ودولة الترك المملوكية فقط ، بل عن كل تاريخ بلاد المشرق ، ولقد أتى تأصيل معلوماته عن المشرق عن طريقين أولهما : تجاربه الشخصية في القاهرة صاحبة العلاقات المتشعبة مع بلدان العالم ، وثانيهما : مدرسة التاريخ المصرية العريقة بمكتباتها العامة ، حيث كانت القاهرة قد أصبحت بغداد الجديدة بخلافتها العباسية في كثف سلاطين الممالك ، الأمر الذي سمح له باستكمال تاريخ دول المشرق العديدة حتى تاريخ التتر على عهد تيمورلنك ، وتاريخ العثمانيين إلى أيام بايزيد ( ابوزيد ) الذي ولى سنة ٧٩١هـ / ١٣٨٩م .

وهكذا اكتمل تاريخ البربر على طول ٢٤ سنة قضاها ابن خلدون في مصر ، وتحول من تاريخ اقليمي محدود الأفق الى تاريخ عالمي متسع المنظور . وإذا كان ابن خلدون قد قدم حوالى سنة ٧٩٩هـ / ١٣٩٦م نسخة كاملة من الكتاب بمقدمته وتاريخه الى الملك الظاهر بربوق ، كما بعث نسخة أخرى منه هدية الى السلطان أبي فارس عبد العزيز المريني لتوقف على خزانة الكتب في جامع القرويين بفاس ، فإن ملحمة الكتاب لم تنته الا قبل أشهر من وفاته ، بفضل ما أضافه الى التعريف بنفسه ( ٤٨ ) .

( ٤٨ ) انظر محمد طه الحاجري ، ابن خلدون بين العلم والسياسة ، ص ٣٣٢ - حيث يقول بهذا كله يمكن القول ان كتاب البربر . نتاج مصري قاهري في منطقته ، بقدر ما هو نتاج الفرقي في أصله وبديته . وانظر على عهد الواحد والى ، مقدمة ابن خلدون ، ج ١ ص ١٣٤ وقارن ، إيف لأكسوست ، الترجمة العربية ليشال سليمان ، ص ٧٨ - حيث يرى ان المقدمة تتألف من ٣ كتب : الأول والثاني منها يوضحان هتري تاريخ البربر ، أما الكتاب الثالث الخاص بالحقوق واللاموت والفلسفة ، فأغلب الظن أنه وضع بعد ذلك في مصر .

## الخلاصة

والذي نريد أن نخرج به من هذا العرض لكتاب العبر يتلخص في أن الكتاب بأقسامه الثلاثة ، : من المقدمة الى التاريخ الى خاتمة التعريف تمثل نسجاً واحداً متكاملًا سداته حياة المؤلف وتجاربه ، ولحمته تكوينه العلمي ومعارفه . فالمقدمة شرح للتاريخ وإن تقدمت عليه ، والتاريخ من حيث هو تاريخ العرب والبربر أو البدو والحضر - هو مصدر وحى ابن خلدون والمهامه في عمل المقدمة ، أما التعريف فيأتى في النهاية لكى يبين مراحل العملية الحيوية التى تخففت عن مولد الكتاب الكبير ، منذ تحصيل العلم ، الى كتابة ملخصات في علوم مساعدة مما ذكره ابن الخطيب في ترجمة ابن خلدون ، حتى البقاء في كتابة تاريخ للبربر انتهى بأن صار تاريخاً عاماً للعرب والبربر ومن عاصره من ذوى السلطان الأكبر ، وبذلك حقق ابن خلدون ما كان يصبو اليه من أن يصبح اماماً للمؤرخين بعد المسعودى .

وإذا كنا قد عرضنا لتاريخ مروج الذهب للمسعودى ، في محاولة لبيان كيفية اقتداء ابن خلدون بالمسعودى ، وتأثير مروج الذهب في كتاب العبر ، فإن ما قصدنا اليه يرمى الى ما هو أبعد من هذا الهدف . فالسألة تتعلق بالتراث العربى الاسلامى الذى استرعبه ابن خلدون في المقدمة ويمكن من تلخيصه بطريقة فذة ، بفضل امتلاكه اللغة وتطويعه للعبارة ، قبل أن ينجح في بلورته في نظريات عامة .

والنتيجة التى نريد أن نخلص اليها تتمثل هنا في أن العلوم العربية الاسلامية هى القاعدة التى انصبت عليها المقدمة ، وأن النظريات في التاريخ والعمران لا تبدأ من فراغ ، بل هى حصيللة التأمل في أعمال الجهد والفكر التى بدأها قدامى الأساتذة ، من : الجاحظ الى المسعودى والمالوردى والطوطوسى ، الى ابن الأثير الذى كان له تأثيره على ابن خلدون من غير شك ، وهذا لا يمنع من الاشارة بذكاء الرجل وعبقريته ، ولكننا نريد أن تكون تلك الاشارة بالسوية بين امام المؤرخين في القرن الثامن ( ١٤ ) وأسلافه من الأئمة السابقين .

أما عن التاريخ الذى قيل أنه تقليدى ، لا يستجيب لقوانين النقد التاريخي ونظريات العمران كما شرحت في المقدمة ، فهو الذى أوحى بتلك القوانين والنظريات ، كما سبقت الاشارة ، وبهذه المناسبة فابن خلدون لا تغيب عنه نظريات المقدمة تماماً في عرضه التاريخي . فهو إذا كان قد أهمل ذكر مصادره في كثير من الأحيان فإنه يشير اليها في أحيان أخرى . ففي تاريخ الفاطميين في مصر يذكر ما جمعه ملخصاً من كتب ابن الأثير وابن الطوير ، الى جانب المسيحي ( ج ٤ ص ٨٢ ) . وفي تاريخ القرامطة يشير الى الثعالبي والجيصري والبيهقي ، وكذلك ابن سعيد ( ج ٤ ص ٩٢ ) وفي

تاريخ الأندلس يذكر ابن حيان وابن حزم والحجازي (ج ٤ ص ١٣٦ - ١٣٧) وهو لا ينقل اعتباطاً بل يلتزم بالنظر والنقد ، كما فعل مع ابن الأثير فيما يتعلق باستيلاء الخطا على تركستان ، حيث ينص على أنه نقل « الخبر عن اضطراب عنده فيه . . على أن أخبار هذه الدولة الخانية في كتابه ليست جلية ولا متضحة وهو يرجو الله أن يد في عمره الى أن يحقق أخبارها » بالوقوف عليها في نطاق الصحة . وأن يلخصها مرتبة لأنه لم يوفها حقها من الترتيب لعدم وضوحها في نقله . . (ج ٤ ص ٣٩٥)

وفيا يتعلق بنظريات العمران وقيام الدول ، يشير الى نظرية العصبية وأهميتها في قيام الدولة في أكثر من موضع ، ليس في تاريخ العرب والبربر فقط ، بل وفي تاريخ الترك والماليك أيضا (ص ٣٧١) .

ومنهج ابن خلدون في تأليف تاريخه العام ، هو التلخيص واستكمال الثغرات أو النقص مع تقريب المعاني باستخدام الأسلوب المرسل ، البعيد عن السجع والصنعة . وهذا ما يتضح من قصيدته التي قدم بها الكتاب لأول مرة الى السلطان أبي العباس الحفصي سنة ٧٨٤ هـ / ١٣٨٢ م حيث يقول :

لخصت كتب الأولين بجمعها      وأتيت أولها بما قد أغفلوا  
وألنت حوشى الكلام كائناً      سرد اللغات بها لنطقي ذلوا

فكان هذين البيتين من الشعر يلخصان أهم مظاهر عبقرية صاحبهما ، من : المقدرة الفائقة على الاستيعاب والتلخيص ، والتعبير عن القصد بأقرب السبل : طريق الكلام المرسل ، وهو السهل المتع .

وأخيراً يأتي ما انفرد به ابن خلدون في كتابته للتاريخ ، من المبالغة في التقسيم والتصنيف . . فرغم أن العبري في تاريخ العرب والعجم والبربر وغيرهم من الدول المعاصرة ، فانه يضع كل الأمم والشعوب التي أرخ لها منذ أقدم العصور وحتى القرن الثامن (١٤ م) ، على طول أكثر من ثلاثة آلاف صفحة في إطار واحد ، هو تاريخ العرب وحدهم ، منذ عاد وثمود في جنوب جزيرة العرب الى هلال وسليم في شمال جزيرة المغرب .

وهكذا توالت وقائع العجم والبربر في المشرق وفي المغرب ، في ثنايا أخبار طبقات العرب الاربعة ، من : العرب البائدة والبقية ثم عرب دولة الاسلام في المشرق والمغرب ، وأخيراً جيل عرب المغرب من الهلالية . وإلى جانب هذا التقسيم الافقي ، ينقسم التاريخ الاسلامي رأسياً الى أربع شرائح أخرى هي : تاريخ الدولتين ( الأموية والعباسية ) وتاريخ دول أحزاب المعارضة من : الشيعة والخوارج وغيرهم ، وتاريخ الدول المناصرة لخلافة بغداد ، وأخيراً تاريخ

البربر أو دول المغرب في القرن الثامن ( ١٤ م ) ويعرضه مندرجا تحت تاريخ العرب الهلالية منذ دخولهم الى المغرب في القرن الخامس ( ١١ م ) .

وهنا نحب أن نشير في الختام الى أن ابن خلدون ، على عكس ما قد يراه البعض من أنه مغربي شعوي مناهض للعرب - بسبب ما قاله عن العرب في فصل العمران البدوي والأمم الوحشية تظهر في تقسيمه لكتاب العبر الى طبقات أربعة من أجيال العرب ، متعصبا للعروبة والعروبة حتى أن تاريخ البربر الذين يتمصب لهم ، كما يملو للبعض أن يقول ، يظهر في آخر الأمر وكأنه تاريخ للهلالية ، قبل أن يكون تاريخا لصنهاجة أو الزناتية ، فكان كتاب العبر ، كما تراءى للمؤلف ، هو فقط في : تاريخ العرب .



## (١) صورة عصر :-

كتاب « الفرج بعد الشدة » ألفه القاضي « المحسن ابن علي التنوخي » المعروف بالقاضي التنوخي . وهذا الكتاب تقوم مادته الأساسية على الأخبار والنوادر التي تساق في أسلوب قصصي ، ومع أهمية هذا الجانب ، من الفن القصصي في التراث العربي لا يزال قليل الحظ من عنابة الباحثين ، وموضع اهتمام عند بعض المستشرقين فإن أهمية الفرج بعد الشدة تتجاوز كونه من أحسن المصادر وأقربها إلى المنهج العلمي التوثيقي ، وإلى الشمول أيضا ، إلى أمور أخرى لا تقل في درجة الضرورة ، لعلاقته بالسيرة الشخصية لمؤلفه ، ولدلالاته المتنوعة التي تنسحب إلى المستويات الاجتماعية ، والانشطة الانسانية في عصر مؤلفه .

لقد ولد القاضي التنوخي سنة سبع وعشرين وثلثمائة ( ٣٢٧ هـ ) بالبصرة (١) ، وتوفي سنة أربع وثمانين وثلثمائة ( ٣٨٤ هـ ) ببغداد ، وإذا فقد عاش في صميم القرن الهجري الرابع في أهم مواطن الحضارة العربية الاسلامية ، وفي أنضج مراحلها وأشدّها خطرا .

وهذا القرن الرابع الهجري ، له صورتان على قدر من التضاد عظيم ، فهو عصر التقدم العلمي والنشاط التأليفى ، عصر الانفتاح على الحضارات الاجنبية وتميز الحضارة العربية ، عصر الترف الزائد والفقر القاتل . عصر المؤامرات والاضطرابات والاوبئة ، عصر السلطة الضائعة والأمن المتفقد .

في القرن الرابع الهجري ظهرت الثمار العظيمة التي خرسها عصر الرشيد ، وعصر المأمون من بعده . في

## كتاب الفرج بعد الشدة للـقاضي التنوخي دراسة فنية تحليلية

محمد حسن عبد الله

( كلية الآداب - جامعة الكويت )

(١) انظر : وفيات الأعيان جلد ٤ ص ١٦٢ ، وتاريخ بغداد ج ١٣ ص ١٥٩ ، والتجويد الزاهرة ج ٤ ص ١٦٨ وفتح السعادات ج ١ ص ٢٤٩ . وفي معجم الأدباء أنه ولد سنة ٣٢٩ هـ ج ١٧ ص ٩٢ .

مجالات الحضارة بكل ما تنطوي عليه من توسع في العمران ، واعتناء بالفنون والآداب ، وتشجيع للعلماء ، وتيسير للحصول على المعرفة من منابعها المتقدمة . توفي المأمون سنة ٢١٨ هـ ، أى قبل ميلاد القاضي التنوخي بقرن كامل يزيد بضع سنوات ، وفي أبان تلك الفترة كانت الحماة قد عملت عملها ، وتفتحت البراعم العظيمة التي شهد عصر المأمون نفسه بشائرها ، وفاض نورها في عصر المعتصم ، واستمر اشعاعها في عصور خلفائه لتبلغ الذروة في السطوع والاهجار أثناء مراحل توصف من الناحية السياسية بأنها عصر ضعف الخلفاء ، واضطراب الأمن ، وانتشار الفساد الإداري . وهذا هو الوجه الآخر القاتم المضاد للوجه المشرق بنور الحضارة العربية .

وإذا كنا لا نستطيع أن نستقصى جوانب الصورة على امتداد الأرض العربية ، ما بين المشرق والاندلس ، فإنا لا نستطيع - أيضا - أن نخوض في تفاصيلها الدقيقة ، وإن تكون في حدود العراق وما حوله ، لأن الوفاء بهذه التفاصيل يتجاوز قدرة هذه الصفحات ، ونكتفي بأن نسجل اشارات دالة في حدود الفترة التي عاشها التنوخي ، بذكر بعض أعلام العصر في بعض مجالات المعرفة ، فنجد أمثال أبي الحسن الأشعري ، والاسفرابي ، والقشيري ، وإمام الحرمين الجويني ، والباقلان ، وأبي بكر الجصاص ، وهم من الفقهاء والمتكلمين . ومن علماء اللغة محمد بن دريد الأزدي ، وأبي بكر الأنباري ، وأبي الحسن الرواسي . ومن المتصوفة « جماعة اخوان الصفاء » التي تعتبر من أهم مدارس الاستنارة العقلية في تاريخ الفلسفة الإسلامية . وفي مجال الطب وترجمة كتب الحكمة من اليونانية والسريانية الى العربية نكتفي بأن نقبل صفحات كتاب ابن أبي أصيبعة : « عيون الأنباء في طبقات الأطباء » لنكتشف أن العمل في ميدان الطب ممارسة وترجمة ، وفي مجال الفلسفة ، اختصت به أسر يتوارثه أفرادها جيلا بعد جيل ، مثل آل يحيى بن جرجس ، وآل الطيفوري وآل حنين وحنين بن أسحق هو الذي نقل بعض ما كتب أرسطو بأمر المأمون ، وآل ثابت بن قرة الحراي ، وفي مجال التأليف كان عصر المشافهة قد ولى ، وآتى ثماره التوثيقية في مؤلفات القرنين الثاني والثالث ، ثم طور التأليف كما وكيفا ، فظهرت الدراسات المتخصصة ، كما ظهرت الدراسات الموسوعية المتعددة الاهتمامات ، بأحجامها الهائلة ، وقد ذكرنا من أساء الفقهاء واللغويين والحكام من لا يصعب الوقوف على ما كتبوا في حقول نشاطهم الخاص وعلى المستوى الموسوعي ، فيما يخص المرحلة التي نعني بها ، يكفي أن نذكر « تاريخ الرسل والملوك » لمحمد بن جرير الطبري ( ت ٣١٠ هـ ) و « مروج الذهب » للمسعودي ( ت ٣٤٦ هـ ) و « والأغانى » لأبي الفرج الاصبهاني ( ت ٣٥٦ هـ ) و « الفهرست » لابن النديم ( ت ٣٨٥ هـ ) وهذه المصادر لا يستغنى عنها طالب المعرفة في أى مجال له علاقة بالحضارة العربية ، منذ أقدم عصورها ، وحتى تاريخ تأليف هذه الكتب الموسوعية ، وسنرى في فقرة تالية كيف أضاف القاضي التنوخي من مؤلفات معاصريه ، فضلا عن سابقيه ، ما أغنى به سماعه من جلسائه وأسائذته ، مما يدل - في النهاية - على ازدهار حركة التأليف ، فضلا عن الإبداع الفني ، والمتنبي وحده ( ت ٣٥٤ هـ ) يقضى قرنا كاملا ، بل هو مضى الى اليوم ومسبق كذلك ما بقيت العربية ، والنقد الأدبي ، ويكفى أن نذكر : ابن طباطبا العلوي صاحب « عيار الشعر » ( ت ٣٢٢ هـ ) وقدامة بن جعفر ، مؤلف « نقد الشعر » ( ت ٣٣٧ هـ ) والأمدى ، صاحب كتاب « الموازنة » ( ت ٣٧٠ هـ ) والقاضى الجرجاني مؤلف « الوساطة » ( ت ٣٩٢ هـ ) هذه دعائم عصر مزدهر بألوان الثقافة المتنوعة ، يقف أبو بكر الرازي ، الطبيب الفيلسوف - علامة شائعة على بدايته ( توفي سنة ٣١١ هـ ) ، ويقف بديع الزمان الهمداني على نهايته ( توفي سنة ٣٩٨ هـ ) وقد يكون في الانتقال من الطب والفلسفة في البداية الى المقامات

الادبية وصنعتها اللغوية في النهاية دلالات مختلفة على تحرك مركز الثقل في ثقافة العصر ، وتهدية للطابع الخاص الذي سيميز القرن التالي .

لقد ألف المستشرق آدم مزر كتابه تحت عنوان : « الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ، او : عصر النهضة في الاسلام » ، وهذا الربط أو هذا الوصف له مسوغاته التي تجدد أدلتها في كل أشكال النشاط الفكري والفني والعلمي والعماري<sup>(٢)</sup> ولعل هذه الصياغة لعنوان الكتاب ، كانت وراء اختياره لعنوان كتابه عن المرحلة ذاتها في سلسلة كتاباته عن التاريخ والحضارة الاسلامية ، اذ سماه « ظهر الاسلام » والظهر عالية النهار ، وليس فيها قبله ، أو بعده ، ما يدانيه في تمامه . لقد أرجع الشيخ محمد الحضرى رقى العلوم في عصر المأمون الى سببين : أن المأمون نفسه قد اشتغل بالعلم وأمعن فيه ، وإن كثرة من العلماء مختلفي الاتجاهات قد وجدت في عصره<sup>(٣)</sup> ولعله كان ينبغي عليه أن يضيف سببا ثالثا هو الحرية الفكرية التي أتاحت للعلماء ، بدجة سمحت بعقد ندوات ومناظرات حتى في مجلس الخليفة نفسه ، بغير قيود الا ادب المناظرة ، بل يذكر الشيخ الحضرى أنه تناظر في مجلس المأمون اثنان في معنى « الامامة » ينصر أحدهما « الامامية » والآخر « الزيدية » يقول الحضرى « وهذان المذهبان كلاهما ان صحا يذهبان بما في أيدي آل العباس من الامامة ، ولم يمتنع ذلك من ترك حرية القول لهما<sup>(٤)</sup> . وقد استمر هذا الاتجاه الصاعد في عصر المعتصم ، وتراجع بعض الشيء في عصر المتوكل ( قتل سنة ٢٤٧ هـ ) وتذبذب صعودا وهبوطا فيما بعد ؛ ولكن باب الحوار لم يغلق على الرغم من تسلط بعض المذاهب المحافظة كالحنابلة ، ونستطيع أن نجد في صميم القرن الرابع معاصرة مشهودة بين أبي سعيد السيرافي النحوي ( ت ٣٦٨ هـ ) ومتي بن يونس القتائي ، الذي « انتهت اليه رئاسة أهل المنطق في عصره » حول المنطق اليوناني والنحو العربي<sup>(٥)</sup> وهي مؤثر مهم عن طبيعة العصر واتجاه التيارات الفكرية . كما سنجد بعض الخلفاء يقرضون الشعر ، ويلحون ويغنون ، وكان الوزراء من كبار المثقفين ، وحتى أولئك الذين لم يكونوا عربا فانهم لم يكونوا أقل حماسة للثقافة العربية ، كان عضد الدولة البوبسى يقول الشعر ويحاور ندما فيه ، وكان القاضي التنوخي من جلسائه ، كما كانت له خزائن كتب نادرة ، أقام لها خازنا خاصا ، هو أحمد بن محمد مسكويه ، الذي اختص من الفلسفة بالناحية الخلقية ، فألف « نهذيب الاخلاق » كما ألف كتاب « تجارب الأمم » جرى فيه على نسق خاص ، وهو الاهتمام بمواضع العبرة في الاحداث التاريخية ، والتعليق عليها تعليق الحكيم المجرب<sup>(٦)</sup>

هذا هو الوجه المشرق للقرن الرابع الهجري ، أما الوجه الآخر فتمثله أوضاع الخلافة في ضعفها وضاعفها بين المتغلبين من قادة الترك ، والديلم ، والمتسللين الى اى مواقع التأثير في قصر الخلافة من الجوارى والقهرمانات والخصيان ، والطائعين الى الاستقلال من أصحاب الحركات الانفصالية ، كالقرامطة ، والديلم ، والطورونية ، والحمدانية ، وغيرهم ممن عانت منهم دولة الخلافة العباسية أشد العناء .

(٢) نقله الى العربية محمد عبد الحافظ أبو ريلة سنة ١٩٦٧ م .

(٣) محاضرات في تاريخ الامم الاسلامية ص ٢٠٦ .

(٤) المرجع السابق ص ٢١٠ . وقد هابت عليه بعض الطوائف العامة لذلك .

(٥) أوردها أبو حيان التوحيدي في كتابه : الغلبات ص ١٢١ - والاضاع والمؤانسة ج ١ ص ١٠٤ وما بعدها .

(٦) ظهر الاسلام ج ١ ص ٢٢٢ .

إن كتاب « الفرع بعد الشدة » سيقدم لنا من خلال أخباره القصصية صورة ذلك العصر السياسية ، وهي لا تريد على أن تكون سلسلة لا تنقطع من الحروب الداخلية وحوادث النهب والتصفية والمصادرة ، وإخواب المدن وكبس السجون وقطع الطريق على القوافل ، تلك التي تحمل رسائل أمير المؤمنين وخليفة المسلمين ، لقد خلع الخليفة القاهرة ، وسمل (٧) سنة ٣٢٢ هـ . وأخذ الخليفة الراضى مكانه ، وقد ولد القاضي التنوخى بعد خمس سنوات مضت من خلافة الراضى ، وهذا يعنى أنه عاصر خلافة الراضى ، والمتقى ، والمستكفى ، - والمطيع ، والطائع الذى خلع سنة ٣٨١ هـ ، وأعقبه القادر ، الذى ظل خليفه لأكثر من واحد وأربعين عاما ، وقد مات التنوخى بعد ثلاث سنوات في خلافته ، وهؤلاء الخلفاء الستة لم يكن لهم من الخلافة غير الاسم ، وهم بين مقتول ومعزول ومن لا يدري من أمره شيئا ، فضلا عن أمر المسلمين . وقد كان منصب الوزارة جزءا من هذه الفوضى وصدى لها ، فكان لمن يتغلب على خصمه ، أو يستولى على اقليم ، أو ييجزل الرشوة للخليفة . وكفى أن تقلب صفحات الجرح الثامن من كتاب ابن الاثير « الكامل في التاريخ » ، الذى يرصد الحوادث المستجدة عاما بعد عام ، لئرى الصورة القلقة ، بل المفزعة ، للحياة السياسية والادارية ، وللنظام المالى في ذلك العصر الذى يزهو بالعلماء والادباء . سكتفى بمجرد اشارة الى أسباب مبايعة المقتدر بالخلافة بعد وفاة المكتفى . لقد فكر الوزير - وهو العباس بن الحسن - فيمن يصلح للخلافة ، فطلب مشورة أصحابه ، وكان عبد الله بن المعتز أكثر المرشحين شهرة ، ولكن مستشار الوزير رفضه ، وقال معللا : « فليتق الله الوزير ، ولا ينصب الامن قد عرفه ، واطلع على جميع أحواله ، ولا ينصب بخيلا فيضيق على الناس ويقطع أرزاقهم ، ولا طماعا فيشره في أموالهم ، فيصادروهم ، ويأخذ أموالهم وأموالهم ، ولا قليل الدين فلا يخاف العقوبة والآثام ، ويرجو الثواب فيما يفعل ، ولا يول من عرف نعمة هذا ، ويستأن هذا ، وضعية هذا وفرس هذا ، ومن قد لقى الناس ولقوه ، وعاملهم وعاملوه ، ويتخيل ، ويحسب حساب نعم الناس ، وعرف وجوه دخلهم وخرجهم . فقال الوزير : صدقت ونصحت ، فيمن تشير ؟ قال : أصلح الموجود جعفر بن المعتضد . قال : وبك ، هو صبي قال ابن الفرات ( المستشار ) الا أنه ابن المعتضد ، ولم تأت برجل كامل يباشر الأمور بنفسه ، غير محتاج اليها ؟

هكذا بويح للمقتدر بالخلافة ، لانه لا يعرف شيئا ، ولا يستطيع أن يباشر الأمور بنفسه ومن ثم سيظل أمير ارادة وزرائه ، فلا يستغرب أن تتسلط أم الخليفة ، وقهرمانة قصره ، وقد صار لها الحكم في كل شئون الدولة ، وصارت أعظم المناصب تنال بالرشوة ، ويدل قلق منصب « الوزارة » على هذا الاضطراب العام ، فقد شغله العباس بن الحسن ، ثم ابن الفرات ( إبان فتنه ابن المعتز ) ثم ابن خاقان ، ثم علي بن عيسى ، ثم ابن الفرات مرة ثانية ، ثم حامد بن العباس ، ثم عبد الله بن محمد ( بن خاقان الوزير السابق ) ثم أبو العباس أخضى بن ابن مقله ، ثم سليمان بن الحسن ، ثم أبو القاسم الكلوزانى ، ثم الحسين بن القاسم ، ثم الفضل ابن حجر ، فهؤلاء اثنا عشر وزيرا الى أربعة وعشرين عاما . تولى بعضهم الوزارة أكثر من مرة ، لم ينلها أكثرهم عن جدارة ، بل بما بذل من رشوة لا بد أن يستردوا مضاعفة ومها يكن من أمر فقد قتل المقتدر بعد حكم طويل ، وبدأت المشاورات بين أصحاب النفوذ الحقيقي من القادة والحجاب ، وهنا ظهرت مسوغات جديدة لاختيار الخليفة ، أجلها ابن الاثير في عبارات قاطعة قال : ولما

(٧) السمل : القفاد العين إصهارها بتقريب سملار أو حديدية حمة .



قتل المقتدر بالله عظم قتله على مؤنس ( مؤنس المظفر الخادم من أصحاب النفوذ طوال عصر المقتدر ، وقد شارك في تدبير قتله ) وقال : الرأي أن ينصب ولده أبو العباس أحمد في الخلافة ، فانه تريبق ، وهو صبي عاقل . وفيه دين وكرم ، ووفاء بما يقول ، فاذا جلس في الخلافة سمحت نفس جدته ، والدة المقتدر ، وإخوته ، وغللمان أبيه ببذل الأموال ، ولم ينتطع في قتل المقتدر عزازن ( مادام ابنه قد أخذ مكانه ) ، فاعترض عليه أبو يعقوب اسحاق بن اسماعيل النويختي ، وقال : بعد الكد والتعب ، استرحنا من خليفة له أم ، وخالة ، وخدم يدبرونه ، فتعود الى تلك الحال والله لا نرضى الا برجل كامل ، يدبر نفسه ، ويدبرنا .

هكذا اختلت مقاييس اختيار الرجال لأجل المناصب ، واقتربت بين قطبين متباعدين : لماذا نأتي برجل كامل يباشر الامور بنفسه ، غير محتاج اليها ؟ - و : والله لا نرضى الا برجل كامل يدبر نفسه ، ويدبرنا ، لقد اختير القاهرة على هذا الأساس الأخير . ولكنه قتل بعد عام ونصف عام لا تزيد ، لانه لم يكن رجل المنصب ، كما لم يكن رجل جماعة المسلمين ، بل كان رجل المصالح ، ومحاور النفوذ ، واختلاف الظروف ، لا غير .

سيكون « الفرج بعد الشدة » شاهد صدق على عصر المؤامرات ، والاستنزاف الكبير لأهم مصادر القوة في الدولة الاسلامية : الانسان .

#### ( ٢ ) صورة شخصية

ليس من شك في أن كتاب « الفرج بعد الشدة » باستطاعته أن يمنحنا جوانب مهمة من حياة مؤلفه العملية ، وملاحظه النفسية ، ترتيبا على أن الكتاب - أي كاتب - يفيض جانباً من نفسه فيما يكتب ، فضلا عن دلالة الاختيار للموضوع الذي يؤثره ، وبخاصة حين يكون الموضوع انسانيا ، له مساس مباشر بالحياة الشخصية لكثير من كبراء العصر ومشاهيره ، ومع هذا فان كتب التراجم قد عنيت بايراد بعض التفاصيل التي سيكون باستطاعتها أن تجلوا أمامنا صورة هذا القاضي الأديب ، وأسباب اختياره لموضوع الفرج بعد الشدة دون غيره ، وللتنوخى غير هذا الكتاب ديوان شعر وصف بأنه كبير ، يفوق في حجمه ديوان والده ، وكتاب « نشوار المحاضرة » وقد طبع مؤخرا في أجزاء ثمانية (٨) وكتاب « المستجاد من مغلات الاجواد » ولكن يبقى الكتاب الذي نحن بصدده أكثر اقناعا لدى كتاب التراجم . وأقدم عبارة مأثورة أطلقها الثعالبي - صاحب يتيمة الدمر - وقد عاصر التنوخى ، اذ عاش الثعالبي بين عامي ٣٥٠ و ٤٢٩ هـ ، وفيها قال مفتتحا ترجمته : « هلال ذلك القمر ، وغصن هاتيك الشجر ، والشاهد العدل لمجد أبيه وفضله ، والفرع المثل لاصله ، والنائب عنه في حياته ، والقائم مقامه بعد وفاته ، وفيه يقول أبو عبد الله بن الحجاج ( من الوافر ) :

تخفرت الشباب على الشيوخ  
بحضرة سيدى القاضى التنوخى

إذا ذكر القضاة وهم شيوخ  
ومن لم يرض لم أصفعه الا

(٨) نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة ، حققه ونشره معهد الشافعي سنة ١٩٧١ والنشوار هو ما يظهر من كلام حسن ، وهناك مصادر عديدة وحديثة منه « نشوار المحاضرة » والكتاب أقل تماكسا . من الترجمة القديمة - من الفرج بعد الشدة .

وله كتاب الفرج بعد الشدة ، وناهيك بحسنه ، وامتناع فنه ، وما جرى من الفأل بيمنه ، لا جرم أنه أسير من الأتائل ، وأسرى من الخيال <sup>(٩)</sup> . وقد ترددت هذه العبارات فيها كتب عن التنوخي بعد التعالي وهي تشير بالخاح إلى شخصية والده ، وكيف كان الولد صورة أبيه أو مستفيدا من منزلته ، وارثا لمناصبه في الحقيقة . أما أوفى ترجمة له فنجدها عند ياقوت الحموي <sup>(١٠)</sup> ، وقد أثبت اسمه ، فهو : المحسن - بكسر السين - بن علي ، بن محمد ، بن داود ، ابن الفهم التنوخي ، وكنيته أبو علي ، وقد كان علي هذا قاضيا - فيها بعد - وكان يكتفى أبا القاسم ، وهو نفس اسم جده - والد المحسن - وكنيته ، وقد كان قاضيا أيضا وهناك اختلاف عديد في سلسلة نسبه ، فجاء في بعض المصادر « ابن أبي الفهم » بدلا من « ابن الفهم <sup>(١١)</sup> » كما أضاف ابن العماد الحنبلي تفصيلا آخر ، فداود بن ابراهيم بن نعيم <sup>(١٢)</sup> وعنه أخذ محسن الأمين - فيها نظن - وأضاف بعدها : القحطاني التنوخي ، وربما كان العكس ، هو الصحيح <sup>(١٣)</sup>

ومهما يكن من أمر ، فانه بشخصية هذا الوالد : « القاضي أبو القاسم علي التنوخي » يبدأ تاريخ صاحبنا وتتحدد مكانته الاجتماعية ووجهته في التأليف ، فقد كان من أعلام عصره ، مرموق المنزل ، وقد روعيت هذه المنزلة في اختيار ابنه المحسن لمصعب القضاء وهو لا يزال في شرح شبابه ، بل أسبغت عليه حماية الوزير أبي محمد المهلبى - وزير معز الدولة البربري - الذى يصنفه ابن الاثير بأنه « كان كريما فاضلا ، ذا عقل ومروءة » <sup>(١٤)</sup> وهذا المشهد الذى اختير فيه المحسن لتولى القضاء جدير بأن يروى ، لما له من معان التواضع والذكاء والافادة من الفرصة المتاحة . يقول :

« نزل الوزير أبو محمد المهلبى السوس ( بلدة بخوزستان ) فقصدته للسلام عليه وتجهيد العهد بخدمته ، فقال لى : بلغنى أنك شهدت عند ابن سيار قاضى الاهواز ؟ قلت : نعم . قال : ومن ابن سيار حتى تشهد عنده ، وأنت ولدى ، وابن أبي القاسم التنوخي أستاذ ابن سيار ؟ قلت : ألا إن فى الشهادة عنده مع الحدائة جمالا - وكانت سنى يومئذ عشرين سنة - قال : وجب أن تجيء الى الحضرة لأتقدم الى أبي السائب قاضى القضاة بتقليدك عملا تقبل أنت فيه شهودا . قلت : ما فات ذاك اذا أنعم سيدنا الوزير به ، وسبيل الى الآن مع قبول الشهادة أقرب . فضحك وقال لمن كان بين يديه : انظروا الى ذكائه كيف اغتتمها ؟ ثم قال لى : اخرج معى الى بغداد . فقبلت يده ودعوت له وسار من السوس الى بغداد ، ووردت الى بغداد فى سنة تسع وأربعين وثلثمائة <sup>(١٥)</sup> فتقدم الى أبي السائب فى أمرى ، بما دعه الى أن قلدى عملا بسقى الفرات ، وكنت الأزم الوزير أبا محمد ، وأحضر طعامه ومجالس أنسه <sup>(١٦)</sup> وهكذا صار المحسن قاضيا وهو لا يكاد يجاوز العشرين عاما ، وصار محسوبا من خاصة الوزير المهلبى ، ولم يقف الامر عند حضور طعامه ومجالس

(٩) يتيمة الدرر ج ٢ ص ٣٤٦ .

(١٠) معجم الأدياب ج ١٧ ص ٩٢ .

(١١) تاريخ بغداد ص ١٥٥ - والتجويز الزاهرة ج ٤ ص ١٦٨ .

(١٢) شذرات الذهب لى أخبار من ذهب ج ٣ ص ١١٢ .

(١٣) لمعان الشيبة ج ٤٢ ص ٩١ .

(١٤) التكميل لى التاريخ ج ٨ ص ٥٤٧ .

(١٥) لعل هذا سبب نعت بقرت أن المحسن ولد سنة ٣٢٩ هـ خلافا لجمع من ترجموا له ، واعتمدوا على روايته هو نفسه بأنه ولد سنة ٣٢٧ هـ .

(١٦) معجم الأدياب ج ١٧ ص ٩٤ ، ٩٦ ، ٩٧ - وعن مولده راجع ص ٩٢ .

أنسه ، فقد ذكر حادثة تدل على عمق المحبة التي يكنها الوزير له ، والحماية التي يحرص على بسطها عليه ، فقد كان الوزير في مجلس عام ذات يوم ، وكان المحسن عنده ، ثم جاء الحاجب يستأذن لدخول أبي السائب - قاضى القضاة - وهنا استندى الوزير المحسن ، وتظاهر بأنه يخاطبه في أمر خاص على جانب من السرية ، وقال للمحسن هسا - بينا قاضى القضاة واقف بالباب يرى المشهد ولا يسمع ويتنظر اذن الوزير له بالجلوس - : ليس بيننا سر ، وإنما أردت أن يدخل أبو السائب فيراك تسأرنى في مثل هذا المجلس الخافل فلا يشك أنك معى في أمر من أمور الدولة ، فيهربك ويحشمك ويتوفر عليك ويكرمك فانه لا يجيء الا بالرهبة ، وهو يبغيك بزيادة عداوة كانت لأبيك ، ولا يشتهي أن يكون له خلف مثلك « ويسجل المحسن لنا صدى هذه العلاقة الخاصة بينه وبين الوزير وأثرها على سلوك قاضى القضاة تجاهه ، فيقول « وجئت من غد الى أبي السائب فكاد يحملى على رأسه ، وأخذ يجاذبنى بضروب من المحادثة والمباينة وكان ذلك دهرًا طويلا »

وهناك جانب آخر من شخصية هذا الأب القاضى ، وأشار اليه ابن خلكان صراحة ، وأغفله المحسن ، لما يحرص عليه الابن عادة من اجلال سيرة أبيه ، وتجنب ذكر ما يمس نزاهته ووقاره ، فقد وصف هذا الأب بأنه كان الى فقهه وقضائه : أدبيا وشاعرا ظريفا ، وأنه كان من ندماء الوزير المهلبى وسماره ، وتعين المحسن في منصب القضاء وهو لا يزال صغير السن ، وازهاب قاضى القضاة من أجله دليل على ما كان بين الوزير والأب ، وبعبارة ابن خلكان حاسمة بالنسبة لتقرير بعض الصفات . يقول : « كان الوزير المهلبى وغيره من رؤساء العراق يميلون اليه ، ويتعصبون له ، ويعودونه ربحانة الندماء ، وتاريخ الظرفاء وكان في جملة الفقهاء والقضاة الذين يتادمون الوزير المهلبى ، ويحتمون عنده في الاسابيع ليلتين على اطراح الحشمة والتبسط في القصف والخلاعة (١٧) .

سنجد « اطراح الحشمة » والتبسط في القصف والخلاعة » في مجالس الرؤساء ماثلة في حياة المحسن أيضا ، كما سنرى ، مع فقهه وقضائه وجده ، بل سنجد الوصف بالظرف وسرعة الخاطر مما اشتهر به ابنه على ، وكان قاضيا أيضا ، يقول عنه ابن شاکر الكتبي : « وكان ظريفا نبيلًا جيد النادرة ، اجتاز يوما في بعض الدروب ، فسمع امرأة تقول لأخرى : كم عمر بنتك يا أختي ؟ فقالت : رزقتها يوم صفع القاضى وضرب بالسياط . فرفع رأسه اليها وقال : يا بظراء ، صار صفعى تاريخك ، ما وجدت تاريخًا غيره .

... وكان يوما ناثيا ، فاجتاز واحد غث وأزعهجه مما يصيح : شراك النعال شراك النعال ، فقال لغلامه : اجمع كل نعل في البيت وأعطها هذا يصلحها ويشتغل بها . ثم نام . وأصلحها الاسكافى واشتغل بها الى آخر النهار ، ومضى لشأنه . فلما كان في اليوم الثالث فعل كذلك ولم يدعه يتام ، فقال للغلام : ادخله ، فأدخله فقال له : يا ماص بظر أمه ، أسس أصلحت كل نعل عندنا ، واليوم تصيح على بابنا ، هل بلغك أننا نتصافح بالنعال ونقطعها ؟ فتاة ، يا سيدى أتوب ولا أعود أدخل الى هذا الدرب أبدا (١٨) ومع هذا الظرف ، بل هذه « الخلاعة » في استخدام بعض الألفاظ - التي تجنبنا ذكر ما زاد فحشه منها - لا يتردد ابن شاکر في وصفه بأنه كان شيعيا معتزليا ، وكان ساكنا وقورا »

(١٧) وفيات الامهات ج ١ ص .

(١٨) فوات الوفيات ج ٣ ص ٦٠ - ٦٢ .

هذان شعاعان مسلمان على شخصية صاحبنا المحسن التنوخي ، أحدهما من والده أبي القاسم على التنوخي ، والآخر من ابنه أبي القاسم علي بن المحسن التنوخي ، ولعلها أن كشافنا لم ينص عليه مؤرخو حياة المحسن ، وهو ظرفه وتساعده ، بل حسه الفنى الذى يكاد يخرج به عن نزمت الفقيه وجد القاضي .

لم يقف تأثير الوالد على ولده عند حدود ما استوجب من الرعاية من خاصة أصدقائه ، كما رأينا من حذب الوزير المهلبى علي المحسن ، مع أن هذا الوالد - نديم المهلبى - كان قد مات منذ عام ٣٤٢ هـ ، أي قبل أن يتولى ابنه القضاء ، بسبع سنين ، فهناك جانب « الورثة » التي يمكن أن نلمح آثارها في مزاج الابن وتنشئته وميوله ، وحرصه على أن يسير على النبط الذي سارت عليه حياة أبيه ، وهناك جانب ثالث لا يقل أهمية فيها نحن بصده ، فقد شغل هذا الأب منصب القاضي في أكثر من مكان .

١ - رامهرمز ، وهي مدينة من نواحي خوزستان ، نستنتج هذا من قول المحسن في صدر الخبر رقم (٦٣) : أخبرني أبو محمد الحسن بن عبد الرحمن بن خلاد الرامهرمزي ، خليفة أبي علي القضاء بها . . . (١٩) .

٢ - الأهواز ، نستنتج ذلك من وصفه لمحمد بن بكر الخزازي - صاحب ابن دريد - بقوله : « وكان شيخا من أهل الأدب والحديث ، فقد استوطن الأهواز سنين ، وكان ملازما لأبي رحمه الله ، يتفقه ويبره » . . . (٢٠) .

٣ - الكرخ : وهي من ضواحي بغداد وأكثر أهلها من الشيعة . نستنتج ذلك من قوله في اسناد الخبر رقم (٤٤٩) : وحديثي أبي رضي الله عنه قال ، لما كنت بالكرك ، أنقلد القضاء بها ، وبالرج وأعمالها ، كان بوابي رجل من أهل الكرخ <sup>(٢١)</sup> .

٤ - البصرة ، وقد نص عليه ابن خلكان ، ونقله عنه أحمد أمين <sup>(٢٢)</sup> ، وليس من شك في أن هذا التنقل بين جهات العراق وفارس كان بمثابة المدد الذي لا ينقطع للذاكرة الصبي بالحوادث المتجددة ، والنماذج البشرية المختلفة ، ومثيرا لتداعيات التاريخ القريب والبعيد ، ولأن نعجب اذا ، حين نجد مادة كتابه مستمدة من تاريخ العراق وفارس ، في نسبتها الغالبة ، ومن أخبار مدنها وحكايات شعبيها .

وفضلا عن ذلك ، فقد كان هذا الأب مصدرا لبعض الأخبار التي رواها ابنه المحسن ، مبتدئا بما عاشه هذا الأب من تجارب وما شاهد من رجال وحوادث ، أو ناقلا رواية عن غيره ، كما كان مجلسه يجمع أهم أدباء عصره في البصرة بخاصة ، وفيها سمع المحسن من أبي بكر الصولي ، وهو لم يزل حدثا <sup>(٢٣)</sup> .

لقد مات القاضي أبو القاسم علي التنوخي ، وولده المحسن في الخامسة عشرة من عمره ، وإذا فقد قضى في رعاية أبيه أهم سنوات تكوينه الثقافي ، وأغاد افادة مباشرة من « الندوة » الثقافية التي كان يؤمها مفتقو البصرة في بيت هذا

(١٩) - الفرج بعد الشدة ج ١ ص ١٨٠ .

(٢٠) - الفرج بعد الشدة ج ٤ ص ١٣٣ .

(٢١) - الفرج بعد الشدة ج ٤ ص ٣٢٤ .

(٢٢) - ظهير الإسلام ج ١ ص ٢٤٠ .

(٢٣) - محمد بن يحيى بن عبد الله ، أبو بكر الصولي ، توفي سنة ٣٣٥ وقد ذكر القاضي التنوخي بأنه سمع منه في البصرة في هذه السنة ، انظر : الفرج بعد الشدة ج ١ ص ٣١١ وغيرها .

الأب المحدث الشاعر الأديب ، ولقد كانت البصرة ، الى عصر المحسن ، عاصمة ثقافية هامة ، تتوارث الرواية عن بوادي نجد والحجاز مما يليها ، وتعتبر مستقرا لنوادير الاعراب ولهجاتهم ، مما أغنى ثقافة هذه المدينة وجعل منها مدرسة محددة الملامح ، شائعة الأثر ، في الشعر واللغة والنحو ، وغير ذلك من مكونات الثقافة العربية التراثية ، ولم تكن النوادر والأخبار كل ما تعلمه وسمعه المحسن في مجلس أبيه ، فقد ذكرت المصادر أنه سمع الحديث النبوي ورواه ويحدد الخطيب البغدادي بداية ذلك بسنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة ، أي أنه سمع الحديث وهو في نحو السابعة من عمره وقد سمع من واهب بن يحيى المازني ، وأبي العباس الأثرم ، ومحمد بن يحيى الصولي والحسن بن محمد بن عثمان النسوي ، وأبي بكر بن داسة ، وأحمد بن عبيد الصفار وطبقتهم ، ونزل بغداد وأقام بها وحدث الى حين وفاته ، وكان سماعه صحيحا (٢٤) . ولا تختلف عبارة ابن خلكان عما قاله البغدادي (٢٥) . أما ابن العماد الحنبلّي فإن عبارته تشعر بأنه استمر في سماع الأحاديث النبوية حين ترك البصرة الى بغداد ، كما أنه يخالف في أول سماعه فيجعله سنة ست وثلاثين وثلاثمائة ، ولعل هذا أقرب الى القبول ، إذ كان المحسن في التاسعة أو العاشرة من عمره . (٢٦)

لقد تقلب المحسن في وظائف مختلفة وشغل منصب القاضي في أكثر من مكان ، وبما يؤسف له حقا أن المصادر التاريخية القريبة من عصره لم تهتم بأن ترتب هذه الوظائف زمنيا ، مع أهمية ذلك في تحديد أطوار خبراته العملية ، وعلاقة هذه الخبرات بنشاطه التأليفي ، ويمكن اعتبار « نشوار المحاضرة » مصدرا أساسيا للمعرفة بحياته ، من حيث قيام مادته على تدوين ما يدور في المجالس وما يرتبط به من حوادث لم تدون في الكتب ، وقد بذل محقق « النشوار » (٢٧) - عبود الشالحي - جهدا طيبا في تجميع ما يتصل بحياة القاضي التنوخي مباشرة ، وترتيبه في سياق زمني متصل ، أوشبه متصل . لقد استقر به الأمر في بغداد عقب توليه قضاء القصر وبابل بسقى الفرات ، سنة ٣٤٩ هـ ، وأصبح عضوا في مجلس الوزير المهلب . ويستنتج المحقق أن المحسن بقي في بغداد حتى سنة ٣٥٥ هـ ، وأن بعض الأعمال المتصلة بالقضاء قد أسندت اليه أيضا في تلك الفترة ، ثم غاب عن بغداد ما بين عامي ٣٥٥ و ٣٦٠ هـ . ثم عاد اليها ليستأنف ما انقطع من وجاهته الاجتماعية التي احتفظ بها برغم هذا الانقطاع . والدلائل تشير الى أنه كان يتولى قضاء واسط سنة ٣٦٣ هـ ، ويعدّها لجأ التنوخي الى البطيحة ، هاربا من ابن بقية ، وزير عز الدولة بختيار ، وبقي بعيدا الى أن وثق صلته بعضد الدولة - ابن عم عز الدولة وأقوى شخصية في عصره - وقد كانت بينهما علاقة خاصة تحتاج قدرا من الاهتمام .

كان عضد الدولة البرعي ( توفي سنة ٣٧٢ هـ ) أديبا وشاعرا ، وحاكما حازما ، وكان بلاطه يجوي نخبة من الشعراء والأدباء معروفة ، وقد قدم ياقوت وصفا لبعض مجالس السمر في حضرة عضد الدولة ، دل على تنوع ثقافة التنوخي في الشعر والرواية والموسيقى ، مما سنجده عليه أكثر من دليل في تحليل مادة كتابه ، ويستتطف ما يدل على مزاج القاضي ومنزله وتطور علاقته . فقد كان يحضر مجالس سمره وفيها الغناء والشرب ، ولكنه كان لا يشرب ، وكان يعد قصائد

(٢٤) تاريخ بغداد من ١٥٥ - ١٥٦ .

(٢٥) ولبات الأعيان ج ٤ ص ١٦٠ .

(٢٦) شذرات الذهب في أخبار من ذهب ج ٣ ص ١١٢ .

(٢٧) نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة ج ١ ص ٢٠ - ٢٤ ، وفي الفرج بعد الشدة ما يشير الى استناره ج ١ ص ١٠٦ ، وأنه كان في الامواز سنة ٣٥٠ هـ ج ١ ص ١٤٣ .

يُدخ بها عضد الدولة في بعض مناسباته الخاصة ، كما كان يراعى منزلة هذا الملك الفارسي إذا ما سمع شيئاً من شعره ، حدث أن ذكر أحدهم بيتاً من نظم عضد الدولة وهو :

وشرب السكاس من صهباء صرف      يفيض على الشروب يد النضار

يقول القاضي التنوخي : « فقطعت المذاكرة ، وأقبلت أعظم البيت ، وأفخم أمره وأفرط في استحسنه ، والاعتراف بأنني لا أحفظ ما يقاربه في الحسن والجودة فذاكر به »<sup>(٢٨)</sup> هذا إذا : القاضي التنوخي رجل الحاشية وجلس الملوك ، وليس الفقيه أو القاضي ، أو الناقد الأدبي ، ويتأكد هذا حين نراه يقبل الأرض شكراً حين ينعم عليه عضد الدولة بشيء جليل ، يستمر هذا النمط من الحياة إلى أن تحدث الوحشة ، ثم الفرقة والعقوبة . وقد جرى ذلك على مرحلتين ، فكانت السخطة الأولى بسبب تسرب خبر القتي يشير إلى أن الملك بسبيله إلى القبض على الصاحب بن عباد ، وقد أسند هذا التسريب إلى القاضي التنوخي ، فجفاه الملك خمسة وأربعين يوماً ، يشاركه المجلس دون أن يبادله كلمة أو يرفع إليه وجهاً ، والقاضي لا يحسر على الانقطاع أو مفاتحه الملك فيما نسب إليه ، إلى أن يدافع عن نفسه ، ويعترف على نفسه بالوشاية بمن سبق أن اختلق الخبر وحمله عليه .

وكان القاضي التنوخي إبان قربه من عضد الدولة قد توسط في عقد مصاهرة بين الوزير الفارسي ، المنغلب ، والخليفة الطائع ، تزوج الخليفة من ابنة الوزير ، ولكنه مع حبه لها وشغفه بها ، لم يحاول أن ينجب منها خوفاً من تزايد الطامع الفارسية ، وقد فطن عضد الدولة إلى معنى هذا الامتناع عن معاشرته ابنته ، فحدث القاضي التنوخي في الأمر ، وحمله رسالة إلى الخليفة على لسان والده الصبية بأنها مستزيدة لأقبال مولانا - الخليفة - عليها وأدائه إياها . « فقد كنت وسيط هذه المصاهرة . فقلت : السمع والطاعة ، وعذبت إلى داري لألبس ثياب دار الخلافة ، فاتفق أن زلت ووئثت رجلي » والحق أن القاضي قمارض ، وتصنع حادثة الانزلاق ورض عظام رجله ، لعله يخوف من الدخول في مرحلة خصومة قادمة بين الخليفة المستضعف ووزيره القوي . والمهمة في ذاتها غير مشجعة ، وهي تختلف كثيراً عن الوساطة في عقد مصاهرة . وقد كشف أمر التمارض ، فصدر أمر الملك للقاضي أن يلزم بيته ، وعزل من جميع مناصبه ، وصودرت أمواله ، واستمر ذلك إلى وفاة عضد الدولة<sup>(٢٩)</sup> . هكذا استحكمت الشدة ، التي انتهت إلى « فرج » طال انتصاره ، وكان تأليف كتاب « الفرغ بعد الشدة » ، بمثابة نوع من العزاء أو طلب السلوان وتبديد قسوة الانتظار . وهذا يعني أن القاضي التنوخي ألف كتابه وقد جاوز الأربعين من العمر ، وأصبح صاحب تجربة ، ابتلى الحياة وابتلته الحياة ، وسنجد في كتابه هذا يتمتع بقدر عظيم من التسامح ورحابة الصدر ، يتم على حكمة وبعد نظر .

خرجنا لتستسقي بيمن دعائه      وقد كاد هذب النسيم أن يبلغ الأرض  
فلما ابتدأ يدعو تقشعت السما      فما تم الا والنسيم قد انفضا

(٢٨) مجموع الأدباء ج ١٧ ص ١٠١ .

(٢٩) مجموع الأدباء ج ١٧ ص ١١٣ ، ١١٤ .

وقال متغزلاً :

أقول لها والحي قد فطنتنا بنا      ومالي عل أيدي المسنون سراح :  
لما ساء لي أن وشحتني سيوفهم      وأنك لي دون الشوشاح وشلاح

يقول الشعالي في تقديمه للبيتين الأخيرين : « وأنشدني غيره له ، وأنا مرتاب له لفرط جودته وارتفاعه عن طبقة »<sup>(٣٠)</sup> وهي عبارة دالة على منزلة التنوخي في الشعر ، أما موقعه ، أو موقع كتابه بين فنون النثر في التراث العربي ، فهو ما يحتاج إلى عناية وتفصيل .

### ٣ - صورة كتاب :

نعتمد في التعريف بكتاب « الفرج بعد الشدة » على النسخة التي حققها عبد الشالجي ونشرتها دار صادر بيروت ، سنة ١٩٧٨ في خمسة أجزاء ، مجموع صفحاتها ١٩٧٧ صفحة من القطع المتوسط ، نالت المقدمة الإضافية التي ألفها المحقق عن حياة التنوخي ومصادر كتابه والمخطوطات التي اعتمد المحقق عليها ، ثم الفهارس المقترعة في آخر الكتاب ، نالت نحو ثلاثمائة صفحة ، وما بقي فانه قسم الى فقرات متتابعة تحت أرقام أضافها المحقق مع عناوين من اختراعه ، نحاول أن نجمل موضوع كل خبر أو قصة ، أو موضع العبرة فيها . ويتفاوت امتداد كل فقرة ما بين بضعة أسطر ، قد تصل الى ثلاثة أو خمسة في حالات قليلة ، وقد تمتد الى عشر صفحات أو أكثر في حالات معدودة ، أما الغالبية العظمى من هذه الفقرات فتتمد ما بين صفحتين الى أربع صفحات . وبذلك انقسم الكتاب الى ٤٩٢ فقرة متتابعة من الجزء الأول الى آخر الجزء الرابع ، ثم كان الجزء الخامس ، وهو أصغر الأجزاء عدد صفحات ، وقد تضمن آخر أبواب الكتاب ومادته من المختارات الشعرية التي تنصوي - بشكل عام - تحت هدف « الشدة يعقبها فرج » وهذه المختارات تملأ مائة صفحة وتتابع دون ترقيم ، لتستأثر الفهارس ببقية هذا الجزء الأخير من الكتاب .

وقد أشار المحقق الى أول صلته بالكتاب ، ثم اعجابه به ومؤلفه ، ذلك الاعجاب الذي حفزه على التوفر لتحقيق كتابه « الشوار » ثم « الفرج » وقد بذل في خدمتها جهداً جديراً بالتقدير والثناء . أما بداية تلك الصلة فنرجع الى نسخة مطبوعة نشرتها دار الهلال ، بمصر لم تتل رضا المحقق ، لما فيها - حسب قوله - من اختلال ونقص ، فضلاً عن حذف الأسانيد والتصحيح وبالرغم من ذلك ، فقد أقدت منها ، اذ وجدتها قد أثبتت بعض القصص التي سقطت من بقية المخطوطات الأخرى « (٨/١) ونحن لم نطلع على نسخة دار الهلال التي لم يذكر لنا تاريخ نشرها ، وإنما اطلعنا على نسخة أخرى نشرت قبل أن يقدم بتحقيق الكتاب بنحو ربع قرن ، قد أشير في صدرها أنها مأخوذة عن نسخة خطية محفوظه بدار الكتب المصرية ، وهي نسخة كاملة شاملة ، اذا استثنينا احتمال التحريف أو تصحيح بعض الكلمات ، وهي لم تنسب الى محقق ، وقد نشرت في جزمين مجموع صفحاتها ٥١٨ صفحة ، تابعت على ذات النسق الذي مضت عليه النسخة المحققة ، وليس من المحتمل أن عبود الشالجي لم يطلع عليها فقد قامت بنشرها بالمشاركة : مكتبة الخانجي

بالقاهرة ، ومكتبة المثنى ببغداد ، سنة ١٣٧٥ هـ - ١٩٥٥ م وللكتاب من الشهرة ، وللناشر من الذبوع ، وللمحقق من الشغف الذي تحدث عنه ، ما يجزم بأن اللقاء مع هذه النسخة المنشورة التي أهفل الحديث عنها ، قد تم . ونعود إلى محتوى الكتاب ، من خلال عناوين أبوابه .

قسم القاضي التنوخي مادة كتابه في أربعة عشر بابا :

- الباب الأول : ما أنبأ الله تعالى به في القرآن ، من ذكر الفرج ، بعد اليأس والامتحان .
- الباب الثاني : ما جاء في الآثار ، من ذكر الفرج بعد الالواء ، وما يتوصل به الى كشف نازل الشدة والبلاء .
- الباب الثالث : من بشر بفرج من نطق قال ، ونجا من محنة بقول أودعاه أو ابتهاج .
- الباب الرابع : من استعطف غضب السلطان بصادق لفظ ، أو استوقف مكروهه بموقف بيان أو وعظ .
- الباب الخامس : من خرج من حبس أو أسر أو اعتقال ، الى سراح وسلامة وصلاح حال .
- الباب السادس : من فارق شدة الى رخاء ، بعد بشرى منام ، لم ينسب صدق تأويله كذب الأحلام .
- الباب السابع : من استعذ من كرب وضيق خناق ، بإحدى حائلي عمد أو اتفاق .
- الباب الثامن : من أشفى علي أن يقتل ، فكان الخلاص اليه من القتل أعجل .
- الباب التاسع : من شارف الموت بحيوان مهلك رآه ، فكفاه الله سبحانه ذلك بلطفه ، ونجاه .
- الباب العاشر : من اشتد بلاؤه بمرض ناله ، فعاياه الله تعالى بأيسر سبب ، وأقله .
- الباب الحادي عشر : من امتحن من لصوص يسرق أو قطع ، فعموس من الاجتماع والخلف بأجل صنع .
- الباب الثاني عشر : من ألجأ خوف الى هرب واستار ، فأبدل بأمن ، ومستجد نعمة ، ومساو .
- الباب الثالث عشر : من نالته شدة في هواء ، فكشفها الله تعالى عنه ، ومكلمه من بهواء .
- الباب الرابع عشر : ما اختير من ملح الأشعار في أكثر معاني ما تقدم من الأمثال والأخبار .

بعد قراءة عناوين الأبواب ، ونظام تنابعها ، يمكن أن نكتشف أنها لا تخضع لاعتبار واحد ، ومن ثم فإنها لا تتكامل ، بقدر ما يمكن أن تتداخل . ان الأخبار والقصص والحكايات التي اختيرت لتأخذ مكانها في هذا الكتاب ، تم انتقاؤها على أساس من الشكل الفني : الشدة - الفرج ، وهو أساس سليم ، يعبر عنه بلغة الفن الأمل بكلمتي : الأزمة - الحل . ومن هنا كان ينبغي أن يكون أساس التقسيم فنيا ، يعتمد على نوع الأزمة ، أو أسلوب الحل ، ولكن يبدو أن جانب « الموعظة » في هذه الأخبار القصصية كان الأكثر وضوحا في ذهن المؤلف للرابطات النفسية التابعة من التجربة الحامسة ، ومن جانب آخر فالتأني لا نستطيع أن نحمل التنوخي صفة التقصير ، ولم تكن أمامه تجربة رائدة ، كما لم تكن قضايا المنهج مما يهتم له المؤلفون ، ويسرى أنه حتى في إطار هذا التقسيم العام ، في داخل كل باب ، كان التداعي يقوم بالدور الأساسي في تنابع الأخبار والقصص . قبل أي اعتبار آخر .

ان البابين : الأول والثاني استحقا الصدارة لما دعتها ذات الصلة بالقرآن الكريم ، والأحداث النبوية ، وقصص الأنبياء السابقين . وقد تسلسلت الى بعض هذه القصص أساطير إسرائيلية وغير ذلك دون أن تفقد فيها في الصدارة لمزاجها الديني في نظر المؤلف وبصفة عامة فإن فقرات هذين البابين ، وان دخلت تحت عنوان الكتاب - فلها خارج طابعه العام ، فافكرها أدعية واذكار تقال عند الشدائد ، أثرت عن بعض الأنبياء والصالحين والمكروبين من غير هؤلاء .



وأولئك ، وكانت سبباً في تديد هذه الشدائد ، وليس من اليسر اعتبار هذه الأدعية والأذكار قصصاً أو أخباراً حتى وإن ذكرت المناسبة في عبارات موجزة ، لا تشكل منها عملاً فنياً تصويرياً ، وهو الطابع العام لهذا الكتاب ومن جانب آخر فإن وسائل الفرج أو ظروفه في هذه المأثورات ذات الطابع الديني كانت تسلكها في أبواب الكتاب الأخرى ، ولم يكن من داعٍ لاستقلالها سوى هذه « القدسية » التي أسبغها المؤلف على هذا النوع من الأخبار .

لقد روعي في توزيع الأبواب سبب الشدة غالباً ، كما روعي أسلوب الخلاص منها في أبواب أخرى وأحمل هذا الاعتباران اكتفاء بمطلق الشدة أحياناً ، سبب الأزمة أو الشدة ، روعي في الأبواب الخامس والتاسع والعاشر والحادي عشر والثالث عشر في حين أن أسلوب الخلاص من الشدة قد روعي في اختيار مادة الأبواب : الثالث والسادس ، فإن التبشير بالفرج من نطق قائل ، أو بعد منام ، ليس مما يدخل في علاقة السبب والمسبب . وهو ما روعي في أبواب أخرى هي : الرابع والسابع . وفي حين يراعى مطلق الشدة في الباب الثاني عشر ، وهو ما يعني أنه كان من الممكن توزيع مادته على أبواب سابقة ، فإن الباب الأخير ، بما اقتبس من أشعار يلمس بدرجة أو أخرى جميع أقسام الكتاب .

ومهما يكن من أمر العلاقة المنطقية المبهجة بين أبواب الكتاب فالتا لا نستطيع أن نوجه لوما إلى القاضي التنوخي ، لقد كان « الاستطراد والتذكير بالنسبة » أسلوباً مقبولاً لتأليف الكتب ، وبخاصة تلك التي تعتمد على الرواية والرواة ، فهذا التحويل الشديد على المشاهدة والسماع يجعل المادة الكلامية في حالة من الاستقلال والتشابك في الوقت نفسه : الاستقلال بذاتها ودون وقف عند « موضع الشاهد » أو بيت القصيدة أو « العبارة » ، لأن الراوي لا بد أن يؤدي الخبر كما انتهى إليه بكل ملايساته ، ثم يأتي التشابك من خلال مسارب متعددة ، فقد يستمر الراوي نفسه في قصص أخرى لا يستبعد أن تخالف أو تناقض ما سبق أن رواه ، وقد تشبهه في المغزى وتختلف في الشخصيات التي صنعت الخبر ، أو العصر الذي تنتمي إليه . قبل التنوخي يقرن ونصف القرن تقريباً ألف الجاحظ كتابه الشهير « البخلاء » ، وهو محكوم بعنوانه مثل « الفرج بعد الشدة » ومع هذا فإن الجاحظ لم يبذل جهداً في تقسيم مادته حسب العصور أو البيئات أو أنواع السلوك التي يعتنفها البخلاء .

وبصفة عامة ، فالتا يمكن أن نلتمس الاعتبارات التي يرجع أن الكاتب وضعها موضع الاعتبار عن قصد أو مستهدياً حسه الفني دون أن يقصد إلى ذلك قصداً .

أول هذه الاعتبارات : التدرج في تنمية الشكل الفني من البساطة إلى التعقيد ، ومن الإيجاز إلى الإطالة والاشباع ، ومن الغيبي الديني ، إلى الواقعي الاجتماعي . يبدأ بالأدعية والأذكار في مواطن الشدة التي تعرض لها الأنبياء ، من آدم إلى محمد عليه السلام ، ويغادر الأنبياء وقصصهم إلى من يلوذ بهم من الأولياء والصالحين . كما يغادر « المعجزة » إلى « الكرامة » ثم يضي إلى المواجهة بين ذوي السلطان ومن يدور في فلهم من الوزراء والعمال أو المواجهة بين واحد من هؤلاء وشخص غمور رفعت به الحوادث المستجلة إلى برائهم فنجاه الله بموعظة أو كلمة صدق ، ثم يتدرج إلى قصص اللصوص وقطاع الطرق وحيلهم وما حاق بالناس من شرهم ، وحين يبلغ الباب قبل الأخير ، وقد عقدت لقصص المحبين والعشاق فإنه يكون قد بلغ أعلى درجات التركيب الفني جودة ، كما يتمكن من اتخاذ قصة الحب هذه وسيلة إلى

الغوص في حياة المجتمع - بكل طبقاته تقريبا - والغوص الى أعماق جديدة في النفس الانسانية لم يبلغها في قصصه السابقة .

الاعتبار الثاني : استندار المادة القصصية بطريق التداعي ، وقد أشرنا الى هذا الجانب منذ قليل ، فعلى الرغم من توزيع مادة الكتاب في أبواب ذات عناوين تحاول أن تكون محددة - وهذا ما لم يتحقق - فإن التداعي داخل قصص الباب الواحد قد لعب الدور الأساسي في ترتيب هذه القصص ، للأسباب التي أسلفنا ، ونتيجة لذلك فإن طابع « المسامرة » قد غلب على الكتاب وقد كانت « المسامرة » - التي يفضل القاصي التنوخي أن يدعوها « المذاكرة » مصدرا رئيسيا لامداده بالقصص في مجلس أبيه ، وقد ترددت هذه العبارة في صدر عدد من قصصه : « حدثني أبي في المذاكرة ، من لفظه وحفظه ، ولم أكتبه في الحال ، وعلق بحفظي ، والمعنى واحد ، ولعل اللفظ يزيد أو ينقص » بل إنه ينص على هذه المذاكرة في عنوان كتابه الآخر « نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة » .

ويمكن أن نحصر أنواع التداعي التي استخدمت في ترتيب القصص في الآتي :

أ - تداع مصدره شخصية « البطل » الذي يدور الخبر من حوله ، مثل ذكره لآبيات دلس بها الشاعر البحراني علي « المعتر » في سجنه قبل أن يصير خليفة (١١/٢) فتستدعي آبيات البحراني الى خاطره آبياتا أخرى قالها لشخص آخر وقع في شدة ، وذلك هو أبوسعيد الثغري الذي سجنه المتوكل وصادر أمواله ، فتأمل له البحراني في آبيات ، كان وصولها الى أسماع المتوكل سببا في اطلاق الثغري من حبسه ، وتوليته (١٦/٢) ثم يقول في الخبر التالي : « ومن محاسن شعر البحراني ، الذي يتعلق بهذا الباب ، وإن كان تعلقا ضعيفا ، إلا أن الشيء بالشئ يذكر ولا سيما إذا قارب » ، ثم يأتي بآبيات للبحراني قالها مهنتا إبراهيم بن المدبر حين فرج الله شدته ، بعد أن سقط في أسر الزنج ، ويمكن من نقب السجون والهروب (١٨/٢) ونستطيع أن نقول ان التداعي الذي يرجع الى شخصية البطل لم يستخدم كثيرا ، والقصص والأخبار الخاصة بالرشيد ، والحجاج ، والبرامكة ، والمنصور ، والمأمون ، على كثرتها النسبية ليست متتالية ، وأحيانا ليست متقاربة إذ احتكم فيها الى اعتبارات أخرى .

ب - تداع مصدره شخصية الروائي ، أو الكتاب الذي ينقل عنه ، وبالنسبة لشخصية الراوية فإنه نقل كثيرا عن الصولي ، كما تكررت عنده سلسلة الرواية عن أبي قيراط وولديه (٤٣/٢) و (٥١/٢) و (٥٢/٢) . وقد يحدث أن يعتمد على النقل من مصدر واحد قصصا متتابعة ، وبخاصة حين يكون هذا المصدر محدد الموضوع ، ومن ثم يمكن أن تتجمع قصصه وأخباره في اطار معنى واحد . وقد حدث هذا كثيرا عند النقل عن الجهشيار (٣٤٦/٢) و (٣٥١/٢) و (٣٥٥/٢) و (٣٥٧/٢) وجدير بالذكر أن المصدر واحد ، وهو كتاب الوزراء والكتاب ، والموضوع واحد أيضا ، حسب ما شرط على نفسه في توزيع الأبواب ولكن البطل مختلف في كل قصة ، بل ان الموضوع يختلف كثيرا اذا دققنا في مغزاه وتركيبه وحدث الأمر نفسه عند النقل عن الدائني ( انظر مثلا القصص في الصفحات : ١ / ٣٩٦ - ٣٩٧ / ١ - ٣٩٨ ) ولا نستطرد في هذا الجانب الواضح ، أما تداعيات الراوية أو السلسلة من الرواة فإنها أقل تأثيرا ، بالإضافة الى أبي قيراط ، يمكن أن نجد قصصا متتابعة من رواية : يحيى بن فهد الأزدي ( ١٦٦ / ٤ ) وسعد بن محمد الأزدي ، الشاعر المعروف بالوحيد ( ١٧٧ / ٤ - ١٨٠ / ٤ - ١٨١ ) وعبد الله بن محمد الصوري ، كما تكررت سلسلة : علي بن أبي الطيب ، عن ابن الجراح ، عن ابن أبي الدنيا ، مقاربة ومتابعة .

ج - تداع مصدره المغزي الدقيق للحادثة ، أو المعنى اللغوي لها ، من النوع الأول ما حليم به الاسكندر الأكبر ، إذ رأي في منامه كأنه صارع دارا - ملك الفرس - فصرعه دارا ، ففكر به ذلك وزاد همه ، ولكن عبارة الرؤيا أشارت الى أن الاسكندر هو الذي سيفتخر بخصمه وقد قال له بعض فلاسفته معللا : « أبشر أيها الملك بالعلبة والنصر ، فانك تغلب دارا على الأرض : لأنك كنت تليها لما صرعتك ( ٣١٥ / ٢ ) ويستدعي هذا رؤيا رآها عبد الله بن الزبير إبان صراعه مع عبد الملك بن مروان ، فصرع عبد الملك ، وسمعه في الأرض بأربعة أوتاد . وقد فسر ابن سيرين هذه الرؤيا بانتصار عبد الملك ، للأسباب ذاتها التي أعلنها الفيلسوف اليوناني ( ٣١٦ / ٢ ) ويزيد تفصيلا أن الأوتاد الأربعة هم أولاد عبد الملك الأربعة الذين يرثون ملكه من بعده . ويستدعي هذا حلما ثالثا بنفس المعنى وإن اختلف الشكل ( ٣١٨ / ٢ ) .

أما التداعي اللغوي فنجده مائلا في حادثة الخلع الثاني للخليفة المقتدر ، يروى فتذكره بخلع الأمين ، مع فارق في الدوافع والنتائج ، يستدعي منه أن يعود الى حادثة الخلع الأول للمقتدر ( ٣ / ١٩٣ - ٣ / ١٩٨ - ٣ / ١٩٩ ) .

الاعتبار الثالث : الاهتمام بتوثيق المادة المروية ، سواء كانت تاريخيا مرويا أبطاله أشخاص معروفون ، أو كانت مجرد أخبار غرن نكرات من عامة الناس ، أو كانت حكايات وضعت لسبب أو لآخر ، كالوعظ والتعليم ، وظلت واضحة الاختراع والوضع برغم ذلك .

لقد حرص القاضي التنوخي على تسجيل كيفية وصول الخبر أو القصة اليه ، ومن هنا كثر ترديد كلمات : حدثني ، أخبرني ، حدثنا ، أخبرنا ، اذا ما كانت المشافهة والسماع طريقة التوصيل ، وكلمات : وجدت بخط القاضي أبي جعفر ( ٣٣٣ / ١ ) ، وقد ذكر محمد بن داود في كتابه المسمى كتاب الوزراء ( ٢ / ٢٦٤ ) ، وما الى ذلك من عبارات تؤكد صلته المباشرة بالمصدر الذي نقل عنه . وسنعود الى هذه النقطة بشيء من التفصيل حين نناقش مصادر المؤلف .

الاعتبار الرابع : أن المؤلف التزم بحدود العنوان الذي اختاره لكتابه ، ومع معرفتنا بتكوينه الثقافي الذي تغلب عليه طبيعة الفقيه ، ونشاطه العمل الذي لا بد أن يكون قد أصطبغ بصبغة القاضي ، فانه لم يهتم الى فقهه أو قضائه في انتقاء مختاراته من الأخبار والقصص والحكايات الشعبية ، لقد كان يخفى حسا فنيا رجبا ، يهش لسرعة المفاجأة ويستجيب لمواطن المفارقة ، ويتجارب مع الفرح بالحياة ، سواء اتفق هذا مع جد الحياة ، وعدالة السلوك والحكم أو ناقضه ، وربما دلت الآليات القلائل التي اقتبسناها له على شيء من ذلك ، ومن الواضح أن قبوله منادمة مشاهير عصره ، وبخاصة عضد الدولة ، وقبول أن يكون شاهدا لما في هذه المجالس من مخالفة ما ينبغي التزامه ، حتى وإن لم يشارك في الفعل ، يدل على هذا التسامح السلوكي ، ولا بد أنه كان يستجيب بطبعه الى هذه الحياة ، وقد ذكر في « الفرج بعد الشدة » قصة صاحب الشرطة الذي رفض أن يكون نديما للخليفة ، لأن هذا يناقض طبيعه وانضباط مهنته ، ويعد جفوة قصيرة ، قبل منه الخليفة هذا التفسير ، بعبارة أخرى : لو أن القاضي التنوخي لا يملك رغبة دنيئة في تذوق مباحح الحياة ومشاهدة مسراتها ، ما استطاع أحد اكراهه على ذلك .

هذه صورة شديدة العمومية للكتاب ، نحتاج الى أن نعود الى تأمل نواحيها بشيء من التفصيل .

## ( ٤ ) حس الفنان

لم يكن القاضي التنوخي متباعد عن « الفرج بعد الشدة » ، فهو مسبوق إليه ، كما سنرى ، ومع هذا فإن هذا الاختيار لعنوان كتابه ، يبدو وكأنه صادر عن نفسه ، معبر عن رؤيته لنظام الكون ، ونظام الحياة . لقد اجتاز محنة شخصية كانت هي الدافع المباشر لتأليف الكتاب ، ولكننا نعرف أن « نقطة التحريك » التي تدفع كاتباً ما إلى الاهتمام بموضوع معين ، لا تعنى بالضرورة أن تظل هذه النقطة أو هذا الحافز الشخصي ، يظل مسيطراً على أفكار المؤلف ، والا لتشابهت الكتب ذات الموضوع الواحد ، أو الحافز الواحد . سيعود الأمر إلى حجم ذخيرة المؤلف من المعرفة ، ومدى انفعال عقله وروحته للموافقة أو المخالفة ، ودرايته الفنية بأساليب القول ، وقدرته على استبطان ما هو ظاهر ، والغوص إلى الرموز والدلالات . وفي كل هذه الجوانب ودون أن نعلم إلى الموازنة التفصيلية بين ما كتب التنوخي وما كتب سابقه في إطار الفرج بعد الشدة ، قدم التنوخي من براهين اتساع الأفق ، والقدرة على الغفران ، والجلد على الضعف الإنساني ومجانبة التزم والعنف ، ما يؤكد امتلاء نفسه بحس الفنان واستنارة بصيرته ، حتى إن ذلك كان يؤدي به أحياناً إلى الخروج عما شرط على نفسه في عنوان كتابه ، وإلى مجانبة الجدل ، بل مناقضة الهدف الأخلاقي الذي حرص عليه أحياناً ، وأهمله أحياناً ، من زاوية أن « الأخلاق » ليست شرطاً للفن الجميل ، وهذه مقولة لم يبتدعها القاضي التنوخي ، وقد عرفت قبل عصره فرددها الجاحظ في كتاباته ، وبخاصة في « المحاسن والأصداغ » وافتتح بها محمد بن سلام الجمحي كتابه « طبقات فحول الشعراء » ( ٣١ ) ، ثم نص عليها قدامة بن جعفر صراحة ( ٣٢ ) وهو يكاد يكون معاصراً للقاضي التنوخي ( توفي قدامة سنة ٣٣٧ هـ ) فلا نستغرب أن نجد هذا القدر من « التسامح » في الكتاب ، فهو - على أية حال - مسبوق بتسامحه السلوكي ، النابع من احساس الفنان ، ورجل الحاشية معاً ، لقد أقتنع القاضي التنوخي بأن وراء كل شدة فرجاً وأن الله يحكمته ، أجرى أمور عبادته ، وأغذياه نعمته ، منذ خلقهم ، وإلى أن يقبضهم ، على التقلب بين شدة ورخاء . . . علماً منه تعالى بمساقب الأمور ، ومصلحة الكسافة والجمهور ( ١ / ٥٤ ، ٥٥ ) .

إن الأساس الغنبي القنبري ثابت عند المؤلف ، فالفرج من الله سبحانه وهو يسبب الأسباب ولهذا يبدأ كتابه بآيات اليسر الذي يقاوم العسر ، ومن يجب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ثم يخفى بما ابتلى به الأنبياء من عن ، وكيف ذهب الكيد البشري هباء حين أرادت السماء أن تنصر رسلها ومع هذا فإن المشاركة الإنسانية في رفع البلاء عن المكروبين من القيم الدينية الثابتة ، فإذا جاء الحديث الشريف بأن : « أفضل أعمال أمتي انتظار الفرج من الله عز وجل » ( ١ / ١١١ ) فقد نص حديث آخر على أن : « من ستر أخاه المسلم ستره الله يوم القيامة ، ومن نفس عن أخيه كربة من كرب الدنيا ، نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، وإن الله لا يعفى الإنسان من مشاركة الآخرين في التغلب على صعابهم ويسجل القاضي التنوخي رسالة الشاعر أبي الفرج البيهقي التي أرسلها إليه إبان محنته حين صرفه عضد الدولة عن جميع

(٣١) طبقات فحول الشعراء - المقدمة ، وانظر : مقدمة في النقد الأدبي ص .

(٣٢) في كتابه : نقد النعمان ص ٩٥ .

وظائفه واعتقله في بيته ، وفيها يكشف عن قانون كوني لا فكاك منه ، هو دورة الكون والفساد ، وتلازمها ، فكل شيء إذا ما تم نقصان ، لهذا من حقنا أن نخطئ عند احتكام الأزمة ، واشتداد الضائقة إذ ليس بعد ذلك إلا الفرج لأن انتهاء الشيء إلى حده ، ناقل له عما كان عليه إلى ضده ، فتكاد المحنة بهذه القاعدة ، لاقترابها من الفرج فبسيح الرجاء ، وانتهاء الشدة منها إلى مستجد الرخاء ، أن تكون أحق بأسباب النعم ، ( ١ / ١٥٣ ) .

ثم ينتقل المؤلف إلى اضافة أخرى ، يعالج بها مرحلة « التوقع » للشدة ، وهي عادة تسبق مرحلة « الوقوع » فيها ، وهو يرفضها من منطق فلسفي يعتمد على مبدأ « الاحتمال » فما دام وقوع الشدائد مجرد احتمال ، لا يرتفع إلى درجة المستحيل الوقوع ، ولا إلى المحتم الوقوع فإن نسبة الحدوث تتساوى ونسبة عدم الحدوث ، ومن هنا « لا يغلبن على قلبك » ، إذا اغتممت ما تكره دون ما تحب فلعل العاقبة تكون بما تحب ، وترقى ما تكره ، فتكون كمن يستسلم الغم والخوف ( ٣٣ ) .

ثم تكتمل رؤية القاضي التنوخي بربط الفعل البشري بالارادة الالهية فاكتمال هذه الارادة ونفاذها لا يعنى تعطيل الفعل البشري أو عبث السعى عن حل لما يعانيه الانسان ، فهناك دائما دور اساسي للفكر الانساني ، والفعل الانساني ، والخيالة الانسانية ، وإذا بذل الانسان جهده كله في البحث والمحاولة ، فانه لا بد واجد وسيلة ، فاذا عجزت الوسائل ، فانه لم يعد أمامه الا انتظار الفرج من الله تعالى . ( ١ / ١٦٣ )

هذا - اذا - الاطار العام الذي تحرك فيه معنى الشدة ، وجهد الانسان في البحث عن مخرج ، أو عن « فرج » يقاوم به معاناته ، ولانه أعطى الجهد الانساني دورا أساسيا فان هذا الجهد ، من حيث يحتكم إلى فطرته الخاصة ، وتجاريه السابقة وأسلوبه في العمل ومستواه في التفكير ، وطبيعة المجتمع الذي يتحرك بين أقطاره ، يمكن هذا الجهد أن ينساق إلى أعمال وأقوال ، تبعد - بدرجة أو بأخرى - عن مفهوم الفرج الالهى ، الذي ينتظر - عادة - هناك ، في نهاية المطاف ، عندما تعجز كل الوسائل البشرية ، ومن ثم يمكن هذا الجهد أن يقع في مخالفات دينية واضحة ، وهفوات سلوكية لا خلاف على خطئها ، ومجانبة للعفة والنزاهة والصدق . والجدير بالتأمل حقا أن القاضي التنوخي قد سجل ست عشرة قصة ، أو خيرا من هذا النوع ، دون أن يرفقها بأي تعليق يظهر ما تقوم عليه من تناقض أو مخالفة ، وهنا لم يكن فيها يبحث في الحلال والحرام ، وما يجوز وما لا يجوز ، ولم يكن قاضيا يعني باصدار الاحكام على كل ما يشاهد من أفعال ، وما يسمع من أقوال ، لقد كان فنانا وحسب . كانت الحاسة الفنية تؤدي واجبها في التقاط الحادثة النادرة ، وتسجيل الحوار للمسمم بالذكاء والالمية ، واصطياد الحل المفاجئ غير المتوقع وتحليل المواقف الطرفية ، دون أن يشغل نفسه باصدار الاحكام الاخلاقية على هذا كله ، أو على شيء منه ، وجدير بالذكر أن هذا النوع من القصص والاشعار يتشتر على مساحة الأجزاء الأربعة الأولى ، المخصصة للقصص والأخبار ، وهذا يعنى رسوخ الايمان الفني والاعتناء بالمفهوم العملي للفرج ، هذا المفهوم الذي ينهض على التصور الاجتماعي لمعنى جلاء الهم ، وكشف النعم ، بصرف النظر عن طبيعة هذا الهم ، والأسلوب الذي اتبع في كشفه .

أول ما تصادف من قصص هذا النوع ما نقله عن بعض الكتب : أن رجلين أتى بهما الى بعض الولاة ، وقد ثبت على أحدهما الزندقة ، وعلى الآخر شرب الخمر . فسلم الوالي الرجلين الى بعض أصحابه ، وقال له : اضرب عنق هذا ؛ وأشار الى الزنديق ، وحد هذا وأشار الى الشارب .

وقال : خذهما

فلما ذهب بهما ليخرجا ، قال شارب الخمر للوالي : أيها الأمير ، سلمنى الى غير هذا ليقيم عليّ الحدّ ، فلست آمن أن يغلط فيضرب عنقى ، ويحدّ صاحبي ، والغلط في هذا لا يتلافى .

فضحك منه الأمير واخل سبيله ، وضرب رقبة الزنديق ( ١ / ٣٣٨ ) .

ومثل ذلك ما يروى في خبر آخر ، أن رجلا قامت عليه البيعة بالسرقة ، ووقف أمام عبد الملك بن مروان ، ليأمر باقائه الحدّ عليه ، فأمر بقطع يده . فأنشده الرجل بيتين ، يتحسر على يده ، ويتهل الى عبد الملك أن يعفوه عنه ، فكان رد الخليفة : هذا حد من حدود الله تعالى ولا بد من إقامة عليك .

وهنا تكلمت أم المحكوم عليه ، وهي كبيرة السن ، تستعطف أمير المؤمنين لابنها الذي يعولها وأنه ابنها الوحيد ، وتساله أن يهبه لها . ولكن قلب الخليفة لم يلب لرجاء العجوز ، ووصف ابنها بالسوء ؛ وأنه لا بد من إقامة حدود الله عز وجل .

وهنا قالت العجوز : يا أمير المؤمنين ، اجعله من ذنوبك التي تستغفر الله منها ، وهنا أمر عبد الملك باطلاق الفقى والعفوه عنه ( ١ / ٣٧٥ ) .

في هذين الخبرين يعطّل حد شرعى ، في مقابل المفارقة اللاذعة ، والسكنة المحبوبة التي لجأ اليها السكران في الخبر الاول ، ولبروعة التعبير وقدرته على تحريك مخاوف الانسان ، وبخاصة من يتصدى للحكم ، ويعرف أنه ليس معصوما عن الخطأ ، ولعله ظلم أو أخطأ من قبل ، وأنه لا بد قد اقترف ذنوبا أعظم من « خطيئة العفو » عن ولد وحيد يعول أمه العجوز ، في الخبر الثاني .

أما أعشى مهدان ، وكان من شعراء الكوفة وفقهائها في زمن الحجاج ، فقد غزا مع الجيش الاسلامي بلاد الديلم ، فوقع في أسرهم مدة ، وحبس في بيت المقاتل الذي أسره ، وكان لهذا الديلمي بنت ، رأت الأعشى ، فهوته ، وتسللت اليه ليلا ، فكان ما كان بين الأسير والفتاة وأعجبها ، فعرضت عليه أن تعاونه على الحرب . على شريطة أن يأخذها معه ، ويصطفئها لنفسه وهكذا هرب أعشى مهدان ( ٢ / ١٢٢ ) .

أما ابن الموصول ، وهو بزاز ( تاجر حرير ) من حلب ، فقد حبسه سيف الدولة لضرائب كانت متأخرة عليه ، وكان ابن الموصول حافذا في تفسير الاحلام ، ومن ثم اخترع لنفسه حلياً ، تفسيره أنه لا بد أن يطلق من حبسه هذا اليوم وعلى الفور طلب مقابلة سيف الدولة ، وحكى له رؤياه الملفقة ، وفسرها بين يديه بأنه يجب اخراجه من الحبس في نفس اليوم ، فقال له الأمير :

أحسنت التأويل ، والأمر على ما ذكرت ، وقد أطلعتك ، وسوغتك خراجك في هذه السنة فخرج الرجل يشكره ، ويدعوله (٣٤) . ( ٢ / ٢٢١ ) .

وفي قصة طويلة نجد منما آخر ، حلم به الخليفة العباسي المعتمد على الله ومضمونه أنه رأى النبي عليه السلام في المنام ، وأنه أمره باطلاق سراح رجلين مظلومين في سجنونه ، فاستيقظ من غفوته وأمر باطلاقهما ، وسمع منها أسباب حبسهما ، وعرف ابهما مظلومان . لاغرابة في أن يرى انسان ما رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في منامه ، ولكن الغرابة أن الخليفة قبل أن يغفو كان جالسا بين ندمائه يسمر ، فحمل عليه النبيذ ، فجعل يخفق برأسه نعاسا ( ٢ / ٢٤١ ) فكما نرى فانه في حال لا يصح معها أن يرى رسول الله في منامه . والمثير للتأمل أن القاضي التنوخي يورد القصة ذاتها برواية أخرى ، ويكون هاتف المنام فيها رجلا مجهولا وليس النبي عليه السلام ، وفي هذه الرواية الثانية يوصف خليفة المسلمين بأنه كان كثير الشراب وانه اذا شرب يعربد على جلسائه ، وأنه في الصباح ، حين ذكر امامه اطلاق سراح الرجلين المحبوسين لم يذكر شيئا مما أمر به وهو تحت تأثير الخمر ، والقاضي التنوخي يسجل الروايتين دون ان يشكك في صدق رؤية النبي في الأولى ، أو بعد الاحتمال في الثانية . ان الفرج قد أدرك السجين ، وهذا هو جوهر الموضوع ، هكذا تتعدد المواقف الذي يسرع فيها « الفرج » لمن لا يستحقه كجائزة على سلوك أخلاقي ، أو اعتقاد صالح ، أو صبر جميل ، أو بذل طيب . ان الفرج - فيما تقدم - ثمرة ذكاء يختلق ، أو يلقق أو يمثال ، أو يتوهم ، وهو في هذا كله يصدر عن سلوك نفعي ، وموقف انتهازي ، ومن أحسن الاحوال ، أوهام الغيبوية . ونجد في قصص أخرى ما هو أشد مناقضة لمعى الفرج مما تقدم ، ففي أسوأ التصورات لا نجد أحدا ممن تقدم قد أنزل الضرر بشخص آخر ، وان حصل لنفسه منفعة عاجلة ، أو أزال عنها خسارة متوقعة . أما النماذج التي سنعرض لها الآن ، فانها تصرخ بالتجني على برىء ، واختلاس حق ضحية بلا جريرة ، والتعدى على حرمان تستحق أن تصان ، وتصان أعراض أصحابها . فهذا ابن قمبر ، مجلد الكتب بالموصل ، يأخذ دفترًا لتجليده لأحد القادة الأشداء ، الذي يسرف في توصية ابن قمبر بالحرص على الدفتر ، لكنه يسقط في الماء عند قيامه بالوضوء من النهر ، فيدركه وقد ابتل ، ولا يجد مفرا من أن يجلده ويحاول ستر ما حدث دون جدوى ، ويعزم على اعطاء الدفتر لحارس الباب ، والانصراف والمهرب قبل ادراكه ، لكن حارس الباب يعلمه أن القائد بالداخل ، والافق أن يقدم له الدفتر بنفسه ، وهكذا أسقط في يده وتوقع شر عقوبة . ولكنه حين أدخل وجد القائد الشرس يجلس في صحن القصر أمام بركة ماء . وأخرج ابن قمبر الدفتر من كمه وبأوله لأحد الغلامان ، ولكنه سقط من يد الغلام في البركة أمام عيني سيده ، الذي أنزل بالغلام المسكين عقوبة الضرب بالمقارع ، لأنه أفسد دفتره العزيز !! ( ٣ / ٦٧ ) فاي فرج ، وأي ظلم ؟

وتكرر قصة من تسوق ظروف قاسية الى مكان موحش ، فيجد فيه لصوصا وقتلة ، قد قتلوا نفوسا بريئة ، وسرقوا مالا حراما ، فيغالبهم ويربب بمسروقاتهم ، ويظهر في مكان آخر وقد صار من الأثرياء ، دون أن يظفر له رمش ، ودون أن يطلق المؤلف في أعقابهم عبارة تعجب ، فضلا عن استنكار ( ٣ / ٦٩ ، ٤ / ٢٥٠ ) بل أن منتهب قاطع الطريق ، وقد استولى على كل ما خبأ يقول بلهجة نستطيع أن نجد نعمة الباهامة في تركيبتها : « وفزت بمال عظيم أغناني عن مقصدي وعدت الى بلدي » .

(٣٤) وعلى ذلك ما يذكره في مكان آخر ، أن أحدم زور منما لجاء مطايلا للخليفة ( ٣ / ٢٨ ) .

ولا يختلف عن ذلك كثيراً ما فعله ابن عبدون الأنباري الكاتب ، وقد خرج من بغداد لا يجد قوت يومه ، ثم تسوقه الظروف إلى مصر ، أبان ثورة أقباطها في عصر المأمون ، فلما جاء جيش الخلافة هرب كثير من الأسر ، ثم منحوا الأمان ، وجنى ابن عبدون من رشاوي بذل الأمان « في ليلة واحدة ، مائة ألف دينار حلالاً طيباً » ( ٨٣ / ٣ ) ، أما سلامة القس فقد استمعت إلى نصيحة ابن أبي عتيق ، وتمكنت من الغاء قرار عثمان بن حيان المرقى ، وإلى المدينة ، بتطهيرها من الغناء والزنا ، فبقى كل شيء على حاله ، وكان الفرع ( ٨٩ / ٣ ) ، وحين نصل إلى قصص عشاق العرب فإن الفرع سيكون أبداً مثلاً في خداع الزوج ، أو الضمير العام ، وتمكن العاشق من بلوغ مراده من معشوقته فالأشتر يعشق جديده ، وهي زوجة ، ويضرب لها موعداً عند الشجيرات ، « ولقيها فقبل بين عينيها » وقررت أن تقضى ليلتها معه وتخدع زوجها عن غيابه ، فتسرل بصديق عشيقها وقد ارتدى ثيابها ونام في فراشها إلى الصباح ، وجازت الخدعة على الزوج الضحية ونعم الحبيب بليلة ليس فيها رقيب ، أما الأسدى الذي هوى امرأة من همدان بالكوفة فإنه أثار قلق جيرانها ، فراقبه ، حتى إذا دخل عندها اقتحموا المكان ليضبطوه متلبساً ، ولكن هيهات ، لقد جاءه الفرع بطريقة غير متوقعة ، كانت المرأة بدنية جدا ، فوضعت حبيبها ويبدو أنه كان على العكس منها ضئيلاً جداً ، خلف ظهرها « فادخلته بينها وبين القميص ، ولزمها من خلفها » وهذا لم يعثر عليه .

وتتكرر فعلة الأشتر وجديده والزوج المخدوع ، مع جميل وبثينة وزوجها ، غير أن الحبيين يلتقيان في خيمة بثينة ، وراحا يتحدثان وهما مضطجعان ، وذعب بهما النوم حتى أصبحا ، وراحا خادماً الزوج الذي ما لبث أن أبلى سيده بما عاين ، ولكن حيل العشاق لا تغلبها معانية ولا ملالة !! .

لقد حاول القاضي التنوخي أن يضع في سياق قصص العشق ما يوحى إلى القارئ بأنها لم تنفض إلى ارتكاب عرم ، أو إلى الزنا على وجه التحديد ، فالأشتر يقبل بين عيني جديده ، ثم يقطعان الليل في الحديث والشكوى ، وجميل لا يخلو ببثينة في خباتها ، فمعها أم الجسير صديقتها ، ومادام معها ثالث فليس باستطاعة الشيطان أن يكون رابعها !! ( ٤ / ٣٥٤ ، ٤٢٢ ، ٤٢٣ ) هذه محاولات سقيمة ، تريد أن تخفف عما يظهر في هذه القصص من حرية السلوك العاطفي ، وجرة العشاق - رجلاً ونساء - في كل العصور ، وعلى كل المستويات . ومهما حاول القاضي التنوخي أو غيره من عني بقصص الحب أن يجعل الواقع بشيء من توشية الخيال فإن الصورة ستبقى نابضة بصدق ما كان ، لأنه ما يكون ، وما سيكون من صراع الهوى والارادة ، وتعاكس الشرعية والتمرد ، في كل العصور . وسيبقى القاضي التنوخي جديراً بصفة الفنان الصادق ، ذي الحس المهلم حتى وإن غمز ذلك في فقهه وقضاياه !! ومهما يكن من أمر ، فإننا لم نذكر ذلك لنقد في نزاهة القاضي التنوخي أو دينه ، والواقع الذي وصفناه مستمد من كتابه ، وهو يحسب له ، لا عليه .

ومن قبل ألف الفقهاء في الحب والعشق بدءاً بمحمد بن داود الظاهري ، وهو قريب عهد بالقاضي التنوخي ( توفي سنة ٢٩٦هـ ، أي قبل مولد التنوخي بثلاثين عاماً ) ومن بعده ألف فقهاء لا يقلون شهرة بالعلم والنزاهة عن ابن داود ، مثل ابن حزم ، صاحب « طرق الحمامة » ( توفي ٤٥٦ هـ ) وابن قيم الجوزية ، مؤلف « روضة المحبين ونزهة

(٣٥) عن هذه النزعة الانسانية الصاعدة ، راجع : الحب في التراث العربي .



المشتاقين» (توفى ٧٥١ هـ) وغير هؤلاء من أكابر الفقهاء الذين لم يصرفهم فقههم ، ولا أوقعهم في الحرج ، عن وصف حالات الإنسان ، وجميع العواطف وثورة الغرائز ، ان هذه احدى الانجازات العظيمة للحضارة العربية الاسلامية ، أنها اتسعت للبحث في الانسان ، بما هو انسان ، وليس في حدود اطار مفترض ، فلا غرابة في أن يتسع مدلول « الفرج » عند القاضي التنوخي ، ليعبر عن انقشاع نازلة عن مكروب ، مهما كان كربه ، ومهما كانت النازلة ، فهو انسان أولا ، وإنسان أخيرا ، وأله لم انساني يستحق أن نأسي له ، وإن نفرح بزواله ، بصرف النظر عن دواعيه .

#### (٥) المصادر

تكتسب قضية المصادر التي استمد منها القاضي التنوخي مادته الاخبارية والقصصية أهميتها البالغة من ثلاث جهات :

الأولى تعود الى « التوثيق » فمن الواضح أن الشعر العربي قد نال النصيب الأوفى من اهتمام الرواة واللغويين والنقاد ، وتعلقت بركابه الخطب والوصايا وما أشبه ذلك من الأقوال المأثورة في حكم وأمثال . أمثال القصص ، التي تنوعت مستوياتها واستخداماتها للوعظ والتعليم والمسامرة ، فانها ظلت بعيدة عن اهتمام المشتغلين بالثقافة ، وكانت أهم دعاوَاهم في تحليل هذه الجفوة أن القصص تروى بالمعنى العام ، ويزيد فيها كل راوية ما يراه مؤثرا على جمهوره ، مفيدا للغرض الذي يتوخاه من قصته ، وحين تنعدم الثقة في موضوعية النص الأدبي ، وتسرب الشك في نسبته الى صاحبه ، واكتمال بصيغته ، فإن الموقف التقليدي يفقد مبررات الخطوة الأولى نحو الدراسة الفنية ، ومن ثم يكتفي بإشارة هنا ، وكلمة هناك ، عن القصص ، ونادرا ما يشير الى القصص ، فضلا عن الاستعانة بلغتها ، أو تحليلها فنيا .

كما أن حصر هذه المصادر - ما أمكن ذلك - يعتبر كشفا عن الاطار العام الذي تحرك فيه ثقافة الكاتب ، ومدى ما فيها من تنوع أو انحصار ، وعلاقة ذلك بثقافة العصر ، وتوجهها العام ، وما يجمل هذا التوجه من دلالات على واقع الحياة الاجتماعية والسياسية والفكرية .

أما الجهة الثالثة فهي ما ثلث في نوع الصلة بين هذا الكتاب ، والمصادر التي اعتمد عليها المؤلف في تكوين مادته ، فهل هو تكرار لما سبق قوله ، أو هو تجميع لما قيل في أكثر من مجال أو أنه تطوير لفكرة ، وتنمية لمفهوم ، وتعميق ل اتجاه قد وجد من قبل ؟

لقد حرص القاضي التنوخي على ذكر المصدر الذي أخذ عنه الخبر أو القصة ، أو حتى تلك الحكايات، الشعبية التي يصعب اسناد تأليفها الى شخص معين . لم يعمل ذلك مطلقا .

ويمكن حصر مصادر في نوعين أساسيين : السماع والمشافهة والنقل عن وثائق مكتوبة في شكل كتب وصحائف معلومة المؤلف أو مجهولة . لقد ظل تلقي المباشر عن طريق السماع والمشافهة أي الرواية مصدرا أصيلا لتناقل المعرفة طوال قرون ، وكانت الرواية الشفهية أدعى الى الثقة وتجنب الخطأ من الكتابة ذاتها ، ومع أن التأليف الكتابي قد توسع

منذ بداية القرن الثالث الهجري فإنه استبقى إحدى دعائم المشافهة الأساسية ، وهي ذكر السند ، أو « العنينة » ، محافظاً على هذا التقليد الذي بدأه أبو دينا ، هذه الحرص على دقة الحديث النبوي . وقد روى القاضي التنوخي عن أربعة أنواع من الرجال : عن أبيه وجلساء أبيه من مشاهير العصر ، وبخاصة في الفترة المبكرة التي قضاهما في البصرة ، وعن بعض من أخذ من كتبهم ، ولكنه عاصرهم ، ولعله رأى أن يجتنب بعض ما كتبه على ضوء ما يحدثونه به ، وعن بعض عتري القصص في عصره وسرى دلائل تشير إلى أن بعضاً من هؤلاء كان يختصا برواية نوع معين من القصص أو الحكايات وعن نكرات لم يحدددهم ، حتى وإن كانت سلسلة الرواة معلومة النهاية إلا أنها تبدأ من مجهول .

وفيما يختص برواية المحسن عن أبيه القاضي أبي القاسم علي التنوخي ، فإن عبارة : « حدثني أبي في المذاكرة من لفظه وحفظه » تتكرر مرات ، وقد يتحدث الأب من وحى تجربته الخاصة ، ومن ثم لا مكان للذكر سند ، مثل حكايته لحادثة بطلها ابن يواب كان يعمل عنده ، حين كان يفتقد القضاء في الكرخ (٢٣٤/ ٤) أما حين يروي عن آخرين فإنه يذكر السند وربما نقده (١٨٢/ ١) تحليلدا للدرجة الثقة فيمن أخذ عنه أبوه ، وقد يذكر أن أباه قد أسند الرواية ، ولكنه نسبها ، فيقول مثلاً : « حدثني أبي ، أبو القاسم التنوخي ، بإسناد ذهب عن حفطي » (٣٣٠/ ٣) أو يقول : « حدثني أبي رضي الله عنه ، في المذاكرة بإسناد لست أقوم عليه ، لاني لم أكتبه في الحال » (٦٦/ ٢) وهذا الإهمال للسند فيها روى عن أبيه متوقع ، لفة الابن في صدق ما يتلقاه عن أبيه ، وهذا جانب نفسي لا يمكن إهماله ، ولأن هذا الوالد قد مات في فترة مبكرة كان المحسن صبياً لم يتجاوز الخامسة عشرة من عمره حين مات أبوه ، فهذه الأخبار التي رواها عنه ترجع إلى مرحلة مبكرة لم يكن المنهج العلمي قد استقر في حركة عقله وشغل تفكيره .

أما جلساء هذا الأب فقد ذكرنا أسماهم ، ومن أهمهم أبو بكر الصولي ، الذي سياتخذ نقلاً عن كتابه الكثير ، ولكنه - في أخبار وقصص أخرى - يستخدم صيغة « وحدثني » و « أخبرني » ، بل أنه يستخدم عبارات تدل على أن سماعه من الصولي لم يكن ثمرة مصادفة أنه موجود بالمجلس ، بل أنه يتلقى عنه ، ويستوثق منه ، ويجيزه أن يحدث الآخرين بما سمع ، بل سنفهم من بعض العبارات أن الصولي كان قد انتهى من تأليف كتابه الشهير « كتاب الوزراء » وأنه كان يقرأ عليه على سبيل الإجازة ، أي الموافقة على النص بعد مراجعته ، وإن المحسن - الفتى الناشئ - قد حضر عملية المراجعة والإجازة ، فيقول : « قرء علي أبي بكر ... بالبصرة ، وأنا حاضر أسمع ، في كتابه الوزراء » سنة خمس وثلاثين وثلثمائة (٣١١/ ١) ويقول : « أخبرني أبو بكر الصولي بإجازة ، ونقلته من خطه » (١٦/ ٢) ويقول ، « حدثني .. الصولي فيها أجاز لي روايته عنه » (٢٦٨/ ٤) وهكذا تتعدد وسائل الاتصال ، فيها نقل القاضي التنوخي عن الصولي ، وهناك جلساء آخرون ليسوا على هذه الدرجة من السطوع في كتابه .

أما أبو الفرج الأصبهاني - صاحب الأغاني - فقد ترجع علاقته به إلى ما بعد انتقاله إلى بغداد ، وعبارات صاحبنا تشعر بأنه كان قد ألف كتابه الضخم ، ومع هذا فإنه على الرغم من أن القاضي التنوخي قد نقل عن هذا الكتاب . فإن موقفه من صاحبه كموقفه من الصولي وكتابه فيستخدم : أخبرني ، وحدثني ، وأخبرنا وحدثنا ، ويقول : « أخبرني أبو الفرج الأصبهاني بإجازة » ، قال (٣٢٨/ ١) ويقول : « وحدثني أبو الفرج المعروف بالأصبهاني ، بهذا الخبر من لفظه وحفظه بخلاف هذا » (٣٥٣/ ١) بل يقول في عبارة دالة « حدثني أبو الفرج المعروف بالأصبهاني ، رحمه الله تعالى ،

املاء من حفظه ، وكتبته عنه في أصول سماعاتي منه ولم يحضرنى كتابي فأ نقله منه ، فآثبته من حفظي ، وتوخيت ألفاظه بجهدي « (٤ / ٣٧٢) - ويقول في مكان آخر : « وجدت في كتاب الأغاني الكبير ، لأبي الفرج المعروف بالأصبهاني ، الذي أجاز لي روايته ، في جملة أجازة لي . . . » (٤ / ٣٨٣) .

أما ما رواه القاضي التنوخي نقلا عن قصاصين حرفتهم رواية القصص ، ومن ثم تجميعها أو اختراعها لترضي حاجات مستجدة في المجتمع الاسلامي ، فاننا نستجد عليه أكثر من دليل ، والذي نحس أن ننبه اليه ونراه مبهما ، دون أن يسوقنا الى مزيد من مشكلات القصة التراثية ، أن القاضي التنوخي لم ينقل شيئا عن أشهر القصاص في تاريخ القصة العربية القديمة ، بدءا بتميم الداري الذي حدث إبان عهد عمر بن الخطاب في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واستمرارا مع : كعب الاحبار ، ووهب بن منبه ، وعبيد بن شربة الجهمي في زمن بني أمية ، وغيرهم ممن أشار اليهم الجاحظ في أكثر من مكان في « البيان والتبيين »

وإنما أثر أن يروي عن قصاص سمع منهم مباشرة ، أو هم قريبون جدا من عصره ، وأغلب الظن في تفسير ذلك أن القاضي التنوخي ، وهو فقيه قبل كل شيء ، قد رفض الطابع الأسطوري الغالب على قصص هؤلاء ، وأثر أن يقترب من الواقع ، ومن هنا جاءت قصصه أقرب ما تكون من الأخبار التاريخية ، فإذا غادر الواقع فانه ينتقل الى الحكاية الشعبية ، أو « الحدوتة » ويفضلها على - الطابع الأسطوري ، الذي لن نجد من آثاره الاشدراة قليلة ، عالقة ببعض ما روى من قصص أنبياء بني اسرائيل .

نستطيع هنا أن نشير الى بعض المحدثين ، والطابع العام الذي يغلب على ما حدثوا به ودلالة ذلك على شيوع مجالس القصص والرواية ، واختلاف المجال أو النوع الذي يحدث القاص به ، ومن ثم اختلاف جمهوره .

ان القاضي التنوخي يستخدم عبارة « حدثنا » و « منها ما حدثناه » علي بن أبي الطيب الحسن بن علي بن مطرف الرامهرمي ، وهذا الراوية القاص قد توفي سنة ٣٧٦ هـ عن ثمانين عاما تقريبا ، وقد عرفنا من قبل أن أبا القاسم التنوخي - والد المحسن - كان قد تولى القضاء بمدينة « رامهرمز » كما أنها دخلت ضمن المناطق التي تولى مؤلفنا فيها القضاء فيها بعد . ويلاحظ هنا أن السلسلة التي تنتهي بعلي بن أبي الطيب ، يروي فيها - غالبا - عن أحمد بن محمد بن الجراح ، عن أبي بكر عبد الله بن محمد بن أبي الدنيا القرشي (١ / ٧٩) ثم تنفرع بعد هذا التوحد في اتجاهات شتى ، لكن الطابع العام لما جاء عن طريق هؤلاء الثلاثة ينحصر في الوعظ والأخبار التاريخية ، وتحت الوعظ تدرج الادعية المأثورة ، وبعض الأحاديث النبوية ، وقصص بعض الأنبياء (١ / ٧٩ - ٨٦ - ١٠٩) وقد يجمع الوعظ والتاريخ في خبر واحد ، كما نجد في قصة جلد الحسن بن الحسن في عصر الوليد بن عبد الملك ، وقد كتب بذلك الى والي المدينة ، فنجاه الله (١ / ١٩٥) وما شاهدته إبراهيم التيمي الزاهد حين كان في حبس الحجاج (١ / ٢٦٠) وقد يوجد الخبر التاريخي متحررا من توجيه الموعظة ، فيكتسب شكل القصة تركيبا وتصورا ، وهذا نجده في الأجزاء الأخرى التي لم نعتم بالوعظ ، وعلى سبيل المثال ، في (٢ / ١٦٤) قصة وصفية لكيفية تخلص عمر بن هبيرة - وكان واليا على العراق - من سجن خالد بن عبد الله القسري الذي خلفه على الولاية وسجنه ، وقد جاء اتباع عمر ، فافتروا دارا بجنب الحبس ،

ودارا بجانب سور المدينة - مدينة واسط - وحفر نفقان ، عن طريق النفق الأول خرج عمر من سجنه ، وعن طريق الثاني خرج من المدينة ، ومثل ذلك ما يروي عن استسلام قطن بن معاوية الكلابي للمنصور ، وكان قد خرج مؤيدا لابراهيم بن الحسن في البصرة ، أخى « النفس الزكية » الثائر العلوي بالمدينة (٤/ ٥٦) .

ونستطيع أن نجد هذا الطابع الخاص فيها روى عن سعد بن محمد بن علي الأزدي الشاعر المعروف بالوحيد ، وقد توفي سنة ٣٨٥ ، فهو معاصر للقاضي التنوخي ، وجدير بالملاحظة أن مؤلفنا يستخدم كلمة « حكي » ثلاث مرات فيها رواه عن الوحيد ، و « حدث » مرة واحدة ولعل هذا أن يكون بمثابة اقتراب من مصطلح « الحكاية » التي تختلف عن « الخبر » و « القصة » كما سرى . وجدير بالملاحظة أيضا أن هذه الحكايات الأربع التي حكاها القاضي التنوخي عن الوحيد ، تتعلق ثلاث منها بحدوث غريبة ، تقوم على الصراع بين الإنسان والوحش المفترس ، فهذا رجل شجاع ينزل الأسد ويستقذ منه شخصا كان على وشك الموت بين برائه (٤/ ١٧٧) وهذا آخر يلقي بنفسه من علو شامق استنفاذاً لثروة ضائعة ، فيسقط على أسد كامن بين البردي ، (٤/ ١٨١) وهذا ثالث يلجأ إلى كهف يحمي به من القيط فتغلغه عليه أفعى ضارية ، لا يعرف كيف يتخلص منها ، ثم يأتي ابن عرس فيستدعي زميلا له ، ثم يتحالفان في الهجوم على الأفعى بقتة ، أحدهما عند الرأس والآخر عند الذنب ، فيقتلنها ، ويبدوان هذا الشاعر المغفور كان مختصا برواية حكايات الحيوان وغرائبها ، فإن بارحها فالى الغرائب بشكل عام ، فإن الحكاية الرابعة التي أخذها عنه القاضي التنوخي عن رجل فرد ، وقع في أسر سبعين من قطاع الطريق ، جردوه من كل ما معه ، لكنه راح يستعطفهم حتى تركوا له برذونه ، ثم راح يستعطف مرة أخرى حتى أعطوه قوسه ونشابه ، لعله أن يدفع بها شرا ، ولكنه استطاع بها أن يقارع السبعين ، وأن يزيهم ويسترد منهم ما اغتصبوا منه (٤/ ٢٦٤) .

وكما نجد حكايات الحيوان وغرائب الصراع معه عند الشاعر الوحيد ، فالتناجد القصص التي تهتم بحيل اللصوص وقد أثرها عبيد الله بن محمد الصروي ، وإن لم يقف جهده عليها ، لكن الميل إلى المفاجأة والأغراب هو القاسم المشترك في كل ما حدث به تقريبا ، فهذا رجل يبد هيانه (حافضة نفوقه) بعد أعوام من فقده ، وقد صار فقيرا ، وتعلق حبل نجاته بجوهره ثمينة أخفاها في مكان سرى من هذا الهيمان المفقود ، ويزداد أمر المصادفة غريبة أن يجد بعض أصدقائه هذا الهيمان ، ويتسجما فيه من مال ، ولا يظنن إلى الجوهر (٢/ ٣٦٨) وتتكرر القصة على نحو آخر لا يقل غريبة (٢/ ٣٧٣) وهذا رجل يهرب من قتل محقق عشوائي ، ليقع في مثله ، فينجو مرة ثانية ، وثالثة ، وكان حياته سلسلة مواقف يتعرض في كل منها للقتل ، ولكن الحقيقة تنتصر (٣/ ٦١) وهذا رجل يهرب من الفقر ، في حين تعاني امرأته المخاض ، ثم يعود بعد زمن طويل ، ليجد ابنه شخصية ثرية مشهورة ، وزوجته قابلة قصر الخلافة (٣/ ٣١٤) وهذا كاهن في دير معزول ، يتصدى لمعاونة المسافرين العابرين ثم يقتلهم داخل الدير ويستولي على ممتلكاتهم (٣/ ٣٨٩) وهذا عبد آبق ، يساعده سيده حين يعثر عليه في بلاد بعيدة ، ولكنه لا يسمح سيده ، بل يسعى في هلاكه واغتصاب ماله (٣/ ٣٩٣) وهذا قاطع طريق لا يكتفي بسرقة العابرين ، وإنما يصير على قتل رجل وحيد ، وحين يضع السيف على عنقه يظهر أسد يأخذ قاطع الطريق بين فكيه ويمضى (٤/ ٢٤٨) وهذا لص يتمكن من سرقة بضاعة وكان علانية ، ولكن صاحب الدكان الذي كان لصا في حد ذاته يتمكن من استرداد بضاعته (٤/ ٢٥٦) . ان ما يخرج من هذا الطابع

العام : طابع الفتك والمغامرة والمصادفة لا يمثل نسبة عالية فيما نقل التنوخي عن الصروي . ويحق لنا أن نلتفت الى ما يمكن أن يعتبر « ظاهرة » اقتصص بها هذا القاص ، فانه غالبا ما يروي عن نفسه دون ذكر سلسلة الرواة ، فكأنه يحكي مشاهداته ، غير أن الشخص الذي يمثل بطل القصة ، يغلب أن يكون منكرا ، غير محدد الاسم ، فنجد مثل هذه المداخل في قصصه : « حدثني عبيد الله بن محمد الصروي ، قال : حدثني أبي : أن رجلا حج ... » أو « ... كان يجاورنا ببغداد ففى من أولاد الكتاب » أو : « أن رجلا من أولاد التجار زالت نعمته » أو : « حدثني شيخ كان يخدمني » أو : « حدثني رجل من أهل الجند » أو : « حدثني أكار ( فلاح أوزارع ) بهرساس يقال له سارخ » أو : « حدثني بعض اخواني أنه كان ببغداد رجل يطلب التلصص في حديثه » . في كل هذه القصص وغيرها يتخفي التوثيق الدقيق الذي يحيط برواية الخبر التاريخي « حتى وإن تشكل بالصياغة القصصية ، ونجد الحكاية الغريبة ، ملازمة للبطل المجهول ، أو المصنوع .

هؤلاء أهم القصاص والرواة الذين أخذ عنهم القاضي التنوخي مباشرة ، بطريق السماع والمشاهدة ولا شك أن هناك غيرهم ، مثل محمد بن عبد الواحد المعروف بعلام ثعلب ، فينص على لقائه ، والحمل عنه ، « وأجاز لي جميع ما يصح عندي من رواياته » ( ١ / ٩٠ ) وعلي بن هشام الكاتب ، المعروف بابن أبي قيراط ، وقد اهتبا بالأخبار التاريخية غالبا .

أما المصادر المكتوبة التي نص القاضي التنوخي على أنه نقل عنها فاتها كثيرة ، بعضها محدد بالكتاب والمؤلف ، ويذكر أحيانا اسم الكاتب دون الكتاب ، أو العكس ، كما أنه قد يشير الى النقل عن صحائف مكتوبة دون تحديد . لقد اهتم محقق الكتاب - عبود الشالجي بأمر المصادر المكتوبة ، وقمنا من جانبنا بحصر أهم المصادر التي تكرر النقل عنها ، وعدد مرات هذا النقل . أما الطابع العام لهذه الكتب فانه معروف ولا يحتاج الى جهد اضافي .

مع توافر الحافظ الذاتي فيها واجه القاضي التنوخي من محنة العزل عن القضاء ، وتحديد اقامته بمنزله ، ومطالبته بسداد أموال جزيلة ، فان حافظا آخر قد توافر له في شكل تجارب سابقة ألفت تحت العنوان ذاته ، أو ما يقاربه . يقول في مقدمة كتابه : « وكنت وقفت في بعض محي على خمس أو ست أوراق ، جمعها أبو الحسن علي بن محمد المدائني ، وسماها « كتاب الفرج بعد الشدة والضيق » ويصف القاضي التنوخي ما في هذه الأوراق بأنه حسن ، ولكنه قليل ( ١ / ٥٢ ) والمدائني - وقد توفي سنة ٢٢٥ هـ ، أي قبل مولد المحسن بقرن من الزمان - أديب راوية مؤرخ ، بصري ، سكن المدائن ، وعاش في بغداد ، والأوراق المشار إليها لا تذكر بين مؤلفاته ، وقد نقل القاضي التنوخي أربعة عشر خيرا منسوبا الى المدائني ثمانية منها في الجزء الأول الذي يغلب عليه الطابع الديني ، والتاريخي ، وهو يذكر اسم كتابه ، أو أرواقه ، غالبا ، ويحدد أن يأخذ عن المدائني من أكثر من طريق ، فيقول مثلا : « قال المدائني في كتابه ، وجاء به القاضي أبو الحسين في كتابه عن المدائني بغير استناد » ( ١ / ٣٠٤ ) ومرة أخرى أخذ عن شخص آخر ، أسند ما أخذه الى المدائني ( ٤ / ٧١ ) ومرة واحدة يقول : « ووجدت في كتاب المتيمين للمدائني » ( ٤ / ٢٢٢ ) وهذا يعني أن ما نقله القاضي التنوخي عن المدائني قد تضمن كل ما اشتمل عليه كتاب « الفرج بعد الشدة والضيق » وتجاوره أيضا .

أما كتاب عبد الله بن محمد بن أبي الدنيا « كتاب الفرج بعد الشدة » فقد وصفه القاضي التنوخي بأنه في نحو عشرين

ورقة ، وأن طابعه العام رواية الأحاديث النبوية ، وأخبار الصحابة والتابعين وما يقارب ذلك من الأدعية والأذكار ، ويشعر المؤلف أن أخبارا من هذا اللون لا تتطابق مع ما يهدف اليه من وضع كتاب بنفس العنوان ، لكنه يتجاوز الغاية التي توخاها ابن أبي الدنيا . وابن أبي الدنيا - على أية حال - قد أفاد بدوره من المدائني ، وهو أقرب عهدا الى عصر المؤلف ، لأنه توفي سنة ٢٨١هـ ، وقد ذكر اسم ابن أبي الدنيا في كتاب التنوخي خمسا وخمسين مرة ، دون أن يقرن الى كتابه المشار اليه ، لقد كان في جميع هذه المرات واحدا في سلسلة الرواة لخبر أو قصة أو أبيات من الشعر ، ولاندري لماذا ترك القاضي التنوخي ذكر كتاب ابن أبي الدنيا في تضاعيف كتابه برغم الإشارة اليه في مقدمته .

أما الكتاب الثالث الذي سبق هذا الكتاب الذي نحن بصددده ، الى اسم « الفرج بعد الشدة » فقد ألفه القاضي أبو الحسين عمر بن القاضي محمد بن يوسف القاضي ، رحمه الله ، في مقدار خمسين ورقة ، أودعه أكثر ما رواه المدائني ، وأضاف اليه أخبارا أخر « أكثرها حسن وفيها غير ما هو مماثل عندي لما عراه » والطريف أن القاضي التنوخي يأخذ على ابن أبي الدنيا والقاضي حسين ، أنهما لم يشيرا الى أن المدائني قد سبقهما الى التأليف في موضوع كتابيهما ويرى أن عدم معرفتهما بكتاب المدائني تعد أمرا طريفا ، وأن معرفتهما به وتحاملهما للذكر ترويحاً لما كتبتا بعد أطرف . . وقد نقل القاضي التنوخي عن كتاب القاضي أبي الحسين ستا وثلاثين مرة ، انتشرت على مساحة فصول كتابه كلها تقريبا ، وهذا يعني أن القاضي أبا الحسين في كتابه هذا كان الأكثر قربا من تصور القاضي التنوخي لموضوع الفرج بعد الشدة ، سنجد أخبارا وقصصا تعود الى العصر الجاهلي (٢ / ٢٠٦) بل نجد حالة فريدة روى فيها خبرا مصدره وبب بن منبه ، ولكنه ليس رواية لاساطير القدماء ، وإنما هو صاحب الحادثة التي لا تزيد عن رؤيا رآها في أيام عصر (٢ / ٣٣١) أما أكثر ما في الكتاب فيرجع الى عصر الراشدين ، وبني أمية ، ودولة بني العباس ، التي يفوز رجالها بأكبر نصيب ، وبخاصة المأمون والبرامكة ، ثم يأتي دور القصص التي نجد في بعضها طابع الحكاية الشعبية . ويتم القاضي أبو الحسين اهتماما واضحا بأخبار الولاة وتقلب الزمن بهم من الفقر والضياع الى الثروة والجاه ، أو العكس ، وهو موضوع قد أخذ نصيبا موفورا من كتاب التنوخي كما سنرى .

وهناك كتب أخرى ، أفاد منها القاضي التنوخي ، ونقل عنها أكثر مما فعل مع الكتب السابقة في مقدمتها « الأغاني » للأصبهاني ، الذي تلقى عنه مشافهة أيضا ، وكان يحدث أن يوثق ما سمع بعرضه على ما قرأ ، أو العكس ، فحين يروي خبر ما كان بين عبد الله بن طاهر والحصني ، وكيف أساء الحصني الى القائد العباسي بجماعة قصيدته ، ومناقضة مفاخرها الفارسية ، يسند الرواية الى أبي الفرج الخزومي ، الشاعر المعروف بالبليغ ، وهو من أصدقاء القاضي التنوخي (١ / ٣٣٩) ثم يورد رواية ثانية للمخبر نفسه ، فيقول : « ووقع لي هذا الخبر بخلاف هذا ، فأخبرني أبو الفرج الأصبهاني ، قال » (١ / ٣٥٠) وبعد أن ينتهي من هذه الرواية يتبعها برواية ثالثة للأصبهاني أيضا ، فيقول (١ / ٣٥٣) : « وحديثي أبو الفرج المعروف بالأصبهاني ، بهذا الخبر من لفظه وحفظه بخلاف هذا ، فهل تختلف « أخبرني » عن « حديثي » ؟ اختلاف القراءة عن السماع ، وان انتهى كلاهما الى نقل المعرفة بالشيء ؟ هذا احتمال قد يقويه قوله في صدر خبر آخر : « وجدت في كتاب الأغاني الكبير ، لأبي الفرج المعروف بالأصبهاني ، الذي أجاز لي روايته في جملة ما أجازته لي . . » (٤ / ٣٩٤) .

لقد نقل القاضى التنوخى من « الأغاني » وروى عن صاحبه تسعا وثلاثين مرة ، ومع التنوع الموضوعى ، والامتداد الزمنى الذى تملته مادة هذا الكتاب الموسوعى الضخم ، نتوقع أن تمتد النقول الى أطراف الكتاب على ضخامته . يفوز الخلفاء العباسيون ورجال دولتهم بأكبر نصيب ، وكذلك المثنون ( ٨٩/٣ ، و ٩٤/٤ وغيرهما ) وتظهر ملامح العصر الأموى أحيانا ، كما نجد خبرا واحدا عن الاسكندر حين بلغ حدود الصين ، وقرر اخضاعها لسلطانه ( ٢/ ٢٤٠ ) ولنا هنا ملاحظة أساسية نشبها ، فعل الغم من أن القاضى التنوخى كان يعرف الفارسية ، وعمل طويلا في أوساط فارسية ، ونادم عضد الدولة الفارسى ، وكان الكثير من أخبار الأكاسرة وغيرهم من عظماء الفرس ، بل وأخبار اليونان والهند ، معروفا لدى المثقف العربى في القرن الرابع الهجرى ، فان النسبة العظمى من مادة كتاب القاضى التنوخى تعتمد على المجتمع العربى ، وأخبار رجاله ، بدرجة لا تجعلنا نعطى أية أهمية لما يتجاوز هذا الحد ، ومنه هذا القليل الذى ظهر فيه الاسكندر ( ثلاثة أخبار ، أحدها عن الاصبهاني ) كما ظهر كسرى أحيانا .

ويأتى « كتاب الوزراء » لمحمد بن عبدوس الجهشيارى في مرتبة متقدمة بين المصادر المكتوبة التى اعتمد عليها ، يكاد ينافس « الأغاني » في الأهمية ، وإن كان عدد مرات النقل أقل ( نقل عنه خسا وثلاثين مرة ) ولم يسمع منه مشافهة الطبع برغم صداقة الجهشيارى لأبيه ، لأن الجهشيارى توفى سنة ٣٣١ هـ ، وكان مؤلفنا لم يتجاوز الرابعة من عمره تقريبا ، وهو في صدر كل خبر يكاد يكرر عبارة واحدة : « ذكر محمد بن عبدوس في كتابه « كتاب الوزراء » أو « في كتاب الوزراء » ماعدا مرة واحدة قال فيها قال محمد بن عبدوس في كتاب أخبار الوزراء والكتاب ( ٤/ ١٨٤ ) والكتاب المذكور بمحمد العنوان محمد الموضوع . ومن الطبيعى أن يكون النقل عنه محكوما بموضوعه .

ويكاد يلحق بالكتابين السابقين ما كتبه الصولى في كتاب الوزراء ، وقد نقل عنه سبع عشرة مرة ، وعن « الأوراق » مرة واحدة ، ولكن تأثير الصولى على مؤلفنا يتجاوز ما نقل عن كتابه ، الى ما حدث عنه ، فضلا عن التأثير الشخصى الذى يمكن توقعه . وهذا الكتاب مثل سابقه محكوم بموضوعه ، ومع هذا يمكن أن نلاحظ أنه أكثر توسعا ، بمعنى أنه لم يتوقف عند حدود ما كان يحدث للوزراء ، وإنما تجاوزته الى ما يحدث منهم ، ولهذا نجد بعض أخبار الحسين بن الضحاک الشاعر ( ٣٣١/١ ، ٨/٣ ) وأخبار الغناء والمغنيين ( ٤/ ٢٦٨ ) وقد يعارض رواية الصولى برواية الأغاني ، كما يذكر مرات أنه سمع الخبر يقرأ على الصولى نفسه في مسجد البصرة .

هناك كتب أخرى أقل أهمية نقل عنها القاضى التنوخى ، أحصاها محقق الكتاب ( ١٠/١ ، ١١-١٢ ، ١٣ ) ونوع آخر من الكتب لم يفصح عن اسمه ، لأسباب غير محدودة فيقول مثلا « وجدت في بعض الكتب بغير اسناد » ( ١٩٤/١ ) أو يقول « قرأت في كتب الأوائل » ( ١٩٨/١ ) أو تقرأ على أبي العباس الأثرم ، المقرئ البغدادى . . . في منزله بالبصرة . . وأنا حاضر أسمع ( ١/ ٢٠٠ ) فمن أى كتاب كانت هذه القراءة ؟

ومهما يكن من أمر فان هذا النوع من الاخبار والقصص غير المحددة المصدر أو الرواية يبقى قليلا جدا اذا ما قيس الى النصوص الموثقة ، التى تكسب كتاب « الفرج بعد الشدة » ثقة هوجدير بها ، وتعطى الدارس اطمئنانا كبيرا في الاقبال

(٣٦) ولي مرين يسميه « أخبار الوزراء لفط » وقد أثر محققه : مصطفى السقا وصاحبه تسميته كتاب الوزراء والكتاب . مطبعة مصطفى البابي الحلبي . ط اول القاهرة .

على نصوصه ودراساتها دراسة فنية دون أن تؤدي به الى التناقض أو النتائج غير الدقيقة نتيجة للرؤية بالمعنى العام دون التقيد بالألفاظ ، وهو ما رميت به النصوص الثرية بوجه عام .

ويمكن أن نقول مطمئنين ، في ختام حديثنا عن المصادر : ان كتاب الفرج بعد الشدة للقاضي التنوخي ، مع أنه مسبوق في موضوعه ، ناقل عن كثير من السابقين ، قد تجاوز كل أولئك شكلا ومضمونا . ونقصد بالشكل الجانب الكمي الذي تفوق به على كل سابقه ، والجانب المنهجي المتمثل في توزيع مادة الكتاب على فصول متنوعة المعنى ، وان اتفقت في الشكل العام (أزمة يعقبها حل ) ، والجانب التركيبي حيث يزاوج بين الروايات للقصة الواحدة ، ويدير بينها حوارا مشمرا ، وينمينا بطريقة فريدة ، ونقصد بالمضمون أنه تجاوز بالشدة ، أو الأزمة أن تحدث لكاتب أو وزير أو خليفة ، الى الناس عامة ، وشذاذهم فلم يتوقف عند الطبقة العليا من المجتمع ، بل غمر جميع الطبقات ، وربما جميع الأجناس التي كانت تعيش تحت لواء الخلافة العباسية من عرب وفرنس وديلم وترك وأكراد وروم ، ولم يتوقف عند المعنى الاخلاقي للفرج ، وإنما عني به انفراج الأزمة ، أو لحظة التنوير في مفهوم القصة القصيرة المعاصرة ، وهذه جميعا اضافات إيجابية ينتمى بها هذا الكتاب الى تراث أمته العربية ، ويضيف اليه .

#### ( ٦ ) المحاور

ان المحور الرئيسي الذي يدور حوله الكتاب هو الأخبار والقصص والحكايات التي تصور مواقف مختلفة في حياة اشخاص تاريخيين ، أو مجهولين أو مخترعين . وهذا المحور الرئيسي يقسم في اطاره محاور جزئية ، يمكن أن نخزن مفهوم كل محور في « الموضوع » و « الهدف » أي المضمون ، الذي سيدوم بمثابة طريقة ميسرة للتعريف الموضوعي للكتاب ، على أن نعود اليه على المستوى الصياغي ، أو أسلوب بناء كل نوع . وقد عرضنا من قبل لطريقة المؤلف في تقسيم أبواب كتابه ، ورأينا ما فيها من خلط في أسس التقسيم ، وتداخل بين الأنواع وهذا يعني أن المحاور التي نجمع مفرداتها الآن ، ونحاول أن نستخلص لها صورة وهدفا سنجدنا متفرقة الاجزاء - أو المقدرات - على مساحة الكتاب ، وليست مجموعة في باب واحد .

ويمكن أن نحصر هذه المحاور فيما يأتي :

- ١ - الأخبار والشخصيات التاريخية
- ٢ - صورة الحياة الاجتماعية
- ٣ - الحكايات الشعبية
- ٤ - القصص الرعظية
- ٥ - قصص وأخبار آل البيت
- ٦ - القصص التعليمية

وهذا الترتيب يتدرج تنازليا مع الجانب الكمي لكل موضوع ، كما أن التوزيع قام على التعليل فقد يكون الخبر عن



رجل من آل البيت ، ولكنه يصور سلوكا اجتماعيا معينا ، وهنا سيحدث القارىء أين يقع مركز الاهتمام في هذا الخبر .

### أولا : - الاخبار والشخصيات التاريخية

من المتوقع أن يفوز الخلفاء ، ومن يدور في فلكهم من الوزراء والكتاب والقادة بأكبر نصيب ، لأن التاريخ المدون يتم بأخبارهم ، ومع هذا لا نجد ما كتب حول هؤلاء تكرارا لما نجده في كتب التاريخ ، من جانين : أن القاضي التنوخي في اختيار مادة كتابه ، حين ينتقى من حياة شخصية شهيرة كالحجاج ، أو المأمون مثلا ، فانه يختاره المواقف التي تدل على طبيعة الشخص ، وليس الأعمال التي يسارع المؤرخون الى تدوينها ، ومن هنا تكون اختياراته متوزعة في التفاصيل التي قد لا يلفت اليها المؤرخ عادة . وانه كثيرا ما يعنى بأشخاص لهم وجود تاريخي ، ولمواقف حياتهم دلالات تاريخية انسانية وحضارية ، ولكنهم لم يبلغوا من الشهرة بحيث يتم بهم المؤرخون ، ومع هذا لا يمكننا ان نستوعب طبيعة المرحلة وظروفها دون أن نضع هذه المواقف العابرة تحت الضوء .

خلفاء بني العباس ورجال دولتهم هم الأكثر ظهورا ، ولا يحتاج هذا الى تعليل ، فانهم الأقرب عهدا ، والأطول زما ، والأزمات في عصرهم أكثر ، وسنجد القليل عن عصر بني أمية ، وما دنا بصدد شدة تنفجر ، ومحنة تنزل وتنقش فان الحجاج بن يوسف الثقفي يحظى وحده بنصف ما كتب عن العصر الأموي والأخبار التي تدور حول الحجاج تصور قسوته ، وجو الارهاب الذي ساد في عصره ، حتى صار الاقبال على العبادة مظنة الاتهام بقول الخوارج وسلوكهم ، يقول أحد المجوسين شارحا مهمته : « جاء العريف ، ففبرا مني ، وقال : ان هذا كثير الصوم والصلاة ، وأخاف أنه يرى رأي الخوارج » ( ١ / ٢٦١ ) وسجن الحجاج كان يسمى الدياس ، ومعناه : الحفرة العميقة لا ينفذ اليها الضوء . هذا هو القول الجاهل عن الحجاج ، ولكن أخبارا أخرى تدخل بعض التفاصيل التي تتحفظ نسبيا على هذه الصورة القاسية الجافية . فهذا الشعبي يخرج مع ابن الأشعث على الحجاج وحين تنجل الفتنة يقف أمام الحجاج مقرا بذنبه ، معتذرا ، وهنا يقول لجلسائه : هذا عامر ، ضرب وجوهنا بسيفه وأثانا يعتذر بالباطل ، ردوا عليه عطاه ( ١ / ٣٣٤ ) . وحين يساق اليه أسرى فتنة ابن الأشعث يأمر بقتل طائفة منهم ، وتقدم رجل قبل أن يضرب عنقه فقال : يا حجاج ، والله لئن كنا أسانا في الفعل ، فما أحسنت في العقوبة ، وان كنا لؤمنا في الجناية ، فما كرمت في العفو .

فقال : ردوه . فرد . فقال : أخبرني كيف قلت ؟ فأعاد الكلام . فقال الحجاج : صدقت والله ، أف لهذه الحيف ، أما كان فيها أحد ينهنا كما ينهنا هذا ؟ أطلقوا عنه ، وعن باقي الأسرى ( ٤ / ١٢١ ) . ويأتي بعد الحجاج عبيد الله بن زياد ، وخالد القسري ، وهما لا يقلان ضراوة عن الحجاج ، ومع هذا ، ومع ما سنجد للقاضي التنوخي من ميل إلى آل أبي طالب لا مجال للشك فيه ، ومع ما هو معروف عن دور ابن زياد في استشهاد الحسن رضي الله تعالى عنه ، ومع أن الكتاب قد سجل خبرا يؤكد هذه القسوة في ابن زياد ، فانه يروي خبرا آخر يظهره في صورة من يمشي الله ، ولا يمس على الاستخفاف بكلامه الشريف ، فها هو رجل من القراء يساق اليه على أنه من الخوارج ، وفي حين

ينكر الرجل التهمة يتبرعه عبيد الله بالانتقام ، ويأمر بسجنه ، فيتمتم الرجل بكلمات غير مبيتة ، فاغتاظ ابن زياد ، وأمره بالجرم بما همس به ، فاذا هما بيتان من الشعر :

عسى فرج يأتى به الله انه      له كل يوم في خليقته أمر  
إذا اشتد عسر فارح يسرا فانه      قضى الله أن العسر يتبعه يسر

فسكت ابن زياد ساعة ، ثم قال : قد أتاك الفرج . خلوا سبيله ( ٢٩٧/١ ) يمكن أن نجد مثل هذه المواقف المذكورة لمعاوية ، وعبد الملك ، وهشام ، والوليد بن يزيد . لا نجد هذا الشر المطلق في نفوسهم بغير عقل ، أنهم بشر ، يبتزون للكلمة الطيبة ، ويأسرهم المعروف ويقدمون الأعراف العربية ، حتى يغفو أحدهم عن ألد أعدائه حين يكتشف وجوده على مائدته وقد أكل من طعامه .

أما خلفاء بني العباس فإن الحديث حولهم أكثر تنوعا ، فأكثرهم قد اعتقل وزيره أو قتله ، وهذا وحده معين لا ينضب للشذائذ ، كما أنهم - هم أنفسهم - عانوا شذائذ وأحوالا حين تسلط الأتراك ثم الدليم على الخلافة ، فهم بين مقتول ومخلوع ، ومسلول ومن ليس له من الأمر شيء ، ومع ذلك فانهم إذا ما قدروا أنزلوا البلاء حتى بأولئك الذين أوصلوهم الى الخلافة ، وأيدوا ملكهم . ان هذه الأخبار والقصص المدونة أشهر من أن نتوقف عندها ، وسكتفى بالإشارة الى ما تدل عليه من قلق نظام الحكم والفساد الإداري والمالي ، أما الآن فتتوقف الى ما يمكن أن يعتبره إضافة لم يهتم بها المؤرخون .

من ذلك هذه القصة ، التي جرت في عهد المعتضد لأحد رجاله ومنها أن الخليفة كان له جهاز استخبارات خاص ، يرفع تقاريره اليه هو شخصيا وأن هذا الجهاز كان يراقب كبار رجال الدولة - وليس أعداءها - وأن العاملين فيه كانوا ينتقون من لا يتوقع أحد منهم هذه المهمة وأنهم كانوا يمتثلون بكل وسيلة ممكنة للحصول على الأسرار . وربما دل الخبر - القصة - على أن الوزير كان له جهازه المضاد . فقد كان للقاسم بن عبيد الله - وزير المعتضد - سنة ٢٨٨ هـ حياة خاصة عابئة ، يشرب فيها ويلعب مع جواريه بغير تخرج ، غير أنه كان يخفى ذلك كله عن الخليفة حتى لا يستنقصه ، ويتهمه بالشاغل عن الأعمال . لكن الخليفة ألقى في طريقه جملة تدل على معرفته بما يجري في الخفاء . فخرج الوزير وقد كان أن يتلف غما . إذ كيف بلغه السر ، وهل يدل هذا على معرفته بباقي الأسرار كالهبات والرشاوى ؟ « وكان له في داره صاحب خير جلد يرفع اليه الأمور ، فأحضره وعرفه ما جرى بينه وبين المعتضد ، وقال له : ابحث لي عن أخرج هذا الخبر ، فان فعلت ، زدت في رزقك وأجزلتك بكذا وكذا ، وإن لم تخرجه نفيتك الى عمان . وحلف له على الأمرين » وهكذا وقف رجل الاستخبارات في مواجهة رجل الاستخبارات الآخر ، واستطاع أن يكشفه في ثياب المكدين ( الشحاذين ) يتظاهر بأنه عجز ، ويعمله بثياب تخفيه الى دار القاسم الذي يستجوبه سرا ، ويأى إلا أن يعرف حقيقة « أو لا ترى ضوء الدنيا » فيضطر الى الاعتراف بأنه فلان الهاشمي ، وأنه يتجسس للمعتضد . فيجسه ، ويتغافل عنه ، الى أن يطلب الخليفة منه بنفسه اطلاق غيبه الخاص ، الذي كشف أمره ( ٨٥ / ٢ ) . ونعرف من قصة أخرى أن الإدارة السياسية في العهد العباسي عرفت منصب من يسمى في زماننا « وزيرا بلا وزارة » أو « وزير المتابعة » وكان في

عمله يتبع الوزير - فهو بمثابة مساعد له - وليس الخليفة ، فقد كان أبرجعفر بن أحمد حاجبا لابي محمد المهلبى قبل تولي الوزارة ، فلما صار المهلبى وزيرا كان يصرفه في الاستحاثات على العمال ، وفي الأعمال التي يتصرف فيها العمال الصغار ، ونفهم من سياق القصة أن وزير التابعة يتدب لأداء مهمة عاجلة وأنه « قائم بحضرة الوزير » لمثل هذا الشأن . ( ٤ / ١٣٩ )

ونعرف أيضا أن المأمون بعد أن تغلب على أخيه بسيف الخرسانية ، أراد أن يكاثفهم بتوليهم المناصب ، والأعمال الادارية والمالية التي يمكن أن تعتبر بمثابة تعويض ، ولأنهم أهل ثقته وقد أدى هذا الى تعطيل الموظفين القدامى واضطراب معيشتهم ، ومن هذه القصة ( ٢ / ٣٥٥ ) نجد شيخا خرسانيا مغفلا ، أميا ، يقبل على أكبر الكتاب سنا ، ويطلب منه أن يختار له عملا مناسباً ليتولاه كماً أمر أمير المؤمنين . . . ويسخر الكاتب المتمرس من هذا الطلب الساذج من رجل لا يعرف ماذا ينبغي عليه أن يعمل ، فيترح عليه تولي وظيفة لا وجود لها . فقال : لا أعرف لك عملاً أولى بك من بزبدات البحر ، وصدقات الوحش أى الجسور التي تصد ماء البحر عن الشاطئ وأوقاف الوحوش ، فقال له : اكتب لي ، فكتبه ، ورفع طلب الوظيفة الى الخليفة الذي غضب للسخرية من زعماء أنصاره وشيعته ، وأحضر الكاتب ، وقال له : يا جاهل . تفرغت لأصحابي ؟ ولكن الكاتب يرد بأمانة على المأمون ، مفتدا خطر الاعتماد على أهل الثقة . - وإمام أهل الخبرة « ومقترحا الحل الذي يرضى سياسة الدولة ، ويحفظ مصالحها في نفس الوقت ، فقال له : يا أمير المؤمنين ، أصحابنا هؤلاء ثقات يصلحون لحفظ ما يصل الى أيديهم من الخزائن والأموال ، وأما شروط الخراج ، وحكمه وما يجب تعجيل استخراجه وما يجب تأخيريه ، وما يجب اطلاقه ، وما يجب منعه ، وما يجب انقاذه ، وما يجب الاحتساب به ، فلا يعرفونه ، وتقليدهم يعود بذهاب الارتفاع ، ( أى تضطرب به ميزانية الدولة ولا تصل الى مانحصله الآن ) فان كنت يأمر المؤمنين لا تتق بنا ، فضم الى كل واحد منهم رجلا منا ، فيكون الشيخي يحفظ المال ، ونحن نجعله .

فاستطاب المأمون رأيه وكلامه ، وأمر بتقليد عمال السواد وكتابه ، وأن يضم الى كل واحد منهم ، واحدا من الشيعة .

اننا لم نرد - في مستوى الخلفاء - أن نقف عند صور ترفهم ، وصراع أولياء عهودهم ، وخفايا ما يجري ليلة موت أحدهم ، ( انظر مثلا ما يروى عن كيفية موت الهادي ٣ / ١٩ ) وليلة أغمى على الرشيد بسبب التخمعة حتى ظن أنه مات ٤ / ٢١٩ ، وليلة مات فعلا ٣ / ٣٦٠ ) فهذا مما يمكن تحصيله من كتب التاريخ : أما التفاصيل الصغيرة فهي ما نعى به هنا . نذكر مثلا أن الرشيد عرف أن العتاي الشاعر يقول بالاعتزال ، فتهده حتى حمله على الحرب ، ولكن بعض محبيه وضع شيئا من خطبه وزسائله في طريق الرشيد ، فأعجب به ، وعفا عنه ، واستقدمه ليعلم الأمين والمأمون ويضع لهما خطبا « ( ٤ / ٢٧٠ ) ونعرف من أخبار أخرى أن كبار أدباء العصر كانوا يضعون الخطب لولى العهد ، الذي يحفظها ثم يلقيها من الذاكرة يوم الجمعة ، حين تعلن بيعته لولاية العهد .

ومن الأمور الطرفية ما يطلعنا عليه أكثر من خبر ، أنه حين كان يتم القبض على إحدى الشخصيات العظيمة ، ذات

الجرم العام ، كانت هذه الشخصيات تقدم للمسألة فيأجنت فيأشبه المؤخر العام ، أو المحاكمة العلنية ، وكان هذا المجلس يعقد برئاسة شخصية بارزة ، الخليفة أو أحد قواده ، وكان الحاضرون يشاركون في توجيه الحكم على المتهم ، كما أن شخصا يختص بأمور الدعاية للخليفة كان يقف خطيبا عند افتتاح الجلسة ، يسهب في إبراز مآثر العهد وفضائل الخليفة ووجوب طاعته ، والحبران عن هذا التقليد يرجعان الى عصر المأمون ، ونرجع أنه لم يتدعها ، وفي اختيار الخلفاء ما يدل - ولو بصورة مصغرة - على وجود مثل هذه المحاكمات العلنية ، ذات الطابع السياسي ، يحضرها أعضاء الأسرة الحاكمة ، وكبراء الدولة ، لقد قيل أن ابراهيم ابن المهدي قبض عليه وهو يحاول الهرب في ثياب امرأة ، وأن المأمون طلب مثوله على الحال التي أخذ عليها ، ثم جلس مجلسا عاما ، وقام خطيب بحضرة المأمون بخطب بفضل ، وما رزقه الله ، جلّت عظمت ، من الظفر بابراهيم بزيه . . ( ٣ / ٣٣٤ ) وحين قتل الأمين اضطرت أوضاع الخلافة انتهز أبو السرايا الفرصة ، وخرج بالطالبيين في البصرة غير أن الحسن بن سهل ، قائد جيش المأمون ، تمكن من دخول البصرة ، وهرب الطالبيون وقبض على أحد زعمائهم : زيد بن موسى بن جعفر الصادق ، فما كان من الحسن بن سهل الا أن جلس مجلسا عاما من أجله ، ودعا به ، فأثبه ، وويحه ، وقال : قتلت الناس وسفكت دماء المسلمين ، وفعلت ، وفعلت . ثم أقبل على من حضره من الناس والمهاشميين وغيرهم ، وقال : ما ترون فيه ؟ فامسكوا جميعا ، واتبرئ له فتم بن جعفر بن سليمان ، فقال : أرى أيها الأمير أن تضرب عنقه ، ودمه في عني ، ( ٤ / ١١٣ ) وهكذا قدم زيد للقتل ، ولكن رجلا من أصحاب المناصب في عهد الرشيد ( قائد البحرية ) يتدخل ، ويمنع القتل ، لأن المأمون لم يأمر به صراحة وهو هاشمي علوي من أبناء عمومتها !

وهكذا نكتشف أن المحاكمات السياسية ، ونظام الادعاء ، ونظام الدفاع ، وربما الأخذ بنظام المخلفين - أو القضاة الشعبيين - كان معروفا ، ويلجأ اليه في توجيه التهمة للشخصيات ذات المنزلة الاجتماعية والسياسية .

وحين نغادر دائرة الخلفاء الى دائرة الوزراء سنجد صور الصراع بين العرب والفرس ، منذ تأسيس الخلافة العباسية ، وعبر كل العهود ، وسنجد وسائل تحجيد الانتصار ، ودس العملاء وتجميع المعارضين ، والوشاية ، واصطناع التهم ، وإثارة الظنون وتوجيهها ، وتوزيع مناصب الدولة ، وجزء من ثروتها على الملائين والأقارب . . كل هذا مما استشرى وكأنه وباء في الجهاز الإداري منذ تأسيس الخلافة ، وأخذ مداه في عصور الضعف ، في أعقاب عصر المتوكل الى أن خرج الأمر برمته من أيدي الخلفاء .

ليس بمستغرب أن نجد ولي العهد يكون لنفسه بطانة تناصره حتى على أبيه الخليفة وتتعجل انتقال السلطة اليه ، ويحدث أن يقف وزير الدولة في صف الخليفة ، ومن ثم ينتظره سوء المصير حين تنتقل السلطة الى ولي العهد ، فهذا الخليفة المهدي يختار ابراهيم الحراني كاتبا لابنه موسى الهادي في منطلقه الى جرجان ، ثم يبلغه عن هذا الكاتب ما لا يطمئنه فيأمر ابنه بأرجاعه اليه ، ولكن موسى يتهرب من انفاذ الأمر حتى كتب اليه المهدي : أن لم تحمله خلعتك من العهد ، واسقطت منزلتك ، ( ٣ / ٣٢٦ ) فيلعب مضطرا ويرسل الحراني ، ولكن المهدي يموت يوم وصوله في ظروف غامضة ، ( قيل بطعام مسموم ، وقيل سقط من فوق فرسه ) ليصبح الحراني وزيرا للخليفة الجديد ، وينحى

الربيع عن الوزارة ، وفي مرة أخرى لا ينحى بل يقتل ، فقد كان المعتضد يعتقد أن الوزير اسماعيل بن جبل هو السبب في سوء رأي أبيه الخليفة الموفق فيه ، وأنه الذي أغراه بحبسه حتى صار يخشى أن يقتل ، ومع أن الوزير أقسم وترضى وتنصل ، وهو لا يزال وزيرا ، فان ولي العهد لم يمهله حين أفضت إليه الخلافة ، ( ١ / ١٨٢ ) وهذا المتوكل يستدعي اسحاق المصعبي - صاحب الشرطة في بغداد ابان عهود المأمون والمعتصم والرائق والمتوكل - ويسلمه عبيد الله بن سليمان بن وهب ، ويقول له : هذا عدوي فافصل لحمه عن عظمه ، هذا كان يلقاني أيام المعتصم فلا يبدأنني بالسلام ، فأبداه به لحاجتي اليه ، فبرد على كيا يرد المولى على عبيده ، وكل ما دبر ابتاغ ( القائد التركي ) فعن رأيه . ( ١ / ٢٠٦ ) .

لا يمكننا الاستطراد في مثل هذه الحوادث الدامية ، ويكفي أن نشير الى وزير مثل ابن الفرات ، الذي أخذ من الوزارة الى السجن والعذاب ، ومن السجن الى الوزارة ثم من الوزارة الى السجن والعذاب مرة أخرى ، وفيها قتل ، ( ٢ / ٤٣ ) .

وقد كانت أعداد الكتاب والعمال من الولاة ، وأصحاب الخراج مرتبطة بمصائر الخلفاء والوزراء الذين يستخدمونهم ، فلا عجب أن تكثر نكباتهم ومصادراتهم وأن يتفنتوا في اختراع وسائل الاختفاء ، وأن يتقنوا بهرب الثروات ، وأن يستنزفوا أموال الناس حين تكون في أيديهم السلطة تحسبا ليوم يعزلون فيه ، ويطلقون بمبالغ خيالية يعرفون أنه ما من الوفا بها بد ، ولا بد أن يبقى لهم شيء كثير بعدها . ولأن هذه الفترة من العصر العباسي - ونعني القرنين الثالث والرابع - فترة اضطراب سياسي وفساد اداري شنيع ، نجد الأخلاق العامة تتبعها : مضطربة فاسدة ، يصدر قرار الخليفة بسجن وزيره وتعذيبه فيسجن ويعذب بأشراف كبار رجال الدولة ، لكنهم يتوددون الى الوزير السجن سرا ، ويعتدرون اليه تحسبا لاحتمال عودته الى الوزارة ( ١ / ٢٣٣ ) ويقبض الوزير محمد بن عبد الملك الزيات على سلفه الوزير عبيد الله بن سليمان بن وهب ، ويبيته ويعذبه ، وفي خدمته أخوه الحسن بن وهب ، فلا يجسر على أن يشتم أخيه عند الوزير ، ولا أن يخفف عنه البلاء ( ٢ / ٩٢ ) ويسلم أبودلف المعجلي - القائد البطل العربي - للأفشين بأمر المعتصم يفعل به ما يشاء ، ويتصدى القاضي أحمد أبي داؤود ، ويمتثل في ذلك بطرق غير مأمونة ، فيفقهه ، ويستهدف لعداوة الأفشين ( ٢ / ٩٦ ) لهذا الخطر الماحق صارت الثروة هدفا يسعى اليه العمال ، وأصبح بذل الرشوة أو قبولها أمرا عاديا للحصول على الحماية أو اسباغها على من يطلبها ( ٣ / ٢٥ ) والتجارة بأموال الدولة عملا مباحا ( ٢ / ٧٦ ) ، ومن أقوى الأخبار دلالة على الفساد الإداري والمالي ما ذكر من أن بعض العمال تقلد الأهازج وأراد أن يبدأ عهده بتطهير جهاز الحكومة ، ومنع الرشوة ، والزام كل موظف بمجموع لا يتخطاه فأحس كبار المدينة بالخطر الذي يتهدد مكاسبهم وتسلبهم من الرشوة عن الموظفين فاختار الكبراء واحدا منهم يكلم الوالي الجديد . يقول : « فبنته ، وخلوت به ، وبذلت له مرفقا جليلا ( رشوة ضخمة ) فلم يقبله ، ودخلت عليه بالكلام من غير وجه ، فما لان ، ولا أجاب . فلما يشت منه ، وكدت أن أقوم عنه ، قلت له : يا هذا الرجل ، أنت مقيم من هذا الأمر على خطأ شديد ، لأنك تظلمنا وتزيل رسومنا ، من حيث لا يحمدك السلطان ، ولا تنتفع أنت أيضا بذلك ، ومع هذا فأخبرني : هل تأمن أن تكون قد صرفت ( طردت من الوظيفة ) وكتاب صرفك في الطريق ، يرد عليك بعد يومين أو ثلاثة ، ومادام هذا

الاحتمال وإردا، والوالي لا يطمئن في موقعه إلا أياما، فلماذا تُضَيِّعُ فرصة تعويض ما يجتمل حدوثه؟ وبالفعل اهتز ثبات الوالي، وقبل المرفق (الرشوة) ولم تقص أيام حتى جاء خطاب صرفه عن الوظيفة، فراح يشكر الوسيط القديم على نصيحته، وهو لا يشك في أن لهذا الوسيط عيوناً في بغداد تكاتبه بما سيحدث، وأنه كان عارفا بما سيكون من انتهاء خدمته بهذه السرعة (٣/٣٤).

#### ثانياً : صور الحياة الاجتماعية :

لم نرد في هذه الفقرة أن نقدم وصفا للحياة الاجتماعية، أو بعض جوانبها، كما أننا لم نحاول في الفقرة السابقة أن نحصي أو نتعرض الأخبار والشخصيات التاريخية التي احتفل بها الكتاب. لقد أردنا أن نشير إلى أهمية هذا المجال، وأن نضع تحت نظر القارئ غمادج مما يمكن أن يعتبر إضافة في هذا الجانب، لأن كتب التاريخ لم تحفل به، لسبب أو لآخر، وفي صور الحياة الاجتماعية «لن نتخل عن هذا القصد، ولن نتوسع فيه توسعاً هناك وبشكل عام فإن القاضي التنوخي لم يعبد إلى كتابة أو جمع قصص اجتماعية، بالمعنى الذي يقصد الآن من استخدام هذا المصطلح أي تصوير العادات والتقاليد وأنماط السلوك، وتبسيط القضاء على بعض المشكلات ذات الطابع العام، والتي تهم الطبقات الدنيا في المحل الأول، فلنستغل أن هذا المعنى الاجتماعي، أو ذاك المغزى الطبقي كان واضحاً عند كاتب في القرن الرابع الهجري بمثل وضوحه الآن، أو بما يقارب وضوحه الآن. ومع هذا فإن القاضي التنوخي قد جمع قصصاً عن اللصوص، وعن العشاق، يمكن أن تعتبر في صميم القصة الاجتماعية، غير أن ما أردناه «بصور الحياة» يتجاوز إلى ما يصح احتناقه في سياق أية قصة، أو أي خبر.

إن علاقة التفاعل الجدلي بين التركيب الاجتماعي في مفرداته الطبقية لن يسمح بعزل أوضاع أخرى، إنها لابد أن تكون سبباً ونتيجة في الوقت نفسه، وقد رأينا كم كانت أوضاع الخلافة متردية، وكان المنصب العوي، وكانت النساء من أمهات الخلفاء وزوجاتهم وجوارص متحكّمات، حتى كان بعضهم يقمن في بيوتهن -ولابد أنها قلاع أو تشبه القلاع - سجونا خاصة، ويمكن لاحداهن أن تحكم على موظف عندها بالقتل، دون أن يمرّ بأي مرحلة من مراحل التقاضي (١٠٨/٢) و(١١٢/٢) ومن الطبيعي أن يؤثر هذا الحلل الأمني الاجتماعي في الطبقة المتعاملة مع طبقة القعة، فتجد الولاة والعمال يهذون في جمع الثروات ويقتنون في حماية أنفسهم. كان أبو جعفر بن شيرزاد الكاتب يسكن داراً هي قلعة بالفعل وكان لها أربعة عشر باباً، يفضي بعضها إلى جهات وأزقة لا يعرف عنها أحد شيئاً. وكان يملك من الغلمان المسلحين المستعدين لافتدائه ما استطاع به أن يعطل قرار الوزير، ويرفض مغادرة بيته، ويتحدى السلطة الرسمية حتى تمكن من الاختفاء خارج بيته إلى أن أتاه الفرج (٢٨/٤)، كما أنهم كانوا إذا هُذِّدَ أحدهم في حياته وقُتِمَ للقتل، هتف: «وأي المصادرات؟ أين أنتم عن أموال أفندي بها نفسي؟ أما إذا أحبط به من أجل الاستيلاء على ثروته، التي لابد أن تكون تضخمت بشكل لا يسهل احتمالها راح ينكر ثروته، التي تقفن في إخفاء معالمها. ويصمد لعمليات التعذيب على عنفها، ويسام ليصالح على بعض المطلوب منه، ويدعي أنه تسلفه من أصدقائه وكرومائه عصره لينفذ نفسه، وهذا رجل ذو خبرة، يرشد أحدهم إلى وسيلة يقنع بها الوزير أنه لا يملك المال الذي يطالب به. قال:

تكتب رقعة الى رجل من معامليك تعرف شحة وضيق نفسه ، تلتبس منه لعيالك الف درهم يقرضك اياها وتلتبس منه أن يببيلك على ظهر رقعتك ، لترجع اليك فانه لشحه ، يردك بعدر ، وتحفظ بالرقعة ، فإذا طالك الوزير اخرجتها له على غير مواطاة ، وقتل له : قد أفضت حالي الى هذا ( ١١٥/٢ ) .

وجدير بالذكر هنا أن الخلفاء كانوا - عادة - على علم بالثروات المخبأة ، ولم يكونوا يعترضون عليها أو يمدون اليها أيديهم ، الا اذا رأوا أنها صارت من الفسحامة بحيث تهدد جانباً من سلطانتهم ، أو أن يواجه الخليفة أزمة سياسية يحتاج حلها الى المال بشكل غير عادي ، ولا تسعفه الخزانة العامة ، وتشح نفسه عن اخراج المطلوب من ماله الخاص ، فيحتشد يلجأ الى المصادرة والاستصفاء ، وهو سلاح مشرع في أي وقت ، وله مسوغاته الجاهزة . يدل خبر عن الرشيد أنه رضي عن فرج الرخحي ، وأعاد عاملاً على الأهواز حين اعترف أمامه بمقدار ثروته الحقيقية ، ومصادر حصوله عليها في مرحلة عمله السابقة وعرض هذه الثروة الضخمة على الرشيد ليأخذها . ودل على مكانها ، فقال الرشيد ، بارك الله لك في مالك ، ارجع الى عملك ( ٣٦٨/١ ) وخبر آخر عن المأمون ، أنه دعا يوماً بأبي عباد ، وأمره أن يأتي عمرو بن مسعدة ، ويدون معه ورقة بكل ما يملك بالتفصيل ، ويوقعان عليها معا ، ويحفظ بها أبو عباد ، وتكون المفاجأة التي لم يفهم سرها أبو عباد أن عمرو بن مسعدة لديه أمر من المأمون أن يفعل الشيء نفسه مع أبي عباد . ويوضح ابن مسعدة اللغز ، فيقول : ان صاحبتنا - يعني المأمون - ليس ببخيل ، ولكنه رجل يكره أن يطوي معرفه ، وانما أراد أن يعلمنا أنه قد علم بما صار لنا ، فأمسك عنه على علم ( ٤٤/٣ ) وقد أوضح المأمون - فيما بعد - قصده ، فهو لم يستكثر على رجال دولته ما جمعو من ثروة ، ولكنه أراد أن يزيل عنهم غمّ المساترة ، ونقل المراقبة !! أما هذه الثروة التي سامع فيها المأمون رجله فقد كانت أربعين ألف ألف درهم لابن مسعدة ، وسبعة وعشرين ألف ألف أبي عباد !! هذه صورة الطبقة العليا في المجتمع ، تتحرك بين قطبين متباعدين ، يمثل الثراء والسلطة جانب ، والمصادرة والسجن جانب آخر ، وبين هذا وذاك حياة متوترة بالترف وانتهاج اللذات ، وانتهاز الفرص وتوقع المداومة وزوال السلطان ، ولكنها تمارس جبروت التحكم والعسف ، لعل هذا يؤخر في نزول المحنة القادمة لا ريب . هذا الوضع العام ، بما يشيع من جو نفسي كان له أثره - لا ريب - على النظام الاجتماعي . لقد عرف هذا العصر انتفاضات كبرى ، كثرة الزنج في منطقة البصرة . وثورة القرامطة وقد بلغ بهم الحال أن زعوا الحجر الأسود من الكعبة ، وطردوا الحجاج ، ووصلوا بجيشهم الى بغداد العاصمة التاريخية ، وإن مناقشة هذه الحركات الانفصالية معزل عن غياب العدل الاجتماعي ، واضطراب النظام المالي للدولة الإسلامية ، واعتماد الخلفاء على الجنود المرتزقة من ترك وديلم في حماية دولتهم ، يؤدي الى نتائج قاسرة ، وبهذه القصص الكثيرة التي تنتشر في الكتاب . يمكن أن نجد فيها ملامح التدخل بين هذه الظواهر جميعاً ، وكيف كان كل منها يرتبط عضواً بالآخر .

لقد قدم القاضي التنوخي صوراً نادرة لحيل اللصوص ، ونماذج لسلوكهم وتقاليدهم مهنتهم سجد للصمصام ، يعرف شخفيته السارق من أسلوب سرقته ، والمنطقة التي وقعت بها السرقة وهو يمارس مهام رئيس الطائفة حتى وهو في السجن ، فيشتفع في رء مال مسروق ( ٢٥١/٤ ) ونجد قاطع طريق يستبيح مال التجار وينهب معتمداً على فتوى فقهية ، مؤداه أن المال الذي لا تخرج زكاته يقدح حرمة ، فيأتي بالتجار الذين أخذ تجارهم ويسألم كيف يؤدون

زكاتها؟ بأية نسبة؟ ومضى؟ وهل تخرج زكاة الديون، والمخدرات الذهبية، الخ، ويكشف أمامنا عجزهم وتخطيهم بما يبدل على أن حق الله في هذا المال لم يصل إلى مستحقه، ومن ثم لا حزمة له (٢٣١/٤) وتتعرف على «ابن حدي» اللص البغدادي المشهور بالفتوة والظرف، وكان لا ينهب أصحاب البضائع القليلة. وسنجد أبلغ بيان عن حركات اللصوصية يقولها ابن حدي هذا، الذي يجهد في قطعه للطريق عملاً أقل قسوة وضراً مما يفعل الوزراء والولاة في الناس، يقول لواحد من سلبهم أمواهم «الله بيننا وبين هذا السلطان الذي أحوجنا إلى هذا، فانه قد أسقط أرزاقنا، وأحوجنا إلى هذا الفعل، ولستنا فينا نفعه نرتكب أمراً أعظم مما يرتكبه السلطان. وانت تعلم أن ابن شيرزاد ببغداد يصادر الناس ويفقرهم، حتى أنه يأخذ الموسر المكث، فلا يخرج من حبسه. الا وهو لا يتندي إلى شيء غير الصدقة، وكذلك يفعل البريذي بواسط والبصرة، والديلم بالأهواز. وقد علمت أنهم يأخذون أصول الضياع، والدور، والمعار، ويتجاوزون ذلك إلى الحرم والأولاد، فاحسب أننا مثل هؤلاء، وأن واحداً منهم صادرك.

فقلت: أعزك الله. ظلم الظلمة لا يكون حجة، والقيح لا يكون سنة، وإذا وقفت أنا وانت بين يدي الله عز وجل، أترضى أن يكون هذا جوابك له؟

فأطرق ملياً، ولم أشك في أنه يقتلني، ثم رفع رأسه، فقال: كم أخذ منك؟ فصدقته. فقال: أحضروه. فأحضر، فكان كما ذكرت، فأعطاني نصفه (٢٣٩/٤). هكذا يبدو قاطع الطريق صدى لأخلاقيات العصر وسياساته، ويبدو - في نظر نفسه - أكثر رفقا وإنسانية وأرفع خلقاً من الوزراء والولاة فيما يتزولونه بشعوبهم، فهو لا يستأصل رأس المال في الضياع والمعار، ولا يتطلع إلى الحرم والأولاد، انه يكتفي بنهب المال المنقول، وقد رضي هذه المرة بالقسمة مناصفة.

وبصفة عامة فإن قطاع الطريق واللصوص كان لهم نفوذ شبه معترف به في المناطق التي يسيطرون عليها، وكان منسر بعضهم يبلغ مائة نفس، بأسلحتهم وعدتهم «كالعسكر العظيم»، وبلغنا أن القاضي التنوخي يصور الجوانب الانسانية والدوافع النفسية لدى هذه الطائفة الخارجة على النظام - ان كان ثمة نظام - ولم يصورهم في حالة منفردة أو قاسية الا ناذراً - وقد كان بعضهم لا يعياً بسلطة الدولة ويقطع طريق النهر على قافلة بحرية تحمل رسالة من الخليفة ولكن الغالب أنهم كانوا يتجنبون الصدام مع السلطة، التي كانت تتغافل عنهم في حدود، وقد تقبل مصالحة بعضهم ومقاسمته مكاسبه، بشرط أن يتوب، كما قد تعجب بشهامة بعضهم وفروسيته فلا تسرع إلى معاقبته. وإذا جاوزنا القصص التي عقدت لقطاع الطريق والمتلصصة، فاننا سنجد علامات غياب الأمن، وتعرض القوافل والأفراد للسلب تكاد تكون جزءاً من تركيب القصة، وملامح المجتمع في تلك الفترة المضطربة.

وفي الجزء الرابع بصفة خاصة، في باب: «من نالته شدة في هواه، فكشفها الله عنه وملكه من يهواه» سنجد بعض قصص المحبين العفرين في غمطها التقليدي الذي نجده في كتاب «الأغاني» ولكن الأكثر أهمية أننا سنجد عدداً من القصص المحبوبة فنياً، يقوم بدور العاشق والمعشوق فيها السيد وجاريته غالباً، أو شاب حر وجارية يملكها بعض



السادة من عليّة القوم أو الجيران ، في أحيان أخرى ، وهذا النوع من القصص يضع أمامنا نوعاً من العلاقات الاجتماعية أهمّته الدراسات التراثية على تنوعها . هناك بعض الكتب التي اهتمت بأخبار القيّان ( الجوّاري المغنيّات ) أو الجوّاري بصفة عامة ، ولكنها اهتمت غالباً بأخبارهنّ في مجال الغناء أو اللّهُو والعبث ، أو النفوذ السياسي على سادتهنّ ، ونادراً ما نجد اهتماماً بالحياة العاطفية لأولئك الجوّاري ، وكأنّنا نفترض - أو افترض القدماء - أنّها مادامت مملوكة فلا بدّ أنّ تكون مدعنة لسيدها ، خاضعة لرغباته ، وهذا التصوّر سيّداً من افتراض خاطيء ، فأول شرائط الحبّ أنّه يقوم على اعتراف عميق بحرية الطرف الآخر وحقّه في أن يمنح أو يمنح عن طواعية ورغبة حقيقية ، وهذا بدوره اعتراف بالمساواة بين العاشق والممشوق ، وليس مصادفة أن أقوى قصص الحبّ العذري اتخذت من البادية مهاداً لها وموطناً ، حيث تستقر أسس المساواة بين أفراد القبيلة ، وبين القبائل المتناظرة تتكرر في هذه القصص « لازمة » السيد الذي لا يبقى له من الدنيا غير جاريته المحبوبة قد تقترح عليه أن يبيعها ليعيش بئمنها ، وقد تعزّيه بأنّها ستصادف سادة أغنياء يتمكّنون من أطعامها وكسوتها ، وقد يأتي الاقتراح من جانب السيد ، لنفس الدوافع ، ولكنه في كل مرة يضعف في اللحظة الحاسمة ، ويرفض البيع برغم الثمن الجزيل المعروض فيها ، ولا يكتفي بالاحتفاظ بها في ملكه ، بل يعلن أمام الشهود أنّه اعتقها ، وجعل عتقها صداقها ، ويطلب منهم أن يزوجهها له .

هذا النوع من القصص يدلّ على المنزلة الاجتماعية التي حظيت بها الجوّاري في العصر العباسي وهو عصر عرف الخلفاء من أبناء الجوّاري ، لم يشغل مكان الخليفة في هذا العصر على طوله من أبناء الخرائر غير السفاح - مؤسس الدولة ، والأمين بن زبيدة . وقد كانت الجارية فارسية أو رومية ، مثقفة بارقة ما يحتاج التعامل الحضاري في ذلك الحين . وبذلك كانت صاحبة الخطوة الفعلية ، حتى على الجزيرة العربية ، التي تكتفي بمظهر السيادة ولم يكن السيد الرجل يتردد في أن يخضع لجارته ، بل يتذلّل ، ويسترضيها قائلاً : ياسق ويسألها أن تصفح عنه ، ويرضى بأن تشاركه عيشه الفقير ، على أن يبيعها ويميش ثرياً محروماً منها ، ويستجدّ عندها الوفاء لهذا السيد العاشق ، فلم يحدث أن جارية فضلت أن تبايع للأثرياء ، على أن تبقى زوجة لسيدها الفقير ، بل إنّها تعاون على اجتياز محنته ، بما تحيّد من فنّ .

لا نريد أن نتوسع أكثر من ذلك ، حتى لا يخرج هذا الفصل عن الحجم الذي ارتضيناه وتكتفي بمجرد الإشارة إلى أوجه أخرى تظهر فيها صور المجتمع العربي في القرن الرابع بتفاصيل أدق وأصدق مما صور المؤرخون في غيبة الرصد الاجتماعي للسلولك العام ، وأنماط المعيشة ، وأنواع التغيّر .

أ : العادات والتقاليد مثل كتابة الأحجية بقصد التأثير لاستجلاب الرضا أو تجنب السخط ( ٢٢٤/١ ) وتحصين الأطفال بوضع رقيق تحت وسادة الطفل والتصدق به صباح كل يوم ( ٢٩٢/٢ ) وتعليق رقع فيها شكواي ومظالم في عراب المسجد ، أو في قبور أئمة أهل البيت ( ٢٣٩/١ ) .

ب : نظام الشرطة ، وسنجد للنظام الأمني مصطلحات وتحركات طريفة : فهناك الشرطة والعسس ، والطواف أو الطائف ( ١٠٧/٤ ) وقد كانت بغداد مقسمة إلى أربعة أقسام أمنية ، ولكل قسم مسئول ، يعاونه جهاز ينتشر على مساحة الربع ، ويرفع إليه تقارير ، تتجمع في تقرير واحد ، يقدم يومياً إلى صاحب الشرطة .

ج : وهناك السجن وأنواع العقوبات وكانت درجات ، تتدرج شدة وإذلالا ، فالمطبق كان كالحفرة ، وكانت كل زنزانة تستوعب لسجين واحد وهو جالس ، وفي ديماس الحجاج كان المسجونون جميعا في سلسلة واحدة ، وإلى جانب السجن الحفرة ، وجد السجن المكشوف للنساء ، يحده سور عال ، ولا يقي المساجين أي شيء في الصيف أو في الشتاء ، وكان يحدث أن يسلم الكبراء الى نظائر لهم يسجونهم في بيوتهم ، فهذا نوع من تحديد الإقامة ، أو السجن السياسي ولكنه لم يكن يخلو من عذاب .

وتتدرج العقوبات من الصفع ، الى التجريد والجلد ، وقد قتل الخليفة ابن المعتز باعتصار خصيتيه حتى الموت .

د : الرسوم : وتراعى فيها منزلة صاحب السلطان ، فالخليفة تقبل رجله ، ويده ، ويقبل العمال البسطاء بين يديه ، وقد يحظى الوزير أو الكاتب بشيء يشبه هذا ، وكان للخليفة كما للوزير يوم عام يجلس فيه لاستقبال العامة من أصحاب الحاجات ، ويجلس من حوله أركان دولته : الوزير والكاتب وقاضي القضاة ، كل على درجته . وفي الايام الأخرى لا يدخل عليه الا بأذن سابق .

هـ : أسلوب الحفاوة : وتكرر في القصص والأخبار طريقة الاحتفاء بعزیز قادم بعد غياب ، أو أكرام غريب وأفد . كان الأمر عادة يبدأ بادخاله الحمام ، وتقديم الطعام ، ومؤانسته ، ثم سؤاله عن حاجته وكانت المدن محاطة بأسوار ذات أبواب تغلق عقب الغروب ، فإذا وفد الى المدينة أحد بعد اغلاق الأبواب لم يسمح له بالدخول ، ونجد دائما قريبا من باب المدينة - خارج السور - مسجداً يقضي به الغرباء ليلتهم حتى يفتح الباب مع الصباح ، ومثل هذا المسجد كان يبينه الكبراء قرب بيوتهم ويؤمن أتباعهم في صلاة الجماعة كل يوم . وكان من عادة رجل العلية أن ينهي صلاته بوقار ، ويتمهل قليلا ليتم دعاءه وتسيبته ، ثم ينظر خلفه يستعرض وجوه المصلين ، ومن ثم يكتشف الوجوه الغربية ، ويعرف أنهم وفدوا لحاجة فيصحبهم - بين رجاله - الى جناحه الخاص ، ليسأل كلا منهم عن مطلبه ، ويحسن الى من جاء منهم يطلب الاحسان .

### ثالثا : المحاور الأخرى :

وقد تضمن الكتاب عددا كبيرا من الحكايات الشعبية ، لا تستند الى خبر تاريخي ، ولا تحرص على الاقتراب من الواقع الاجتماعي ، ان هدف الحكاية الشعبية هو الترفيه ، تسلية المستمع أو القارئ ، بثارة دهشته وخوافه وإيمانه القدري بان ما يريد الله يكون مهما كانت رغبة الانسان . في هذه الحكايات تلعب المفاجآت دورا مهما ولكنه يصنع العبرة في النهاية ، وهنا تلتقي الحكاية الشعبية مع القصة الوعظية التي تهدف الى غاية أخلاقية ، وان لم تحرص على التسلية فانها لاتنمأ كثيرا بالواقع والمنطق ، لانها تساق أصلا في نطاق المعجزة . ولأن القصص من أجل الوعظ كان بداية طريق القصة الاسلامية التراثية ، فان أخبار بني اسرائيل والعرب البائدة ، وجوانب من عصر صدر الاسلام ، تظهر في هذا المجال تأتي مطلقة أحيانا ، وأحيانا منسوبة الى نبي ، فهذا نبي أو صديق ذبح عاجلا بين يدي أمه فخيّل ، ومسح

عن فرخ أمام أمه فثاب عقله . ( ١٤٩/١ ) أما النبي دانيل فقد ألقى الى أسود جائعة فذلت له حتى وضع رجله على رؤوسها ( ٧٩/١ ) وحكاية جحا المشهورة الساخرة ، عن حمارة الذي قطع ذيله ، وامراته التي اسقط حملها ، تروي عن سدوم ، وأن الله أهلهم بها ( ٩٦/٣ ) أما قصص الوعظ القرينة الى عصر المؤلف فانها لا تختلف عن الحكاية الشعبية الا في غايتها الأخلاقية القدريّة . وأكثرها يقوم على مصادفة ، فهذا رجل يقسم ألا يأكل لحم فيل ، فيكون ذلك سبب نجاة وثروته ( ١٩١/٢ ) وآخر يجعله الأسد الى عرينه ليأكله ، فيجد هناك الثروة وفرصة النجاة ( ١٣٩/٤ ) وهذا أسد يقطع الطريق على دائن ومدين ، وكان الدائن قاسيا متشددا ، فأكل الدائن وسلم الدين ( ١٥٤/٤ ) الخ .

وتشغل قصص وأخبار آل البيت حيزا مهما ، وتتسلل في طوايا قصص أخرى كثيرة وقد ترجم صاحب « أعيان الشيعة » لابن القاضي التنوخي ولأبيه على أنها من الشيعة . أما القاضي أبو علي المحسن ، كاتبنا ، فقد ذكرت مصادر أخرى أنه معتزلي ، حنفي المذهب ، وليس ما يمنع من تعاطفه وتعلقه بآل البيت مع اعتزله وحنفيته . فالأسد لا يأكل أبناء علي وسلائقهم ( ١٧٠/٤ ) وشخصية الامام علي تتراءى في المنام للظالمين والذين يوشكون على الوقوع في الخطأ ، فتظهر لهم وجه الصواب أو تردهم ، ولا يقوم معها بهذا العمل غير الرسول عليه السلام ، وقد يظهر النبي في المنام ليوصي بأحد العلويين ( ٢٨٠/٢ ) بل أن المعتضد لم يعرض في خلافته للعلويين ، وتفسير ذلك أنه حين كان سجيناً رأى علياً في المنام ، فيشره بالخلافة ، وهو الذي لقبه المعتضد ( ٢٠٩/٢ ) ولا يظهر بعد الرسول وعلي في المنام غير الحسين وفاطمة ( ٢٩١/٢ ) وتترامى عبر قصص كثيرة المنزلة السامية التي يشغلها آل علي في قلوب جمهور المسلمين ، فزيارة الخاتل ( قبر الحسين في كربلاء ) لها موسم ينطلق الناس فيه أفواجا ، وجرايتهم في أموال أتباعهم ثابتة كالفرض ، أو هي فرض ، عل أن أخلاقهم ونبلهم وترفعهم عن شهوة الانتقام من خصومهم وتنزله ألسنتهم عن هجر القول ، وحرص عامة المسلمين وخاصتهم على سماعهم ، والتقاط أذعيتهم ونصائحهم ، مما نجد عليه أدلة كثيرة لا تنتشر في أثناء القصص .

أما القصص التعليمية ، فانها تكون عادة واضحة التلقيق ، وهي لا تبعاً بغير ما وضعت له ، وهو تفسير مناسبة أبيات ، أو شرح حكمه ، أو خطبة . . . الخ . وتضحي القصة التعليمية بالجوانب الفنية الا نادرا ، وسنجد قصصا لشرح مسائل فقهية ، عن زكاة المال ، وحرمة عروض التجارة ، وحق ابن الرقيق في ورثة أمه الحرة ( ٧٤/٣ ) وقصصا لشرح أبيات ( ١٠٢/١ ) و ( ٢٨١/١ ) و ( ٣٩٦/٢ ) وغيرها . ومن هذا النوع نجد قصة واحدة طريفة ، ستوقف عندها في الفترة التالية وهي قصة « حائل الكلام » .

هذه - باختصار - مجالات الاهتمام الأساسية التي تحرك بين أقطارها القاضي التنوخي ، وهناك محاور غيرها ، كالقصص التي هدفت الى تصوير أساليب علاج الأمراض المختلفة ، والقصص التي صورت الأثر السيء لحياة الجنود المرتزقة - الترك بخاصة - في بغداد وما أنزلوه بأهلها من مظالم واعتداء على الحرمات ، ولن يكون هذا التعريف مغنيا عن قراءة مفصلة تكون أكثر وفاء للدلالة على آفاق المعرفة ، وأنواع الخبرات ، التي استمد منها القاضي التنوخي ، مادة كتابه « الفرج بعد الشدة » .

## ٧ - البناء الفني للقصة :

باستثناء الأدعية ، وبعض أمثلة الوعظ ، والاقتراسات الشعرية ، تشغل حوادث التاريخ وشخصياته - على اختلاف في أهمية الخبر أو منزلة الشخصية التاريخية - الحيز الأكبر من الكتاب ، بل تكاد تكون طابعه العام ، وهذا واضح في ترتيب المصادر التي اعتمد عليها الكاتب ، ونقل عنها ، وتلخيصها حوادث وشخصيات ليست من التاريخ ، أو لا تحسب عادة على التاريخ ، لأنها معاصرة لحياة المؤلف ، أو قريبة جدا من عصره ، أو لأنها لم تشغل في حياتها مكانا مهما يرقى بها الى مستوى الحدث التاريخي أو الشخصية التاريخية ، ثم تليها أخيرا حوادث وشخصيات مخترعة ، واضحة الوضع ، وهذا التقسيم « الموضوعي » ليس هو التقسيم الفني ، الذي يحتكم عادة الى الصياغة ، ولهذا فأننا استخدمنا من قبل مصطلحات : الخبر ، والقصة والحكاية . وهذا التقسيم الفني لا يتوكل على الصلة بالتاريخ ، أو الواقع ، وإنما يعتمد على التشكيل الفني للمادة .

نذكر هنا أن القصة تروي خبرا ، ولكن - كما يقول رشاد رشدي - لا يمكن أن نعتبر كل خبر أو مجموعة من الأخبار قصة . فلأجل أن يصبح الخبر قصة يجب أن تتوفر فيه خصائص معينة أولا أن يكون له أثر كلي ، وأن يكون للخبر بداية ووسط ونهاية ، أي أنه يصور ما يسمى بالحدث ، ينتهي الى لحظة كشف ، أو اختتام يمنح الحادثة مغزاهما ، يسمى : لحظة التنوير (٣٧) كما ذكر النموذج المبسط الذي أوضح به القاص الناقد فورستر أهم خصائص البناء الفني ، وهو « الحكبة » فيرى أن « الحكاية » مجموعة من الحوادث مرتبة ترتيبا زمنيا ، أما الحكبة « فهي سلسلة من الحوادث يقع التأكيد فيها على الأسباب والنتائج ، فإذا قلنا : « مات الملك ثم ماتت الملكة بعد ذلك » فهذه حكاية ، أما : « مات الملك ، بعدئذ ماتت الملكة حزنا » فهذه حبكة وقد احتفظنا بالترتيب الزمني ، ولكن الاحساس بالأسباب والنتائج يفوقه . أما « ماتت الملكة ولم يعرف أحد سبباً لموتها حتى اكتشف أنها ماتت حزنا على وفاة الملك » فهذه حبكة بها سر غامض (٣٨).

وينبغي أن ننبه هنا الى الفرق بين استعماليين للحكاية ، فهي في البناء القصصي تعني التابع الزمني للحوادث الجهرية ، وكأنها جواب عن سؤال يتكرر : فما الذي حدث بعد ذلك ؟ ولكن حين توصف بها حادثة يكاملها ، فيقال انها تنتمي الى جنس الحكاية ، أو الحكاية الشعبية . ولا شك أن الوصف بالشعبية أضيق لفني وقوع الالتباس ، فانها تعني الأشكال القصصية حين تنبثق عن الطابع الانساني والسلوكيات الاجتماعية ، وتتعلق بالجوانب الخرافية لأهداف وعظمية تعليمية تهذيبية ، وترضى نزوع الخيال الى المغامرة والبطولة ، وغالبا ما يكون التماسك بين أجواء الحكاية غير متقن ، لاعتماده على المصادفة ، كما أن « الحكاية » لا تفرص على العنصر الانساني انها تتحرك في عوالم الخيوان ، والجنان ، وتصور فعل الخوارق والسحر ، وما يقترب من هذه الاجواء ، بعكس القصة .

(٣٧) ان القصة العصرية ص ١٥ - ٢٠ .

(٣٨) لكان القصة ص ١٠٥ .

لعله قد وضح الآن كيف يمكن أن يظل الخبر التاريخي مجرد خبر ، وكيف يمكن أن يغادر التاريخ الى الفن اذا ما تشكل وفق أصول الفن القصصي ، بل كيف يمكن أن يمارح الخبر التاريخي دائرة القصة ، الى دائرة الحكاية الشعبية ، اذا ما أسرف الخيال في تصويره ، وأضفى عليه من المبالغة وخاض به من العوالم ، وعلق عليه من الأعمال البطولية ، ما يخرج به عن السوية الانسانية .

وهذا هو المقياس الذي احتكمتنا اليه .

لن نعرض للخبر التاريخي ، فهو خارج دائرة الصناعة الفنية ، ولكننا ستوقف طويلا عند القصة والحكاية الشعبية ففيها تظهر موهبة الكاتب .

وقبل أن نحاول اكتشاف مجموعة الأسس الفنية التي آثرها الكاتب فيما أورد من قصص ، سنسلم مبدئيا بأنه ليس مؤلف هذه القصص . كيف وهو يذكر مصدرها وسلسلة روايتها قبل نصها ؟ لنقل اذا : انه اختار قصصه وفق هذه الأسس الفنية ، أو لنقل : ان هذه الأسس تنتمي الى القصة التراثية في الأدب العربي بعمامة . ومن جانبنا - فإننا ونا كنا لا نستطيع أن نطرح من معارفنا المصطلحات النقدية الخاصة بفن القصة القصيرة ، وهي شكل معاصر - ينبغي أن نضع في الاعتبار استقلال القصة القديمة بأصولها الخاصة . ان « الحكبة » هي أهم عناصر البناء القصصي ، ونحن - على أية حال - نتجاوزها بما حددها به فورستر ، وهو التركيز على الأسباب والنتائج ، الى قضية أفق ، وهي : كيف تعاونت جزئيات العمل ، وأمرحله ، لتصنع في النهاية شيئا واحدا لا يسهل تحويله الى أشلاء ؟ وهنا تختلف مستويات القصص التراثية ، كما تختلف مستويات الكتاب في خبرتهم ، وقدرتهم على اثارة التشويق دون مغادرة الخط الأساسي في القصة .

ويمكن أن نرصد ثلاثة أنواع من الحكبة : التقليدية ، والقصة داخل القصة ، والقصص المتحاورة + الحكبة التقليدية وضح معناها في التعريف ، وهي الأكثر انتشارا ، واتقانها يحتاج الى قوة الملاحظة ، والتركيز ، ونجد عليها أمثلة كثيرة نكتفي بإشارة الى واحد منها ، وهي من قصص اللصوص ( ٢٥٦/٤ ) فقد نفذ أحد اللصوص عملية سرقة لمحل بزاز ( تاجر أقمشة حريرية ) معتمدا على ذكائه وثبات أعصابه ، فقد جاء الى الدكان وقد تزيا بزي صاحبه ، ومعه شمعة ومفتاح ، وصاح بالشروطي الذي يجرس الدكاكين أن يشعل الشمعة ويعملها حتى يتمكن من فتح الدكان ، لأن له فيه شغل ، وهكذا تحت سمع الحارس وبصره جلس اللص وسط البضائع يكتب ويحسب ، ثم نادى الحارس من جديد أن يطلب له حمالا ، فذهب فأحضر الحمال . الذي حل أربع رزم ثمينة ومضى مع اللص الذي لم ينس أن يفتح الحارس بدرهين . واستيقظ سوق بغداد ، وجاء التاجر صاحب الدكان ليفتح الأبواب ، فأقبل عليه الحارس يشكوه على ما أكرمه به ليلة أمس ، فاستراب الرجل ، ثم تأكد حين فتح الباب ، ووجد أثر الشمعة ، ومكان الرزم المسروقة ، وهنا - دون ضجيج - استدعى الحارس وسأله : من الذي حل معي الرزم الباردة متنبذا ( شارب نبيذ ) ولم يدرك أين ذهب هو بنفسه ، فأحضره الحارس ، فاعتذر التاجر للحمال بأنه كان الباردة متنبذا ( شارب نبيذ ) ولم يدرك أين ذهب بالرزم . فأخبره الحمال أنه ذهب معه الى شاطئ النهر ، وأنزل بالرزم معه في زورق ملاح معين . فذهب التاجر الى

الملاح وسأله : أين حملتي أمس مع أقمشتي ؟ فحدد له المكان ، كما حدد له الحمال الذي ساعده في مغادرة الزورق ومضى معه . فدعا بالحمال ولاطفه ، وأعطاه شيئا ، وسأله عن الموضع الذي انتهى اليه ، فدلّه على غرفة خارج البلد ، مشرفة على الصحراء ، على بابها قفل ، مالميث أن كسره التاجر ، فوجد رزمه الأربع كما هي ، ووجد قريبا منها مئذرا ، لفها فيه ، وحملها الحمال ، وانصرفا ، حين خرج من الغرفة استقبله اللص ، وفهم الأمر ، فاتبه الى الشط ، ونزل التاجر والحمال الى السفينة ، فدعا الحمال من يحيط عنه ، فتقدم اللص يساعده كأنه متطوع ، وأنزل الرزم الى السفينة ثم وضع المئزر على كتفه ، وقال للتاجر : يا أخي ، أستودعك الله ، فقد استرجعت رزمك ، فدع كسائي .

هذه قصة تبدو عادية ، من السهل تأليف مثلها ، ومع هذا فقد روعيت فيها أصول صناعة القصة ، وركبت تركيبا جيدا . فقد كان التاجر « يطلب التلصص في حدائنه ثم تاب وصار بزاا » وهذا يفسر سيطرته على أعصابه حين فوجيء بالسرقة ، ويفسر قدرته على تصور ماحدث ، والطريقة المثل لتتبع الخيط ، حتى يقوده الى مكان المسروقات ، وهذا يفسر نداء اللص له في آخر القصة « يا أخي » فقد أدرك هو أيضا أن هذا الدهاء ليس دهاء التجار ، الذين تتجمل مواهبهم في اقناع المشتريين ، وإنما هو دهاء يجرب يعتمد على الحيلة ، وشخصية اللص مبنية بناء سليما من الناحية السيكلوجية ، فهو يعرف أن من دأب الحارس في الاسواق أن يسأل المتردد الملتفت ، وينصرف عن الواثق التلقائي ، وقد سأل الحارس ، قبل أن يسأله ليشغله بالجواب ، ولم يكتف بسؤاله ، بل صاح به ، وطلب معونته في فتح الدكان ، وهكذا نفى عن خاطره تماما أنه ليس صاحب الدكان . ويمثل هذه الثقة عمل الآخر أيضا ، فلم ينجأ أي واحد عن عاونوا اللص أن سرقة قد حدثت وأنه قد ساعد اللص في اتمامها ، ولعل هذا لوحدث لأنكر الجميع أنهم شاهدوا أحدا أو عرفوا شيئا ، بدءا من الحارس ، الذي لابد أن يدرك أهمية المواطاة أو الإهمال عن نفسه ، وقد استعمل التاجر لغة الرفق والحيلة مع الحارس ، والحمال ، والملاح ولكنه مع الحمال الأخير جازز الملاحظة الى الرشوة « أعطاه شيئا » فهذا الحمال الأخير هو عقدة الموقف . لقد انتهت كل الخيوط عنده ، وفي استطاعته أن يفسد كل المراحل السابقة لو أنكر أو ضلل ، وأيضاً فإنه اذا كان للسابقين عذر في عدم معرفتهم بأن الرجل لص ، فإن هذا الأخير كان ينبغي أن يعرف ، ويغلب على الظن أنه يعرف ، فليس من اليسير إيجاد مبرر مقبول لوضع رزم الحرير في غرفة خارج المدينة ، قريبة من الصحراء . من هنا كان المال بمثابة اغراء و « تطمين » ومصالحة ، على افشاء سر الخطوة الأخيرة .

أما القصة داخل القصة فقد تكرر استخدامها ، وهي تحتاج الى مهارة في الربط بين القصتين بحيث لا يبدو الانتقال مفتعلا ، أو لا مسوغ له ، فضلا عن ضرورة توحيد المعنى العام ، والمغزى ، لأن القصة الثانية هي بمثابة جواب عن السؤال المطروح في القصة الأولى ، وقد وفقت بعض المحاولات ، كما أخفقت محاولات أخرى . من التجارب المفككة التي افترقت الرابط العضوي بين القصتين قصة عمر بن أبي ربيعة والجندي والفتاة الفارسية المتخفية في ملابس الرجال ( ٤٠٢/٤ ) وقصة زينب بنت سليمان الهاشمي ، مع شاب علق إحدى جواربها ، وجاء يستوهبها فوصفته بالحمق وراحت تنقص عليه قصة أخرى ، بطلتها مزنة امرأة مروان بن محمد ، وقد ذهبت أيام زعها ، وجاءت تستجدي الخيزران فأهانتها ثم تراجعت فأكرمتها . القصة الأولى مجرد مدخل ، ولا رابط بين القصتين إلا كرم زينب وحكمة تصرفها ( ٧٥/٤ ) .

يمكن أن نجد نموذجاً مقبولاً في قصة محمد بن زيد العلوي ، صاحب طبرستان ، وكان من عادته أن يفرق ما يبقى في بيت المال ، آخر كل عام ، بحيث يأتي خراج السنة الجديدة وليس في بيت المال شيء . وكان يوزع على قبائل قريش ، والأنصار ، والفقهاء ، ثم عامة الناس . وحدث أنه كان يفرق المال ، فلما انتهى من بني هاشم ، دعا بسائر بني عبد مناف فقام شباب وانتسب ، فإذا به من أحفاد يزيد بن معاوية وقد قتل الحسين رضي الله عنه في خلافته . ففطن إليه العلويون نظراً شديداً ، فصاح بهم محمد وقال : كفوا عافاكم الله ، كأنتكم تظنون أن في قتل هذا دركاً أو ثأراً بالحسين . . . والله ، لا يعرض له أحد إلا أقذته به ، واسمعوا حديثاً أحدثكم به ، يكون قدوة لكم فيما تستأنفون من أموركم .

وهكذا تبدأ القصة الثانية ، وتستمر في اطار الأولى ، ولتأكيد الغاية منها ، وقد جرت في زمان آخر ، لشخصيات أخرى ، لكنها لم تنفصل عن الجو الذي رسمته القصة الأولى : فقد كان المنصور في مكة ، وعرف أن محمد بن هشام بن عبد الملك فيها ، فدعا إلى صلاة جامعة في الحرم ، ليتمكن الحراس من اكتشافه والقبض عليه ، وعرف الفتي الأموي أنه مقتول لا محالة ، ولم ينقله بتضليل الحراس إلا محمد بن زيد بن علي بن الحسين ، رضي الله عنه ، إذ طرح رداءه على رأسه ووجهه ، وأخذ يهره على أنه جمال من الكوفة خدعه فيها حمل له ، حتى أخرجه من بين الحرس ، ولم يقبل منه هدية عرفان وقال : « يا ابن عم ، أنا أهل بيت ، لا نقبل على المعروف مكافأة » ( ٣٣٤/٢ ) فهذا هو الوجه الآخر للقصة الأولى : ولا نزل عقوبة بغير مستحقها ، وهو مغزي مستفاد من القصتين كل على حدة .

إن ضعف الرابطة هو الغالب على هذا النوع من القصص ، ونعني الذي يقوم على الاستطراد من قصة إلى أخرى . وقد يعاب هذا من منظور عصري ، ولكنه كان طريقة عربية راسخة ، يمكن أن نزع أن هذا الكتاب - وما يشبهه - كان بداية لها توسعت في الحكايات الشعبية ، التي بلغت قممتها في « ألف ليلة وليلة » وهذه الطريقة تقوم على التوازي بين الاستغلال والادماج ، فالقصتان يمكن أن تقرأ كل منهما على أنها مستقلة ، وتؤدي وظيفتها الخلقية أو التعليمية ، أو الترفيهية بنوع من الاكتفاء ، ولكنها لا تنب تماماً عن القصة التي استدرجنا إليها ، فالربط بين القصتين ، واكتشاف تكاملهما ، وليس اندماجهما تماماً ، أمر ممكن ، وهذه الطريقة وجدت أقصى امتداد لها في « ألف ليلة » التي يمكن اعتبارها حكاية واحدة متمدة ، واعتبارها حكايات متعددة .

أما القصص المتجاورة فهو مصطلح وضعناه لندل به على القصة الواحدة حين تروى من طرق متعددة ، وهذا يحدث كثيراً في كتاب « الفرج بعد الشدة » وقد يحدث أحياناً ليست قليلة أن تكون الرواية الثانية أكثر توسعاً في وصف الأحداث من الرواية الأولى ، وتكون الثالثة أكثر توسعاً من الثانية ، وكان مؤلف الكتاب قد أراد شيئاً من وضع الروايات الثلاث على هذا الترتيب ، فمن المسلم أن القصة وصلته بأكثر من رواية ، وكان يمكن أن يصفها بأي ترتيب أو بلا ترتيب ، ولكن يلاحظ أن خطأ ينمو ، وأن التفاصيل تزيد وأن الغموض يتنجس ، مع التقدم إلى الرواية الثانية ، فالثالثة ، وكان القاضي التنوخي يضع الروايات المختلفة في علاقة جدلية ، نرى من خلالها « الحادثة » وهي تتكون ، بمشاركة الرواة وصناعتهم ، أو بالكشف عما كان خافياً من أسرارها ، أو بتحديد وجهات النظر المختلفة حول حقيقة موضوعية

واحدة ، على النحو الذي نجده في بعض المحاولات القصصية المعاصرة ومن أشهرها «ميرامار» لتجيب محفوظ ، وقد رويت حوادثها من خلال أبطالها جميعا ، يرونها كل شخص كما تراعت له ، من خلال مشاركته ، وفي حدود اطلاعه وتفسيره .

نشير الى محاولة ناضجة في هذا المجال ، تحري القصة بين كاتب ووزير ، الكاتب هو سليمان بن وهب ، والوزير هو محمد بن عبد الملك الزيات ، وتستمر ليكتمل معناها بين ولديها عبيد الله بن سليمان ، الذي صار وزيرا ، وعمر بن محمد الذي صار من اتباع عبيد الله . تبدأ القصة من نهايتها أو قرب نهايتها ، وقد أقبل عمر يطلب أن يعينه عبيد الله بمنحه وظيفة أو معونة ، فيفعل ، ويصرفه ثم يبدأ في قص ما كان من صراع بين والديها : سليمان ، ومحمد بن عبد الملك ، وقد صور هذا الصراع في ثلاث روايات متعاقبة .

حددت الرواية الأولى زمن الصراع ، في أيام الولاة ، وسببه بطريقة اجمالية ، فقد كان سليمان مغضوبا عليه ، فحمل الى ابن الزيات ليحاسبه ، ويشرف على حبه ، ولم يترقب ابن الزيات بسليمان على الرغم من أنه كان يستخدم إخاه الحسن بن وهب كاتبه له ، وفي لحظة المواجهة يأتي أحد الخدم حاملا الطفل عمر ومظاهر الترف بادية عليه ، فلما رآه سليمان بكى ، فأبى ابن الزيات إلا أن يعرف سبب بكائه ، ولكن سليمان لزم الصمت ، فلما ألح الوزير مصمما على معرفة سر البكاء ، تدخل أخو سليمان ، الحسن ، وراح يرقق قلب الوزير قائلا : ان سليمان له ولد في مثل سن عمر ، وقد تذكره حين رأيته ولذك ، فبكى . وهنا سخر الوزير من أن يكون لسليمان ابن مثل ابنه ، أو أن يتطلع الى أن يكون ابنه وزيرا . لقد تألم سليمان بشدة من قسوة ابن الزيات ، وثقته المتطرفة التي تصادر القدر ، وتغفل عن ارادة الله . وهنا صرخ سليمان الى الله أن يصير ابنه عبيد الله وزيرا وأن يتقدم اليه عمر متظليا . وقد كان . وقد أكرمهم عبيد الله وفاء للذكرين ، وأمنيته التي تحققت .

تبدأ الرواية الثانية من حيث بدأت الأولى أيضا ، أي من النهاية ، فعمر يتقدم الى عبيد الله وهو وزير ، يطلب عونه ، فأكرمه ، وصرفه ، ثم راح يقص ما كان بين والديها من صراع . في هذه الرواية يصف سليمان أيام المواجهة بأنه كان « منكوبا » وأنه كان « في يد محمد بن عبد الملك الزيات » وأنه كان يحضره كل يوم ، « بغير سبب » ولا مطالبة ، « الا لكيدي » ، « أنا في قيودي » ، وعلى جبة صوف « لا بد أن يلفتنا هذا التأكيد لغطرسة ابن الزيات ، وغرامه بالثشفى ، وإذلال سليمان ، حتى أن الوزير كان يجعل الحسن بن وهب ، يحضر هذا الموقف الضنك الذي يلاقي فيه أخوه الهوان . وحدث في إحدى المواجهات أن حمل الطفل عمر الى مجلس أبيه ، وأخذ الجلوس يدهون له ، ويشون لتقبليه ، فيما عدا سليمان ، الذي كان في شغل بما يتزل به من عذاب ، وأراد ابن الزيات أن يزيد في عذابه النفسي ، فسأله لماذا لا يدعولولده ويقبله مثل سائر الجالسين ، فلما اعتذر بما يعاني ، قال ابن الزيات : « لا ، ولكنك لم تطق ذلك ، عداوة لأبيه وله ، وكأني بك ، وقد ذكرت عبيد الله ، وأملت فيه الآمال ، والله ، لا رأيت شيئا مما تؤمله فيه ، وكان هذا البغي المسرف كان بمثابة بشرى أن يخلف ظن الظالم . وبالفعل لم تمض مدة ، حتى غضب المتوكل على وزيره ابن الزيات ، وأسند محاسبته الى سليمان ، فدخل دار خصمه ليحصى متاعه ، وهنا رأى الطفل عمر في حال



أخرى وقد دالت دولة أبيه ، كان يبكي لأن أشياءه الخاصة قد صودرت أيضا ، فرق له سليمان ، وأعاد إليه ما يملك ، وأوصى ابنه به إذا ما أوقفه القدر بين يديه .

لقد أضافت الرواية الثانية هذه تفصيلا في وصف المشاعر ، ووسائل التعذيب النفسي كما أضافت مشهدا بكى فيه الطفل المدلل ، حين اختلف الحال ، كما أشارت بإجمال إلى أن عبيد الله قد استخدم عمر في بعض أعماله الخاصة .

ثم تأتي الرواية الثالثة والأخيرة ، فتبدأ من النهاية أيضا ، ولكنها لا تكتفي بأن تقول أن عمر أقبل منتظلا يطلب العون من عبيد الله ، وإنما تذكره وتصفه وصفا قاسيا ، ويقول الراوي : « كنا بحضرة عبيد الله بن سليمان ، أول وزارته للمعتضد ، وقد حضر رجل رث الهيئة بشباب غلاظ ، فعرض عليه رقعة ، وكان جالسا للمظالم ، فقرأها قراءة متأمل لها ، مفكرا ، متعجبا ، ثم قال : نعم وكرامة ثلاث مرات - أفعل ما قال أبي ، لا ما قال أبوك ، وكرر هذا القول ثلاث مرات » هذه البداية هي التي تناسب الصياغة القصصية . لاحظ حالة التضاد بين موقفين : وزير في أبهة السلطة يجلس للمظالم ، ويوصف مجلسه بأنه « حضرة » ، وإنسان نكرة ، لم تعرف هويته أو طويته ، يتقدم شاكيا يلتمس الانصاف ، وحاله من البؤس والخشونة يكمن ، وهنا لا يكتفي الوزير بإصدار أوامره بانصافه ، بل يعلق على الظلامة ، ويظهر أن له موقفا من هذا المظالم ، وهو موقف له جذور ضارية في الزمن ترجع إلى عصر أب كل منها . . . وهذا الغموض يثير التشويق ويحرك ويعمل القارئ يتلهف إلى اكتشاف الصفحة المطلوبة من الصراع بين الأبوين ، وعلاقة هذا الصراع بالموقف الحالي ، وقد تبادل الولدان موقعيهما .

وتضيف هذه الرواية الثالثة تفصيلا تحتاجه القصة أحيانا ، ولا نشعر بأهميته أحيانا أخرى لكنه يبقى في مصالح أضعاف جو الواقعية ، وتوثيق القصة وكأنها تاريخ ، فنعرف أن سليمان كان كاتبًا لايتاخ - القائد التركي - وأنه صوّد على أربعمائة ألف دينار ، وأنه استطاع أن يؤدي أكثر من نصفها وعجز عن الباقي ، فحبس ، وأُمرين بفعل ابن الزيات . ثم تأتي لحظة المواجهة ، ويضطر ابن الزيات أن يغادر المجلس قليلا ، وهنا ينهي الحسن ابن وهب ، إلى أخيه همسا ، أنه ولد له غلام ، ويطلب منه أن يسميه ويكنيه ، فترفع معنويات هذا الأب السجين المرتين مجال لا يستطيع أداءه ، وحين يعود ابن الزيات ، ويلاحظ وجه سليمان وقد ذهب عنه شعور الدل ، وارتفعت قدرته الروحية لهذا الغلام الذي بشر به ، يلح عليه أن يعرف سر هذا التبدل ، فيصمت سليمان ويتكلم أخوه الحسن ، فيعلن ابن الزيات أنه حين قام من المجلس تلقى بشرى مولد غلام له أيضا . وهنا يقوم سليمان ويقبل يدي ابن الزيات ورجليه ويتوسل بالغلام الوليد ، الذي رأى النور مع ابنه في نفس اليوم ، راجيا أن يرجه الوزير ، معلنا عن أمه أن يكون ابنه كاتبًا عند ابن الوزير في المستقبل . ولكن ابن الزيات الذي جبلت نفسه على الشك والقسوة ، يجمع أن هذه ليست أمنية حقيقية يضمهرها سليمان للطفلين اللذين ولدا في يوم واحد ، وأنه - في رأي ابن الزيات - يضمهر العكس ، أن يكون ابنه وزيرا ، وأن يقبل عليه الآخر منتظلا ، ثم يبلغ به أقصى درجات العمى والاطمئنان إلى الزمن ، فيقول : انني استحلكت بالله ، إذا صار ابنك وزيرا ، وجاءه ابني يطلب إحسانه ، أن توصي ابنك ألا يحسن إليه .

ولكن سليمان أوصى ابنه أن يحسن إليه ، وقد عمل الولد بروحية أبيه حين صار وزيرا ، وهذا سر عبارته : نعم

وكرامة ، أفعل ما قال أبي ، لا ما قال أبوك . وتضيف هذه الرواية الثالثة أن عبيد الله استخدم عمر كاتباً عنده ، وقلده ديوان البريد والخرايط ، وأن عمر كان إذا كتب لعبيد الله يصدر رسالته بعبارة : عبد الوزير وخادمه ، وأن عبيد الله أراد أن يتكرم عليه ، فمنعه ، من كتابة ذلك ، وعدل الصيغة إلى : خادم الوزير ( ٩٢ / ٢ ) .

هذه القصة في رواياتها الثلاث نموذج للنوع الثالث من أنواع الحكبة ، نجد لها أشباهاً ، مع التفاوت في درجة التماسك ، أو تدرج الأسلوب نحو التفصيل وتصعيد الحوادث وتنمية الخط الاساسي ( انظر مثلاً : ٧٢/٢ - ٢٢٣/٢ - ٢٨٢/٢ ) .

وفي نهاية الحديث عن أنواع الحكبة ، نذكر بأن طريقة التقديم ظلت واحدة في مظهرها الخارجي فما دامت القصص جميعاً تبدأ بسلسلة من الرواة ، في أولها من رأي موضوع القصة أو شارك فيه ، أو سمع به ، فإن القصص ستظل بهذه البداية ، ومع هذا فإنه لم يكن من الضروري أن يكون الراوية هو نفسه البطل ، انه مجرد مشارك ، أو مشاهد ، أو ناقل أحياناً ، ولهذا استعمل ضمير المتكلم ، كما استعمل ضمير الغائب ، بل قامت بعض القصص على ما يمكن أن يكون مشهداً حوارياً ، لا يقوم فيه الوصف أو السرد بدور ذي بال .

وما دامت هذه القصص جميعاً - الفنية منها والشعبية - قد انتخبت على أساس فني ، أجمله الكاتب في عنوان كتابه : شدة يعقبها فرج ، ويجعلها النقد منذ العصر الكلاسيكي في أزمة يعقبها حل ، فإن « التحول » يقوم بدور أساسي في كل هذه القصص ، لأن التحول يعني اختلاف مصير البطل ، إلى الضد تماماً ، فيصير سعيداً بعد شقاء أو شقياً بعد سعادة . . وهذا النوع الأخير تحدث عنه أرسطو بالنسبة للبطل التراجيدي ، وربط به نظريته في الفن الشعري من حيث الغاية والمهدف ، وهو « التطهير » ، ولكن كاتبنا العربي اختار قصصه على أساس الانتقال من الشقاء إلى السعادة ، لأنه لم يفكر بالطريقة التي فكر بها أرسطو ، وهي ممارسة الاحساس بالألم ، باستثارة مشاعر الخوف والرحمة ، بغية التخلص من القدر الزائد المفسد للنفس من هاتين العاطفتين أو تطهير هاتين العاطفتين مما علق بها من خبث ، « فإن هذا لايزال من شأنه جدل » (٣٩) وإنما فكر القاضى التنوخي من زاوية أخرى هي أقرب إلى الطبيعة الشرقية ، والاسلامية ، وهي زاوية الايمان القدري ، وعدالة الساء ، وفي هذا يختلف أبطاله عن طبائع البطل التراجيدي - بلعنى الكلاسيكي لأنهم لم يشعروا بالتعارض مع ارادة الله ، ولم يسعوا إلى مقاومتها ، وإنما كانوا يعكس ذلك ، يقومون بأدوارهم الانسانية ، ويسعون في الدنيا بقوانين هذه الدنيا وأعرافها ، التي قد يكون فيها أحياناً ما يضاد الخير والعدل والبراءة ، ومع هذا فإن هؤلاء الأبطال يحتفظون بهذا الايمان القدري في مكان خفي لا يؤثر في تصرفاتهم اليومية ، أولاً يكاد يؤثر ، لكنهم يستخرجونه بحركة بارعة ، ويحسون به اذا ما نزلت بهم حنة ، ولأن الايمان القدري يعمر نفوس العامة ، كما يستقر في نفوس الخاصة أبان تعرضهم للمصائب ، بعكس التمرد على القدر ، الذي لا يجاهر به الا الأقوياء ، فإن أبطال قصص القاضى التنوخي انتموا إلى جميع الطبقات الاجتماعية ، وليسوا من علية القوم دائماً ، وأن غلب على بعضهم ذلك ، وبهذا تحقق الشرط التراجيدي في مجابهة المحن ، وتحلف الشرط الآخر . وهوان تكون الشخصية بطولية مرموقة ، نبوى من مقامها العالي .

لقد تحدث ارسطو أيضا عن « التعرف » وهو يعني اكتشاف السر المجهول الذي يتم به الفعل الدرامي ، ويتحول على أثره مصير البطل ، ولهذا اشاد بالاعمال الفنية التي اقترن فيها التحول بالتعرف ، أو يمكن أن نعدّل هذه العبارة إلى أن المعرفة هي التي أدت إلى تغيير المسائر .

حين نقوم بمراجعة قصص التنوخي في ضوء هذه القاعدة ( ولستأ نجد حرجا في ذلك فالقصة التراثية أقرب ما تكون إلى القصة القصيرة المعاصرة ، التي أخذت من المسرحية الكلاسيكية وحدة الحدث ، وربما الوحدات الثلاث ، فضلا عن التركيز ، ولحظة التنوير التي تعتبر بديلا للتعرف والتحول ) سنجد التحول جزءا من بناء القصة - للأسباب التي قدمنا - ولكنه أحيانا ، بل ربما غالبا لا يفتقر بتعرف ، أولا يوجد في القصة تعرف بالمرّة ، ولعل هذا أن يكون تأكيدا لعمق الايمان القدري ، وقدّمنا عبر شاعر شعبي عن هذا المعنى الذي لا يجد أهمية للأسباب ، ما دامت الثمرة قد تحققت :

#### ملك الملوك اذا وهب لا تسألن عن السبب

ولاشك أن القفز إلى النتيجة ، وتجهيل الأسباب أو تجاهلها ، يقلل من منطقية العمل الفني ، ومن ثم مشابهته لواقع الحياة ، ودرجة اقناعه ، هناك قصص جيدة ، اقترن فيها التحول ، بالتعرف ، فوصلت إلى ختامها بتدرج مريح ، مثل قصة صاحب الشرطة اسحاق المصمعي ( ٤ / ٥ ) وقد عزم على قتل بناته ، فأخذن في البكاء دون أن يملكن مراجعته ، وتعرف السبب حين يبحث إلى أحد أصدقائه - هو أقرب إلى التابع - ليفضّله لبرغته في قتل نسائه ، وسبب هذه الرغبة ، أما السبب فقد كان ما تلا في التقارير الأمنية التي رفعت إليه في هذا اليوم . لقد دامت شرطة بغداد بعض البيوت المشبوهة ، ذات السمعة السيئة ، فوجدت بداخلها ، نساء كن بنات وزوجات لكبراء في الدولة ، مضى زماهن ، ومن هنا فكر قائد الشرطة في أن مستقبل بناته وزوجته لن يكون خيرا من أولئك ، وبعد حين يزول سلطانه ، ويموت ، لتضيق بناته في بيوت مشبوهة ، لقد أصبح مقتنعا أن هذا الاحتمال واقع في المستقبل لا محالة ، فانه - المصمعي - ليس خيرا ولا أهم من آباء وأزواج أولئك النسوة لقد وصل الفرج عن طريق هذا الصديق الذي استدعى لمجرد الاقضاء بالخيرن إليه ، ومن حقنا أن نفسر هذا الاستدعاء ذاته بأن المصمعي لم يكن مقتنعا بأن ذبح نساء أسرته هو الحل الأمثل لصيانتهم من مرة ستحدث في مستقبل مغيب ، ولهذا أراد أن بنفس عن كربه بالاقضاء إلى صديق مأمون أولا ، وأن يفكر معه بصوت عال ثانيا ، عله يجد تفسيراً آخر لانحراف نسوة كبراء العصر السابق بعيد عن أسرته شبح الموت . وبالفعل ، يعمل هذا الصديق ما حدث من انحراف بأن آباء هاته الفتيات المنحرفات لم يحفظوهن بالأزواج ، كانوا يتكبرون على الناس إبان سطوتهم ، فتركوا بناتهم دون زواج ، والرجل هو الذي يحفظ المرأة ، ومن ثم فإن الخطوة المطلوبة ليست أن يذبح قائد الشرطة بناته ، بل أن يزوجهن . وقد كان .

هناك أشباه لهذه القصة المحبوكّة ، التي لا نتحفظ في ابتداء الاعجاب بها ، هدفا وصياغة ، ولكن حين يتخلل التعرف ، وبخاصة في القصص الوعظية التي يأتي الفرج فيها ، أو التحول عقب دعاء أو دون أسباب معروفة ، فإن جزءا من أسباب الاعجاب يظل يعاني من ثغرة ، وفي قصة سابقة قامت على تحول في مصائر الأبوين ، أنتج تحولا في

مصائب ومواقف الولدين : عبيد الله وعمر لم نعرف الى الآن ، لماذا خرج سليمان بن وهب من سجن الوراق ، وكيف صار ابنه وزيراً في عصر المعتضد ، ولماذا سيق ابن الزيات الى السجن وأسندت محاسبته - أو مناظرته حسب التعبير القديم - الى سليمان بالذات ؟ وكيف طاح حظ ولده بعد نكبته ، مع انتشار النكبات واسترداد المواقع مرة أخرى بل مرات ، في تلك العصور ، ان تلك التعليقات كلها لا بد أن تكون موجودة في الموسوعات التاريخية ، أو في قصص وأخبار أخرى ، لكن هذه القصة ، كبناء في قائم بذاته نفتقد هذا المبرر الضروري . ولقد الهاها عن رعايته ، رغبتها في اقرار الغلظة ، وهي أن الله غالب على أمره ، وقد شق هذا الهدف طريقه بسرعة خاطفة ، مستبعداً أية تفصيلات ، ولم ير داوي القصة أنها ضرورية لاقرار هذه الغاية القدريّة .

وإذا كنا نلاحظ أن قصص « الفرج بعد الشدة » تميل الى وحدة الحدث دائماً ، ولم تخرج عن ذلك الا في حالات نادرة ( انظر مثلاً قصة البرامكة مع ابن أبي خالد ، وقد استمرت زمناً وأحدنا من عهد الهادي الى عهد المأمون (٢٤٣/٣) ) فانها لم تهمل عناصر التشويق ، التي تحرض القارئ على طلب المزيد ، لمعرفة الى أية غاية انتهت الأمور ، يعتبر بدء القصة من نهايتها عاملاً من عوامل التشويق وهو أرقى فناً من صياغتها وفق النتائج الزمني ، وكذلك خلق أزمات أو صدمات سببها خطأ التوقع ، أو سوء التصرف ، وقد حدث أكثر من مرة أن يواجه شخص مشهور - كان له نفوذ وثروة - الإفلاس والتعطل ، وقد يصل الى بيع منديله ليحصل على علف للدابة ، فيغالب كبرياه ويذهب مستنجداً بصاحب ثروة وجاه ومنصب ، ويسقط حاله المتردية بين يديه ، ولكن الآخر لا يعقب بكلمة واحدة ، مما يدفع بالمستجند الى الندم والأسأ ، فانه لم يفعل أكثر من أن كشف ستره ، وأشمت خصمه ، وتضاغر أمام من لا يقدر همه ، ويعود الى بيته حزينا أسفاً ، وقد تلومه امرأته على ما فعل وتذكره بأنها توقعت هذه النهاية ، وأن الصبر كان بهم أجدر ، ويحتمل الرجل اللوم الذي يستحقه ، ولكن لا يمضي طويل وقت حتى يجد ثروة هائلة تطرق بابَه ، في صورة مال نقدي ، أو جمال عملة بكل شيء ، يقودها عبيد هم جزء من المعونة أيضاً ، ومع هذا كله كلمات اعتذار عن الصمت وتفسير له فقد كان الوضع لا يعالج بالكلام . ولا بد من العمل ( انظر مثلاً القصص في : ٢٤٣/٣ - ١٤/٤ - ٢٣/٤ ) .

وإذا كان اخلاف التوقع ، يلجؤ الانسان الى طلب المعونة من خصمه ، ثم نكول هذا الخصم عن المساعدة ، ثم اخلاف التوقع مرة أخرى بأن تكون المعونة سخية جداً ، يمثل عامل تشويق فإن المصادفة تمثل عنصراً آخر من عناصر التشويق ، وإذا كان الفن القصصي الحديث ينفر من المصادفة فانه يلغيها وإن كان لا يمنحها الأهمية القصوى في تنمية الحبكة أو بلوغ الحل ، ويمكن أن نقول ان المصادفة من العناصر الأساسية في الحكايات الشعبية ، ووجودها فيها لدينا من قصص هو بمثابة تسلسل للملامح الحكائية الشعبية في القصة الفنية ، ولا تتردد في أن نقرر ان الطابع العام للكتاب شعبي ، وإن لم يتم في جلته الى الحكايات الشعبية ، هناك مصادفات اختيرت بذكاء . وقام عليها البناء الفني بأكمله ، ولم نشعر بأنها مصنوعة أو زائفة ، مثل هذه القصة ( ٣٦٢/١ ) المحبوبة المثيرة ، ذات الألوان والاثارات . لقد كان لجعفر البرمكي فتوة وظرف وأدب ، وكان يحسن الغناء ويضرب بالطليل ، وهو يمارس حرثته في خفية ، في يوم يغلق فيه بيته ، فلا يجالسه الا خاصة أصحابه ، في هذا اليوم بدأ برنائه فلبس الحرير وتمطر وشرب وأكل ، وشاركه جميع أصحابه في كل ما فعل وكان قد أمر حاجبه وخدمه بالآذان لأحد بالدخول ، حتى وإن كان رسول أمير المؤمنين فاعلمه أني

مشغول . غير أنه ترك الاذن مفتوحا لواحد من ندمائه تصادف أن تأخر ، وكان اسمه عبد الملك وبينما كان جعفر وندماؤه في لعبهم وصخبهم ، اذ رفع الستر ، فاذا عبد الملك بن صالح الهاشمي قد أقبل ، وغلط الحاجب . . . . . وكان عبد الملك هذا من جلاله والقدر والتكشف ، على حالة معروفة حتى أنه كان يمنع من منادمة الخليفة ، على اجتهاده من الخليفة أن يشرب معه قدحا واحدا ، فلم يفعل ، ترفعا .

#### كيف تطور المشهد المثير ؟

لقد تجمد القوم وسكنوا كأنما أصيبوا جميعا بسكتة قلبية مفاجئة ، ولم يدر جعفر ماذا يفعل ، وقد انكشف هذا القدر المهيمن من حياته الخاصة ، أمام رجل متزمت متحرج ، وهو من أقارب الخليفة أيضا وطال الصمت ، ولكن الحركة جاءت من حيث لا تتوقع ، لقد تقدم عبد الملك الهاشمي ، ونزع قلنسوته وجلس بين القوم ، وتصرف كصديق قاتلا : أطعمونا شيئا ، وأمر جعفر بالطعام ولا يدري كيف تكون الخطوة التالية ، ولكن الرجل لم يتحرك حتى شارك في كل ما يفعل جعفر وندماؤه ، شرب رطلا ولبس ثوبا حريريا معدا لهذه المجالس ، وتعطر ثم دعا برطل ورطل ( من النبيذ بالطبع ) حتى شرب ثلاثة أرطال ، ثم اندفع يغنيئا ، فكان - والله - أحسننا غناء .

لقد انبهر جعفر بحجم المجاملة التي لقيها من عبد الملك ، وجدير به أن ينهر ، وكان رد الفعل عنده عجيبا ، فقد صمم على أن يعرف سبب قدوم الرجل الى بيته ، وحاول عبد الملك أن يتجنب ذلك ، ليبقى اللقاء خالصا لوجه المتعة والطرب ، ولكن جعفر ألح ، حتى ذكر الرجل أنه مدين ببالغ هائلة ، وأنه يرغب في أن يرضى عنه أمير المؤمنين ، وأن يعلى من شأن ابنه وجعفر لا يعد بمخاطبة الرشيد فيما يشكو منه عبد الملك ، بل يقرر أن الدين قد قضى ، وأن أمير المؤمنين قد رضي عنه ، وأنه - أي الخليفة - قد ولي ابنه مصر ، وزوجه ابنته الغالية ، ومهرها عنه ألف درهم ، لقد ظن سائر الندماء أن جعفر قد سكر ، وأنه يهذي ، ولا شك أن هذه الوعود المبدولة في صورة قرارات أمضيت ، يثير الخوف على جعفر ، الذي ضمن الرضا ، وسداد الدين ، وتولية حاكم جديد ، ثم زوج ابنة الخليفة وحده مهرها .

لقد واجه جعفر شدة ، جاء فرجها حين شارك عبد الملك في اللهو وطلب الشراب ، وكان عبد الملك في شدة ، صورتها مطالبة من الخليفة ، فجاء فرجها في وعود جعفر ، ولكن : كيف الخروج من هذه الشدة ، وحلها بيد الرشيد دون غيره ؟

لقد تولى أحد الندماء رواية الجزء الماضي من القصة ، أما الفرج الأخير فيتولى روايته جعفر بنفسه ، وهذه المغامرة ، وأن تكن من وسائل التشويق ، والتفنن في تشكيل طريقة التقديم ، فإما ضرورية ، لأن حل المشكلة لن يكون الا في لقاء بين جعفر والرشيد ، على انفراد . وهذا ما حدث . فقد بكر جعفر الى قصر الخليفة فحكي له ما حدث لم ينتصه حرقا ، وقد أعجب الرشيد بسلوك عبد الملك حين تخلى عن تزمته ، ورأى أن يزيل الحرج والوحشة عن القوم ولا يفسد عليهم خلوتهم ، فرضى عنه ، ثم قضى دينه ، ثم زوج ابنه ، وولاه ، على نحو ما قرر جعفر .

مع أهمية المصادفة في القصة السابقة ، لأن كل ما جاء بعدها مترتب عليها ، فاننا لم نشعر بأنها ملفقة ، ولا أن المشهد مفتعل ، ولا أن الخاتمة مصنوعة ، انها قصة سلوكية عيوكية ، ومعبرة عن قوة اقتناع الرأي العام بحميمية العلاقة بين جعفر والرشيد ، وحجم دالته عليه .

أما النوع الآخر من المصادفات ، كأن يسقط طفل رضيع من أعلى الجبل الى الماء ، فينقض عقاب ويلتقطه من مجرى النهر قبل الغرق ويطير به ، ثم يهبط ، ويتمكن الناس من انقاذ الطفل ، وأن يخطف أسد رجلاً ، ثم يجعله في فمه كما تحمل النسور أولادها في فمها ، ليأكله في عرينه ، ثم يموت الأسد في صراع لينجو الرجل ، ويجد بقايا هياكل ورسم في العرين ، يجد بينها حافظة نقود أبيه ، الذي كان الأسد قد افترسه في عام سابق ، وأن يحكم على بعض المذنبين بالموت ، ويقدمون للسيف واحدا وراء الآخر ، ثم يطلب أحدهم أن يأكل رأس خروف قبل قتله فيجانب طلبه ، وفي حين هو يأكل ، يحدث شغب عام واضطراب في المدينة ، ويفر الجنود الذين كانوا ينفذون أحكام القتل ، وينجو الفتى بسبب طلبه الغريب وحرصه على تناول الطعام . . . . الخ ، فهذا كله ينتمي الى الحكايات الشعبية التي تجعل الاغراب والاثارة ، والحرص على تصوير المفارقات وما ينتج عنها من عجائب ، هدفا في ذاته أحيانا ، ووسيلة الى تأكيد مبدأ « سيطرة القدر » في أحيان أخرى .

وأخيرا فانه لا بد أن تستوقفنا لغة هذه القصص ، مادنا بصدد الحديث عن البناء الفني ، فالقصة ، مثل أي عمل أدبي آخر ، هي في النهاية تركيب لغوي ، وقد كانت قضية اللغة من العوامل التي دفعت الدارسين والرواة قديما عن العناية بما أثر عن أجدادنا من قصص ، فقد لاحظوا - بشكل عام - أن لغة بعض القصص لا تصور العصر - في واقعه اللغوي كما ينعكس في لغة الشعر المعاصر لتلك القصص ، فالقصص المنسوبة الى العصر الجاهلي ، لا نجد فيها لغة العصر الجاهلي التي نجدناها في شعر شعرائه من امرئ القيس الى الأعشى ، أعني : من أقدم شعرائه الكبار الى آخر الجاهليين من لامس الاسلام ، ويمكن أن يقال الشيء نفسه عن القصص العدرية التي حملت النينا من العصر الأموي ، وقد استنتج هؤلاء أن هذه القصص رويت بالمعنى الاجمالي ، وأن صياغتها اللغوية من صنع راويها وليست من صنع الأشخاص الذين تزعم أنها تصور جانباً من حياتهم وتفكيرهم ، ولغتهم .

ان ملاحظة وجود فروق - وليس فرقا واحدا - بين لغة القصص ولغة الشعر المعاصر لتلك القصص ملاحظة صحيحة ، ولكن الحكم بوضع القصص انتحالا من الأساس ، أو أنها رويت بالمعنى ، فيه تعجل ومغالطة . لن نستند الى سلاسل الرواة ، ومقارنة أكثر من رواية للخبر أو القصة الواحدة ، وما يدل عليه من دقة وحرص على التوثيق ، فهذا قد ناقشناه من قبل ، ونحن نرى - على أية حال - أن تسجيل أساء الرواة جيلا بعد جيل لا يعتبر دليلا قاطعا بنفي التحريف أو التزييد أو الاختلاق ، وقد لاحظ القدماء ذلك وقرروا : اننا سنحيل على واقع نعيشه ، وقد قرأنا قصص المنفلوطي أوائل هذا القرن ، وأشعار شوقي وحافظ ومطران ، فهل نجد تشابها بين لغة الفريقين ، برغم أنها يعيشان في بلد واحد ، وثقافتها متقاربة ، ويخاطبان نفس الجمهور ويلتقيان ويفرأ كل منهما ما كتب الآخر ؟ أو هل تشابه لغة أي شاعر من ذكرنا مع لغة محمود تيمور أو العقاد - في كتاباته الشعرية ؟ وهل نجد أي تشابه بين أشعار صلاح عبد الصبور وروايات نجيب محفوظ ، مع أن الشاعر والروائي تخرج كلاهما في كلية الآداب ، ولم نجدهم أوائل الخمسينيات ، وتطلع الى التجديد ؟ ان الفرق هنا ، كما يرجع بين شخص وآخر ، لأسباب من الوراثة والقوة الفنية ، والعقيدة الفكرية والدينية . . . . الخ ، يرجع الى فرق أساسي هو اختلاف لغة الشعر عن لغة القصة ، وليس لغة النثر بشكل عام ، وهذا الفرق موجود في كل العصور ، في كل الآداب ، لأن لغة الشعر لغة استثنائية ، تقوم على التكتيف والتركيب والاضمار والتخييل ، وتلجأ من أجل هذا الى الاستعارة وغيرها من وسائل التصوير المجازي وغير المجازي وتوظف

الاقياح وتقدم وتؤخر في نظام الجملة بحيث يتشكل المعنى في صورة عموسة قادرة على النفاذ إلى مكامن الشعور في النفس الانسانية ، وليست هذه وسائل الكاتب القصصي لأنه لا يتوجه الى هذه الغاية . انه يحاول الاقتراب من الواقع ، يحاكيه ، ويصور جوانبه ، ويلجأ الى التبسيط في جوانب ، والتركيب في أخرى ، ويهدف الى محاورة الخبرة الحياتية للقارئ ، ومن ثم يظل في حالة من الحضور الذهني ، عينه على القصة ، وعينه الثانية على الواقع ، وليس هكذا الشاعر في لحظة ابداعه .

وهناك مغالطة أخرى قائمة على تصور مبالغ فيه ، هو أن القدماء كانوا يتكلمون لغة الشعر أو في حدود معجمها ، فهذا غير ممكن ، لأن لغة الشعر لا تصلح أن تكون لغة حديث يومي ، ولأن معجمها يظل خاصا بالمستوى الشعري رؤية وفكرا وعاطفة ، وان الاعتزاز العربي بالشعر ، والقول بقاء العرق ، واسباغ المواهب الفطرية على هذا النقاء وجعلها صادرة عنه بالطبيعة ، هو الذي سول للقدماء من الباحثين في اللغة أن يزعموا أن العربي لا يلحن ، وأنه يتكلم بالتركيب الفصيحة وحدها ، ولا يترخص فيها ، وهذا منافر لطبيعة المجتمعات ، وطبيعة اللغات معا ، فهذه مبادئ مقررّة ، حتى وان اختلفت درجة الافتراق أو ألوان الترخص ، تبعاً لطبيعة المجتمع في موقعه ونشاطه العملي ، ونظام طبقته ، ودرجة ثقافته .

ان لغة السرد في « الفرج بعد الشدة » تتفاوت أحيانا ، لكن الفرق الحاسم بين لغة قصة ولغة قصة أخرى يبدو اذا ما وزعنا القصص على أساس تاريخي ، سنجد أخبارا جاهلية وقصصا ، وكذلك أخبارا وقصصا تنتمي الى العصر الاسلامي ، أو العباسي ، على مراحل ، وسنجد التماسك والابجاز ، واستخدام بعض الكلمات أو التعابير الجزلة قليلة الانتشار لكنها لا تبلغ حد الندرة أو الاستغلاق - مما يميز القصص القديمة - ويصل الأمر الى العامة واستعارة الألفاظ من الفارسية في قصص العصر العباسي .

لقد قمنا بما يوشك أن يكون حصرا للمفردات العامة أو المستعارة من لغة غير عربية ، ودون أن نثقل كاهل هذه الصفحات بالقوائم والأرقام ، نشير الى بعضها ، مثل : وجاء بدائيال فألقاه عليها - فاذا الرسل يطالبوني - ايش تعمل ها هنا - عيلي - ستي ( وقد تكررت كثيرا ينادي بها الخادم سيده ، وينادي بها السيد جاريته المدللة ، مع وجود لفظ : سيدتي ، التي تختص بها سيدات الطبقة العليا ، مثل أم الخليفة أو من تقارب منزلتها ) - أتذكر أيامنا الأولى ؟ وتجيبني برأسه - فوطه - ييوقون : بمعنى يضربون في البوق - زليه : بمعنى بساط - ها آنذا اجي : أي سأحضر - ماتم شخصا أوله معصر : أي أحضروا - فراشة : وهي التي تقوم بالخدمة - نيموه - ضرب درابزين السرير - أتصدق : وتعني هنا اطلب الصدقة وليس ابدل الصدقة - ساري : بمعنى نخب ، أو نشرب على شرف فلان - فش القفل - مزين : أي حلاق - بطلت من الكتاب : أي انقطعت عن الدراسة .

وهناك آثار هجية محدودة ، نبه القاضي التنوخي الى بعضها ، مثل قول أحدهم : كن على الظلامة ، يكررها دفعات ، ويكسر اليم بلسان أهل الكوفة . ( ٢٣/١ ) كما يلجأ الى المصطلحات المهنية ، والكتابات الشائمة لتجنب ما يتخرج من ذكره ، فيعبر أحد المغنين عن ضياعه وقره بأنه صار وأفلس من ظبور مقطع الأوتار ، ( ٣٦٥/٢ ) أو يسأل أحدهم هل يوجد نبيذ ، فيقول لآخر : « عندك شيء من ذلك الفن ؟ » ( ٢٢٠/٣ )

هذه التعبيرات وأمثالها أكدت المنزع الشعبي لقصص الكتاب بعمامة ، فهي ليست وقفا على الحكايات الشعبية . وبعضها نطق به خلفاء على قدر عال من الثقافة وصبرة هاتم شخصا أوله مصر ، قالها المأمون في إحدى القصص ، وليس ما يمنع أن يتكلم المأمون لغة عصره ، فيقول « هاتم » غير أن الوظيفة الفنية لهذا اللجوء إلى العامية تتجاوز الواقع الحرفي ، إلى الواقع الفني ، فلهذا القصص في هذا الكتاب لغة مألوفة ، قريبة ، نادرا ما نجد فيها شيئا من الحزونة أو الصعوبة ، ونعود فنذكر أن المفردات العامية التي أحصينا ، ومثلنا لها ، تنتمي جميعا إلى قصص تتعلق بالعصر العباسي ، وغالبا ما تكون شخصياتها من عامة الناس ، وإن لم يكن دائما .

ويدخل في البناء اللغوي للقصة استخدام الحوار ، وما من قصة في الكتاب إلا وقد أخذ الحوار فيها جانبا ، وقد وظف الحوار توظيفا فنيا راقيا ، لم يكن مجرد عبارات متبادلة تفضي إلى الكشف عن معلومات كان السرد يستطيع الوفاء بها ، إن الحوار يكشف أصلا عن طوايا المتحاورين ، وخفايا نفوسهم ، ويعبر في لغته وتركيبه ، وعلاقة العبارات المتبادلة بين المتحاورين على المستوى العقلي وطاقة الذكاء التي يملكها كل منهما . أننا نجد قصصا أعظم ما فيها هو ما انطوت عليه من حوار حيث تتجلى الموهبة الحقيقية للعقل العربي ، في سرعة استجابته ، وتلقائيته ، وقدرته على إصابة المرمى في كلمات قليلة ، وافحام المكابر أو المخالف ، من خلال الصدمة ، أو سقطة اللسان ، أو الاستدراج إلى حديث بعيد عن الموضوع .

كان أحد الكبراء معجبا بمقدرته الحكائية ، ويسرف في قوله لمحدثه « أفهمت ؟ » فكان هذا مفتاح الفرج حين طلب بعض عماله لمحاسبتهم ، فقد فطن أحدهم إلى هذه « اللازمة » في كلام الوزير : « فكان يقول : لا . لم أفهم : فيستطرد الوزير ويفيض ويزيد إلى أن انتهى وقت المحاسبة ، وتم تأجيل القرار إلى وقت آخر . ويقف عمر بن فرج الرخجي أمام المعتصم ، وقد اعتقله ودعا بالسيف ووجه إليه تهمة مهلكة ، وعمر يرد على الخليفة ويعتب بالبساط الذي كان تحت المعتصم . وكأنه يلمسه ليختبر مادته وصناعته ، ويستفز الأمر المعتصم فينهزه .

« وقال : يا ابن الفاعلة ، ما شغلك ما أنت فيه عن لمس البساط ، كأنك غير مكترث بما أريدك بك ؟ فقال : لا والله يا أمير المؤمنين ، ولكن العبد يعني من أمر سيده بكل شيء ، على جميع الأحوال ، فاني استخشنت هذا البساط ، وليس هو من بسط الخلافة ، فقال له : ويلك هذا البساط ذكر محمد بن عبد الملك أنه قام علينا بخمسين ألف درهم . فقال : يا سيدي عندي خير من قيمته سبعمائة دينار » ( ١٧/٤ ) وينتهي الحوار لتظهر ثمرته ، قال أحمد بن أبي داود شاهد القصة وروايتها : « فذهب والله عن المعتصم ذلك الفور الذي كان به ، وسكن غضبه ، وقال : وجه الساعة من يحضره . فجاء ببساط قد قام عليه - فيها أظن - بأكثر من خمسة آلاف دينار ، واستحسنه المعتصم ، واستلانه ، وقال هذا - والله - أحسن من بساطنا . وأرخص وقد أخذناه منك بما قام عليك .

ووالله ما برح ذلك اليوم ، حتى ناداه ، وخلع عليه .

وهكذا افتدى الرخجي حياته بشمن بخس ، واستعاد نفوذه القديم وزاد عليه ، بلمسة الذكاء السيكلوجي التي



أجاب بها معللاً - حركة يده العابثة ببساط الخليفة : وفي قصص كثيرة تتجلى قوة الشخصية ، وبراعة التخلص في الحوار بصفة خاصة ، حيث تتقاذح الأفكار ، وتكون مباراة الذكاء معلنة أمام الأشهاد . من ذلك أن الفضل بن سهل وزير المأمون ، زعم أن عبد الله بن مالك الخزاعي أذاع أن الرشيد كان يدخل بيوت القيان ، وكذب الفضل ذلك والصق بالخزاعي ما ادعاه على الخليفة الأسبق . فهو الذي يتردد على بيوت القيان والمواخير أيضاً . كان ذلك في مجلس عام . وبعد أن انتهى الفضل من حديثه أقبل على ثمامة بن أشرس ، وقال : « وإن أبا معن - أي ثمامة - ليعلم ذلك ، ويعرف صحة ما أقول » وتكررت مهاجمة الفضل وتوجيه التهم المخلة بالشرف إلى عبدالله بن مالك الخزاعي ، وفي كل مرة يلتفت إلى ثمامة ينتظر أن يؤيد كلامه ، لكنه في كل مرة يلتزم الصمت . انتهى المجلس العام ، وأرسل الفضل عقاباً إلى ثمامة عن هذا الكول عن تأييده أمام الناس ، وأعراضه عن موافقته . فقال ثمامة لمعانيه : « أنا والله الموجودة عليه - أعزه الله - أحق ، لأنه قام في ذلك الجمع ، وقد حضر كل شريف ومشروف ، فلم يستشهد بي في خطبته ، وما أجراه في كلامه ، إلا في موضع ريبة ، أو ذكر نبوة ، ودار مقين ومغنية وما أقدر أن أشهد إلا أن أكون مع القوم ثالثاً » فوافق الرسول المعائب على هذا التفسير المنطقي ، بل وافق عليه الفضل بن سهل ، واعتذر لثمامة ، ولكن الطرف حقاً ان دافع ثمامة حين لزم الصمت كان « عصبية لابن مالك » فلم يقبل الطعن فيه من فارسي ، وهذا سبب لا يمكن اعلانه ، فأسفنه ذكأوه بهذا الاحتجاج المقبول . (٣٦٩/١) .

هناك مواقف أخرى قام الحوار فيها بوظيفته كأحسن ما يكون ( أنظر مثلاً ٣٦٤/٢ ) في تنمية الحدث ، والتعبير عن طبيعة الشخصية ، وتجسيد الصراع في إطار الموقف .

هناك قضايا أخرى يمكن طرحها في إطار البناء الفني ، مثل : الشخصية ، والصراع ، والامتداد الزماني والمكاني ، ولم نهمل هذه العناصر استهانة بقيمتها في الصناعة الفنية ، ولكن لأننا أشرنا - في فصول سابقة - إلى ما يخصها ، وما يمكن على ضوءه تصور كيف تشكلت المادة الفنية بهذه العناصر المختلفة ، في بناء ، لا نزع أنه حقق جمالية القصة القصيرة ، بفهمها الحديث ، لكنه ينبع من ادراك بالتكامل ، ووعي بوظيفة اللغة الفنية ، والأسلوب التصوري ، وهذه اضافة تستحق ما نبذل من جهد في ابرازها .

#### ٨ - رؤية ختامية

إذا لم يكن كتاب « الفرج بعد الشدة » رائداً في مجاله ، وهو تجميع الأخبار والقصص والحكايات الشعبية ، تحت عنوان واحد وتبويبها ، فانه رائد في الاحتكام إلى الشكل الفني ، ومرحلة التقليدية ، العرض ، الأزمة ، الحل ، أو لحظة التوتر ، لقد سبق الجاحظ فجمع نوادر البخلاء وأقاصيصهم وطرائف سلوكهم ، ولكن الجاحظ جمع مادته في إطار المضمون أو المعنى المجرد ، وهو البخل ، ولم يلتفت إلى الشكل ، كما أنه لم يقسم مادة كتابه وفق أي تصور ، بل قاده الاستطراد من البداية إلى النهاية وهنا يتفوق القاضي التنوخي .

وإذا كان الكتاب قد وجد دافعه الأول في ظروف نفسية عاناها المؤلف ، فإنه لم يكن صدق لهذا الطرف المؤقت ، لقد اتسعت المادة جدا ، فعبثت بحق عن حرية الثقافة العربية ، ومرونتها وقدرتها على الاتساع لكافة التجارب ، والكتاب صورة لثقافة القرن الرابع الهجري ، بما فيها من امتزاج بين المادي والروحي ، وعمق حضاري يدفع الى التسامح ، والبعد عن الجفاف والتزمت ، وتفصيل التلقائية على التصنع والتنطع . كما عبر الكتاب عن الايمان العميق بالقدر ، وهو ايمان ينبع من يقين بأن الحياة ليست عبثا ، وأن للكون قوانين تنظمه ، وهي قوانين عادلة ، قد تهرت تحت ظرف طاريء ، ولكنها لا تميل ولا تحيف .

لقد جرى عرف الدارسين أن يخصصوا فقرة عن الأثر الذي تركه الكتاب المعنى في دراسات لاحقة . وهذا أمر مشروع بل مطلوب ، ولكنه في مجال الأخبار والقصص سيكون قليل الجدوى ، ذلك لأن القصص الثري لم يشكل قطاعا مهما في تكوين الثقافة العربية ، في نظر التقليديين . إن عملا مهما مثل « رسالة الغفران » لم يلفت أنظار القدماء وحظي سقط الزند واللزوميات بالشهرة والشرح ، وانتظرت رسالة الغفران الى عصرنا الحديث لكي يرد لها اعتبارها . وقد لقيت « المقامات » أهالا أشد ، وكان وقوعها في المباحكات اللفظية ، وإغراقها في السجع ، نتيجة لاهمالها من النقاد ، وعدم تسليط الضوء على الجوانب الإيجابية فيها .

إن قصص « الفرج بعد الشدة » أسبق زمنا ، وأكثر نضجا من المقامات . فقد توفي بديع الزمان الهمداني سنة ٣٩٨ هـ ، أي بعد التنوخي بأربعة عشر عاما ، وقصص القاضي التنوخي وإن لم تكن من تأليفه ، ولا تناظر بالمقامات التي ألفها الهمداني . أكثر نضجا في مراميها الاجتماعية ووسائل صياغتها الفنية ، ولغتها . وإذا كانت المقامات قد اهتمت بانسان الطبقة الدنيا ، فإن هذه الطبقة - بمراتها ، وأنشطتها المشروعة وغير المشروعة - موجودة بوضوح في الكتاب .

نستطيع أن نجد آثارا لكتاب « الفرج بعد الشدة » في بعض الكتب القديمة اللاحقة التي تيسر لنا الاطلاع عليها ، ومع هذا فإننا لا نستطيع أن نجزم بأنه المصدر الأساسي لهذا التأثير ، حيث كانت هذه القصص - في مجموعها - مفرقة في مصادر أخرى .

وعلى سبيل المثال ، نجد قصصا في « الفرج بعد الشدة » تتعلق بمعالجة أمراض مزمنة ، أو غريبة الأعراض ، يغشل الأطباء في الاهتمام الى علاجها ، ثم يعالجها طبيب بشيء غير متوقع ، فأحدهم أطعم المريض لحم جرو صغير ، والآخر أوجع الميت ضربا حتى تحركه من جديد ، وظهرت عليه علامات الحياة ، وأسرف مريض مزمن في وجبة جراد ، فكانت سبب شفاؤه . هذه الأخبار القصصية نجدها كوقائع ، وليس في شكلها القصصي ، في كتاب « طبقات الأطباء » لابن أبي أصيبعة ، المتوفى سنة ٦٦٨ هـ ، لكن : هل نستطيع أن نجزم أن كتاب القاضي التنوخي هو مصدر هذه الأقوال ، وليس كتابات أطباء العرب ؟

يمكن أن تكون المقارنة طريفة حقا ، وتؤدي الى نتائج إيجابية في اكتشاف جهد الصياغة الفنية ، فاقرا مثلا ما نسب

الى القطيعي الطيب ، الذي ضرب « الميت » بالمقارع ( ٤ / ٢٠٨ ) وهو ما يؤدي الى الصدمة العصبية التي تستخدم لها دفعة الكهرباء في زماننا ، وضعه بازاء ما نسب الى ثابت بن قره الحاراني حين عالج بالضرب ، ( طبقات الأطباء ص ٢٩٦ ) وقرأ ما ذكره التنوخي عن مريض بالاستسقاء شفته أكلة جراد ( ٤ / ٢١٠ ) وما ذكره صاحب ( طبقات الأطباء ص ٢٤٥ ) - أما قصص العشاق فانها موجودة بكل تفاصيلها في كتاب « مصارع العشاق » للسراج المتوفي سنة ٥٠٠ هـ ، وكتاب « أخبار العشاق » لداود الأنطاكي المتوفي سنة ١٠٠٨ هـ ، ونعود فنذكر بأن هذه القصص موجودة أيضا قبل كتاب التنوخي ، وهذا ما يجعلنا ننظر الى مجمل التأليف في هذا الحقل من زاوية أنه مجموعة من النصوص ، تحيط بها مجموعة من التقاليد والأعراف ، تنتقل من كتاب الى آخر ، ولا يلغى هذا شخصية أي كاتب ، أو جهده الخاص ، وذوقه في الاختيار والتبويب ، والصياغة أحيانا . ولعل هذا قد وضح في مراحل هذه الدراسة .



## المصادر والمراجع

- (١) أحمد أمين : ظهور الإسلام : دار الكتاب العربي - لبنان ١٩٦٩ م
- (٢) ابن الأثير : حل من أبي الكرم الشيباني : الكامل في التاريخ . دار صادر . بيروت ١٩٧٩ .
- (٣) ابن أبي أسيمة (أحمد بن القاسم السعدي) : حياة الألباء في طبقات الأطباء - تحقيق نزار رضا . مكتبة دار الحياة . بيروت ١٩٦٥ .
- (٤) ابن تقي بري (جمال الدين يوسف) : التيجون الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة - مصور عن طبعة دار الكتب المصرية .
- (٥) التومني : (الفاشي أبو حل الحسن بن حل) : كتاب الفرج بعد الشدة : مكتبة الخاتمي بالقاهرة : كتاب الفرج بعد الشدة - تحقيق جيهه الشاذلي - دار صادر . بيروت ١٩٧٨ .
- (٦) الثعالبي (عبد الملك بن محمد) : قيمة الدهر - تحقيق محمد يحيى الدين عبد الحميد - مكتبة السعادة بمصر ١٣٧٧ هـ .
- (٧) الجبهشيري (محمد بن عبدوس) : كتاب الوزراء والكتاب ، تحقيق السقا وآخرين : معطى الديباني الحلبي . القاهرة ١٩٣٨ .
- (٨) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد : دار الكتاب العربي . بيروت .
- (٩) ابن خلكان : وفيات الأعيان - تحقيق إحسان عباس - دار صادر بيروت .
- (١٠) داود الأنطاكي : تزيين الأسواق في أخبار العشاق - دار حد وهي . بيروت ١٩٧٢ .
- (١١) رشاد رشدي : فن القصص القصيرة - دار العودة . بيروت ١٩٧٥ .
- (١٢) الزركلي (خير الدين) دار المعلم للملايين . بيروت ١٩٧٩ .
- (١٣) السراج (جعفر بن أحمد الفارسي) : مصارع العشاق . دار صادر . بيروت .
- (١٤) طاشي كبرى زاده : مفتاح السعادة . دار الكتب الحديثة . القاهرة ١٩٦٨ .
- (١٥) ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب في أخبار من ذهب .
- (١٦) فاروق خورشيد : في الرواية العربية : الدار المصرية للطباعة والنشر .
- (١٧) فورستر (أ . م) : أركان القصة - ترجمة كمال حيد . دار الكرنك . القاهرة ١٩٦٠ .
- (١٨) ليس . ك : الكوميديا والنراجيديا . سلسلة عالم المعرفة . الكويت ١٩٧٩ .
- (١٩) مكر (أدم) : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري - تعريب : أبو ريعة ، دار الكتاب العربي . بيروت ١٩٦٧ .
- (٢٠) محسن الأمين (السيد) : أعيان الشيعة . مطبعة الانصاف . بيروت ١٩٥٨ .
- (٢١) محمد حسن عبد الله : الحب في التراث العربي - سلسلة عالم المعرفة . الكويت ١٩٨٠ .
- (٢٢) محمد المحمدي بك (الشيخ) : محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية - للكتبة التجارية الكبرى . القاهرة ١٩٥٣ .
- (٢٣) ياقوت الحموي : معجم الألباء . دار المستشرق . بيروت - بدون تاريخ .

هذه ترجمة المقال التالي :

هذا المقال الذي نقله الى قراء العربية للمرة الأولى ، يشتمل على مقدمة بقلم الأستاذ خسرو مصطفى وفصول خمسة ، اولها تمهيدي وآخرها ختامي . وفيها بينها ثلاثة فصول خصصها المؤلف للنويري وكتابه ، والنويري كمؤرخ ، وحلة القبارصة على الاسكندرية ، على التوالي .

وقد اشار الدكتور عطية في الفصل الأول التمهيدي الى اسباب اهتمامه بكتاب الالمام للنويري الذي تضمن ضمن ما تضمنه حلة القبارصة على الاسكندرية . كذلك اشار الى النسختين الخطيتين للالمام المعروفتين وقتها ، وهما نسخة كل من برلين والقاهرة ، ومراحل العمل فيها الى ان تبين وجود نسخة ثالثة كاملة في بانكي بور بالهند ، وما استتبع ذلك من قيامه بنشر وتحقيق الموسوعة كاملة بلغتها الاصلية العربية ، في ضوء هذه النسخ الخطية الثلاث . وقد ظهرت في سبعة اجزاء في السلسلة الإنجليزية من مطبوعات دائرة المعارف العثمانية بحيدرآباد بالهند<sup>(١)</sup> .

وفي الفصل الثاني وعنوانه « المؤلف وكتابه » عرفنا الأستاذ عطية بالنويري الاسكندراني وسبب تشتميه بالاسكندراني التي ترجع الى اقامته الطويلة بالاسكندرية التي عشقها . كما حلل شخصيته ، وأشار الى من تسموا بنفس الاسم من معاصريه من المؤرخين ، كما حقق نسبة كتاب الالمام اليه واكدها ، وأوضح الفترة الزمنية التي شغلها في جمع مادة الكتاب واعاده . كما اشار الى مهنة النويري كناسخ للمخطوطات ، واهميتها في اتساع دائرة معارف ومعلوماته من ناحية ، وفي تلك المادة الغزيرة الاصلية التي اختزنها وهاهنا منها في الوقت

## كتاب الالمام لنويسري الاسكندراني دراسة نقدية تحليلية \*

عزيز سوزنل عطية

أستاذ شرف بمركز الشرق الاوسط  
جامعة يوتا - الولايات المتحدة الأمريكية

\* ترجمة الدكتور جوزيف نعيم يوسف - أستاذ تاريخ المصور الوسطى كلية الآداب - جامعة الاسكندرية  
(١) النويري الاسكندراني : كتاب الالمام بالأعلام فيها جرت به الاحكام والأمر للقطعية في ولعة الاسكندرية - نشر وتحقيق الدكتور عزيز سوزنل عطية - ٧ ج - اعداد مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدرآباد الدكن ( ١٩٦٨ - ١٩٧٦ م / ١٣٨٨ - ١٣٩٦ هـ ) .

المناسب من ناحية أخرى . وذكر كيف تبلور كل هذا في كتاب الامام . فعل الرغم من انه وضعه اساسا بهدف تسجيل كاتر هجوم القبارصة على الاسكندرية ، الا انه تضمن بين ثنايا سرده لأحداث الحملة الصليبية معلومات ومعارف متنوعة متعددة متشعبة تطرق فيها تقريبا الى كل المجالات والميادين . وقد أضفى هذا على الكتاب أهمية مضاعفة ، وان جعل التعامل معه في نفس الوقت امرا صعبا للغاية ، بسبب عدم ترتيب المؤلف لهذا القدر الهائل من المادة البالغة الأهمية . وقد عالج الدكتور عطية هذه الناحية في الجزء السابع الاخير من الكتاب والمعنون « فهارس كتاب الامام » ، والذي تتضمن اربعة عشر فهرسا مصنفة تصنيفا موضوعيا ، ومرتببة ترتيبا ابجديا . فهناك ، مثلا ، فهرس للاعلام ، وآخر خاص بالاماكن والبقاع ، وثالث للامم والقبائل والاجناس ، ورابع خاص بالاسكندرية ومبانيها وشوارعها ، وخامس يتعلق بالفلسف ، وسادس بالمصطلحات الحربية . الى جانب فهارس تتعلق بالنواحي الادبية ، والجغرافية ، والفلكية ، وعلمي الحيوان والنبات . ولاشك ان هذه الفهارس سوف تتيح للباحثين المتخصصين الافادة الكاملة من كتاب الامام ، واستخراج الدرر التي يشتمل عليها بسهولة ودون عناء .

لقد اضاف الاستاذ عطية الجديد الى ما كنا نعرفه من قبل عن النوري وكتابه ، عدل وصحح بعض الآراء والافكار التي كانت سائدة من قبل ، والتي وردت في كتب المؤرخين الحديثين المعينين مثل كارل برولكمان C. Brockelmann والوارد Ahlwardt وشارل ريو Ch. Rieu . ونخص بالذكر جهوده في تحقيق اسم النوري ، وشخصيته ، وتاريخ وفاته ، وتقدير أهمية كتابه ، والمآخذ عليه ، واسلوبه ، وهذه وغيرها من القضايا اما تصنيف جديدا او تغيير رأيا كان سائدا .

وفي الفصل الثالث وعنوانه « النوري كمؤرخ » ، حدد الاستاذ عطية دور النوري الاسكندراني في الاسهام التاريخي ومكانته بين كل من معاصريه من ناحية والسابقين عليه واللاحقين له من ناحية أخرى . وطرح عدة تساؤلات هامة لها دلالتها هل يعتبر النوري مؤرخا بالمعنى الدقيق المفهوم من هذا الاصطلاح ؟ واذا كان الامر كذلك ، هل هو مؤرخ محترف ؟ واذا لم يكن ، هل يجوز ان نعتبره مؤرخا ؟ هل يمكن ان نضعه في مصاف معاصريه مثل العمري وسميه النوري الكندي ؟ او حتى المتأخرين عنه زمنيا امثال الذهبي ، والصفدي ، وابن الفرات ، وابن خلدون ، ومن جاء بعدهم ؟ ثم ما هي مصادر معلوماته الوفيرة التي ضمنها كتابه ؟ والى اي حد يمكن الوثوق بها ؟ ويكلمة مختصرة ، ما وزن النوري كمؤرخ ، وما هي مكانته بين غيره من مؤرخي العصر الاسلامي الوسيط ، في ضوء التراث الذي خلفه لنا ؟

تساؤل لات عديدة طرحها الاستاذ عطية على بساط البحث ، واجاب عنها اجابات صريحة محددة واضحة ، وقد خلص من ذلك انه ثمة عدة ركائز اساسية تحدد مكانة النوري في مجال الدراسات التاريخية ، وتكشف عن قيمة كتاب الامام . فهو ، أولا ، اديب وشاعر مرموق الحس .. يمتاز بروحه المرحية . ثم انه ، ثانيا ، عاش في الاسكندرية معظم سني عمره ، وعشقها ، واصبح حبه لها يجري في دنايه . وهو ثالثا ، بحكم مهنته كناشخ للمخطوطات التي تناولت شتى افرع العلم والمعرفة ، قد قام بنسخ الآلاف منها واستوعب ما فيها من معلومات غزيرة في كمها فريدة في نوعيتها . واخيرا فان النوري كان شاعدا عيانا لفاجعة الهجوم القبرصي على الاسكندرية ، وشاهد بعينه آثار الدمار الذي حل بالمدينة فور نزول الصليبيين الى الشاطئ . ثم تركها مذعورا الى قريته النورية ، وعاد ثانية اليها بعد رحيل القبارصة عنها ليروي آثار المحن التي نزلت بها ، واعمال السلب والنهب التي اصابتها . وقد اثارت فيه الفاجعة كوارث النفس ،

وحركت بداخله حبه الطويل القديم للاسكندرية ، وامتزجت بهذا وذاك تلك المعلومات الغنية التي اختزنها كناسخ للمخطوطات ، والتي تتميز بالتنوع والشعب والتداخل ، وتتناول العديد من الموضوعات . وقد تبلور كل هذا في كتاب الألام ، تلك الموسوعة العالية الماثلة الفريدة في نوعها وبها . وكان خطها الاساسي هو حملة القبارصة الصليبية على الاسكندرية ، وقد نسج حوله كل ما اختزنه واكتسبه من معارف ومعلومات لا أول لها ولا آخر وعلى هذا فمحور الكتاب هو الحملة . وحول هذا الموضوع الرئيسي وبين ثناياه امدنا بمعلومات وتفصيل هامة عن امبراطوريات الفرس واليونان والرومان والبيزنطيين والعرب قبل الاسلام . ووجه اهتماما خاصا الى الفتوحات الاسلامية ، وإلى الدول الاسلامية في العصر الوسيط . فتحدث عن الخلفاء الراشدين ، والامويين ، والعباسيين ، والطورونيين ، والاختيدين ، والمغاربة ، والفاطميين . كما اشار بالتفصيل الى شخصيات عصره من الممالك في مصر . وزودنا ، أحيانا ، بمعلومات جديدة غير معروفة في المصادر التاريخية التقليدية . وبحكم تنوع مادته وتداخلها في بعضها ، تطرق الى الحديث في العديد من الموضوعات مثل الحروب الاسلامية في العصر الوسيط ، وفن الحرب والقتال عند المسلمين ، وطبوغرافية الاسكندرية وجغرافيتها ومبانيها ومنشأتها وكل ما يتعلق بها ، الى جانب النواحي الادبية والجغرافية والاقتصادية والاجتماعية والدينية . ولذلك جاءت موسوعته حاوية لنقاط عديدة شتى تجعلها اشد بدائرة معارف يمكن ان يفيد منها الباحثون التخصصيون في شتى افرع المعرفة الانسانية . ولكن يجب الانسى بعد هذا كله ان النويري السكندري يعتبر حجة فيها يتعلق بحملة القبارصة على الاسكندرية .

اما الفصل الرابع وعنوانه « الحملة الصليبية على الاسكندرية عام ١٣٦٥م / ٧٦٧هـ » ، فقد خصصه الدكتور عطية لتاريخ تلك الحملة من واقع كتاب الألام للنويري . وسيادة يعتبر حجة رائدة في هذا الميدان الذي كرس له وقته وجهده . وكانت الثمرة اثره مكتبة تاريخ الحروب الصليبية بالعديد من بحوثه ومؤلفاته التي لها وزنها وشهرتها العالية .

وقد سبق ان تناول تاريخ حملة القبارصة على الاسكندرية في كتابه الضخم « الحروب الصليبية في اخريات العصور الوسطى »<sup>(٢)</sup> ، والذي توصل فيه الى نظرية جديدة اصبح معترفا بها في مجال الدراسات التاريخية ومفادها ان الحروب الصليبية التي تعرض لها العالم الاسلامي ، في مشرقه ومغرب ، لم تنته حسبما هو معروف في اواخر القرن الثالث عشر الميلادي ( اواخر القرن السابع الهجري ) عندما تمكن السلطان المملوكي الاشرف خليل من اجلاء الصليبيين عن عكا آخر معاقلهم الحصينة بالساحل الشامي سنة ١٢٩١م / ٦٩٠هـ ، وانما استمرت خلال القرن الرابع عشر الميلادي ( القرن الثامن الهجري ) فيها عرف باسم « الحروب الصليبية المتأخرة » ، حينما تعرض العالم الاسلامي لحملات صليبية كبيرة لا تقل ضرورة عن الحملات المبكرة ، وتتفق معها في مفهومها وخصائصها وطبيعتها وهدفها . نذكر منها ، على سبيل المثال ، حملة القبارصة على الاسكندرية موضوع هذا الفصل ، وحملة لويس الثاني دوق بربورن على المهدي سنة ١٣٩٠م / ٧٩٢هـ ، وحملة نيقوبوليس الشهيرة سنة ١٣٩٦م / ٧٩٨هـ التي قامت بها اوروي بأسرها لا لخراج العثمانيين من شبه جزيرة البلقان فحسب ، بل للوصول الى بيت المقدس في قلب امبراطورية الممالك ايضا<sup>(٣)</sup> .

Cf. Atiya, A.S., *the Crusade in the Later Middle Ages*, London (Methuen & Co.), 1938, pp. 345 — 378.

(٢)

(٣) للدكتور هريز سوريال عطية مؤلف من تلك الحملة هو :

Atiya, A.S., *The Crusade of Nicopolis*, London, 1934.

وهنا لا يعيد الأستاذ عطية ما سبق ان ذكره عن الهجوم القبرصي على الاسكندرية ، في كتابه سالف الذكر ، وانما يحلل تحليلاً دقيقاً رائعا روايات النوري عن تلك الفاجعة ، وقيمتها التاريخية فيما يتعلق بالجديد الذي اضافته الى معلوماتنا عنها ، والتفاصيل التي زودنا بها ولم ترد في المصادر الغربية المعاصرة له مثل كتاب كل من جويوم دي ماشو Guillaume de Machaut وليونيوس ماخايراس Leontions Makhairas<sup>(٤)</sup> .

والجديد في هذا الفصل ، ايضا ، ان الأستاذ عطية قام بتنسيق روايات النوري الخاصة بتلك الحملة والمبعثرة والمشتتة على امتداد الكتاب بين غيرها من المعلومات التي لا تربطها بها اي رابطة ، مع ترتيبها ترتيباً زمنياً مسلسلاً ، بحيث تبدو وحدة واحدة متكاملة ، تسجل تاريخ الهجوم من بدايته الى نهايته لحظة بلحظة .

واذا استعرضنا مشاهد الحملة باختصار ، نجد انها تبدأ بتحذيرات وجهها بعض المسلمين الانقياء في العالم الاسلامي الى اولى الامر في مصر من الممالك بما سوف يحل بمدينة الاسكندرية ، وكان ذلك قبل الحملة ببضع سنوات . وهنا تتداخل الحقائق والاساطير حينما يروي النوري بعض الملمات التي تراءت لعدد من الناس بهذا الخصوص . وبعد ذلك يحلل صاحب الالام تحليلاً دقيقاً الاسباب التي ادت الى الكارثة ، ويحدها بسبعة ما بين مباشرة وغير مباشرة ، ورئيسية وثانوية ، وداخلية وخارجية ، مينا كيف انها مجتمعة متكافئة هيأت الجو لها . ثم يتحدث عن استعدادات الجانبيين المصري والقبرصي ، ويشير الى نظام التجسس والاستطلاع لدى كل منها وآثره . وهنا يحلل الموقف تحليلاً دقيقاً ، مع ذكر امكانيات النجاح او الفشل فيما يتعلق بقدرة الممالك في مصر على صد هذا الهجوم المرتقب .

وابتداء من هذه النقطة يزودنا النوري بصورة حية نابضة عن الهجوم كشاهد عيان له ، منذ نزول الفرنج الى الشاطئ ، وتسلفهم للاسوار ، وفرار الجماهير المذعورة ، وحالة اليأس التي استولت على الجميع . ثم فراقه هومع الفارين ، وعودته ثانية الى المدينة بعد انسحاب الفرنج منها ليسرد ، مرة اخرى ، ما رآه من الخراب والدمار اللذين حلا بها . اما فيما يتعلق بالفترة الواقعة بين تركه المدينة وعودته اليها ، فقد جمع معلوماته عنها من شهود عيان آخرين بقوا داخل اسوارها وقصوا عليه ما حدث بكل دقائه وتفاصيله .

وكانت الحصيلة ان النوري - بعد جمع الدكتور عطية لهذا الشتات من المعلومات وتنسيق وترتيبه - امدنا بصورة متكاملة نابضة بالحركة والحياة عن تاريخ هذه الحملة ، والكوارث التي حلت بالثغر السكندري على ايدي الغزاة ، وهي صورة تزود الباحث المتخصص بأتم وافي وادق تسجيل لهذا الهجوم الوحشي المدمر الذي دام ثمانية ايام منذ لحظة نزول الفرنج الى الشاطئ وحتى مغادرتهم المدينة وهي في حالة يرثى لها . وهنا نجد انفسنا امام مشاهد وامطة متباعدة مثيرة للدهشة والمعجب . امثلة نادرة للشجاعة الفردية الياسة المستميتة لبعض اهالي المدينة ، الى جانب نماذج من الغدر والخيانة والجبن التي اتسم بها بعض المسؤولين من الممالك ، الى جانب اعمال القسوة والوحشية التي تفوق حد الوصف والتي مارسها الغزاة ضد الاهالي ، دون شفقة او رحمة او هوادة ، ودون تفرقة او تمييز للسن والجنس ، بل ودون تفرقة

Cf. Makhairas, L., Recital concerning the Sweet Land of Cyprus entitled Chronicle, 2Vols., Greek text with English trans. and notes by R.M. Dawkins, Oxford, 1932.

(٤)



او تمييز بين الاهالي من مسلمين ومسيحيين ويهود . هذا ، الى جانب اعمال السلب والنهب التي اوتكتها الفرنج ، والاسلاب التي وضعوا ايديهم عليها وحملوها معهم في سفنهم ، والحرائق التي اشعلوها في منشآت المدينة ومبانيها حتى اصبحت خرابا . ويزودنا النويري ، ايضا ، بصور عديدة تكشف عن تداخل المصالح الاقتصادية في المسائل السياسية ، وذلك فيما يتعلق بموقف الجاليات الايطالية التجارية ، وبخاصة البنادقة ، الذين رأوا في هذا الهجوم اضرارا بهم ومصالحهم ، فوقفوا منه موقف المعارضة والعداء ارضاء للسلطات الملكية من ناحية ، وحفاظا على امتيازاتهم ومكاسبهم في مصر من ناحية اخرى .

صور ومشاهد عديدة ترى وتتابع ، سجلها النويري باسهاب وتفصيل كبيرين . ومنها نعرف ان مدينة الاسكندرية اصبحت بعد مغادرة الفرنج لها قبرا مفتوحا ، بينا جثث الضحايا تملأ شوارعها وازقتها ولا تجد من يقوم بدفنها . وقد ترك هذا جراحا عميقة في مصر لم تندمل ، رغم محاولات السلطات القبرصية اعادة السلام بين البلدين وتنامي الماضي المزيج . وكان طبيعيا ان تتدهور العلاقات بين مصر وقبرص بقية حكم بطرس الأول لوزجنان قائد الحملة المشنومة ، وفي عهد خلفه بطرس الثاني وجانوس الثاني . واثناء حكم الاخير ، انتقلت مصر تماما لما حل بعاصمتها الثانية ، عندما وجهت ثلاث حملات كبيرة ضد قبرص خلال اعوام ١٤٢٤ و ١٤٢٥ و ١٤٢٦ على التوالي . وفي الحملة الثالثة اُحقت بتلك الجزيرة ضربة قاضية ، وانزلت بها هزيمة ساحقة ، واخذت معها الى القاهرة ملكها جانوس وكبار رجال حاشيته اسرى مكبلين بالاغلال .

وهكذا كان الثمن الذي دفعته قبرص غالبا ، وكانت الضربة التي الحقها سلطنة المماليك في مصر بالجزيرة قاضية ، تكشف بما لا يدع مجالا للشك ان كفة الميزان في الصراع الطويل المربى بين الصليبيين والمسلمين كانت قد رجحت وبشكل نهائي وحاسم لمصلحتها ، واصبح مركز الثقل يميل بقوة الى جانبها . وكل هذا يتصل بموازين القوى ومراكز الثقل في الصراع بين شقي العالم وقتها ، ويرتبط ايضا بالافعال وردود الافعال ، وبالاسباب والمسببات التي ادت الى ذلك الصراع والنتائج والخواتيم التي ترتبت عليه<sup>(٥)</sup> .

وخلاصة ماسبق انه اذا اردنا ان نؤرخ لحملة القبارصة على الاسكندرية ، لا يمكن بحال ان نتجاهل او ان نتغاضى عما سجله النويري السكندري عنها في كتابه الالام . وان هذا التجاهل او التغاضي يجعل دراستنا عن تلك الحملة ناقصة مبتورة غير مستوفاة .

وفي الفصل الخامس الختامي والآخر ، قدم الدكتور عطية تقريبا دقيقا لهذا التراث الهائل المتنوع الذي خلفه لنا النويري ، والذي اثرى به الدراسات الانسانية في مختلف الميادين والمجالات ، وفي شتى نواحي العلم والمعرفة . ولا ريب ان فهارس الدكتور عطية الموضوعية المصنفة التي يشتمل عليها الجزء السابع والاخير من كتاب الالام ، سوف تلقى الضوء على هذا التراث وتعين الباحث المتخصص على الاغتراف منه .

(٥) لفرست الى ذلك بالتفصيل في مقال بالانجليزية :

Youssef, J.N., "Arab Awakening during the Crusades," Bulletin of the Alexandria Faculty of Arts, Vol. XXIII, 1969, Alexandria, 1971, pp. 11 — 26.

وبعد ، فقد اقتضى نقل مقال الدكتور عزيز سوريال عطية الى اللغة العربية ، الرجوع الى كتاب الالام بأجزائه السبعة لتحقيق اسماء الاعلام والاماكن والمصطلحات كما ذكرها النوري . كذلك اقتضى ترجمة النص ترجمة دقيقة تتمشى مع روح اللغة العربية ، اضافة القليل جدا من العبارات الموجزة الى المتن بقصد الايضاح او التعريف بالنسبة للقاريء العربي . وتمييزا لها عن الاصل الانجليزي ، فقد وضعنا كل اضافة منها بين حاصرتين . كذلك زدنا الترجمة العربية ببعض التعليقات في الهوامش السفلية رأينا ان طبيعة الموضوع تستلزم تزويده بها . وقد أضفنا كلمة « المترجم » بعد كل حاشية منها تمييزا لها عن حواشي المؤلف ، وتحقيقا للفائدة المرجوة من تعريب هذا البحث القيم العظيم .

### مقدمة الاصل الانجليزي

للسيد

خسرو مصطفی

مدير مركز الشرق الأوسط بجامعة يوتا

تولى عزيز سوريال عطية ، مؤسس الشرق الأوسط ومكتبته الرائعة بجامعة يوتا ، نشر مخطوطة « كتاب الالام » في سبعة اجزاء ، والتي وضعها احد مصنفى الموسوعات المصريين من الاسكندرية في القرن الرابع عشر الميلادي [ القرن الثامن الهجري ] ، وهو محمد بن قاسم بن محمد النوري المالكي الاسكندراني . ويتضمن هذا العمل قدرا غير عادي من المعلومات في موضوعات شتى متنوعة . وقد خصص جانباً كبيراً منه لروايات أصيلة ، تتعلق بنهب القبارصة لمدينة الاسكندرية عام ١٣٦٥م [ ٧٦٧هـ ] .

ووفقا لقول الناشر فان النوري « قد اتخم النص بالمعلومات والتفاصيل ، متقلبا من موضوع الى آخر دون تمييز » . ورغمما عن افتقار النص الى التنسيق ، فانه يصعب تقدير قيمة المخطوط كمصدر للمعلومات ( التي تلقى ضوءا ) على فصل من فصول التاريخ الطويل للحركة الصليبية . ويعتبر الدكتور عطية عالما حجة في هذا الميدان ، اذ كتب فيه بغزارة . واصبح النص الكامل لكاتب النوري ، بفضل الجهود التي كرسها في هذا السبيل ، في متناول طلاب العلم بعد طبعه ونشره في ستة مجلدات . اما المجلد السابع الذي اعده الدكتور عطية فسوف يسهل الى اقصى حد عملية البحث بالنسبة لأمى دارس . اذ يزوده بعدد كبير من الفهارس التي تتضمن مختلف الموضوعات ، كاسماء الاماكن ، والاعلام ، والقبائل ، وادوات الحرب ، والحيوانات ، والسفن ، والفلك ، والقوافي ، وما الى ذلك . وسوف تثير هذه الفهارس الطريق امام الباحث في خضم « المعلومات المشوشة التي يعوزها التنسيق والترتيب » والتي زدنا بها النوري حسب قول ( عزيز سوريال عطية ) . وربما كان هذا هو اعظم ما قدمه فيما يتعلق بعملية نشر الكتاب .

ويرجع اهتمام الدكتور عطية بـ « كتاب الالام » للنوري الى ما يزيد عن اربعين عاما مضت ، عندما عمل مع المغمفولر الاستاذ اتيان كومب Etienne Combe ، الذي كان في ذلك الوقت ينشر نصوصا يعتمد على مخطوطي برلين والقاهرة . وبعد وفاة كومب عام ١٩٦٢ ، تابع الدكتور عطية المشروع بمفرده ، مضيفا الى مصادره مخطوطة بانكي بور ، وهي اوفى من المخطوطتين الاخرتين . وكانت الحظوة الاصلية تهدف الى نشر طبعة مختصرة ( للكتاب ) . ولحسن

الحظ ، قرر الدكتور عطية بعد تفكير طويل خلاف ذلك ، وكانت النتيجة صدور النص الكامل مطبوعاً بلغته الأصلية وهي العربية . ولا شك انه ستظهر له ترجمة باللغة الانجليزية في الوقت المناسب .

ولقد تحمل الدكتور عطية تضحية شخصية هائلة في سبيل نشر الكتاب . وإذا راعينا العناية الفائقة التي بذلها في العمل في المشروع قرابة نصف قرن ، الى جانب الوقت الذي اضطر لقضائه في حيدر آباد ( الدكن ) للاشراف على نشر كل جزء من اجزائه ، لتذكرنا تعليق أحد الباحثين كان يعمل مساعداً للمغفور له ادواردج . براون . **edward G Browne** بجامعة كامبريدج . لقد شكاً من ان براون كان قد أوفده ذات مرة في اربع رحلات مختلفة الى باريس للتأكد من صحة ترجمة كلمة واحدة في اربع نسخ خطية ، كانت قد استرعت انتباه براون الواحدة تلو الأخرى . ولسوء الحظ فإن هذا النوع من العلم في طريقه الى الزوال ، لاننا نعيش اليوم في عصر السرعة والدراسة المتعجلة ، وفي عصر يعمل التفاصيل التي هي بمثابة العلامات الدامغة للمصناعات الدقيقة .

وسوف يتيح هذا المقال للقارئ الذي يتكلم الانجليزية الفرصة للتعرف على مادة « كتاب الألام » للنوري ، وبخاصة وصفه الدقيق المفصل للاحداث المفجعة التي صاحبت حملة عام ١٣٦٥ م الصليبية . وان مركز الشرق الاوسط ليفخر بأن يضم الى سلسلة بحوثه ومقالاته ، ملخص الدكتور عطية الوافي لهذه الموسوعة .

### الفصل الأول

#### تمهيد

ترجع معرفتي بـ « كتاب الألام » للنوري الاسكندراني الى عام ١٩٣٦ م ، وكان ذلك اثناء اعدادي لدراسة مستفيضة لتاريخ « الحروب الصليبية في اخريات العصور الوسطى »<sup>(١)</sup> . وباستعراض الحملات الصليبية في شرق البحر المتوسط ، أصبح لزاماً تخصيص مساحة كبيرة وتوجيه اهتمام بالغ الى كارثة نهب القبارصة وحلفائهم من غرب اوربوا لمدينة الاسكندرية عام ١٣٦٥ م . فقد حظيت تلك المغامرة الصليبية بقدر كبير من الدراسة والتمحيص من جانب طلاب العلم الاوروبيين غير المستشرقين ، من واقع المصادر والاصول الغربية ، وبخاصة قصيدة جويوم دي ماشو **Guillaume de Machaut** الشهيرة تحت عنوان « غزو الاسكندرية » **La Prise d'Alexandrie** (٢) . وكان دي ماشو بالفعل أحد المشتركين في هذا الحادث المؤسف . وعلى هذا فقد كتب كشاهد عيان ، ولوان روايته كانت بطبيعة الحال من الزاوية المسيحية [ الغربية ] ولهذا السبب بدا لي [ رأي دي ماشو ] رأياً من وجهة نظر واحدة يشوبه بالضرورة الخطأ ، ما لم نعر على الرأي الآخر من الجانب الاسلامي . ولما كان دي ماشو قد كتب من الخارج ، فإنه من المستحسن من الوجهة التاريخية البحث عن مواطن كتب من الداخل حتى يتسنى تقديم قصة حية نابضة للصدام

(١) ظهرت الطبعة الأولى في لندن ، طبع ( Methuen & Co ) عام ١٩٣٨ ، وصدرت الطبعة الثانية في نيويورك ونقلت نشرها ( Kraus Reprints ) عام ١٩٦٣ .

(٢) العنوان الكامل للكتاب هو : **La Prise d'Alexandrie ou chronique du roi pierre Ier de Lusignan, ed. Mas — Latrpie** Geneva : Societe de l'Orient Latin, 1877.

هـي من خارج عصر ( المترجم ) .

بين الشرق والغرب [ بعامه ] وبين قبرص ومصر على وجه الخصوص . وقد عثرنا على بغيتنا في الكتاب الهائل الذي ألفه النويري الاسكندراني ، وقد حفزه على تأليفه رد الفعل الذي تملكه من مسلك الغزاة في مدينته الزاهرة الاسكندرية .

وعندما رحلت من لندن الى جامعة بون بالمانيا خلال عام ١٩٣٦ ، تمكنت من الانتفاع بمخطوطة برلين لـ « كتاب الامام » لتقييم احداث عام ١٣٦٥م تقريبا متوازنا . وقد تبلورت حصيلة بحوثي المستفيضة في العديد من المصادر الشرقية والغربية على السواء ، في سردى لتاريخ الحروب الصليبية المتأخرة الذي رأى النور [ في شكل كتاب مطبوع ] عام ١٩٣٨ . وقادى هذا على الفور الى اتصال مباشر بباحث آخر كان يعمل في « كتاب الامام » لهدف آخر الا وهو دراسة الآثار الاسلامية في الاسكندرية في العصور الوسطى . وكان هذا الباحث هو المغفور له اتين كومب Etienne Combe ، وهو مستشرق سويسري كان يقيم في الاسكندرية . وكان قد قدم اصلا الى مصر ليعمل مخطفا لغاروق الصغير الذي كان آنذاك اميرا متوجعا على عرش مصر . وعندما اعتزل كومب تلك الوظيفة ، عين مديرا للمكتبة العامة لمدينة الاسكندرية\* . وعندما التقيت به الفيتة وقد ركز « جهوده » لبضع سنوات على الطابع الاسلامي لتاريخ وآثار تلك المدينة ذات العمر المنيذ . وقد دفعه هذا بالضرورة الى الخوض في المصادر الاسلامية التي ترجع الى تلك الفترة من الزمن ، ومن ابرزها كتاب النويري . ومن الواضح ان طابع ذلك النص الزاخر بالمعلومات المتشعبة في العديد من المجالات ، قد حصر جهود كومب في اعداد اقتباسات مناسبة [ من الكتاب ] فحسب مصحوبة بترجمة فرنسية لها في مجلد واحد .

ثم ما لبث ان توقف الامر عند هذا الحد عندما اصبح كومب بعد ذلك مديرا للمعهد السويسري للآثار بالقاهرة . فقررنا حينئذ تنسيق جهودنا على امل نشر تلك المادة في مشروع مشترك يحمل اسمينا . وبالفعل انبثت الجزء الخاص بي من هذا الكتاب ، وسلمت النص لشريكي لمراجعة الترجمة الفرنسية غير المصقولة قبل النشر . ثم استدعيتي جامعة متشيجان بان آرپور عام ١٩٥٥ لشغل وظيفة استاذ زائر للدراسات الاسلامية باكاديمية العصور الوسطى التي انشئت حديثا ، وذلك لمدة عام جامعي . وما لبث ان تبعت هذه الدعوة دعوات اخرى من جامعات كولومبيا وبرنستون وانديانا ومعهد الدراسات المتطورة وشغلني عملي هذا لبضع سنوات في مجال الدراسات العليا الامريكية . وفي تلك الاثناء توفي الاستاذ كومب في ٩ يوليو عام ١٩٦٢ عن ٨٢ عاما ، تاركا كل مادة مشروعنا المشترك في المعهد السويسري . فلجأت على الفور الى السفارة السويسرية في القاهرة لاستعادة تلك المادة من مخلفات كومب . وقد امكنا الحصول على كل المخطوطات والصور الفوتوغرافية والمتعلقات الاخرى الخاصة بالكتاب ، وذلك بفضل وحسن تدبير الادارات التابعة للمتحق الثقافي السويسري وقتها ، المغفور له الدكتور روبرت ران Dr. Robert Rahn . كما وافقت السيدة زوجة كومب على الفور على انقاذ هذه المادة .

وتضمنت المادة ايضا ، بالاضافة الى النسخة المكتوبة على الآلة الكاتبة للمقتطفات المذيلة بالشروح والتعليقات

\* كانت تعرف آنذاك باسم مكتبة بلدية الاسكندرية ( المخرج ) .

ومسودة الترجمة الفرنسية التي اعدھا كومب بقلمه البارع ، صورا فوتوغرافية لنص برلين<sup>(٨)</sup> ، والنسخة الناقصة المخطوطة القاهرة<sup>(٩)</sup> وتعتبر المخطوطتان مكملتين لبعضهما . ويبدو انهما فعلا عن نفس النسخة الاصلية المصورة المفقودة . ثم نما الى علمنا الى تاريخ لاحق وجود النسخة الوحيدة الكاملة للنص في الهند<sup>(١٠)</sup> . وقد نسبت هذه المخطوطة عن طريق الخطأ الى ابي عبدالله محمد بن عمر زين الدين الواقدي . كما توجد مخطوطة رابعة في المتحف البريطاني<sup>(١١)</sup> ، ولكنها ليست سوى نبذة مقتضبة مبتورة مبنية بكل تأكيد على الاصل الهندي وتحمل اسم التوري . اما فيما يتعلق بعملية النشر والتحرير والمقابلة [ بين مختلف النسخ ] ، فان تلك التي يمكن الافادة منها هي مخطوطات برلين والقاهرة وبانكي بوروم ذلك فان كل هذه المخطوطات توجد بها فجوات واجزاء مختصرة ، امكن ملؤها وتقويمها عن طريق المقارنة بين مختلف النصوص . وفي رأينا انه من المناسب اتخاذ مخطوطتي القاهرة وبرلين اساسا لنصها النهائي ، طالما انهما نسختان عن النسخة الاصلية للمؤلف . كما ساعدت النسخة الهندية غير المنشورة على ايضاح بعض الاجزاء الغامضة وسد العديد من الثغرات الموجودة في المخطوطات الأخرى .

وانشاء انغماسي في مراجعة مشروع كومب - عطية نوطنة لنشره ، تلقت دعوة رسمية من المغفور له الدكتور محمد عبد المعيد خان مدير دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد ، للقيام بنشر النص بأكمله لحساب مؤسسته . كجزء من سلسلتها الشهيرة عن التراث العربي . وفي الحقيقة نظرا لأهمية الكتاب ووجود نسخته الوحيدة الكاملة في بانكي بور ، فقد نجح المسؤولون في الدائرة في اقناع الحكومة الهندية لتمويل المشروع والتكفل بنشره في [ السلسلة الجديدة من مطبوعات ] دائرة المعارف العثمانية . وكان اعداد النص قائما على قدم وساق في الدائرة عام ١٩٣٨<sup>(١٢)</sup> ، ومبينا على المخطوطة الهندية التي اتضح انها ناقصة وغير وافية بالغرض<sup>(١٣)</sup> .

ويدأ واضحا ان المقصود من دعوة الدكتور عبد المعيد خان هو نشر النص كاملا دون حذف او الاكتفاء بانتقاء اجزاء منه . ولذلك بدأ مشروع كومب - عطية الاصل بأخذ اتجاهها مغايرا . ولأسباب عديدة رجعنا في نفس الوقت

(٨) تأليف مخطوطة برلين من نسختين في مجلد واحد تحت رقم Wetzstein ٣٥٩ (ص ١ - ١٣٩) ورقم ٣٦٠ (ص ١٤٠ - ٢٧٠) . انظر : Ahlwardt, Verzeichniss der Arabischen Hand — schriften der Koniglichen Bibliothek zu Berlin, 10 vols .) Berlin, 1887 — 99 , IX , 304 , 6 .

هذا ، ولا تتضمن صفحة العنوان الاولى للمخطوطة اسم المؤلف . ولذلك ينسبها الواردة الى مجهول . ويأخذ بهذا الرأي بروكلمان في مؤلفه : C. Brockelmann, Geschichte der Arabischen Literatur , 2 Vols .) Berlin , 1898 — 1902 , II, 35 — 36 .

ولو انه صمغ ذلك لها بعد في الملحق الثاني ، ص ٣٤ .

(٩) دار الكتب المصرية بالقاهرة تحت رقم ١٤ - ٤٩ تاريخ .

(١٠) بانكي بور ، الجزء ١٥ ، ١٠٦٦ .

(١١) Ch. Rieu , Supplement to the Catalogue of the Arabic Manuscripts in the british Museum London , 1894 (No. 606 , Fol. 50/70 .)

(١٢) كانت مسألة اعداد نص بانكي بور ، في الواقع ، موضع اختيار في حيدر آباد في عام ١٣٥٤ هـ / ١٩٣٥ م ، كما ذكر بروكلمان في الملحق الثاني ، ص ٣٤ .

(١٣) يتضح هذا من النسخة طبق الاصل التي بدت بها الى الدائرة عن طريق الدكتور عبد المعيد خان .

باقترح نشر الكتاب كله دون اختصار . أولا لأن مبدأ نشر التراث القديم غير منقوص قد أصبح لفترة طويلة مقبولا كنموذج مثالي لما يجب أن تكون عليه عملية النشر ، وبصفة خاصة عندما يطبع المخطوط لأول مرة . وثانيا ، أن وضع الترجمة الفرنسية على الرف والتركيز على النص العربي ، اطلق يدي المحرر تلقائيا من القيد الذي كان يمحصر جهوده في جزء خاص او اكثر من الكتاب . لذلك فان مشروع كويب - عطية القديم الخاص باستبعاد جميع الاجزاء التي لا علاقة لها بالاسكندرية وتاريخها وآثارها ، كان لا بد من مراجعته مراجعة تامة مع اثبات جميع الاجزاء المحذوفة . ولم يكن هذا عملا سهلا ، وان كان باعنا على الرضاء التام . وهكذا ظهر النص بأكمله في الاجزاء الستة الأولى . ونظرا للطابع الذي يتميز به هذا الكتاب المتنوع المعلومات ، والذي يعوزه التخطيط الواضح المفصل ، فقد أصبح لازما تخصيص مجلد سابع وأخير للفهارس العديدة التي قد تساعد القاريء على تحديد مكان معلومة ما ورد ذكرها وسط خضم النقاط المختلفة أو بين ثنايا حشو النص المسهب .

وربما كان الجزء الوحيد الذي اغرانا بالحذف [ من الكتاب ] هو البذاءات التي تمس الانبياء<sup>(١٤)</sup> في مواضع منه ، او تلك التي تدخل في مناقشة صريحة حول الجنس في مواضع أخرى ، ومع ذلك ، فقد تقرر في النهاية ، بعد تقديم الاعتذار ، تضمين الكتاب حتى هذه الاجزاء دون المساس بها وذلك لأسباب عدة . أولا ، لأنها تمثل مظهرا من مظاهر ادب العصر الذي لم يرفضه او يتعفف عنه العقل العربي في القرن الرابع عشر الميلادي [ القرن الثامن الهجري ] باعتباره امرا مشينا . وبعبارة أخرى ، يجب أن ينظر الى كل ما اورده النويري في هذا المجال كتعبير عادي لاختلاقيات العصر . ثم ان التفاصيل التي كشف النقاب عنها صراحة في هذا الخصوص ، انما تصلح اساسا من اسس دراسة فيسولوجية الجنس . وفي الحقيقة ، تأرجحت شخصية النويري التي تميزت بروحه المرحية بين الزهد الزائد عن الحد وبين الفجور المتبذل . وفيها بين هذين الطرفين [ المتناقضين ] كتب تقريبا بحرية في كل موضوع يمكن تصويره ومألف لمعاصره ، مما جعل كتابه موسوعة عالمية للعصر [ الذي عاش فيه ] . وبالرغم من الخلط والارتباك الناتجين عن خروجه عن جوهر الموضوع ، الا ان المادة التي جمعها تضم كثيرا من الدرر الغالية الكامنة في ثنايا نصه المسهب ورواياته غير المترابطة . ونأمل ان تقدم الصفحات التالية للقراء تحليلا منسقا لهذا النص العظيم ، ونهيء السبل اللازمة لتحديد مكان اي موضوع هام ومحدد عن طريق الفهارس [ التي اعددناها لهذا الغرض ] .

### الفصل الثاني

#### المؤلف وكتابه

الاسم الكامل لمؤلف « كتاب الآلام » هو محمد بن قاسم بن محمد النويري<sup>(١٥)</sup> المالكي الاسكندراني . والاسم غير مدون على صفحة العنوان في كل من مخطوطة برلين ومخطوطة القاهرة ، الامر الذي ضلل الوارد Ahlwardt حتى

(١٤) محمد بن قاسم النويري الاسكندراني : كتاب الآلام . نشر عزيز سوريال عطية في سبعة اجزاء ( جندر آباد : دار الفاروق للطباعة ١٩٦٨ ، ١٩٧٠ ) . وسوف يرد ذكره فيما بعد تحت اسم والآلام . انظر بصفة خاصة ج ٦ من ٢٧٩ وما يليها ومن ٢٨٠ وما يليها .

( ١٥ ) التهجئة الواردة هنا هي التي جمعها دار الفاروق للطباعة .

انه نسب مخطوطة برلين لشخص مجهول . وتبعه في ذلك بروكلمان Brockelmann في النسخة الاصلية لكتابه المعنون "تاريخ الادب العربي" ، ولو انه صحح الخطأ بعد ذلك في ملاحقه<sup>(١٦)</sup> . هذا من جهة ، ومن جهة اخرى نجد ان مخطوطة بانكي بور تذكر المؤلف تحت اسم ابو عبد الله محمد بن عمر زين الدين بن الواقي . وهذا بالطبع غير صحيح ، وغير معروف مصدر هذا الخطأ الذي يظهر مرة اخرى في مخطوطة المتحف البريطاني الموجزة . ومع ذلك ، يظهر اسم المؤلف ونسبة الكتاب اليه في شعره في عدة مناسبات بين ثانيا النص ذاته<sup>(١٧)</sup> ، وهذا لا يترك لنا مجالاً للشك في شخصيته . وعلينا ، في ذات الوقت ، ان نتذكر ان "كتاب الألام" لم يكن مجهولاً لدى عدد كبير من المؤرخين القدامى ، ومن بينهم ابن حجر العسقلاني<sup>(١٨)</sup> (ت ٨٥٢ هـ / ١٤٤٩ م) والسخاوي<sup>(١٩)</sup> (ت ٩٠٢ / ١٤٩٦ م) . وللأخير بعض الكلمات التي ينتقد فيها عملية تأليف الكتاب واسلوبه . وتتضمن مصنفات السير والتراجم المتأخرة [ زمينا عن عصر النويري ] مثل [ معجم ] حاجي خليفة<sup>(٢٠)</sup> وكتاب عمر رضا كحالة<sup>(٢١)</sup> ، اسم "كتاب الألام" بين قوائمها كاملاً مع اسم مؤلفه .

وان وصف النويري لنفسه كسكندري (الاسكندراني) يعزي الى اقامته الطويلة في تلك المدينة . وهذا يساعد على تمييزه عن الآخرين الذين يحملون نفس اللقب . ومن أشهرهم احمد بن عبد الوهاب (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣٢ م) وهو المؤلف الذائع الصيت لكتاب "نهاية الارب" ،<sup>(٢٢)</sup> ووجيه الدين عبد الرحمن<sup>(٢٣)</sup> الذي توفي عام ٧١٦ هـ / ١٣١٩ م\* وهويقاتل في صفوف الجيوش الايوبية ضد الفرنجة ، وربما كان ذلك في دماط . ومن الواضح ان الثلاثة قدموا اصلاً من قرية النويرة من اعمال مديرية البوصيرية - محافظة بني سويف الآن - في مصر الوسطى .

ووفقاً لروايات محمد بن قاسم نعرف انه قدم الى الاسكندرية في شهر ذي الحجة ٧٣٧ هـ / يوليو ١٣٣٧ م<sup>(٢٤)</sup> بهدف زيارة المزارات الاسلامية المقدسة واضرحة مشايخها الابرار . وعندما احس بما تتمتع به المدينة من جمال ، ووجد ان العيشة فيها مستساغة الى حد بعيد ، قرر الإقامة فيها . ثم تزوج فيها بعد من اهلها الذين اعجب بهم ، وبذلك كون عائلة داخل اسوارها الى ان تركها مع سيل المهاجرين عن طريق البوابة البرية هرباً من الغزاة الفرنجة اثناء الايام العشرة

(١٦) انظر الفصل الاول ، حاشية رقم ٣ .

(١٧) الألام ج ٢ ، ص ٢١٩ ، ج ٣ ، ص ٨٠ ، ج ٤ ، ص ٤٤ و ٤٥ ، ج ٥ ، ص ٢٩٧ . ويشير النويري في اجزاءه الثاني من ٥٢ الى قرية الاصلية النويرة التي عاد اليها بعد هروبه من الاسكندرية سنة ١٣٦٥ .

(١٨) الدور الكامنة في احبان ثلاثة النسخة ( القاهرة ١٩٦٦ ) ، ج ٤ ، ص ١٤٢ .

(١٩) الاعلان بالتبليغ لمن لم التاريخ ( القاهرة ١٣٤٩ هـ ) ، ص ١٢٢ .

(٢٠) كتف الطون ( اسطنبول ١٩٤١ - ١٩٤٥ ) ، ج ١ ، ص ٢٨٢ .

(٢١) معجم المؤلفين ( دمشق ١٩٥٩ - ١٩٦١ ) ، ج ١١ ، ص ١٤٧ .

(٢٢) نهاية الارب في فنون الادب ، وهو موسوعة ادبية ضخمة صنفها شهاب الدين بن عبد الوهاب البكري الكندي الشافعي المعروف بالنويري . والموسوعة تقع في عشرين مجلداً ( طبع القاهرة ١٩٢٩ - ١٩٧٥ ) .

(٢٣) الألام ، ج ٥ ، ص ٩٠ - ٩٢ . هذا ، وقد اورد المؤلف اسطورة مفادها انه بعد وفاة وجه الدين استجاب لنداء مهين من قبل احد الفرنجة في ساحة القتال ، ومن ثم فان الفرنسي الذي احتره الدفعة صبر جثمان الشيخ وحمله معه الى مكانا حيث يرقد الفرنسي في مدفن الشيخ بعد اعتناقه للاسلام .

\* التاريخ في الاصل الانجليزي ١٢١٩ م ، ولعله خطأ طباعي ، وصحته ١٣١٩ م ( المترجم ) .

(٢٤) نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ٢١٩ .

الاخيرة من شهر محرم ٧٦٧ هـ / اكتوبر ١٣٦٥ م ، وكان النويري قد اتم في هذا التاريخ قرابة ثلاثين عاما امضاها في هذه المدينة التي عاد اليها بعد ذلك .

وعند عودته الى الاسكندرية ، بعد انسحاب القبارصة المشين منها ، ومشاهدته الكوارث التي حلت بها اثناء احتلالهم القصير لها ، والتي اثارَت الرعب والهلع في نفسه ، قرر ان يؤلف كتابا عن تلك الاحداث الحقيرة . وبدأ بالفعل في جمع نصح في جمادى الثاني ٧٦٧ هـ / ١٣٦٦ م ، وانه في ذي الحجة ٧٧٥ هـ / مايو ١٣٧٤ م<sup>(٢٥)</sup> . ويمكن القول ، بناء على ذلك ، انه امضى نحو ثماني سنوات للفراغ من اعداد كتابه .

ومن الصعب تحديد تاريخ وفاة النويري تحديدا دقيقا . ولكن طالما انه عاش حتى اتم كتابه في السنة سالفة الذكر ، فلا بد اذن انه توفي بعد عام ١٣٧٤ م . ويحتمل انه كان على قيد الحياة في عام ١٣٧٥ أو ١٣٧٦ م . فهو يروى في ثانيا كتابه حادثة ضياع صقلية من ايدي المسلمين ووقوعها في قبضة النورمان الذين وصفهم بالفرنجة عام ٧٧٧ هـ ( يونيو ١٣٧٥ - مايو ١٣٧٦ م )<sup>(٢٦)</sup> .

ويتحدث النويري عن مهنته كناسخ للمخطوطات لتجار الاسكندرية المسلمين الاثرياء ، وذلك اثناء اقامته الطويلة في تلك المدينة التي ناهزت اربعة عقود . ومن المؤكد انه نسخ عددا هائلا من المخطوطات طوال تلك السنين . ويحصر الكتب التي كان على معرفة بها ، والتي جمعنا عناوينها في فهرس خاص<sup>(٢٧)</sup> ، يتضح ان مكتبته قد زخرت بمجموعة لا بأس بها من المؤلفات الهامة لقدامى الاساتذة في مجالات عديدة في الدراسات الاسلامية . وبذا يمكن ان نستنتج انه استطاع كناسخ ان ينقذ او يستظهر اجزاء عديدة هامة من المادة التي قام بنسخها ، واستخدمها في تأليف كتابه الخاص الذي قدر ان يكون « كتاب الالم » . ويدل عنوان الكتاب على تلك الحقيقة ، فكلمة « الالم » تعني نفا وشذرات [من مختلف مصادر المعرفة] ، وهي واضحة من بناء الكتاب . ويفسر هذا ، ايضا ، احدى سمات الكتاب المثيرة للحنين . لا يبدو انه كان يهدف الى حشد تلك الشذرات المتراكمة فوق بعضها في النص دون خطة واضحة ، مما جعل اسلوبه غير مترابط الى حد ما في بعض الاحيان . وليس من المستغرب لناسخ امضى حياته في نسخ امهات الكتب المعنية بالدراسات الاسلامية ان يجمع قدرا هائلا من المادة التي تتميز بأهميتها البالغة من اصول معروفة او مفقودة ومجهولة بالنسبة لنا . فعلينا ، اذن ، ان نعتبر كتاب النويري بمثابة خزانة ، وربما كانت خزانة غير مرتبة لكن شريفة متركب حول واقعة رئيسية ، الا وهي واقعة نهب الاسكندرية سنة ١٣٦٥ م .

وفي الحقيقة ، لا يعتبر افتقاد النويري لمسألة تنسيق مادته هو العيب الوحيد في كتابه . فيكاد يكون من المستحيل بالنسبة لرجل حصل على مثل هذا العلم الغزير والاطلاع الواسع ، ان نجد تفسيراً لخواص ولسات معينة في اسلوبه . اذ يجتونه الجاهل ببعض القواعد التي تعتبر من اسسط قواعد النحو العربي . هذا من جهة ، ومن جهة اخرى ليس من

(٢٥) على صفحة عنوان الجزء الاول تدو السنة ١٣٧٢ ، وهو خطأ طباعي وقع سهوا في الاجزاء الاخرى . وعلى أية حال ، فلان هذا لا يغير من تاريخ وفاة النويري والذي وقع بعد كلا العامين .

(٢٦) الاقام ، ج ٣ ، ص ١٠٢ .

(٢٧) نفس المرجع ، ج ٣ ، الفهرس رقم ١٢ .



الانصاف ان ننسب هنات الكتاب اليه كأمر محقق ، طالما انه لا توجد تحت ايدينا نسخة المؤلف الاصلية . وعلى هذا ، فمن المحتمل ان يكون الذين نقلوا عن نسخته الخطية الاصلية هم المخطوون . ولكن ، لماذا تظهر في جميع المخطوطات التي تحت ايدينا نفس التراكيب النحوية المخالفة لابسط القواعد ؟ وما بالنسبة للاخطاء النحوية واللغوية الفاضحة والتعابير العامة لاحداث الحياة اليومية في مصر [الواردة في كتابه] ، فانا نرى من المناسب اجراء حد اقل من التصحيح والتهذيب للذين لا بد منها في اسلوب الكاتب مما يجعل النص صالحا للنشر في سلسلة من سلاسل التراث العظيم . ومن الصعوبة بمكان ان يوفق الفرد بين مثل هذه المتناقضات في انجازات النويري الشعرية . فقد كان شاعرا قديرا . وان قصائده المتناثرة في الاجزاء الاخيرى [ من الكتاب ] لدليل كاف على سيطرته على علم العروض العربي ، وعلى مهارته الادبية في تناول موضوعاته . ويمكن اعتبار قصائده بمثابة وثائق تاريخية ، طالما انها تعالج الاحداث الخاصة بالقرن الرابع عشر الميلادي [القرن الثامن الهجري] والشخصيات المرموقة المعاصرة له .

وترجع قيمة « كتاب اللام » كمصدر ثقة الى مصادره [التي اعتمد عليها] من جهة ، وإلى ملاحظات النويري نفسه كشاهد عيان [ لاحداث ذلك الزمان ] من جهة اخرى . ففي المقام الاول ، جمع مادة وفيرة استقاها من مؤلفات اصلية واقدم زمينا من كتابه . ومع ذلك ، بوسعنا ان نعتبر طريقة عرضه طريقة لا بأس بها . فهو بكل بساطة حشاماته في صلب النص ، منتقلا من موضوع الى آخر دون تفرقة او تمييز . ومع ذلك فمن الخطأ الجسيم ان نلفظ كتابه على هذا الاساس ، لانه وسط مناهات رواياته غير المترابطة لحد ما والمكتوبة بأسلوب سجعى متكلف ، يستطيع الفرد ان يعثر على تفاصيل غير عادية تتميز بأهيمتها القصوى مبعثرة بطريقة عشوائية هنا وهناك [ في ثنايا النص ] . وقد حاولنا علاج فوضى المؤلف وشططه الذي لا مبرر له ، بجمع مادة هذا النص الضخم للموضوع في اربعة عشر فهرسا تضمها الجزء السابع والاخير [ من الكتاب ] . وفي رأينا ان هذه الفهارس قد تعين القارئ على تحديد مكان المعلومة التي يبحث عنها دون الخوض في [ مناهات ] النص المربك بأكمله .

وفي المقام الثاني ، شب النويري ليكون مواطنا صحيا من مواطني الاسكندرية . واصبح على دراية تامة بمنشأتها وأزقتها وحواريها وأسوارها وأبراجها وفنادقها ( أي نزلها ) ويواياها وشواطئها والشخصيات المعروفة من أهلها . كما كان شاهد عيان لاحداث التي كانت المدينة مسرحا لها . امام مالم يشاهده ، فقد سجله عن روايات بلغته بطريق مباشر ، او عن مصادر اصلية . وانعكست هذه الامور في التفاصيل الدقيقة التي زودنا بها والتي تتميز بظاهرها الفريد فيما يتعلق ببطورغرافية الاسكندرية وآثارها في العصور الوسطى . ورأينا انه من المناسب جمع كافة الاشارات الخاصة بالمدينة في فهرس خاص على شكل جدول (٢٨) يبين انه مصدر ثقتنا عن الاسكندرية في القرن الرابع عشر الميلادي [ القرن الثامن الهجري ] .

ثالثا ، خصص المؤلف الجانب الاكبر من كتابه لأوفى معلومات معروفة [ لدينا ] باللغة العربية عن حملة القياصرة [ على الاسكندرية ] عام ١٣٦٥ م . وهو في ذلك يعتبر شاهد عيان من جهة ، ومن جهة أخرى مراسل أثناء خروجه لجمع

كل المعلومات من شهود عيان آخرين ، وهي التي تتناول التفاصيل الخاصة بالأحداث التي لم يشترك فيها شخصيا . ثم هو يقدم لنا أسماء مشهولة لأشخاص جمع منهم قصصه ورواياته ليؤكد صدق أقواله .

رابعا ، لقد ظل النويري ، باعتباره مواطنا يعيش في ميناء من أهم موانئ حوض البحر المتوسط ، لعشرات السنين يشاهد باستمرار مختلف السفن التي ارتادت ميناءه . وهنا نجد سجله المفصل عن السفن ، وأوصافها الخاصة ، واستخداماتها ، وبنائها ، وجوئتها ، ومسمياتها الفنية ، سجلا مذهلا حقا ليس له مثيل في مصادر العصور الوسطى العربية . وقد افردنا فهرسا خاصا<sup>(٢٩)</sup> لهذا الجانب من الكتاب الذي سيثبت عند القاء نظرة خاطفة عليه ضخامة الجهد الذي بذله [ النويري ] في مجال نادر يتعلق بعلم الملاحة العربي والسفن العابرة في كل من البحر المتوسط والبحر الأحمر والمحيط الهندي ، وأحواض أنهار العالم القديم العظيمة . ويعتبر كتابه مصدرا هاما للغاية في هذه الناحية ، حتى أن القاموس الوحيد للملاحة العربية الذي جمعه كندرمان Kindermann<sup>(٣٠)</sup> يكاد يركز كلية على المعلومات الواردة في « كتاب الألام » .

خامسا ، يزرخ الكتاب بمسائل عديدة واضحة تتعلق بالعلوم الجغرافية . كما افرد المؤلف قسما شيقا يتعلق بالمعلومات الفلكية . هذا ، فضلا عن أن جانبيا كبيرا من محتوياته خاص بالعديد من المدن والأهبار والجزر والبلدان في عالم العصور الوسطى . وتتميز بعض روايات المؤلف بقيمتها النادرة بالنسبة لكل من العالم الجغرافي والعالم الفلكي . فالنويري على سبيل المثال ، كان على دراية بكروية الأرض قبل كوبرنيكوس Gopernicus وجاليليو Galileo بسوقت . طويل ، حينما كان العالم الغربي يعتقد من وجهة نظر الكنيسة [ اللاتينية ] أن الأرض مسطحة يحيط بها محيط من الظلمات عامر بالربح والأخطار والتنازين الضخمة . وما يثير الألام أن نقرأ أحيانا بين ثنايا المعلومات التي يحثي عليها النص ، اقتباسات تتناول خصائص بعض المدن والبلدان الكبيرة في أوروبا في العصور الوسطى ، مثل الكاتدرائيات والمنشآت الأسطورية في بعض العواصم والتي لا تزال بحاجة الى شرح الشراح وتفسير المفسرين الحديثين<sup>(٣١)</sup> . وإن المرء لتعثره الدهشة عند قراءة الفصول المتعلقة بمجموعات النباتات والحيوانات . ومع أنها قد تبدو مقتضبة ، إلا أن رواياته في هذا الصدد يمكن أن تكون ذات فائدة لطلبة كل من علم النبات وعلم الحيوان . كما أنها تفيد مؤرخي التجارة المتعلقة باحتياجات الشرق وحاصلاته . فبالإضافة الى تجارة الفلفل والتوابل الواردة من الهند ، يعدد النويري النباتات الجذرية والحاصلات وأشجار الفاكهة والأخشاب الثمينة وغيرها من المواد التي لها أهميتها في عمليات تبادل الصادرات والواردات وعقد الصفقات التجارية في العصور الوسطى<sup>(٣٢)</sup> .

سادسا ، يلاحظ أثناء سرد النويري للمعارك والعمليات الحربية التي تتعلق بالفتح العربي والواردة في الحوليات المبكرة ، وكذلك ما يرتبط بالحروب المتقطعة التي نشبت بين المسلمين في الشرق الاوسط وبين المسيحيين في الغرب - أن المؤلف أمد القارئ بقدر هائل من الحقائق والمعلومات الخاصة بفن الحرب والقتال لدى المسلمين في تلك

( ٢٩ ) نفس المرجع ، ج ٧ ، الفهرس السابع .

H.Kinder,annm Schiff in Arabischen Unter suchung uber Vorkommen und Bedeutung der Termini) Zivickau I ( ٣٠ )

Sa.1934 ( .

( ٣١ ) الألام ، ج ٧ ، الفهرسان الثاني والحادي عشر .

( ٣٢ ) نفس المرجع ، ج ٧ ، الفهرسان التاسع والعاشر .

العصور . ونجد بين محتويات الكتاب معلومات عن معدات الحرب العربية ، والخطط التكتيكية للقتال ، والاستراتيجية ، وعمليات الحصار وآلامها ، والأساطيل ، والمعارك البحرية . وحاجة المؤرخين [ المعنيين بفن الحرب والقتال ] ماسة لهذه المعلومات النادرة الى حد ما ، للاسهام في توضيح الجوانب الغامضة التي اكتشفت فن الحرب عند العرب في العصور الوسطى . وهنا نجد أن لدينا فيضا من المعلومات الجديدة نسبيا التي تثري معرفتنا الضئيلة في هذا الموضوع بالذات . وقد قمنا بمحاولة لتحديد وتفسير المصطلحات التي استخدمها النوري في هذا المجال ، ولم يخالفنا التوفيق في عدد منها . وعلى ذلك فاننا نسجل المصطلحات كما وجدت في المخطوطات الاصلية ، تاركيين عملية تفسير المسائل التي لا تزال بدون حل للمؤرخين العسكريين مستقبلا<sup>(٣٣)</sup> .

ثامنا ، علينا أن نتذكر أن النوري يعتبر انسانا بحكم مهنته اذ تبدو نواحي اهتماماته بجلالة في استخدامه التواصل للشعر وفي دراساته الادبية<sup>(٣٤)</sup> . وكان النوري نفسه ، حسبنا ذكرنا من قبل ، شاعرا من نوع معين . وان استخدامه للشعر الاصيل القديم الذي يرجع الى العصر الذهبي للأدب العربي ، قد وصل بينه وبين سرد شعر عصره المنشور الدنيوى . وبناء على ذلك ، يمكن القول أن هذا القدر الهائل من المتقطعات الشعرية المتنوعة في « كتاب الألام » قد استمد ابتداء بالعلقات- وهي ملاحم الشعر الجاهلي الخالدة - ، ومن مشاهير الفترة الاسلامية المبكرة امثال ابي نواس والفرزدق ، وحتى تلك الاسماء المجهولة نسبيا امثال التكريتي وابن ابي حجلة وابي الفضل قاسم القصار وابي العباس المرسى ، وحتى النوري نفسه الذي كان من بين شعراء أواخر العصور الوسطى . وكان المؤلف في بعض الحالات يقتبس دواوين بأكملها أو مجموعات من القصائد والأشعار . وآية ذلك ربما يكون شعر مجنون ليل<sup>(٣٥)</sup> ، حيث جمع النوري قصائد كافية للاسهام في إعادة نظم ديوانه باضافة أشعار أخرى اليه لم يخالفنا التوفيق في تحديد مكانها في الطبقات الأقدم التي لا تزال موجودة للشاعر الغنائي الشهير . وتقشيا مع الروح الدينية التي يتميز بها النوري نجده يقتبس في نفس الوقت اقتباسا مكثفا من الشعر الديني ، مثل القصيدة العظيمة الثانية وللشاعر ابن الفارض<sup>(٣٦)</sup> . فقد جمع فعلا كل المراتي التي نظمها شعراء عصره يتباكون فيها على سقوط ونهب مدينة الاسكندرية الغنية الباهرة ، وبخاصة القصيدة التي نظمها ابن أبي حجلة والتي سنوجه لها عناية خاصة في الفصل التالي . ومع أنه اقتبس بعض الرجز<sup>(٣٧)</sup> الى جانب الأغزاء والأحاجي الشعرية لمجرد التسلية ، الا أنه أدى ذلك بطريقة سطحية عابرة دون امعان أو تدقيق ، وهي لا تتطلب معالجة فاحصة . أما شعره الشخصي فهو ، أساسا ، خاص بمدح الشخصيات التاريخية او التباكي على المصير الرهيب لمدينته العظيمة<sup>(٣٨)</sup> .

(٣٣) نفس المرجع ، ج ٧ ، الفهرس رقم ٨ .

(٣٤) حسب أن نجد فضلا في مختلف اجزاء الكتاب لا يتضمن القياسات شعرية ترجع الى الفترة المبكرة . انظر الفهرس رقم ١٤ في الجزء السابع من الشعر والشعراء .

(٣٥) يذهب ليس بن معاذ . انظر الألام ، ج ٦ ، ص ٣٣٩ . ووردت اشعاره في ج ١ ص ١٩٠ و ١٩٢ و ١٩٦ و ١٩٩ و ٢٠٠ ، ج ٦ ص ٢٢٢ و ٢٣٩ وما يليها و ٣٦١ وما يليها .

(٣٦) نفس المرجع ، ج ١ ، ص ٦٣ ، ٨٢ و ٨٨ و ١٤٥ و ٢٢٣ و ج ٢ ص ١٨٩ وما يليها و ١٩٥ وما يليها و ج ٣ ، ص ١٤٠ - ١٤١ و ١٧٢ و ٢٢٢ و ج ٤ ، ص ٣٦١ وما يليها و ج ٥ ، ص ٣٦٠ و ج ٦ ، ص ٣٦٦ وما يليها .

(٣٧) شعر شعبي مغنوي الوزن . نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ٣٢٨ و ٣٢٩ .

(٣٨) نفس المرجع ، ج ٧ ، الفهرس رقم ١٤ .

تاسعا ، يحتل النويري مكانته كروائي أو قصاص . ويمكن تصنيف قصصه الى نوعين : أحدهما يشتمل على قائمة طويلة من الحكايات القصيرة ، وهي عبارة عن أحداث كان يسردها أهالي الاسكندرية الذين بقوا داخل أسوارها\* تتضمن ما قاموه على أيدي الفرنجة الغزاة (٣٩) . هذا ، وتوجد في الحقيقة حكايات أو روايات تاريخية عن أحداث ووقائع معينة أثناء غزو الاسكندرية . ويعتبر الفصل التالي الخاص بتاريخ الحملة الصليبية هو المكان المناسب لتحليل تلك الوقائع والأحداث . ( هذا عن النوع الأول من قصصه ) ، أما النوع الثاني فهو يتضمن قصصا أطول هي من وحي خيال النويري . وهي تتناول قصصا خيالية تتعلق بملوك وممالك وجن وشياطين<sup>(٤٠)</sup> ومعارك بأسلة مع الأسود المفترسة والأرواح الخفية والظواهر الخارقة للطبيعة ، وكل ما يتعلق بالسر والمعجزات . ويمكن هنا أن نلمس مدى تأثير قصص العصر هو العصر الذي بدأ فيه فن القصص الخيالي الخالد يأخذ شكله النهائي . ومن الصعوبة بمكان حقا تتبع مصادره في هذا المجال بالذات ، تاركين الأمر لمجرد الحدس والتخمين . فمن أعجب قصصه قصة سردها بأسباب في مطلع « كتاب الالمام » ، وهي أفضل مما جاء في نهاية الكتاب الذي خصصه للقصص الخيالي البحث . وهذه القصة تدور حول فيلسوف معين يدعى سكندس Secundus<sup>(٤١)</sup> هو ووالدته . وهي القصة الوحيدة التي ترجع الى أصل أفريقي ، وهي تنطق الى حد بعيد مع المسألة الأفريقية الشهيرة « الملك أوديب » . Oedipus Rex وعلى العموم ، يبدو أن النويري كقصصي هدفه الكتابة من أجل المتعة والتسلية ، قد قام بهذه المهمة بفصاحة وبلاغ<sup>(٤٢)</sup> .

وقد يكون من غير المناسب أن نختم هذا العرض دون أن نسجل صفات النويري البارزة على امتداد كتابه بأكمله . فهو مسلم شديد التقوى والتدين ، ويجعله إيمانه الشديد أقرب الى التزمّت . فاقبাসاته من القرآن الكريم واستخدامه للأحاديث النبوية ظاهر في كل فصل من فصول كتابه . حقيقة أنه أخذ أيضا عن الكتب المقدسة الأخرى ، وتزخر كتاباته بأسماء الأنبياء خارج دولة الاسلام ، ولكنه كان يسترشد في كل أحكامه ورواياته بآيات من القرآن الكريم وما جاء في الحديث الشريف . ولو أنه من الصعب قبول صحة كل ما سجله من أقوال عن الرسول ( ص ) . ومع ذلك ، فإنه من الاهمية بمكان ، في ذات الوقت ، دراسة كل ما نسب زورا وبهتانا الى الرسول ومعرفة مصدر نسبتها اليه . فقد أصبحت هذه مع اقتباساته القرآنية وأحوالاته الى الكتب الأخرى المنزلة ، جذيرة بفهرس خاص<sup>(٤٣)</sup> .

ومع ذلك ، علينا أن نتذكر أن النويري بدأ كتابه كسجل للكوارث والبلايا التي دمّرت تقريبا المدينة العظيمة التي كان قد ولع بها . ولذا لا نستطيع التغاضي ، بداهة ، عن علوقه كمؤرخ لتلك الأحداث بالذات . وسنكرس الفصول التالية لدراسة تحليلية لـ « كتاب الالمام » كمصدر عام لموضوعاته المختارة في التاريخ الاسلامي ، ثم بعد ذلك

\* اي لم يداخروا أثناء حلة القارصة عليها ( المرفج ) .

( ٣٩ ) نفس المرفج ، ج ٤ ، ص ١٧٩ وما يليها .

( ٤٠ ) نفس المرفج ، ج ٦ ، ص ٣١٨ وما يليها .

( ٤١ ) نفس المرفج ، ج ٥ ، ص ٥٨ وما يليها .

( ٤٢ ) نفس المرفج ، ج ٧ ، الفهرس رقم ٣ ( فهرس الموضوعات ) .

( ٤٣ ) نفس المرفج ، ج ٧ ، الفهرس رقم ٥ .

كسجل لتلك الأحداث الخاصة بمدينة الاسكندرية مع التركيز على حملة عام ١٣٦٥ م المشنومة ، وذلك من وجهة النظر المصرية .

### الفصل الثالث

#### النويري كمؤرخ

من الخطأ تعريف النويري بالمؤرخ المحترف أو باعتباره واحدا من كتاب الحوليات ، أو بحملتي الأحداث في عصره في القرن الرابع عشر الميلادي القرن الثامن الهجري . ومن الخطأ الجسيم ، في ذات الوقت تجاهله كلية في مجال التاريخ . فقد أسهم بالفعل اسهاما عظيما في تحليل عدد من أحداث عصره ، وبصفة خاصة موضوع سلب القبارصة للاسكندرية ، حيث أمدنا بتفاصيل فريدة في نوعها . وعلى أية حال ، اذا خرجنا عن هذه الدائرة ، يتضح أنه كتب في تمجيد الاسلام والامبراطورية الاسلامية عبر العصور . وجدير بالملاحظة أنه سمح لنفسه أثناء جولاته واستطراداته بالخوض في الحديث عن العديد من الامبراطوريات الأخرى التي ترجع الى العصرين القديم والوسيط . وعلى العموم ، فان أسلوبه في عرض الحقائق هو أسلوب من يكتب لتسلية قرائه . اذ تناول الأحداث بأسلوب اشبه بأسلوب الرواة الذي يركز على الناحية الدرامية والاسطورية أكثر من التركيز على الناحية الواقعية . ومن الصعب تتبع أصول المصادر التي استقى منها معلوماته بحرية مطلقة . ولكن من المؤكد أنه اعتمد الى حد بعيد على الكتابات الأدبية العربية المتقدمة ، والتي كانت لا تزال موجودة في عصره ، ثم أصبحت الآن في حكم المفقودة .

اما عن كتاب الموسوعات الآخرين في عصره - ويحتمل ان يكون ( صاحب اللام ) على معرفة بمؤلفاتهم - فمن بينهم من يجعل نفس الاسم<sup>(٤٤)</sup> ، وهناك أيضا العمري<sup>(٤٥)</sup> العظيم الذي توفي عام ٧٤٨ هـ / ١٣٤٨ م . ومن الصعوبة بمكان أن نضع مؤرخنا النويري في نفس مرتبة أي منها . وليس باستطاعتنا ، كذلك ، أن نضعه في مرتبة المؤرخين الآخرين المعاصرين له تقريبا ، أمثال الذهبي<sup>(٤٦)</sup> ، والصفدي<sup>(٤٧)</sup> ، وابن الفرات<sup>(٤٨)</sup> ، وابن خلدون<sup>(٤٩)</sup> ، وكثير غيرهم ممن خلقوا كتباً ومؤلفات تعتبر أفضل من كتابه ، كما أنها نشرت قبل « كتاب اللام » بفترة

(٤٤) شهاب الدين أحمد ( بن عبد الوهاب بن محمد ) صاحب كتاب « حياة الأرب » ، وقد تولى سنة ٧٣٢ هـ / ١٣٣٢ م . انظر الفصل الثامن ، حاشية رقم ٨ .

(٤٥) اسمه بالكامل هو شهاب الدين أبو العباس أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري القريشي الشافعي ، تولى سنة ظهور الوهاب الأسود ، خلفا للعمل العظيم المفقود ، وسلك الاصدار في تلك الاصدار ، الجزء الاول ، نشر احمد زكي باشا ( القاهرة ١٩٢٤ ) . ولغة اجزاء منه تتفق بالبين تولى نشرها ابن فؤاد سيد ( القاهرة ١٩٧٤ ) . وبه قسم عن المؤلف مصحوب بترجمة باللغة الألمانية بقلم كلاوس ليغ Klaws leck ( طبع فيزيان Wlenbaden سنة ١٩٦٨ ) .

(٤٦) شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان قايماز بن عبد الله الذهبي التركستاني القاري الشافعي ت ٧٤٨ هـ ١٣٤٨ م له عدة مؤلفات في التاريخ الاسلامي .

(٤٧) خليل بن أبيك بن عبد الله أبو الصفا ( ت ٧٤٦ هـ / ١٣٦٣ ) .

(٤٨) ناصر الدين محمد بن عبد الرحمن بن الفرات ( ت ٨٠٧ هـ / ١٤٠٥ م ) . وقد نشر لسفطين زريق كتابا من تاريخه ( طبع بيروت ، ١٩٣٦ - ١٩٣٩ ) . وحسن

الشماع ( طبع البصرة ، ١٩٦٧ - ١٩٧٠ ) .

(٤٩) عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي ( ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٦ م ) .

طويلة . كذلك يجب أن نأخذ في الاعتبار أن النويري كان على معرفة بمؤلفات الكتاب السابقين . ثم أن معظم الذين جاءوا بعده أمثال ابن حجر<sup>(٥٠)</sup>، والسخاوي<sup>(٥١)</sup>، كانوا في نفس الوقت على علم بكتابه ، ولو أن الأخير انتقله نقداً لادّعا .

وعلى أية حال ، يقف النويري باعتباره حجة له ثقلة في حقل التاريخ على أساسين على أقل تقدير . فإن ما سجله عن أحداث حملة القبارصة المشهومة على الاسكندرية سنة ١٣٦٥ م [ ٧٦٧ هـ ] واحتلالهم القصير لها - حسبنا ذكرنا من قبل - هو في المقام الأول أو في الروايات الاسلامية الموجودة . وبسبب الاهمية البالغة التي تتمتع بها رواياته ، من ناحيتي الحكم والكيف ، سوف نخصص الفصل التالي لدراسة تحليلية لمحتوياتها . هذا من ناحية ومن ناحية أخرى يعد كتاب النويري تكملة فريدة في نوعها للدراسات الطبوغرافية الهائلة ( أي المخطوط ) التي دونها أقدر استاذين في أخريات العصور الوسطى وهما المقرئزي<sup>(٥٢)</sup> والسبوطي<sup>(٥٣)</sup> . وقد ركزا اهتمامهما على مدينة القاهرة ، بينما اختص النويري بمدينة الاسكندرية . وفي هذا الخصوص ، سد الأخير فجوة في المعلومات التي أمكن الحصول عليها عن المدينة الثانية العظيمة في مصر في العصور الوسطى . ومع أنه لم يعد للكتابة المنسقة عن خطط الاسكندرية بالمعنى الدقيق المفهوم من هذا الاصطلاح ، الا أنه في الواقع أنجز مهمته تلك دون أو يوليهها العناية الواجبة ، وذلك عند استعراضه للأحداث المرتبطة بتاريخ المدينة في القرن الرابع عشر . ولقد مكنته معرفته بجميع التفاصيل الطبوغرافية المتعلقة بالمدينة التي أخذها موطناً له ، من أن يضمن دراسته معظم المعلومات والتفاصيل ، أيما كانت ، عن بناء وتكوين مدينة الاسكندرية ، بما يعود بالفائدة على علماء الآثار المسلمين وعلى المشتغلين في التاريخ الوسيط المتخصصين في دراسة هذه المنطقة . وفي حكم المستحيل ان نلّم الماما تاما في مجرد مقال بكل العصور التاريخية والامبراطوريات التي تعرض لها النويري . وكل ما نستطيع حقاً أن نفعله ، في نطاق محاولتنا هذه ، هو تصنيف مادته وتقديمها للقاريء مزودة ببعض التوجيهات عن الخصائص الاساسية لنصوبه الضخمة والمتشابهة الى حد ما . وجدير بالملاحظة أنه كان يقطع تسلسل رواياته التاريخية ، بصفة عامة ، العديد من النكات والنوادر التي لها علاقة سطحية بالموضوع أو التي لا تمت للموضوع بصلة . وثمة اقتباسات شعرية على امتداد الموسوعة تكشف عن اهتمام المؤلف الخاص بهذه الناحية الجذابة المشوقة ، وان كانت في غير موضعها الطبيعي .

وفيا يتعلق بالتاريخ القديم ، ففضلا عن موضوع التراث الجاهلي في شبه جزيرة العرب قبل ظهور الاسلام وهو الشيء الذي يتكرر على امتداد كتاب النويري ، فإنه يبدأ بالحديث عن الامبراطورية الفارسية<sup>(٥٤)</sup> . وهو يوجه عناية خاصة الى كسرى أنوشروان وابنه هرمز نظراً لتقارب عهديهما من تاريخ ميلاد النبي محمد ( ص ) . ويتحدث بفصاحة

(٥٠) فهاب الدين بن حجر المصنف (ت ٨٥٢ هـ / ١٤٤٩ م) . النظر كتابه في الدرر الكامنة في اعيان ثلاثة القرون ، ٤ ، ج ٤ ، ( جبر آية الله ) ، ١٢٩٦ ، ج ٤ ، ص ١٤٢ .

(٥١) فحسب الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي (ت ٩٠٢ هـ / ١٤٩٦ م) . النظر كتابه ، الاعلان بالتاريخ من ثم التاريخ ، ( القاهرة ١٣٤٩ ) ، ص ١٢٢ .

(٥٢) فحق الدين محمد بن علي (ت ٨٥٤ هـ / ١٤٤٢ م) . وعنوان مؤلفه الذي يقع في اربعة اجزاء ( طبع القاهرة ١٩٠٦-١٩٠٨ ) هو كتاب الملاحظ والاعتبار في ذكر المخطوط والآثار .

(٥٣) أبو الفضل عبد الرحمن بن ابراهيم بن محمد جلال الدين السبوطي الشافعي (ت ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م) . وعنوان خطه هو حسن المعاصرة في اخبار مصر والقاهرة ، ٢ ، ج ١ . وأحدث طبعة نولاً محمد أبو الفضل ابراهيم ( طبع القاهرة ١٩٦٧-١٩٦٨ ) .

(٥٤) الامم ، ج ١ ، ص ٥١ و ٥٣ وما يليها .

عن الفتح العربي لامبراطورية الفرس الساسان . ولكنه يقبل في الجزء الأخير من كتابه<sup>(٥٥)</sup> التسلسل الزمني للوقائع والأحداث بالعمدة الى قصة الصراع بين دارا والاسكندر الأكبر .

ويخصص النوري ، بعد حديثه عن الامبراطورية الفارسية ، بضع صفحات عن الرومان مبتدئا بالحديث عن أغسطس<sup>(٥٦)</sup> ، ويزودنا بسرد مشوش عن حروبه مع أنطونيوس وقلاطرة كليو پترا . وطبقا للمسميات العربية ينتقل الى طباريوس « طبريوس » وقلودس « كلوديوس » ثم بشيانس « فنسيان » وطييطس « طيطس » ثم طربان « تراجان » ودقيانوس « دقلديانوس » . ثم يتعرض أثناء حديثه لمولد المسيح ومعجزاته ، كما يشير الى استشهاد القديس بطرس والقديس بولس وتشت اليهود بين الأمم .

ويشير النوري باقتضاب الى الاباطرة البيزنطيين<sup>(٥٧)</sup> ابتداء بقسطنطين الكبير حتى ثيوداسيس [ثيودوسيوس] وهرقل . وفي حديث موجز مشوش الى حد ما يستأنف كلامه عن الحروب البيزنطية مع الخلافة الاسلامية<sup>(٥٨)</sup> . وثمة اشارات عارضة عن أحداث هامة في التاريخ البيزنطي مبعثرة في مواضع متفرقة في الاجزاء الاخرى [ من الكتاب ] ، وبصفة خاصة عندما يخصص المؤلف حيزا ملحوظا للفتح العربي لبعض المقاطعات البيزنطية في غرب آسيا وشمال افريقية .

وفي موضع آخر من الكتاب ، يعود النوري للحديث مرة اخرى عن قصص وحكايات ترجع الى عهود قديمة عن ملوك في العصور السحيقة الغابرة . ويتحدث باسهاب عن الملوك الكفار الجبابرة من ذرية آدم<sup>(٥٩)</sup> ، ثم يخصص بعد ذلك فصلا مطولا عن تاريخ مصر القديم وآثارها<sup>(٦٠)</sup> . وهنا يتحدث النوري عن الاهرامات والمعابد والتوابيت الحجرية والمقابر وعلم التنجيم والسحر وبعض الحفريات . ونجد في النص اسماء ملوك مصر الذين يصعب التعرف على شخصياتهم<sup>(٦١)</sup> . ومن الواضح انه اعتمد على احد المصادر العربية المغمورة كتبه شخص يدعى الوصيفي<sup>(٦٢)</sup> . ثم يسرد محاولة الخليفة العباسي المأمون (٨١٣ - ٨٣٣ م) حفر مدخل للهرم الاكبر بالجيزة اثناء زيارته لمصر بهدف اتخاذ ثورات القبط في الدلتا . ولا تزال هذه الفتحة التي نحتها المأمون في جانب الهرم تستخدم فعلا كمدخله الوحيد حتى يومنا هذا .

وكان الهدف الاساسي لهذا الخليفة ومن تبعه من خلفاء هو البحث عن كنوز الذهب المخبأة بداخله . ونجد مثلا آخر هذا الخصوص في عهد الخليفة جعفر المتوكل (٨٤٧ - ٨٦١ م) الذي تابع واليه في مصر المسمى ابن المدير هذه الحفائر في مكان آخر .

(٥٥) نفس المرجع ج ٥ ص ٤٣ وما يليها .

(٥٦) نفس المرجع ، ج ١ ، ص ٩٣ وما يليها .

(٥٧) نفس المرجع ، ج ١ ، ص ٩٧ وما يليها .

(٥٨) نفس المرجع ، ج ٥ ، ص ٣٥٧ وما يليها .

(٥٩) نفس المرجع ، ج ٦ ، ص ٧٧ وما يليها .

(٦٠) نفس المرجع ، ج ٦ ، ص ٨٤ وما يليها .

(٦١) انظر على سبيل المثال ، نفس المرجع ، ج ٣ ، ص ٣٣٢ وما يليها .

(٦٢) نفس المرجع ج ٦ ، ص ٩٠ .

ثم تولت الدولة بعد ذلك ، في عهد كل من الطولونيين ( ٨٦٨ - ٩٠٥ م ) والاختشيديين ( ٩٣٥ - ٩٦٩ م ) ، أعمال الحفر المنظم ، وعثرت على كنوز طائلة وإن كان معظمها عبارة عن تماثيل وتوابيت حجرية وموميات . وبالرغم مما اشتمل عليه هذا القسم من الكتاب من محتويات متنوعة غير مألوفة ، إلا أنه يقدم لعلماء الآثار المصرية معلومات قيمة لما وصلت اليه الدراسات الأثرية في العصور الوسطى .

إن الأحداث التاريخية المختلفة المتباينة التي حاول النويري تغطيتها دون خطة محددة ، لم تكن شديدة الوفرة والتنوع والشعب والتداخل ، حتى أصبح من الصعوبة بمكان تقدير جهده فيها دون استخدام فهرسا شاملة . فهي ، أولا ، تدور حول الأحداث المشهورة لمدينة الاسكندرية في القرن الرابع عشر الميلادي [ القرن الثامن الهجري ] . إذ أدبى لجميع النواحي ، مع التركيز على مسألة واحدة ألا وهي الانتصارات التي حققتها حركة الفتوحات المبكرة وانتشار الاسلام في عالم مرهق منقسم على نفسه ، وقد تمزق بين المسيحية الغربية وثيوقراطية دولة الساسان الشرقية . وكثيرا ما يروى القصص وال نوادر التي يمكن ان تكون ذات فائدة في لقاء الضوء على التاريخ الاجتماعي لتلك الفترات الغامضة . ومع أنه كان يستهدف المتعة والتسلية ، إلا أنه حشد دون قصد قدرا هائلا من المعلومات عن الاسلام في تلك الفترة المبكرة .

ويستعرض «كتاب الامام» أيضا ، اساءة العديد من الصحابة بما يطابق ما جاء في معظم الحوليات المعروفة الأخرى . وبالإضافة إلى ذلك ، فإن المؤلف يعيد صقل هذه المعلومات بعد تضمينها تفاصيل شخصية شيقة اغفلتها كتب الحوليات والسير والتراجم والوفيات الهامة . وينطبق هذا الحكم العام تماما على الخلفاء الراشدين (٦٣) ، والامويين (٦٤) ، والعباسيين (٦٥) . وكان النويري في بعض الاحيان يجيد عن طريقه ليعدد نقاطا معينة ذات طابع خاص ، والتي لا بد وأن يكون قد جمعها من مصادر متنوعة معروفة أو مجهولة أو مفقودة .

وثمة مثال آخر غير عادي هو حصره لألقاب الخلفاء ، الى جانب مظهرهم الشخصي والسمات التي تتميز بها شخصية كل واحد منهم (٦٦) .

وينضح اهتمام النويري بتاريخ وطنه مصر بالذات فيما سجله عن كل دولها وما لكتها الاسلامية (٦٧) . فهو يحدثنا عن الحكم السني في عهد الأستين الطولونية والاختشيدية تحت السيادة الاسمية للخلافة العباسية في بغداد (٦٨) . قبل انتقال السلطة الى الخلافة الفاطمية الشيعية بعد غزو القائد جوهر الصقلي مصر ( وهو المواطن الصقلي الذي يدعوه

(٦٣) نفس المرجع ، ج ٣ ، ص ١٣٣ وما يليها و ج ٥ ، ص ٣٤٥ وما يليها .

(٦٤) نفس المرجع ، ج ٣ ، ص ١٥٦ وما يليها و ٢٩٦ وما يليها و ج ٥ ص ٣٤٨ .

(٦٥) نفس المرجع ، ج ٥ ، ص ٣١٣ وما يليها و ٣٤٩ وما يليها .

(٦٦) نفس المرجع ، ج ٥ ، ص ٣٤٨ وما يليها .

(٦٧) يتضح اهتمام النويري بتاريخ مصر في اطار علم السياسة الاسلامية في الجزء الثالث من الكتاب ، حيث جمع ما ورد عن مصر في القرآن الكريم ( ص ٢٧٤ - ٢٧٨ ) ، وحصر الرسل والأنبياء والصحابة ورجال العلم من المسلمين وكذلك الشيوخ والأبرار ومشاهير الأمية الذين دخلوا مصر ( ص ٢٨٠ وما يليها و ٢٨٨ وما يليها ) .

(٦٨) نفس المرجع ، ج ٦ ، ص ١٦ وما يليها . هذا ، وقد وردت الإشارة إلى أحداث هامة معينة في مواضع أخرى من الكتاب ، مثل قصة أحمد بن طولون والغاشي بكار بن قتيبة ( ج ٣ ، ص ٢٨٨ وما يليها ) .



النويري بالرومي) عام ٩٦٩م . وقد أعد ملخصا عن حياة الخلفاء في ظل النظام الجديد حتى نهاية حكمهم في عام ١١٦٩م عندما قبضت الدولة الأيوبية على زمام الحكم تحت زعامة السلطة السنية لصالح الدين<sup>(٦٩)</sup> .

وان اهتمام « كتاب الألام » بموضوع الفتح العربي لمصر يفوق اهتمامه بكل تلك الأسر الحاكمة ( المشار إليها ) . ويفرد له المؤلف حيزا كبيرا . ومن الواضح أنه اعتمد الى حد بعيد على مؤلفات الواقدي<sup>(٧٠)</sup> الذي تخصص في سرد مغازي الرسول وفتوحات الخلفاء الراشدين . ومع ذلك ، فقد حصر النويري معظم رواياته في فتح دلتا النيل ، أكثر من اهتمامه بالتفاصيل المتعلقة باستيلاء عمرو ( بن العاص ) على حصن بابليون ( ٦٤٠م ) الذي أشار اليه بإيجاز في بداية الكتاب .<sup>(٧١)</sup> فقد استولى العرب المسلمون عنوة وهم في طريقهم الى الاسكندرية على مدينة تزنوط القبطية ، وذلك بمعاونة امرأة ما كانت تعمل في قصر الحاكم تدعي ديني . وهي أخت مارية القبطية التي كان المقوقس صاحب مصر ( من قبل بيزنطة ) قد أهداها للني محمد ، وأصبحت إحدى زوجاته . وكانت ربي تترغب في عدم ترك اختها ، وكانت تلك هي فرصتها عندما وعداها بذلك القائد المسلم خالد بن الوليد مقابل خدمتها في سبيل الاستيلاء على المدينة . وهكذا فتح هذا النصر الطريق الى الاسكندرية امام العرب الذين واجهوا اول كتاب للعدو وأبادوها عند دير الزجاج ( الهانظون اليونانية )<sup>(٧٢)</sup> الذي يقع على مسافة نحو تسعة أميال جنوبي العاصمة ( الاسكندرية ) . وكان برفقة الكتبة البيزنطية مجموعة من الرهبان العرب الذين قبض عليهم البيزنطيون أثناء غارة على بطرية والساحل السوري . وما لبث أن تولى حكم الاسكندرية رسطوليس الذي ذبح أباه المقوقس بسبب استسلامه لعمرو ، واعتقد أن باستطاعته استخدام أولئك الأسرى كرهائن في المفاوضات الأخيرة مع العرب ولكن هؤلاء حصلوا على حريتهم في مدينة الهانظون ، ولم يكن أمام رسطوليس سوى خوض غمار الحرب لانقاذ المدينة وقد انعقدت آماله على وصول الامدادات من سيرنيكا . ولكن تبين ان هذه التعزيزات كانت بطيئة الحركة سريعة الارتباك لدرجة لم يكن بوسعها الانضمام الى البيزنطيين اخوتها في الدين دفاعا عن الاسكندرية . ويروي النويري قصة افتتاح ثغرة في تلك الاثناء في الاسوار الحصينة بمعجزة عند صلاة شرحبيل<sup>(٧٣)</sup> ، وهو كاتب رسول الله ومن صحابه وفي تلك اللحظة انسحب رسطوليس ورجاله الى اعالي البحار ، بينما لاذت الجيوش القادمة من سيرنيكا بالفرار عائلة الى ديارها عند سماعها خبر دخول العرب العاصمة تحت قيادة خالد ( بن الوليد ) .

وبعد الاستيلاء على المدينة ، فرض المسلمون ضريبة جماعية على المواطنين قدرها مائة الف دينار . وفي تلك الاثناء عرضوا على المواطنين اما اعتناق الاسلام او دفع الجزية بواقع اربعة دنائير للفرد الواحد . وكلف احد الاباط يدعي اشعيا بن شامس<sup>(٧٤)</sup> بجمع المبالغ تحت رقابة رفيق عربي يدعي قيس بن سعد . ويشتتم النويري قصته بمأساة

(٦٩) وردت الإشارة بإيجاز الى الدولة الأيوبية في الجزء الرابع من الكتاب ، ص ٤٩ - ٥٠ ، وتوجد معلومات أكثر في نفس الجزء من صلاح الدين والدولة الأيوبية . انظر ص ٦٢ - ٧٤ .

(٧٠) أبو عبد الله محمد بن عمر الواقدي ، الموزع المعروف للفتوحات العربية المبكرة . وقد عاش فيها بين القرنين الثامن والتاسع الميلادي ( القرنان الثاني والثالث الهجريان ) . نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ٣٠ .

(٧١) الألام ، ج ٢ ، ص ٣٠ وما يليها .

(٧٢) نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ٣٩ .

(٧٣) شرحبيل بن حسنة . نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ٥٣ .

(٧٤) نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ٥٧ .

مواطن ثري يدعي تولين<sup>(٧٥)</sup> اشتهر بالبخل ، وأراد التهرب من دفع نصيبه بالتظاهر بالفقر . فلعله قيس قائلاً : « فواله ! ماضى يومهم ذلك حتى جاء الخير أن أغنامه هلكت جميعا ، ويسائنه قد ييسر ودياره وأملأك قد تهمت ، وأمواله قد مضت »<sup>(٧٦)</sup>

ثم مالبث أن توافدت الوفود من المدن الأخرى في مصر السفلى لإعلان خضوعها للمتصرفين بمحض رغبتها ، ملتزمة الامان . وكانت رشيد وفوة والمحلة وكل مديرية البحيرة<sup>(٧٧)</sup> ممثلة في تلك الوفود . وانحسرت المقاومة المتبقية فقط في ميناء دمياط البحري الهام عند فم فرع النيل الشرقي . وكان يحكم هذه المنطقة الهاموك خال المقوقس المتوفي . فأرسل خالد فصيلة مكونة من اربعين فارساً بقيادة المقداد بن الاسود للتفاوض في امر استسلام المدينة . ولكن رفض النصيحة بالاستسلام التي كان قد اسداها له وزيره الدارجان<sup>(٧٨)</sup> الذي أعدمه . وبذلك أثار حقن ابن الدارجان الذي تأمر عن طريق المخادعة بالسماح للعرب بدخول المدينة عبر فتحة في السور . ويمكن تلخيص مشاهد الأحداث التالية في تلك الأعمال الاستطلاعية البسيطة بين جماعة الهاموك والمسلمين ، والتي تتضمن اعتناق عائلة الدارجان القوية الاسلام . وفي المرحلة التالية من الصراع سقط أحب أبناء الهاموك اليه ويدعي شطا<sup>(٧٩)</sup> من فوق ظهر جواده وفقد الوعي . وعندما ثاب الى رشده روى رؤيا تراءت له من السماء شاهد فيها جنود العرب في زي اخضر تحت قباب عجيبة ومعهم فتاة جميلة تدعوه الى الاسلام . وبذلك عبر الى الجانب الاسلامي ، ثم مالبث أن حذا الوالد المؤمن حذو ابنه المؤمن . وهكذا اعتنقت دمياط الاسلام .

ثم أعقب ذلك بقصة أخرى روائية تدور حول مدينة تنيس<sup>(٨٠)</sup> عاصمة مصر القديمة والتي كان يحكمها عربي نصراني يدعي أبا ثور من قبيلة بني غسان الذين تحصنوا في خنادق على جزر بحيرة المنزلة . فقرر المعتنقون للدين الجديد في دمياط ارسال وفد تبشيري لدعوة ابي ثور واتباعه للدخول في دين جيرانهم وهو الاسلام . وتطوع شطا بن الهاموك بالقيام بهذه المخاطرة ، ورافقه يزيد بن عامر ، ذلك العربي المقيم في دمياط وأحد رفاق الرسول . وانهت هذه المهمة بالفشل بالرغم من المعجزات التي قام بها المبشرون المسلمون والتي عددها النوري ( في كتابه ) . وعندما فشلت الدعوة السلمية ، اصبح لزاماً استخدام القوة لارغام ابي ثور على دخول الاسلام . وأثناء العمليات الحربية التي تلت ذلك ، ظهرت لشطا رؤيا تتعلق بالفردوس الاسلامي الذي يصفه النوري وصفا حيا . ولكن في النهاية ، قام ابو ثور بذبح شطا وطارد الهاموك وحلفاءه حتى بوابات مدينة دمياط ، حيث بدأت تلوح في الافق التعزيزات العربية التي تستهدف ازعاج المنصر وأحباط جهوده . فأنزلت الهزيمة بأبي ثور واقتيد اسيرا ثم أطلق سراحه بعد اعتناقه الاسلام . وبذلك تم فتح الدلتا في العام السادس والعشرين بعد الهجرة ، اي في عام ٦٤٧ ميلادية . ومن الاهمية بمكان ان نعرف ان شطا

(٧٥) نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ٥٨ .

(٧٦) نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ٥٨ - ٥٩ .

(٧٧) نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ٦٧ .

(٧٨) نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ٦٨ .

(٧٩) نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ٧٣ .

(٨٠) نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ٧٥ وما يليها .

دفن في نفس الموقع الذي سقط فيه ، واعتبرت مقبرته من اقدس الاضرحة في الاسلام . واستمر الحجاج الاتقياء من جميع الجهات يتوافدون عليه حتى وقت تأليف « كتاب الألام »<sup>(٨١)</sup> .

وان الاهتمام بتلك القصص التاريخية يتعدى ما وراء المعارك والانتصارات . فيزودنا المؤلف في ثنايا اقواله بالكثير من التفاصيل الطبوغرافية لبلاده . فثمة وصف نادر لاسوار وحصون دمياط واستحكاماتها وبواباتها العديدة المنجية ، الى جانب التفاصيل المتعلقة بعرض ابى ثور واليقونات المسيحية المحيطة به .

وجدير بالملاحظة ان النوري كان يتنقل في سرده للاحداث برفق وهذوء ، باحثا عن الفرص التي يتحدث فيها عن انتصارات الاسلام . ولوانه ، كان من آن لآخر ، يشذ عن تلك القاعدة بذكر نكسات الامة احاقت بالاسلام . وربما كان اشد الفصول ايلاما في هذا الصدد هو غارات القرامطة على الحجاز وسقوط مكة المدينة المقدسة في قبضة ابي طاهر صاحب البحرين<sup>(٨٢)</sup> عام ٣٠٧هـ / ٩١٩م . وليس هناك مثل للاهوال التي صاحبت تلك الغزوة في الحوليات الاسلامية . فقد ذبح الحجاج والمواطنون دون تمييز ، والقي بجثثهم في بئر زمزم المقدسة حتى امتلأت الى آخرها بالملق وأجساد أولئك الذين كانوا يلفظون أنفاسهم الاخيرة . ويقدر عدد الشهداء بثلاثين الفا ، بخلاف النساء والأطفال الذين اقتيدوا كرقيق وقد عمل السلب والنهب في الكعبة ، وقلع الحجر الاسود من مكانه ، ونقل بعيدا لفترة اثنتين وعشرين سنة . وبذلك ترك الخوارج أظهر منطقة في الاسلام في حالة فوضى دامية ، لمدة ستة ايام .

وكانت الحادثة الأخرى التي طاولت مابله خطر انتهاك القرامطة لحرمة المقدسات هي غزو النثر لبيد عام ١٢٥٨م<sup>(٨٣)</sup> تحت قيادة هلاكو خان ( هولاكو خان ) . وقد وقع المستعصم بالله آخر خلفاء بني العباس تحت حوافر خيول التتار حتى غرقت اربا ، ولم يكن من السهل تجميع اشلائها . كما صودرت كنوزه وقتل اولاده الثلاثة مع ثمانمائة من أقاربه . وحمل الف من العذارى بعيدا عن قصره . واستمر هولاكو في اعمال الذبح في الاهالي لمدة اربعة عشر يوما بمعدل ٥٠,٠٠٠ فرد في اليوم الواحد ، وبذلك اصبح مجموع القتل في النهاية ٧٠٠,٠٠٠ ملأت جثثهم الشوارع برائحتها الكريهة ، وتفشي وباء الطاعون في المدينة بل تعدي انتشاره حدودها .

وفي مواجهة هذه المآسي الفظيعة التي كانت تقف على قدم المساواة مع سلب الاسكندرية عام ١٣٦٥م ، جد النوري في البحث عن انتصارات اسلامية تكون بمثابة رد فعل لتلك الهزائم المنكورة بهدف رفع الروح المعنوية لدى المسلمين . ويذكر كتابه باشارات الى الانتصارات الاولى في صدر الاسلام في منطقة الهلال الخصيب ضد الدولة البيزنطية وامبراطورية الفرس الساسان وهكذا تناول بالمديح والثناء فتح العرب لمصر والتقدم في شمال افريقية كما أسلفنا . فهو يمجّد دفاع المسلمين البطولي ضد استعادة المسيحيين لأراضيهم في شبه الجزيرة اليبيرية ، مع ان الحرب ( بين الطرفين ) بدأت بداية سيئة لحد ما بالنسبة للسلطان ابي الحسن المبرقي<sup>(٨٤)</sup> ، الذي هزم هزيمة منكرة خارج مدينة

(٨١) نفس المرجع ، ج٢ ، ص ٩١ .

(٨٢) نفس المرجع ، ج٢ ، ص ١٢ وما يليها .

(٨٣) نفس المرجع ، ج٢ ، ص ٢٢٢ وما يليها .

(٨٤) اسمه بالكامل حسب ما ورد في الوثائق هو ابو الحسن بن علي بطريق بن العباس المبرقي . انظر نفس المرجع ، ج٣ ، ص ١٩٥ . وفيها يتعلق بالحرب كلها ، انظر

ج٣ ، ص ١٨٣ وما يليها .

طريف (بالاندلس) ويحتمل أن تكون هذه هي معركة ريوسا لادر Rio Salado عام ١٣٤٠ م التي لم يرد ذكرها (في الكتاب) عن عمد ، وكان المنتصر في ذلك اليوم هو الفونس ملك النصارى<sup>(٨٥)</sup> المعروف باسم الفونسو الرابع (١٣٢٥ - ١٣٥٧م) بطل البرتغال الشجاع . وكان الملك البرتغالي متحالفا مع قشتالة التي حارب ملكها الفونسو الحادي عشر صراحة الى جانبه والذي يحمل نفس الاسم ومع ذلك سرعان ما انتقم السلطان ابن الأحمر<sup>(٨٦)</sup> هذه الهزيمة ، فاخترق بلاد الاندلس واستولى على الجيسيراس Algeciras<sup>(٨٧)</sup> والجهات المحيطة بها عام ٧٦٨هـ / ١٣٦٦ م ، اي بعد مرور سنة واحدة على كارثة الاسكندرية . وبذلك عاد المسلمون الذين بقي بهم خارج شبه الجزيرة للاستقرار مع ابي الحسن مرة أخرى في ملكهم القديم بعد ذبح المسيحيين . وإذا اخذنا بما قاله ابن الأحمر وروايات النويري ، لوجدنا ان فتوحات السلطان امتدت ، فيما بعد ، الى مدن جيان<sup>(٨٨)</sup> Jaen<sup>(٨٩)</sup> (جنوب الاندلس) وابده<sup>(٩٠)</sup> (شمال شرقي جيان) واطريه<sup>(٩١)</sup> Utrera (جنوب الاندلس) ، وإلى قرى وقلاع أخرى بلغ مجموعها ثمانية وأربعين<sup>(٩٢)</sup> وبهذه المناسبة يتيسر النويري دليلا من الوثائق يتضمن خطابين<sup>(٩٣)</sup> متبادلين بين ابي الحسن المويني وعدوه الفونس (الفونسو) ، كما يتضمن رسالة<sup>(٩٤)</sup> تحوي المزيد من التفاصيل موجبة من ابن الأحمر الى سلطان فاس المربني في شمال افريقية ، يبلغه فيها بانتصاراته على القند<sup>(٩٥)</sup> ملك النصارى .

وان ماسبق ذكره من روايات يمكن اعتباره بمثابة أمثلة توضيحية تتعلق باهتمام النويري بالحروب الاسلامية عبر العصور الوسطى . ويزخر «كتاب الامام» بإشارات الى معارك أخرى ، مابين صغيرة وكبيرة ، ومعروفة وغير معروفة ، والتي ربما يكون سردها أمرا علاما عديم الفائدة . ومع ذلك ثمة أمر واحد يبرر بوضوح في خضم التكرار في هذا الموضوع ، الا وهو المادة الوفيرة التي حشدها المؤلف اثناء حديثه عن أدوات الحرب والقتال عند المسلمين ، وقد رأينا أنه جدير بفهرس خاص به<sup>(٩٥)</sup> . هذا ، بالإضافة الى تكتيكات واستراتيجية المقاتلين المسلمين وأن هذا العرض الموجز للكتاب يتميز بقيمته التي يصعب تقديرها بالنسبة للطلاب الذي يدرس الفنون الحربية الاسلامية . في العصور الوسطى<sup>(٩٦)</sup> .

- (٨٥) نفس المرجع ، ج ٣ ، ص ١٨٦ وحاشية رقم ٥ .  
 (٨٦) الاسم بالكامل هو : أبو عبدالله محمد بن يوسف الملقب ابن الأحمر . أنظر نفس المرجع ، ج ٦ ، ص ٣١٨ ، أنظر أيضا ج ٥ ، ص ٣١٧ ح ٥ حيث عرف باسم محمد الخامس الذي يلقب سلطان غرناطة .  
 (٨٧) نفس المرجع ، ج ٣ ، ص ١٨٨ وما يليها .  
 (٨٨) نفس المرجع ، ج ٥ ، ص ٣١٩ وحاشية رقم ٥ .  
 (٨٩) نفس المرجع ، ج ٥ ، ص ٣٢٥ وحاشية رقم ١ .  
 (٩٠) نفس المرجع ، ج ٥ ، ص ٣٢٧ وحاشية رقم ١ .  
 (٩١) نفس المرجع ، ج ٥ ، ص ٣٣١ . هذا ، وغير معروف معظم تلك القلاع .  
 (٩٢) نفس المرجع ، ج ٣ ، ص ١٩٣ - ١٩٧ . وليس يوصتا تتبع أصول تلك الخطابات في المصادر المذكورة .  
 (٩٣) نفس المرجع ، ج ٥ ، ص ٣١٨ وما يليها . هذا ، والوثيقة مكتوبة بأسلوب غريب / يفتن تبعه في المصادر المذكورة . وليس معروفا من أين حصل النويري على تلك الخطابات .  
 (٩٤) أي : الكونت ملك المسيحيين ، . ولقب : قند ، مشتق من الكلمة الإسبانية Conde والفرنسية Comte . وربما يكون هذا الشخص هو أحد اشراف عملة قشتالة في عصر بطرس الرابع (١٣٥٠ - ١٣٦٩ م) . أنظر ج ٥ ، ص ٣١٧ - ٣١٨ وحاشية رقم ٦ .  
 (٩٥) نفس المرجع ، ج ٧ ، الفهرس رقم ٨ .  
 (٩٦) عند هذا المقارنة بين ما خلفه النويري وبين الدراسات المتصلة بلن الحرب والقتال في الغرب ، ليس هناك ما هو أفضل من تأليف شارل اومان Charles Oman وج . كيهلر G.Khler . وم . ديلريك M.Delpruce . ولوت F.Lot .

وتبدو قدرة النويري الحقيقية كمؤرخ<sup>(٩٧)</sup> بوضوح أكثر في المواضيع التي يناقش فيها أحداث وشخصيات عصره كشاهد عيان أولا وقبل أي شيء آخر . هذا ، وبدون التعمق والأسهاب في موضوع الاسكندرية الذي أرجأناه للفصل التالي ، فانا يجب أن نعتبر تناوله ( لدولة ) الممالك البحرية<sup>(٩٨)</sup> اعتبارا من سلطنة الظاهر بيبرس ( ١٢٦٠ - ١٢٦٧ م ) تقريبا وحتى حكم السلطان المعاصر للنويري نفسه وهو الأشرف شعبان ( ١٣٦٣ - ١٣٧٦ م ) ، بمثابة إضافة مفيدة الى مؤلفات المقرئ<sup>(٩٩)</sup> العظيمة والى مدرسته ، ولو أن ما أورده في هذا الخصوص مختصر نسبيا . ويزيد من قيمة تلك التفاصيل الدقيقة والفترات التاريخية المحددة التي يرويها النويري ، أنها لا تظهر في كتب الحوليات المعروفة . وهو فوق هذا وذاك ، يقدم لنا سجلا غنيا بكل الاعمال التي قام بها أمراء الممالك<sup>(١٠٠)</sup> في عصره ، ومكانتهم في الادارة سواء كانت اقليمية أو مركزية . وأن وصفه لموكب السلطان شعبان في الاسكندرية<sup>(١٠١)</sup> ، الذي رآه كشاهد عيان ، هو قطعة فنية حية تذكرنا بالعظمة الاسطورية للمواكب والاحتمالات البطلمية في نفس المدينة قبل عصره بنحو سبعة عشر قرنا من الزمان .

ولم يدعم النويري أقواله ، في كثير من الأحيان ، بالوثائق الأصلية . وكانت المقطعات الشعرية هي الأمر المفضل عنده ، متمشيا في ذلك مع ميوله الأدبية . ورغما عن ذلك ، نجده في إحدى المناسبات يقتبس وثيقة أصلية بأكملها ، وهي تعتبر من أهم الفرمانات او المراسيم الرسمية<sup>(١٠٢)</sup> لصر المملوكية . وقد اشار كبار كتاب الحوليات في اخريات العصور الوسطى الى هذا المرسوم بإيجاز<sup>(١٠٣)</sup> . ولكننا لم نعرث عليه كاملا الا في « كتاب الألقام » . وكان النويري يستهدف من هذا المرسوم وتاريخه سنة ٧١٥هـ / ١٣١٥م ، توضيح ولاية السلطان الناصر بن محمد الثالثة ( ١٣٠٩ - ١٣٤٠ م ) الجديرة بالاهتمام . وهو يتميز بطابع دستوري شامل له اهميته القصوى ، لانه يعالج تقريبا كل ناحية من نواحي الاقتصاد والمجتمع المصري . وقد صدر المرسوم بعد اجراء مسح عام للبلاد ، وبعد تقرير نظام جديد وعادل للضريبة على الارض في سجل يعرف باسم « الروك الناصري » .<sup>(١٠٤)</sup> ومع أن نص المرسوم كما هو موجود في النسخ الخطية توجد به فجوات مفقودة ، الا ان الوثيقة في معظمها على حالتها الاصلية ، وتقدم قائمة تحليلية مفصلة ونادرة للمشاكل الوطنية التي سعى السلطان الى حلها .

فبعد المقدمة او الافتتاحية التي يمجّد فيها كتاب البراءة او المرسوم سلطنة الناصر ، يذكر كون الدوافع الخيرة التي

(٩٧) تمي علامات التخصيص لمخططات حول وصف النويري كمؤرخ .

(٩٨) نفس المرجع ، ج ٣ ، ص ٨٦ وما يليها و ٢١٢ وما يليها و ج ٤ ، ص ٧٥ وما يليها و ج ٥ ص ٢٣٥ وما يليها و ٢٥٤ وما يليها و ٣٨٠ - ٣٨١ و ج ٦ ص ١ وما يليها و ١٦ وما يليها .

(٩٩) أهم مؤلفاته هو كتاب السلوك في أربعة أجزاء تشمل على عدة أقسام ، نشره محمد مصطفى زيانة والد سعيد عبد الفتاح عاشور ( القاهرة ١٩٦٩ - ١٩٧٣ ) .

(١٠٠) الألقام ، ج ٧ ، فهرس رقم ١ . أنظر أيضا الحاشية التالية .

(١٠١) نفس المرجع ، ج ٧ ، ص ٢٥٤ - ٢٥٥ ، ج ٦ ، ص ٤ - ١ .

(١٠٢) نفس المرجع ، ج ٤ ، ص ١٤٦ - ١٥٤ .

(١٠٣) أنظر على سبيل المثال ، السلوك للمقرئ ، ج ٢ ، قسم ١ ، ص ١٥٠ - ١٥٢ ، أبو الحسن بن تاري بري ، التيجم الزاهرة ( القاهرة ١٩٤٢ ) ، ج ٩ ، ص ٩٨ .

(١٠٤) - ابن أبيك الداوداري : كنز الدرر ( القاهرة ١٩٦٠ ) ، ص ٢٨٦ .  
(١٠٤) وكان هذا هو آخر مسح عام للأراضي بهدف ربط الضرائب على أساس عادل . وقد حصص المقرئ هذه المسألة جانباً من عهده ( طبعة القاهرة في أربعة أجزاء ، ١٣٢٤ هـ ) ، ج ١ ، ص ١٤١ - ١٤٧ . وجاء قبله روك صلاح الدين الذي جمعه ابن عاتق ( كتاب قوانين الداوين ، نشر عزيز سوريال علي ، القاهرة ١٩٤٣ ) .

دفعتم السلطان الى منحه لرعاياه ، بهدف ازالة مساويء تشريع سابق ، ومؤكدا لهم أهمهم وأمانهم . وكل مانستطيع أن نفعله هنا لبيان قيمة تلك الوثيقة هو جدولة المواد التي اشتملت عليها جدولة تحليلية .

١ - اسقاط الرسوم المفروضة سابقا على الغلال الواردة الى سواحل القاهرة واعمالها ، ويمنع تكرار ازدواج ضريبة الدرهم الفرد عند تفريغ الغلة وبيعها .

٢ - ابطال نصف ضريبة السمسة التي يؤديها جميع السماسرة والمندمين .

٣ - ابطال المقدمين ومقرراتهم ومايضم الى ذلك من الاعلاف التي يطالبون بتقديدها لبغالهم ودوابهم .

٤ - ابطال رسل الدولة والمترددن على البلاد ، مع ضمان الأمن للرعايا .

٥ - نواب الامراء الذين يقرونهم ببلادهم هم نواب عن مجلس الحرب ، ويجب على السوالى الذي يتمتع بكافة الصلاحيات التصدي لازالة التعدي على حقوق الافراد .

٦ - المفسدون الهاربون والقتلة ومرتكبو الجرائم الذين يهربون الى بلد غير بلدهم يجب أن يلقى ولاية تلك الناحية ومشايخها وتخفواها القبض عليهم ، واعادتهم الى بلادهم الاصلية او تسليمهم الى والى الحرب في تلك الناحية . ويجب الا يمكن هؤلاء المفسدون والمعتدون من اقامتهم يوما واحدا او ساعة واحدة . ولأرباب الدولة سلطة استخدام « سيوفنا » ضدهم بالتوسط والشتق والتسمير على نخيل تلك البلدة .

٧ - الفلاحون المتجمعون من بلدة الى اخرى بسبب القحط ، والذين ياربهم الاهابي يستطيعون البقاء في تلك البلدة حتى موسم الحصاد ، ثم يرجعون الى بلادهم الاصلية .

٨ - لايمكن احد من الولادة ولانوابهم ولا المتحدثين عنهم ولا الكتبة ولا الجباة من جباية رسم استثنائي مياومة او مشاهرة ، ومحظور عليهم أيضا تناول جامكية اكثر من الدرهم الفرد .

٩ - ابطال حقوق السجون ومقرراتها وضمائنها ، ومنع التعرض لأخذ الدرهم الفرد منها .

١٠ - لانجبي أي مبالغ عن الجسور والترع والقنوات ، ولاتفرض اي رسوم على تسليم الادوات الزراعية ، او على الفس والابقار والحفلة والمهندسين . وعلى كل بلد ان يلتزم مقطوعا بعمل مايجب عمله من غير رجوع الى العوائد القديمة .

١١ - ابطال طرح الفراريج على البلاد ، أو أي شيء آخر<sup>(١٠٥)</sup> .

١٢ - ابطال مقرر الفرسان ومقرر الخيل الذي كان يستأدي وقت حركات الجيوش .

(١٠٥) يبدو ان هذه الأبياء كانت تنص هنا بدلا من الدفع النقدي للفراب .

١٣ - لا يؤخذ مقرر ملاهي لمن يعمل فرحا ومن أعرس أو كتب كتابه أو كان عنده ختان . . ولا يطلب الا من كان عنده احد من الغواني والملاهي .

١٤ - المساحة بثمن العبي التي كانت تقررت على عامة الناس .

١٥ - ابطال المقرر من التبن والقش لمعاصر الأقباص لمدة عام ، ويسمح بشراء التبن بثمنه ورضى أصحابه .

١٦ - ابطال حماية المراكب النهرية ، وان لا يعود أحد من الأمراء وأرباب الجهات بمجي مراكبا ولا يستأدي من الحماية حقا ( وهذا يعني توفير الحماية بدون أجر ) . ولا يتعرض أحد الى المراكب بغير حق يشهد به الديوان .

١٧ - لا يطلب الحلي عن الميت ، ولا المقيم عن النازح ، ولا الحاضر عن الغائب ، مالم يكن ضامنا أو كفيلا أو ملتزما .

١٨ - المساحة بما انساق للامراء والمقطعين من البواقي في بلادهم من الخراج والضمان وإلى آخر مغل سنة ٧١٤هـ .

١٩ - اعفاء جماعة الفلاحين من ضيافة القدام عند انتقالات الاقطاعات في سنة الروك .

٢٠ - ابطال عداد النحل حسب ما يشهد به الديوان .

٢١ - ابطال زكاة الرحالة المسلمين بالديار المصرية بالوجهين القبلي والبحري . كما ينسحب هذا الامر على اليهود والنصارى ، الا على حكم التصقيع .

٢٢ - ابطال جميع البدول من الولاة والنظار والمستوفين وأرباب الوظائف جميعا اعتبارا من استقبال شهر صفر سنة ٧١٦هـ . \*

وتنص الخاتمة على حتمية تنفيذ بنود هذا المرسوم في القاهرة وجميع الاقاليم بدون استثناء وبدون ارضاء مدينة على حساب الاخرى . وتنص ايضا على ان جميع الولاة والأمراء والحكام ورؤساء العمال ونظار الخاصة وعصلي الضرائب وجميع سلطات الدولة ملزمون بتنفيذ نصوص هذا فرمان حرفيا دون تفسير أو تبديل . ويجعل فرمان في بدايته توقيع السلطان بما يتفق والتقاليد الدبلوماسية المتبعة في العصور الوسطى . وينتهي بتاريخ اصداره في ١٨ من ذي الحجة عام ٧١٦هـ / ١٣١٦م .

ويحتمل ان يكون هذا المرسوم هو اكثر المراسيم المتعلقة بالحرثيات في مصر ابان العصور الوسطى اثارا للدهشة . وهو اشبه مايكون بوثيقة « العهد الاعظم » Magna Carta ، مع فارق وهو ان السلطان منحه عن طيب خاطر ولم يتنزع قسرا من الملك . وبذلك يبدو ان ( الميثاق المذكور ) كبح جماح الادارة المركزية والحكومة المحلية واستبدادهم بعامه الشعب . وقد شاهدت الولاية الثالثة للسلطان الناصر محمد تغييرات عظيمة في اقتصاد مصر ، ولا بد انها هيأت

• رأينا الانزام ، قدر الاستطاعة ، بنص المرسوم وسرcliffe كما ورد في الايام ( المترجم ) .

(فرض) العدالة الاجتماعية للرجل العادي . ومع ذلك فمن المشكوك فيه ان كانت روح هذا الميثاق قد احتفظ بها خلفاء الناصر . ويمكن التثبت من ذلك مما كتبه مؤرخو مصر في اواخر العصور الوسطى ، ومن بينهم النويري الذي ندين له بمعرفتنا بكافة مواد هذه الوثيقة الدستورية العظيمة .

### الفصل الرابع

#### الحملة الصليبية على الاسكندرية عام ١٣٦٥ م / ٧٦٧ هـ

ليس في نتيجتنا هنا ان نسرد من جديد القصة الكاملة للحملة الصليبية على الاسكندرية فقد سبق ان تناولناها ، اعتمادا على مختلف المصادر من شرقية وغربية ، في دراستنا المستفيضة بعنوان « الحروب الصليبية في اواخر العصور الوسطى »<sup>(١٠٦)</sup> . وهدفنا هنا تحليل ذلك القدر الهائل من المعلومات الذي سجله النويري كشاهد عيان ، اودلك الذي جمعه بنفسه نقلا عن الروايات التي سمعها من شهود العيان الآخرين . ومعروف ان الحقائق التي قدمها المؤلف توجد مبعثرة متناثرة على امتداد كتابه ، وقد تقطعت اوصالها بسبب كتابته في مجالات عديدة ليس هناك اى رابطة تجمع بينها . لذلك ، فان رواياته تحتاج الى جهد لتنسيقها ، وهو ما نأمل تحقيقه في هذا الفصل .

ان هذا الكتاب المطول ، كما يدل عنوانه ، بدأ اساسا بهدف تلوين الاحداث المشؤمة ، التي قدر « ان تحل بمدينة الاسكندرية . ومع ان المصنفات التاريخية العربية الاخرى التي ترجع الى اواخر العصور الوسطى ، قد افشحت مكانا مناسباً لتلك الاحداث ، الا ان أيا منها لا يستطيع مباراة « كتاب الالام » فيما يتعلق بحجم المعلومات التي قدمها خاصة بتفاصيل القصة .

وسيطل النويري هو مصدرونا الرئيسى الموثوق به في هذا الموضوع من وجهة النظر المصرية .

ووفقا لرواية المؤلف ، فإن قصة كارثة الاسكندرية تبدأ بمجموعة من التحذيرات التي وجهها عدد من الشيوخ الابرار في أرجاء مختلفة من العالم الاسلامي<sup>(١٠٧)</sup> . ويرجع تاريخ تصريحاتهم التي تنبأوا بها الى السنوات الاخيرة من القرن الثالث عشر الميلادي [اواخر القرن السابع الهجري] في بلاد ما بين النهرين ، والتي سجلها شخص يدعى الباجري<sup>(١٠٨)</sup> في ملحمة التي نظمها عن الحروب الصليبية ضد كل من سورية والاسكندرية . وقبل سقوط المدينة بوقت قصير يروى النويري اربعة منامات عن الكوارث الفادحة المنتظرة التي سوف تحل بها . وهي عبارة عن منامات

(١٠٦) الكتاب طبع لندن ( نشر Methuen & Co. Ltd. ) سنة ١٩٣٨ . وفيه قائمة بالمصادر والمراجع المتعلقة بالموضوع ، ص ٣٤٥-٣٧٨ والخامسي . وعلى ذلك ليس لغة ما يذهب الى اجاها هنا .

(١٠٧) Et. Combe, "Les presages annonçant la Croisade de Pierre de Lusignan et la cause de ceete attaque," Bulletin de la Societe Royal d'Archeologie d'Alexandrie, année 1948, No. 37.

(١٠٨) الالام ، ج ١ ، ص ١٠٦ وما بعدها . وقد ليس النويري تسعة عشر بيتا من تلك الملحمة الشعرية القديمة والتي كان ابن خلدون على معرفة بها . وورد الباجري بلي تحت اسم بجريني وبجرينة ، ولعله خطأ مطبعي . انظر كتاب العبر ( طبعه بيروت ، سنة ١٩٦١ ) ، ج ١ ، ص ٦٠٥ ، ٦٠٨ . انظر أيضا القرطبي : السلوك ( القاهرة ١٩٤١ ) ، ج ٢ ، قسم ٣ ، ص ١٦٧ ح ٣ ، ابن نوري بري : النجوم الزاهرة ( القاهرة ١٩٤٢ ) ، ج ٩ ، ص ٢٦٢ . ويظهر اسم الباجري بلي أيضا في مؤلفي ابن كثير وابن شاكر . انظر الالام ، ج ١ ، ص ١٠٧ ح ١ والباجري بلي من مواطني قرية بجرينة ، وهي تقع بين البعاومانيين فيما بين البحرين ، وذلك وفقا لمجم البلدان الفيلوت ، ج ١ ، ص ١١٥ . انظر الالام ج ١ ، ص ١٠٦-١٠٧ ح ٦ .



تراءت لأربعة من مواطني<sup>(١٠٩)</sup> الاسكندرية ، بالإضافة الى منام خامس يذكر ان مصدره دمشق<sup>(١١٠)</sup> ومنذ البداية يستبق المؤلف الاحداث قائلا ان سقوط مدينته العظيمة لا يعزى الى بسالة غزاتها ، ولكنه كان فقط قدرا محتوما انزله الله كمقاب لخفطاي سكانها وآثامهم ومع ذلك فهو لا يجد من الكلمات مايكفي ليسب غازيا بطرس الاول لوزجنان الذي يصفه بأنه كلب لعين ولص<sup>(١١١)</sup> وجبان ، ركن الى القرار بما سلبه خوفا من مواجهة امدادات السلطان التي كانت في طريقها الى المدينة . ويقرر ان بطرس كان يحتل ادنى المراتب بين الملوك المسيحيين ، وان مكانه بينهم « كراهي قرده في جزيرة »<sup>(١١٢)</sup> .

وحيث ان ارادة الله بترك المدينة للفرنجة كانت امرا لامر له ولا سبيل الى مقاومته ، الا ان بعض الظروف هي التي مهدت الطريق لتنفيذه وتحقيقه . وهنا يشرع التوحيدي في ذكر سبعة أسباب أدت الى الكارثة ، يمكن ترتيبها زمنيا كالآتي<sup>(١١٣)</sup> :

السبب الاول : في عام ٧٥٥ هـ / ١٣٥٤ م اصدر السلطان صالح بن الناصر محمد بن المنصور قلاوون ( ٧٥٢ - ٧٥٥ هـ / ١٣٥١ - ١٣٥٤ م ) مرسوما بطرد جميع المسيحيين الأقباط من دواوين الحكومة مالم يرتدوا عن دينهم ويعتقوا الاسلام . وزاد الطين بلة ، انه نص في نفس المرسوم ان يكون لجميع الرعايا المسيحيين زي خاص مميز . كما حتم عليهم ركوب الحميز فقط بدلا من الجياد . وان تطبيق هذه الاجراءات المهينة في كل من القاهرة والاسكندرية ، شجع عوام المسلمين أن يبدأوا حركة اضطهاد ضد جميع المسيحيين ، سواء اكانوا من اهل البلد او من الاجانب الذين يقيمون في كلتا العاصمتين . وبذلك اضطر التجار المسيحيون الاجانب الى جمع بضائعهم وحزم امتعتهم والعودة الى بلاد الروم . وقد أثار هذا الاجراء غضب الملك القبرصي الذي بدأ نتيجة لذلك رحلته الى الغرب بحثا عن مجتدين للهجوم على الاسكندرية<sup>(١١٤)</sup>

السبب الثاني : يقال ان بطرس الاول لوزجنان عند اعتلائه العرش ( ١٣٥٩ - ١٣٦٩ م ) ، طلب من السلطان الناصر حسن اثناء ولايته الثانية ( ٧٥٥ - ٧٦٢ هـ / ١٣٥٤ - ١٣٦١ م ) السماح له بزيارة صور لتدعيم تسويجه بالجولوس على عمود معين في تلك المدينة طبقا للتقاليد القبرصية المتبعة . ولكن السلطان رفض طلبه باحتقار . وعلى هذا ، فان بطرس الذي أثار غضبه هذا الموقف ، قام بغزو الاسكندرية انتقاما لكرامته<sup>(١١٥)</sup>

السبب الثالث : في شوال ٧٥٥ هـ ( اكتوبر - نوفمبر ١٣٥٤ م ) رست سفينة محملة بقرصنة الفرنجة في ميناء الاسكندرية ، وسببت مضايقات للبحرية الاسلامية مما جعل نائب السلطان بالمدينة يرسل القناصل المسيحيين الى

(١٠٩) الألام ج ١ ، ص ١٠١ وما يليها . ومولاه هم أيو عبد الله محمد بن صالح الناصر المصري ، وأيو عبد الله محمد المذهب ، وأيو عبد الله محمد بن أحد التاجر الرحالة ، وعلى بن راشد الحجازي القيم الاسكندرية .

(١١٠) نفس المرجع ، ج ١ ، ص ١٠٥ - ١٠٦ هو ربحان الخيشي الذي توجه الى القاهرة بعد انعام الذي تراءى له وهو تائم بدمشق ودخل الاسكندرية بعد الفزرة . وهناك اغتلب بالفرنجة الذين كان يتن لفنهم ، ولكن من الوصول الى بطانة الملك بطرس وسرق مهناءه الذهبي واداه ليا بعد بجيلغ لثلاثمائة دينار .

(١١١) نفس المرجع ، ج ١ ، ص ٣ - ٢ .

(١١٢) نفس المرجع ، ج ١ ، ص ١١٣ .

(١١٣) نفس المرجع ، ج ١ ، ص ٩٢ - ١١٠ .

(١١٤) نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ٩٢ وما يليها .

(١١٥) نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ٩٦ - ٩٧ .

المعتدين للتأكد من نواياهم واغراضهم . فقالوا انهم يحتاجون الى مؤن ومياه عذبة بادر النائب بارسالها اليهم . ثم تتكرروا بعد ذلك لقواعد كرم الضيافة بسلب سفينة سورية راسية في مياه الاسكندرية وابتعدوا عن الميناء . وقد وصلت أخبار هذه القصة الى بطرس الذى أدرك أن مدينة الاسكندرية خالية من الحراسات . وعلى ذلك قرر الاستيلاء عليها  
(عنة<sup>(١١٦)</sup>)

السبب الرابع : شن بعض القراصنة المسيحيين غارة بالقرب من رشيد انتهت بأسر عدد من المسلمين وفرار المغيرين . وكانت هذه الغارة دليلا آخر شجع بطرس كثيرا على مهاجمة الاسكندرية<sup>(١١٧)</sup>

السبب الخامس : فى ٢٧ شعبان ٧٦٤ هـ ( ١١ يونيو ١٣٦٣ م ) رست ثلاث سفن تحمل مائة من الجنود المسلحين عند شاطئ أبى قبر من ضواحي الاسكندرية . ولقبضوا على ستة وستين رجلا وامرأة ومظلا من المسلمين ، ثم فروا بهم الى صيدا حيث أطلق سراحهم بعد أن اقتداهم المسلمون . وقد عززت هذه الحادثة ، مرة أخرى ، موقف الحاكم القبرصى بالنسبة لمشروعه ضد الاسكندرية<sup>(١١٨)</sup> .

السبب السادس : أعقب تلك الغارة الفاشلة التى قامت بها ست سفن على أبى قبر نفسها ، غارة أخرى على مدينة رشيد الأهلة بالسكان . وبعد رسو السفن ، تصدت لها وسائل الدفاع الاسلامى ، وفقد القراصنة ثمانين رجلا من رجالهم فى هذا الصدام . فكان لا بد من الانتقام لهذه الهزيمة ، وكانت فرصتهم تتمثل فى غزو الاسكندرية<sup>(١١٩)</sup> .

السبب السابع : كان من نتيجة المذبحة التى راح ضحيتها البنادقة المقيمون فى الاسكندرية على ايدى العوام ، ان توثقت صلة البندقية بقبرص ضد مصر . ووضعت البندقية اسطولا تحت تصرف بطرس الاول فى مشروعه المزمع القيام به ضد الاسكندرية . وفى نفس الوقت تلقى البابا فى روما بقله الى جانب قبرص ، لجمع الامدادات من الدول الاوروبية والأمراء الاوروبيين الذين شاركوا فى غزو الاسكندرية<sup>(١٢٠)</sup> .

ومن خلال عرض التوريرى للأسباب واتكاساتها ، يبدو ان كلا من الجانبين كان لديه نظام للتجسس والاستطلاع ، وان كلا منهما كان يتابع الموقف فى كل من قبرص والاسكندرية . وقيل ان نائب السلطنة<sup>(١٢١)</sup> بالمدينة كان قد تلقى تحذيرا من عملائه عن الاستعدادات القائمة فى قبرص . ولكن كل ما استطاع القيام به هو تعلية سور المدينة من جهة الباب الاخضر الذى يواجه الميناء الغربى . كما نبه يلبغا الخاسكى مقدم جيوش المماليك فى القاهرة ، ملتصقا ارسال العون والامدادات . ولكن توسلاته لم تجد أذنا صاغية من قبل الادارة المركزية . ثم ان السلطات فى القاهرة لم تكن تتوقع احتمال هجوم خطير تشنه قبرص [ على الاسكندرية ] . وساد الاعتقاد ان بطرس ليست لديه القوة او الشجاعة لتولى حتى أقل العمليات الحربية ضد ممالك مصر . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى كان الملك القبرصى على دراية تامة بضعف دفاعات المدينة عن طريق أولئك الذين أخبروه بذلك شخصيا . ويصف المؤلف تلك الدفاعات

(١١٦) نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ٩٧ وما يليها .

(١١٧) نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ١٠٢ وما يليها .

(١١٨) نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ١٠٦ - ١٠٧ .

(١١٩) نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ١٠٧ - ١٠٩ .

(١٢٠) نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ١٠٩ وما يليها .

(١٢١) هو وثقاق زين الدين خالد ، وهو أمير غير معروف على ما يبدو . انظر نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ١١١٠ .

بأنها كانت تتكون أساساً من مجموعة صغيرة من الجند تتبخر خارج أسوار المدينة بسيفها المرصعة بالجواهر ، وعمايمها الحريرية الجذابة وثيابها المعطرة ، ولكن كانت تنقصهم روح القتال الحقيقية<sup>(١٢٢)</sup> . وحدث أيضاً أن نائب السلطان كان متغيباً عن المدينة ، فقد كان حاكمها خليل صلاح الدين بن عرام غائباً عنها بمكة بسبب الحج في ذلك الوقت . وقد بعث القاهرة بأمير غير متمرس يدعى جنغرا ليحل محله<sup>(١٢٣)</sup> . وفضلاً عن ذلك ، يقال أن كاتب الديوان بالإسكندرية ويدعى شمس الدين ابن غراب كان متأمراً مع السلطات القبرصية<sup>(١٢٤)</sup> . وفي زحمة تلك الظروف حدثت ساعة الصفر ، عندما يصل فيضان النيل إلى أعلا منسوب له ، وتفصل الدلتاين الإسكندرية والقاهرة بعد أن تكون قد غمرتها المياه ، بحيث تصبح عملية نقل القوات من الجنوب أمراً صعباً متعذراً . وبعبارة أخرى ، فقد كان الموقف كله مهياً للغزوة المزمع القيام بها ، مع احتمالات قوية للنجاح .

ومن هذه النقطة فصاعداً ، يبدو أن ما كتبه النويري عن تاريخ الحملة الصليبية ينقسم إلى شقين . ففي المقام الأول ، يتميز وصفه كشاهد عيان لما رآه خارج الأسوار وعلى الشاطئ عند مرأى الأسطول المسيحي ، وخطاب اللوم الذي تبع انزال القوات المعادية ، بالوضوح . وكان النويري هناك ، أيضاً ، بين موجات الغارين بعد دخول الأعداء المدينة . وقد ترك لنا وصفاً حياً لوضع يائس مضطرب . ثم نجده بعد ذلك يخفى مع الجماهير . أما الشق الثاني الذي أسهم به [ في تسجيل تاريخ الحملة المذكورة ] ، فيبدأ بتقرير آخر عن مصير الغارين المشتمول فيها وراء أبواب المدينة . وبعد ذلك يستأنف وصفه للمشاهد التي رآها عند دخوله المدينة بعد انسحاب المسيحيين منها . أما فيما يتعلق بما حدث بين لحظتي اختفائه من المدينة وظهوره فيها ثانية ، فقد جمع معلوماته عنه من شهود عيان آخرين كانوا قد أثروا البقاء داخل أسوارها ، وبذلك أصبحت الصورة [ التي زودنا بها ] عن المذبحة وأعمال التدمير كاملة غير منقوصة .

ولنتابع بشيء من التفصيل تلك الروايات الممتعة التي تنبض بالحياة فقد اعتقد أهل الإسكندرية في بادئ الأمر ، أن الأسطول القادم عبارة عن مجموعة من السفن التجارية الوافدة من البندقية بهدف شراء الفلفل والتوابل كالمعتاد . ولذلك أسرعوا إلى الشاطئ ليشاهدوا رسوها ، بينما اختلط الباعة التجولون وبتاعو الطعام مع الجماهير ، يبيعون سلعهم ويضائعهم ، وكانت المساومات لتخفيض الأسعار وفقاً للطريقة الشرقية تدوى في كل مكان . ولم يكتثر الناس بالكوارث الوشيكة الوقوع ، حتى بدأ المسيحيون المسلحون تسليحاً كاملاً ينزلون بسيفهم المسلولة التي استخدموها ضد الجماهير المتفرجة العزل من السلاح . وفي هذه اللحظة أسرعوا يهرولون في اتجاه البوابات طلباً للأمان وراء أسوار المدينة . وزاد الطين بلة والحالة سوءاً ، ظهر فصائل الفرسان القليلة العدد ومعها القوات المحلية في محاولة لصد الهجوم . وكانت حالة الاضطراب تفوق حد الوصف . إذ ترك التجار من أهل المدينة بضائعهم تداس بالأقدام وتسحقها حوافر الخيل فوق الرمال .

وكان النائب الجديد [ للمدينة جنغرا ] ممزقاً بين رأيين ثار حولها الجدل والنقاش فيما يتعلق بمشكلة الدفاع . وأحد الرأيين تقدم به تاجر مغربي نصيح بأن يصدر النائب أوامره إلى الجند والعوام بالانسحاب من الشاطئ والقتال من

(١٢٢) نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ١١٤ - ١١٥ .

(١٢٣) نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ١٣٠ وما يليها .

(١٢٤) نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ١٥٨ .

داخل حصون المدينة واستحكاماتها . اما الرأي الآخر فقد وصم ذلك المسلك بالجبن ، واصر على مواجهة العدو مباشرة بالحيولة بينه وبين النزول الى الشاطئ . وانصار هذه النصيحة هم سكان الأريطة في الجبانات المقامة خارج اسوار المدينة الذين لم يكونوا - في الحقيقة - راغبين في التخل عن احيائهم للعدو . وانحاز جنغرا الذي كانت تعوزه الخبرة إلى رأى الفريق الثانى ، ودفع الثمن غاليا لقراره الذى جانيته الحكمة .

ومن ثم ، أبيدت كتيبة مغربية في محاولة منهورة لاشعال النيران في خطاف تابع للمسيحيين على مقربة من الساحل . ثم منيت فرقة من الفرسان العرب بالمزفة . وعندما ونحزت سهام المسيحيين الجياد ، جمحت خائفة وسط الجماهير الهاربة ، الامر الذى زاد من شدة الدمار والخراب . اما جنغرا نفسه فقد جرح في القتال الذى نشب بعد ذلك ، واضطر الى التراجع مع الآخرين فارا نحو الباب الأخضر الذى يعرف ايضا باسم باب البحر طلبا للأمان خلف الأسوار .

ولنستشهد بأمثلة عن تلك الشجاعة الياثسة . اذ انبرى جزايردى عماد الشريف ، بشراسة ، بساطور المجزرة الذى يتميز بصلبه الحاد ، وأخذ يعمل القتل في الأعداء حتى سقط هو نفسه صريعا . كذلك اخترق فقيه يدعى محمد بن الطفل الصغوف المسيحية بسيف مسلول في محاولة لأعمال القتل فيهم ، ثم وقع شهيدا<sup>(١٢٥)</sup> . وفي جزيرة فاروس دافع حرس رباط [ الشيخ محمد ] ابن سلام<sup>(١٢٦)</sup> عن ميناهم الفخم ضد الفرسان المسلحين تسليحا تاما . وقد تمكنوا من صددهم من فوق سطح المبنى ولكنهم ذبحوا أخيرا وقيل أن دماءهم سالت في جداول خلال المزاريب ( الميازيب ) ، أما أولئك الذين شاهدوا وبقياء المذبحة بعد انسحاب المسيحيين ، فقد صعدوا عند رؤية كتل الدم المتجمدة التى سدت تلك المزاريب . كما أن جثث الشهداء المذبوحين ظلت على السطح حتى خللتها شمس مصر . ثم جمعت معا ودفنت في حفرة واحدة خارج الرباط الذى تعرض للسلب والنهب<sup>(١٢٧)</sup> .

اما الصورة التالية فهي تبين عملية تسلق الصليبيين للأسوار ودخولهم المدينة . وقد تناولها الكاتب بشكل مفصل واضح . ففى البداية بدت المدينة منيعة لاترام بأسوارها العالية المزودة وأبراجها الحصينة . وفشلت محاولات حرق الباب الأخضر المنيع ، لأن المهاجمين لم يستطيعوا الاقتراب منه بنيرانهم . فكانت سهام المدافعين السريعة تصدهم بشكل منتظم اعلا منطقة السور . وفجأة اكتشف العدو جانبها من السور خاليا من الدفاع بالقرب من الميناء الشرقى . وعمدنا النورى بتفسير هذه الثغرة في الدفاع . ذلك ان رماة السهام الذين تركزوا عند الباب الأخضر حيل بينهم وبين الوصول الى هذا القسم من السور فوق باب البحر وباب الديوان الذى يطل على الميناء الشرقى بالقرب من برج صرغام الفريز . وزيادة على ذلك ، فإن الوصول الى ذلك الجزء من السور من داخل المدينة ، كان ممكنا فقط من خلال باب الديوان حيث كانت جميع انواع البضائع مكدسة في انتظار تفريقها . وبذلك كانت منطقة الديوان مغلقة من الداخل للمحافظلة على محتوياتها . وبناء على ذلك ، فإن السور فوق البوابات المذكورة اصبح منيعا من الداخل . وقيل ان اخلاق باب الديوان في وجه الدفاع كان عملا من اعمال خيانة شمس الدين بن غراب الذى اتهم فيما بعد بأن الملك بطرس

(١٢٥) نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ١٤٨ - ١٤٩ .

(١٢٦) نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ١٥٣ - ١٥٤ . واسب هذا البلى ثرى من مواطني المدينة يدعى محمد بن سلام . وقد ذكر الصليبيون باه وشيايكه المصنوعة من النحاس المشغول ، كما اشعلوا النيران في سفله الزعفران . وقد استعاضوا نفس الرجل في ٧١١ هـ / ١٣٢٩ م ، ولكنه اثنى سلف ديوانه لمجاريه في اثنى بالثار .

(١٢٧) نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ١٥١ .

[لوسنيان] قد رشاه وعاملا آخر من عمال المماليك يدعى شمس الدين بن ابن عذبية . وحاول الاثنان تبرير فعلتهما بحجة ان فتحة البوابات الداخلية سوف تمكن الأجانب المقيمين [ في الاسكندرية ] من نقل البضائع المستحقة الرسوم من الديوان ، وبذلك يسلبون الخزانة من حصيلة الجمارك غير المدفوعة . ويقال ان شمس الدين بن غراب قد دفع حياته فيها بعد ثمنها هذه الفعلة . فقد تم اعدامه بطريقة وحشية بتوسيطه وعلق قطعتين على الباب [ باب رشيد ] .

وعلى أية حال ، فان اكتشاف السور الخالي من الدفاع ، قد أعطى الصليبيين فرصتهم الذهبية . وفي غمرة الفرح بدأوا في اعداد السلام المفصلة التي تسلفوا عليها السور بأمان ، بينما أشعل الآخرون النار في باب الديوان . وفي ذمعل حملق الناس الذين كانوا على الجانب الآخر من قنعة ضرغام ، وقد استبد بهم اليأس والعجز ، وأدركوا ان اليوم قد انتهى [ في غير صالحهم ] . وهبط المسيحيون الى داخل الديوان ، وفتحوا بابة المحترق على مصراعيه ، وتدفق المهاجون داخل المدينة .

وكان الهدمار الذي اصاب الجانب الاسلامي خفيفا ورهيبا . فقد فر المواطنون نحو البوابات البرية في محاولة للهروب طلبا للأمان . وقد أعطى النويرى وصفا حيا لهذا المشهد ، لانه هو نفسه كان من بين الجماهير الهاربة . وبلغ من شدة الزحام بسبب كثافة الجموع المتدفقة عند البوابات البرية ان عددا من الناس أتروا الهبوط الأسرع من الأسوار بواسطة الحبال . فسقط عدد كبير منهم على الأرض مابين قتيل وعاجز . وقد حشا احد التجار كل ثروته التي تبلغ ستة آلاف دينار من الذهب في كيس نقود ، ثم انضم الى الجموع المتزاحمة عبر باب رشيد . واثنا صراعه من اجل الحياة سقط منه الكيس ، ولم يستطع الانحناء لاستعادته بسبب الضغط الهائل للكتل البشرية التي تطلب النجاة . وحاولت حشود الفارين التي تمكنت من الهرب الاتجاه الى القرى المجاورة مثل البسلفون والكرويون بمديرة البحيرة . ولكن معظمهم تعرض لرعب آخر جديد في الحقول المكشوفة . اذ سلبهم مامعهم البدو وقطاع الطرق من القبال العربية التي تقطن الصحراء الغربية دون رحمة او هوادة .

وعند هذه الواقعة يخفى النويرى من مسرح الصراع والمذبحة داخل المدينة . ويمتثل ان يكون قد عاد الى النورية قريته الاصلية في مصر الوسطى لقضاء فترة من الراحة تم اثناءها طرد الصليبيين الى البحر عندما عاد هو ثانية الى الاسكندرية . ولا نعرف على وجه التحديد تاريخ عودته ليواجه مصر المدينة المقجع ، لكنه لم يستطع ان يمكث بعيدا عنها لفترة طويلة . وعند وصوله بدأ يجمع المعلومات من أولئك الذين بقوا في المدينة ، وظلوا في قيد الحياة بمعجزة بعد الاحتلال المسيحي لها . وان رواياته النابضة بالحياة عن أحداث تلك الأيام القليلة تفوق كل وصف وتقدير .

وقد يكون من العيب ان نعدد قائمة مستوفاة تتضمن بيانا بجميع التحف الفنية التي أخذها الصليبيون من المدينة ، او ان نحصى المخازن والنزل التي هبت ، او ان نعدد المدارس والقصور والمساجد التي احترقت ودمرت . وبالرغم من ذلك ، يمد نا النويرى بمجموعة من القصص والروايات التاريخية التي يجب ان نلخصها هنا لتقدير فداحة تلك الكارثة العظيمة التي حلت بالاسكندرية . وان كل ما يمكن الغزاة من وضع أيديهم عليه من ذهب وفضة ، وكل ما خفف حمله وغلا ثمنه من المعادن الثمينة والنحاس ، وكذلك كل بالات الحرير والأشياء الثمينة كالسجاجيد والأقمشة الغالية والكثير من التوابل والفلفل والحاصلات الهندية - كل هذا أخذه الصليبيون الى أسطولهم . واستخدمت الجمال والحيول والبغال والحمر الموجودة في المدينة في نقل تلك الغنائم الهائلة . كما سخروا الرجال والنساء لينضموا هم أيضا الى تلك الدواب في عملية النقل . وعندما تمت السخرة ، صدر الأمر بدخولهم في جوف السفن لتقلهم عبر البحر

كأسرى وعبيد المستقبل . وفيها يتعلّق بالحيوانات ، فبمجرد انتهاء مهمتها لم يعد لها اذن فائدة بالنسبة لهم ، لأن السفن كانت قد بلغت أقصى حولتها ، طعمها المحاربون المتدينون بسيوفهم وحراهم كما كسروا عظام ارجلها الرفيعة بمتنهي البساطة لشل حركتها . ثم تركوها اما ميتة او في طريقها للموت في الشمس الحارقة فوق الشاطئ الرمل ، حتى جاء المسلمون فأحرقوا جثثها بعد استعادة المدينة . كما اشعل الصليبيون النيران في المصانع والمخازن ومكاتب الادارة وجميع المباني .

وثمة شاهد عيان كان يراقب الجند وهم في مجموعات من فجوة في غيبا سرى ، تحدث الى النويرى عن الأسلوب الذى اتبعوه في اشعال الحرائق . فقد غطوا البوابات المغلقة بمادة سوداء لطخت بدهان احمر ، ومن الصعب التثبت ان كانت تتكون من القطن ( القار ) والكبريت . وعلى اية حال ، فالامر الهام هو انه عندما مس اللهب هذه الابواب ، اشتعلت على الفور وانهارت تاركة البناء مفتوحا على مصراعيه تحت رحمة العدو . كما قيل لنا ان عصابات اخرى من المسيحيين حملت ايضا معها حلفاء غمسست في الزيت والقار والزفت والنفط . ثم ثبتت على اطراف السهام واشعلت واطلقت الى اعلا نحو أسقف المباني الخشبية لتبدأ حرائق اخرى ، بهدف التأكد من اتلاف المكان بصفة نهائية . وكانت بعض المباني آية في الفن ، سواء المنقوشة باليد او المدهونة بالطلاء .

هذا ، ولم يميز الصليبيون بين المنشآت الخاصة بالتجار المسلمين وتلك التي كانت من املاك المسيحيين . ومن بين الفنادق والنزل التي دمرها ، عدد النويرى تلك التي تخص القبطانيين والجنوية وأهالي مرسيليا . كما جردت المساجد والأضرحة من كل عمل فني يمكن نقله . كذلك هشموا جميع قناديلها الزجاجية المطعمة بالجواهر والاحجار الكريمة ، لانه لم يكن من السهل نقلها . اما البيوت الخاصة ، فقد قامت بالانتقيب فيها بشكل منتظم مجموعات أصغر من تلك العصابات من رماة السهام . فكانوا يطلبون من سكانها الموجودين فيها كل نفائسهم حتى لا يتعرضوا للموت . وفي هذا لم ينح مسلم أو مسيحي قبلى من أهل البلد . ويستشهد النويرى بحادثة خاصة لسيدة قبطية كسيحة ابنة قس يدعى جرجس بن فضائل ، كان قريبا على كنيسة قبطية بجوار منزلها . فلم تستطع حتى علامة الصليب [ التي رسمتها لهم ] أن تعفيها من مضايقة أفراد إحدى هذه العصابات الذين طلبوا اليها ان تسلمهم كل ذهبها وفضتها . ومع ذلك فقد حاولت انقاذ الكنيسة من الحريق الذي أشعلوه بتسليمهم الألوان الفضية للأسرار المقدسة مع كل مدخراتها الذهبية .

ونخبرنا النويرى ، أيضا ، أن سبعين سفينة [ من السفن الصليبية ] قد حملت اكثر من طاقاتها من الغنائم ، لدرجة ان الفرنج اضطروا الى القاء جزء من حولتها في البحر المتوسط بالقرب من شاطئ ابى قير شرقي الاسكندرية لتفادى غرقها أو تقذفها البطىء الذى قد يعرضهم للمطاردين . كما يقول النويرى انه رأى صهاريج الزيت والشهد والزبد الخالص محطمة في الشوارع لأن الصليبيين لم يستطيعوا حملها معهم . كما أنهم تركوا كميات هائلة من التوابل والفلفل التي كانوا قد سحبوها الى الشاطئ بسبب ضخامة حجمها .

وربما كان المبني الوحيد الذى لوحظ بقاؤه سالما هو الترسانة التي احتوت غازان الذخيرة وبها ستون ألف سهم ، وكميات هائلة من القس ، والسيوف ، والخراب ، والحلل الحربية ، والدروع ، وأجهزة المدفعية والمواد المنتهبة وجميع المعدات الحربية وآلات الحصار وحذت معجزة نجاحها من النهب والتدمير التامين بمحض الصدفة . فقد وقفت مجموعة من الرجال المسلحين عند بابها العظيم للتشاور . ولكن عندما اعتقدوا ان مظهره انه قد يكون أحد ابواب المدينة بسبب حجمه الضخم اكثر من المعتاد وقربه من اسوار المدينة ، قرروا تركه ، ورحلوا عنه دون ان يمسه بسوء . ولكن جميع

المبانى الاخرى الخاصة بمصالح الدولة ، بما فيها الديوان ، قد تركت حطاما خاوية محترقة . ومع ذلك ، فمما يدعو الى العجب أن عصابات اخرى [ من الفرنج ] أشعلت النيران في عدد من الأبواب البرية ومن بينها باب سدره ، وهو خطأ تكتيكي ، إذ زاد من فرص دخول قوات السلطان الى المدينة والقادمة اليها من الجنوب . وربما ظنوا ، عن سخط وغضب ، أنه بدون الأبواب تصبح المدينة مفتوحة أمامهم عندما يقومون بهجوم جديد . وكان هذا ، بطبيعة الحال ، أملا ذهب أدراج الرياح ، لأن المصريين أعادوا ترميم الأبواب بسرعة . وبعد أن زادت يقظتهم وقوى حرصهم ، لم يمرؤ المسيحيون اطلاقا على معاودة الكرة .

وعندما دخل جيش السلطان شعبان تلك المدينة ثانية ، اصاب زعماءه الملح لما راوه . فقد كانت جثث المذبوحين والمشوهين من الرجال والنساء والاطفال مبعثرة في الشوارع دون اعتبار للسن أو الجنس . كما دمرت أحياء بأكملها . ولم يبق أى مبنى هام ، دون أن يس سؤى الترسانة الخربية على ما يبدو . فبذت المدينة قبرا مفتوحا ، وتعرثر الناس فوق جثث الضحايا من المسلمين والمسيحيين واليهود على السواء . وقد يصيب الدوار العقل عندما يدرك أن مثل هذا الدمار الفظيع وتلك المذبحة الجماعية يمكن أن تتم اثناء احتلال دام ثمانية أيام . ولم تكن الاسكندرية قد تعرضت خلال عمرها الطويل لمثل تلك الكوارث والبلايا التي لم تقف منها حتى العصر الحديث .

وبعدنا التوري ببعض التفاصيل الشيقة للمفاوضات التي دارت بين السلطات الاسلامية بعد استعادة المدينة وبين الملك بطرس المنسحب علي سفنه ، وذلك قبل ابصاره . وقد اختير لتلك المهمة احد اليهود المقيمين بالاسكندرية وكان يتقن الحديث بلغة الفرنجة . وكان المصريون الفارون قبل ذلك قد ساقوا معهم جميع التجار المسيحيين في المدينة الي دمهور عاصمة مديرية البحيرة . لذا ، تقدموا بعرض يقوم علي تبادل المسيحيين بأسري المسلمين علي السفن القبرصية . ولكن هذا العرض لم يأت بنتيجة ، وقرر الجيش المسيحي أن يبحر بسرعة بأسلابه ومغانمه طلبا للامان في عرض البحر .

وبعد عودة الملك بطرس الي قبرص ، وقد داعبه الامل في أن سورة غضب السلطان[المملوكي] قد هدأت ، سعي الي مفاوضات لاعادة السلام الي مصر . ولكن الجراح التي اصيبت بها البلد كانت عميقة ، للدرجة أنه لم يكن من السهل نسيانها أو التغاضي عنها بمثل هذه السرعة . وقد قوبلت المصالحة الملكية الجديدة بالرفض التام من قبل القاهرة . ولذلك لجأ بطرس الي اتخاذ اجراء عنيف لحد ما يأمل إجبار السلطان علي الصلح . اذ جهز أسطولا صغيرا اغار به أكثر من مرة علي طرابلس علي الساحل الشامي ، في نوفمبر ١٣٦٦ ويونيو ١٣٦٧م ، ثم مرة ثالثة في سبتمبر من نفس العام ، ولكن دون جدوي . ويفقد التوري الاسطول القبرصي في آخر تلك الغارات الخربية بمائة وخمسين سفينة ، متضمنة بعض الشواني وثاقلات الجند . ووجد المهاجرون ان الاهالي ثابتون وعلي استعداد للملاقاهم . لذا ، بعد انزال قواتهم ، قرر القبارصة العودة بسرعة الي سفنهم للبحث عن اراض مكشوفة ليهاجرونها ، حيث يمكنهم مفاجئة مسلمين آخرين . وهكذا نجحوا في نهب طرسوس وتدمير اكوام متراكمة من المواد التي كانت قد اعدت لبناء الشواني للسلطان . فأشعلوا النيران في كميات هائلة من الاخشاب والقار وحبال المراكب ، ينأ تحلصوا من المواد غير القابلة للاشتعال كالحديد والمسابر بالقائنها الي البحر . ثم توجهوا بعد ذلك نحو ميناء اللاذقية ، ولكنهم ، مرة اخري ، وجدوا الاهالي علي البر علي استعداد للملاقاهم . وقد حالت الرياح والأمواج الشديدة ، وكذلك استحكامات المدينة المنيعه ، بينهم وبين انزال قوات اضافية . وظلت حالة التوتر المستمر قائمة طوال حكم بطرس الاول وحتى مقتله علي يد نبلائه النافرين عليه عام ١٣٦٩م .

وعلى أية حال ، لم يتحسن الموقف المتدهور بين مصر وقبرص باختفاء الملك المعجوز الذي يعتبر الوغد الحقيقي وراء مأساة الاسكندرية . ففي خلال حكم خلفه بطرس الثاني ( ١٣٦٩ - ١٣٨٢ م ) كانت غارات القرصنة ، سواء الموجهة ضد الشواطئ المملوكية أو ضد السفن الاسلامية في عرض البحر تقابل بغارات مماثلة من جانب مصر على شواطئ قبرص الجنوبية . وفي ظل هذه الظروف المضطربة توقفت التجارة مع القومونات الاوروبية . وكان على كل من جنوة والبندقية التوسط لاعادة السلام واستئناف تجارتهم مع مصر التي تعود عليها بالمكاسب والارباح . وان قصة ايفاد مبعوثين من قبلها الى القاهرة لتحقيق سلام مهتز ، قد رواها المؤلف بشيء من التفصيل . ويبدو في واقع الامر ، ان السلطان كان يشجع تلك المحادثات غير الحاسمة لكسب الوقت حتى يتمكن من استكمال بناء اسطول قوي يسمح بغزو تلك المملكة الجزرية [ اي قبرص ] أخذاً بالآثر . والظاهر أن النوري لم يعيش حتى يرى تحقيق هذا الحلم . اذ تحقق ، فعلاً ، غزو قبرص في عهد السلطان [ الأشرف ] برسباي ( ١٤٢٢ - ١٤٣٨ م ) من دولة المماليك الجديدة البرجية في حملة مدمرة مضادة . لقد جهز برسباي ثلاث حملات ناجحة ضد قبرص في اعوام ١٤٢٤ و ١٤٢٥ و ١٤٢٦ م . علي التوالي . وأثناء الحملة الثالثة نشبت معركة خيروكيتيا في السهول الجنوبية من الجزيرة . وكان النصر الذي حققه المصريون في ساحة القتال ساحقاً . اذ أسروا ملك قبرص الضعيف المدعو جانوس الثاني Ganus II وارتسقاطه ، وحلوه معهم مكبلين بالأغلال الى القاهرة . وبهذه الطريقة دفع جانوس الثاني الثمن بأعظا عقاباً للفعلة الشنعاء التي ارتكبها بطرس الاول ضد الاسكندرية .

وان تطور الاحداث بعد ذلك اما يتعلق بفصل تال بعد انتهاء حياة النوري وكتابه . لهذا يجب متابعتها من حوليات تاريخية متأخرة ، نذكر من بينها كتاب السلوك للمقرئزي ، وهو اعظم المؤرخين المصريين في القرن الخامس عشر الميلادي [ القرن التاسع الهجري ] .

### الفصل الخامس

#### خاتمة

#### تقييم التراث الذي خلفه النوري

لفترة طويلة ترجع بنا الى أواخر العصور الوسطي ، لم يتمكن قراء كتاب الالام ، للنوري من تقدير قيمة ما خلفه لعالم الادب . ويعتبر كتابه ، حسبنا أسلفنا ، بمثابة فيح عطر من المعلومات غير المنسقة أكثر منه مقالة منظمة تعالج مجموعة محددة متصلة من الموضوعات . ولما كانت حرفة النوري هي نسخ المخططات ، فلا بد أنه قد اطلع على مؤلفات اصليّة يصعب حصرها تتناول العديد من الموضوعات . ويمكن فقط القول أنه أثناء قيام النوري بنسخ المخطوطات للتجار السكندريين الأثرياء قد ألهمت خياله أفكار وأجزاء معينة من تلك الاعمال . فعمل علي اكتناز مقتطفات منها ليستخدمها كلما واثته الفرصة . وقد حانت تلك الفرصة مع اضطر سادته في حياته ، الا وهي الحملة الصليبية المشهورة علي الاسكندرية عام ١٣٦٥ م . ولا بد أن تلك الحادثة المشهورة قد أثارت لدرجة أنه قرر أن يبدأ كتاب الالام ، كسجل لكل ما شاهده وما سمعه عنها . ولهذا السبب بدأ ينسج نصه حول هذه الواقعة بالذات .

ولم يتناول الموضوع بطريقة مباشرة أو مستقيمة . بل كان علي هيئة تعليق علي مرثاة حول مصر الاسكندرية كتبها شاعر معاصر غير معروف يدعي ابن أبي حجلة . لذا نجد تفاصيل تلك الحملة الصليبية مطمورة في ثنايا ذلك التعليق . وما زاد الطين بلة ، أنه قرر استخدام حصيلة المقتطفات الهائلة التي استقفاها من مخطوطاته بطريقة عشوائية أثناء سرد



رواياته ، متقلداً من موضوع إلى آخر ليس له أي علاقة بالفكرة الأصلية سوى كلمة عابرة أو فكرة سطحية لا تمت للامر الذي يعرضه بأية صلة حقيقية . ونتيجة لذلك ، نجده ينتقل الهويني من التاريخ إلى الأسطورة ومن التقاليد الإسلامية إلى الفحشاء والكلمات البدئية ومن الشعر الفصيح إلى القصص الخرافية ، ومن الحكمة الزاهدة والعقائد المقدسة إلى العلب الشعبي وسحابة النبات والحيوان ، ومن علوم الفلك والجغرافية إلى مهنة ركوب البحر وإلى المعلومات المتعلقة بالآثار ، أو حتى الأمور الثقافية كالأحاجي والألغاز المسلية والأشكال الشعرية الجبلدية للرجز والنثر الذي يتميز بالصنعة . ولقد كان كل هذا الشتات المختلط المتداخل ، هو الذي حال بين القراء الجادين وبين الخوض في أعماق هذا النص الهائل دون تحفيظ واضح أو تنظيم موضوعي . وربما يفسر هذا ، في الحقيقة ، موقف الباحثين الذي ينسجم بعدم الاهتمام بهذا الكتاب الذي لم يعن أحد بنشره أو دراسته دراسة واعية حتى ظهور طبعتنا الحالية .

وعلى أية حال ، نظراً لاهتمامنا بالدراسات التي تتعلق بالحروب الصليبية في القرن الرابع عشر ، لم نجد مفراً من القيام بعملية تفحص هذا المخطوط الصعب تفحصاً يمتاز بالصبر والدقة . هذا ، ويعرف النوري [ نفسه كتابه ] « الألام » تعريفاً له مغزاه ، مبيناً أنه يشتمل على « لمحات » ومن هنا بدأنا نكتشف هذا التراث غير المعروف الذي خلفه النوري ، والذي تناول الكثير من مجالات المعرفة التي قد تكون في بعض الأحيان فريدة في طابعها ونوعها وليس من المعقول ، في الواقع ، نشر أجزاء منفصلة من ذلك الكتاب الموسوعي بشكل مستقل قائم بذاته ، والتي قد ضمنها نبذاً ومقالات تعالج العديد من الأمور المستمدة منه . وإن نظرة سريعة على المجلد السابع بفهارسه الكبير الأربعة عشر ، تكشف عن خصوصية وثراء المعارف والمعلومات التي تضمنها هذا النص الضخم .

وليس من شك في أن المؤلف قد جمع أعظم مادة أصلية تتميز بقيمتها عن الحملة الصليبية على الإسكندرية من وجهة النظر المصرية . ومع ذلك ، أمدنا أثناء محاولته القيام بهذا العمل بالكثير من التفاصيل عن بناء وطوبوغرافية وآثار الإسكندرية في العصور الوسطى (١٢٨) وهنا نجد وصفاً للمباني والمنشآت الهامة التي تمتاز ببهائها وفنها المعماري الرائع ، قدمه رجل كان قد عاش فيها وعلى معرفة بكل شيء عنها . وكشاهد عيان أيضاً ، كان على معرفة بمباني المدينة الإينوستوس Eunostos والباب الكبير Portus Magnus الذي يرجع إلى عصر البطالة . وعلى هذا كان يوسعه اثره [ المكتبة العربية ] بما كتبه عن علم البحار ، وإن يزدو القاريء بأنهم مجموعة من المصطلحات العربية الخاصة بمهنة ركوب البحر التي عرف بوجودها في تلك اللغة . إذ استعرض ووصف جميع أنواع السفن التي تخترع عباب كل من البحر المتوسط والبحر الأحمر والمحيط الهندي والأنهار العظيمة القديمة من النيل إلى دجلة والفرات (١٢٩) .

وهنا تعرض أيضاً للعلوم الجغرافية التي أسهم فيها إسهاماً شخصياً . وما يدعو إلى الدهشة معرفته بكسروية الأرض ، تلك المعرفة التي لا بد أن يكون قد ورثها عن الجغرافيين العرب السابقين قبل أن تظهر هذه الفكرة في أوروبا . في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي [ أواخر القرن التاسع الهجري ] . وما يدعو إلى الإعجاب ، أيضاً ، وصفه لمواصم أوروبا ، وحصره للقلاع الإسبانية ، وذكره للجزر والأنهار والجبال والبراكين وغيرها من العلامات الجغرافية المميزة (١٣٠) .

(١٢٨) انظر الألام ، ج ٧ ، الفهرس السادس .

(١٢٩) نفس المرجع ، الفهرس السابع .

(١٣٠) نفس المرجع ، الفهرس الأول والثاني .

وبين ثنايا رواياته عن المعارك الإسلامية المبكرة والمتأخرة ، حفظ لنا الكثير من المعلومات الأساسية التي سوف تعين الباحث علي توضيح الغموض الذي يشوب تاريخ فن الحرب والقتال الاسلامي<sup>(١٣١)</sup> وقد اعتمدنا له ولكل الموضوعات سالفة الذكر ، فهارس خاصة نستطيع من خلالها تقدير قيمة ما خلفه النويري من معلومات لم تكن معروفة من قبل . ووجدنا انه من الضروري تعريف وتوضيح مصطلحاته ، مع تحديد الاماكن او التعريف بها في الهوامش السفلية . وقد نجحنا الي حد ما ، ولم يحالفنا التوفيق في بعض الاحيان في ايجاد حلول للمشاكل [ التي واجهتنا ] والتي نترك بعضها للباحثين المتخصصين في المستقبل .

اما في مجال الفقه والشريعة الاسلامية ، فلم يصف النويري سوى القليل وحيانا لا يضيف شيئا الي ادب الفقه القائم العظيم . وربما كانت المسألة الوحيدة الجديرة بالذكر هنا هي اقتباسه لكثير من الاحاديث التي يبدو انها غير صحيحة بالرغم من ادعائه صحة نسبتها<sup>(١٣٢)</sup> ويحتاج هذا الموضوع لمزيد من البحث في المستقبل .

كذلك أبدى النويري في عالم الادب اهتماما كبيرا باقتباس القصص القديمة ، والشعر القديم المعروف ولكن اسهامه الحقيقي يكمن في اقتباسه من شعر عصره بالذات . ومع ذلك ، فان هذه الناحية التي ادلى فيها بدلوه تفشل في ان تعكس روعة العصر الذهبي للادب العربي . وبالرغم من كل ذلك ، فهي تزودنا بنماذج لها وزنها تمثل خير تمثيل تأليف القرن الرابع عشر الميلادي [ القرن الثامن الهجري ] . وجانب كبير من هذا الشعر يصور حادثة معاصرة او يمتدح شخصية معروفة او يريثي حادثة أليمة مثل الحملة الصليبية علي الاسكندرية . ويعتبر النويري نفسه في الحقيقة شاعرا له مكانته . وتظهر قصائده في [ ثنايا ] عدة مجلدات [ من الامام ] . وهي ليست رائعة في طابعها ، ولكنها قد تساعد كوثائق تاريخية فيما يتعلق بأحداث عصره<sup>(١٣٣)</sup> .

ويستخدم النويري الاسلوب الايقاعي الموزون . ولذلك تبدو الصنعة والتكلف بوضوح في محاولة المؤلف ايجاد الغافية المطلوبة بأي وسيلة . وكثيرا ما تصبح هذه المسألة عقبة لا تستحق الاطراء . وان التناقض العجيب في اسلوبه يبدو في استخدامه العبارات الدارجة وانحرافه عن ايسر قواعد النحو والصرف ، مما يصعب معه المواءمة بينها وبين سعة اطلاعه في مجال الادب .

فهل من الجائز ان يكون نساخ « كتاب الامام » هم المرتكبين الحقيقيين لهذا الخطأ ، فشروها بذلك المخطوط الاصيل الذي يتضمن النص بخط المؤلف ؟ وسوف يظل هذا التساؤل قائما لانه من الصعوبة بمكان ان نجد له جوابا شافيا .

وليس يوسعنا اخفاء دهشنا بالنسبة للموضوعات المختلفة المتنوعة التي جمعها النويري بحض الصدفه ويتخطيط متواضع . ومع ذلك ، فان ثمرات جهوده الشاقة عبارة عن خليط غير مترابط من المعلومات التي جمعها بحكم خبرته كشاهد عيان [ لأحداث ذلك الزمان ] . وبالرغم من كل المآخذ التي تؤخذ على كتابه ونواحي القصور فيه فقد تمتع النويري بكافة الصفات التي تؤهله ليكون أحد مصنفى الموسوعات السكندريين في القرن الرابع عشر الميلادي [ القرن الثامن الهجري ] .

(١٣١) نفس المرجع ، الفهرس الثامن .

(١٣٢) نفس المرجع ، الفهرس الخامس .

(١٣٣) نفس المرجع ، الفهرس الرابع .

يحتل عصر سلاطين المماليك - وهو العصر الذي يمتد من منتصف القرن السابع الهجري ( الثالث عشر للميلاد ) حتى اوائل القرن العاشر الهجري ( السادس عشر للميلاد ) أي قرابة قرنين ونصف من الزمان ، يحتل أهمية خاصة على الصعيدين العالمي والمحلي ، نظرا لما واكب ذلك العصر من أحداث مثيرة ، وتيارات قوية بارزة في مختلف الانشطة الحربية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية ، مما جعل دولة سلاطين المماليك - وعاصمتها القاهرة - قبلة انظار المعاصرين من الاصدقاء والاعداء جميعا : الاصدقاء ينشدون مساعدتها ويأملون في عونها ، والاعداء يرجون مسالتها ويتجنبون غضبتها ، ويتقون بطشها ، ومن يتتبع تاريخ دولة سلاطين المماليك بوعي وادراك يلمس حقيقة لها مغزاها ، هي أنه لا يكدح يمر عام إلا وتشهد القاهرة وصول سفارة او أكثر ، بعضها من مختلف انحاء العالم الاسلامي في المشرق والمغرب ، يطلب اصحابها اعترافا من الخلافة العباسية بالقاهرة يضيف عليهم صبغة الشرعية ، أو يشكو لسلطان المماليك بعض الجيران والاعداء طالبا تأييده المعنوي والحربي ، والبعض الآخر من الدول والقوى التجارية في غرب وحوض البحر المتوسط ، تطلب بعض التسهيلات لرعاياها وتجارتها ، أو تنشدد عقد اتفاقية تجارية تحقق لهم قدرا من الضمانات والامتيازات في اراضي سلطنة المماليك .

وهكذا غدت القاهرة مركز ثقل السياسة العالمية في عصر سلاطين المماليك ، ومحور العلاقات بين العالمين الاسلامي وغير الاسلامي ، وعاصمة المال التي تتحدد فيها اسعار العملات والسلع والغلات ذات القيمة العالمية ، سواء كانت من حاصلات الشرق او انتاج الغرب . ولاشك في ان الانتصارات الكبرى التي حققها سلاطين المماليك في صدر دولتهم ، سواء على كتلة تاتار فارس والعراق او على الصليبيين في الشام ،

## أضواء جهرية على المؤرخ أحمد بن علي المقرئ وكتاباته

سعيد عاشور

اضفت هالة من المجد على هذه الدولة ، بحيث غدت في نظر المسلمين جميعا تمثل بقية من مجد الاسلام . وبخاصة ان هذا النشاط الخارجي الواسع النطاق - على الصعيدين الحربي والسياسي - لم يكن الا مظهرا واحدا من مظاهر نهضة شاملة متعددة الجوانب ، اخترنا ان نطلق عليها اسم النهضة الثانية - ولانقول الاخيرة - في الاسلام .

ويعتينا من أمر هذه النهضة التي لم تترك جانبا من جوانب النشاط الحضاري الا طرفته واسهمت فيه بسهم وافر ، ان كل من تعرضوا لها من الباحثين حتى الآن عللوا لها تعليلا مبتورا ، في ضوء النشاط الاقتصادي الذي انصف به عصر سلاطين المماليك ، وما حققه اولئك السلاطين من ثروات طائلة نتيجة لاحتكارهم بعض الحاصلات الاساسية في التجارة العالمية بين الشرق والغرب ، وبخاصة تجارة التوابل والفلفل ، وما ترتب على هذا النشاط من توافر عنصر المال الذي مكن المماليك من اقامة المنشآت والمؤسسات والمشاريع الضخمة ، وتشجيع العلماء والادباء والفنانين .

هذا هو الرأي السائد في كتابات جبهة الباحثين المحدثين . ونحن مع اعترافنا بأن الانتعاش الاقتصادي دعامة اساسية لأية نهضة حضارية ، الا انه من الاهمية بمكان ان ندرك ان المال ليس الدعامة الوحيدة في بناء الحضارات ، وانما لا بد ايضا من توافر الجذور اعني البيئة الحضارية والانسان المنتج . ونقصد بالبيئة الارض الطيبة ذات الامكانيات الحضارية الراسخة ، وذات المناخ المناسب الذي يساعد على الانتاج ، والموقع الوسط الذي يجعل منها بابا مفتوحا على التيارات الحضارية والسياسية في العالم الخارجي . اما الانسان فتعني به العنصر البشري البناء الذي لديه الاستعداد ولديه القدرة - ليس على الانتاج فحسب - بل ايضا على الابداع . وهذا كله ما توافر لدولة سلاطين المماليك عند مولدها على ارض مصر في منتصف القرن السابع للهجرة ، الثالث عشر للميلاد .

على انه من الاهمية بمكان ان نلاحظ ان العالم الاسلامي - رغم تفتته سياسيا في ذلك الدور الاخير من العصور الوسطى - الا انه ظل في نظر المسلمين المعاصرين يمثل علما واحدا فسيحا ، ينتقل المسلم بين ارجائه من مصر الى آخر ، وهو اينما حل انما يقيم في ديار الاسلام ويستظل بمظلتة . وهكذا فان النهضة الكبرى التي تزعمتها مصر في عصر سلاطين المماليك اسهم في بنائها مجموعة ضخمة من ابناء مصر وغير ابناء مصر من الوافدين عليها من شتى انحاء العالم الاسلامي ، مشرقه ومغربيه . فالى جانب القلقشندي والاسنوى والنويرى والسخاوى . . . . . وغيرهم من ابناء مصر الذين ينسبون الى مدنها وقراها ، نسجع - من جملة من نسجع عنهم من اعلام هذه النهضة - عن ابن خلدون وابن حبيب ، وغيرهما من الاعلام الذين وفدوا على مصر في ذلك العصر من المغرب والمشرق . ويمكن ابن حجر العسقلاني عن بعض علماء الشام ، وغير الشام من بلاد الاسلام ، انهم قالوا عن بلادهم في ذلك العصر « هذا بلد ضيق عن علمي وهجروها الى مصر<sup>(١)</sup> » . وهناك فريق ثالث من العلماء ولدوا على ارض مصر ، وكان اجدادهم أو آبائهم قد نزحوا الى مصر في مرحلة سابقة ، فنشأ هذا الفريق غير مصريين من ناحية الاصول والجلود ، مصريين من ناحية المولد والنشأة . ومن هؤلاء الحافظ شهاب الدين احمد بن علي بن حجر العسقلاني ، الذي يصف نفسه بأنه « العسقلاني الاصيل ، المصري المولد - القاهري الدار » ومن هذا الفريق ايضا شيخ المؤرخين المصريين « في القرن التاسع الهجري الخامس عشر للميلاد » تقي الدين احمد بن علي المقرئ .

(١) ابن حجر السلال : ربيع الاخر من لفظ مصر ، ورقة ١٦٨ .

ومن المتعارف عليه في المصادر المعاصرة أن أسرة المقرئى بعلبكية الاصل ، تنسب الى حارة المقازرة ، احدى الحارات القديمة في مدينة بعلبك . وقد نزع والده على الى مصر ، وسكن القاهرة ، حيث اتجب ابنه احمد . وذكر ابن حجر انه رأى بخط المقرئى مايدل على أن ولادته كانت في سنة ست وستين وسبعمائة هـ (١٣٦٤ - ١٣٦٥ م). وكان أن نشأ احمد بن علي المقرئى نشأة طيبة ، في بيئة حضارية لها طابعها الذي يختلف كثيرا عن البيئة التي عاش فيها أجداده ، فإذا كان اجداده قد عاشوا في بعلبك ، تلك البلدة الراسخة فوق جبال الشام ، فإن شهرة بعلبك في تلك العصور لم تتجاوز الدور الذي لعبته في الصراع بين حكام المسلمين بعضهم وبعض من ناحية ، او بينهم وبين الصليبيين من ناحية اخرى . وربما كان لها دور في حوادث زحف التار على بلاد الشام من ناحية ثالثة . وبالتالي فإن بعلبك - بحكم موقعها - كانت في كثير من ادوار تاريخها ميدانا للصراع بين القوى المتنافسة ، أو معبرا للتجارة ، وربما ماوى لبعض الفرق الدينية ، التي تشكل اقلية متناثرة في بلاد الشام . ولكنها في جميع الحالات لم تكن مركزا لحركة علمية مزدهرة ، ولم نسمع عن أحد شيوخ العلم انه نزع اليها واستقر فيها ، هذا كله بالإضافة الى جوها الشديد البرودة بسبب ارتفاعها ، مما جعل منها مكانا غير مغر بالتزوح اليه والاقامة فيه .

اما المؤرخ احمد بن علي المقرئى فيعتز ويفخر بانه ولد بين جنبات القاهرة ، وفي حى من أكثر أحيائها صخبيا وامتلاء بالحياة والنشاط الاجتماعى والاقتصادى المتنوع . وقد ذكر المقرئى عن سوق حارة برجوان التي ولد ونشأ فيها - انه « اعظم أسواق القاهرة » ، ما برحنا ونحن شباب نفاخر بحارة برجوان سكان جميع حارات القاهرة » ( ٢ ) وكانت القاهرة - كما سبق أن اشرنا - مقصد كل معسر او طموح ، وصفها الرحالة المعاصر ابن بطوطة بانها « ام البلاد المتناهية في كثرة العمارة ، المتباهية في الحسن والنضارة ، مجمع الوارد والصادر ، ومط الضعيف والقادر ( ٣ ) » ولذا ترجع أن عليا المقرئى - والد المؤرخ تقى الدين احمد - انما نزع من بعلبك الى القاهرة يلتبس سعة العيش ، وانه عندما استقر فيها كان يعاني ضيق ذات اليد ، بدليل ان جد تقى الدين احمد لاهم - وهو ابن الصايغ الحنفى - هو الذي كفل تعليمه واشرف على تنشئته ، وفق مذهبه ، وهو المذهب الحنفى ( ٤ )

وهكذا نشأ احمد بن علي المقرئى نشأة دينية علمية ، واتاحت له ظروفه ان يرضى طموحه العلمى فتلمذ على مجموعة من كبار علماء وشيوخ عصره الذين عجت بهم القاهرة . هذا الى انه في تنقلاته خارج القاهرة ومصر ، التقى بكثير من العلماء . يترجم السخاوى لاحمد بن علي المقرئى ، فيقول عنه انه نشأ بالقاهرة نشأة حسنة ، فحفظ القرآن وسمع جده لاهم الشمس بن الصايغ الحنفى ، والبرهان الأمدى ، والعز بن الكوكب ، والنجم بن رزين ، والشمس بن الخشاب ، والتتويحى ، وابن ابي الشيخة ، وابن ابي المجد ، والبلقى ، والعراقى ، - والميتمى ، والفرسى ، وغيرهم . وقيل انه سمع المسلسل على العماد بن كثير .

(٢) المقرئى : الواظ والاعتبار (ج ٢ ص ٩٥ ، بولاق . )

(٣) رحلة ابن بطوطة ، ج ١ ، ص ٦٧ ( طبعة باريس ١٨٨٠ )

(٤) السخاوى : الضوء اللامع ، ج ٢ ص ٢١ ترجمة ٦٦

ثم ان المقرئى ادى فريضة الحج ، فسمع بكمة من النشاورى والاميوطى ، والشمس بن سكر ، وابى الفضل النويرى القاضى ، وسعد الدين الاسفراينى ، وابى العباس بن عبد المصطى . . . وجاعة « واجازله الاسنوى والأذرى ، وأبو البقاء السبكى ، وعلى بن يوسف الزرندى ، وآخرون . ومن الشام الحافظ أبو بكر وأبو العباس بن العز ، وناصر الدين محمد بن محمد بن داود وطائفة . . » ( ٥ )

وعندما توفى والده في سنة ست وثمانين وسبعمائة هـ - وكان احمد عندئذ قد جاوز العشرين من عمره - تحول شافعيًا واستقر منذ ذلك الوقت على مذهب الشافعية . وكانت ظاهرة التحول من مذهب الى آخر منتشرة بين المعاصرين ، ولها اهميتها وخطورتها في حياة الفرد - وبخاصة اذا كان من المشتغلين بالعلم او المتولين وظائف الدولة - ، لانه معنى اعتناق مذهب معين هو ان ينكب على دراسة اصول هذا المذهب ، ويركز في تحصيله على استقاء العلم من شيوخه . هذا الى ان كثيرا من الوظائف ذات الصبغة الدينية كالقضاء والحسبة والنظر في المؤسسات الدينية والخيرية ، كان يشترط فيمن يلبها ان يكون من اتباع مذهب معين ، يحدده العرف ، او حجة الوقف المحيوس على ذلك الموق او تلك المؤسسة .

وهنا الواقع ان المقرئى لم يمش في المرحلة الاولى من حياته بعيدا عن جو الوظائف العامة وكان اول ماويله من هذه الوظائف وظيفة موقع - اى كاتب - بديوان الانشاء بالقلعة ، وهى وظيفة لها اهميتها في ذلك العصر لانه لايلها الا من يتمتع بمواصفات معينة ومستوى راق من العلم والاسلوب ( ٦ ) . ثم عين المقرئى بعد ذلك نائباً من نواب الحكم - اى قاضيا - عند قاضى القضاة الشافعى . وبعد ذلك تولى الخطابة بجامع عمرو ، ثم بمدرسة السلطان حسن فاما ما لجامع الحاكم مع نظر هذا الجامع ، ثم مدرسا للحديث بالمدرسة المؤيدية . ويبدو ان المقرئى حظى بمكانة خاصة عند السلطان الظاهر برفوق وابنه السلطان فرج بن برفوق ، فعينه السلطان برفوق في وظيفة محتسب القاهرة والوجه البحرى سنة احدى وثمانمائة هـ ، فنولها وتنحى عنها اكثر من مرة . وفى تلك الاثناء تزوج المقرئى وانجب ابنته التى ماتت بالطاعون الذى اجتاح مصر سنة ٨٠٦ هـ -

وقد دخل المقرئى دمشق مع الناصر فرج بن برفوق في سنة عشر وثمانمائة ، وعاد معه الى مصر . وعرض عليه قضاؤها عدة مرات فأبى . ويبدو انه تردد على دمشق بعد ذلك اكثر من مرة فتولى فيها نظر وقف القلائسى والبيمارستان النورى الذى كان من شروط وقفه ان يتولى نظره قاضى دمشق الشافعى ، ولذا عينه السلطان فرج بن برفوق نائباً للحكم بدمشق ، اى قاضيا بها . وفى دمشق تولى المقرئى ايضا تدريس الحديث بالمدرستين الاشرفية والاقبالية . ولكنه لم يلبث ان ضاق ذمرا بالمناصب ، وغلبت عليه طبيعته الهادئة ، فأثر التفرغ للاشتغال بالعلم ولذا هجر دمشق بعد ان أقام بها نحو ( من عشر سنوات ، وعاد الى مصر ، حيث « أقام بببلد ( القاهرة ) عاكفا على الاشتغال بالتاريخ ، حتى اشتهر به ذكره وبعد فيه صيته » ( ٧ ) - وحسب المقرئى في حياته الوظيفية ان يقول فيه السخاوى - وهو الذى يكاد لم يسلم احد من قلمه ولسانه - « وحدت سيرته في مباشراته » ( ٨ ) وفى هذه المرة يترك المقرئى القاهرة الا

(٥) المصدر السابق .

(٦) للمقرئى : المراسم والاعتراف ٢ ص ٢٢٥ (بولاق)

(٧) السخاوى : الفهره الملايح ، ج ٢ ترجمة ٦٦

(٨) المصدر السابق

لفترة محدودة - تقارب خمس سنوات - اتجه فيها إلى مكة حيث أدى فريضة الحج ، مع اشتغاله بالتدريس والتأليف في تلك الاثناء .

وقد استهل المقرئ نشاطه في التأليف بالشروع في وضع موسوعة كبرى اسمها « المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار » وهي الموسوعة التي نسبت إليه وعرفت باسم خطط المقرئ وقد بدأ المقرئ في كتابة خطته حوالي سنة ٨٢٠ هـ ، واستمر في كتابتها حتى قبل وفاته بعامين أي حتى سنة ٨٤٣ هـ . وفي تلك الاثناء لم يكن المقرئ منقطعاً انقطاعاً تاماً لتأليف هذا الكتاب وإنما دون كتباً أخرى عديدة ، منها الكبير ومنها الصغير ، كما سنذكر فيما بعد . ونرى أن طول المدة التي استغرقها تأليف كتاب « المواعظ والاعتبار » يرجع إلى أن هذا الكتاب ليس من كتب التاريخ العادية التي تقتصر على سرد الحوادث وأحداث السنين سنة بعد أخرى ، وإنما هو بمثابة موسوعة عمرانية جغرافية ، تاريخية اقتصادية اجتماعية سياسية فنية . . بكل معاني الكلمة . تناول فيه المقرئ بلاد مصر ، فمعالج مدنها وأثارها ومعلمها الرئيسية ، واصفاً كل منها وصفاً دقيقاً متبعاً تاريخ كل أثر من العصور القديمة - الوثنية أو القبطية إلى العصور الإسلامية ، حتى أيامه . وإذا كان قد توسع في وصف بعض مدن الوجهين البحري والقبلي - وبخاصة مدينة الاسكندرية التي كانت قبل الفتح الإسلامي عاصمة مصر ، وظلت على أيام المقرئ أكبر ثغورها على البحر المتوسط ، فإن خطورة هذه الموسوعة تتضح عندما ينتقل المقرئ إلى الكلام عن القاهرة الكبرى - أي القاهرة المعزية ومايرتبط بها من نسطاط وعسكر وقطائع - ليدرسها دراسة مسهية مستفيضة ، جعلت من خطته مصدراً له أهميته البالغة بين مصادر تاريخ مصر في العصور الوسطى ، وبخاصة في عصر سلاطين المماليك ، عصر الزعامة السياسية والحضارية . ( ٩ )

على أننا لانتطيع أن نعرض لكتاب المواعظ والاعتبار للمقرئ دون أن نشير إلى مسألة هامة لها أهميتها ، مازال تشغل فكر الباحثين واستنفدت الكثير من جهود المؤرخين المشتغلين بتاريخ تلك الحقبة والمهتمين بالمقرئ ومكتبته التاريخية . أما هذه المسألة فهي ماوجه إلى المقرئ من اتهام بأنه نقل كتابه « المواعظ » عن كتاب صنفه الاوحدى وظفر المقرئ بمسودته ، فنسب الكتاب إلى نفسه ( ١٠ ) . والاوحدى هذا هو المقرئ الشافعي الاديب المؤرخ - أحمد بن عبد الله بن الحسن بن طوغان بن عبد الشهاب الاوحدى المتوفى سنة ٨١١ هـ . ترجم له السخاوى فقال عنه . . . اعنى بالتاريخ ، وكان هجاً به . وكتب مسودة كبيرة لخطط مصر والقاهرة ، تعب فيها وإفاد وأجاد ، ويبيض بعضها ، فيبنيها المقرئ ونسبها لنفسه مع زيادات » ( ١١ )

وإذا كان السخاوى قد ساق هذا الاتهام دون سند في ترجمته للاوحدى ، فإنه ذكر في موضع آخر من مؤلفاته أنه استقى هذا الاتهام من شيخه ابن حجر العسقلاني . يقول السخاوى « وكذا جمع خططه المقرئ وهو مفيد . قال لنا

(٩) طبع كتاب المواعظ للمقرئ طبعين الأول - وهي للغة - طبعه بولاق سنة ١٢٧٠ هـ في مجلدين كبيرين . والطبعة الثانية هي الطبعة الأصلية في أربعة أجزاء ( القاهرة

١٩٠٧ م )

(١٠) تعرض هذه المسألة من المشتريين كل من كاترير ، وبركلمان ، وجست ، وجاستون ليه . ومن المؤرخين العرب المدعنين كل من استاذنا المحترم الدكتور محمد مصطفى زيادة ( المؤرخون في مصر في القرن الخامس عشر الميلادي ص ١٠ وما بعدها . الطبعة الثانية - القاهرة ١٩٥٤ ) والاستاذ الجليل محمد عبد الله خان ( دراسات عن المقرئ - مجموع أبحاث صدرت ضمن سلسلة المكتبة العربية عن وزارة الثقافة بجمهورية مصر العربية ، بالتعاون مع الجمعية المصرية للدراسات التاريخية - القاهرة ١٩٧١ )

(١١) السخاوى : الغرر الملاحج ج ١ ص ٣٥٨

شيخنا ( ابن حجر ) انه ظفر به مسودة لجاره الشهاب احمد بن عبد الله ابن الحسن الاوحدي - بل كان يبض بعضه - فاخلدها وزاد عليها زيادات ونسبها الى نفسه (١٢)

وهذه القضية الخطيرة - التي وقف امامها معظم الباحثين وقفة تردد - والتي قال فيها المستشرق كاترمر : يحسن ان نغض النظر عن هذه القضية ، ونتجنب الادلاء فيها برأي قاطع (١٣) نعتقد انه قد آن الاوان لنصدر فيها حكماً فاصلاً بجرأة وأمانة ، لان مثل هذه الامور لا ينبغي أن تترك معلقة . وليس اخطر في مثل هذه القضايا التاريخية من اصدار الاحكام العشوائية التي لاسند لها الا العاطفة ، ولذا نعهد لحكمنا بابرار الحثيثيات الآتية :

اولا : الادانة لتكون على اساس اهتم ام في صورة كلمات عابرة اطلقها رجل في حق زميل له في المهنة ، مع ماكان معروفا بين المشتغلين بالمهنة الواحدة - ومن جملتهم العلماء - من تحاسد . لو كان أحد الثقات من المعاصرين قد شارك السخاوي فيما وجهه الى المقرئ من اهتم ، لصار لزاما علينا أن نأخذ هذا الاتهام بعين الجدية . أما وقد انفرد به السخاوي وحده - وهو الكاتب السباب المولع بتجريح الرجال ، والذي يكاد لم ينج أحد - حتى ابن خلدون - من رشاش قلعه ، فان الامر في نظرنا يحتاج الى وقفة طويلة للتدبر والتمحيص . كيف نأخذ بشهادة رجل واحد قال فيه معاصره السيوطي : « ماترون في رجل الف تاريخاً جمع فيه اكابر واعيانا ، ونصب لاكل لحومهم خوانا ، ملاء بذكر المساوي وثلب الاعراض . وفوق فيه سهاما على قدر أعراضه - والاعراض هي الأغراض - جعل لحم المسلمين جملة طعامه وادامه ، واستغرق في اكلها أوقات فطره وصيامه . . (١٤) أما ابن اياس - المؤرخ الهادي المتزن - فقد اشار الى السخاوي وكتابه « الضوء اللامع » فقال « الف تاريخاً فيه الكثير من المساوي في حق الناس » (١٥)

اذا كان هذا هو حكم المعاصرين على السخاوي ، ونظرتهم الى كتاباته واحكامه ، فهل تؤخذ شهادته في حق عالم جليل مثل المقرئ على عمل الجدية ، دون سند او دليل او قرينة ؟؟

ثانيا : والغريب ان السخاوي الذي انفرد بتوجيه هذا الاتهام الى المقرئ هو نفسه الذي يقول عن المقرئ - في ترجمته له - انه نشأ نشأة حسنة وانه « شارك في الفضائل » وانه « حمدت سيرته في مباشراته » وانه « كان كثير الاستحضار للوقائع القديمة » وانه اتصف « بحسن الخلق وكرم العهد وكثرة التواضع وعلو الهمة لمن يقصده ، والمحبة في المذاكرة والمداومة على التجهد والاوراد ، وحسن الصلاة ، ومزيد الطمأنينة فيها ، والملازمة لسنته . . ؟؟ فكيف تتوافر هذه الصفات كلها لشخص متهم بسرقة للمغير ونسبته الى نفسه

حقيقة ان هذا الاطراء من جانب السخاوي لم يأت خالصاً نقياً ، وانما مشوبا ببعض الغمز واللمز ، كان يقول فيه « وكان حسن المذاكرة بالتاريخ لكنه قليل المعرفة بالمقدمين ، ولذلك يكثر له فيهم وقوع التحريف والسقط ، وربما

(١٢) السخاوي : الاعلان بالمؤرخ لن ذم أهل التواريخ - ص ١٢

(١٣) Quatremere : Mamlouks , I و II , ١١١ x ١٣٠

(١٤) السيوطي : الكاوي على السخاوي ( خطوطة بدار الكتب المصرية بالقاهرة ولم ١٥١٠ أدب )

(١٥) ابن اياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٣٢٢ ( طبعة بولاق ١٨٨٦ م )



صحف في المتن « أو كان يقول فيه » كان كثير الاستحضار للوقائع القديمة في الجاهلية وغيرها ، أما الوقائع الإسلامية ، ومعركة الرجال واسمائهم والجرح والتعديل والراتب والسير وغير ذلك من أسرار التاريخ وبحاسنه فغير مأهول فيه ، وهكذا فان طبيعة السخاوي في تجميع الرجال تغلب عليه ، فلا يستطيع ان يمتدح انسانا دون ان يذمه ولا ان يثني على عالم دون ان ينتقص من قدره .

فاذا اراد السخاوي ان يتصيد هفوة في كتابات القرظي ، فانه يقول : « وربما صحف في المتن . ومما رأيت بخطه في ذلك ( ابن البدر ) وهو يفتح الموحدة والدال المهملة فضبطه بالبدل . و ( علي بن منصور الكرجي شيخ السلفي ) وهو بالميم فضبطه بالخاء المعجمة . وكثيرا ما يجعل ( عبد الله ) عبيد الله ، وعكسه . بل وبلغني أنه جعل ( أباطاهر بن عمش ) - راوى الحديث المسلسل بالاولية - حين حدث به - بالخاء المعجمة بدل المهملة »

وهكذا نسي السخاوي - أو تناسى أن المؤلف عندما ينهمك في الكتابة كثيرا ما يهتم بتسجيل الأفكار والمعلومات ، قبل أن تتطير أكثر مما يهتم برسم الحروف ، كما نسي أن لكل مؤلف مصادره التي يرجع إليها وهذه المصادر لا تسلم غالبا من تحريف الناسخين . ولا ندرى كيف يتفق هذا النقد مع قول السخاوي نفسه عن القرظي « وقد قرأت بخطه أن تصانيفه زادت على ما بقي مجلدة كبار وإن شيوخه بلغت ستمائة نفس » .

ثالثا: إن المتابع لكتابات السخاوي يكتشف أنه عندما تحرفه طبيعته الى الرغبة في اتهام برى أو تجميع عالم أو النيل من انسان لاغيار عليه فانه كثيرا ما يستر خلف شيخه واستاذه ابن حجر ، فيقول « قال شيخنا » ، و « ترجمه شيخنا في معجمه فقال . . . هذا غالبا هو أسلوبه في نقد معظم من تقدمهم من الاعلام ، ومن جلتهم ابن خلدون والقرظي ولكننا نتبع كتابات شيخه ، فلا نجد الا قلما عفا واسلوبا مهذبا ، واذا استدعى الامر - احيانا - نقدا هادئا بعيدا عن القذف والتجريح . وعندما يتعرض ابن حجر للذكر تقي الدين القرظي فانه لا يذكره الا بكل تقدير واجلال . بل يصير ابن حجر - في اكثر من موضع من كتاباته - على وصف القرظي بأنه صديقه المقرب . ولنا أن نسأل السخاوي كيف ارتضي استاذته وشيخه ان يصادق انسانا خرب الذمة يعرف عنه انه سرق كتابا لغيره ونسبه الى نفسه ؟ وكيف ارتضي استاذته لنفسه ان يناقش ضميمه فيصف القرظي بحسن الخلق وهو يعلم انه خرق العهد وخان الأمانة واستولى على مال الغير دون وجه حق . اليس شهاب الدين ابن حجر السفلاي هو الذي قال عن صديقه احمد بن علي القرظي « وفي الأكثر هو مؤثر للاتجماع بمنزله مع حسن الخلق وكرم العهد ، وصدق الود . وبيننا من الود ما لا يسعه الورق . الله تعالى يديم النفع به » (١٦)

اليس ابن حجر هو الذي اتمت كتابه « رفع الأصبر عن قضاة مصر » بالإشارة الى القرظي بوصفه مصدرا من المصادر التي استقى منها مادة كتابه ، فقال عنه « رفيقي الإمام الاوحد المطلق تقي الدين القرظي » (١٧)

(١٦) ابن حجر : الجمع المؤسس والمعجم للمفهرس - ورقة ٣٧١ (خطوطه بدار الكتب المصرية) .

(١٧) ابن حجر : رفع الأصبر عن قضاة مصر (خطوط بدار الكتب المصرية ١٠٥ تاريخ )

اليس ابن حجر هو الذي ترجم للمقريزي في الصفحات الأخيرة من موسوعته «إنباء الغمر» فقال عنه «وكان اماما، بارعا مفننا، متقنا، ضابطا، دينيا، خيرا، محبا لأهل السنة، يميل إلى الحديث والعمل به.» (١٨)

وأخيرا، اليس السخاوي نفسه هو الذي كتب عن شيخه وإستاذه ابن حجر أنه وصف المقريزي بأنه صاحب «النظم الفائق، والنثر العابق، والتصانيف الباهرة، خصوصا في تاريخ القاهرة، فانه أحيا معالمها، وأوضح مجاهلها، ووجدد مآثرها، وترجم أعينها» (١٩).

ومن الواضح أن الإشارة في العبارة الأخيرة إلى مآثر المقريزي في كتابته عن القاهرة يقصد بها مكتبته عنها في خطه. فكيف يصف ابن حجر المؤرخ تقي الدين المقريزي بأنه أحيا معالم القاهرة وأوضح مجاهلها. . . وهو يعلم أن مكتبته عن القاهرة وخطه مسروق عن الأوحدي؟؟

#### وأبعا :

وإذا افترضنا أن الأوحدي قد كتب مؤلفا في خطط مصر والقاهرة وأن المقريزي رجع إلى هذا الكتاب وأفاد منه فإنه لم يفعل بذلك غير ما كان يفعله غيره من جبهة العلماء المعاصرين، أن لم يكونوا كلهم دون استثناء. ذلك أن الوضع جري في تلك العصور على أن يستعين المؤرخ - على وجه الخصوص - بكتابات من سبقه. ولذا نجد الجزء الجديد المبكر في كتابة أي مؤرخ هو الجزء الذي عاصر المؤرخ أحداثه وشاهدها عن كتب، وسمع بها عن قرب، أن لم يكن قد شارك بنفسه في صنع بعضها. ولو اتجهنا إلى اتهام أي مؤرخ أخذ عن سابقه ومعاصريه بالسرقة، لما بقي مؤرخ من مؤرخي الإسلام - بعد القرن الرابع للهجرة - لا تقع عليه هذه التهمة. ولأدين الجميع دون استثناء بمن فيهم السخاوي نفسه، وشيخه ابن حجر، وعلى سبيل المثال: لماذا لا تنتهم مؤرخا عملاقا مثل ابن الأثير بالسرقة لأنه أفاد من الطبري وغير الطبري من المؤرخين السابقين؟

#### خامسا :

ومن هذا المنطلق نرى المقريزي يتبع في خطه كل أثر، فيذكر تاريخه السابق، وماطرا عليه من تطورات عبر العصور، ويترجم للأشخاص الذين يرتبط ذلك الأثر بهم - من مؤسسين ومصلحين وغير ذلك - ويشير خلال ذلك إلى المصادر والكتب التي رجع إليها وأفاد منها، حتى يصل إلى أيامه فيذكر ما شاهد عليه هذا الأثر أو ذاك من أحوال والكيفية التي أدركه عليها. . . . وبذلك يضرب مثلا أعلى في الأمانة والدقة والمثابرة في التقصي والاستقصاء.

وعلى سبيل المثال فهو يتتبع تاريخ جامع ابن عبد الظاهر، ويترجم لصاحب هذا الجامع وما يزال يتبع المراحل التي مر بها حتى يصل إلى عصره، فيقول «وهو اليوم قائم على أصوله» (٢٠). وعندما يتكلم عن جامع القلعة يتتبع تاريخه إلى أن يقول «وبه إلى اليوم يصلي سلطان مصر صلاة الجمعة» (٢١) بل إنه في كلامه عن الجامع الأشرفي يتتبع ما أجري

(١٨) ابن حجر: إنباء الغمر بأبناء العصر - ولغات سنة ٨٤٥ هـ - ج ٩ ص ١٧٢ طبعة جيل ليد ١٩٧٦ )

(١٩) السخاوي: النظم اللامع، ج ٢ ترجمة ٦٦، أحد بن مل بن عبد القادر المقريزي.

(٢٠) المقريزي: المראה، ج ٢ ص ٣٢٤ - ٣٢٥ (بولاق).

(٢١) للمصدر السابق، ج ٢ ص ٣٢٥ (بولاق).

فيه من زيادات وإصلاحات حتى سنة ٨٢٧هـ ، أي بعد وفاة الأوحدي بستة عشر عاما فكيف يقال انه نقل كتابه عن الأوحدي ؟ (٢٣) كذلك في كلامه عن المدرسة القمحية يشير الى ماطراً على الأوقاف الموقوفة عليها سنة ٨٢٥هـ ، أي بعد وفاة الأوحدي بأربعة عشر عاما (٢٤) وعندما يعالج الرخاب ، يقول عن رحبة باب العيد هذه الرحبة كان اولها من باب الريح أحد أبواب القصر الذي ادركنا هدمه . . (٢٥) وعندما يتكلم عن باب النصر ، يقول ابن بدر الدين الجمالي « عندما عمر سور القاهرة نقل باب النصر من حيث وضعه القائد جوهر الى حيث هو الآن ، فصار قريبا من مصلى العيد ، وجعل له باشورة ادركت بعضها . . (٢٥) ، فاذا لم يستطع المقرئ أن يجدد موقع أثر من الآثار الخالية أو ذكر معلومة عنه ، توقف وقال « والله اعلم » (٢٦) .

سادسا : لم ينكر المقرئ اتصاله بالأوحدي ، وهو بذلك لم ينف انه قد يكون قد استفاد منه ( ٢٧ ) وفي الوقت نفسه فان المقرئ حرص على أن يوضح في تقديمه لكتاب المواظ المصادر التي اعتمد عليها وافاد منها ، فقال في امانة وصراحة :

« واما أي أنحاء التعاليم التي قصدت في هذا الكتاب ، فان سلكت فيه ثلاثة أنحاء ، وهي : النقل من الكتب المصنفة في العلوم ، والرواية عن ادركت ، والمشاهدة لما عاينته ورأيت . فاما النقل من دواوين العلماء التي صفوها في انواع العلوم ، فاني اعزو كل نقل الى الكتاب الذي نقلت منه ، لاختص من عهده وابرأ من جريته . . وحسب العالم ان يعلم ما قبل ذلك ويقف عليه . واما الرواية عن ادركت من الجلة والمشايخ ، فاني في الغالب والاكثر اصرح باسم من حدثني ، الا أن لا يحتاج الى تعيينه او اكون نسيت ، وقل ما يتفق مثل ذلك ، واما ما شاهدته ، فاني ارجو ان اكون - والله الحمد - غير متهم ولا ظنين . »

فهل هناك توثيق للمصادر التي يعتمد عليها باحث ، وتحديد للمراجع التي رجع اليها وافاد منها اكثر من هذا التوثيق وذلك التحديد ؟ مع ملاحظة مستوى العصر الذي عاش فيه المقرئ وما انتصف به ذلك العصر من منهج خاص واسلوب معين في البحث والتسجيل .

سابعا : ولا أدل على امانة المقرئ والمأمة بجهود السابقين وآثارهم ، من انه حرص على ان يذكر أسماء من سبقوه من العلماء والمجهدين في ميدان الخط ، مركزا على الكندي والقضاعي وابن بركات النحوي والجواني وابن عبد الظاهر وابن المتوج . ويقف عند ابن المتوج بالذات - وليس الأوحدي - ليقول انه كان آخر من كتب قبله عن الخط ، وانه يصل في كتابه الى ذكر أحوال مصر وخطها الى اعوام بضع وعشرين وسبع مائة .

(٢٢) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣٣٠ - ٣٣١ (بولاق)

(٢٣) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣٦٤ (بولاق)

(٢٤) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٧ (بولاق)

(٢٥) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٨١ (بولاق)

(٢٦) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤١٣ (بولاق)

(٢٧) للمقرئ : المواظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ٢٥٦ ، ج ١ ، ص ١٢ (بولاق)

وإذا افترضنا - جدلاً - أن المقرئ أخذ عن الأوحدي ، فمأذ يضيره أو يقلل من قيمة عمله ، طالما أنه لم يقتصر على ما ذكره الأوحدي ، وإنما استعان بمن سبقوا الأوحدي في كتابة خطط مصر والقاهرة . هذا إلى أن السخاوي عندما اتهم المقرئ بأنه نقل ما كتبه الأوحدي قال أن ذلك تم « مع زيادات » وطالما أننا لم نعثر على ما كتبه الأوحدي ، فمن يدرينا أن تكون هذه الزيادات هي لب اللباب ، وأنها الجوهر الثمين فيها سجله المقرئ ؟

ومن يتتبع أسلوب المقرئ في المواظ يدرك أن طريقة الاسناد التي اتبعها في ذكر المعلومات والروايات ، لا يمكن أن تتفق مع فكرة نقل الكتاب عن الغير ، وخاصة أن بعض تلك الروايات سمعها المقرئ بأذنيه وأسندنا إلى من رواها له . فهو على سبيل المثال يصف قيسارية جهار كرس فيقول « رأيت جماعة من التجار الذين طافوا البلاد يقولون لم نر في شيء من البلاد مثلاً في حسناتها وعظمتها » ثم يتابع كلامه فيقول « قال الحافظ جمال الدين يوسف بن أحمد ابن محمود اليعقوبي : سمعت الأمير الكبير ... » ( ٢٨ ) وفي كلامه عن الاسواق يقول في ذكر القصبة « سمعت غير واحد من أدركته من المعمرين يقول أن القصبة تحتوي على اثني عشر ألف حانوت . . . » وعندما يتكلم عن الحارة المحمودية يقول « ذكرها المسيحي في تاريخه مراراً ، قال في سنة أربع وتسعين وخمسمائة . . . » ( ٢٩ )

ومرة أخرى نؤكد أن خطط المقرئ عبارة عن موسوعة كبرى عالج فيها الجوانب العمرانية والجغرافية والاجتماعية والاقتصادية والدينية والثقافية ، فضلاً عن التاريخ بمعناه الكبير الواسع وهو في تاريخه لعصور مصر الإسلامية حرص على أن يشير في كل موضع إلى مؤرخي ذلك العصر الذين أخذ عنهم وإفاد منهم . فإذا تعرض لأوضاع مصر في فجر الإسلام فإنه يشير إلى ابن عبد الحكم وابن يونس والمسعودي ، ويعالج تاريخ الفسطاط منذ انشائها فيشير إلى الكندي وابن زولاق . فإذا تعرض للطلوليين والاختشيديين ومدينة القطائع ، أشار إلى أبلوي وابن يونس والكندي . وعند تأسيس القاهرة والكلام عن الفاطميين وآثارهم يشير إلى ابن زولاق والمسيحي وابن المأمون والجوائن وغيرهم من اعلام ذلك العصر . ويتدرج إلى العصر الايوبي ، فيركز على القاضي الفاضل واليعقوبي وعماد الدين الاصفهاني . وفي العصر المماليكي الاول يشير إلى يحيى الدين بن عبد الظاهر وابن المتوج ، فضلاً عن معاصريه من المعمرين ومن سمعوا عنهم ، كان يقول « اخبرني شيخنا قاضي القضاة مجد الدين اسماعيل بن ابراهيم الخنفي وخال أبي تاج الدين اسماعيل بن أحمد ابن الخطباء أنها أدركا بكوم الريش عدة امراء يسكنون فيها دائماً . . . » ( ٣٠ )

والواقع أن هذا هو منهج المقرئ في كافة مؤلفاته وكتبه ، وليس فقط في كتاب المواظ كما سنذكر فيما بعد .

**ثامناً :** ان التامل في انتاج المقرئ يدرك أنه أحد العلماء الموسوعيين الذين يفرغهم عصر سلاطين المماليك . حقيقة ان انتاجه الخصب ينصب بصفة اساسية على تاريخ مصر الإسلامية ، ولكنه حرص في هذا المجال على أن يغطي جميع حلقات ذلك التاريخ ، بحيث خصص لكل حلقة مؤلفاً قائماً بذاته . من ذلك أنه وضع كتاباً في اخبار مدينة الفسطاط

( ٢٨ ) للمقرئ : المواظ ج ٢ ص ٨٧ ( بولاق )

( ٢٩ ) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٤٠٠ ( بولاق )

( ٣٠ ) المصدر السابق ج ٢ ص ٣٠ ( بولاق )

يغطي تاريخ مصر منذ الفتح العربى الاسلامى حتى قيام الدولة الفاطمية . ووضع كتاب ( اتعاف الحنفا بأخبار الخلفاء ) يغطي تاريخ مصر فى العصر الفاطمى . ووضع كتاب « السلوك لمعرفة دول الملوك » يغطي تاريخ دولى الايوبيين والمماليك .

فهل من الصعب على عالم واسع المعرفة متنوع الثقافة مثل المقرئ أن يؤلف كتابا فى خطط مصر والقاهرة ، هو فى جلته موسوعة فى تاريخ مصر وأوضاعها العمرانية فى العصور . الاسلامية ؟

تاسعا : لو كان المقرئ قد نقل كتابه عن غيره ، ولو كان كتاب الخطط المقرئية مسروقا عن مسودة للأوحدى ، لما احتاج صاحبه فى نقله ( وتبسيطه ) الى تلك السنين الطويلة التى استنفدها وضع الكتاب المذكور . فالعروف أن المقرئ افنى عمره فى وضع كتاب المواعظ والاعتبار فبدأ فى تأليفه عام ٨٢٠ هـ و فرغ منه عام ٨٤٣ هـ أى قبل وفاته بعامين ومعنى ذلك أنه قضى فى تأليف هذا الكتاب نحواً من ربع قرن . فهل يتطلب نقل مسودة كل هذا العمر الطويل ؟

عاشرا : واخيرا ، فان السخاوى الذى انفرد بتوجيه هذه التهمة الى المقرئ ، هذا السخاوى نفسه لم يستطع - رغم نزعتة الهدامة عندما يتعرض لسير الرجال - أن يخفى إعجابه بالمقرئ ، فألف كتابا اسماء « التبر المسبوك فى ذيل السلوك » وهو كتاب ضخم فى أربعة اجزاء ( ٣١ ) وكما يتضح من عنوان الكتاب ، فان السخاوى وضعه تكملة وذيلًا لكتاب السلوك لمعرفة دول الملوك للمقرئ . ولنا أن نساءل : اذا كان المقرئ غير أمين واذا كان - كما وصفه السخاوى - غير ماهو فى ( الوقائع الاسلامية ومعرفة الرجال واسمائهم والجرح والتعديل والسير وغير ذلك من أسرار التاريخ ومحاسنه ) فلماذا وقع اختيار السخاوى على كتاب المقرئ بالذات دون غيره من عشرات الكتب التاريخية التى عاجلت تاريخ نفس الحقبة فى القرن التاسع الهجرى - ليضع ذيلًا له ؟

وبعد ، فاننا نرجو أن تكفى هذه الحثثيات لاصدار حكم عادل فى قضية ظلت معلقة بضعة قرون ، وتخوف معظم الباحثين المحدثين من البت فيها بقرار حاسم ، ومن جملة هؤلاء الباحثين بعض شيوخنا وأساتدنا ، غفر الله لهم ولنا .

ومهما يكن من أمر ، فان كتاب « المواعظ والاعتبار » المعروف باسم « خطط المقرئ » يعتبر دون شك درة فريدة تزدان بها المكتبة العربية فى حقن الدراسات التاريخية ، لانه يسد فراغا أساسيا ، بحيث لا يمكن الاستعاضة عنه - فى كثير من المعلومات التى انفرد بها دون غيره - بأى كتاب أو مصدر آخر ، مع كثرة المصادر المعاصرة وتنوعها .

على انه اذا كان تقى الدين أحمد المقرئ قد استهل انتاجه العلمى بالشروع فى تأليف كتاب المواعظ والاعتبار ، فانه كثيرا ما أحس أثناء وضع هذا الكتاب أن بعض المعلومات التى جاءت فيه تحتاج الى مزيد من الشرح والتفصيل . لذلك شرع أثناء مسيرته فى تأليف الكتاب فى وضع سلسلة من المؤلفات « قصد فى كل منها أن يشرح ما اجمله من اخبار الدول الاسلامية المصرية التى تناوبها قبلا فى بكر مؤلفاته » (٣٢)

(٣١) السخاوى : التبر المسبوك فى ذيل السلوك ( يولاي ١٨٩٦ ) انظر ايضا محمد مصطفى زبالة : المؤرخون فى مصر فى القرن الخامس عشر الميلادى ، ص ١٠ - ١٢

(٣٢) محمد مصطفى زبالة : المؤرخون فى مصر فى القرن الخامس عشر الميلادى ، ص ١٣

وقد قسم بعض الباحثين المحدثين<sup>(٣٣)</sup> مؤلفات المقرئى الى قسمين : كتب موسوعية ضخمة ، واخرى تخصصية صغيرة . القسم الاول بعضه عنى فيه المقرئى بالتاريخ العام ، مثل كتاب ( الخير عن البشر ) وكتاب ( الدرر المضيئة في تاريخ الدول الاسلامية ) وكتاب ( امتاع الاسماع بما للرسول من الانبياء والاحوال والخفة والمتاع ) . والبعض الآخر ركز فيه المقرئى على تاريخ مصر الاسلامية ، وتراجم المشاهير من اهلها وابنائها . ومن هذا البعض كتاب ( الملقى الكبير ) في تراجم اهل مصر والوافدين عليها ، وكتاب ( درر العقود الفريدة في تراجم الاعيان المفيدة ) وهذان الكتابان في التراجم ، خصص اولها لتراجم البارزين من اهل مصر ، والذين وفدوا عليها واقاموا فيها منذ الفتح العربى الاسلامى . . والثانى خصصه المقرئى لتراجم المشاهير من معاصريه .

اما في تاريخ مصر السياسى ، فقد ألف المقرئى ثلاثة كتب تغطى تاريخها منذ الفتح العربى حتى أيامه : الاول كتاب ( عقد جواهر الاسفاط في تاريخ مدينة الفسطاط ) ويعالج تاريخ مصر الاسلامية حتى بداية العصر الفاطمى . والثانى كتاب ( اتعاظ الحفا بذكر الائمة الفاطميين الخلفاء ) ، وقد عالج فيه تاريخ مصر الفاطمية . أما الثالث فهو كتاب ( السلوك لمعرفة دول الملوك ) وقد أرخ فيه المقرئى لمصر منذ بداية الدولة الايوبية حتى قبيل وفاته سنة ٨٤٥ هـ ( ٣٤ ) . وهذه الكتب الثلاثة الاخيرة التى خصصها المقرئى لعلاج تاريخ مصر السياسى فى العصور الاسلامية ، يكملها الكتاب الذى أفرده لعلاج تاريخ مصر العمرانى ، ونعنى به كتاب ( المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ) وهو موسوعة تاريخية سياسية ، اقتصادية ، اجتماعية ، ثقافية فنية . . بكل معاني الكلمة .

أما عن الكتب التخصصية الصغيرة ، فانها رغم صغر حجمها كبيرة القيمة ، لأن كلامها عبارة عن رسالة قيمة عالج فيها المقرئى مشكلة من مشاكل التاريخ أوجانبا مهملًا من جوانبه أو طريقة من طرف المعرفة ، بحيث يسد كل منها ثغرة احس بوجودها في عالم الفكر والمعرفة<sup>(٣٥)</sup> ، وإذا كانت موسوعات المقرئى ومؤلفاته الكبيرة تنحج بتفاصيل أحداث التاريخ واعمال الخلفاء والسلاطين والملوك وتراجم المشاهير من الحكام والامراء والعلماء والتجار ، فان كتبه الصغرى لاتتمتع لكل ذلك . ولذا نجدها تنصف بالتركيز والابحاز ، ويغلب عليها أن يتعرض كل كتاب منها لمشكلة معينة في التاريخ الاسلامى . فكتاب ( النزاع والتخاصم فيما بين امية وبنى هاشم ) يعالج مشكلة قديمة في التاريخ . وكتاب ( الالهام باختيار من بارض الحبشة من ملوك الاسلام ) وكذلك كتاب ( الطرقة الغربية من اخبار حضرموت العجيبة ) يعالجان بعض الجوانب المهملة في التاريخ الاسلامى . اما كتاب « الذهب المنسوب بذكر من حج من الخلفاء والملوك »

(٣٣) جمال الدين الشيبان : مؤلفات المقرئى الصغيرة - بحث في كتاب ( دراسات عن المقرئى ) الذى سبقت الاشارة اليه - ص ٢٣ وما بعدها .

(٣٤) يقع كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك فى أربعة أجزاء ضخمة ، وقد تم تحقيقه ونشره فى اثني عشر مجلدا ، كل جزء فى ثلاثة أقسام ، وكل قسم فى مجلد لاهم بياته . وقد حقق الجزئين الأول والثانى فى ستة مجلدات استلذا للمرحوم الدكتور محمد مصطفى زيادة ( دار التاليف والترجمة والنشر بالقاهرة )

وقدنا نحن من بعده بتحقيق الجزئين الثالث والرابع - حتى نهاية الكتاب - فى ستة مجلدات أخرى ، صدرت من مركز تحقيق التراث بدار الكتب المصرية ( ١٩٧٠ - ١٩٧٢ ) ولأسف لم نتم على الكتاب مكملا بأجزائه الأربعة ومجلداته الاثني عشر فى احدى مكتبات دولة الكويت ، فاضطررنا أثناء كتابة هذا البحث الى الرجوع الى الجزئين الثالث والرابع الى صورة ميكرو فيلم نحفظها للمخطوطة المحفوظة بدار الكتب المصرية برقم ٣٣٣٧ . وأشرنا الى ذلك فى مواضع البحث .

(٣٥) عن هذه المجموعة من مؤلفات المقرئى ، ونبينا الراسل وأعزنا الكبير المرحوم جمال الدين الشيبان ، اذ مكث على تحقيق ونشر بعضها فى سلسلة صدرت بعنوان مكتبة المقرئى الصغيرة ( لجنة التاليف والترجمة والنشر بالقاهرة ) كذلك كتب بحثا بعنوان ( مؤلفات المقرئى الصغيرة ) سبق أن اشرنا اليه .

وكتاب تراجم ملوك الغرب « فيعرفان مجموعة من ملوك الاسلام ربط بينهم نشاط واحد او ركن واحد من اركان الدولة الاسلامية البعيدة .

وهناك من هذه الكتب الصغيرة ما قصد به المقرئزي الفاء الضوء على بعض الاوضاع المعاصرة . مثل كتاب « البيان والاعراب » من نزل أرض مصر من الاعراب « وهو يعرف بالقبائل العربية المنتشرة في مصر على ايام المؤلف . بل ان المقرئزي تناول في بعض هذه الكتب جوانب من العلوم البحتة ، فهو في كتابه « المقاصد السنية لمعرفة الاجسام المعدنية » يتكلم عن المعادن والاجسام المتولدة من الابخرة والادخنة المحتبسة في الارض ويفرق بين المعادن القابلة للطرق - وهي الذهب والفضة والنحاس الرصاص والحديد والاسراب والخارصين - والمعادن غير القابلة للطرق بسبب ليونتها - كالزئبق - او الاجسام الصلبة التي تتعرض للكسر في حالة الطرق ، مثل البواقيت والشب والنوشادر .

ومن أمثلة هذا النوع من الكتب - أو الرسائل العلمية - التي ألفها المقرئزي كتاب ( نحل ابر النحل ) ، الذي يتعرض للشرح فيه للنحل وانواعه ومراحل نموه وطباعه والوانه وأحجامه ، ثم ينتقل الى بيوت النحل أو خلاياه ، فيتكلم عن مواضعها في الجبال والسهول وانواعها ، ويصف أشكالها وطريقة العمل فيها . وبعد أن يوضح الآفات التي يتعرض لها النحل ، ينتقل الى عسل النحل وانواعه وفوائده والوانه ، ويربط ذلك كله بالزهور التي يعيش عليها النحل واثر كل منها في نوع العسل الذي يخرج منه .

والمقرئزي عندما يتكلم في هذه الكتب العلمية عن جانب معين من جوانب العلوم لا يفوته ان يربط كلامه بالحياة الواقعية والاقتصادية . فهو في كلامه عن المعادن يشير الى مالها من أهمية اقتصادية في حياة الناس .

وعندما يتكلم عن النحل يوضح القيمة الاقتصادية للعسل - وبخاصة في العصور الوسطى - وكيف انه يشكل مصدرا هاما لايرادات الدولة ، لانه يدخل في المعاملات السلطانية والجهات الديوانية . هذا فضلا عن الشمع الذي يستخرج من بيوت النحل ، وماكان له من دور كبير في الحياتين العامة والخاصة ، بوصفه المصدر الاساسي للاضاءة عندئذ ، حتى ان سوقا كبيرا من أسواق القاهرة - عرف باسم سوق الشعاعين - تخصص في تجارة الشموع وحدها .

على ان أهم مؤلفات المقرئزي الصغيرة - في نظرنا - هودون شك كتاب ( اغاثة الأمة بكشف الغمة ) ، نظرا لماله من قيمة اقتصادية واجتماعية كبيرة ، ولأن المقرئزي ضمنه كثيرا من الآراء والنظريات التي سبق بها عصره بكثير . وفي هذا الكتاب يتعرض المقرئزي لتاريخ المجاعات والوبئة التي اصاب مصر وأهلها منذ القدم ، وحتى المجاعة الشديدة التي عاصرها ( ٧٩٦ - ٨٠٨ هـ ) والتي فقد في الطاعون الذي صحبها ابنته الوحيدة سنة ٨٠٦ هـ - ويبدو أن هذه المحنة التي ابطل بها المقرئزي جعلته يتحمس لتأليف الكتاب المذكور ، حتى أنه ماكد ينكب على تأليفه عقب وفاة وحيدته ، حتى فرغ منه بعد قرابة العام ، وعندئذ يقول عن نفسه انه عكف على « ترتيب هذه المقالة وتعذيبها في ليلة واحدة من ليالي المحرم سنة ثمان وثمانمائة » .

وترجع أهمية كتاب « اغاثة الامة » الى انه دراسة ناقدة تحليلية ، يغلب عليها الطابع الاقتصادي الاجتماعي . ومن خلال هذه الدراسة ينتقد المقرئ كثيرا من الاوضاع القائمة في الدولة وما يرتبط بها من سوء تصرفات الحكام ، ويرجع الازمات الاقتصادية التي تحمل البلاد الى تلك الاوضاع والتصرفات . وفي الوقت نفسه نرى المقرئ يحمل تلك الازمات تحليليا اقتصاديا يجمع بين العمق والابحار ، ويشرح ما لها من آثار اقتصادية واجتماعية ، مما يجعل من كتابه هذا ظاهرة فكرية لها أهميتها وخطورتها في عصر سلاطين المماليك .

على أن عظمة المقرئ وزعامته لمؤرخي عصره لاتنبع من كثرة مؤلفاته وتنوع مواضيعها ، ومثابرتة على الكتابة والتأليف ، بقدر ما تنبع من منهجه في كتابة التاريخ . ونستطيع أن نحدد اركان هذا المنهج في الجوانب الآتية :-

**أولا :** أمانة العرض ، والقدرة على التجرد من الاهواء ، وعدم التعصب لرأى أو التحيز لفكر مع عفة القلم واحترام الغير .

وإذا كانت الامانة صفة لازمة لكل عالم ، فاما ألزم للمؤرخ منها لاي عالم آخر . والمؤرخ عند ما يروى رواية عن الغير ينبغي أن يحافظ عليها كما هي . وإذا روى بعض مشاهداته عليه أن يكون دقيقا فيها يسجله ، لأن هذه الرواية او تلك ستكون مع الأيام سجلا ومرجعا يعتمد عليه اللاحقون . وربما ضاع الاصل الذي استقى منه المؤرخ روايته ، وعندئذ تبقى العبارات التي سجلها المؤرخ مصدرا وشاهدا على التاريخ . والمؤرخ شاهد على الناس - الموق والاحياء ، شاهد على الماضي والحاضر ، والشهادة في الاسلام لها اصولها وآدابها<sup>(٣٦)</sup>

ومقارنة كتابات المقرئ بما دونه غيره من المؤرخين المعاصرين ، نجده اكثرهم اعتدالا ، وأوفرهم دقة ، وأبعدهم عن الاستجابة للأهواء والميول والنزوات . هذا بالإضافة الى أنه في كتابته للتراجم والسير نراه دائما متحكما في قلمه ، يحترم الصغير والكبير سواء ، عفيف اللفظ والكلمة . حتى في نقده لمن يستحق النقد يبدو المقرئ متحرزا منضبطا يخشى الله فيما يقول ، ولا يتخذ من التاريخ أداة لتجريح الناس ونهش اعراضهم والكشف عن خباياهم .

ولا يخفى عنا أن المقرئ عاش في عصر كثر طوالة التحاسد بين العلماء ، وتعرض بعضهم لبعض بالدم والاساءة . ولكن المقرئ ظل بعيدا عن الخوض في ذلك المستنقع ، مكتفيا عند الشروع في تأليف كتاب بأن يدعو الله « أن يحل هذا الكتاب بالقبول عند الجلة والعلماء كما اعوذ به من تطرق أيدي الحساد اليه والجهلاء ، وان يهديني فيه - وفيها سواء من الأقوال والأفعال - الى سواء السبيل »<sup>(٣٧)</sup> .

وحسبنا الفارق بين هذا النهج المعتدل ، وبين ما كان عليه مؤرخ آخر معاصر كالسكاوي ، وصفه معاصره السيوطي بأنه ألف تاريخا « ملاء بذكر المساويء وثلب الاعراض »<sup>(٣٨)</sup> وقال عنه ابن اياس انه « ألف تاريخا فيه كثير من المساويء في حق الناس »<sup>(٣٩)</sup> .

(٣٦) سورة المائدة ، ١٠٨ وسورة البقرة ، ٢٨٢ .

(٣٧) مقدمة كتاب المראה والاحبار للمقرئ ، ج ١ ص ٣ (بولاق)

(٣٨) السيوطي : الكاوي على السكاوي ( مخطوط بدار الكتب المصرية - ١٥١٠ هـ )

(٣٩) ابن اياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٣٢٢ (طبعة القاهرة)



**\*ثانياً :** لم يكتف القريزي بتدوين ما يسمعه ونقل ما يقرأه . وانما عرف عنه التدقيق وحج الاستقصاء والرغبة في معرفة أسباب الظواهر وعلل الاحداث . يقول القريزي عن نفسه - عند ذكر بعض الاحداث - فكثرت تعجبى من ذلك ، وما زلت أفحص عنه على عادتي في الفحص عن أحوال العالم ، حتى وقفت على ... » (٤٠)

وهذه الصفة المتأصلة في القريزي ، والتي يلمسها الباحث في كتاباته تجعله يسمو فوق مستوى كثيرين غيره من المؤرخين السابقين والمعاصرين ، بل واللاحقين حتى اوائل القرن الماضي . ذلك ان الغالب على المؤرخين عندئذ هوان يسرد الواحد منهم احداث التاريخ مكتفياً بما يصل الى علمه عن طريق النقل والسماع . وإذا كان المؤرخ أميناً أسند الرواية الى من نقلها عنه ، وربما فعل ذلك خشية الله او حتى يتحلل من مسئولية وتبعه ما يرويهِ ولا تقول ان القريزي تجرد من هذه النزعة او تخل عن هذا الاسلوب ، فقد لجأ في سرده أخبار السلف الى الاعتماد على روايات السابقين ، وكثيراً ما اشار اليهم حفظاً لحقوقهم ونمساكاً بامانة النقل والرواية . ولكن القريزي كان لا يكتفي بذلك ، وانما كثيراً ما يحرص على ان يقف امام الرواية التاريخية المرفهة لدى القريزي ، وقدرته -لا على الاستيعاب وحسن العرض فحسب - بل وفي هذا كله تظهر الحاسة التاريخية المرفهة لدى القريزي ، وقدرته -لا على الاستيعاب وحسن العرض فحسب - بل ايضاً على التحليل والتفنيد والتعليل . ويتضح هذا الاتجاه في كافة مؤلفات القريزي ، سواء كتبه الكبيرة المليئة بالاحداث - كالسلوك او كتاب المواعظ المشحون بذكر الآثار والمعالم العمرانية ، فضلاً عن كتبه الصغيرة - مثل « اغالة الامة » او في مقالاته ورسائله العلمية مثل كتابه عن المعادن وكتابه عن النحل .. وغيرها .

**ثالثاً :** عدم الاسراف في الاستطراد . والمقصود بالاستطراد الانتقال من موضوع الى ثان ثم الى ثالث لاثفه الأسباب وأوهى المنااسبات . وربما تنبه الكاتب بعد فترة - قد تطول او تقصر - الى انه ترك موضوع حديثه الاصل وبعد عنه ، فيعتذر للقارئ ، واحياناً يستغفر الله ويعوذ به من الشيطان الرجيم الذي صرفه عن قصده ، ويخط عريض يقول « نعود الى ذكر كذا .. » (٤١) وبذلك يصبح مساره ، ولكنه لا يلبث ان يقع في المحذور من جديد ويعود الى الاستطراد بعد قليل .

ومن المؤرخين المعاصرين من يحاول ان يبرر جنوحه نحو الاستطراد ، فيدعي انه تعمد ذلك . للترويح عن القارئ وابعاد السأم عنه اذا هو ظل متعباً على قراءة موضوع واحد ، او انه قصد انحاء القارئ ببعض الطرائف لينشط فكره ويسرى عنه .

ومهما يقل من اننا نجد احياناً في استطادات السابقين من المؤرخين معلومات جديدة ، قد يفوق بعضها في مضمونه ما يحويه المتن الاصل من معلومات ، فان منهج البحث العلمي السليم يتطلب من الباحث تركيز الفكر في موضوع معين ، والوصول الى الحقائق والنتائج عن أقصر الطرق ، وعدم تشتيت الذهن بمسائل اخرى بعيدة عن موضوع البحث الاساسي ، مهما تكن هذه المسائل على درجة من الاهمية والخطورة . وفي ذلك يقول ابن النديم - صاحب الفهرست -

(٤٠) القريزي : كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج ٤ ، حوادث سنة ٨٢٦ هـ

(٤١) انظر على سبيل المثال كتاب : الايام بالاعلام فيما جرت به الاحكام ، للنوري السكندري

من علماء القرن الرابع الهجري ( العاشر للميلاد ) : « النفوس تشرب الى النتائج دون المقدمات ، وترتال الى الغرض المقصود دون التطويل في العبارات . . . » .

ولنلمس استقامة منهج المقرئ وعزوفه عن الاستطراد في كافة مؤلفاته الكبيرة والصغيرة . ويبدو أنه أدرك ما تعاني منه الكتابة التاريخية من تطويل ومط يعرضها للمسح ويفسد صورة التاريخ ، بدليل ما ذكره في مقدمة موسوعته « المواقظ والاعتبار » من أنه حرص على أن يكتب كتابه هذا « من غير إطالة ولا اكتثار ، ولا اجحاف غل بالغرض ولا اختصار ، بل وسط بين الطرفين وطريق بين بين . . . » وفي هذا يبدو اعتدال المقرئ ومثسه بالطريق الوسط ، فلا إطالة واستطراد ولا إيجاز ولا اختصار .

ولعلنا لسنا بحاجة الى الإشارة الى ان تنوع الموضوعات التي جواها كتاب « المواقظ والاعتبار » لا ينفي أن تفسر بأنها نوع من الاستطراد ، لأن طبيعة دراسة الخطط وما يرتبط بها من آثار ومنشآت وأخبار مؤسسيها ومنشئها ، وما شهدته من أحداث خاصة وعامة . . كل ذلك في بلد عريق مثل مصر يتمتع بتاريخ حافل ، وفي مدينة خالدة مثل القاهرة اسهمت منذ مولدها بسهم وافر في النشاط الحضاري لدولة الاسلام . . كل ذلك جعل لكتاب المواقظ وضعاً خاصاً لأن طبيعة موضوعه تتطلب تنوع الموضوعات وتشعبها .

رابعاً : العناية بأخبار مختلف طبقات الشعب وفتاته . ذلك انه ما يؤخذ على كتابة التاريخ في تلك العصور ، ان المؤرخين تمشوا مع الاوضاع التي تعتبر التاريخ ربيب الحكام والخلفاء والسلطين والامراء ، وبالتالي فانهم ركزوا في تدوين التاريخ على تسجيل اخبار الحكام وما كان يجري في القصور ، مع التطرق أحيانا الى اخبار الاعيان والمومقين من القادة والتجار والعلماء ونحوهم . أما الشعوب وعامة الناس ، وما كان يجري في الاسواق والحارات ، وما دار خارج الحواضر والمدن من ريف وبادية . . فكان المؤرخ لا يتعرض له عادة إلا بالقدر الذي يمس سير الحكام والاعيان . ويتضح ذلك من اسماء وعناوين الكتب التاريخية في تلك العصور مثل « الجواهر الثمين في سير الخلفاء والملوك والسلطين » و « الدرر الكافية في أعيان المائة الثامنة » و « النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة » .

ولم يكن باستطاعة المقرئ أن ينزع نفسه من عصر نشأ وعاش فيه ، وصار يعبر عن وجهه من فكره وعقليته . ولكننا نجده في كتابته للتاريخ يذكر الحكام والسلطين والامراء ، ولا يميل الى الإشارة الى عامة الناس والشعب . وعندما أراد اسبا لحولياته الشهيرة اختار أن يسميها « السلوك لمعرفه دول الملوك » فهو لم يختص الملوك وإنما استهدف دول الملوك ، وكل دولة فيها الكبير والصغير وإذا كان قد اختص الحكام والخلفاء والملوك بكتاب ، فانه اختصهم بالذكر في كتاب أكثر ارتباطاً بشعائر الدين وذكر الله ، فوضع كتاباً صغيراً اسماء « الذهب المسبوك بذكر من حج من الخلفاء والملوك » .

ولم يكن المقرئ يكتب للخاصة وحدهم ، وإنما كان يكتب للعامة أيضاً . وبعبارة أخرى فانه حرص على أن يجد الجميع في كتابته غذاء وسلى . يقول عن كتابه « المواقظ والاعتبار » ما نصه « واني لارجو أن يحظى ان شاء الله تعالى

عند الملوك ، ولا ينبوعه طباع العامى والصعلوك ويحله العالم المنتهى ، ويعجب به الطالب المبتدى . وترضاه خلايق العابد الناسك ولا يجهه سمع الخليع الفاتك . ويتخذاه أهل البطالة والرفاهية سمرا ، ويعده أولو الرأى والتدبير موعظة وعبرا . . . » (٤٦)

**خامسا :** عدم مهادنة الحكام . ذلك أن آفة خطيرة من الآفات التي ابتل بها التاريخ على مر العصور هي مهادنة كثير من الكتاب للحكام والسلاطين والملوك ، فيبرزون ما لهم من محاسن ويستترون على ما لهم من عيوب ، ومن أجل ذلك ربما يقلب بعضهم الحق باطلا والباطل حقا . والمعروف أن المقيزي دون مؤلفاته في القرن التاسع الهجري ، أى في عصر اختلت أمور طبقة المماليك الحاكمة ، وهازت نظامهم ، وفسدت أحوالهم ، وبدت صورتهم غير ما كانت عليه في القرنين السابقين . ولكنه لم يضعف أمام بريق الجاه ، ولم يصغر أمام السلاطين الذين عاصروهم والذين عرضوا عليه الوظائف والمناصب ، وإنما أثر في مرحلة معينة أن يعتزل الخدمة الحكومية ويترك المناصب للرعايين فيها : واختار المقيزي أن يقضى المرحلة الأخيرة من حياته عاكفا في بيته بالقاهرة على الاشتغال بالعلم والتأليف والكتابة (٤٧) . ولم يترك داره الا لتيجه الى مكة حيث اقام مجاورا بضع سنوات قليلة ، وأصل خلالها الكتابة والتأليف ، وعاد بعدها الى القاهرة مكيا على حياته العلمية .

وبذلك لم يسمح المقيزي لنفسه أن يكون عبدا للسلطان أو أسيرا للوظيفة ، الامر الذي جعله حرا فيها يكتبه . وبالتالي فانه لم يكن يتحرج من نقد الأوضاع القائمة ، وكشف النقاب عن اوجه الفساد في جهاز الدولة ، والقائه المسئولية على عاتق السلاطين والحكام . من ذلك انه في حوادث سنة ٨٣٢ هـ يتحدث عن جشع السلطان برسباي وتطرفه في سياسة الاحتكار وانزال المظالم بالتجار « حتى حل بالناس بلاء لا يمكن حكايته » (٤٨) وفي حوادث سنة ٨٣٤ هـ ينتقد بشدة الخلل الذي أصاب نظام الحكم وجهاز الحكومة « فتزايدت المفسدة لكثرة التناقض وعدم الثبات على الامر واستخفاف العامة براعيها » . . . » (٤٩) وهكذا نلمس في المقيزي قلبا منطلقا وفكرا حرا .

على أن أهم ما امتاز به منيع المقيزي في كتابة التاريخ هو عنايته بالظواهر الاجتماعية والاقتصادية ، بحيث يستطيع ان يتلوق القارئ للملاح في كتاباته طمعا جديدا ليس له نظير في كتابات كثيرين من مؤرخي العصور الوسطى بوجه عام .

ويركز معظم الباحثين تفسيرهم لعناية المقيزي بالظواهر الاجتماعية والاقتصادية في صلبته بابين خلدون وتأثره به . . . ذلك أنه من المعروف أن المقيزي كان واحدا من تلاميذ ابن خلدون المقربين اليه ، المتصقين به ، المتأثرين بأرائه وأفكاره . وعندما يشير في كتاباته الى ابن خلدون ، فانه يقول « قال لي شيخنا الاستاذ أبو يزيد عبد الرحمن بن خلدون ، رحمه الله تعالى . . . » (٥٠)

(٤٦) المقيزي : الملاحظ والاعتبار ، ج ١ ص ٣

(٤٧) يقول الحامري في ترجمته للمقيزي : وكان قد اتصل بالظاهر برقوق ، ودخل دمشق مع ولده الناصر في سنة مئتين وعاد معه . وعرض عليه فقلعا مرارا ثم إلى القاهرة

اللايع ج ٢ ص ٢١ - ترجمة رقم ٦٦

(٤٨) المقيزي : كتاب السلوك لمرقة دول الملوك - الجزء الرابع - حوادث سنة ٨٣٢ هـ - تحقيق الباحث ونشر مركز تحقيق التراث بالقاهرة

(٤٩) المصدر السابق - حوادث سنة ١٨٣٤ هـ .

(٥٠) المقيزي : الملاحظ والاعتبار ، ج ١ ص ٥٠ (بولاق)

ولكن علينا أن نذكر أن عظمة ابن خلدون في الفكر الاقتصادي الاجتماعي تنبع - بصفة رئيسية - من فلسفته لهذا الفكر في مقدمته الشهيرة . فإذا تركنا المقدمة وعكفنا على دراسة تاريخ ابن خلدون المسمى ( العبر وديوان المبتدأ والخبر ) فأننا لا نجد أثرا واضحا قويا لتطبيق الفكر على الواقع التاريخي . حقيقة أن ابن خلدون استشهد في نظرياته التي أتى بها في مقدمته بأمثلة عديدة من واقع التاريخ ، ولكنه عندما انتقل إلى تسجيل الأحداث التاريخية في الأجزاء التالية من كتابه ، غلب على منهجه طابع السرد التاريخي ، ولم يحاول - إلا نادرا - الوقوف أمام الأحداث ليفسرها في ضوء النظريات الاجتماعية والقوانين الاقتصادية التي سبق أن أتى بها في مقدمته . ومن هنا كانت أهمية ابن خلدون في مقدمته أكثر منها في تاريخه .

أما المقرئ - وهو تلميذ ابن خلدون المعجب به المتأثر بأرائه - فإنه في رأينا فاق استاذته في الجانب التطبيقي . ومهما يقل من أن المقرئ استقى من ابن خلدون اهتماماته بالجوانب الاقتصادية والاجتماعية في التاريخ ، فإنه لا بد وأن يكون لديه هو نفسه الاستعداد والحاسة التي جعلته يطور تلك الجوانب ويحيي تطبيقاتها في تسجيل أحداث التاريخ . وبعبارة أخرى ، فإننا نرى من المبالغة أن ننسب كل ما نلمسه في كتابات المقرئ من اتجاهات اجتماعية واقتصادية إلى مجرد تأثره بأستاذه ابن خلدون وأرائه ، دون أن نعمل حسابا لفطرة المقرئ واستعداداته العقلية والنفسية . ففى حقل الدراسات التاريخية بالذات لا يكفي التعلم لكي يخلق من المتعلم مؤرخا ناجحا ، وإنما لا بد من حسن الاستعداد وتوافر الحاسة التاريخية الموهبة عند من يريد أن يبرز في حقل التاريخ . والمتنبع لكتابات المقرئ المدقق في عباراته ، المتأمل في آرائه وأفكاره ، يلمس حاسة تاريخية موهبة نابعة من داخله مكنته من ربط الأسباب بالتأثير ، ومن تفسير الروابط بين الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والتطورات السياسية والإدارية . كل ذلك في يقظة وسرعة بديهة ، وقدرة فائقة على الالتقاط والربط والتعليل . إن تلاميذ ابن خلدون الذين التفوا وأعجبوا به وأخذوا عنه كثيرون ، ولكن أحدهم لم يصل إلى ما وصل إليه المقرئ من تفوق وإبداع ، والسرف في ذلك يرجع إلى المقرئ نفسه وليس إلى ابن خلدون .

وعندما نقول أن المقرئ يتمتع بحاسة اقتصادية اجتماعية ظهرت واضحة بين ثنايا كتاباته التاريخية ، فإن علينا أن نذكر أن مؤلفات المقرئ الرئيسية ارتبطت أساسا بمصر وتاريخها وقد عبر عن شعوره نحو مصر وارتباطه بها ، وحبها ، وحرسه على تسجيل تاريخها وإخبارها فقال « هي مسقط رأسي وملعب أترابي وجميع ناسي ، ومغنى عشيري وحائقي ، وموطن خاصتي وعامي ، وجوؤي الذي ربي جناتي في وكرة ، وعش مأربي ، فلا هوى الأنفس غير ذكره . ولازلت مذلّ شلّوت العلم ، وآتالي ربي الفطانة والفهم ، أرغب في معرفة أخبارها ، وأحب الإشراف على الاغتراف من أخبارها ، وأهوى مساواة الركبان عن سكان ديارها . . » (٤٧) وهكذا فإننا في كلامنا عن الاتجاهات والملمات الاجتماعية والاقتصادية في كتابات المقرئ ، علينا أن نوضح من البداية أنها ترتبط أساسا بمصر .

ومن ناحية أخرى فإننا عندما نقول أن الحاسة الاقتصادية والاجتماعية عند المقرئ برزت في علاجه لتاريخ مصر ، فإننا نذكر مرة أخرى بأنه عاش في عصر سلاطين المماليك ، وأنه اختص هذا العصر بالذات بقسط كبير من عنايته .

وقد سبق أن أوضحنا أن مصر في ذلك العصر كانت قلب العالم الاسلامي النابض بالحياة والتيارات الحضارية الثقافية والاقتصادية والاجتماعية والفنية وغيرها .

وكان من الطبيعي أن يحظى النشاط الاقتصادي بالذات بعناية خاصة من الباحثين في عصر سلاطين المماليك ، وهو العصر الذي تميز بازدهار التجارة والانتعاش الاقتصادي والثراء الفاحش . ذلك ان قيام دولة سلاطين المماليك جاء مصحوبا بتسلط التتار على طرق التجارة الرئيسية بين الشرق والغرب ، واهمها طريق الخليج وطريق سمرقند البري الى بغداد ، والطريق الممتد الى حوض نهر الفولجا وجنوب روسيا . ونجم عن هذه الظاهرة انه لم يسلم من سيطرة التتار على طرق التجارة الكبرى بين الشرق والغرب سوى طريق البحر الامر ومصر فكانت توابل الشرق وحاصلاته تصل الى ميناء عيذاب او القلزم ، ومنها تنقل عبر صحراء مصر الشرقية الى مجرى نهر النيل ، لتتجه فيه الى موانئ مصر على البحر المتوسط ، وبخاصة الاسكندرية ودمياط . وهناك ينتظرها تجار ايطاليا والغرب الاوربي ليحملوها الى بلادهم .

وقد ترتب على هذه الاوضاع الجديدة التي آلت بطرق التجارة العالمية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى أن احتكر سلاطين المماليك تجارة الشرق ، لانه لم يعد هناك طريق آمن بعيد عن عبث التتار سوى الطريق المار بدولتهم وارضهم . وهكذا جنى سلاطين المماليك ثروة طائلة وتحكموا في اثمان كثير من السلع وبخاصة التوابل والفلفل ، واكتظت القاهرة ودمياط والاسكندرية بالاسواق والمؤسسات التجارية الكبرى - كالحانات والفنادق والوكالات التي تستقبل التجار على اختلاف أجناسهم ومللهم ، والبضائع على تنوع اصنافها والوانها . هذا في الوقت الذي حرصت القوى التجارية الكبرى - وبخاصة في ايطاليا وجنوب اوروبا - على تدعيم علاقاتها الاقتصادية مع سلطنة المماليك وحماية مصالح تجارتها وزراعتها ، فاكثرت من عقد المعاهدات والاتفاقيات التجارية مع سلاطين المماليك لهذا الغرض ، كما سبق أن اشرنا .

واذا كان بعض مؤرخي مصر في عصر سلاطين المماليك قد اشاروا الى النشاط الاقتصادي في ذلك العصر ، فان اشارتهم جاءت عابرة سريعة متناثرة ، وربما غير مقصودة ، يغلب عليها الطابع العشوائي . فهي تأتي بين ثنايا سردهم للأحداث السياسية دون أن تكون هدفا في حد ذاتها . أما المقرئ في له مكانة خاصة لانه افرز للحياة الاقتصادية أجزاء معينة من مؤلفاته مستهدفا إياها بالذات . وجاء ذلك اما في صورة كتب قائمة بذاتها او في صورة فصول وابواب مستقلة داخل الموسوعات التي دونها ، وبخاصة كتاب ( المواظ والاعتبار ) . هذا الى أن المقرئ عايش مرحلة خطيرة في تاريخ دولة سلاطين المماليك ، وهي مرحلة الحل في اجهزة دولة دخلت فعلا مرحلة الخريف من عمرها ، فرأى بعينيته ولس بحاسته التاريخية المرحفة عظمة النشاط الاقتصادي في دولة سلاطين المماليك من ناحية ، وبداية الانحراف في اوضاع الدولة من ناحية اخرى ، مما مكنته من المقارنة والنقد ، حتى وضع يديه على اسباب الداء وحاول ان يقترح العلاج .

وهكذا نستطيع أن نصف جهود المقرئ في علاج التاريخ الاقتصادي لمصر في عصر سلاطين المماليك في قسمين : القسم الاول ينصب على موارد الثروة في مصر - زراعية وصناعية وتجارية وما يرتبط بها من وصف للمؤسسات

الاقتصادية من ناحية ونشاط اقتصادي واسع من ناحية أخرى والقسم الثاني عبارة عن دراسات ناقدة لمظاهر وأسباب عدم الاستقرار الاقتصادي ، الذي اتخذت تعاني منه دولة سلاطين المماليك في عصر المرقزي بالذات .

اما عن موارد الثروة في مصر ، فالمعروف عن هذا البلد انه ظل طوال تاريخه يعتمد اعتماداً أساسياً على الزراعة ، وعلى نهر النيل في نشاطه الزراعي ، لذلك نرى المرقزي يركز عند كلامه عن الحياة الاقتصادية في مصر على أهمية نهر النيل ، وماله من مزايا وصفات ، فيقول ان شرب ماء النيل ينسئ الغريب وطنه ، ويذكر بعض الاحاديث النبوية في فضل نهر النيل وبركته ، ويشير الى فيضان نهر النيل وزيادته ، ثم الى المقاييس القائمة عليه لقياس منسوب المياه فيه ، والى الخللان التي تخرج من نهر النيل لتحمل الماء فيها « بيننا وشمالا الى البلاد البعيدة عن مجرى النيل » ويوضح ان هذه الخللان مرتبطة بمجموعة من الجسور تفتح عندما يفي النيل . وتنتهي زيادته في وقت الفيضان .

وينتقل المرقزي بعد ذلك الى « ذكر نزول العرب بريف مصر واتخاذهم الزرع معاشاً » ويتبع خراج مصر من عهد الى آخر ، حتى بلغ خمسة ملايين دينار في عهد الافضل - ابن امير الجيوش بدر الدين الجمالي - في العصر الفاطمي . وهنا يوضح المرقزي حقيقتين على جانب من الامية اولاهما أن كتاب الخراج في مصر كانوا غالباً من النصارى الاقابط وخبرتهم في أمور المحاسبة من جهة ودرايتهم بأوضاع البلاد من جهة أخرى . أما الحقيقة الثانية فهي أن الدورات الزراعية وما يرتبط بها من تحديد مواسم الزراعة ومواقيتها والاجراءات الرسمية وغير الرسمية الخاصة بها ظلت تتم وفق التقويم القبطي . وهو الامر المتعارف عليه بين المزارعين في مصر حتى اليوم نظراً لارتباط هذا التقويم بالشمس وبثباته وعدم تعرضه للتغيرات التي يتعرض لها التقويم الهجري المرتبط بالقمر<sup>(٤٨)</sup> .

ويوضح المرقزي أن مصر لم تعرف النظام الاقطاعي في حياة الأرض وزراعتها حتى نهاية العصر الفاطمي ، فيقول « واعلم انه لم يكن في الدولة الفاطمية بديار مصر ، ولا فيها قبلها من دول أمراء مصر - لعساكر البلاد أقطاعات ، بمعنى ما عليه الحال اليوم في أجناد الدولة التركية »<sup>(٤٩)</sup> ومن الثابت أن صلاح الدين هو أول من طبق هذا النظام في مصر ، فوزع أراضي مصر الى أقطاعات بين الأمراء مقابل قيامهم بالخدمة العسكرية واعداد الجند والفرسان اللازمين للقتال ، ولذلك أقام جيشاً كبيراً بأقل نفقات ممكنة<sup>(٥٠)</sup> .

ويوضح المرقزي حقيقة خطيرة ، هي أن أرض مصر الزراعية صارت كلها في عصر سلاطين المماليك لطبقة الحكام من المماليك أنفسهم ، فقسمت الى أربعة وعشرين قيراطاً ، اختص السلطان منها بأربعة قرايط ، واختص الأمراء بعشرة قرايط ، والاجناد بعشرة قرايط ( ٥١ ) على ان زمام الأرض فك وعُدل أكثر من مرة في عصر سلاطين المماليك ، وهي العملية التي أطلق عليها اسم ( الروك ) ويشير المرقزي الى الروك الخسائي الذي اجراه السلطان

(٤٨) المرقزي : المواقف والاختيار ، ج ١ ص ٨٤ (برلاق)

(٤٩) المصدر السابق ، ص ٨٥

(٥٠) يذكر أبو شامة (كتاب الروضتين في اخبار الدولتين ، ج ٢ ص ١٦) : أن صلاح الدين قام سنة ٥٧٧ هـ ( ١١٨١ م ) باقتطاع البلاد والتوزيع بها على الأجناد ،

(٥١) المرقزي : كتاب المواقف والاختيار ، ج ١ ص ٨٨ (برلاق)

حسام الدين لاجين سنة ٦٩٧ هـ (١٢٩٨ م) ، والروك الناصري الذي تم في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧١٥ هـ (١٣١٥ م)<sup>(٥٦)</sup> اما الأمراء المسنون الذين لا يتحملون تبعات الاقطاع ، فاعتاد سلاطين الممالك أن يمنحهم بدل الاقطاع رواتب نقدية تخصص لها جهات معينة ، يتناول المقتطع نصيبه منها . ويذكر المقرظي انه جاء وقت غدت فيه معظم الضرائب والمكوس المفروضة في مصر « عليها اقطاعات الأمراء والأجناد » .<sup>(٥٧)</sup>

ويتكلم المقرظي عن مال مصر - اى دخلها - فيقسمه الى قسمين : مال خراجي ومال هلالى فالمال الخراجي ما يؤخذ مسانبة من الاراضى التى تزرع حبوباً ونخلاً وعنباً وفاكهة ، وما يجير من الفلاحين على سبيل الهدايا العينية ، مثل الغنم والدجاج والكشك ، وغير ذلك « من طرف الريف ، أما المال الهلالى ، فيقتصد به المقرظي بالضرائب والمكوس غير الشرعية وقال ان « اول من أحدث مالا سوى الخراج بمصر هو أحمد بن محمد بن مدبر ، لما ولى خراج مصر بعد سنة خمسين ومائتين .. »<sup>(٥٨)</sup> وقد عرف المال الهلالى في أول الامر بالمرافق والمعاون ولكن كثيراً من الحكام الذين تعاقبوا على مصر رغبوا عن المال الهلالى ، لما فيه من خروج على الشرع ، وتحميل الناس والرعايا أكثر من طاقتهم . ومن هؤلاء أحمد بن طولون الذى اسقط المرافق والمعاون بعد ان بلغت حصيلتها في مصر على عهده مائة ألف دينار كل سنة ويمضي المقرظي في هذا البيان الطريف ، فيقول ان الاموال الهلالية اعيدت في ايام الدولة الفاطمية عندما ضعفت الدولة واهترأ كيانها الاقتصادى واشتدت حاجتها الى المال . وظلت هذه الاموال قائمة حتى الغاها صلاح الدين ، وكتب عنه القاضي الفاضل مرسوماً بذلك.<sup>(٥٩)</sup>

ومع قيام دولة سلاطين الممالك عاد المال الهلالى الى الظهور تحت اسم « الحقوق والمعاملات » على أن بعض سلاطين الممالك - اعتباراً من الظاهر بيبرس - اتجهوا نحو ابطال هذه المكوس وإن كان يبدو ان ابطالها تم تدريجياً ويذكر المقرظي « أن آخر ما أدركنا ابطاله ضمان الاغانى وضممان القراريط في سنة ثمان وسبعين وسبعمئة على يد الملك الأشرف شعبان ابن حسين »<sup>(٦٠)</sup> ونشرح المقرظي ضمان الاغانى ، فيصفه انه كان بلاء عظيمًا وانه عبارة عن أخذ مال - او شربة - من النساء البغايا ، فاذا دفعت احداهن المال المقرر الى الضامنة ، وسجلت اسمها عندها ، لا يستطيع احد منهن من مزاوله الفاحشة ومن ناحية اخرى ، كان لا يجوز لاحد اقامة فرج باغان دون دفع رسوم معينة لضامنة الاغانى « ومن فعل فرجاً باغان او نفس امرأته من غير اذن الضامنة حل به بلاء لا يوصف » أما ضمان القراريط فيعرفه المقرظي بأنه كان يؤخذ من كل من باع ملكاً ، عن كل ألف درهم عشرون درهماً.<sup>(٦١)</sup>

اما عن الصناعة ، فيستفاد ما ذكره المقرظي في سياق وصفه لأسواق القاهرة تنوع الصناعات وكثرتها مع جودها . ومن أهم هذه الصناعات صناعة الشمع الذى كان يباع بسوق الشماخين ، وصناعة المعادن - ومنها الحلى الدقيقة - مثل

(٥٦) المصدر السابق - نفس الجزء والصفحة .

(٥٧) المصدر السابق ( ج ١ ) ص ٨٨ - ٨٩ ، ١٠٣ - ١١١ ( بولاق )

(٥٨) المصدر السابق ، ص ١٠٣

(٥٩) المصدر السابق ، ص ١٠٤

(٦٠) المصدر السابق ، ص ١٠٦

(٦١) المصدر السابق ، نفس الصفحة

« الخواثيم والقصوص وأساور النسوان وخلاخيلهن وغير ذلك » وكانت تباع في سوق القفصيات حيث كان يضعها الباعة في أقفاص صغار من حديد مشبك ليعاينها المشترون - ويرتبط بالمعادن أيضا صناعة الأسلحة - كالقسي والنشاب والزرديات - وكانت كلها تباع بسوق السلاح . اما للمهاميز فكانت تصنع وتباع بسوق المهايزيين . ويقول المقرئى انه ادرك الناس « وهم يتخلدون المهماز كله - قابله وسقطه - من الذهب الخالص ، ومن الفضة الخالصة »<sup>(٥٨)</sup> هذا عدا سوق الحراطين الذى كانت تصنع وتباع فيه السكاكين ونحوها<sup>(٥٩)</sup> .

كذلك انتعشت في مصر في ذلك العصر صناعة التكتيف وهى تطعيم معدن بمعدن آخر . ويوجد لهذه الصناعة بالقاهرة سوق كبير هو سوق الكتفين ، وصفه المقرئى ، فقال ان به « عدة حوائث لعمل الكفت ، وهو ما تطعم به أوانى النحاس من الذهب والفضة وكان لهذا الصنف من الأعمال بديار مصر رواج عظيم ، وللناس في النحاس المكفت رغبة عظيمة . . فلان كناد دار تحلو بالقاهرة ومصر من عدة قطع نحاس مكفت . ولا بد ان يكون في شورة العروس دكة نحاس مكفت . والدكة عبارة عن شيء شبه السرير يعمل من خشب مطعم بالعاج والابنوس ، او من خشب مدهون ، وفوق الدكة دست طاسات من نحاس اصفر مكفت بالفضة . . »<sup>(٦٠)</sup>

ومثل هذا يقال عن صناعة الجلود ، فقد وصف المقرئى سوق اللجمين بالقاهرة فقال انه كانت تصنع وتباع فيه « آلات اللجم ونحوها مما يتخذ من الجلد ، ويرتبط بها السروج التى كانت تصنع من اصفر وأزرق . اما القضاة ورجال العلم والدين فكانوا يفضلون السروج السود التى تصنع من الجلد البلغارى الاسود » ومن الجلد البلغارى ايضا كانت تصنع الاخفاف المتنازة التى يلبسها السلطان والامراء في اقدمهم<sup>(٦١)</sup>

أما صناعة الأخشاب فقد تنوعت ، فمنها ما يرتبط بالابواب والنوافذ ومناير المساجد ومعظمها كان يجلى بالحفر ، ومنها ما يرتبط بالصناديق والاسرة والخزائن - وكثير منها مطعم بالعاج - وكانت تباع في سوق الصناديقين بالقاهرة<sup>(٦٢)</sup>

واشتهرت في مصر عدة مراكز لصناعة المنسوجات والاقمشة ، منها تنيس ودمياط . ويصف المقرئى تنيس في صدر الاسلام بأنها كانت مدينة كبيرة « بها يحاك ثياب الشروب التى لا يصنع مثلها في الدنيا ، كما يصنع فيها للخليفة ثوب يقال له البدنة ، لا يدخل فيه من الغزل - سداء ولحمة - غير اوقيتين وينسج بآقيه بالذهب بصناعة محكمة لا تحوج الى تفصيل ولا خياطة . . وليس في الدنيا طراز ثوب كتان - يبلغ الثوب منه - وهو ساذج بغير ذهب . مائة دينار عينا غير طراز تنيس ودمياط<sup>(٦٣)</sup> » اما الثياب المصنوعة في الاسكندرية فقد وصفها المقرئى بأن « لا نظير لها ، وتحمل الى أقطار

(٥٨) المقرئى : المواقف ، ج ٢ ص ٩٦ - ٩٧ (بولاق)

(٥٩) المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٠٣

(٦٠) المصدر السابق ، ص ١٠٥

(٦١) المصدر السابق ، ص ٩٨

(٦٢) المصدر السابق ، ص ١٠٢

(٦٣) المقرئى : المواقف ، ج ١ ص ١٧٦ (بولاق)



الأرض» (٦٤) وتشهد اسماها بعض الأسواق في عصر المقرئى - فسوق الجوخين وسوق الشرايين ، وسوق الحريين وسوق الغرايين . . على نشاط وتجارة الاقمشة وما يرتبط بها من ملابس وفراء وأجوانح (٦٥)

وهناك صناعات اخرى غذائية متفاوتة الامة ، اشار اليها المقرئى ضمن تنبيهه للنشاط الاقتصادي في مصر ، ولعل اهم هذه الصناعات صناعة السكر . يذكر المقرئى انه كان في سبعمائة عشر معصرا لعصير القصب كما كان في ملوى عدة معاصر (٦٦) وكان يرتبط بهذه المعاصر - التي انتشرت في كافة انحاء البلاد - مطابخ لصناعة السكر الذي اشدت الاقبال على استهلاكه نتيجة لحياة الترف التي اشتهرت بها مصر في تلك المصور . ولا ادل على كثرة استهلاك السكر لعمل الحلوى عندئذ ، مما ذكره المقرئى من أن استهلاك السكر على ايام السلطان الناصر عمدا بن قلاؤن بلغ في شهر رمضان وحده - من عام ٧٤٥ هـ ثلاثة آلاف قطار ، قيمتها ثلاثون الف دينار منها ستون قطارا كل يوم من ايام رمضان برسم الدور السلطانية (٦٧)

ومهما يكن للزراعة والصناعة من شأن في الحياة الاقتصادية في مصر على عصر سلاطين المماليك ، فانه مما لا شك فيه ان التجارة كانت المصدر الاول للشراء الكبير الذي تصف به ذلك العصر ، والذي مكن سلاطين المماليك من تحقيق مشاريعهم الكبرى في الخارج والداخل . ويشير المقرئى - بين ثنايا كتاباته - الى مدى عناية سلاطين المماليك بتشجيع التجارة عن طريق تأمين الطرق ، وتوفير السلامة للتجار ، واقامة المؤسسات التجارية في المدن لينزل فيها التجار الوافدون على البلاد ، ويباشرون منها نشاطهم ومعاملاتهم التجارية . من ذلك ما يذكره المقرئى عن تودد السلطان المنصور قلاؤن الى القوى الاسلامية في حوض البحر الاحمر - مثل ملوك اليمن وامراء الحجاز - واکرامهم وارسال الهدايا اليهم ، ليسهلوا مرور التجار ببضائعهم الى مصر . (٦٨) هذا بالإضافة الى ما يذكره المقرئى عن حرص سلاطين المماليك على سلامة طرق التجارة وتأمينها حتى أنه عندما اشتد القتال في صحراء عيذاب بين عرب جهينة وعرب رفاعة ، وادرك السلطان المنصور قلاؤن ما يترتب على ذلك من تهديد لأمن القوافل التجارية المتجهة من عيذاب الى وادى نهر النيل ، اصدر السلطان اوامره الى الشريف علم الدين صاحب سواكن « بأن يوقف بينهم ولا يعين طائفة على اخرى ، خوفا من فساد الطريق » (٦٩) .

وهناك اشارات عديدة في مختلف مؤلفات المقرئى توضح دور مصر في التجارة العالمية ، وانما كانت مقصد التجار من الشرق والغرب . من ذلك ما يقوله من أن تجار الهند واليمن والحبيشة كانوا يردون في البحر الى عيذاب ، ثم يسلكون صحراء مصر الشرقية الى قوص ، ومنها يتجهون في النيل الى القاهرة يحملون احمال البهار كالقرقة والبلبل ونحو

(٦٤) نفس المصدر والجزء ، ص ١٢٣

(٦٥) المقرئى : لمواظف والاخبار ، ج ٢ ص ٩٨-١٠٣

(٦٦) المقرئى : لمواظف والاخبار ، ج ١ ص ٢٠٣-٢١٤

(٦٧) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٣٣١ (برلاق)

(٦٨) المقرئى : كتاب الملوك لفترة دول الملوك ج ١ ص ٥٨١ ، ٧٠٢

(٦٩) نفس المصدر والجزء - ص ٧٠٠

ذلك<sup>(٧٠)</sup> ويبدو أن طريق عيذاب - قوص أهمل بعد طرد الصليبيين من الشام وزوال خطرهم عن شمال البحر الأحمر ، فصارت المناجر تأتي في البحر الأحمر إلى القلزم ، ومنها بطريق القوافل إلى القاهرة . أما من ناحية الجنوب ، فكان نجر مصر الرئيسي على النيل مدينة أسوان التي قال عنها المقرئزي إن « بها تجارات وبضائع تحمل منها إلى النوبة »<sup>(٧١)</sup> على أن نجر أسوان لم يكن باب مصر الوحيد على افريقية في ذلك العصر وإنما كانت هناك نسبة كبيرة من تجارة مصر مع غرب افريقية وبلاد السودان الغربي وافريقية الوسطى ، تصل إلى مصر بالقوافل عن طريق الصحراء الغربية إلى قوص أو إلى الجيزة ، وهناك طريق شهير كان يسلكه الحجاج والتجار من بلاد السودان الغربي إلى مصر - هو طريق غات - يبدأ من مدينة غات في حوض نهر النيجر ، وينتهي عند الأهرام بالجيزة . وقد عرف تجار تلك الجهات باسم الكارم أو الكارمية نسبة إلى مملكة الكارم ، كما عرفوا باسم التكرور نسبة إلى مملكة التكرور ، وهما من ممالك السودان الغربي الإسلامية ، في ذلك العصر<sup>(٧٢)</sup> وكان هؤلاء التجار يجلبون إلى دولة سلاطين الممالك بضاعة من أخطر البضائع التي قامت عليها عظمة دولة الممالك واستمدوا منها ثروتهم ، وهي التوابل والفلفل والبهار والبخور والقرنفل . . وكلها أصناف اشتد تمهاقن الأوروبيين عليها ، ودفع فيها التجار الغربيون الأثمان المرتفعة<sup>(٧٣)</sup> . يقول المقرئزي « كان تجار الكارم بمصر حينئذ في عدة وافر ، ولهم أموال عظيمة » ، كذلك أشار المقرئزي إلى أن سلاطين الممالك كانوا يقتضون المال منهم أحيانا ، إذا اضطرتهم الظروف إلى ذلك<sup>(٧٤)</sup> ، ولا أدل على ازدياد - حجم تجالية التكرارة بمصر من أنهم إبتنوا مدرسة للمالكية عرفت بمدرسة ابن رشيق ، غدت مركزا لطلاب العلم الوافدين من بلاد التكرور ، ويذكر المقرئزي أن الأخيرين من اثرياء التكرارة اعتادوا أن يبعثوا لتلك المدرسة بالمال والتبرعات<sup>(٧٥)</sup> .

ومن ناحية أخرى ، فإن بعض التكرارة في مصر كانوا على درجة شديدة من الفقر وهؤلاء حظوا بعطف سلاطين الممالك ، حتى أن المقرئزي ذكر أن الملك السعيد بركة خان - ابن السلطان الظاهر بيبرس « عمل للتكرارة خوانا حضره كثير من أهل الخبر »<sup>(٧٦)</sup> .

أما تجارة مصر مع أوروبا ودول حوض البحر المتوسط ، فكانت أهم ثغورها دمياط والاسكندرية . وقد ظلت دمياط ميناء مصر الأول على البحر المتوسط - أو بحر الروم - طوال الشطر الأول من العصور الوسطى ، الأمر الذي عرضها لعدة هجمات صليبية ، وبخاصة بعد طرد الصليبيين من الشام . ويذكر المقرئزي أنه بعد حملة لويس التاسع على

(٧٠) المقرئزي : المواضع ، ج ١ ص ٣٠٢

(٧١) المقرئزي : المواضع والأعيان ، ج ١ ص ١٩٧

(٧٢) وترجع أن تكون تسمية ساحل مصر على النيل بولاية التكرور نسبة إلى تجار التكرور الذين كانت ترد بضاعتهم من قوص عن طريق نهر النيل إلى ساحل بولاقي ( انظر : سعيد عاشور : العصر المالكي ص ٣٠٢ ) ويذكر المقرئزي .

(٧٣) كتاب السلوك ج ٢ ص ٣٦٦ ( أن ساحل بولاقي كان يعرف باسم مية بولاقي ثم عرف بولاية التكرور بعد أن أول هناك الشيخ أبو محمد يوسف بن عبد الله التكروري ، وكان يعتقد فيه الخير .

(٧٤) انظر فرجة التاجر الكارمي عز الدين عبد العزيز بن منصور الكوطي ، القرن ١٣ هـ ( المقرئزي : كتاب السلوك ج ٢ ، حوادث سنة ٧١٣ هـ ، ص ١٣٢ )

(٧٥) المقرئزي : كتاب السلوك ، ج ٢ ص ١٠٣

(٧٦) المقرئزي : المواضع والأعيان ، ج ٢ ص ٣٦٥ ( بولاقي )

(٧٦) المقرئزي : كتاب السلوك ، ج ١ ص ٦٤٩

مصر- وهي الحملة التي انتهت بسقوط الدولة الايوبية وقيام دولة سلاطين المماليك في منتصف القرن السابع الهجري ( الثالث عشر للميلاد ) - اتفق أرباب الدولة بمصر- وهم المماليك البحرية - على تخريب مدينة دمياط ، خوفا من مسير الفرنج اليها مرة اخرى ، فسيروا اليها الحجارين والقلعة ، فوقع الهدم في اسوارها يوم الاثنين الثامن عشر من شعبان سنة ثمان واربعين وستمئة ، حتى خربت كلها وبقيت آثارها (٧٧) . وقد شيدت مدينة دمياط الجديدة في الداخل - بعيدة عن شاطئ البحر - فتقف المراكب التجارية بهذاها « وينقل ما فيها من البضائع في مراكب نيلية تعرف عند أهل دمياط بالجروم ، واحدها جرم » (٧٨) . ويبدو أن هذا الاجراء لم يؤثر في مكانة دمياط التجارية فاستمرت تقصدها سفن التجار الاوربيين ، ووجدت بها جاليات كبيرة لهم ، حتى أخذت الاسكندرية تحمل عليها لتدرجها ، لتصبح في القرن التالي ميناء مصر الاول على البحر المتوسط . وقد زار المقرئزي دمياط وأعجب بمنشأتها ، وقال ان دمياط الجديدة المستحدثة « صارت بلدة كبيرة ذات أسواق وحمامات وجوامع ومدارس ومساجد ، ودورها تشرف على النيل الاعظم ، ومن ورائها البساتين . وهي احسن بلاد الله منظرا » (٧٩) .

واما الاسكندرية فقد وصفها المقرئزي بأنها « من أعظم مدائن الدنيا وأفاض في سرد تاريخها القديم منذ الاسكندر الاكبر . وقد ازادت مكانة الاسكندرية التجارية في القرن الثامن الهجري - الرابع عشر للميلاد - مما عرضها للحملة الصليبية التي شنتها عليها بطرس لوزجنان ملك قبرص سنة ٧٦٧ هـ (١٣٦٥) م . ومع ذلك فإن هذه الحملة لم تؤثر في مكانة الاسكندرية ، بل على العكس ضاعفت من عناية سلاطين المماليك بها وتحولت الى ثيابة يحكمها نائب عن السلطان بعد أن كانت ولاية على رأسها وال . وعلى أيام المقرئزي في القرن التاسع الهجري - الخامس عشر للميلاد - شهدت الاسكندرية ازهى أيامها بسبب رواج تجارتها ، وصارت تقصدها سفن التجار البنادقة والجنوية والبيزانة وغيرهم . (٨٠) .

وقد فضل التجار الاوربيون الإقامة في المدن التجارية والثغور ، حيث كان لكل جالية اجنية تفصل يشرف على مصالح افراد الجالية ، كما اتخذت كل جالية لنفسها فندقا ينزل فيه افراد الجالية . وفتح التجار الاوربيون داخل فنادقهم بقدر كبير من الحرية ، فسمحت لهم حكومة دولة سلاطين المماليك باستحضار الخمر اللازمة لاستهلاكهم وانزالها في فنادقهم ، بعد دفع الضرائب الجمركية المستحقة عليها . ويبدو أن التجار الاوربيين أسرفوا في استحضار الخمر ، اذ يروي المقرئزي أن السلطان الصالح اسماعيل حاول منعهم من احضار الخمر الى ثغر الاسكندرية . ولكن حاكم الثغر اعترض على هذه الفكرة وقال ان الضرائب التي تحصل في السنة من تلك الخمر تبلغ اربعين الف دينار (٨١) .

هذا عن التجارة الخارجية ، اما التجارة الداخلية ، في ضوء كتابات المقرئزي ، فمن الواضح انها انتمت في عصر سلاطين المماليك لا رباطها بالتجارة الخارجية ، من ناحية وبحالة الرواج الاقتصادي الذي شهدته البلاد في عصر

(٧٧) المقرئزي : المراجع والاعتبار ، ج ١ ص ٢٢٣ ( بولاق )

(٧٨) المصدر السابق - نفس الجزء والطبعة - ص ٢٢٤

(٧٩) نفس المصدر والجزء والطبعة .

(٨٠) محمد حافظ : العصر المملوكي ، ص ٢٧٧ وما بعدها

(٨١) المقرئزي : كتاب السلك ، ج ٢ ص ٦٩٤

سلاطين المماليك من ناحية أخرى . وتشهد على ذلك كثرة الاسواق والقياسر التي عددها المقريزي ووصفها اوصافا تتم عن الانتعاش والازدهار والرواج الذي صار مضرب الامثال . ويكاد المقريزي لا يذكر مدينة كبرى من مدن مصر الا ويشيد بأسواقها العامرة . فاذا تعرض المقريزي لاسواق القاهرة ، أسهب في تعدادها ، وأفاض في وصفها ، معبرا ليس فقط عن تاريخ كل سوق بل أيضا عن ما رآه بنفسه بوصفه شاهد عيان .

من ذلك ما يقوله المقريزي في وصف سوق القصبة « وقد أدركت هذه المسافة بأسرها عامرة الخوانيت ، غاصة بأنواع المأكّل والمشارب والامتمّة ، تبهج رؤيتها ، ويعجب الناظر هيبتها ، ويعجز العاد عن احصاء ما فيها من الانواع ، فضلا عن احصاء ما فيها من الاشخاص »<sup>(٨٢)</sup> وإذا تكلم المقريزي عن القياسر ، اشار الى مجال بناتها ، وكثرة ما فيها من حوانيت وتنوع ما فيها من بضائع<sup>(٨٣)</sup> اما الفواكه على اختلاف أنواعها - سواء المحلية او الواردة من بلاد الشام ، فقد خصص لها فندق دار التفاح - تجاه باب زويلة - وبه « عدة حوانيت تباع فيها الفاكهة ، تذكر رؤيتها وتشم عرقها الجنة ، لطيب وحسن منظرها وتأنق الباعة في تنضيدها واحتفافها بالربا حين والازهار ، وما بين الخوانيت مسقوف حتى لا يصل الى الفواكه حر الشمس . . . »<sup>(٨٤)</sup> وقد شيدت للتجار المسلمين الوافدين من خارج البلاد الوكالات والخانات لينزلوا فيها ومعهم بضائعهم واموالهم تحفظ فيها ، حتى ينجزوا معاملاتهم .

ومن أشهر هذه الوكالات في عصر المقريزي وكالة قوصون ، التي يقول فيها « هذه الوكالة في معنى الفنادق والخانات ، ينزلها التجار ببضائع بلاد الشام من الزيت والشيرج والصابون والديس والفتق والجوز واللوز والخرنوب والرب ونحو ذلك . وقد أدركنا هذه الوكالة . وإن رؤيتها من داخلها وخارجها لتدهش لكثرة ما هنالك من أصناف البضائع وازدحام الناس ، وشدة أصوات الحائنين عند حل البضائع ونقلها لمن يبتاعها . . . »<sup>(٨٥)</sup> .

هذه هي بعض الملامح التي نستخلصها من كتابات المقريزي عندما يصف النشاط الاقتصادي ومظاهره في مصر الاسلامية ، وبخاصة في عصر سلاطين المماليك . على أن - المقريزي لم يقف عند ذلك الحد ، وإنما انتقد كثيرا من الاوضاع الاقتصادية التي لساها في عصره ، والتي لم يرض عنها واعتبرها مظهرا للتردي وسببا للفساد الذي أخذ ينتشري على أيامه . فلك أن المقريزي المؤرخ - كما سبق أن أشرنا - عايش فترة انتقال خطيرة في تاريخ دولة سلاطين المماليك ، فرأى آيات من أمجاد هذه الدولة - سجلها بأمانة وأخلاص - ورأى بذور الخلل ، وقد أخذت تنطرق الى اجهزة الدولة ، وعلى رأسها الجهاز الاقتصادي ، وكان أن حرص على أن يضع يده على الداء ويصف العلاج ، فعبّر بأمانة عن أسباب الخلل الاقتصادي ، وانتقد بشدة كثيرا من الاوضاع التي رآها بعينه ولسها بنفسه .

وإذا كان صدق الحاسة الاقتصادية عند المقريزي ، جعله يدرك خطورة العامل الاقتصادي وأهميته في تشكيل حياة

(٨٢) المقريزي : المواقف والاعتبار ، ج ٢ ص ٩٤ - ٩٥ (ربلاق)

(٨٣) المصدر السابق - نفس الجزء والطبعة - ص ٨٦ وما بعدها

(٨٤) المصدر السابق - نفس الجزء والطبعة - ص ٩٣ وما بعدها

(٨٥) المصدر السابق - نفس الجزء والطبعة

البلاد والعباد ، فإن هذه النظرة الثاقبة لم تبت فقط في شئ كتاباته ، وإنما بدت أشد ما تكون تركيزاً ووضوحاً في كتابه « اغاثة الامة بكشف الغمة » ذلك أن المقرئ دون كتابه هذا من منطلق اقتصادي بحث ، وفي ظل ظروف اقتصادية قاسية ، ومن واقع أزمة خانقة عايشها وقاسى منها ، ودفع فيها ثمنها باهظاً ترك أعماق ال اثر في نفسه ووجدانه . ونعني بهذه الأزمة المجاعة التي حلت بمصر ، واستمرت بصفة متقطعة بين سنتي ٧٩٦ ، ٨٠٨ للهجرة ، وما صاحبها من انتشار الطاعون في البلاد وهو الوباء الذي ذهب ضحيته آلاف الناس ، ومن جملتهم ابنة المقرئ وحيده ، وهكذا فإن المقرئ عندما عالج سوء الحالة الاقتصادية في كتابه « اغاثة الامة » وبحث في أسباب الداء ، وفتش عن الدواء ، إنما كان يكتب بأحاسيسه ، ويسجل مآرأه بعينه ، وما أحسه بفؤاده ، وليس فقط ما سمعه بأذنيه .

وقد بدأ المقرئ كتابه هذا<sup>(٨٦)</sup> بالإشارة الى أن من أجل نعم الله - عز وجل - على الإنسان أن ينير بصيرته ويلهمه العلم والحكمة ، ليبين للناس أسباب ما نزل بهم من عمن ، ويعرفهم كيف يكون الخلاص منها . ثم يوضح ذلك فيقول ان المحنة التي سبقت الإشارة إليها ، والتي تحت وطأتها وضع كتابه هذا - طال أمداً - وحل فيها بالناس من أنواع البلاء والعذاب مالا يوصف ، حتى ظن بعضهم أن لا أمل في الخلاص منها . ويصف المقرئ هؤلاء القاطنين بأنهم « بأسباب الحوادث جاهلون ، ومن روح الله آيسون » . ومن هذا المنطلق استهدف المقرئ من تأليف كتابه « اغاثة الامة » أن يوضح حقيقتين كبيرتين :-

الاولى : « الأسباب التي نشأ منها هذا الامر العظيم ، وكيف تمادى بالبلاد والعباد هذا المصاب الشنيع » .

والثانية : « ما يزيل هذا الداء ويرفع البلاء » .

ويعاود المقرئ أن يخفف من وقع الأزمة على معاصريه ، فيوضح أن الإنسان كثيراً ما يبالغ في الازمات التي يعاني منها في حاضره ، ويتصورها أثقل وطأة من كوارث الماضي كما يتوهم المستقبل أفضل من الحاضر . ولذلك لا يزال الحاضر أبداً متوقفاً حقه مجحوداً قدره ، لأن القليل من شره يرى كثيراً . . . وهذه العبارة يضعها المقرئ أمام حقيقة كثيراً ما تنجب عنا ، وهي أننا نبالغ في الصعوبات التي نواجهها في حاضرتنا لأنها ملموسة ، وتتصورها أفدح مما تعرض له السابقون في الماضي ، وأنه لا يمكن أن يحدث في المستقبل ما يماثلها في قسوتها . ولذا فإن الحاضر دائماً « متوقفاً حقه مجحوداً قدره » على حد تعبيره .

ويخلص من ذلك الى أن الأزمة المعاصرة التي دفعته الى الكتابة ليست الأولى من نوعها في تاريخ مصر وأهلها ، وليست بحالة من الأحوال أشد وأقسى من غيرها ، وأن بدت كذلك في نظر المعاصرين . ذلك أن ( القليل من المشاهدة أرسخ من الكثير من الخبر ، اذ مقاساة السير من الشدة اشق على النفس من تذكر الكثير مما سلف منها . )<sup>(٨٧)</sup>

(٨٦) المقرئ : اغاثة الامة بكشف الغمة - تحقيق الاستاذين المرحوم محمد مصطفى زيادة والمرحوم جمال الدين الشيبان - الطبعة الثانية القاهرة ١٩٥٧

(٨٧) المصدر السابق ، ص ٥ - ٦ .

ولكي يبرهن على سلامة وجهة نظره يتتبع الازمات الاقتصادية التي حلت بمصر منذ أقدم العصور ، ويرجع بذلك الى ما قبل طوفان نوح عليه السلام ، ويتدرج الى ان وصل الى الأزمة الطاحنة التي حلت بالبلاد زمن يوسف الصديق عليه السلام . وفي ظل الاسلام حدثت اول أزمة اقتصادية بمصر في سنة سبع وثمانين للهجرة ، وبالي مصر يومئذ هو عبد الله بن عبد الملك بن مروان - الذي وليها من قبل أبيه الخليفة عبد الملك - « فتشاهم به الناس ، لانه أول غلاء وأول شدة رأها المسلمون بمصر » .

ومنذ الفتح العربي الاسلامي لمصر حتى أيام المقيزي نفسه ، عُدَّ هذا المؤرخ نحواً من عشرين أزمة اقتصادية ، تفاوتت في شدتها ، أرجع معظمها الى قصور نهر النيل وعدم وفائه وانخفاض مستوى الفيضان ، وأرجع القليل منها الى كثرة الاضطرابات ، وتعدد الفتن ، وعدم الاستقرار والأمن بسبب المصادمات بين طوائف الجند والامراء ، وما صحب ذلك من نهب الأسواق واختلال الأوضاع الاقتصادية<sup>(٨٨)</sup> وفي جميع الحالات وصف المقيزي باليجاز ما كان يحدث في تلك الازمات أو الغلوات من ارتفاع في الاسعار ، ونقص في الاقوات ، وما كان يصحب ذلك غالباً من انتشار الطاعون والابوية الفتاكة ، مما يزيد من وقع البلاء .

وما يسترعي الانتباه ان المقيزي عندما عدد في كتابه « اغاثة الامة » ما حل بمصر من الغلوات<sup>(٨٩)</sup> وما نجم عن هذه الغلوات من محن وأوبة ، فإنه لم يشر الى الوباء الاسود الذي انتشر بمصر سنة ٧٤٩ هـ (١٣٤٩ م) وهو وباء عالمي عرف في مصادر تاريخ العصور الوسطى باسم « الموت الاسود » Black Death ويعمل الاستاذان اللذان قاما بتحقيق كتاب « اغاثة الامة » ذلك بأن المقيزي قصر بحثه في هذا الكتاب على اخبار الابوية الناجمة عن أسباب داخلية - قصور النيل وسوء الحكم في مصر - في حين أن وباء سنة ٧٤٩ هـ كان خارجي المصدر ، وقد حل البلاد نتيجة العدوى التي زحفت من الشرق الأقصى على امتداد الطرق التجارية المتجهة غرباً . واستمر هذا الوباء - الذي اجتاحت الشرق الاوسط وأوروبا - نحواً من قرنين من الزمان حصده فيها عدداً يتراوح بين ثلث ونصف سكان البلاد التي انتشر فيها<sup>(٩٠)</sup> .

ومع ذلك فإن المقيزي تعرض لهذا الوباء بالتفصيل في موضع آخر من مؤلفاته ، فقال في كتابه « السلوك المعروفة دول الملوك » عن أثر هذا الوباء<sup>(٩١)</sup> « ... وكان يموت بالقاهرة ومصر ما بين عشرة الاف الى خمسة عشرة ألف الى عشرين ألف نفس في كل يوم ... وكانت الحفرة يدفن فيها الثلاثون والاربعون واكثر ... وعم مع ذلك غلاء الدنيا جميعاً ..... »

ومات الفلاحون بأسرهم فلم يوجد من يضم الزرع . وزهد أرباب الاموال في اموالهم وتوقفت الاحوال بالقاهرة

(٨٨) المصدر السابق ، ص ١٣

(٨٩) المصدر السابق ، ص ٧ - ٤١

(٩٠) عن هذا الوباء وانتشاره وآثره انظر :-

سيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى - الجزء الأول - ص ٥٧٥

(٩١) المقيزي : كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ، حوادث سنة ٧٤٩ هـ ، الجزء الثاني ص ٧٧٠ - ٧٨٥

ومصر . وابطل كثير من الناس صناعاتهم وانتدبوا للقراءة امام الجنائز . . . . . وطلعت الافراح والاعراس من بين الناس . . . . . وفي ذلك قال بعض الشعراء المعاصرين :-

فهذا يوصي بأولاده	وهذا يسودع اخوانه
وهذا يبيء ائسغاله	وهذا يجهز اكفاله
وهذا يصالح اعداءه	وهذا يلاطف جيرانه

وفي تتبعنا للمقرئ وهو يسرد اخبار الازمات الاقتصادية والغلوات التي حلت بمصر نلمح اشارات عابرة بين ثانيا السطور توضح ما كان يتمتع به هذا المؤرخ من حاسة تاريخية مرهفة ، وقدرته على تلمس الظواهر الاقتصادية وتحليلها والربط بينها . فهو لا يقتصر على السرد ، وإنما يعلق أحيانا بقدر ما يسمح به حجم كتابه الموجز على الأحداث ، مبدئيا ما يرتبط بها من مؤشرات اقتصادية متنوعة . ومن ذلك - على سبيل المثال لا الحصر - أن المقرئ أبدى الملاحظات الآتية :-

١ - أن قصور النيل كان يصحبه فوراً الغلاء وارتفاع الأسعار ، وكانت أسعار صرف العملة أول ما يتأثر بهذه التطورات . يقول المقرئ في حديثه عن الغلاء الذي حدث سنة ٣٨٧ هـ ما نصه « فارتفعت الأسعار ، ووقفت الأحوال في الصرف ، فان الدراهم المعاملة<sup>(٩٢)</sup> كانت تسمى يومئذ بالدراهم المازيدة والقطع ، فتعت الناس فيها . وكان صرف الدينار ستة وعشرين درهما منها . فتزايد سعر الدينار الى ان كان في سنة سبع وتسعين كل أربعة وثلاثين درهما بدينار . وارتفع السعر وزاد اضطراب الناس ، وكثر عنتهم في الصرف . . . . . »

٢ - وكما هي العادة - في كل زمان ومكان - كثيرا ما كان التجار والباعة يستغلون فرصة الغلاء لتحقيق مكاسب ضخمة . من ذلك ما يذكره المقرئ عند وصفه للغلاء الذي حدث سنة ٦٩٦ هـ على عهد السلطان العادل كتبنا « وكثرت ارباح التجار والباعة ، وازدادت فوائدهم ، فكان الواحد من الباعة يستفيد في اليوم المائة والمائتين ويصيب الاقل من السوق ربحا في اليوم ثلاثين درهما . وكذلك كانت مكاسب ارباب الصنائع ، واكتفوا بذلك ، طول الغلاء . . . » ولم يفت المقرئ أن يوضح مدى ما أصاب هؤلاء المستغلين من بلاء أنزل الله بهم - عقوبة لهم - حتى « أصيب جماعة كثيرة ممن ربح في الغلال - من الأمراء والجنود وغيرهم في مدة الغلاء ، اما في نفسه بأفة من الأفات ، او بتألاف ماله التلاف الشنيع ، حتى لم ينتفع به . . . »<sup>(٩٣)</sup> .

٣ - ان بعض هذه الغلوات بلغ درجة من القسوة والشدة جعلت الناس يأكلون التلظط والكلاب « حتى قلت الكلاب ، فبيح الكلب ليؤكل بخمسة دنانير » بل يذكر للمقرئ ان الحال تزايد أحيانا « حتى أكل الناس بعضهم

(٩٢) يقصد بالدراهم المعاملة ما كان لها نظريا حسب قوانين الدولة القائمة ، متناولا بين الناس بطيئة الرسمية . انظر كتاب « اختلاط الآلة » للمقرئ ج ١ ص ١٤ حاشية ٣ .

وكذلك ، النقديني : صبح الأمل ج ٣ ص ٤٦٥ - ٤٦٨ ، dozy : supp. dict arabe

(٩٣) المقرئ : اختلاط الآلة ، ص ٣٦ - ٣٧

بعضاً ، وتحزّر الناس ، فكانت طوائف تجلس بأعلى بيوتها ، ومعهم سلب وحبال فيها كلاليب ، فإذا مر بهم أحد القروا عليه ونشلوه في أسرع وقت وشرحو لحمه واكلوه<sup>(٩٤)</sup> ويقول في وصف غلاء سنة ٥٩٦ هـ « وعدم القوت حتى أكل الناس صغار بني آدم من الجوع فكان الاب يأكل ابنه مشوياً ومطبوخاً . والمرأة تاكل ولدها »<sup>(٩٥)</sup> ومهما يكن في هذه الاوصاف من مبالغة غير مستساغة ، فانها تشير الى مدى قسوة تلك الازمات .

٤ - لم يفت المقرئ أن يشير الى ان هذه النكبات الاقتصادية التي حلت بالناس منذ أقدم العصور ، انما تحدثت من آفات سماوية « وان الله سبحانه وتعالى جعلها عقوبة للبشر اذا خالفوا أمره ، وأتوا محارمه ، أن يصيبهم بذلك جزء بما كسبت أيديهم »<sup>(٩٦)</sup> ويبدو أن هذا التعليل كان بمثابة التفسير الأولي الذي حاول به المعاصرون - حكاما وعسكريين - تعليل المحن التي نزلت بهم . ولذلك كثيراً ما كان الناس في تلك الازمات يعلنون توبتهم ، فيكثرون من الصلاة ، كما يلجأ الحكام الى اصدار الاوامر باراقة الخمر وتحريم تعاطيها في مختلف انحاء البلاد ، اظهاراً للتوبة<sup>(٩٧)</sup> .

٥ - ولكن الشعب - مع ايمانه بالله وقضائه - لم يعف الحكام من مسئوليتهم ازاء هذه المحن . وكان يحدث في كثير من الحالات أن تتور الرعية<sup>(٩٨)</sup> . وقد حدث ايام الغلاء سنة ٧٩٨ هـ أن هدد العوام المحتسب ، فاضطر الى الانقطاع في بيته لا يخرج على مغادرته خوفاً من العوام . وقد تخوف السلاطين من غضبية العوام فلجأ بعضهم عند حدوث غلاء الى الامر بجمع الفقراء وذوي الحاجات وتوزيعهم على الاغنياء والامراء ، بحيث يلتزم كل منهم باطعام عدد معين<sup>(٩٩)</sup> . وفي الغلاء الذي حدث سنة ٧٧٦ هـ ، أمر السلطان الأشرف شعبان « بجمع الفقراء ، وفرقهم على الامراء ومياسير التجار »<sup>(١٠٠)</sup>

ومع أن المقرئ نفسه يؤمن بأن المحن والكوارث الاقتصادية هي « عادة الله تعالى في الخلق ، اذا خالفوا أمره وأتوا محارمه » ومع أنه نص صراحة في كل أزمة من الازمات الاقتصادية أو الغلوات أن السبب الرئيسي في حدوثها هو نقص النيل وعدم وفائه الا انه عند تعليله للأزمة الطاحنة التي عاصرها سنة ٨٠٦ هـ - والتي فيها ألف كتابه « اغاثة الامة » - أرجع حدوث هذه الأزمة الى « ثلاثة أشياء لا رابع لها » على حد تعبيره هي :<sup>(١٠١)</sup>

**أولاً :** السبب الأول - ويعتبره المقرئ « اصل الفساد » - هو ولاية الخطط السلطانية والمناصب العامة بالرشوة . ومن هذه المناصب ما هو جليل كالوزارة والقضاء ونيابة الاقاليم وولاية الحسبة ، الامر الذي جعل ولايتها « لكل جاهل

(٩٤) المقرئ : اغاثة الامة ص ٢٤

(٩٥) المقرئ : اغاثة الامة ص ٢٩

(٩٦) المصدر السابق ، ص ٤١

(٩٧) المقرئ : كتاب السلوك ، حوادث ٧٠٩ هـ ، ٧٨١ هـ ، ٨٣١ هـ .

(٩٨) المقرئ : اغاثة الامة ، ص ١١

(٩٩) المقرئ : كتاب السلوك ج ٣ ص ٢٤٢ - ٢٤٣

(١٠٠) المصدر السابق ، حوادث سنة ٧٧٦ هـ ، وكذلك كتاب اغاثة الامة ص ٤٠

(١٠١) المقرئ : اغاثة الامة ، ص ٤٣



ومفسد وظالم وباغ ، وكان يكنى أن يتوصل أحد هؤلاء الى بعض رجال حاشية السلطان ويعدده مجال للسلطان على ما يريد من الاعمال ، حتى يتسلم ما كان يؤمله من منصب جليل على وجه السرعة ، وغالبا ما يتولى منصبه الجديد وليس معه من المال ما يؤديه للسلطان وحاشيته وفاء لوعده ، فيضطر الى الاستدانة ، ويمد يده الى اموال الرعية ، ويتصرف في افقائها بالالتزامات ليحصل على ما يريد . فاذا كان صاحب الوظيفة متوليا عملا من أعمال الريف ، فانه يثقل كواهل الفلاحين بما يفرضه عليهم من ضيافات سنية وتقادم جليلة من الخيول والرقيق وغير ذلك . ثم يمضي المقرئ في شرحه وتعليقه ، فيقول انه لما دعى أهل الريف بكثرة المغارم وتنوع المظالم ، اختلت أحوالهم وهجروا الأرض « فقلت مجابي البلاد ومحصلها لقلة ما يزرع بها ، ويخلو أهلها ورحيلهم عنها ، لشدة الرطوة من الرولة عليهم »<sup>(١٠٧)</sup>

ثانيا : أما الثاني الذي ذكره المقرئ لهذه الازمة التي عاصرها سنة ٨٠٦ هـ فيقول انه غلاء الاطيان . ذلك أن خدم الامراء ووكلائهم « أحبا مزيد القرية منهم ، ولا وسيلة أقرب اليهم من المال » فاستحضروا مستجري اراضي الامراء من الفلاحين وضاعفوا عليهم قيمة الايجارات عاما بعد عام ، حتى أن ايجار القدان . بعد حوادث هذه الازمة - صار عشرة أمثال ما كان عليه قبلها . وهكذا تضاعفت تكاليف الزراعة في الوقت الذي اشتدت - وطأة الامراء وأصحاب الاقطاعات على « أهل الفلح وكثرت المغارم في عمل الجسور وغيرها فخرّب بما ذكرنا معظم القرى ، وتعطلت أكثر الاراضي من الزراعة . فقلت الغلال وغيرها مما تخرجه الأرض ، لموت أكثر الفلاحين وتشردهم في البلاد من شدة السنين وهلاك الدواب »

ثالثا : أما السبب الثالث والآخر الذي علل به المقرئ حدوث تلك الازمة ، فهو رواج الفلوس . ويعني بالفلوس هنا العملة النحاسية الصغيرة التي كثر استخدامها في ذلك العصر ، حتى طغت على غيرها من الدنانير الذهبية والدرهم الفضية . يقول المقرئ ان « سنة الله في خلقه وعادته المستمرة منذ كانت الخليقة الى ان حدثت هذه الحوادث ، هي أن يكون الذهب والفضة فقط قاعدة التعامل بين الناس . وبعد دراسة مفصلة يأتي بها المقرئ عن أصل النقود وتطورها قبل الاسلام . وفي ظل الاسلام<sup>(١٠٣)</sup> يختص مصر بفصل خاص ، يستهله بالقول بأن الذهب<sup>(١٠٤)</sup> ظل قاعدة التعامل الاقتصادي في مصر « وسائر دولا جاهلية واسلاما » واما الفضة فكانت تستخدم في مصر حليا وأواني ، وقد يضرب منها الشيء القليل للمعاملات اليومية المحدودة التي تحتاج اليها البيوت وقد تزايد امر الدرهم الفضية منذ أيام الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله ، ومنذ ذلك الوقت ضربت الفضة نقودا في مصر ، وازداد تداول الدرهم الفضية . وهكذا - حتى كان عهد السلطان الكامل محمد الايوبي ، ف ضرب سنة ٦٢٢ هـ دراهم مستديرة اطلق عليها اسم الكاملة - ثلثاها فضة وثلث نحاس . ولم تلبث هذه الدرهم ان حلت محل الذهب في التعامل ، وانتشر استعمالها في مصر والشام بقية العصر الايوبي ، ثم في عصر المماليك « وصارت المبيعات الجليلة تباع وتقوم بها واليها تنسب عامة اثمان المبيعات وقيم الاعمال ، وبها يؤخذ خراج الارضين وأجرة المساكن وغير ذلك .. »<sup>(١٠٥)</sup>

(١٠٣) المصدر السابق ، ص ٤٣ - ٤٤

(١٠٣) المصدر السابق ، ص ٧٤ - ٦٢

(١٠٤) المصدر السابق ، ص ٦٢

(١٠٥) المصدر السابق ، ص ٦٥

وأما الفلوس النحاسية فيذكر المقرئ أنها خصصت للمحقرات من الأشياء ، أي للتعامل في الأشياء النافعة التي لا تسوفي قيمتها إلى أن تباع بدهم او بجزء منه . وقد كثرت ضرب الفلوس منذ أيام الكامل الأيوبي ، بحيث كان الدرهم الكامل يصرف بشمانية وأربعين فلسا . ومع تنافس الازمات ، أكثر سلاطين المماليك من ضرب الفلوس ، فكثر ونخف وزنها حتى صار التعامل بها منذ سنة ٦٩٥ هـ يتم بالميزان ، بحيث يكون الرطل منها بدهمين و كان هذا أول ما عرف بمصر من وزن الفلوس والمعاملة بها وزنا لاعداد (١١٦) .

وهكذا حتى كانت أيام السلطان الظاهر برفوق . فكثر من ضرب الفلوس النحاسية وبعث إلى بلاد الفرنجة لطلب النحاس الأحمر لضربها ، واتخذ الاسكندرية دار ضرب لعمل الفلوس ، فكثر الفلوس بأيدي الناس كثرة بالغة ، وراجت رواجاً صارت من أجله هي النقد الغالب في البلد .

هذه هي الأسباب الثلاثة التي علل بها المقرئ للأزمة الاقتصادية التي تعرضت لها مصر سنة ٨٠٦ هـ ، والتي دون كتابه « اغارة الأمة » تحت وطأها . وتحليل الأسباب التي ذكرها المقرئ لتلك الأزمة ، نجد أنه جمع بين أمرين : أولها الأزمة الاقتصادية التي تعرضت لها البلاد سنة ٨٠٦ هـ ، وهذه حدثت مثل غيرها من « الغلوات » السابقة بسبب قصور النيل . يقول المقرئ ما نصه « قصر مد النيل في سنة ست وثمانمائة ، فشنع الأمر ، وارتفعت الأسعار ، حتى تجاوز ارباب القمح اربعمائة درهم ، وسرى ذلك في كل ما يباع من مأكول ومشروب وملبوس . وتزايدت أجرة الاجراء - كالبناء والفعلة وأرباب الصنائع والمهن - تزايداً لم يسمع بمثله فيما يقرب من هذا الزمن ، أما الأمر الثاني فهو اختلال أوضاع الدولة ادارياً واقتصادياً ، الأمر الذي جعل الأزمة لا تنفج رغم زوال سببها الطبيعي المرتبط بنهر النيل .

ففي سنة ٧٠٧ هـ « جاء الغوث من عند الله تعالى ، فكثر زيادة النيل ، وعزم النفع به الأقليم » ومع ذلك فان الاوضاع ظلت سيئة على ما هي عليه ، مما جعل المقرئ يقول « ونحن الآن في أوائل سنة ثمان وثمانمائة ، والأمر فيها من اختلاف النقود ، وقلة ما يحتاج اليه ، وسوء التدبير ، وفساد الرأي في غاية لا مرمى وراءها من عظيم البلا وشنيع الأمر .. » (١١٧) .

والواقع انه اذا كان قصور نهر النيل هو السبب الرئيسي في الغلوات ، والازمات التي تعرضت لها مصر في عصر سلاطين المماليك . وقبل عصر سلاطين المماليك - إلا أننا في ضوء كتابات المقرئ نلمس أسباباً أخرى أخذت تبدو في أفق القرن التاسع الهجري الخامس عشر للميلاد - أي على عصر المقرئ نفسه - أدت إلى ارتباك اقتصاد البلاد وازدياد الغلاء . وهذه هي الأسباب التي ذكرها المقرئ ، واعتبرها أس الفساد وأصل البلا .

(١١٦) المصدر السابق ، ص ٧٠

(١١٧) للمقرئ : اغارة الأمة ، ص ٤٢ - ٤٣

وهنا ينبغي أن نشير إلى الفارق الواضح بين السبب الطبيعي المرتبط بقصور النيل والذي كثيرا ما ترتبت عليه أزمات طاحنة - وبين الأسباب الأخرى التي فسرها المقرئ في سوء أوضاع البلاد والعباد سنة ٨٠٨ هـ . فالجانب الأول المرتبط بقصور النيل - مع قسوته وشدة وخطورة آثاره - يشكل سببا طارئا مؤقتا لا يلبث أن يزول بعد عام أو أكثر بارتفاع منسوب المياه في نهر النيل ، وعندئذ يعود الرخاء ، وتعود الحياة الاقتصادية - وغير الاقتصادية - إلى طبيعتها بالتدريج .

أما الأسباب الثلاثة التي ذكرها المقرئ ، وفسر في ضوءها سوء الأوضاع سنة ٨٠٨ هـ فترجع في جوهرها إلى الفساد الذي أخذ يذب في جسم الدولة بعد أن انحل نظامها وفقدت اتزانها ودبت الشيخوخة المبكرة في جسمها .

ولم تنب هذه الفوارق بين الجانبين عن المقرئ ، فيقول في مقدمة كتابه « آغاثة الامة » ما نصه « وبعد ، فانه لما طال أمد هذا البلاد المين - يعني أزمة ٨٠٦ - ٨٠٨ هـ وحل فيه بالخلق أنواع العذاب المين ، ظن كثير من الناس ان هذه المحن لم يكن فيها مضي مثلها ، ولا مر على زمن شبهها . . . ومن تأمل هذا الحادث من بدايته إلى نهايته ، وعرفه من أوله إلى غايته ، علم أن ما بالناس سوى تدبير الزعماء والحكام ، وغفلتهم عن النظر في مصالح العباد ، لا أنه كما مر من الغلوات وانقضى من السنوات المهلكات ، الا أن ذلك يحتاج إلى إيضاح وبيان ويقتضي إلى شرح وتبيان » (١٠٨) .

وهكذا ، فان المقرئ عندما يتخذ لكتابه عنوان « آغاثة الامة بكشف الغمة » فلما يقصد بالغمة أزمة ٨٠٦ - ٨٠٨ هـ . وعندما يحرص على سرد أخبار الغلوات ، والأزمات الاقتصادية التي تعرضت لها مصر منذ فجر التاريخ ، فانه يفعل ذلك لأثبات حقيقة كبرى سيطرت على فكره وسمي لأثباتها ، هي أن أزمة ٨٠٦ - ٨٠٨ هـ تختلف في أسبابها الجوهرية عن الأزمات السابقة . فإذا كانت الأزمات الاقتصادية التي تعرضت لها مصر منذ أقدم العصور ترتبط أساسا بقصور النيل وعدم وفائه وانخفاض مستوى الفيضان فان أزمة ٨٠٦ - ٨٠٨ هـ . في نظره ليست الا نتيجة لسبب رئيسي هو « سوء تدبير الزعماء والحكام وغفلتهم عن النظر في مصالح البلاد والعباد » .

وقد سبق أن أشرنا إلى أن المقرئ عاصر فترة انتقال خطيرة في دولة سلاطين المماليك ، انتقال من المجد والسؤدد والنظام والانضباط والانتعاش الاقتصادي ، إلى وضع آخر - كثيرا ما يصاحب الدول في خريف عمرها - ويتصف بالفساد والخلل الإداري والاقتصادي ، والتفكك الاجتماعي والخلقي . وقد انتقد المقرئ في كتاباته ما صار إليه نظام المماليك في أيامه من انحلال ، بعد أن انعدمت بينهم روح النظام والطاعة التي ميزت أسلافهم ، وحلت محلها روح التمرد والعصيان « فاستطار شرهم ، وتعدوا في العتوطوهم ، حتى خالفهم أعيان أهل الدولة . . . » (١٠٩) وبعد أن كان المماليك في أوائل دولتهم مضرب المثل في الانضباط وحسن النظام والطاعة ، صاروا على أيام المقرئ مصدر الفوضى وسوء النظام ، وصاروا ينتشرون في الطرقات والأسواق ليهب الحوانيت ، وخطف المعائم ، وانتزاع الخيول

(١٠٨) المصدر السابق ، ص ٣ - ٤

(١٠٩) المقرئ : كتاب السلوك - الجزء الرابع - حوادث سنة ٨٣٣ هـ

من اصحابها . بل كانوا أحيانا يهجمون على النساء في بيوتهم وفي الحمامات فيخطفونهن<sup>(١١٠)</sup> . وقد بلغ حنق المقرئزي على ما صار اليه أمر المماليك في أيامه من فوضى وسوء خلق ونظام ، أنه لم يتمالك نفسه فوصفهم بأنهم « ليس فيهم إلا من هو أذن من قرد ، وأنص من فاره ، وأنسد من ذئب »<sup>(١١١)</sup> .

ومن هذا المنطلق علل المقرئزي سوء الأحوال الاقتصادية بمصر سنة ٨٠٨ هـ . فأرجع أصل الفساد الى عدم كفاية القائمين على شئون الدولة ، والمتولين لشئ وظائفها الكبرى ، لأن غالبيتهم تولى منصبه عن طريق الرشوة ، ولذا لم تتوافر فيهم الأهلية والكفاية . بل إن وظائف الدولة صارت « مثل الأموال المملوكة يبيعها صاحبها اذا شاء ويرثها بعده صغار ولده ، وسرى ذلك حتى في التداريس الجليلة وفي نظر الجوامع والمدارس ومشيخة التصوف . فيأنفس جدي ان دهرهك هازل »<sup>(١١٢)</sup> .

ثم إن المقرئزي انتهز فرصة تدوين حولياته الكبرى المعروفة باسم « كتاب السلوك » للابتيان بأمثلة واقعية تثبت مآرده من آراء في كتابه « اغاثة الأمة » عن عدم كفاية القائمين على شئون الدولة . من ذلك أنه أشار في حوادث سنة ٨٠٨ هـ الى أن الوظائف العامة صار يلبها غير أهلها عن طريق الرشوة ودفع الأموال ، حتى أن أحد باعة السكر استقر في وظيفة حاسبة مصر « فكان هذا من أشنع القبائح وأقبح الشناعات !! »<sup>(١١٣)</sup> ويؤكد المقرئزي هذا المعنى مرة أخرى في سرده لحوادث سنة ٨٣٥ هـ عندما يقول « غير أن الكفاءة غير معتبرة في زماننا ، بحيث أن بعض السوقة ممن نعرفه ولى كتابة السر بحماه على مال قام به . . »<sup>(١١٤)</sup> ويلقي المقرئزي بمسئولية هذا كله على القائمين على أمر الدولة ، لأنهم لا يلتزمون بقرار « فتزايدت المضرة لكثرة التناقص وعدم الثبات على الأمر ، واستخفاف العامة براعيها وقلة الاهتبال بما يرسم »<sup>(١١٥)</sup>

وينتقل المقرئزي - كما رأينا - الى سوء أوضاع الريف في مصر ، لكثرة المظالم المتنوعة التي حلت بالفلاحين في ظل النظام الانقطاعي ، وهو النظام الذي طبقه المماليك في مصر بروح استغلالية منطرفة . ولم يقتصر الأمر على رفع قيمة إيجارات الأراضي الزراعية ، بل تعدى ذلك الى تسخير الفلاحين في كثير من الاعمال دون أجر ، وجمع أموال اضافية منهم « غير العادة اضغاف »<sup>(١١٦)</sup> وعند وصول المشد - المكلف بجمع الأموال الى القرية ، توزع نفقات اقامته على الفلاحين من حيث الأكل والشرب ، وما تحتاج اليه دوابه من عليق ، ويلزم الفلاح بكل ذلك قهرا ، مهما يبلغ فقره . وربما هرب الفلاح لضيق ذات يده ، فتلزم زوجته واولاده بالمطلوب ، وتضطر الى بيع ما لديها لشراء ما يلزم المشد من

(١١٠) المقرئزي : كتاب السلوك ، ج ٣ ص ١٦٤ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج ١٠ ص ٤١ ، سعيد عاشور : القصرى ص ٨٨ ، ٨٩

(١١١) المقرئزي : الحواشي والاحتيار ، ج ٣ ص ٣٤٨ (الطبعة الألمانية)

(١١٢) المقرئزي : كتاب السلوك - الجزء الرابع

(١١٣) المقرئزي : كتاب السلوك - الجزء الرابع - حوادث سنة ٨٠٨ هـ

(١١٤) المصدر السابق - نفس الجزء - حوادث سنة ٨٣٥ هـ

(١١٥) المصدر السابق - نفس الجزء - حوادث سنة ٨٣٤ هـ

(١١٦) ابن اياس : بدائع الزهور ، ج ٢ ص ٣٠٢

دجاج ولحم<sup>(١١٧)</sup> وهكذا عاش الفلاحون في عصر سلاطين المماليك « في حال من المغامر معروفة » على حد قول المقرئ<sup>(١١٨)</sup> . وقد أدرك المقرئ ريف مصر وأهله على حال من الفقر والحرمان لا يعرفون النقود ، فيشترون الكثير من حوائجهم ببعض الدجاج وينخال الدقيق ، لأن « الغلال معظمها لأهل الدولة ، أولى الجاه وأرباب السيوف الذين تزايدت في اللذات رغبتهم ، فحرب معظم القرى لموت أكثر الفلاحين وتشردهم في البلاد<sup>(١١٩)</sup> » وبلغ الأمر من سوء معاملة الفلاحين في ذلك العصر أنه كان لا يسمح لأحدهم بأن يلبس مئزرا أسود أو يركب فرسا ، أو يتقلد سيفا ، أو حتى يحمل عصا مجلبة بالحديد<sup>(١٢٠)</sup> . وقد ترتب على سوء أوضاع الريف وكثرة المظالم التي حلت بأهله ، أن كثرت الهجرة من الريف وبخاصة إلى القاهرة ، حتى نودي سنة ٨٢٧ هـ . « بخروج أهل الريف من القاهرة ومصر إلى بلادهم فلم يعمل بذلك »<sup>(١٢١)</sup> .

وأخيرا يأتي المقرئ بالسبب الثالث الذي علل به للخلل الاقتصادي وارتفاع الأسعار سنة ٨٠٨ هـ ، وهو كثرة الفلوس النحاسية ، والاعتماد عليها كنفق أساسي ، واستعمالها في المعاملات المالية الكبرى ، دون الذهب والفضة أو بعبارة أخرى دون الدينار والدرهم . ومهما يقال في الفلوس فهي دون شك عملة رديئة لأنها معدن رخيص ، إذا قورنت بالنقود الذهبية والفضية ، ولذا نستطيع أن نقول أن المقرئ سبق عالم الاقتصاد الانجليزي جريشام بنحو قرن من الزمان ، عندما أعلن قانونه الشهير بأنه إذا وجدت في السوق عملتان أحدهما رديئة والأخرى جيدة ، فإن - العملة الرديئة تطرد العملة الجيدة من السوق .

ثم أن المقرئ يتهم الحكام بآثار ظاهرة عدم الاستقرار الاقتصادي في السوق لأنهم أكثروا من زيف النقود المتداولة بين الناس ، كما أنهم لم يكتفوا بالآثار من ضرب الفلوس النحاسية فحسب ، وإنما اختلفوا في تقدير وزنها ، فحينما يكون الرطل منها بستة دراهم ، وأحيانا بثنى عشر درهما ، وربما صار بدرهمين ونصف . وفي جميع الحالات أرغم التجار والأهالي على التعامل بها وفق القيمة التي تحددها الحكومة ، مما اضطر كثيرين من التجار إلى حبس بضائعهم تحنبا لبيعها ، ويصحب هذه الحالة ارتفاع الأسعار وإرتباك السوق وقلة الخبز<sup>(١٢٢)</sup> . وبحاسة اقتصادية قوية ، يربط المقرئ - في كتاب السلوك - بين ارتفاع سعر الذهب من ناحية وارتفاع المان البضائع واجور العمال وإيجار الأراضي من ناحية أخرى<sup>(١٢٣)</sup>

وأخيرا فإن المقرئ لم يمحصر أفقه الاقتصادي داخل مصر أو داخل دولة سلاطين المماليك ، وإنما يحرص على أن يربط بين أسعار النقود في مصر وأسعار العملات العالمية الأجنبية . من ذلك أنه يضمن بها الدينار الأفرنجي والدينار التركي

(١١٧) سعيد عاشور : المجتمع المصري سلاطين المماليك ، ص ٥٠

(١١٨) المقرئ : كتاب السلوك ج ٤ ص ٤٩٩

(١١٩) المقرئ : إغالة الألة ص ٣٦ - ٤٦

(١٢٠) المقرئ : كتاب السلوك ، ج ١ ص ٩٤٦

(١٢١) المقرئ : كتاب السلوك ، ج ٤ ، حوادث سنة ٨٢٧ هـ .

(١٢٢) المقرئ : إغالة الألة : ص ٤٧ وما بعدها ، كتاب السلوك ج ٢ ص ١٧ ، سعيد عاشور : المجتمع المصري ص ٨٨

(١٢٣) المقرئ : كتاب السلوك ، ج ٤ ، حوادث سنة ٨٠٩ هـ

والدينار المغربي ، كما أنه يقارن بين الدينارين السابق سكها في مصر كالدينار الناصري والدينار السلمي ، ويتعرض خلال ذلك الى ما دخل على كل عملة من غش وزيف<sup>(١٢٤)</sup> بل انه يحرض في حوادث سنة ٨١٨ هـ ، على بيان أصناف الذهب وسعر كل صنف<sup>(١٢٥)</sup> .

هذا عن بعض ملامح الجانب الاقتصادي في كتابات المقرئ . أما الجانب الاجتماعي في كتاباته فلا يقل شأنًا وأهمية . وهنا نلاحظ أنه إذا كان باستطاعة المقرئ ان يفرد كتابا من كتبه - مثل كتاب « اغاثة الامة » لدراسة الاوضاع والمشاكل الاقتصادية التي عاصرها ، فان الامر يختلف بالنسبة للجانب الاجتماعي . ذلك أنه كان من الصعب على مؤرخ او عالم في تلك العصور أن يتعرض في بحث مستقل لتصميم أوضاع المجتمع ، وهي أوضاع حساسة في ظل التقاليد التي سادت المجتمع عندئذ ، فضلا عن نظرة الناس الى الحياة ومشاكلها من خلال الدين . ولما كانت الاوضاع الاجتماعية مرتبطة في تلك العصور باحكام الدين وآدابه من ناحية ، وبالظروف الاقتصادية من ناحية أخرى ، فاننا نرى بعض العلماء والفقهاء انتقدوا المفسر من انحلال اجتماعي من خلال كتاباتهم الفقهية - مثلما فعل ابن الحاج<sup>(١٢٦)</sup> ، في حين انتقد البعض الآخر سوء أوضاع المجتمع من خلال سرده التاريخي او معالجته للجوانب الاقتصادية ، مثلما فعل المقرئ .

على أنه لا يقلل من قيمة الملاحظات الاجتماعية التي ابداهها المقرئ انها جاءت متناثرة بين ثنايا كتاباته الأخرى - سياسة كانت او اقتصادية أو عمرانية - لان العبرة بعمق النظرة التي نظر بها المقرئ الى المجتمع ومشاكله ، وروح الأمانة والصدق التي صور بها بعض الاوضاع وانتقد بها البعض الآخر . حقيقة ان التقاط مثل هذه الملاحظات المتناثرة من مؤلفات المقرئ عملية ليست بالسهلة ، ولكننا نستطيع بشيء من الجهد والمثابرة أن ننسج من تلك الخيوط صورة واضحة لبعض ملامح الحياة الاجتماعية على عصر المقرئ .

وقد وضع المقرئ تقسيما للمجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك فقسم أهل مصر - في الجملة - الى سبعة أقسام : أهل الدولة - ويعني بهم المماليك - وأهل اليسار من التجار وأولى النعمة من ذوي الرفاهية ، والباعة ومتوسطو الحال من التجار ويلحق بهم أصحاب المعاش وهم السوق وأهل الفلج وهم « الزراعات والحرف وسكان القرى والريف » ، والفقراء وهم جل الفقهاء وطلاب العلم والكثير من أجناد الحلقة وأرباب الصنائع والأجراء أصحاب المهن ، وأخيرا ذوو الحاجة والسكنة وهم « السؤل الذين يتكففون الناس ويعيشون منهم »<sup>(١٢٧)</sup>

ومهما يكن في هذا التقسيم من ثغرات ، فمن الواضح أن المقرئ أتى به في سياق دراسة اقتصادية ، ولذا فانه حرص على أن يوضح الحالة الاقتصادية لكل شريحة من شرائح المجتمع التي ذكرها . ولا يخفى عنا أن الوضع

(١٢٤) المقرئ : كتاب السلوك ، ج ٤ ، حوادث سنة ٨١٤ هـ

(١٢٥) المقرئ السلوك ، ج ٤ ص ٨١٨

(١٢٦) يؤكد في هذا الصدد على أهمية كتاب الدخل . او مدخل الشرع للشراف على المصالح - لأبي عبد الله محمد بن محمد المبردي ، الشهير بابن الحاج ، المتوفى سنة ٨٣٧ هـ . وقد تعرض فيه المؤلف الكثير من الأوضاع الاجتماعية البسيطة التي تفتت في تلك العصور والتي تعارضت مع أحكام الشرع الشريف ( أربعة أجزاء - القاهرة ١٩٢٩ )

(١٢٧) المقرئ : اغاثة الامة ، ص ٧٢ - ٧٣

الاجتماعي يتأثر الى حد كبير بالوضع الاقتصادي وخاصة في تلك العصور التي عاصرها القرظي وكتب عنها . هذا الى انه في اشاراته المتناثرة ، يأتي بملاحظات اجتماعية طريفة وجديدة ، قد لا نجد لها شبيها في بقية المصادر . فهو في كلامه عن طوائف الممالك يشير الى أصولهم ، ويوضح كيفية جلبهم والقواعد المتبعة في نسبتهم ، ويلقي الأصواء على أسلوب تربيتهم ونشأتهم ، ويفسر الروابط بين الملوك وأساتذته - أي سيده الذي امتلكه وأشرف على تربيته ولم يرض عليه يعطف أو مال - والعلاقة بين الممالك بعضهم وبعض ، ومدى ما كانت تتمتع به طبقة الممالك من ثراء ومظاهر هذا الثراء ومصادره . وهكذا حتى ندرك السنوات الاخيرة من حوليات القرظي فنلمس كثيرا من الاشارات الى تطرق الفساد الى نظام الممالك ، وانحلال أمرهم ، وانعكاس ذلك على أوضاع الدولة<sup>(١٢٨)</sup>

ثم ان كتابات القرظي تزخر بإشارات متناثرة توضح علاقة طبقات المجتمع بعضها ببعض من ناحية ، وعلاقتها بالحكام من ناحية اخرى . من ذلك أنه يشير الى ان سلاطين الممالك في مصر حرصوا على احترام العلماء والفقهاء ولان بهم عرفوا دين الإسلام وبكرتهم يعيشون<sup>(١٢٩)</sup> ويقول ان بعض السلاطين كان اذا دخل عليه عالم أو أحد رجال الدين انتصب له قائما<sup>(١٣٠)</sup> وربما حرص بعض السلاطين على أن يشيع عالما توفي فيمشي على قدميه أمام نعشه . وقد يحاول السلطان حل النعش على كتفه ، فتحمله أكابر الأمراء عنه<sup>(١٣١)</sup>

أما التجار ، فصاروا موضع حسد السلاطين وطعمهم ، لما كانوا فيه من ثروة طائلة في ذلك العصر ، فتماذى بعض السلاطين في فرض الرسوم عليهم ، بل ربما في مصادرتهم ، حتى ذكر القرظي أن بعض التجار «دعوا على أنفسهم أن يفرقهم الله حتى يستريحوا عما هم فيه من الغرامات والخسارات وتحكم الظلمة فيهم»<sup>(١٣٢)</sup> وفي بعض الحالات كان السلطان يمتكر صنفا أو يجتزئه لبيعه للتجار بأثمان باهظة يفرضها عليهم ، مما يسبب لهم خسارة بالغة ، حتى واشتد الأمر على التجار لرمي البضائع عليهم بزيادة الأثمان والقيم ، وكثرت المصادرات في الولاة وأرباب الأموال<sup>(١٣٣)</sup> . وشتان بين هذا الوضع الذي آل اليه أمر التجار في اواخر عصر سلاطين الممالك ، وبين ما كانوا فيه من تكريم وتشجيع ورعاية في اوائل ذلك العصر .

ويستشف من كتابات القرظي أن رقيقي الحال - من الفقراء والمعلمين - كانوا دائما أبدا موضع عطف ورعاية بقية قطاعات المجتمع ، فحرص كثير من السلاطين والاثرياء والميسورين على اقامة المؤسسات الخيرية ، ووقف الأوقاف عليها ، لرعاية الفقراء اجتماعيا وصحيا من ذلك أن السلطان الظاهر بيبرس خصص وقف الطرحاء لتفسيق فقراء

(١٢٨) القرظي : كتاب السلوك لمرعة دول الملوك ، ج ٢ ص ٥٢٤ - ٥٢٥ ، ٧١٦ وكتاب المواظب والاحبار ( الطبعة الأولى ) ج ٣ ص ١١٢ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ٢٢٧ - ٢٤٨ ،

٣٥٠ - ٣٥١ ، ج ٤ ص ٧٨ ، ٢١٨ - ٢١٩ .

(١٢٩) القرظي : كتاب السلوك ، ج ٣ ص ٣٨٣

(١٣٠) المصدر السابق - نفس الجزء ، ٥٢٣

(١٣١) المصدر السابق نفس الجزء ، ص ٤٤٤ - وانظر ايضا : سعيد عاشور : المجتمع المصري في عصر سلاطين الممالك ، ص ٢٨ - ٣٤

(١٣٢) القرظي : السلوك ، ج ٤ ، ص ٤٤٤

(١٣٣) القرظي : امانة الآفة ، ص ٣٨

المسلمين وتكفينهم ودفنهم<sup>(١٣٤)</sup>. وفي أوقات الشدائد والمحن والغلوات كان الفقراء يوزعون على الأغنياء ، بحيث يلتزم كل غني باطعام عدد معين منهم<sup>(١٣٥)</sup>

أما أهل اللمة - وبخاصة أقباط مصر - فيفهم من كتابات المقريري أنهم عاشوا غالبا في طمأنينة ، حتى أنه ذكر أديرتهم بالوجه القبلي فبلغ عددها ثمانية وخمسين ديورا ، يحمل النصارى الى رهبانها الندور والقرايين<sup>(١٣٦)</sup> . وكان للأقباط في مصر بطرك يتخلع عليه السلطان خلعة البطركية<sup>(١٣٧)</sup> ، كما أنهم تمسكوا بلمتهم القبطية في محادثاتهم فيما بينهم وبين بعض<sup>(١٣٨)</sup> ، ولم يكن اليهود في مصر أقل حظا في التمتع بحقوقهم ، فاحتفظوا بعوائدهم ونظمهم الموروثة ، كما احتفظوا بمعابدهم التي عددها المقريري<sup>(١٣٩)</sup> . ومع ذلك فإن المقريري لم يتناس أن اليهود والنصارى جميعا تعرضوا أحيانا في ذلك العصر في فترات محددة - لبعض ألوان الاضطهاد ، لأسباب طارئة مؤقتة ، ذكرها<sup>(١٤٠)</sup>

أما الفلاحون ، فيذكر المقريري أنهم عاشوا « في حال من المغارم معروفة »<sup>(١٤١)</sup> فوقعوا بين شقى الرجى بين استغلال الحكام ويطش العربان . وقد سبق أن أشرنا الى أوضاع الريف والفلاحين ، أما العربان الذين انتشروا في أقاليم متعددة ، فقد رفضوا في أول الامر الخضوع للمماليك ، ووصفوا سلطاتهم - على حد قول المقريري - بأنه « ملوك قد مسه الرق »<sup>(١٤٢)</sup> بل لقد تمادى العربان وقالوا « نحن اصحاب البلاد ، ونحن أحق بالملك من المماليك وهم خوارج خرجوا على البلاد »<sup>(١٤٣)</sup> ولم يقتصر أذى العربان في ذلك العصر على الريف وأهله ، بل إن المدن الكبرى - مثل اسيوط والاسكندرية - لم تسلم من اغاراتهم وعيشتهم - وعدوانهم على أهلها<sup>(١٤٤)</sup> .

ويتعرض المقريري للحياة الاجتماعية في القاهرة والمدن الكبرى ، فيصفها بالعظمة والاتساع وكثرة السكان وتنوعهم ، وكثرة المنازل وضيق دروبها وطرقاتها ، واكتظاظها بالمارة والسوق والدواب<sup>(١٤٥)</sup> ، وأظهر الحكام في ذلك ابوابها ، ويرتب جماعة من الطواف لكشف الازقة وتفقد الطرقات وتأديب المخالفين ، ومن سار بالليل لغير سبب مقبول العصر حرصا شديدا على اقرار الامن في المدن ليلا ونهارا ففي الليل كانت شوارعها وطرقاتها تضاء بالمصابيح وتغلق

(١٣٤) المقريري : كتاب السلوك ، ج ١ ص ٦٣٨

(١٣٥) المقريري : كتاب السلوك ، ج ٣ ص ٢٤٢ - ٢٤٣

(١٣٦) المقريري : اخبار قبط مصر ، ص ٣٦ - ٥٤ .

(١٣٧) المقريري : كتاب السلوك ، ج ١ ص ٣٨٦

(١٣٨) المقريري : اخبار قبط مصر ، ص ٤٣

(١٣٩) المقريري : المواقف والاعتبار ، ج ٢ ص ٤٦٤ وما بعدها (بولاق)

(١٤٠) المقريري : كتاب السلوك ، ج ١ ص ٩٠٩

ذكر دغول قبط مصر ، ص ١٥٨ .

(١٤١) المقريري : كتاب السلوك ، ج ٤ ص ٤٦٩

(١٤٢) المقريري : البيان والاعراب ، ص ٩

(١٤٣) المقريري : كتاب السلوك ، ج ١ ص ٣٨٦

(١٤٤) المقريري : كتاب السلوك ، ج ١ ص ٩٢٠

(١٤٥) المقريري : المواقف والاعتبار ، ج ٢ ص ٣٧٣ وما بعدها (بولاق)



قبض عليه<sup>(١٤٦)</sup> ومن ناحية أخرى ، شدد سلاطين المماليك العناية بنظافة القاهرة وكثس شوارعها ورشها بالماء ، وأمر أرباب الخوانيت بأن تكون عند أبواب حوائطهم أزيار مملوءة بالماء لتسهيل إطفاء ما قد يقع من حريق<sup>(١٤٧)</sup> .

والمقرئ عندما يعالج ما حفلت به القاهرة من مؤسسات تجارية وغير تجارية ، لا يغفل عن الإشارة الى ما كان لبعض هذه المؤسسات من نشاط اجتماعي ، وما كان يعج به بعضها من تيارات اجتماعية قوية ، ذلك أن المدن الكبرى - وبخاصة القاهرة - زخرت بمؤسسات ذات صفة دينية كالساجد والخانقاهات ، أو ذات صفة تعليمية ثقافية كالمدارس ، أو ذات صفة صحية كالبيمارستانات ، أو ذات صفة تجارية كالحانات والوكالات والفنادق . ولكن هذه المؤسسات على تباين صفاتها لم تخل من نشاط اجتماعي ، وهو ما حرص المقرئ على إيضاحه وبيان ما كان يجري داخلها من تيارات اجتماعية تنعكس صداها على المجتمع الخارجي .

هذا الى ان المقرئ في تصويره للمجتمع المصري ، حرص على أن يؤكد روح المرح والفكاهة التي انتصف بها أهل مصر ، فوصفهم تارة « بالبشاشة التي أربوا فيها على من تقدم وتآخر . وخصوا بالافراط فيها دون جميع الأمم حتى صار أمرهم في ذلك مشهورا والمثل بهم مضروبا »<sup>(١٤٨)</sup> وتارة أخرى ربط المقرئ بين مرح أهل مصر من ناحية وبين شعور اللامبالاة الغالب على بعضهم من ناحية أخرى ، وردد في ذلك عبارة أخذها عن ابن خلدون « قال لي شيخنا الأستاذ أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون رحمه الله تعالى ، أهل مصر كأنما فرغوا من الحساب »<sup>(١٤٩)</sup> .

ويضرب المقرئ أمثلة على ذلك بحب أهل مصر للتسلية والخروج الى المتنزهات كالحدائق والبرك وغيرها<sup>(١٥٠)</sup> هذا فضلا عن ركوب نهر النيل صيفا في وقت الفيضان واستئجار القوارب والسفن ، واستصحاب المغاني وجوقات العوالم معهم<sup>(١٥١)</sup> بل يذكر المقرئ أن صاحب اليمن عندما أتى لزيارة مصر ، حرص على أن يصطحب معه عند عودته الى بلاده سنة ٧٥٥ هـ « كثيرا من الصناع والمساخر وأرباب الملاهي »<sup>(١٥٢)</sup> وكثيرا ما كان الناس يتلهون ببعض الألعاب ، مثل تطير الحمام والمناطحة بالكباش والمناقرة بالديوك وغيرها<sup>(١٥٣)</sup> . ولم يسلم الحكام من نكات المصريين اللاذعة ، فاطلق العوام على أمراء المماليك القبايا وتسميات تهكمية قارصة . ومن هؤلاء الأمير عز الدين أيخان وقد أطلقوا عليه لقب « سم الموت » والأمير سيف الدين ملكنصر الناصري وقد أطلقوا عليه لقب « الدم الأسود » وناصر الدين - متولي حسيبة مصر - وقد أطلقوا عليه « فار السقوف » . . . . وغير ذلك<sup>(١٥٤)</sup>

(١٤٦) المقرئ : كتاب السلوك ، ج ٣ ص ١٩

(١٤٧) المقرئ : السلوك ج ٢ ص ٦٧ كتاب الفرائض ج ٣ ص ١٧٤ (الألفية)

(١٤٨) المقرئ : الفرائض والأصناف ج ١ ص ٤٩ (بولاق)

(١٤٩) المجمع السابق ، نفس الجزء ، ص ٥٠ (بولاق)

(١٥٠) المصدر السابق ، ج ٣ ص ٢٤٧ (الألفية)

(١٥١) المقرئ : الفرائض ، ج ٣ ص ٢٣٣ ، ٢٤٤ (الألفية)

(١٥٢) المقرئ : كتاب السلوك ، ج ٣ ، حوادث سنة ٧٥٥ هـ

(١٥٣) المقرئ : كتاب السلوك ، ج ٢ ص ٧٥٤

(١٥٤) المقرئ : كتاب السلوك ج ١ ص ٥٢٣ ، ج ٢ ص ١٤١ ، ص ٦٤٤ . . . الخ

وعندما يتكلم المقرئ عن قراق مصر والقاهرة ، لا يكتفي بأن يوضح الدور الرئيسي للقراق بوصفها دارا للموق  
فحسب ، ويتتبع ما أقيم فيها من البيوت والزاويا والمدارس - وغيرها ، بل حرص المقرئ على أن يشير إلى أن القراق  
في ذلك العصر شهدت نشاطا اجتماعيا واسعا في حياة الترح وحياة الفرح سواء ، اذ صارت من جملة متنزهات مصر ،  
وصار البعض يدعون الأهل والأصدقاء إليها حيث يقيمون فيها ولائم صاخبة ، يكثر فيها الغناء والرقص . وربما عم  
الفساد نتيجة لاختلاط النساء بالرجال (١٥٥)

ويلمح المقرئ - ضمن كتاباته - إلى الأفراح العائلية في عصره ، في رسم صورة لفرح من أفراح القصور  
والسلطين ، هو احتفال السلطان الناصر محمد سنة ٧٣٢ هـ بزواج ابنه الأمير أنوك ، فأمر السلطان : « باحضار جميع  
من بالقاهرة ومصر من أرباب الملهى إلى - الدور السلطانية ، ووقع الشروع في عمل الخوان ، فأقام الميم سبعة أيام  
بلياليها . . فلما كانت ليلة السابع منه جلس السلطان على باب القصر ، وتقدم الأمراء على قدر مراتبهم واحدا بعد  
واحد ، ومعهم الشموع . فاذا قدم الواحد ما احضره من الشمع قبل الأرض وتأخر . وما زال السلطان بمجلسه حتى  
انقضت تقادهم ، فكانت عدتها ثلاثة آلاف شمعة زنتها ثلاثة آلاف وستون قطارا . . . حتى اذا كان آخر الليل نهض  
السلطان ، وعبر حيث يجتمع النساء ، فقامت نساء الأمراء بأسرهن ، وقبلن الأرض واحدة بعد أخرى ، وهي تقدم ما  
احضرت من التحف الفاخرة والنقود ، حتى انقضت تقادهم جميعا . ورسم السلطان برقصهن عن آخرهن ، فرقصن  
أيضا واحدة بعد واحدة ، والمغاني تقرب بدفوفهن ، وأنواع المال من الذهب والفضة وشقق الحرير يلقي على  
المغنيات ، فحصل هن ما يجل وصفه ، ثم زفت العروس . . . . فكان هذا العرس من الأعراس المذكورة ، ذبح فيه  
من الغنم والبقر والخيل والأوز والدجاج ما يزيد على عشرين ألفا ، وعمل فيه من السكر برسم الحلوى والمشروب ثمانية  
عشر ألف قطار (١٥٦)

ومن العادات الطريفة التي أشار إليها المقرئ انه كان يراعى أن يتضمن شوار العروس دكة نحاس مكفت . والدكة  
عبارة عن شيء يشبه السرير يعمل من خشب مطعم بالعاج والأبنوس وفوق الدكة دست طاسات من نحاس اصفر  
مكفت بالفضة . وعدة الدست سيع قطع بعضها أصغر من بعض ، تبلغ كبراهما ما يسع الارdeb من القمح . وتبلغ  
قيمة الدكة ما يزيد على مائتي دينار ذهبيا . فاذا كانت العروس من بنات الأمراء أو الوزراء أو الاعيان ، فانها تجهز في  
شوارها بسبع دك (١٥٧) وفي ليلة الدخلة يخرج العريس قاصدا بيت العروس في موكب كبير يحف به الأهل  
والاصدقاء . وهناك في بيت العروس يقام حفل الزفاف الذي تحييه جوق المغاني ، ويختلط فيه الغناء بضرب الدفوف  
وزغاريد النساء من المدوعات اللاتي يحرصن على ارتداء أفخر الملابس والمجوهرات (١٥٨) . وكثيرا ما يتفاخر المدعوون  
والمدعوات بتقديم النقود إلى المغاني وتقديم الهدايا إلى اصحاب العرس ، وتكون هذه الهدايا من الشمع والتحف  
الفاخرة والخراف والسكر والأوز . . . وغيرها (١٥٩)

(١٥٥) المقرئ : المراسم والاحتفال ، ج ٢ ص ٣١٩ (الأولية)

(١٥٦) المقرئ : كتاب السلوك ج ٢ ص ٣٤٣ - ٣٤٦ (حوادث سنة ٧٣٢ هـ)

(١٥٧) المقرئ : المراسم والاحتفال ، ج ٢ ص ١٠٥ (بولاق)

(١٥٨) المقرئ : كتاب السلوك ، ج ٣ ص ٤٢٦ ، ٦٠١

(١٥٩) المصدر السابق ، نفس الجزء ، ص ٣٠٥ - ٣٠٦

ومن المناسبات الاجتماعية التي كان يحتفل بها احتفالاً كبيراً في ذلك العصر « النفاس والولادة » فإذا كان المولود ذكراً تضاعف الحفل ، ويقيم أهل المولود وليمة كبيرة يدعي إليها الأصدقاء ، ويبالغ في عمل ألوان الطعام الفاخر ، هذا عدا مظاهر التكريم التي تضاعف لام المولود في هذه الحالة<sup>(١٦٠)</sup> أما ختان الطفل ، فكان يحتفل به - احتفالاً كبيراً - قد يستمر ثلاثة أيام - ولا بد للمدعوين في هذه الحالة من تقديم النقود لأهل الطفل ، ويضعونه في « الطشت الذي يطاهر فيه الولد »<sup>(١٦١)</sup>

وفي الحياة الاجتماعية التي حفلت بها مصر في عصر سلاطين المماليك ، لم يفت القريري أن يشير - من قريب أو بعيد - إلى دور المرأة في الحياة العامة . ففي الحياة السياسية يشير القريري بين حين وآخر إلى تدخل بعض زوجات السلاطين في شؤون الحاكم مثل ست حدق ، زوج السلطان الناصر محمد ، وكان لها دور ملحوظ في شؤون الدولة ، وكلمة مسموعة عند السلطان ، حتى أن التجار لجأوا إليها لرفع بعض المظالم عنهم<sup>(١٦٢)</sup> . وفي الحياة العلمية يشير القريري إلى بعض النساء اللاتي اشتغلن بالفقهاء والحديث ، وشارك بعضهن في الحديث بصحيح البخاري في قلعة الجبل إلى جانب الفقهاء<sup>(١٦٣)</sup> ويتكلم القريري عن التصوف والزوايا والاربطة - فيسهب في الكلام عن دور المرأة في حياة التصوف من ذلك ما يقوله عن رباط البغدادية « وما برح ( هذا الرباط ) إلى وقتنا هذا يعرف سكانه من النساء بالخير ، وله دائماً شبيخة تعظ النساء وتذكرهن وتقهنهن . وآخر من أدركنا فيه الشبيخة الصالحة سيدة نساء زمانها أم زينب فاطمة بنت عباس البغدادية . . »<sup>(١٦٤)</sup> ولم يكن دور المرأة في الأسواق والطرقات والحمامات والمتنزهات أقل شأنًا . ويذكر القريري أن بعض سلاطين المماليك حاول منع النساء من الخروج إلى الطرقات أو الذهاب إلى المقابر ومواضع الزهرة ، ولكن ذلك النع لم يستمر إلا زمناً محدوداً ، يعود بعده الحال إلى ما كان عليه<sup>(١٦٥)</sup> وربما احترفت « بنات الهوى » الايقاع بالرجال فتخرج الواحدة إلى الطريق وقد استكملت زينتها لتستدرج رجلاً إلى حيث يتم سلب أمواله وقتله - بأيدي أعوانها<sup>(١٦٦)</sup> .

ويستطيع الباحث العثور في كتابات القريري على ملاحظات توضح ملابس النساء في عصره . من ذلك مايقوله من أن النساء كن يستعملن المقانع ، وهي مناديل توضع فوق الرأس والوجه<sup>(١٦٧)</sup> . أما غطاء الرأس فكان عبارة عن عصابة تلبسها المرأة بحيث يكون أولها عند جبينها وآخرها مدلى على ظهرها ، وتسمى هذه العصابة « الشاش »<sup>(١٦٨)</sup> على أنه مما

(١٦٠) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٣٢

(١٦١) القريري : كتاب السلوك ، ج ١ ص ٥١٩ - ٥٢٠ ، ج ٤ ص ٤٦٦

(١٦٢) القريري : كتاب السلوك ، ج ٢ ، ص ٤١٢

(١٦٣) المصدر السابق ، نفس الجزء ، ص ١٦٩

(١٦٤) القريري : كتاب المرافع والاختيار ، ج ٢ ، ص ٤٢٧ - ٤٢٨

كتاب السلوك ، ج ٢ ، ص ٢٦٩ .

(١٦٥) القريري : كتاب السلوك ، ج ٤ ص ٤٦٦ ، ٨٢٣

(١٦٦) المصدر السابق ، نفس الجزء والصفحات .

(١٦٧) القريري : كتاب السلوك ، ج ٢ ص ٤٣٣ .

(١٦٨) المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٥٥٤

يستعرض الانتباه مايلذره المقرئ من أن النساء في عصره كن يعمدن أحياناً الى تقليد الرجال في زى الرأس فليس الطوقى ، وتمعن بالعمائم ، حتى اضطر السلاطين الى المنادة « بأن امرأة لا تتعمم بعمامة ولا تنزيا بزي الرجال ، ومن فعلت ذلك بعد ثلاثة ايام سلبت ماعليها من الكسوة » (١٦٩) . وقد حاول المقرئ أن يلمس للنساء بعض العذر في ذلك ، فقال ان الضرورة هي التي فرضت عليهن محاكاة الرجال في لبس الطوقى السابقة ، بسبب ما نزل من فقر وفاقة ، فتعذر على نساء عصره محاكاة الأوائل في لبس الشاشات الفاخرة ، ولكن هذا التبرير لا يتفق مع قول المقرئ إن هؤلاء النسوة اعتدن ان يزخرفن الطوقى بالذهب والحرير ، ويبالغن في ذلك (١٧٠) وربما كان أقرب الى الواقع ما ذكره المقرئ في موضع آخر من كتاباته لتعليل هذه الظاهرة ، وهو ما سنشير اليه فيما بعد .

والواقع انه يفهم من الملاحظات التي أبداها المقرئ أن بعض النساء في ذلك العصر بالغن في ثيابهن ، سواء من ناحية الهيئة أو القيمة ، حتى بلغ الامر بهن أحياناً أن تفصل الواحدة قميصها من الثين وتسعين ذراعاً من القماش البندقي الذي عرضه ثلاثة أذرع ونصف ، وبذلك تصبح مساحة القماش الذي يفصل منه القميص أكثر من ثلثمائة وعشرين ذراعاً مربعاً (١٧١) . أما تكاليف مثل هذا القميص ، فقد ذكر المقرئ أنها تجاوزت الألف درهم ، ومثله الأزار الخارجي ، في حين وصل ثمن خف المرأة الى ما بين مائة وخمسمائة درهم (١٧٢) . ويبدو أن هذا الاسراف من جانب النساء دفع الدولة الى التدخل لتحديد ملابسهن ، فصدرت اوامر في سنة ٧٥١ هـ ، ٧٩٣ هـ . ٨٥٠ هـ ، ٨٧٦ هـ ، بالا يزيد طول قميص المرأة عن اثني عشر ذراعاً ، وأن لا تكون الاكمام مفرطة في الاتساع . وطاف المتادون في شوارع القاهرة يحدرون النساء من مخالفة هذه التعليمات . بل لقد نصبت اخشاب على سور القاهرة وأبوابها ، وعلقت عليها تماثيل على شكل نساء وقد ارتدين القمصان الطوال ، وذلك لتذكير النساء وتحذيرهن (١٧٣) .

على أن المقرئ - بما أوتيته من دقة ملاحظة - أوضح بطريق غير مباشر أن المستحدثات ( الموضة ) تنتقل في المجتمع من فوق الى تحت ، ومن الطبقات العليا الى مادونها ، فيقول ان ما فعلته عامة نساء المجتمع لهن العذر فيه ، لأنهن يتشبهن في ملابسهن بما تفعله نساء السلاطين والامراء . ففي حوادث سنة ٧٩٣ هـ يعيب المقرئ في صراحة على عوام النساء انهن تشبهن في اللبس بنساء الملوك والاعيان (١٧٤) . أما في حوادث سنة ٨٥٠ هـ فيصف المقرئ كيف أن نساء السلاطين وجوارسهن أحدثن ثياباً طوالاً تسحب أذيالها على الأرض ، ولها اكمام واسعة ، عرف القميص منها بالمطلة .

(١٦٩) المقرئ : كتاب السلوك ، ج ١ ، ص ٥٠٣

(١٧٠) المقرئ : المرافعة والاعتبار ، ج ٣ ، ص ١٦٩ (الأهلية)

(١٧١) المقرئ : السلوك ، ج ٣ ، ص ٦٧٣

(١٧٢) المقرئ : المرافعة والاعتبار ، ج ٤ ، ص ١٢٧ (الأهلية)

(١٧٣) المقرئ : كتاب السلوك ، ج ٢ ، حوادث سنة ٧٩٣ هـ .

(١٧٤) المقرئ : كتاب السلوك ، ج ٢ ، حوادث سنة ٧٩٣ هـ

ويعقب المقرئ على هذا الخبر بقوله « وتشبه نساء القاهرة بهن في ذلك ، حتى لم تبق امرأة إلا وقميصها كذلك » (١٧٥) .

ثم إن المقرئ يشير إلى حقيقة أخرى ، هي أن ملابس النساء لم تظهر على حال واحد ، وإنما تعرضت للتغيير والتبدل بين فترة وأخرى . فهي مرة واسعة وطويلة ، وبعد فترة تصبح ضيقة وقصيرة (١٧٦) .

وأخيراً فإن المقرئ ينظره الاجتماعية ، لم يرض عن كثير من الأمراض الاجتماعية التي فشت في المجتمع في عصره ، فانتقدها حيناً في هدوء وأحياناً في قوة وعنف . ولم يتمالك هذا العالم الجليل نفسه ، فأظهر الأسف وعبر عن الأسى عندما وجد الناس « اظهروا المنكرات في الخمر ونحوها من المسكرات ، واختلاط النساء والرجال من غير استئذان » ويوضح المقرئ أن هذه الأمراض الاجتماعية لم تستحدث في زمنه ، وإنما جذورها قديمة . ويستشهد على ذلك بما ذكره القاضي الفاضل في متجدداته سنة ٥٨٧ هـ أنه رأى « من البغي ومن المعاصي ومن الجهر بالفلسق والزنا واللواط وشهادة الزور . . . . . وشرب الخمر مالم يسمع أو يبعد مثله » (١٧٧) .

ويبدو أن هذه الأمراض الاجتماعية ازداد فشوها في أواخر عصر سلاطين المماليك ، تشبهاً مع المبدأ المعروف في التاريخ ، وهو أن الدول في خريف عمرها لا يقتصر الانحلال الذي يعترها على الأجهزة السياسية والاقتصادية والإدارية والحربية ، وإنما يمتد أيضاً على الجوانب المعنوية والاجتماعية والحلقية .

ومهما يكن من أمر ، فإن المقرئ كان أميناً في تنفيذ العيوب والأمراض دون جمالة أو مبالغة ، شديداً في رفضه لها ، قاسياً في نقده لبعض الأوضاع التي لا تتفق وتعاليم الدين أو مبادئ الأخلاق . من ذلك أنه ساءه أن تعترف الدولة بالبغياء والبغياء وتفرض عليهم ضرائب مقررة ، مما أدى إلى تفشي البغياء والزنا (١٧٨) واستنكر وقوف البغايا في الأسواق أمام المارة وعلى مرأى منهم (١٧٩) . ولم تقتصر هذه الظاهرة على القاهرة والمدن الكبرى ، بل فشت في مراكز الصعيد والوجه البحري حيث خصص للبغياء حارات مريبة (١٨٠) وقد جاول بعض سلاطين المماليك محاصرة هذا الداء قبل أن يفشو ويزداد خطره ، فأصدر السلطان الظاهر بيبرس قراراً بإبطال المكوس المقررة على البغايا ، حتى لا تكتسب هذه الحرفة صفة اعتراف الحكومة بها ، كذلك منع البغياء من سائر البلاد ، وقبض على البغايا حتى يتزوجن ، بحيث لا يتراد

(١٧٥) المقرئ : كتاب السلوك ، ج ٢ ، حوادث سنة ٨٥٠ هـ ( ٨٨٤ )

(١٧٦) سعيد عاشور : المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك ، ص ٢٢١

(١٧٧) المقرئ : الرامض والاعتبار ، ج ٣ ، ص ٣٧ - ٣٨ ( الألفية )

(١٧٨) المقرئ ، كتاب السلوك ، ج ٣ ، ص ٢٦٩ - ٢٧٠

(١٧٩) المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٣١٢

(١٨٠) المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٢٧٠

في مهورهن عن اربعمائة درهم ، يجعل منها مائتان ، وذلك لتيسير زواجهن<sup>(١٨١)</sup> كذلك ذكر المقرئزي انه كان من جملة الضرائب التي ألغاهها الناصر محمد عقب الروك الناصري ، ما كان يجمع من « الفواحش والمنكرات » والضريبة المقررة على كل جارية أو عبد حين نزولهم بالخانات لعمل الفاحشة<sup>(١٨٢)</sup> .

ومن الامراض الاجتماعية التي أشار المقرئزي الى فوشوها في ذلك العصر الشذوذ الجنسي . وقد عبر المقرئزي عن فشو هذا المرض بين طبقة المماليك بالذات ، فقال انه « فشى في أهل الدولة (يعني المماليك) حبة الذكران » ، حتى عدت النساء الى التشبه بالذكور في ملابسهم ليستملن قلوب الرجال<sup>(١٨٣)</sup> . ولعل في هذا خير تعليل لما سبق أن أشرنا اليه من انتشار لبس الطواقي بين النساء - تشبها بالرجال - في ذلك العصر . كذلك ذكر المقرئزي كيف أضرب الناصر أحمد - ابن الناصر محمد - عن الطعام سنة ٧٤٥ هـ « حتى يأتوه بشاب كان يهواه . . فأتوه به ، فأكل عند ذلك<sup>(١٨٤)</sup> » بل لقد ذكر المقرئزي أن كتبنا خلع من السلطنة سنة ٦٩٦ هـ بسبب غلام<sup>(١٨٥)</sup> .

وانتقد المقرئزي انتقادا مريرا نفشى المخدرات في أيامه ، فقال عن الحشيش « فشت هذه الشجرة الخبيثة في وقتنا هذا فشوا كبيرا . ولعل بها أهل الخلاعة والسخف ولوعا كثيرا ، وتظاهروا بها من غير احتشام . وماشء في الحقيقة أفسد لطباع البشر منها ، لأشتهارها في وقتنا هذا عند الخاص والعام بمصر والشام والعراق والروم »<sup>(١٨٦)</sup> ولم تمنح الدولة تعاطي الحشيش ، وإنما فرضت عليه ضريبة كانت تمد خزائنها « بجملة كافية » واستمرت هذه الضريبة حتى ألغاهها السلطان الظاهر بيبرس الذي « أبطل ضمان الحشيشة الخبيثة وأمر بتأديب من أكلها »<sup>(١٨٧)</sup> وعلى أيام المقرئزي شاع تعاطي الحشيشة بين الصوفية - وهم الذين عرفوا باسم الفقراء - حتى أطلق عليها المعاصرون اسم « حشيشة الفقراء »<sup>(١٨٨)</sup> .

أما الخمور ، فيذكر المقرئزي أن تعاطيها انتشر بين سائر الناس ، فكانت تعصر وتباع في أنحاء البلاد على رؤوس الأشهاد ، حتى أن ما عصر منها في خزانة البنود في سنة واحدة بلغ اثنين وثلاثين ألف جرة<sup>(١٨٩)</sup> وقد عرف المماليك

(١٨١) المقرئزي : كتاب السلوك ، ج ١ ص ٥٧٨ ، ج ٢ ص ١٠٠

(١٨٢) المقرئزي : المواظ والاحتبار ، ج ١ ص ١٤٤

(١٨٣) المقرئزي : المواظ والاحتبار ، ج ٣ ص ١٦٩ (الأهلية)

(١٨٤) المقرئزي : كتاب السلوك ، ج ٢ ، ص ٦٦١ - ٦٦٢ (سنة ٧٤٥ هـ)

(١٨٥) المقرئزي : المواظ والاحتبار ، ج ٢ ، ص ١٣٦ (بولاق)

(١٨٦) نفس المصدر السابق

(١٨٧) المقرئزي : كتاب السلوك ، حوادث سنة ٦٦٤ هـ

(١٨٨) المقرئزي : كتاب السلوك ، ج ٤ ، ص ٣٣٩

(١٨٩) المقرئزي : كتاب السلوك ، ج ٢ ص ٦٨٦ - ٦٨٧

أنواعا عديدة من الخمر ، منها نبيذ القَمْزُ ويعمل من لبن الخيل<sup>(١٩٠)</sup> والمزْر ويعمل من القمح<sup>(١٩١)</sup> والنبيذ التمر بغاوي وطريقة صنعه أن تخرج عشرة أوطال من الزبيب إلى أوبعين رطلا من الماء ثم يوضع المزيج في جرار تدفن في زبد الخيل أياما حتى يتخمّر<sup>(١٩٢)</sup> . ويبلغ من انتشار الخمر في ذلك العصر أن أمراء المالِك اعتادوا أن يتهادوا بها في أفراحهم<sup>(١٩٣)</sup> . فإذا احتاج أحد السلاطين أو الأمراء إلى كمية كبيرة من الخمر لحفل أو ظرف طاريء ، وزعوها على النصارى واليهود المعروفين بصنعها ، وفرضوا على كل طائفة عددا معيناً من الجرار ، تقدمها . وإذا تقاعسوا - مثلاً حدث سنة ٨١٦ هـ - «جبيت منهم بعنف وعسف وضرب»<sup>(١٩٤)</sup> وفي كثير من الحفلات والافراح الشعبية اعتبرت الخمر متممة للمعاني<sup>(١٩٥)</sup> ويقول المقرئ أنه لا عبرة بالأوامر التي كان يصدرها سلاطين المالِك في أوقات الأزمات والشدائد باراقة الخمر طلباً لمغفرة الله وعفوه ، مثلاً حدث في سنة ٧٠٩ ، ٧٨١ ، ٨٣١ هـ ، لأن هذه النوبة كانت لا تستمر إلا مدة قصيرة من الزمن ، يعود الناس بعدها إلى التظاهر بشرب الخمر ولم يتهادوا بها هم فيه<sup>(١٩٦)</sup> .

وهكذا اهتم المقرئ في كتاباته بالتاريخ الاجتماعي مثل اهتمامه بالتاريخ الاقتصادي وبقية فروع التاريخ ، بحيث جاء انتاجه يعبر عن صورة تاريخية متكاملة ، لها أوجهها السياسية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية والعمرانية . . . . . وغيرها .

ويعد ، فأننا عندما نصف المقرئ بأنه شيخ المؤرخين في القرن التاسع الهجري الخامس عشر للميلاد - فأنما نعني فعلاً أنه تزعم صناعة التاريخ في ذلك العصر ، واجاد هذه الصنعة حتى بلغ الذروة فيها ، بعد أن ألم بآثارها ، واستوفى متطلباتها وادواتها وشروطها .

وعند ما أقدم المقرئ على ممارسة التلويح التاريخي ، فإنه لم يكتب فيه كتابة سطحية أو عشوائية . وإنما التزم بمنهج علمي ثابت يمثل أرقى ما وصلت إليه كتابة التاريخ في عصره فلم يقتصر على سرد الأحداث مكتفياً بالنقل عن السابقين ، وإنما تجاوز ذلك إلى النقد والتحليل ، والبحث عن الأسباب وتبني النتائج . كما أنه لم يقف موقفاً سلبياً أمام الظواهر والأحداث ، وإنما حاول دائماً أن يربط بين أطرافها ، ويعمل لها تعليلاً سلبياً منطقياً .

(١٩٠) المصدر السابق ، ج ١ ص ٦٠٧ (حاشية ٢ للمرحوم الدكتور محمد مصطفى زيادة)

(١٩١) المقرئ : المواقف والاعتبار ، ج ١ ص ١٠٥ (الألمة)

(١٩٢) المقرئ : كتاب السلوك ، ج ٣ ، ص ٧٤١

(١٩٣) المصدر السابق ، نفس الجزء ، ص ٣٠٥ - ٣١٩

(١٩٤) المصدر السابق ، ج ٤ ص ١٢١ ، ٢٠١

(١٩٥) المقرئ : كتاب السلوك ، ج ٣ ص ٤٢٦

(١٩٦) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٥٤ - ٥٣ ، ج ٣ ص ٣٥٤

ثم ان المقرئ لم يتخذ الكتابة التاريخية أداة للتجريح والهدم ، مثلما فعل بعض معاصريه من المؤرخين ، وإنما اتصف قلمه بالانضباط والعفة .

هذا الى امانته في نسبة الروايات التي ينقلها الى أصحابها ، وعنايته بتمحيص هذه الروايات للتفرقة بين الغث والسمين منها ، وابستبعاد الضعيف والتمسك بالرواية القوية .

يضاف الى هذا جرائته في الحق ، وعزوفه عن تملق الحكام والتمسح بركابهم ، وتوجيه النقد اليهم في مواضع النقد .

وصفة القول أن المؤرخ أحمد بن علي المقرئ جمع بين قوة الحاسة التاريخية من ناحية ، وصدقها وانضباطها من ناحية أخرى ، . هذا فضلا عن ادراكه للابعاد الحقيقية والأركان الرئيسية لعلم التاريخ ، مما جعل منه ظاهرة فريدة بين مؤرخي عصره ، وجعل من تراثه ومؤلفاته ثروة حقيقية تعثر بها المكتبة التاريخية العربية .

\*\*\*



## شخصيات وآراء

يُعتبر أبوبكر محمد بن زكريا الرازي أحد أعلام العرب لا سيما في العلوم الطبية حيث أُلّف فيها أكثر من خمسين كتاباً ومقالة ، ومن ثم يُعد الرازي - بغير منازع - أعظم أطباء الحضارة الإسلامية ، ومن أشهر كتبه في الطب كتاب « الجامع الكبير » أو كتاب « الحاوي » ، كذا كتاب « الكناش المنصوري » الذي أُلّفه للأمير منصور بن اسحق\* الساماني حاكم الري ( ٢٩٠ - ٢٩٦ هـ ) ، وهو أول من اهتم بالجانب النفسي في العلاج الطبي .

اشتغل الرازي بالعلوم الحكيمية عموماً ، وله كتب كثيرة في الأخيات والمنطق وما بعد الطبيعة ، كذا في الكيمياء والطبيبات والرياضيات والفلك والموسيقى وغيرها .

وقد سبق الرازي كلا من الشيخ الرئيس ابن سينا والعالم الجليل الحسن بن الهيثم في أن الابصار يحصل بورود شعاع من الجسم المُبْصَر إلى العين ، وبذلك كان أول من نقض قول علماء الاغريق بخروج الشعاع من العين إلى الشيء المُبْصَر ، كما أن الرازي قد اشتغل بقياس الثقل النوعي بقصد التمييز بين معدني الذهب والفضة .

كذلك بين الرازي أن الأرض ذات هيئة كرية ، وأنها أصغر من الشمس وأعظم من القمر ، ولكنه أخطأ في اعتباره أن الأرض تقع في وسط الفلك . ولقد كان الرازي أحرص ما يكون على الدرس والتأليف ، وهو الذي يقول في مُصنّفه « كتاب السيرة الفلسفية » :

« وإنّه بلغ من صبري واجتهادي أني كتبت بمثل خط التعاويد في عام واحد أكثر من عشرين ألف ورقة ، وبقيت في عمل « الجامع الكبير » خمس عشرة سنة ،

أبوبكر الرازي  
ومحوته في العلم الطبيعي

جلال شوقي

عميد كلية الهندسة - جامعة قطر

(\*) وفي رواية أخرى أنه عمله منصور بن أبي قزادة وإلى خراسان .

٣٢٠هـ - (٩٣٢ م) ، إلا أن الفقهي قد ذكر في كتابه « إخبار العلماء بأخبار الحكماء » أن الرازي قد عاش حتى سنة ٣٦٤هـ (٩٧٤ م) وأنه اتصل بابن العميد ، بينما يذكر الصفدي في « نكت الهميان » أن الرازي توفي سنة ٣١٠هـ (٩٢٢ م) .

#### شيوخه ومعاصروه

قرأ الرازي الحكمة على أبي زيد البلخي<sup>(١)</sup> الذي كان دائم التجوال والترحال في الأمصار الإسلامية وكان على دراية حسنة بالفلسفة وعلوم الأقدمين ، كما أن الرازي قد درس الطب على يد الطبيب الفاضل أبي الحسن علي بن زَيْن الطبري ، وهو من أهل طبرستان ، وكان الطبري قد قَدِمَ الريّ حوالي سنة ٢٨٩هـ (٩٠٢ م) بعد استيلاء السامانيين على طبرستان ، وقد أصاب الرازي من علم الطبري وحكمته الشيء الكثير ، وكان الرازي مُعاصراً لأبي يعقوب اسحق بن حنين بن اسحق<sup>(٢)</sup> الذي كان من أشهر وأقدر نقلة علوم الحكمة إلى اللغة العربية ، وكان الرازي على صلة بأبي الحسن علي بن عيسى الجرجاني<sup>(٣)</sup> أثناء إقامته في بغداد .

#### أقواله الماثورة :

وللرازي أقوال ماثورة كثيرة نقدم بعضها منها فيما يلي : « مَنْ لَمْ يُعْنِ بِالْأُمُورِ الطَّبِيعِيَّةِ ، وَالْعُلُومِ الْفَلَسَفِيَّةِ ، وَالْقَوَائِنِ الْمُنْتَطَلِقَةِ ، وَعَدَّلَ إِلَى اللَّذَاتِ الدُّنْيَايَةِ ، فَاتَّهَمَهُ فِي عِلْمِهِ ، لَا سِوَا فِي صِنَاعَةِ الطَّبِّ » .

« الاستكثار من قراءة كتب الحكماء ، والإشراف على أسرارهم ، نافع لكل حكيم عظيم الخطر » .

أعماله الليل والنهار ، حتى ضُمَّتْ بصري ، وحدث لي نسخ في عضل يدي يمتصاني في وقتي هذا عن القراءة والكتابة ، وأنا على حالي لا أدعها بمقدار جهدي ، وأستعين دائماً بمن يقرأ ويكتب لي » .

هذا هو شأن العالم العربي الكبير الذي نعرض له بالدراسة ، ونحن نقصر بحثنا الحالي على جهد الرازي في مجال الطبيعيات دون أن نلج في آرائه الفلسفية الخاصة بِقَدَمِ أشياء خمسة هي الباري والنفس والمهيولي ( أي المادة ) والزمان والمكان ، وإنما نعرض هنا لأقوال الرازي وآرائه في ماهية الهيولي والزمان والمكان والحلاء والنقل والخفة من الوجهة العلمية .

#### ترجمته

وُلِدَ الرازي في مدينة الريّ جنوبي طهران حوالي سنة ٢٥٠هـ (٨٦٤ م) وبها نشأ ، وقدم إلى بغداد وعمره ثيف وثلاثون سنة ، وأصبح رئيساً للمستشفى العسدي بها ، وكان من قبل رئيساً لمارستان الريّ وذلك قبل قدومه إلى بغداد .

وقد عُرفَ الرازي في الغرب باسم "Rhases" وترجم كتابه « الحاوي » في الطب إلى اللاتينية بعنوان : "Liber Continens" ، كما تُرجم له كتاب في الصحة العامة حيث ظهرت ترجمته اللاتينية بعنوان : "Miscellanea" .

كرّس الرازي حياته لخدمة العلم ، فلا غرور أن يُؤلّف وزاده عشرات الكتب والمصاحلات ، وكان أن ضعف بصره في آخر عمره ، وقد اختلفت الروايات حول تاريخ وفاته ، فالمشهور أنه توفي في بغداد سنة

(١) هو أبو زيد أحمد بن سهل البلخي ، عاش في الفترة من حوالي سنة ٨٥٠م حتى سنة ٩٣٤م . درس الفلسفة مع الكندي ، وهو من جغرافيا العرب .

(٢) شهد أيام الخلفاء المعتصم والمعتز والمعتز ، وتوفي في بغداد في أيام المعتز ، وذلك في شهر ربيع الآخر سنة ٢٩٨هـ (٩١٠م) .

(٣) كان وزيراً للخليفة المعتز سنة ٣١٠هـ (٩٢٣م) ، وكذا سنة ٣١٤هـ (٩٢٧م) .

٥٦ تصنيفا	الطب والأقربايزين	« متى اجتمع جالينوس <sup>(٤)</sup> وأرسطوطاليس <sup>(٥)</sup> على معنى ، فذلك هو الصواب ، ومتى اختلفا صعب على العقول إدراك صوابه جدا » .
٣٢ تصنيفا	الطبيعات	« ما اجتمع الأطباء عليه ، وشهد عليه القياس ، وعصّدته التجربة ، فليكن إمامك ، وبالفعل » .
٢١ تصنيفا	الكيميائيات	« متى كان اقتصار الطبيب على التجارب ، دون القياس وقراءة الكتب ، خُلِبَ » .
١١ تصنيفا	الرياضيات والنجوم	« الأطباء الأُمَيُّونَ والمُغْلَدُون ، والأحداث الذين لا تجربة لهم ، ومن قَلَّتْ عنايتهم وكثرت شهواتهم : قَتَلُون » .
١٦ تصنيفا	الآلهيات	
١٦ تصنيفا	الفلسفة	
٧ تصنيفا	المنطق	
٦ تصنيفا	ما بعد الطبيعة	
٧ تصنيفا	تفاسير وتلاخيص واختصارات	
١٢ تصنيفا	فنون مختلفة	
١٨٤ تصنيفا	المجموع	

ولنقرأ ما خطّه يد الرازي في معرض دفاعه عن استحقاقه لتسمية « فيلسوف » ، وهو الذي أفتى عمره كله في تحصيل العلم والاشتغال به ، حيث يستشهد بسرد أسماء بعض تصانيفه فيقول في مؤلفه « كتاب السيرة الفلسفية »<sup>(٨)</sup> :

أما في باب العلم فون قيل أننا لو لم تكن عندنا منه إلا القوة على تأليف مثل هذا الكتاب لكان ذلك مانعا عن أن يُحَى عَنَّا اسم الفلسفة ، فضلا عن مثل كتابنا « في البرهان » و« في العلم الألهي » و« في السطب الروحاني » .

وكتابتنا « في المداخل إلى العلم الطبيعي » المرسوم « بسمع الكيان » ، ومقاتلتنا « في الزمان والمكان والمثمة والدهر والخلا » .

« ينبغي للطبيب أن يُوهِم المريض أبدا الصحة ، ويُرجِّحها ، وإن كان غير واثق بذلك ، فمزاج الجسم تابع لأخلاق النفس » .

#### آثاره العلمية :

قدّم أبو بكر الرازي إلى العلم العربي إضافات جلية ، ليس في مجال الطب فحسب وإنما في سائر فروع العلم والمعرفة ، وقد جاء أبو البريمان البيروني<sup>(٦)</sup> من بعده ، فاهتم اهتماما خاصا بحصر أعمال الرازي حيث كتب رسالة<sup>(٧)</sup> ضمّنها أسماء ما يتوفى على مائة وثمانين مُصَنَّفًا من تصانيف الرازي ، وتبين فيها يلي إحصاء عاما لهذه المؤلفات :

(٤) طبيب إفرنجي شهير عاش في الفترة من حوالي سنة ١١٣١م حتى سنة ١٢٠١م ، له مؤلفات عامة في الطب ، رجع إليها أطباء العرب .

(٥) هو الفيلسوف والعالم الإلهي أرسطو ، عاش في الفترة من سنة ٣٨٤ ق.م حتى سنة ٣٢٢ ق.م .

(٦) هو العالم العربي أبو البريمان محمد بن أحمد البيروني الملقب ببرهان الحق والأستاذ عاش في الفترة من سنة ٩٧٣م - (٩٧٣م) حتى سنة ١٠٤٨م - (١٠٥١م) .

(٧) كتب عنها للمسطرقي . ورسكنا في مجلة ليزيس ، سنة ١٩٢٣ ، ونشر الرسالة المنشورة بول كراوس في باريس سنة ١٩٣١ ، وهي بعنوان « في فهرست كتب محمد بن زكريا الرازي » .

(٨) « رسائل فلسفية للرازي » ، جمع وتصحيح بول كراوس ، طبعة جامعة لوزان الأولى - بالفاخرة ، سنة ١٩٣٩ ، الصفحات ١٠٨ - ١١٠ .

« فإما عَيَّنِي للمعلم ، وحرصي عليه ، واجتهادي فيه ، فمعلوم عند من صَحيبي وشاهد ذلك مني أني لم أزل منذ حدائتي وإلى وقتي هذا مُكَيَّباً عليه حتى أتيت متى اتفق لي كتاب لم أقرأه أَوْ رجل لم ألقه لم ألتفت إلى شُغْل بَته - ولو كان في ذلك عليّ عظيم ضرر - دون أن أتى على الكتاب وأعرف ما عند الرجل » .

وقد سبق أن أوردنا في صدر هذا البحث مبلغ اجتهد الرازي الذي سبب له ضعفاً في بصره وقُشْحاً في عضل يده أودى به إلى الاستعانة بمن يقرأ له ويكتب .

#### أعمال الرازي في الطبيعيات

كتب الرازي مؤلفات كثيرة في الطبيعيات وما يرتبط بها من علوم ، ولقد اهتم اهتماماً خاصاً بالبحث في ماهية الهويي ( المادة ) وكُنْه الزمان والمكان ، كما أنه اشتغل بتعيين الثقل النوعي للمواد بقصد التفريق بين المعادن الثمينة والمعادن غير الثمينة ، كذلك كتب الرازي في كيفية الابصار ، وبحث في حركة الأفلاك ومساراتها ، وله أيضاً كتاب في الخيل ، أي في الوسائل الميكانيكية النافعة ، ونشر فيما يلي إلى بعض مؤلفات الرازي في هذا المجال :

كتاب « في المدخل إلى العلم الطبيعي » الموسوم « بسمع الكيان » .

كتاب « المدخل التعليمي » .

كتاب « المدخل البرهاني » .

كتاب « الهويي الكبير » أو « كتاب كبير في الهويي » .

كتاب « الهويي الصغير » ، ولعله هو « كتاب الهويي المُنْتَطَلَق والجَزْئِيَّة » الذي ذكره ابن النديم في فهرسه .

مقالة « في الزمان والمكان والمدة والذهر والخلاء » .

« مقالة » فيها جرى بينه وبين أبي القاسم الكمعي في الزمان » .

« وفي شكل العالم » ،  
« وسبب قيام الأرض في وسط الفلك » ،  
« وسبب تحرك الفلك في استدارة » ،  
ومقالاتها « في التركيب » ،  
« وأن للجسم حركة من ذاته وأن الحركة معلومة » ،  
« وكتبتنا في النفس » وكتبتنا « في الهويي » ،  
« وكتبتنا في الطب كالكتاب « المنصوري » ،  
« وكتابتنا « إلى من لا يحضره طبيب » ،  
« وكتابتنا « في الأدوية الموجودة » ، والموسوم « بالطب الملوكي » ،

والكتاب الموسوم « بالجامع » الذي لم يسبقني إليه أحد من أهل المملكة ، ولا احتذى فيه أحد بعد احتذائي وحُدُوي ،  
« وكتبتنا في صناعة الحكمة التي هي عند العالم الكيمياء » .

وبالجملة فقرأت مائتي كتاب ومقالة ورسالة خرجت عني - إلى وقت عملي هذه المقالة - في فنون الفلسفة من العلم الطبيعي والآثمي .

فإما الرياضيات فإنني مُقَرَّبٌ بأنني إنما لاحظتها ملاحظة بقدر ما لم يكن لي منها بُدٌّ ، ولم أفنِ زماناً في التمهُّر بها بالقصد مني ذلك ، لا للعجز عنه ، ومن شاء أوضح له عذري في ذلك بأن الصواب في ذلك ما عملته لا ما يعملهُ الْمُتَّقُونُ لأعمارهم في الاشتغال بفضول الهندسة من الموسومين بالفلسفة .

فإن لم يكن مبلغني من العلم المبلغ الذي استحق أن أسمى فيلسوفاً ، فمن هوليت شعري ذلك في دهرنا هذا .

وعمضي أبوبكر الرازي في « كتاب السيرة الفلسفية » ، فيقول في معرض بيانه وتذليله على مدى حُبِّه للعلم واتكياؤه على تحصيله :

وبنى هو على ذلك مذهبه الذي تأصل عنه ، وفارق بين الزمان وبين المدة بوقوع العدد على أحدهما دون الآخر بسبب ما يلحق العدديين من التناهي ، كما جعل الفلاسفة الزمان مدة لما له أول وآخر ، والدهر مدة لما لا أول له ولا آخر .

وذكر أن الخمسة في هذا الوجود الموجود اضطرارية ، فللمحسوس فيه هو الهويولي للتصورة بالتركيب ، وهي متمكن فلا بد من مكان ، واختلاف الأحوال عليه من لوازم الزمان ، فإن بعضها متقدم وبعضها متأخر ، وبالزمان يعرف القدم والحديث والأقدم والأحدث ومعا فلا بد منه .

وفي الموجود أحياء فلا بد من النفس ، وفيهم عقلاء ، والصنعة على غاية الاتقان ، فلا بد من الباري الحكيم العالم المتقن المصلح بغاية ما أمكن ، الفاضل قوة العقل للتخليص .

ويقول المرزوقي الاصفهاني<sup>(١٠)</sup> في « كتاب الأزمعة والأمكنة »<sup>(١١)</sup> :

« فنقول وبالله الحول والقوة ، من زعم أن الأزلي أكثر من واحد أربع فرق :

الأولى : الذين يقولون هما اثنان ، الفاعل والمادة فقط ، ويعني بالمادة الهويولي ،

الثانية : الذين يدعون أن الأزلي ثلاثة ، الفاعل والمادة والخلاء ،

الثالثة : الذين يدعون أنه الفاعل والمادة والخلاء والمدة ،

الرابعة : الفرقة التي زعيمهم محمد بن زكرياء المتطبيب ، لأنه زاد عليهم النفس الناطقة ، فبلغ عدد الأزلي خمسة بليانيه .

مقالة « في الفرق بين ابتداء المدة وابتداء الحركات » .

« مقالة « في أن للجسم حركة من ذاته وأن الحركة معلومة » .

كتاب « في حجة الذهب والفضة والميزان الطبيعي » ، كتاب « في كيفية الابصار » .

كتاب « في الخيل » .

مقالة « في شكل العالم » ، أو كتاب « هيئة العالم » .

مقالة « في سبب قيام الأرض في وسط الفلك » .

مقالة « في سبب تحرك الفلك على استدارة » .

هذا وتعرض هنا بشيء من التفصيل لأراء الرازي في المادة والزمان والمكان ، وذلك بالرجوع الى كتابات البيروني ، والمرزوقي الاصفهاني ، وناصر خسرو ، وأبي حاتم الرازي ، عن مذهب أبي بكر الرازي فيها .

### القدماء الخمسة

يذكر برهان الحق أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني في كتابه « تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة »<sup>(٩)</sup> بعضاً من آراء الرازي في العلم الالهي فيقول :

لَبَّ فِي ذِكْرِ الْمُدَّةِ وَالزَّمَانِ بِالْإِطْلَاقِ

وَتَخَلَّقَ الْعَالَمَ وَقَتَانِ

قد حكى محمد بن زكريا الرازي عن أوائل اليونانيين قديمة خمسة أشياء منها الباري سبحانه ، ثم النفس الكلية ، ثم الهويولي الأولى ، ثم المكان ثم الزمان المطلقات .

(٩) طبعة لندن ، سنة ١٩١٠م ، صفحة ١٦٣ .

(١٠) هو أبو علي أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي الاصفهاني المتوفي سنة ٤٢١هـ (١٠٣٠م) .

(١١) طبعة حيدر آباد ، سنة ١٣٣٢هـ (١٩١٣م) ، الجزء الأول ، الصفحتان ١٤٤ ، ١٤٥ .

وينكر المرزوقي الأصفهاني على أبي بكر الرازي ما ذهب إليه ، فينتقده بقوله :

« ليس من المعجائب هذيانه في القدماء الخمسة وما يعتقده من وجود العالم لحادث العلة ، وما يدعيه من وجود الجوهريين الأزليين : أعني الخلاء والمدة ، لا فعل لها ولا انفعال ؟ فلو لا خذلان الله إياه ولا فمادًا يعمل بجوهر لا فاعل ولا منفعل ؟

ولم يضع الأرواح المقدسة قبالة الأرواح الفاسدة ، ولم تحدث العلة من غير نقص ولا آفة ، ولم يذكر شيئاً ليس فيه جدوى ولا شمة ؟

ومعني المرزوقي الأصفهاني في نقده لأبي بكر الرازي في موضوع أجبر من كتابته « الأزمنة والأمكنة » حيث يقول<sup>(١٢)</sup> :

« وأعجب من هذا أن الباري غشع لجميع ما خلقه ، وأنه لا يعجزه مطلوب ولا يضاده معلوم .

ثم أقاموا معه في الأزل الهويلي وهو المادة ، ورتبوا معه الصورة ليكون جميع ذلك كالنجار والخشب والتجارة .

والله تعالى يقول : « قل أنتم كنتم تكفرون بالذي خلق الأرض في يومين » إلى قوله : « وذلك تقدير العزيز العليم » ، ولم يقل ذلك إلا وأهل العلم إذا فكروا فيه أدركوا منه الآية اليقينية والحجة الواضحة .

يبين لنا من الكتابات المتضمنة للأراء المنسوبة إلى الرازي في قدم وأولية الهويلي والزمان والمكان ، أنه قد تعرض بسببها لنقد شديد من معاصريه ومن أتى بعده

من الفلاسفة والمفكرين ، حتى أن بعضهم قد اتهمه بالهذيان بل وحتى بالاحاد .

وليست قضية القدم والحادث بمعرضة في حد ذاتها على بساط البحث هنا ، وإنما هي آراء الرازي في ماهية هذه الأشياء الثلاثة التي تعرض لها بالدراسة ، ولنبدأ برأي الرازي في الهويلي .

### الهويلي ( المادة )

ثبت أن للرازي عدة مؤلفات في الهويلي ذكرها أصحاب التراجم ، بيد أننا لم نعثر حتى الآن على كتابات الرازي في هذا المجال اللهم إلا ما ورد عنها في كتاب « زاد المسافرين »<sup>(١٣)</sup> لناصر خسرو<sup>(١٤)</sup> باللغة الفارسية ، ونقدم فيما يلي منتخبات من ترجمته العربية<sup>(١٥)</sup> حيث يورد ناصر خسرو رأي الرازي في الهويلي :

« ليست الهويلي المطلقة سوى أجزاء لا تتجزأ ، بحيث أن يكون لكل واحد ( أي لكل واحد من تلك الأجزاء ) عظم ، لأنه لو لم يكن لكل واحد من تلك الأجزاء عظم لم يحصل بتجميعها شيء له عظم .

وأيضا لا يجوز أن يكون لأي جزء ( يقصد الجزء الذي لا يتجزأ ) من عظم حتى يجوز أن يوجد عظم أصغر مما هو عليه ، وذلك أنه لو كان جزء الهويلي جزء ، لكان الجزء نفسه جسما مركبا ، ولم تكن الهويلي مبسطة<sup>(١٦)</sup> ، مع أن الهويلي التي هي مادة الجسم مبسطة » .

(١٢) نفس المصدر السابق صفحة ١٥٢ .

(١٣) طبعة برلين ، سنة ١٣٤١هـ (١٩٢٢م) ، صفحة ٧٣ وما بعدها .

(١٤) هو أبو المعين ناصر بن خسرو القرني سنة ٤٨١هـ (١٠٨٨م) .

(١٥) من كتاب « رسائل فلسفية ، للرازي ، جمع وتصحيح بول كراوس ، طبعة جامعة نواذ الأول ، سنة ١٩٣٩ ، صفحة ٢٢٠ وما بعدها .

(١٦) أي بسيطة .

أكثر ، ومن أجل هذا صار الماء أخف من الأرض ،  
وصار الماء مضيقاً بينها كانت الأرض كثيفة مظلمة ...  
وأما التفاوت الذي يوجد بين هذه الأجسام من حيث  
الخفة والثقل والنور والظلمة ، فليس سببه سوى تفاوت  
أجزاء هذين الجوهريين في تركيبها ...

كذلك وردت هذه المعاني في كتابات الرازي في  
« العلم الأتم » .

كما تقدم يتضح لنا أن الرازي قد ذهب إلى أن المادة  
تتكون من أجزاء غاية في الصغر ، وأن هذه الأجزاء لا  
تقبل التجزئة ، وأن تفرق تركيب أجسام العالم - في آخر  
أمر العالم - سيتهي إلى تلك الأجزاء التي أطلق عليها  
تسمية الهويي المطلقة .

وإذا ما قارنا هذه الفكرة بما يتوفر لدينا عن النظرية  
الذرية ، لوجدنا - على سبيل المثال - أن قطر ذرة  
الهيدروجين يقرب من واحد من عشرة ملايين جزء من  
الملليمتر ، وأن النموذج المعروف للذرة يتربك من نواة  
تضم عدداً من البروتونات والنيوترونات ، تدور حولها  
- في مدارات ثابتة - مجموعة من الإلكترونات ، وبينما  
تكون النواة موجبة التكهرب ، فإن الإلكترونات  
المحيطة بها سالبة الشحنة ، أما الذرة في مجموعها فهي  
متعادلة من السوجة الكهربائية ، وهناك قوى كهربية  
وميكانكية تحفظ على الذرة نظامها الشبيه بنظام  
المجموعة الشمسية .

ومن المعروف أن انشطار النواة يؤدي إلى إطلاق طاقة  
جسابة ، فإن ذرة اليورانيوم ٢٣٥ مثلاً ( وتضم ٩٢  
بروتوناً + ١٤٣ نيوترون ) ومن هنا جاء الرقم ( ٢٣٥ ) إذا ما  
قذفت بـ نيوترون ، انشطرت النواة وتولدت عن هذا  
الانشطار طاقة كبيرة ، وتتفاعل النيوترونات الناتجة من  
الانشطار بدورها مع ذرات اليورانيوم المجاورة لها مسببة  
سلسلة من الانشطارات النووية .

#### وينسب إلى الرازي قوله :

« إن تركيب الأجسام من تلك الأجزاء التي لا  
تتجزأ ، وسيتهي تفرق تركيب أجسام العالم في آخر أمر  
العالم إلى تلك الأجزاء بعينها ، وهذه هي الهويي  
المطلقة » .

#### وقوله أيضاً :

« إن ما صار من أجزاء الهويي مجتمعاً جداً ، كان  
منه جوهر الأرض ، وما صار أكثر تفرقاً كان منه جوهر  
الماء ، ثم إن ما صار أكثر تفرقاً كان منه جوهر الهواء ،  
وما صار أكثر تفرقاً من جوهر الهواء كان منه جوهر  
النار » .

ويستطد ناصر خسرو في موضع آخر من كتابه « زاد  
المسافرين » ناسباً لابي بكر الرازي قوله :

« إن كفيات الأجسام من ثقل وخفة وظلمة ونور  
وغيرها ، إنما ترجع إلى قلة أو كثرة الحلاء الذي امتزج  
بـ الهويي ، فصار شيء ما خفيفاً وآخر ثقيلًا ، وشيء ما  
مضيئاً وآخر مظلمًا ، لأن الكيفية عرض ، والعرض  
محمول على الجوهر ، والجوهر هو الهويي » .

وفي هذه الجملة التي عرفناها زبدة قول محمد بن زكرياء  
الرازي في الهويي .

« إن محمد بن زكرياء الرازي ادعى أن الهويي  
قديمة ، وأنها أجزاء في غاية الصغر ودون أي تركيب ،  
وأن الباري سبحانه ركب أجسام العالم من تلك الأجزاء  
في خمسة تركيب ، أعني الأرض والماء والهواء والنار  
والفلك » .

ويقول إن ما كان من تلك الأجسام أكثر كثافة صار  
أكثر ظلمة ، وإن تركيب جميع الأجسام من ( اختلاط )  
أجزاء الهويي بأجزاء الحلاء يعني المكان المطلق ، وإن  
أجزاء الهويي في تركيب الأرض أكثر منها في تركيب  
الماء ، وأما أجزاء الحلاء فهي في الأرض أقل ، وفي الماء

ولعل الرازي يقصد أنه « في آخر أمر العالم » فإن الأجسام ستؤول في النهاية إلى تلك الأجزاء التي لا تقبل التجزئة ، والتي أسماها بالهولي المطلقة .

### الزمان

لأي بكر الرازي آراء في الزمان والدهر وردت في مناظراته مع سميه أبي حاتم الرازي كذا فيما نقله عنه ناصر خسرو ، ففي المناظرات التي جرت بين الرازيين ، ترد فقرات تكشف عن رأي أبي بكر الرازي في ماهية الزمان والدهر<sup>(١٧)</sup> ، حيث يجري المناظرة بينهما على النحو التالي :

#### يقول أبو حاتم الرازي :

« وطالبته في مجلس آخر وقلت له : أخبرني ألسن تزعم أن الخمسة قديمة لا قديم غيرها ؟ قال : نعم »

قلت : فإذا نعرف الزمان بحركات الأفلاك ويمر الأيام والليالي وعدد السنين والأشهر وانقضاء الأوقات ، فهذه قديمة مع الزمان أم محدثة ؟

قال : لا يجوز أن تكون هذه قديمة لأن هذه كلها مقدرة على حركات الفلك ومعدودة بطلوع الشمس وغروبها ، والفلك وما فيه محدث ، وهذا قول أرسطاطاليس<sup>(١٨)</sup> في الزمان ، وقد يخالفه غيره ، وقالوا فيه أقاويل مختلفة .

وأنا أقول إن الزمان زمان مطلق وزمان محصور ، فالملحق هو المدة والدهر ، وهو القديم ، وهو متحرك غير

لايث ، والمحصور هو الذي بحركات الأفلاك وجري الشمس والكواكب .

وإذا ميزت هذا أو توهمت حركة الدهر ، فقد توهمت الزمان المطلق ، وهذا هو الأبد السرمدي .

وإذا توهمت حركة الفلك ، فقد توهمت الزمان المحصور .

ويمتد النقاش حول تعريف الزمان المطلق ، وقدم الفلك والعالم إلى أن يبين أبوبكر الرازي موقفه من آراء فلاسفة الاغريق حيث يقول :

« ... » وقد عرفنا أن أرسطاطاليس كان يعتقد ما تقوله أنت وقد خولف فيه ، وقول أفلاطون<sup>(١٩)</sup> لا يكاد يخالف ما نعتقد في الزمان ، وهذا عندي أصوب الأقوال .

ومقتضى المناظرة بين الرازيين ، بيد أننا نكتفي هنا ببيان قول أبي بكر الرازي في الزمان .

ولقد وردت في مجموعة تحتوي على مقالتين للرازي<sup>(٢٠)</sup> فقرة صغيرة بعنوان « ما الفصل بين الدهر والزمان » نصها كما يلي :

« إن الدهر هو عدد الأشياء الدائمة ، والزمان هو عدد الأشياء الزمانية ، وهذان العددان يعدان الأشياء فقط ، أعني الحياة والحركة ، فإن كل عاد إما أن يعد جزءاً بعد جزء وإما أن يعد الكل معاً ، فإن كان هذا على ذلك قلنا : إن الشيء الذي يعد الكل هو الدهر ، والشيء الذي يعد الأجزاء جزءاً بعد جزء هو الزمان .

(١٧) كتاب « أعلام النبوة » ، لأبي حاتم الرازي ، الصفحات ١٢ - ١٤ . وكتاب : الأقوال الذهبية ، لأحمد بن عبد الله الكرماني .

راجع كتاب « رسائل فلسفية » لأبي بكر الرازي ، جمع وتصحيح بول كراوس ، طبعة القاهرة ، سنة ١٩٣٩ م ، صفحة ٢٩٥ وما يليها .

(١٨) هو الفيلسوف والعالم الاغريقي أرسطو أو أرسطاطاليس ، أرى الشهادة الاغريقية بؤلفاته القليلة ، وهو مؤسس مذهب « فلسفة المشائين » .

(١٩) هو الفيلسوف الاغريقي أفلاطون : Plato عاش في الفترة من حوالي سنة ٤٢٧ ق . م . حتى سنة ٣٤٧ ق . م . وكان تلميذاً لسقراط وأستاذاً لأرسطو .

(٢٠) مجموعة خطوط مكتبة راجب باشا باستانبول - رقم ١٤٦٣ ، ورقة ٨٩ ، وتشتمل على مقالتين لأبي بكر الرازي ، كذا على رسائل لأبي علي مسكويه ولأبي خيرا الحسن بن

سوار وغيرهما .



من جملة ما ورد عن مذهب الرازي وآرائه يمكننا أن نخلص إلى أن أبا بكر الرازي قد فرق بين زمانين : زمان مطلق ، وزمان محصور ، ويرى الرازي أن « الزمان المطلق » هو الأبد السرمدي ، أو هو المدة أو الدهر ، وهو قديم ممتد أزلي ، وأما ما أسماه « بالزمان المحصور » فإنه يقصد به الزمان النسبي الذي يقدر بحركة الأفلاك وجري الشمس والكواكب ، وما نحس به من تعاقب الليل والنهار ، وبه صار حساب اليوم والشهر والسنة ، كذا أجزاؤها وأضعافها .

#### المكان :

تتضمن مناظرات أبي حاتم الرازي وأبي بكر الرازي تعريف المكان ، حيث يجري الحديث بينهما على النحو التالي (٢٣) :

« قلت (٢٤) : أخبرني عن المكان ، أم محيط بالأقطار ، أم الأقطار محيط به ؟ »

قال : بل الأقطار محيطة بالمكان .

قلت : كيف لا تعد الأقطار مع الخمسة التي زعمت أنها قديمة ، لأنه إن كان المكان قديماً فقد أوجبت أن الأقطار قديمة معه !

قال : الأقطار هي المكان ، والمكان هي الأقطار ، وهما شيء واحد لا فرق بينهما .

ويستطرد أبو بكر الرازي في موضع آخر من هذه

المناظرة قائلاً :

فقد استبان الآن وصح أن العدد اثنان فقط ، أحدهما يعد الأشياء الدائمة الروحانية وهو الدهر ، والآخر يعد الأشياء الجزئية الواقعة تحت الزمان ، وهو الزمان ، وهو عدد حركات الفلك . »

ولعل هذا القول للرازي أو لأحد المؤلفين الذين ضمت المجموعة بعضاً من تصانيفهم .

ويقول ناصر خسرو في كتابه « زاد المسافر » (٢٥) ما ترجمته بالعربية (٢٦) :

« إن طائفة الحكماء الذين قالوا إن الهسولي والمكان قديمان قرروا أيضاً أن الزمان جوهر ، وقالوا إن الزمان جوهر ممتد وقديم ، وردوا على قول الحكماء الذين قالوا إن الزمان عدد حركات الجسم ، وقالوا لو كان الزمان عدد حركات الجسم لما جاز أن يتحرك متحركان في زمان واحد بعددتين متفاوتتين .

وقال إيران شهري الحكيم إن الزمان والدهر والمدة ليست إلا أسماء يرجع معناها إلى جوهر واحد ، ( وقال ) إن الزمان دليل على علم الله ، كما أن المكان دليل على قدرة الله ، والحركة دليل على فعل الله ، والجسم دليل على قوة الله ، وإن كل واحد من تلك الأربعة غير متناه وقديم ، ( وقال ) إن الزمان جوهر منتقل بغير قرار ، وأما قول محمد بن زكرياء - الذي جاء بعد إيران شهري - فهو أنه قال إن الزمان جوهر يجري . »

(٢١) طبعة برلين ، سنة ١٣٤١هـ ، صفحة ١١٠ - ١١٣ .

(٢٢) من كتاب « رسائل فلسفية » لأبي بكر الرازي ، جمع وتصحيح بول كراوس ، طبعة القاهرة ، سنة ١٩٣٩م ، الصفحات ٢٦٦ - ٢٧١ .

(٢٣) كتاب « أملاك النبوة » لأبي حاتم الرازي ، الصفحات ١٤ - ١٧ . وراجع كتاب « رسائل فلسفية » لأبي بكر الرازي ، جمع وتصحيح بول كراوس ، طبعة القاهرة ، سنة ١٩٣٩م ، الصفحات ٣٠٥ - ٣٠٧ .

(٢٤) هذا القول لأبي حاتم الرازي .

« فإني أقول في المكان أيضا إنه مكان مطلق ، ومكان مضاف .

والمكان المطلق مثاله مثال الوعاء الذي يجمع أجساما ، وإن رفعت الأجسام عن الوعاء لم يرتفع الوعاء ، كما لو أننا رفعا الفلك عن الوعاء لم يرتفع الشيء الذي هو فيه عن الوعاء بل هو باق في الوعاء ، كالدن الذي يفرغ من الشراب ، فارتفع الشراب عن الوعاء ولم يرتفع الدن بة .

والمكان المضاف إما هو مضاف إلى المتمكن ، فإذا لم يكن المتمكن لم يكن مكان ، وهذا مثل العرض الذي إذا رفعت عن الوعاء ارتفع الجسم ، كما أنك إذا رفعت الخط عن الوعاء ارتفع السطح عن الوعاء .

وينهي أبوبكر الرازي حديثه حول المكان بقوله :

« ... والذي أقوله أيضا في باب المكان هو قول أفلاطون ، والذي قد تثبت به أنت هو قول أرسطاطاليس .

وأما أنا فقد وضعت في المكان والزمان كتابا ، فإن أردت الشفاء في هذا الباب فانظر في ذلك الكتاب » .

ولعل الرازي يشير هنا إلى مقالته « في الزمان والمكان والمدة والذهب والحلاء » التي ورد ذكرها في مؤلفه « كتاب السيرة الفلسفية » كما تقدم بيانه .

هيئة العالم وحركته :

تعرض الرازي بالدراسة للعالم الخارجي المحيط بكوكبنا الأرضي وألف في ذلك عدة مصنفات منها مقالته « في شكل العالم » أو كتابه « هيئة العالم » ، ومقالته « في

سبب تحرك الفلك على استدارة » ، وفيها ينادي الرازي بكروية الأرض ، ويأن الأرض تفوق القمر في الحجم ، بينما هي ثقل بكثير عن جرم الشمس ، ولقد كان الرازي من أنصار الرأي القائل بوقوع الأرض في مركز العالم ، كما يبين ذلك في مقالة له بعنوان « في سبب قيام الأرض في وسط الفلك » ، وهو ولا شك اعتقاد خاطيء .

#### الثقل النوعي للمواد

اهتم الرازي بدراسة الثقل النوعي للمواد ، أي بتعيين ثقل حجم معين من المادة منسوباً إلى ثقل نفس الحجم من الماء ، ويرجع السبب في اشتغال الرازي بهذا الموضوع إلى رغبته في إيجاد وسيلة علمية يمكن بها التمييز بين معدني الذهب والفضة ، ومن ثم كان كتابه « في حمة الذهب والفضة والميزان الطبيعي » ، ومن المعروف أن الثقل النوعي للذهب يفوق بكثير الثقل النوعي للفضة ، ومن هذا التباين يمكن التفرقة بين الذهب والفضة .

#### كيفية الابصار

لأبي بكر الرازي مصنف بعنوان « في كيفية الابصار » وهو كما يدل عليه عنوانه بحث في كيفية إدراك المبصرات ، ولقد كان الفكر السائد قبل الرازي - كما جاء في المصادر الاغريقية - أن الابصار يحدث نتيجة خروج شعاع ضوئي من العين إلى الجسم المرئي ، فجاء قول الرازي لينقض هذا الزعم ويقدم النظرية الصحيحة للابصار ، ويقوم على خروج الشعاع الضوئي من الجسم المبصر إلى العين حيث يتم الإدراك البصري ، وبذلك يكون لأبي بكر الرازي فضل السبق إلى بيان كيفية الابصار .

### خلاصة البحث

والفضة ، كذلك سبق الرازي الى بيان النظرية الصحيحة لكيفية الابصار حيث خالف قول الاغريق بتقريره أن الابصار يتم بخروج شعاع ضوئي من الجسم الى العين ، مسجلا بقوله هذا سبقا واضحا على كل من الشيخ الرئيس ابن سينا ورائد علم البصريات الحسن بن الهيثم .

ان ما تم كشف النقاب عنه من أعمال أبي بكر الرازي لا يعدو النذر اليسير ، وإن المهتمين بالحضارة العربية ليتطلعون بشوق زائد الى مزيد من الدراسات الجادة للتراث العلمي العظيم الذي قدمه العالم الفيلسوف الطبيب أبو بكر الرازي لحضارة الانسان ، ذلك المخلوق الذي نفخ الله فيه من روحه وعلمه ما لم يعلم .

يعرض هذا البحث لأحد عمالقة العلم العربي ، هو الحكيم أبو بكر محمد بن زكريا الرازي ، الذي عاش في النصف الثاني من القرن التاسع وأوائل القرن العاشر للميلاد ، وقد وهب الرازي حياته للعلم والمعرفة فتفانى في طلبها أصدق تفان ، وخلف وراءه ما يقرب من مائتي رسالة ومقال في الطب والأقرباذين والطبيبات والكيمياء والفلك والفلسفة والمنطق وغيرها من فروع المعرفة المختلفة .

وتقتصر دراستنا هذه على جهد الرازي في مجال الطبيات فحسب ، حيث نقدم دراسة مقتضبة لأراء الرازي في ماهية الحيولي والمكان والزمان ، وهي أمور كانت تحتل مكانا هاما في الفلسفة الطبيعية عند العرب ، ولقد أولى الرازي اهتمامه لموضوع الثقل النوعي للمعادن في محاولة علمية للتمييز بين معدني الذهب

\*\*\*

## مصادر البحث

### (أ) المصادر العربية

- (١) كتاب : الفهرست ، أحمد بن إسحق التميمي ( تم تأليفه عام ٩٨٨ م ) طبعة القاهرة : مطبعة الاستقامة عام ١٩٢٩ م .
- (٢) كتاب : إخبار العلماء بأخبار الحكماء ، بجمال الدين أبي الحسن القفطي ، طبعة القاهرة : مطبعة الخانجي ، سنة ١٣٢٩ هـ ( ١٩٠٨ م ) .
- (٣) كتاب : هيون الأنبياء في طبقات الأئمة ، طبعة بيروت : دار الفكر ، سنة ١٩٥٦ م .
- (٤) كتاب : رسائل فلسفية ، لأبي بكر محمد بن زكرياء الرازي ، جمعها وصححها المستشرق بول كراوس جامعة فؤاد الأول - كلية الآداب - المؤلف رقم ٢٢ . مطبعة بول باريه - القاهرة ، الجزء الأول ، سنة ١٩٣٩ م .
- (٥) رسالة في فهرست كتب محمد بن زكرياء الرازي ، لأبي الريحان البيروني . إعداد بول كراوس ، القاهرة / باريس ، عام ١٩٣٦ .
- (٦) كتاب : تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة ، لأبي الريحان البيروني ( يعرف أيضا بالعتوان المختصر : تاريخ الهند ) نشره اديوارده سخاوي في لندن عام ١٨٨٧ م . ونشره مترجما إلى الإنجليزية في جزئين عام ١٨٨٨ م . كما ظهرت طبعة جديدة منه في لندن عام ١٩١٠ م .
- طبعة دائرة المعارف العشائية بمحيط أدب التنك بالهند عام ١٩٥٧ م . وظهرت طبعة نيودلهي ( شاند وشركاه ) عام ١٩٦٤ م .
- (٧) د شيخ الأطباء : أبو بكر محمد بن زكرياء الرازي ، في كتاب : الفلاسفة المسلمون ، تأليف اسماعيل حطفي ، الأزهرية . مطبعة الأوقاف الإسلامية باستانبول ، عام ١٣٤١ هـ ( ١٩٢٢ م ) .

### ( ب ) المصادر الأجنبية

- (1) P. kraus :  
'Epître de Beruni contenant le repertoire des ouvrages de Muhammad b. Zakariyya al Rasi,' paris, 1936.
- (2) J. Rusha :  
'Al — Biruni als Quelle fur das Leben und die Schriften al — Razis's'' ISIS,5, (1923), 26 — 50.
- (3) S. pines :  
'Beitrage zur islamischen Atomenlehre,' Berlin, 1936.



تباينت آراء العلماء العرب في تحديد أساس مفهوم العلوم الطبيعية ؛ فمنهم من نظرو اليها نظرة فلسفية باعتبارها تحدد القانون الطبيعي بقضيته الفلسفية وجوهره ، فالفارابي مثلا يعرفها « بأنها العلوم التي تنظر في الأجسام الطبيعية ، وفي الأعراض التي قوامها في هذه الأجسام ، وتعرف الأشياء التي عنها والتي لها ، والتي بها توجد هذه الأجسام والأعراض التي قوامها فيها<sup>(١)</sup> » . ويشتمل العلم الطبيعي عند الفارابي على ثمانية أجزاء ينقلها عن أرسطو وهي ، السماع الطبيعي وكتاب السماء والعالم ، وكتاب الكون والفساد والآثار العلوية ، والمعادن والنبات ، والحيران والنفس .

أما ابن خلدون فيراه « علما يبحث عن الجسم من جهة ما يلحقه من الحركة والسكون ، فينظر في الأجسام السماوية والعنصرية ، وما يتولد عنها من حيوان وإنسان ونبات ومعادن ، وما يتكون في الأرض من المعيون والزلازل ، وفي الجو من السحاب والبخار والرعد والبرق والصواعق وغير ذلك ، وفي مبدأ الحركة للأجسام وهو على تنوعها في الانسان والحيران والنبات<sup>(٢)</sup> » . وعرفه طائش كبرى زاده بأنه « علم يبحث في أحوال الأجسام الطبيعية بأنواعها ، وموضوعه الجسم ، من حيث كونه متغيرا<sup>(٣)</sup> » .

كانت العلوم الطبيعية اليونانية مجرد نظريات تستند الى الأفكار الفلسفية وتقوم على منهج عقلي استنباطي ، لأنها اقتصرست على الحركة ، ومؤداها أن الأشياء تتحرك ، وعلى الانسان أن يتصدى لهذه الحركة . ولما أخذها العرب درسوها دراسة علمية تستند الى التجربة

## الفيزياء والحيل عند العرب

محمد عيسى صالحيه

أستاذ مساعد - قسم التاريخ  
جامعة الكويت

(١) الفارابي : احصاء العلوم ، ٩١ ، حزين على محفوظ : مؤلفات الفارابي ، ١٩٣ ، ٢٥٥ ، ٢٨٩

(٢) ابن خلدون : المقدمة ، ٩٢

(٣) طائش كبرى زاده : مفتاح دار السعادة ،

وتطبيقاتها ، وصناعة الألوان العجيبة بأنواعها المختلفة .

- دراسة الصوت .

- دراسة الضوء والبصريات .

- علم السوائل .

- دراسة الجاذبية الأرضية والمد والجزر .

- فيزياء الغازات والرياح .

- أبحاث المغناطيس والبوصلة والرقاص .

- الآلات الحربية ( كالمجنق والبارود ) .

وأهم بحوثهم النظرية في الفيزياء كانت :

- البحوث في القوى .

- البحوث في الحركة .

وكان من أهم بحوثهم العملية المتميزة :

- إقامة الساعات لحساب الزمن .

وقبل أن نبحث إنجازات العرب المسلمين في هذه الميادين ، فالتنا نسجل بأن العرب قد أعطوا العلوم الطبيعية ( الفيزياء والحيل ) المنهج الصحيح في البحث العلمي ، بأن خلصوها من الشوائب التي ما فتئت تكدرها ، وذلك بطرح أساطيرها واعتماد منهج موضوعي في فك مغالبتها ، إذ نفوا الخرافات وحاربوها ، فقد تصدى ابن حزم مثلاً للزعم القائل أن الفلك والنجوم تعقل وأنها ترى وتسمع وأثبت أنها دعوى بلا برهان<sup>(٤)</sup> ، ورفض العلماء العرب الادعاء بأن أثمار النيل وجحون والفرات تخرج من الجنة ، وتسقي جميع المعمورة وردوها إلى أهلها وغيرها من الخرافات ، ورافق ذلك سعة اطلاع غداً دستوراً علمياً صحيحاً ،

والملاحظة ، ومن ثم وضعوا لها القواعد والأصول الكثيرة ، وخلقوا بذلك علم الطبيعة التجريبي ، فجاءت النتائج والدراسات دقيقة وواضحة مبدعة بدرجة كبيرة ، حتى أنها لا تختلف في بعض المجالات عن النتائج العملية التي توصل إليها العلم الحديث<sup>(٥)</sup> .

ومن الجدير بالذكر أن السريان لم يؤلفوا في العلوم الطبيعية كتباً منفردة عدا الأسف الرهاوي ، الذي صنف كتاب « علّة كل العلل » في النصف الثاني من المائة العاشرة ، وعليه فإن المراجع اليونانية التي نُقلت أو فسرت بالعربية ، كادت أن تكون المرجع الأساسي لتزويد العلماء العرب بأوليات العلم ، الذي توسع العرب فيه ، وأضافوا إليه فيما بعد ، وأوجدوا طرقاً متعددة طبقت في أبحاث العلوم الطبيعية ، ومن تلك الكتب الطبيعية التي ترجمت مبكراً ، كتاب الفيزيكن لارسطاطليس ، وكتاب الحيل الرومانية ، وكتاب رفع الأثقال لأيرن ، وكتاب الدواليب ، والآلات المصنوعة على بعد ٦٠ ميلاً لمورطس ، وخاصة كتابي الأرغن البوقي ، والأرغن التزمري ، وكتب قطزيناوس وهيرون الاسكندردي في الآلات المفرغة للهواء والرافعة للمياه ، وكتاب الثقل والخفة لافيلدس ، وكتاب ساعات الماء التي ترمي بالبندق لأرشميدس<sup>(٦)</sup> .

ونتيجة لدراسة العرب لهذه الآثار ، استطاعوا أن يزيدوا عليها زيادات تعتبر أساساً لبحوث علم الطبيعة المتنوعة بما طوروه وإبتكروه من آلات منذ وقت مبكر فبدت ميادين علم الطبيعة مثقلة فيما يلي :

- علم الحيل أو الميكانيك ، وتشمل مراكز الثقل

(٤) كماله : العلم البحت في المصدر الإسلامية ، ٢١٦ ، مرجعاً : المرجع في تاريخ العلوم ٣٢٢ .

(٥) ابن النديم : الفهرست ، ٢٤٧ - ٢٥٩ ، الفقهاني : صبح الاعشى ، ١٦١/٢ ، سارون : تاريخ العلم ، ٣٣٥/٥ .

(٦) ابن حزم : الفصل في المثل والنقل ، ٣٦/٥ ، محمد بن يوسف العمري : الأمد على الأبد ، ٦٨ ، ١١٩ - ١٢١ .

ومن المؤكد أن العرب قد أطلوا على هذا العلم متقولا عن اليونانيين وزادوا عليه وطوره ، وبرز أبناء موسى بن شاكر ( محمد ، أحمد ، الحسن ) . كاشهر من كتبوا في هذا الفن<sup>(١٠)</sup> ، وعلى الأخص ، أحمد بن موسى ، الذي نبغ كمقالية خلاقة مبدعة ، بابتكاراته العديدة التي وصفها بأنها « أوضاع غريبة وأشياء عجيبة في جر الأثقال ، وكلها عملت بالطليات والبكر »<sup>(١١)</sup> ، فقد اخترع أجهزة تمتلئ تلقائيا كلما فسرغت من السوائل ، كدنان الخمر التي تفرغ كمية محدودة من ذاتها تعقبها استراحة محدودة ، وقناديل ترتفع فيها الفتائل ، ويصب الزيت فيها تلقائيا كلما أتت النار على جزء منها<sup>(١٢)</sup> ، واخترع أيضا آلات لخدمة الزراعة والفلاحة ، مثل المالعاف المخصصة لحيوانات ذات أحجام خاصة ، تتمكن أن تصيب مأكلا ومشرها ، فلا تنازعها غيرها الطعام والشراب ، وآلة أخرى تثبت في الحقول وتصدر أصواتا خاصة ، كلما ارتفع مستوى الماء في الحقول ، لئلا تضيع كميات الماء هدرا ، ويمكن بواسطتها السيطرة على عملية ري المزروعات ، وركب نافورات خاصة تندفع مياهها على أشكال مختلفة وصور متباينة<sup>(١٣)</sup> .

ان الاطلاع على الكتاب الموسوم « بحيل بني موسى » حيث جمعت اختراعات أحمد بن موسى بين التطور الميكانيكي لآباده<sup>(١٤)</sup> ، يعطي صورة واضحة

وصاحبه بحث وتقريب ميداني من خلال الرحلات التي كانت ضرورية من ضروريات العلم عند العرب ، فكانوا يسافرون للقاء أهل العلم والمعرفة والأخذ عنهم علما وتعلينا والقاء وحكاة وتلقينا<sup>(١٥)</sup> . كما جعل علماء العرب التجربة منهاجا مهما في دراستهم الفيزيائية ولعل مطالعة قصة حي بن يقظان ، وآراء ابن طفيل في الموازنة بين النبات والحيوان والمقارنة بينهما في الخلق ، تؤكد جدية العرب في التجربة والمراقبة العملية الميدانية<sup>(١٦)</sup> .

وحتى نلم باطار الصورة ، أرى أن نعرض لانجازات العرب ببعض الميادين التي أشرنا إليها سابقا .

### علم الحيل ( الميكانيك )

أطلق اليونانيون على العلم المخصص للأجهزة الميكانيكية اصطلاح « نيوماتيك » ، وعربه العلماء العرب باسم « علم الآلات الروحانية وعمل الحيل » وعرفوه « بأنه علم الآلات الروحانية ، المبنية على ضرورة عدم الاخلاء ، كقذح العذل وقذح الجود ، وغيرها من آلات الشراب ، ومنفعته ارضاء النفس بغرائب هذه الآلات » ويبدو جليا ، أن أكثر هذه الآلات توضح أنواعا من الحيل المبنية على المبادئ الميكانيكية المنسوبة لهرون الاسكندري وغيره من علماء اليونان<sup>(١٧)</sup> .

(٧) فروغ : عبقريّة العرب ٨٨٢

(٨) نفس المرجع السابق ، ٩٦

(٩) الشفس : مقدمة لعلماء الفيزياء في الحضارة العربية الإسلامية ، ٢٢٣ ، وجام الجود : انه يملأ شرابا وينكس ، فلا ينصب منه شيء فيوم الغراب انه استولى عليه ، أما

جام العذل لاذ صب منه فوق المقدار فرغ كل ماله

(١٠) زبدان : تاريخ دأب اللغة العربية ، ٢٨٦/٣

(١١) الصفدي : الوافي بالوفيات ، ٨٤/٥

(١٢) Donald, R. Hill : the Genius of Arab civilization. P.137.

(١٣) مرصبا : المرجع ، ٣٥٣

(١٤) نفس المرجع السابق ونفس الصفحة

لتقدم علم الميكانيك عند العرب . وعلى أي حال ،  
فيمكن أن نقسم المؤلفات العربية في الحيل الى قسمين :  
الأول : يبحث في مراكز الأثقال وجو الأجسام بالقوة  
السيرة .

والثاني : يبحث في آلات الحركات ، وصناعة الآواني  
العجيبة ، وآلات هذه الصناعة .

أما مركز الثقل عندهم « فهو العلم الذي يتعرف منه  
كيفية استخراج مركز ثقل الجسم المحور باعتباره حدا في  
الجسم ، يتعادل نسبيا مع الحامل » ، ومن ألف فيه أبو  
سهل الكوهي ، ونظريته مثبتة رياضيا<sup>(١٥)</sup> . وقد أدى  
بهم التعمق في دراسة مركز الثقل الى الاهتمام بالموازين  
درسا وصنعا وتأليفا ، اذ يعتبرون العمل بالميزان من  
عجائب النسبة . وكان أن وضع ثابت بن قرة  
ت ٢٨٨هـ / ٩٠٠م أبيحاثا في صفة استواء الميزان  
والوزن واختلافه وشرائطه ، ففي كتابه ( القرسطون -  
القبان ) . أتى بنظرية ، تعتبر من أهم نظريات العصور  
الوسطى ، وملخصها « ان الرافع يمتك في حالة  
الاتزان ، اذا وضعنا على أحد ذراعيه عمودا ثقيلا ممتدا  
على أحد ذراعي العمود ، ثم استبدلنا هذا العمود  
بثقل ، وزنه مساو لثقل العمود ووضعناه على نصف  
المسافة التي كان العمود ممتدا عليها وهذه النظرية تقترب  
من حساب التفاضل والتكامل في عصرنا .

اهتم العرب بدراسة الموازين ، فاخترعوا أدقها ،  
واستعملوا لموازينهم أوزانا متنوعة دقيقة ، وكان الفرق

بينها لا يصل الى ٠،٠٠٤ ، وهذه النسبة الدقيقة لا  
يمكن الوصول اليها الا باستعمال أدق الموازين الكيميائية  
الموضوعة في صناديق من زجاج ، لا تؤثر فيها تجمعات  
الهواء .

ومن الذين ألفوا في الميزان بالاضافة الى أبناء  
موسى بن شاكر ، وثابت بن قرة ، برز أبوسهل  
الكوهي ، والفارابي ، وقسطا بن لوقا ، وابن سينا  
والحسن بن الهيثم ، وابن جامع والجلدي . ويعتبر  
كتاب عبد الرحمن بن نصر المصري ، أحسن ما وضع في  
العصر الأيوبي ، فقد أعده للمحتسب لمراقبة الأسواق  
أيام صلاح الدين . ومن الجدير بالذكر أن كتاب  
« الميزان الطبيعي » الذي صنفه الرازي ت ٣٢٠هـ /  
٩٣٢م ، يحظى بميزة مرموقة في تقديرنا ؛ فهو أول  
كتاب استقل في نهج عن أبحاث اليونان في علم  
الميزان ، فقد خالف في صناعته وعمله قرسطون  
أرشميدس ، فهو يستعمله والكفتان خارجتان عن  
الماء ، وكلتاها مملوءتان مترعتان ، ونقصان الماء من كل  
كفة منها يقدر مساحة الجرم الذي فيها بينما أرشميدس  
يستعمل الكفتين وكلتاها في الماء غائصتان ، وهو ذو  
شعيرات<sup>(١٦)</sup> . وقد جعل الرازي فصوله الثلاث  
تشتمل على :

- في العمل بالميزان .

- بيان الميزان الطبيعي .

- وضع شعيرات النسبة عليه<sup>(١٧)</sup> .

(١٥) الفيلسوف : صبح الأمشي ، ١٧٦/١

(١٦) حكمت لجيب : دراسات في تاريخ العلوم ، ٢٩٠

(١٧) الحازني : ميزان الحكمة ، ٨٣



(معصرة للزياتين) . كلها تعتمد على نقط الارتكاز والمحاور بعد الضغط عليها من الطرف الآخر<sup>(٢١)</sup> .

### في آلات الحركات وصناعة الأواني المعجية :

ونعني بها الآلات والأواني التي ابتكرها العلماء العرب للمنتفعة العامة كتدبير المنزل أو آلات الحرب والري والآلات الفلكية والساعات أو للتسلية كالدسي التي تتحرك وحدها أو التي تكشف حيل المشعوذين ، وتقوم هذه الآلات على الحركات الميكانيكية الناتجة من ذات الآلة ومن الماء أو من الرمل ، وكنا قد أشرنا إلى تفوق بني موسى ، وخاصة أحمد في هذا المجال ، ونوهنا بأهمية آلاته التي جاوزت المائة ، وعظيم فائدتها في دفع العلم الميكانيكي .

وبالإضافة إلى كتاب حبل بني موسى ، فإن هناك مجموعة من المؤلفات عُثِيت بوصف الآلات الميكانيكية ، وأعطت رسوماً توضيحية ، تبين طريقة صنعها وكيفية عملها ولعل من أهمها كتاب « الحيل أو الجامع بين العلم والعمل » لأبي العز بن إسماعيل بن الرزاز الجزري ت ٥٢٩هـ / ١١٣٤م . وقد أولى فيه بديع الزمان الجزري اهتماماً خاصاً بالمسائل العملية لعلم الهيدروليكا والآلات المتحركة بذاتها<sup>(٢٢)</sup> ، وقد ألفه للملك الصالح محمد بن قرأ أرسلان من آل أرتق بديار بكر في النصف الثاني من القرن ٦هـ بعد عمله في بلاط بني أرتق قرابة ٣٥ سنة ، وحرى الكتاب صورا للبنكام الذي يعرف به ما مضى من ساعات النهار ،

أما كتاب « ميزان الحكمة » الذي وضعه عبدالرحمن الخازني ، فهو من الكتب المعتمدة في علم الطبيعة ، بل وأهم ما ألف في (mecanique) علم الميكانيكا والحيل وموازنة السوائل ، إذ يشتمل على نظرية الثقل والكثافة ونظرية الروافع ، وتطبيقات للميزان ، وطرق لقياس الزمن ، ويضاف إلى ذلك ، أنه من أكثر الكتب استفاء لبحوث الميكانيكا . ومن دراستنا لكتاب ميزان الحكمة ، نرجح أنه كان لدى الخازن آلات خاصة لحساب الوزن التسويحي ، وأخرى لقياس حرارة السوائل<sup>(٢٣)</sup> . بل أنه ضمن كتابه مصورا لآلة مركبة من عدة أعضاء ، وبها خمس كتفات توزن بها الأشياء في الهواء والرطوبات ، وتتحرك على ذراع واحد<sup>(٢٤)</sup> .

ومن ناحية ثانية ، فقد كان للعرب بحوث نفيسة في الروافع ، وكان لديهم عدد غير قليل من آلات الرفع ، ومع أن فضل اليونان لا ينكر في هذا المجال ، وخاصة إيرن إلا أن العرب ابتدعوا روافع سهلة العمل ، قليلة التعقيد ، وكتاب « الجامع بين العلم والعمل النافع في صناعة الحيل » للجزري ضم صورا عدة لتلك الروافع وشرح طريقة عملها . وتفوق على ما سواه ، وليس معنى ذلك أنه الكتاب الوحيد في هذا المجال ، فقد صمم أمانة بن عبدالعزيز بن أبي الصلت ت ٥١٢ / ١١٣٤هـ آلات بأشكال هندسية ، واستعملها لرفع الأثقال<sup>(٢٥)</sup> . وهناك آلات بسيطة جعلت لجر الأجسام بالقوة السيبرة ، شرحها الخوارزمي في كتابه ، مفاتيح العلوم ، ومنها البرطيس والمخل والبيرم وأبوغليون والثقل واسقاطسولي والأسفين واللوب وغسالاغرا

(٢٨) للدوسلي : العلم عند العرب ، ٣٠٥

(٢٩) ماجد الشمس : مقدمة لعلم الميكانيك ، ٤١ - ٤٢

(٣٠) مجلة تاريخ العلوم العربية ، حلب ، السنة الأولى ، المجلد الأول ، ١٩٧٧ ص ٥٦

(٣١) الخوارزمي : مفاتيح العلوم ، ١٤٢

(٣٢) الدوسلي : العلم عند العرب ، ٣٠٥ ، مجلة تاريخ العلوم ، ١٩٧٧ ص ٥٦

وصورا لآلات رفع الماء ، وآلات سرية تظهر حركات مذهشة ، كرجل يندق ساعة أو رجل يمشي أو يتحرك ، ورسوما إيضاحية لتركيب الدمى وحركاتها وأشكالها كما أن الكتاب يعد مرجعا هاما لدراسة الساعات عند العرب ، وطرق صنعها وعملها<sup>(٢٣)</sup> .

ووضع عبدالرحمن الخازني ت ١١١٢هـ / ١١١٨م ، كتابا في الآلات العجيبة تعرض فيه لعمل آلات الرصد ، وعرف فيه أيضا علم الهيئة ، وكانت تلك الدراسات هي التي مهدت لاختراع البارومتر .

وكان البيروني ت ٤٤٤هـ / ١٠٥٢م قد ذكر في كتابه « الآثار الباقية عن القرون الخالية » بعضا من الآلات ، ووصف طريقة عملها ، وخاصة آلات رفع المياه الجوفية من الآبار والعيون ، ومن المعلوم أن للبيروني دراسات مهمة في السوائل والمطر والسحاب والضباب والنقل النوعي ، وتشكل المياه في باطن الأرض وغيرها .

وصنف مجهول لعله أبوعامر ( أحمد الأندلسي ) ، كتاب « الباهر في عجائب الخيل » ويعرف أيضا « بكتاب الباهر في التارنجات » ، وصف فيه أنواعا من الدمى تتحرك بما يشبه أعمال الحوارة ، قصد به الكشف عن حيل بعض المشعوذين ، كسادخال البيضة في الزجاج ، والعباب الأقداح وإخفاء الخواتيم وغيرها<sup>(٢٤)</sup> .

وعقد الخوارزمي في كتابه « مفاتيح العلوم » فصولا لصناعة الحيل ، وأقر فصلا خاصا سماه « في حيل الماء وصنعة الأواني العجيبة »<sup>(٢٥)</sup> ، هذا بالإضافة إلى

المؤلفات التي بحثت في الساعات وعملها ، وآلات الحرب التي ترمي البندق وغيرها . أما تقي الدين الراصد ت ٩٩٤هـ / ١٥٨٥م ، فقد كان كتابه « الطرق السنية في الآلات الروحانية » إجمالا لهذه الآلات وأشكالها وأنواعها<sup>(٢٦)</sup> .

وأخيرا فقد نشر المستشرق الفرنسي كارا دي فو كتابا عربيا في الميكانيكيات « الحيل الروحانية غايبا لنساء » ويعتقد أنه لفيلون<sup>(٢٧)</sup> ، وهو مفقود باليونانية إلا أنه محفوظ بنصه العربي ، كما أن قسبا صغيرا منه موجود باللاتينية نقلا عن النص العربي ، وقام Valentin Rose بنشر النص اللاتيني في Anecdota graeca et graecolatina ٢٨١ - ٣١٤م ، بـ برلين ١٨٧٠م . ثم أعاد Wilhelm Schmidt طبعه De ingenis Spiritualibus وباللاتينية والألمانية ، وبارون كارا دوفو باللغة العربية والفرنسية .

Le Livre des appareils pneumatiques et des machines hydrauliques, Notices et extraits de MSS de la Bibliothèque Nationale, 38,211,pp,paris, 1092.

ومن هذه الآلات التي ابتدعها العلماء العرب ما يلي :

- آلات بني موسى للتدبير المنزلي ، مثل المالف والمشارب وتخزانات الحمامات ، ودنان الحفر التي

(٢٣) زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ، ٣ / ٢٧٤

(٢٤) نفس المرجع السابق ونفس الصفحة

(٢٥) الخوارزمي : مفاتيح العلوم ، ١٤٣ - ١٤٥

(٢٦) توجد نسخة من المخطوطة في جنسبري تحت رقم ٥٢٩٢ اشار اليها حسن الحسن في كتابه عن تقي الدين الراصد

(٢٧) مجلة الشرق ، السنة السابعة ص ٢٦٥

أبي القاسم عبدالغني بن مسافر (علم الدين الحنفي) ٥٦٤هـ - ٦٤٩هـ / ١١٦٨ - ١٢٥١م . حيث ارتبط اسمه « بفن السواقي » وكان علم الدين الحنفي قد خدم أمير حماة ، وأنشأ له النواعير على نهر العاصي (٣١) .

وامتدت ابتكاراتهم الى صنع الأواني العجيبة ، أي الأوعية الصغيرة التي تدخل في الأعمال المخبرية ، كالأنابيب الزجاجية والبواتق والدوارق ، وأدوات الرفع البسيط وغيرها . فالرازي ت ٣٢٠هـ / ٩٣٢م ، مثلاً يصف ما يزيد على عشرين جهازاً ، منها الزجاجي ، ومنها المعدني (٣٢) .

ومن ناحية ثانية ، فقد وصف الخوارزمي ، صناعة الأواني العجيبة التي تتحرك بحيل الماء ، كالاجانة التي توضع فوق الماء ، وتعلق بها خيوط ، كما تعلق بكفة الميزان ، وتشد بتلك الخيوط الأجسام التي يراد حركتها ، فكلما امتلأت الاجانة ، رسبت في الماء ، وجرت الخيوط ، وما يتعلق بها ، فيحدث لذلك حركة تختلف أشكالها بالمراد منها (٣٣) . ومن هذه الأدوات والأواني التي وصفها الخوارزمي نذكر ، الأواني السحارة ، والسحارة المخنوقة التي تعمل في جام العدل ، والكوز المغريل السفلى ، والببثون ، والمليار أو المينار ، ( اناء كبير يسخن فيه الماء ) وسرن الرحي ، وبركار السرن ، والقطارات ، والخناتات ( آلات تعمل فتحن مثل صوت المعازف والمزامير والصفارات وغيره

تسكب القليل ثم تنقطع فترة ، والقناديل التي ترتفع فتألقها وزيتها تلقاها ، وآلات مرصد سامراء ، ذات الشكل الدائري ، والتي تحمل صور النجوم ورموز الحيوانات ، وتدار بقوة مائية (٣٤) ، وإذ كلما غاب نجم من السماء ، اخضت صورته من الآلة ، وهذا يتطلب معرفة دقيقة في علم الفلك ، ومهارة فائقة في علم الميكانيكا تتميز بالخيال الخصب والأفكار العلمية التي تبرز منها الدقة والتعمق والموضوعية العلمية (٣٥) .

ومن الجدير بالذكر ، أن ابتكار الأدوات الفلكية ، كان فنا متقدما عند علماء الفلك العرب ، وقد أدت آلاهم الفلكية الغرض المرجو منها ، مما أوجب الاستمرار في استعمال بعضها حتى في عصرنا الحديث ، كآلة السدس والربع والاسطرلاب وغيرها .

- آلات رفع الماء : الروافع والنواعير

ومن هذه الروافع ، آلات ترفع من غمرة وبئر ليست بعميقة وبئر جار ، وآلات ترفع من ماء من غمرة الى مكان مرتفع بداية تدير سها ، وروافع للماء من غمرة أو بئر تديرها دابة ، وآلات أخرى في بركة ، وسطها عمود مجوف ، عليه قرص ، يعلوه تمثال بقرة تدير دولاباً بأربعة وغيرها من الآلات ، ومن أشهرها مضخة ابن الرزاز الجزري ، والتي تعد الجسد الأقرب للآلة البخارية (٣٦) .

وعلى الأنهار ركبوا النواعير ، وقد عرف بها قيصربن

(٢٨) جورج سارتون : تاريخ العلم ، ترجمة ليف من العلماء ، ٢٤٠/٥

(٢٩) حكمت نجيب : دراسات في تاريخ العلوم ، ٢٩١

(٣٠) مجلة تاريخ العلوم ، حلب ، العدد الأول ، ٥٦

(٣١) الدوميلي : المعلم عند العرب ، ٣٠٦ ، حكمت نجيب : دراسات ، ٢٩١ ، ولقد وزعت نماذج لوسائل الري التي استخدمت في الأساس -هـ- في كتاب

The Genius of Arab Civilization PP.181.184. ومنها مقياس النيل عند الروضة

(٣٢) ماجد الشمس : مقدمة العلم ، ٤١

(٣٣) الخوارزمي : مفتاح العلوم ، ١٤٣

والنضاحات والفسارات ، والمقاط القلس والشاقول (٣٤) .

وهناك نوع من هذه الآواني تكون على هيئة الأنايب والبرايخ - أنابيب الفخار والقنوتات - ومنها ، المي دزد ( سارق الشواب ) ، وهو اناء مملأ شراباً وينكس ، فلا ينصب منه شيء فيوهم الشارب أنه استوفى ما فيه ويسمى جام الجود وضده جام العدل ، لأنه إذا زيد فيه شيء يفوق المقدار ، انصب ما فيه كله (٣٥) ، وكذلك المهندم ، وياب مطحون وياب المدفع ( المستق ) وآلة الدبة ، وهي آلة من نحاس أو غيره مجوفة ولا تمتص بها البتة ، وتوضع في سطل أو نحوه ، ثم يصب في السطل ماء صبا وقيقا ، فكلما ازداد الماء ، طفت تلك الآلة ، ورفعت ما يتعلق بها من الأجسام فيحدث لذلك حركات (٣٦) ..

واستفاد بعض العلماء العرب من الرمل والخردل والجالورس في صنع آلات بحيل بدل الماء ، وتقوم على أنابيب بربخية ، فوقها قطع من الرصاص المشدود بخيط معلق عليه ما يحتاج إلى تحريكه ، ويتلخص عمله بأنه كلما تناقص الرمل أو الجالورس تحرك الرصاص إلى الأسفل وحرك الحيط وما هو متصل به ومن جهة أخرى ، فقد نشأ علم خاص يسمى « علم الآلات الحربية » وهو علم « يعرف منه كيفية اتخاذ الآلات الحربية ، مثل المنجنيقات والعرادات والخنزيريات والنهاسم والأسطمان وشعل أيضا ، رمي القوس والبندق (٣٧) وعد من فروع علم الهندسة . وقد

نجحت العديد من المكتبات العربية والأجنبية باقتناء العديد من المؤلفات التي تشرح كيفية صنع المجانيق والأقواس والبندق وما إليها ، وكان كتاب « تبصرة أربساب الألباب في كيفية النجاة في الحروب من الاستواء » ، ونشر أعلام الأعلام في العدد والآلات المعنية على لقاء الأعداء « المرضي بن علي بن مرضي الطوسي ت ٥٨٩هـ » ، نشره كلود كاهن بيروت ، ١٩٤٨ ، من أهم كتب الحروب ، فقد وصف فيه طرق صنع السيوف ، والأقواس والرمح والتراس والدروع والجواشن واللتت والأعمدة والدبابيس والمنجنيقات العربية والفارسية والرومية ( الفرنجية ) . وطرق صنع الدبابات والأبراج والستائر والمثلثات والفوط وخاصة النقط الذي يمشي على الماء ويصلح لحرق المراكب .

إن صنع الساعات والعمل بها ، كان من أهم ما عرفه العرب في علم الميكانيكا ونظرا لأهميته ، فإرى أن نفرد لها مكانا في هذا البحث .

#### الساعات العربية :

يعتقد بعض العلماء أن الإشارة التي وردت في سفر اشعيا « بأن الظل رجع على درج أحاز عشر درجات » ، إنما قصد بها الساعة الشمسية المعروفة بالزولة والتي تقوم فكرتها على تقدير الوقت بحسب اتجاه الظل ، فيُنصب جسم مواز لمحور الأرض على سطح مستو ، قد رسمت عليه الزوايا المطابقة للساعات ، وإذا يقع ظل الجسم عليها ، يحدد الوقت بموجب (٣٨) .

(٣٤) لتوضيح عمل هذه الآلات انظر المرجع السابق ، ١٤٣ .

(٣٥) نفس المرجع السابق ونفس الصفحة

(٣٦) المرجع السابق ، ١٤٣ .

(٣٧) حاجي خليفة : كشف الظنون ، ١/ ١٢٥ .

(٣٨) مجلة المختلف ، المجلد ١٥٩/٧٠ ، خاتر القاسي : أثر الدبة ، ٢٤٣ ، سارون : تاريخ العلم ، ٢٤٦/٥ .

الشاهد والغسق والعمرة والقحمة والموهن والقسط والجوشن والعبكة والتباشير والفجر الأول والمعترض والأسفار<sup>(٤١)</sup> ومع أن هناك أسماء أخرى فرضتها اختلاف البيئات القبلية وأسباب موضوعية أخرى ، إلا أنها لا تخرج في معناها عن المشار إليها ، وأطلق عرب الجاهلية على من يعمل بالساعات هذه من غير رجال المعابد ، اسم « المساوعة »<sup>(٤٢)</sup> ، وهذه دلالة أخرى على اهتمامهم بالوقت وتحديدده .

وفي صدر الاسلام ، كان تحديد مواعيت الصلاة يتم بحركة الشمس اليومية اليوم يبدأ عندهم بصلاة المغرب ، وذلك بعد غروب الشمس ، والعشاء عند اختفاء الشفق الأعل ، والفجر تبدأ بظهور الفجر ، أما الظهر ، فعندما تبدأ الشمس في انخفاضها بعد عبورها خط الزوال ، وصلاة العصر ، تحل عندما يساوي طول ظل أي قائم ظلّه عند الظهر ، مضاعفاً الى طول القائم ، وكانت معرفة الوقت من الأمور التي يتوجب على كل مسلم معرفتها ، حتى أن شاعرهم يقول :

ولا خير ، فيمن كان بالوقت جاهلاً  
ولم يك ذا علم بما يستعبد<sup>(٤٣)</sup>  
وقد أجل أحدهم ضبط الوقت بهذه الأبيات ، ولعلها لابن يونس المصري

ومعرفة الأوقات فرض معين  
على عقلاء المسلمين مؤكّد  
أنّ ذلك في القرآن يصاح بمجملاً  
وفسره خير البرية أحمد

ونحن وإن كنا لا نميل لمعالجة تطور صناعة الساعات والعمل بها عند الأمم الأخرى ، كالكلدان واليونان لخروجه عن مظان بحثنا ، غير أن حساب الزمن وفق النظام السومري - البابلي لا يزال قائماً ، ثم أن الكتاب التاسع لفترقيوس قد عني بالزوال أو الساعات المائية ، ولم يُعثر على نص يوناني لكتاب فيلون « في الحيل الروحانية وميخانيقا الماء » إلا بالعربية ، الأمر الذي يؤكد أنه كان لدى الأمم السابقة اهتمام بمسألة الوقت وتحديدده من جهة ، وأن العرب قد اطلعوا عليها من ناحية أخرى<sup>(٣٩)</sup> .

وفي رأينا ، أن ذلك التطور الذي وصل اليه عرب الأنباط والحضر وتدمر والحيرة ، لا يمكن أن يتم دون الالتفات لعنصر الزمن ، إذ لا يعقل أنهم بلغوا مستوى حضارياً متقدماً بلا معرفة متقدمة عن الساعات وتقسيم الزمن ، سيما وأنهم اهتموا بالأرصاء الفلكية ، هذا بالإضافة الى أن عبادة الأجرام السماوية كانت جزءاً من عبادة الصائبة . وما يهنا هو التأكيد على اهتمام عرب الجاهلية بأمر التوقيت لعوامل تتعلق بشئون حياتهم اليومية ، فالزراعة فرضت عليهم الالتفات الى تقلبات الجو ، كما أن الأعياد وأمور العبادة ، جعلت رجال الدين في المعابد والكهان يقومون بضبط الوقت اعتماداً على الفلك والنجوم والأنواء ، ويبدو أن تحديد الزمن بواسطة الآلة ، مكن عرب الجاهلية من تسمية كل ساعة من ساعات النهار الأربع والعشرين ، باسم خاص ، فساعات النهار هي الدور واليزوغ والضحى والغزاة والمهاجرة والزوال والدلوك والعصر والأصيل والصوب ، والحدود والغروب ، وساعات الليل هي ،

(٣٩) جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ، ٤٦٩/٨ ، ابن سبويه : المختصر ، ٤٤/٩

(٤٠) إيمان التندة العالمية الأولى لتاريخ العلوم عند العرب ، مقالة ، علم المقاتل لدايدكنج ، ٣٩١

(٤١) نفس المرجع السابق ، ٣٩٢

(٤٢) الشمس : مقدمة ، ٣٦ ، ابن أبي أصيبعة : ميون الآتيه ، ٤٨٣

فسمها رأيت الظل قد زاد فيشه  
فصل صلاة الظهر اذ ذاك يرصد  
وزد قامة ظل الزوال فانه  
أوان لوقت العصر محدد  
وعند غروب الشمس قم صل مغربا  
فليس لها وقت سوى ذاك مفرد  
وصل العشاء وأنت للجوناظر  
اذا الشفق الأعلى يغيب ويفقد<sup>(٤٣)</sup>

وبما يجدر ذكره أن العرب قد أقاموا الساعات في المساجد والمدارس ومعاهد العلم، وعينوا لها المهندسين للإشراف عليها والعناية بها، وكان من مهام المؤذن أن يكون خبيراً بتحديد أوقات الصلاة، وألفوا في المقات والمقريّن والساعاتيين بالجرامع والمدارس، واتخذت مؤلفاتهم أشكالاً عدة، فمنها:

#### مؤلفات في الساعة الشمسية أو المزولة :

كانت الساعة الشمسية، النقالة، أكثر اختراعاتهم أصالة وفناً، وهي السماء «ساعة الرحلة»، لا سيما بعد أن أصبحت دائرية الشكل، وجعلوا بوسطها محوراً لتحديد موضع الشمس والوقت، ومن الساعات الشمسية العربية ما عرف «بالرخامة» وهذا النوع من الساعات كثرت المؤلفات العربية فيه، فثبتت بنقرة ت ٢٨٨هـ / ٩٠٠م، وضع كتاباً في آلات الساعات التي تسمى رخامات<sup>(٤٤)</sup> وللخوارزمي ٢٣٢هـ، كتاب «الرخامة»<sup>(٤٥)</sup>، وخبش بن عبد الله السروزي

ت ٢٢٠هـ كتاب الرخام، ولمحمد بن كثير الفرغاني كتاب «حيا سنة ٢٤٧هـ/ ٨٦١م» «عمل الرخامات»<sup>(٤٦)</sup>، وألف أبو عبد الله الشلوي، كتاباً «في الرخامة المنحرفة» وكتاباً آخر في الرخامة المستطيلة<sup>(٤٧)</sup>. ولا إبراهيم بن محمد بن حبيب البغدادي ت ١٨٨هـ كتاب «مقياس» ويذكر أنه لا تزال هناك ساعتان شمسيان، الأولى في متحف طوب قايي في اسطنبول على شكل ربع كرة، قسم تجويفها إلى اثني عشر قسماً، ومحمولة على قاعدة من نفس المادة وفي سجلها، أنها حملت من مدائن صالح، مما يؤكد ما ذهبنا إليه أن عرب الجاهلية قد عرفوا العناية بالوقت، والأخرى بجوار الغرقة، بجامع القرويين بالمغرب، صنعها (المعدل) محمد بن عمر ت ٧٩٤هـ/ ١٣٩١م، وأضاف مؤلف جامع القرويين أن هناك أربع ساعات من هذا النوع ثلاث جملها اليوم، كما أن هناك واحدة أخرى بأعلى الصومعة<sup>(٤٨)</sup>. وحيث أن هذا النوع لا يدخل ضمن علم الحيل، فأننا نكتفي بهذه العجالة فيه، أما النوع الآخر من تأليف الساعات، والذي قام أساساً على «علم الحيل في الماء» أو ميكانيكا الماء، ونبيغ فيها العديد من العلماء العرب فندرجها تحت عنوان التأليف في الساعات المائية.

#### مؤلفات في ساعات الماء :

اقتصرت الفائدة في استعمال الساعة المزولة على أيام الصحو، أما في أيام الغيم والمطر فقد تعدلت استعمالها،

(٤٣) أبحاث الندوة العالمية الأولى، ٣٩٢

(٤٤) ابن التميم : الفهرست، ٣٩٧، ناجي معروف : تاريخ علم المستنصرية ١/٢٠، البغدادي : هدية العارفين، ٩/١

(٤٥) ابن التميم : الفهرست، ٣٩٨، ١٠٢

(٤٦) البغدادي : هدية العارفين، ٢/٥

(٤٧) ابن التميم : الفهرست، ٣٩٨، الشمس : مقدمة، ٣٩

(٤٨) الغازي : جامع القرويين ٢٠/٣٤٧

على نماذج تلك الساعة<sup>(٥٢)</sup>، غير أن العلماء العرب قد ارتقوا بهذه الفكرة البسيطة، ليدخلوها ضمن عمليات رياضية منظمة منسقة أساسها الاستفادة المثل من مكتشفاتهم في علم الحيل، حتى إذا ما وصلت هذه الاستفادة مرحلة متقدمة، جعلوها علما، فنقرا في كشف الظنون<sup>(٥٣)</sup>، تعريفات لعلم البنكيمات ولعلم آلات الساعة، وعلم البنكيمات عندهم يعني الصور والأشكال المصنوعة لمعرفة الساعات المستوية والزمانية وذلك بآلات يقدر بها الزمن، وموضوعه «حركات مخصوصة في أجسام مخصوصة، تنقضي بقطع مسافات مخصوصة، وغايته معرفة أوقات الصلوات وغيرها، دون ملاحظة حركات الكواكب، وكذلك معرفة الأوقات المفروضة للقيام في الليل، تهجدا أو للنظر في تدابير الدول، والتأمل في الكتب والصكوك والخواطئ المنضبط بها أحوال المملكة والرعايا واستمداده من الرياضة والطبيعة» أما علم آلات الساعات، فيبحث في الصناديق والضواريب وأمثال ذلك.

كان هذا يجري في الوقت الذي اهتم فيه البابا سلفستر الثاني بأخذه السحر، واستعانت به بقوة الشيطان، بعد صنعه ساعة في مدينة كلدبرج ٣٥٦هـ/ ٩٩٦م، تدور بثقل دواليب<sup>(٥٤)</sup>، ولا ندري إن كان سلفستر قد بنى ساعته على نمط تلك الساعة التي قيل أن هارون الرشيد قد أعدها ١٩٢هـ/ ٨٠٧م إلى شارلمان، وقد أغرب وأصفوها غاية الأغراب في وصفها، حيث أورثت رجال الدين حيرة وذهولا،

لأنها تقوم أساسا على الظل، ولهذا اضطرب العلماء إلى استنباط الساعة المائية لحل المشكلة الوقتية، وبدأت بسيطة يوعاه صنع من مواد مختلفة وأشكال متعددة، يصب فيه الماء وينفذ إلى وعاء آخر بقدر، لقيس الوقت بمقدار ما ينساب من الماء بوحدات زمنية اصطلاحية<sup>(٥٥)</sup> ومن ثم زيد منها دولا ب أو أكثر يدور بتنقص الماء في الوعاء، فيدير عقريا على ميناء فتعرف الساعة<sup>(٥٦)</sup> بذلك.

ولعل من معترض يرى أن الساعة المائية ما كانت الا تطويرا لتلك التي كانت موجودة عند الكلدان والهنود واليونان. وفي تقديرنا أن الساعة الكلدانية المائية الهندية واليونانية، لم تختلف كثيرا عن الساعة الرملية مع فارق ابدال الرمل بالماء، وكان القصد منها تعيين فترة للقيام بعمل معين، دون الأخذ بعين الاعتبار زمنا محددا، فالخطيب مثلا كان يمنح مهلة للكلام، تنقضي بفراغ محتويات قارورة من سعة معينة، بقطع النظر عن سرعة التفريغ، إذ لم تحفل بالتدرج وحتى لم تربطه بزمان معين<sup>(٥٦)</sup>.

وليس معنى هذا أن الأمم السابقة لم تعرف الساعة المائية الميكانيكية، فقد ذهب سارطون إلى أن كيتسيوس قد اخترع ضاغطة وأرغنا مائيا وساعة مائية، كما أنه استخدم الماء في القوى الضاغطة، وتحكم في ذبذبات الهواء لإخراج أصوات معينة، ويكون بذلك قد أدرك الحاجة الرئيسية للاستطوانة والكباس والصمام، وأدخل فيلون البيزنطي بعض التحسينات

(٤٩) الحسن: مقدمة، ٤٥.

(٥٠) مجلة المخطوط، ٧٠٠ م، ١٩٠.

(٥١) سارطون: تاريخ العلم، ٥/ ٣٣٧.

(٥٢) سارطون: تاريخ العلم، ٥/ ٣٣٩.

(٥٣) حاجي خليفة: كشف الظنون، ١/ ١٤٧، ٢٠٠.

(٥٤) الشفي: مجموعة أبحاث من تاريخ العلوم الطبيعية، ١٩.

كانوا يستعملون بالنهار الاسطرلابات وبالليل المكبات (٥٧) ولهم بالنهار ظل يعرفون به ما مضى من النهار ، وما بقي ، وأضاف « رأيناهم يتفتقدون المطالع والمجاري (٥٨) ، فهلا عرف أو سمع الجاحظ برسالة الكندي وهو المنقب اللؤب ، أو أنها أي صنعة الساعة التي وصفها الكندي لم تكن منتشرة ، واستمر الناس يعرفون الأوقات بالمطالع والمجاري الفلكية .

وكان مؤلف أبي عبد الله الخوارزمي ، ( كان حيا ٣٨٠ هـ / ٩٧٦ م ) . وما فيه من وصف الساعات المائية ، كآلة النوبة والفيل وصندوق الساعات وغيرها ، أكثر توضيحا من المؤلفات السابقة (٥٩) .

يبدو أن التقدم الفعلي لصناعة الساعات والعمل بها قد تم في القرون الثلاثة السادس والسابع والثامن الهجرية ، إذ وردت إشارات لمؤلفات في الساعات وصناعتها ، وتخصص عدد من المهندسين في صنع الساعات وآلاتها ومنهم ، علي بن تغلب ( تغلب ) بن أبي البيضاء ت ٦٨٣ هـ / ١٢٨٤ م ، وينسب إليه تدبير الساعات على أبواب المدرسة المستنصرية في بغداد ، وقيل أنه هو الذي صنعها (٦٠) .

محمد بن رستم الساعاتي ت ٥٨٠ هـ / ١١٨٤ م ، وهو الذي صنع الساعات على باب الجامع الأموي بدمشق في زمن نور الدين ، محمود بن زنكي ، وكانت

ويبدو أن تلك الساعة كانت مائية ، صنعت من نحاس مذهب ولما في وجهها اثنا عشر بابا صغيرا بعدد الساعات ، وكلما مضت ساعة فتح باب وسقطت منها كرات معدنية ، تقع على جرس ، فيقرع بعدد الساعات وتبقى الأبواب مفتوحة تفتح الأبواب الاثنا عشر ، وحينئذ يخرج صور اثني عشر فارسا على خيول تدور على الصفيحة ، ثم تدخل وتغلق الأبواب وراءها .

ونحن وإن كنا نشك في وجود مثل تلك الساعة في ذلك الوقت ، لانا لم نثر على أية إشارة في المصادر العربية التي اطلعنا عليها ، وذهب بارتولد في بحثه عن تاريخ فلسطين في العصور الوسطى ، الى أن سفارة هارون الرشيد التي أنيطت بها مهمة السفر لمقابلة شارلمان ، ومعها الساعة والمفاتيح ليست الا من وضع اسحق اليهودي لتحقيق أهداف سياسية أصبحت اليوم معروفة ، ومعها كانت التحليلات والدراسات ، فان ايراد الخبر في المراجع الأوروبية فيه اقرار أوروبي ضمني ، بأن العرب قد بلغوا شأوا في صناعة وعمل الساعات منذ فترة مبكرة ( عصر هارون الرشيد ) ، وبالتالي تقدم علم الحيل عندهم (٦١) ، ومما يجدر ذكره ، أن العرب أطلقوا على الساعة المائية عدة تسميات ، مثل ، ميقاتية ، بنكام ، فنكان ، فنجانة ، منجاة ، القطان .

ولعل أبا يوسف الكندي ت ٢٤٦ هـ / ٨٧٣ م ، كان أول من ألف رسالة في عمل ساعات مائية على صفيحة تنصب على السطح الموازي للأفق ، خير من غيرها (٦٢) ومبث شكنا ما ذكره الجاحظ « ان المسلمين

(٥٥) مجلة المتكلف ، جلد ١٦٠ / ٧٠ : وجلة الرسالة : الساعات العربية لأحمد دحمان ، عدسة ١٣٩٦ / ٢ / ٧١٤

(٥٦) البغدادي : حذية العارفين ، ٥٤٠ / ٦ ، تاجي معروف : تاريخ علم المستنصرية ، ٣٢ / ٢

(٥٧) ماجد النسن : مقدمة ، ١١٧ ، الكيات (ج كية) ، وهو ما يلف عليه الفزول أو الحيط

(٥٨) الجاحظ : الحيوان ، ١٠٧ / ٢

(٥٩) الخوارزمي : مفاتيح العلوم ، ١١٢ - ١١٦ ، تاجي معروف : تاريخ علم المستنصرية ، ٥١ / ٢

(٦٠) الرسالة : ١٩٦٣ ، مقالة دحمان ، ٦٧٤ ، تاجي معروف : تاريخ علم المستنصرية ، ٥٥ / ٢



النبروغ ، فقد عمل نحاسا ثم نجارا ، وقرأ الهندسة والرياضيات ، واشتغل بالفلك وعمل الأزياج ، ثم انقطع للطب ، وفي زمنه تخبرت ساعات المسجد الأموي ، فأصلحها وكان له في دمشق عطاءان ، أحدهما من طبه في البيمارستان الكبير ، والثاني من تفقده لأصلاح ساعات المسجد الأموي ، ومن مؤلفاته :

- رسالة في معرفة رسم التقويم .

- مقالة في رؤية الهلال (٦٤) .

- أبو العز بن اسماعيل بن الرزاز الجزري ، نبغ في حوالي سنة ٦٠٢ هـ / ١٢٠٥ م ، وكنا قد أشرنا إليه سابقا ، ولكننا نضيف بأن كتابه « الجامع بين العلم والعمل النافع في صناعة الحيل » يعد من أهم المؤلفات العربية في صناعة الساعات المائية بصفة خاصة ، وآلات الحيل بصفة عامة ، ولا أدل على أهميته من استعراض الأبحاث التي كتبت عن ابن الرزاز ، وكان الدوميلي وجورج سارطون وفيدمان وهاوز قد درسوه ، أما المقالات والأبحاث والكتب التي تناولت أعمال ابن الرزاز الجزري فاهمها :

Carra de vaux, Note Sur Les mecaniques de bedi ez-zar el- Djazari et sur un appareil d'hydraul attribue a Appollonius de Perge (Congress d'histoire de Paris, 5 section, 122-12. H.Suter:Mathematiker (137 — 226) 1900.

له الأنعام الكثيرة من السلطان ، وقبل أنه هو الذي صنع الساعة على باب جيرون (٦٥) .

رضوان بن محمد رسم الساعات ٦٢٠ هـ / ٢٢١ م ، وقد استوزره الملك الفائز ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب ، وقبل أنه بعد وفاة والده المشار إليه سابقا انتدب ابن النقاش ( لعله محمد بن الحسين بن محمد التنوخي ) ، لأصلاح خلل وقع في ساعات المسجد فزادها خرابا ، فعهد إلى رضوان ، فأصلحها ، ومنها ساعة شمسية كبيرة تمثلت فيها الشمس والسيارات ، وقام رضوان أيضا بتحسين ساعات أبيه ، ووضع كتابا شرح فيه « علم الساعات والعمل بها » بالتفصيل والدقة ، صور كل قطعة منها وسمها باسمها ، ووصف مكانها وعملها ، ومن الكتاب نسخة دار الكتب والوثائق القومية في جملة كتب زكي باشا ، منقولة من مكتبة كوبرلي (٦٦) .

أبو عبدالله القيسرائي : وهو محمد بن نصر بن صغير بن داغر اخزموي ت ٥٤٨ هـ / ١١٥٣ م ، أصله من حلب ، وولده بعكا ووفاته بدمشق ، وقد تولى الإشراف على ساعات باب جيرون بالجامع الأموي ، ثم خزنة الكتب ، وكانت بينه وبين ابن منير الشعاع الطرابلسي مكاتبات وأجوبة ومهاجاة ، وقد أورد صاحب مرآة الزمان خبر انتقال ابن القيسرائي من الساحل الفلسطيني إلى حلب (٦٧) .

- محمد بن عبد الكريم بن عبد الرحمن الحارثي الدمشقي ت ٥٩٩ هـ / ١٢٠٢ م . وهو عالم بالهندسة والطب ، تعد حياته نادرة من نوادر الدهر ، تجلّى فيها

(٦٥) النسب : مقدمة ، ٥٤-٥٥ ، مجلة الرسالة (١٩٣٦) ١٩٧٢/٢ .

(٦٦) النصب الدمشقي : المدارس في تاريخ المدارس ، ٣٨٨/٢ ، باقوت : معجم الأدياء ، ٢١١/٤ .

(٦٧) زبداء : تاريخ آداب اللغة ، ٢٧٤/٢ ، سبط بن الجزري : مرآة الزمان ، ٢١٣/٨ ، حمود إبراهيم : صدى الفرو الصليبي في شر ابن القيسرائي ، ٢٩ .

(٦٨) ابن العماد الحنبل : شذرات الذهب ، ١٥/٤ .

هـ / ١٣٤٢ م ، ويتكون من قطرة طولها نصف أو ثلث ذراع تقريباً ويدور على الدوام من غير مراء ، وموجب حركات الفلك ، ورتب على أوضاع يعلم منها الساعات المستوية والساعات الرملية الزمانية ، ونستشف من النص ، أنها المرة الأولى التي يستعمل فيها الأسطرلاب كساعة ميقاتية صغيرة الحجم ، سهلة الاستعمال ، ولا مائية ، ومن مصنفات ابن الشاطر في هذا المجال ، تسهيل المواقيت في العمل بصندوق المواقيت .

- النفع العام في العمل التام ، بالتام لمواقيت الاسلام (٦٧) .

- عبد العزيز محمد الوقائي المؤيدي : ت ٨٧٦ هـ / ١٤٧١ م .

وكان يعمل مؤقتاً بالجامع المؤيدي ، ومن تصانيفه - نظم العقود في عمل الساعات على العمود .

- رسالة في دائرة المعدل .

- وسيلة السطلاب في عمل استخراج الأعمال بالحساب (٦٨) .

تقي الدين الراصد : ت ٩٩٣ هـ / ١٥٨٥ م

وهو محمد بن أبي الفتح ، محمد بن أحمد بن يوسف الأسدي كان أوسع المهندسين بعد الجزري دراية في عمل الساعات وصنعها ، وانعكست خبرته الواسعة على مؤلفاته ، منها

- الطرق السنية في الآلات الروحانية .

- الكواكب الدرية في البكيمات المائية وهو أهمها ، منه نسخة في مكتبة جامعة Chester deaty

E; Weidmann: Beitrage 3 (Sitzung sberichte, Er Langen. Vol, 37, 259, 262, 1905)

A.C.Coomaras: Treatise of al-Jazari on Automa

Leaves from aMS of Kitab fima arifat (21p. 8pi., Boston, 1924).

Creswell : Yearbook of oriental art and culture, A.C.Coomaraswamy: Early Arabic and Islamic Persian Paintings (Museum of fine Art Bulletin, 45 — 52, Boston, 1922).

هناك كتاب دونالد هل

The book of Knowledge of Ingenious Mechanical De Boston, U.S.A. Printed in Nether Land. (٦٥)

ابن الشاطر ت ٧٧٧ هـ / ١٣٧٥ م .

وهو أبو الحسن ، علاء الدين ، علي بن ابراهيم بن حسان الأنصاري السدشقي ، وكان قد تعلم صناعة تعليم العاج ، ومن ثم العلوم الرياضية والفلكية وتولى التوقيت ورئاسة المؤذنين بالجامع الأموي ، وينسب اليه الارتقاء بمستوى صناعة الساعات ، فقد جعل حجمها صغيرة ، سهلة الحمل ، ويمكن تعليقها على الجدران ، ولا تحتاج آلاها الى الماء ، وقد وصف ابن العماد الخنبلي (٦٦) اسطرلاب ابن الشاطر ، الذي كان موجوداً في منزله داخل باب الفراديس ، بدرب الطيار سنة ٧٤٣

(٦٥) التميمي : المدارس ، ٣٧٨/٢ ، ابن تيري بردي : التيجم الزاهرة ، ٣٦٤/٥ ، الصفدي : الوالي ، ٢٧٩/٣ ، الأعلام ، ٢١٥/٦

(٦٦) البقاعي : هدية العارفين ، ٧٢٥/٥ ، ابن العماد الخنبلي : ذخرات الذهب ، ٢٥٢/٦

(٦٧) البقاعي : هدية العارفين ، ٥٨٣/٥

(٦٨) نفس المرجع السابق ، ٢٥٧/٦

- عبد الرحمن بن سليمان الجاثي ت ٧٦٣ هـ / ١٣٦١ م . وقد صنع ساعة مائية بأمر السلطان أبي سالم ، إبراهيم بن أبي الحسن بن عبد الحق (٧٣) . وهناك فئة من العلماء أثرت أن تبحث في الميقات .

كالحسن بن علي المراكشي ، كان حيا ٧٥٠ هـ / ١٣٤٩ م . وصنف في آلات التقويم وجامع المبادئ والغايات في علم الميقات (٧٤) . ومحمد بن سنان القزويني ( المعروف بابن كاتب سنان ت ٩١٠ هـ / ١٥٠٤ م ، وقد ألف (تحفة القراء في علم الميقات) وابن أبي الخير ، محمد بن عمرو الرشيدي الميقاتي ت ١٠٠٢ هـ / ١٥٩٣ ، ألف «النجوم الشارقات في ذكر بعض الصنائع المحتاج إليها في علم الميقات ، وأخيرا نذكر أحمد بن عبد الرحمن ، الواعظ بجامع بني أمية ، وقد ألف كتابه «هدية المشتاق لمعرفة الأوقات في جميع الآفاق ، ولا يزال مخطوطا ، ومنه نسخة في المكتبة الظاهرية تحت رقم ٧٥٦٤ - علوم أخرى (٧٥) .

وجدير بنا أن نشير إلى أن العرب قد أطلقوا على الذين يعملون في الساعات اسم «المهندس» أو «الموقت» أو «المعدل» .

#### أشهر الساعات المائية في المشرق والمغرب :

يستفاد من إشارة ذكرها ناصر الحسين بن علي القيرواني ، الذي أنشأ ساعة على باب المدرسة القيروانية

- خلاصة الأعمال في مواقيت الأيام والليال .  
- الدر المنظوم في حل التقويم .

- ربحانة الروح في رسم الساعة على مستوى السطوح (٦٩) . وفي المغرب ، نشط صانعو الساعات في عملها على المساجد والمعاهد والمدارس والطرق العامة ، ومن أهمهم :

- أبو عبدالله - محمد بن الحبياك ت ٦٨٥ هـ / ١٢٨٦ م ، وقد ركب ساعة مائية في مدينة فاس بناء على طلب القاضي ، أبي عبدالله ، محمد بن أبي الصبر ، أيوب بن كنون ، ليعرف الناس أوقات النهار والليل ، سواء في الأيام المشمسة أو الغائمة وخاصة أن الساعة الشمسية والزمنية ، لم تعد كافية بعد أن وصلت أخبار الساعة المستنصرية وطريقة صنعها (٧٠) .

محمد بن عبدالله الصنهاجي ت ٧١٧ هـ / ١٣١٧ م . وقد صنع منجاة جامع القرويين ، أيام أبي سعيد ، عثمان المريني ، وذلك بالتعاون مع محمد بن الصديق القرسطوني ، الذي رسم مخطوطها (٧١) .

- محمد بن محمد بن العربي ت ٧٤٧ هـ / ١٣٤٦ م ، وقد قام بتجديد إصلاح المنجاة على وجه متقن ، ومن ثم أدخل استعمال الأسطرلاب فيها ، وهي طلعت المسطرة ، تعرف أوقات الليل والنهار ، بتحريك خيوط الأسطرلاب والساعة المائية فريط بين الأسطرلاب والساعة المائية بفن متقدم (٧٢) .

(٦٩) نفس المرجع السابق ونفس الصفحة

(٧٠) التازي : جامع القرويين ، ١/ ٣٢٢-٣٢٣

(٧١) التازي : جامع القرويين ، ١/ ٣٢٢

(٧٢) نفس المرجع السابق ، ٢/ ٣٤٣

(٧٤) البغدادي : هدية العارفين ، ٥/ ٢٨٩

(٧٥) نفس المرجع السابق ، ج ١/ ٢٦ ، ٢٢٥

تلك الطيقان المذكورة التي عشرة دائرة من النحاس مخرمة ، وتعرض في كل دائرة زجاجة من داخل الجدار في الغرفة ندير ذلك كله منها ، خلف الطيقان المذكورة ، وخلف الزجاجه ضوء المصباح وفاض على الدائرة أمامها شعاعها ، فلاحت للأبصار دائرة مجمدة ، ثم انتقل ذلك الى الأخرى حتى تنقضي ساعات الليل وتحمر الدوائر كلها .

ويضيف ابن جبير ، أنه أوكل بها في الغرفة ، متفقد لحالها ، درب بشأها وانتقالها ، يعيد فتح الأبواب وصرف الصنج الى موضعها ، وهي التي يسميها الناس « المنجاة » . (٧٧)

وهناك ساعة مائية ثانية على باب جامع دمشق القبلي المسمى « باب الزيارة » وهي دائرة بيكار ( نصفية ) عليها عصفائر نحاس ووجه حية من النحاس أيضا ، وغراب فإذا تمت الساعة ، خرجت الحية وصفرت العصفائر ، ونعق الغراب ، وسقطت حصاة في الطست ، وهذه الأصوات ليست الا عملية تحكم بدبذبات الهواء بحركات ميكانيكية نتيجة ( انتقال الماء وتحريك ما فوقه ) (٧٨) .

ومن ناحية ثانية ، قد أشار ابن طولون في حوادث سنة ٨٥٩ هـ الى « احتراق قيسارية الفرنج المعروفة بقيسارية ابن دلالة والتي هي شرق قيسارية ابن المزلق التي على بابها الساعات (٧٩) ، وهذا تأكيد على أن الساعات المائية كانت تنصب على أبواب الأسواق علاوة على المساجد والمدارس .

الكبرى ، أن تكاليف بناء الساعات كانت باهظة فقد كلف بناء الساعة المذكورة أربعين ألف درهم (٧٦) ، وهو مبلغ ضخم آنذاك ، وعليه فقد اقتصر بناء الساعات وتركيبها على الأماكن المهمة دون سواها . وفي الحواضر أو المدن الرئيسية ، وفي المساجد والمعاهد والمدارس والساحات العامة الواسعة أحيانا ، وكانت ساعات دمشق ذات شهرة متميزة ، وقد وصلنا وصف لتلك الساعات من خلال ما ذكره ابن جبير ، الذي وصل دمشق سنة ٥٨٥ هـ / ١١٨٩ م ووصف الساعات الموجودة في المسجد الأموي وعلى باب جيرون فذكر « عن يمين الخارج من باب جيرون ، في جدار البلاط الذي أمامه ، غرفة ، ولها هيئة طاق كبير مستدير ، فيه طيقان صفر ، قد فتحت أبوابا صغيرا على عدد ساعات النهار ودبرت تدبيرا هندسيا ، فعند انقضاء ساعة من النهار ، تسقط صنجتان من صفر من فمي بازين مصورين من صفر قاشمين على طاستين من صفر ، تحت كل واحد سهم ، أحدهما تحت أول باب من تلك الأبواب ، والثاني تحت آخرها والطاستان مثقوبتان ، فعند وقوع البندقتين منها ، تعودان داخل الجدار الى الغرفة ، وتبصر البارزين بمدان أعناقهما بالبندقتين الى الطاستين ويقذفانها بسرعة بتدبير عجيب تتخيله الأوهام سحرا ، وعند وقوع البندقتين في الطاستين يسمع لها دوي ، وينقل الباب الذي هو لتلك الساعة للحين بلوح من الصفر ، لا يزال كذلك عند كل انقضاء ساعة من النهار حتى تغلق الابواب كلها ، وتنقضي الساعات ، ثم تعود الى حالها الأول ، ولها بالليل تدبير آخر ، ذلك أن القوس المنعطف على

(٧٦) بدران : مقابلة الإطلال ، ومسامرة الخيال ، ١٤١

(٧٧) ابن جبير : الرحلة ، ٢٤٣ - ٢٤٤

(٧٨) مجلة الرسالة : سنة ١٩٣٦ ، العدد ٢/ ٦٧٥ .

(٧٩) شمس الدين بن طولون : مناقبة الخلال في حوادث الزمان ، ١١٣/١

الشمس في البروج الاثني عشر ، وكيفية قطعها الفلك والدرج والدقائق ، وهي منقبة جليلة للامام المستنصر بالله (٨٠) .

أما الساعات التي عملت بعد المستنصرية ، فتقوم على دخول كرات رصاصية أو نحاسية الى جوف باز تسقط في وعاء ، فيسمع لها صوت ، وتكون اما بطريقة الضغط المائي . أو برشح من ثقوب صغيرة ، أو بذويان شمعة فيقل وزنها وترتفع ، وتكون الشمعة مقسمة الى أجزاء متساوية يخرق كل جزء منها في ساعة وعند نهايته كرة من الرصاص أو الشبة وعند ذويان الشمع عنها تحدث صوتا ، ثم تذهب الى مكانها من ثقب في أسفل الاناء ، أما الأرقام والشموس والنجوم ، فكانت تحدث بتأثير الأضواء من خلفها (٨١) .

وبدت ساعات ابن الرزاز الجزري غاية في التطور واستخدام علم الحيل المائي في عملها . ونستطيع أن نقسمها وفق تطورها الى ثلاثة أنواع :

- ساعات تعمل بميكانيكا الماء ، وفيها سلاسل وموازين وبنادق .

- ساعات تعمل بميكانيكا الماء ولكن بدون سلاسل وموازين وبنادق ، صغيرة الحجم ، قليلة التلف .

- ساعات متطورة كالثانية ، ولكن يستعمل الشمع فيها بدل الماء ، وحركاتها الميكانيكية بسيطة ، وسهلة الحمل . صغيرة الحجم .

ومن النوع الأول ، اخترع ابن الرزاز .

أما في بغداد ، فقد أدهشت ساعة المدرسة المستنصرية ، مهندسي العصر ببراعة هندستها ودقة صنعها ، ولكونها تعمل عملا ميكانيكيا جيدا ، ثم انها في مدرسة ساهمت في النهضة الفكرية الاسلامية ، والمخطوطة رقم ١٣٨٣ تاريخ والمحفوظة في الخزنة التيمورية في دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة تصفها ، وجاء في وصفها :

« سنة ٦٣٣ هـ ، تكامل بناء الايوان الذي أنشئ قبالة المدرسة المستنصرية وركب في صدره صندوق الساعات على وضع عجيب ، يعرف منه أوقات الصلوات ، وانقضاء الساعة الزمانية نهارا وليلا ، والصندوق عبارة عن دائرة فيها صورة الفلك ، وجعل فيها طاقات لطاف ، لها أبواب لطيفة ، وفي طرفي الدائرة بازان من ذهب في طاستين من ذهب ، ووراءها بندقتان من شبة لا يدركهما الناظر ، فعند مضي كل ساعة يفتح فما البازين ، وتقع منها البندقتان ، وكلما سقطت بندقة افتتح باب من أبواب تلك الطاقات ، والباب مذهب ، فيصير حينئذ منفضا ، وحينئذ تمضي ساعة زمانية . وأن وقعت البندقتان في الطاستين ، فانها تذهبان الى مواضعهما من نفسيهما أي بصورة تلقائية ، ثم تطلع شموس من ذهب في ساء لازوردية في ذلك الفلك ، مع طلوع الشمس الحقيقية ، وتندور مع دوراتها وتغيب مع غيوبتها فاذا غابت الشمس وجاء الليل ، فهناك أقمار طالعة من ضوء خلفها ، كلما تكاملت ساعة ، تكامل ذلك القمر في دائرة القمر ، ثم تبتدىء مع الدائرة الأخرى الى انقضاء الليل وطلوع الشمس ، فيعلم بذلك أوقات الصلاة وتقضى الساعات الزمانية ليلا ونهارا ، وتوحد المواليذ وحلول

(٨٠) الأربلي : خلاصة الذهب المسبوك ، ٢٨٧ ، الفزويقي : آثار البلاد وأخبار العباد ، ٣١٦-٣١٧ ، تاجي معروف تاريخ علماء المستنصرية ، ٥٢/٢

(٨١) معروف : تاريخ علماء المستنصرية ، ٥٣/٢ ، ماجد الشمس : مقدمة في علم الميكانيكا ، ٥١-٥٠ .

- بنكام يعرف منه مضي ساعة زمانية ، وتقوم فكرتها على أحداث حركة في الأبواب ، تحرك البازين ، فتلقى كرات الرصاص ويدق الطبالون وينفخ حملة الأبواق ويضرب الصناجون ، وذلك بحركة انسياب المياه من دستور محكم ( حنفية ) ، وفي الليل يستعمل ضوء الفنديلين بشكل أقماع (٨٢) .

#### ساعة الطبالين :

طولها (٥) أمتار ، وتتكون من اثني عشرة جامعة ، أسفلها شرفات وشخص يقطع كل شرفة ، وطائر يلقي البنادق ، وخزان للماء فيه طفاقة حنفية ( فيشون ) وغروط عائم يشكلان بابا مطحونا ، لا ينفذ منه الماء الا في حينه ، وعربة ذات سفود ، وتسير بموازة الجسامات لتحريك القماط الساتر للضوء المنبعث من قنديل ، يوجد داخل الساعة . ومكان لحفظ الكرات الساقطة الى قم الطائر ، ويكو في سقف بيت الساعة ، ويعر عليها الخيط الواصل بين رأس الطفاقة وعجلة الميدان ، وكفة الحوض وأنبوب في الكفة يسمح بانسكاب الماء الزائد عن استيعابها ، ودستور منظم لعملية سقوط الماء (٨٣) حركتها على ثلاث مراحل :

عمل أدوات الماء .

عمل العربة ذات الأربع عجلات .

عمل الأجزاء المحركة لأيدي الطبالين والصنّاج وصوت البواقين .

فهذه الحركات متتابعة ، فهبوط الطفاقة ، تجمل

عربة الميدان تسير مسافة منتظمة القضيبي المرتبط بها إحدى الشطايا ، فتسقط بنذقة عبر رأس البازي كل ساعة في تقصير الكفة المليئة بماء يصادل ما يسقط ، ويميزاب الدستور يؤثر على أول برج السرطان . وحيث أن سقوط الكرة يخل بتوازنها ، فتسكب الماء في الحوض ومنه الى كفات الدولاب حيث تتحرك أيدي الطبالين والصنّاج ، ثم الى القدر الصغير وهكذا (٨٤) .

ساعة الزورق : وتتكون من زورق فيه ماء وطرجاة تمتلئ وتفرغ ماء كل ساعة وكاتب على سرير بيده قلم ، وطائر يقذف كرات قم ثعبان ، وملخص عملها « ان حركة الكاتب تؤثر على بقية الأجزاء ، فالطائر يقذف كراته الى قم الثعبان التي تنقلها الى صدر الزورق ويسمع لها صوت وترتفع الثعبان . وتتكون الحركة في الزورق وأحواضه الداخلية وعمل الكاتب ، وحركة الطائر ورمي البندق ، وحركة السلاسل المحركة لشفرتي الميزاب .

ساعة القيل : وهي تتفق مع بقية الساعات التي ذكرناها ، الا أن فيها طائرين وإحد يلقي البنادق والآخر يصفر عند قائتها ، وكاتب وشخص يجلس في الروشن وثعبان وسلاسل تربط بين الأجزاء التي يراد تحريكها وهيئة فيل وفيال ، بيده فأس يضرب بها ومدقة وانتقال وماء طهرجاء وتتم الحركة على عدة مراحل ، فالأجزاء الظاهرة لها حركة منضبطة ، وللليل والسريبر ( الحوض ) حركة ، بباطن القيل والفيال ، والأعمدة الأربعة ، والقصر الذي يجلس فيه الكاتب ، وميزاب لكرات ، والرجل الذي في الروشن ، والثعابين والطائر

(٨٢) ماجد الشنس : مقدمة في علم الميكانيكا ، ٥٣/٢ .

(٨٣) انظر وصفها وطريقة عملها في مقدمة في علم الميكانيكا في الحضارة العربية الاسلامية ، ص ١٤٩ ، والمدة الأول من مجلة تاريخ العلوم العربية لسنة ١٩٧٧ .

(٨٤) ابن الرزاز : الجامع بين العلم والتأني ، ٦١ .

الطفافة ، فتتحرك الكاتب الى ١٥ درجة وهي تساوي ساعة زمنية ، وعند المساء يعاد الماء من القاعلة الى الكأس بسرعة وهكذا<sup>(٨٦)</sup> على نفس النمط تعمل ساعة الطواويس .

أما النوع الثالث من ساعات ابن الرزاز فهي التي تعمل بالشمع بدل الماء ، وفائدتها أنها تحدد الساعات المستوية وأجزائها أيضا ، ومنها :

- ساعة السياف

- ساعة الكاتب .

- ساعة القرد .

- ساعة الأبواب

وتقوم فكرتها جميعا على استعمال الشمعة فيها كمادة تدرب نتيجة الاحتراق بقدر متساو كل ساعة ، فينقص وزنها وترتفع ، وتسقط عند نهاية الذوبان في كل ساعة فينقص وزنها وترتفع ، وتسقط عند نهاية الذوبان في كل ساعة كرة ، ويأخذ الثقل بالهبوط الى أسفل فتتحرك الأجزاء المربوطة مع بعضها<sup>(٨٧)</sup> لتؤشر على تدرج ، جعل كل ١٥ وحدة منه تعادل ساعة زمنية ، وهكذا دواليك أما ساعات المغرب فقد بنيت على نمط ساعة المستنصرية المائية . ولم تستعمل الشمع فيما انتهى الى ولكنها استفادت من شبكة الاسطرلاب يربطها بلولب مع الساعات المائية ، وتقوم فكرتها العامة على :

- ماء في الأوعية ، ينساب بقدر معلوم .

- يجري فوق الماء فيه خطوط وتقرب .

- طفاقة تتحرك بنقصان الماء فتتحرك المتصل بها لتؤشر على التدرج .

والقدحان اللذان على كتفي الفيل . كل واحدة من هذه لها حركة تتم بصورة سريعة ومتتابعة كل ساعة .<sup>(٨٥)</sup> ويلاحظ أن ابن الرزاز كان يسعى دائما لتحسين نوعية ساعاته ، ويحاول التغلب على المشاكل الفنية التي تعترضه ، ليجعلها أكثر قبولا ، فساعاته السابقة ذات طول مرتفع يصل في بعضها الى ٥ أمتار (كساعة الطبايعين) . وبعضها معقد وثقيل ، لكثرة السلاسل والموازين والبنادق فيصعب حملها ، هذا بالإضافة الى كثرة تعطلها بسبب انقطاع خيط أو عدم انتظام حركة لسلسلة أو غيرها ، ثم إن هذه الأنواع لا تقيس الا الساعات المستوية ، أي ساعات كاملة صحيحة ، العاشرة ، الحادية عشرة ، الثانية عشرة مثلا . أما أجزاء الساعة كالنصف أو الربع أو الثلث فلا تقدر عليه ، علاوة على أن تشغيلها في الليل ، يتطلب مراقبة مستمرة وخاصة للماء ، ولذا ابتكر ابن الرزاز ساعات من نوع جديد ، بناء على طلب أبي الفتح بن محمود بن قرا أرسلان ، خفيفة وسهلة الحمل والتركيب ، ويمكن استصحابها في السفر ، ويعرف بها جزء الساعة وخلصها من السلاسل والموازين والبنادق ، ومن هذه الساعات :

#### ساعة الكأس وساعة الطواويس :

وتتكون الأولى من كاتب ويده قلم ، وبكرات ثلاث كبيرة وبكرتين جانبيتين وثقالة ومسطرة تتحرك عليها عروامة ، وجزءة مقوية من أسفل وبدن الساعة كأسى الشكل ، بقاعدة رباعية الشكل ، وتلخص فكرة عملها « أنه حين تملا الكأس ماء ترتفع العروامة ، وينخفض الثقل ، ويبدأ الماء بالنضح من ثقب الجزءة ، فتجذب

(٨٥) المرجع السابق ، ١٧٧

(٨٦) ابن الرزاز الجزري : الجائع بين العلم والعمل ، ١٢٦ - ١٤٣

(٨٧) الشمس : مقدمة ، ١٨١

- يعاد الماء بعد انتقاله بسرعة الى الاناء الاول .  
وهكذا فانها تتطلب مراقبة دقيقة ودائمة .  
- اضافة شبكة الاسطرلاب الى الساعات .  
وأهم تلك الساعات :

- ساعة ابن الحياك ، وتتكون من صحن من الفخار بالقبعة العليا بجامع القرويين ، يملأ ماء ، وعلى وجهه مجرى من النحاس ، ذو خطوط وثقوب ، ويخرج الماء منها بقدر معلوم الى أن يصل الخطوط المرسومة على مختلف ساعات الليل والنهار ، فتعرف بذلك الأوقات ، وهي أصغر حجماً وأبسط تركيباً من ساعات ابن الرزاز (٨٨).

وأما ساعة الصنهاجي فتتكون من مجن من خشب الارز ، داخله إناءان من الفخار يعلو أحدهما على الآخر ، بأسفله أنبوب يحكم العمل ، ينزل منه الماء في الاناء الأسفل ، وفي الجانب طست حوى خطوط تقسيم الوقت ، وعلى وجه الاناء الذي يجتمع في الأسفل جسم عائم مجوف من النحاس على شكل الأثرجة ، والطفافة تحرك المسطرة فتظهر الوقت ، وعند المساء لا بد من رد الماء من الوعاء الأسفل الى الأعلى ، وتعلق المسطرة كما كانت (٨٩).

- ساعة محمد بن محمد بن العربي ٧٤٧ هـ ، وقد أضافا الى المجن السابق شبكة الاسطرلاب ، ومتى طلعت المسطرة المذكورة تعرف أوقات النهار والليل بتحريك خيوط الاسطرلاب ورسومه ، وأجريت تحسينات فيها ، إذ أطرت دائرة الاسطرلاب أربع صفائح وثبتت بشكل متين (٩٠).

هذا بالإضافة الى ساعات المدرسة البوعنانية - نسبة الى السلطان أبي عنان ، بشارع الطالعة من فارس وساعة الجاي ، وتقوم على أبواب وطاسات وكرات وأنابيب تصل بينها . (٩١) وأما في مصر ، فقد ذكر الفليسي في النوادر أنه كان عند السلطان الكامل شمعدان فيه أبواب فكلما مضت ساعة يخرج شخص من باب منها ، يقف في خدمته الى مضي ساعة وهكذا الى تمام الأبواب ، اثنتي عشرة ساعة ، فإذا تم الليل خرج شخص فوق الشمعدان ويقول « أصبح السلطان » فيعلم أن الفجر قد طلع فيتأهب للصلاة (٩٢).

ولقد أدهشتنا هذه الإشارة فهل عرف العرب تسجيل الصوت ، وحيث أننا لا نقطع برأي حول المسألة ، ونميل الى أن الصوت لما هو تحكم بدبذبات بطريقة خاصة تبعث صوتاً قد يفسره السلطان أو من سمعه « بأصبح السلطان » كما هي المعرفات الغنائية في زماننا ، غير أننا سنعود لبحثها في درسا للصوت عند العرب .

ومن ناحية ثانية ، فقد أورد المقرئ في كتابه نفح الطيب وصفا دقيقا لساعة تلمسان كأنها حلة بمانية .  
« ولها أبواب مجوفة على عدد ساعات الليل الزمانية فكلما مضت ساعة ، وقع الثقب بقدر حساسها ، وفتح عند ذلك باب من أبوابها ، وبرزت فيه جارية ، صورت في أحسن صورة . وفي يدها البهي رقعة مشتملة على نظم تلك الساعة باسمها مسطورة ، فتضعها بين يدي السلطان بلطافة ويسراها على فمها كالؤدية بالمباينة حتى الخلافة (٩٣).

(٨٨) الشفس : مقدمة ، ٢٠٧ ، وصف الساعات في كتاب الجامع ، ٢٢١ ، ٢٢٣ ، ٢٢٨ .

(٨٩) التنازي : جامع القرويين ، ٣٢٢/٢ .

(٩٠) المرجع السابق ٣٢٣/٢ .

(٩١) نفس المرجع السابق ونفس الصفحة .

(٩٢) مجلة الرسالة سنة ١٩٣٦ ، مقالة دمان ، المجلد ٢ ص ٦٧٤ .

(٩٣) سعد الحاداد : الدمي المتحركة عند العرب ، ٤٠ .



اللبنانية ، السنة الخامسة ص ٣٥٧ - ٣٧٢ ، ان ثبت ما ذهب اليه قنري طوقان والمستشرقون ، ونجح في ذلك<sup>(٩٥)</sup> .

وكانت هذه قفزة هائلة في تاريخ الساعات امتدت آثارها حتى اليوم ، فالساعات الحديثة تقوم عليها ، باستثناء ما بني على استخدام الاليكترونات .

ونشير في النهاية الى نوع من الساعات ، التي لا تزال تستعمل الى يومنا بسيطة الصنع والتركيب ، والغرض منها تعيين فترة محدودة ، وهي الساعات الرملية والتي تتركب من دورتين ، الصقت فوهة أحدهما بفوهة الأخرى بواسطة الشمع ومكثت العليا رملا فينزل الرمل بالتدريج الى السفلى ، من مربيتهما صنع نسبة مقدرة ، وتقلب الساعة عندما تنفجر العليا ، وهناك ساعة في جامع القرويين تعمل بالنمط الرمي ضمنها محمد بن محمد العربي ت ٧٤٧هـ / ١٣٤٦م ، وبعض أجزائها محفوظة في الغرفة بالجامع<sup>(٩٦)</sup> . ان اللام بكل ما ابتكره العرب من آلات وأواني ميكانيكية الحركة ، يتطلب جهداً جماعياً ، لتجميع مخطوطاته ، ويعد الى المختصين درسها ، ليحدد مدى ما قدفوه الى الحضارة الانسانية في هذا المجال .

أما ما أضافه علماء العرب في الصوت والضوء والبصريات والقوى والحركة والمخاطيس والغازات والرياح ، ومدى استفادة الغرب منها فسيكون موضوع الصفحات التالية ، ونبين منها ما حققه علماء العرب المسلمين في هذا المجال .

ويضيف المقرئ أن خزانة المجانة كانت ذات تماثيل لجئن بحكمة الصنع ، بأعلاها أليكة تحمل طائرا فرخاه تحت جناحيه ويختله فيها أرقم خارج من كوة ، يجذب الأليكة صاعدا ، ويصدرها أبواب مرتجة بعدد ساعات الليل الزمانية ، يصاقب طرفيها بابان كبيران ، وفوق جميعها دُوين رأس الخزانة قمر أكمل يسير على خط الاستواء سير نظيره في الفلك ، ويُسامت أول كل ساعة بابها المرتج ، فينفض من البابين عقابان في يد كل واحد منها صنجة صُفر ، يلقيها الى طست من الصفر جوف بواسطة ثقب يفضي بها الى داخل الخزانة فيرن وينهش الأرقم أحد الفرخين ، فيصفر له أبوه ، فهناك يفتح باب الساعة والدهاب وتبرز منه جارية محزمة كأظرف ما أنت راء ، يبعثانها اضبارة فيها اسم لساعتها منظوما ، ويسراها موضوعة على فيها كالمباينة بالخلافة<sup>(٩٧)</sup> .

وكان التطور الهائل في صناعة الساعات واعتمادها على الميكانيكا بصورة عامة ، فكان حين استعمل العرب الأثقال بدون ماء ، لإحداث الحركة الأوتوماتيكية . فاخترعوا الرقاص ( بندول الساعة ) ، ويبدو أن اخترعه هو أبو سعيد ، عبد الرحمن بن أحمد بن يونس المصري ت ٣٩٩هـ / ١٠٠٠م ، وقد اعترف بذلك تيسديو وسدويك وتابلير فذكروا أن العرب قد سبقوا غاليليو بستة قرون في اختراع الرقاص واستعماله . وفي إيجاد علاقته بالزمن ، لا سببا وأنه كان لديهم فكرة عن قانون الرقاص ، إذ كان الفلكيون العرب يستعملون البندول لحساب الفترات الزمنية أثناء الرصد ، ولقد حاول أسامة عاتوني في بحثه « هل اكتشف العرب رقاص الساعة » المنشور في مجلة الدراسات الأدبية - الجامعة

(٩٥) الفري : تلغ الطيب ، ٢١٦/٩ .

(٩٥) سبيو : تاريخ العرب ، ٢١٤ تأيّر : مختصر تاريخ العالم ، ١٦٣ ، ست : تاريخ الرياضيات ، ١٧٣/٢ ، نهار الغاضي : نر المدينة الإسلامية ، ٢١٣

(٩٦) مجلة الرسالة ، العدد ٥٧ ص ١٢٩٣ ، التازي : جامع القرويين ، ٣٤٧/٢

## الصوت ودراسته :

المسافة ، فلا يحس بتفاوت زمني الصوت وعكسه . وقد  
 سرع أخوان الصفا في تحليل تموج الصوت بشكل  
 كروي ، وبينوا عوامل قوة وضعف موجاته ، فالسبب في  
 حدوث الصوت عند أخوان الصفا « هو حركة الأجسام  
 المصورة في الهواء ، الذي لشدة لطافته وخفة جوهره ،  
 وسرعة حركة أجزائه ، يتخلل الأجسام كلها ، فيما إذا  
 صدم جسم جسماً آخر ، انسل ذلك الهواء من بينها ،  
 وتدافع وتموج الى جميع الجهات وحدث من حركته شكل  
 كروي ، واتسع كما تنسع القارورة من نفخ الزجاج  
 منها ، وكلما اتسع ذلك الشكل ضعفت حركة تموجه الى  
 أن يسكن ويضمحل<sup>(٩٧)</sup> .

ومن ناحية ، فإن دراسات العلماء العرب لم تقف عند  
 صوت الانسان بل تعدتها الى دراسة أصوات  
 الحيوانات ، وكان اخوان الصفا والجاحظ والدميري  
 رواداً في هذا المجال ، اذ قسمت أصوات الحيوانات  
 عندهم الى :

- أصوات الحيوانات ذات الرئة وتختلف باختلاف  
 الصدر والحجاب واللقوم والمنخرين ، وشدة استنشاق  
 الهواء ، وقوة دفع أنفاسها من أفواهها ومناخيرها .

- أصوات الحيوانات التي ليست لها رئة ، ولكن لها  
 جناحين ، كالزناوير والجراد والصراصير وغيرها ، فإن  
 الأصوات التي تحدثها ناتجة عن تحرك الهواء بأجنحتها .  
 واختلاف أنواعها إنما تستند على لطافة هذه الأجنحة  
 وغلظها وطولها وقصرها وسرعة حركتها .

- أصوات الحيوانات التي ليست لها رئة ولا أجنحة ،  
 كالسحك والسرطان والسلاحف وما شاكلها ، وتسمى

كان للعرب اشتغال في بحوث الصوت ، وأحاطوا  
 بالمعلومات الأساسية فيه ، وذهبوا الى أن السبب في منشأ  
 الأصوات ، إنما يعود الى حركة الأجسام المصوتة ، وهذه  
 الحركة تؤثر في الهواء لشدة لطافته وخفة جوهره وسرعة  
 حركة أجزائه كما قسم علماء العرب الأصوات الى أنواع  
 منها ، الصوت الجهير والصوت الخفيف والحاد والغليظ  
 وغيرها . وعزوا ذلك الى طبيعة الأجسام المصوتة ، وإلى  
 قوة تموج الأصوات بسببها . وتميزت أبحاث الموسيقيين  
 العرب بدراسة الأوتار والأصوات الناجمة عن  
 اهتزازها ، وكشفوا بقوانين رياضية العلاقة بين طول  
 الوتر وغلظه وقوة شدته أو توتره وشدة النقر من جهة  
 ونوع الصوت من جهة أخرى<sup>(٩٨)</sup> . وقادهم هذا  
 بالضرورة الى بحث الألحان التي جعلوها ٤٧ نوعاً هي :  
 الصياح ، والسجاس ، والتبسات ، والشذرات ،  
 والصرخات ، والنهدات ، والضجرات ، والزجرات ،  
 والتدريج ، والزمة ، والغنة ، والتعليقة ، والتفخيم ،  
 والتأوه ، والنوح ، والترجيع ، والكرة ، والتشبيعة ،  
 والابدال ، والاستهلال ، والانشاد ، والاستغاثة ،  
 والتغير ، والقهقهة ، والهزة ، والاتباع ، والانتزاع ،  
 والتفكيك ، والتفاخر ، والشهقات ، والامالة ،  
 والتمطي ، والترطبة ، والمهاواة ، والمقطع ، والردة ،  
 والصلة ، والاستحالة ، والتثويب ، والصهيل ،  
 والمهزمة ، والتجنيسة ، والزحمة ، والتكاهن ،  
 والغمرة<sup>(٩٩)</sup> .

وعملوا الصدى ، والذي يحدث حسب تحليلهم عند  
 انعكاس الهواء المتموج بعد مصادمته لعال ، كجبل أو  
 حائط ، ويجوز أن لا يقع الشعور بالانعكاس لقرب

(٩٧) نجيب : دراسات في تاريخ العلوم ، ٣١٢ ، كحالة : العلوم البحتة ، ٢٢٠

(٩٨) الكاتب ( الحسن بن أحمد ) : كتاب أدب اللغاة ، ٧٨ ، القاراي : كتاب الموسيقى الكبير ، ١٠٦٩

(٩٩) اخوان الصفا : الرسائل ، ١٠٧/٢

الوسط فهي ليست حركة مستقيمة ولا مستديرة ، وإنما حركة وسطية ، كحركة ضياء المصابيح من العلو الى الوسط<sup>(١٠٢)</sup> وهو يتحرك الى جهات كثيرة .

ويرى الفلاسفة الطبيعيون ، أن الضوء صورة جوهرية ، وهو معنى من المعاني التي تتقدم منها ماهية الجسم المضيء بذاته ولا تفارقه مادام حافظا لجوهره ومع أن التعريف لا يفرج عن ما أورده ارسطوطاليس<sup>(١٠٣)</sup> ، الا أن ابن سينا أضاف اليه « بأنه افعال في القابل من المضيء ، أو حصول أثر فيه من واهب الصور »<sup>(١٠٤)</sup> .

أما ابن الهيثم فالضوء عنده « حرارة نارية تنبعث من الأجسام المضيئة بذواتها كالشمس أو النار أو الجسم المتوهج ، وأنه اذا أشرق على جسم كثيف أسخنه وإذا انعكس عن مرآة مقعرة ، واجتمع عند نقطة واحدة ، وكان عندها جسم يقبل الاحتراق ، أحرقة »<sup>(١٠٥)</sup>

وكيفما كان الحال ، فان للعلماء العرب أبحاثا متقدمة في الضوء والبصريات تمثلت بالنواحي التالية :

درس ابن سينا انعكاس الضوء وانكساره وأخطاء البصر ، واستطاع أن يعال بذلك كبر حجم الشمس والقمر والكواكب والنجوم في رأي العين ، حينما تكون قريبة من الأفق عند الشروق والغروب ، وكانت تحليلات ابن سينا لكيفية تكون الهالة القمرية والهالة الشمسية هي أساس التفسير العلمي الحالي ، حيث افترض وجود بخار الماء في الجو وسقوط الشعاع الضوئي

بالحيوانات الخرس ، لأنه لا منطلق ولا صوت لها ، وتختلف أصواتها باختلاف اللبس والصلابة والحجم من كبر وصغر وطول وقصر وسعة وضيق وغير ذلك<sup>(١٠٦)</sup> .

ولم تتوقف دراسة الصوت عند العرب على المسائل النظرية ، بل طبقوا مبادئ الطبيعة في الصوت وغيره على الموسيقى ، ويدعوا في هذا الفن « وقطعوا فيه شوطا بعيدا ، وكانوا دائما في نظرياتهم الموسيقية عمليين ، فلا يقلبون النظرية الا بعد التثبت منها عمليا . وقد تفوق في هذا المجال ، الكندي ، والغاربي ، وابن سينا ويوسف الكاتب وابن المنجم والأرموي وغيرهم . ويذكر أن اجادة العرب لبحوث الت موجات الكروية للصوت ، هي التي أوحت لزياب أن يضيف الوتر الخامس للعود وصبغه باللون الأحمر . وجعله<sup>(١٠٧)</sup> متوسطا في موضعه بين الأوتار الأربعة .

#### - الضوء والبصريات :

تجاوزت أبحاث العلماء العرب في الضوء ما انتهى اليه علماء اليونان ، وكانت مقالة حنين بن اسحق « في حقيقة الضوء » بداية الانطلاق نحو دراسة الضوء والاستفادة منه في تحليل العديد من الظواهر الكونية . ومع أن رسالة حنين استندت أساسا على مقالة ارسطوطاليس ، الا أنه أضاف إليها وطورها بحيث بدت شيئا متميزا ، فالضوء عند حنين عرض وليس بجسم نير وحتى أنه ليس بجسم ويورد العديد من البراهين ، ووصف حنين حركة الضوء بأنها تتجه الى

(١٠٠) المرجع السابق ، ١٩١/٢ ، الجانظ : الحيوان ، ١٩٣/٤ ، ١٣٧/٧ .

(١٠١) الهلبي : زرياب ، ٤٦ عبد الرحمن : تاريخ الموسيقى الاندلسية ، ٦٦ ، صائت حدي : تاريخ آلة العود وصنائه ، ٣٩ .

(١٠٢) حنين بن اسحق : في الضوء وحقيقته ، للشرق ، السنة الثمانية ، العدد ٢٤ ، ١٥ كانون اول سنة ١٨٩٩ ، ١١٠٧ ، ١١١٢ .

(١٠٣) مصطلحي نظيف : الحسن بن الهيثم ، ٨٠/١ .

(١٠٤) ابن سينا : التعليلات ، ٤٧ .

(١٠٥) مصطلحي نظيف : الحسن بن الهيثم ، ٨٠ .

على القطرات المكونة للهالة<sup>(١٠٦)</sup>. كما علل أسباب تناقص الشفق حينما تصبح الشمس على ١٩ درجة تحت الأفق .

ومع أن ابن سينا هو الذي وضع قانون سير الأشعة سيرا كرويا ، منحنيًا كانهناء سطح الأرض غير أن البيروني كان أكثر منه دقة في هذا المجال ، وأشار إلى عظم سرعة الضوء إذا ما قيست حتى بالنسبة لسرعة الصوت . إن هذه النتائج أفادت نصير الدين الطوسي في أبحاثه عن المناظر وانعكاس الشعاعات والانعطفات وأثنى فيه على برهانه ، مساواة زواياي السقوط والانعكاس .

وقد حاول ابن سينا أن يدرس الآثار العلوية الكونية ، ففسر كيفية تشكل قوس قزح ، كذا الهالة المحيطة به ، وتعدد الألوان منه كما فعل الكندي حين علل اللون الزلزوري الذي يرى في الجو . إلا أن محمد بن مسعود بن مصلح الشيرازي ت ٧١١هـ / ١٣١١م ، كان أكثر العلماء توضيحا لدراسة ظاهرة قوس قزح ، فقد شرحها في كتابه « نهاية الإدراك في دراية الأفلاك » شرحا وافيا ، وبين أن ظاهرة قوس قزح إنما تحدث من وقوع أشعة الشمس على قطيرات الماء الصغيرة الموجودة في الجو ، عند سقوط الأمطار ، حينئذ تعاني الأشعة انعكاسا داخليا ، ولعل الشيرازي قد بنى تعليله على تلك الدراسات التي بدأها ابن سينا قبله ، وشملت الظل والتلج والغباب والهالة والقوس والشمسيات والنيازك والرياح والبرق والرعد<sup>(١٠٧)</sup> .

لقد بلغت دراسات ابن سينا منزلة متفردة ، فيها أوردته بشأن الإبراق والأرصاد فالبرق عنده نتيجة لاحتكاك وقرع بين الغمام ، أوللاستبراح اللطيف من الغمامة إذا طفقت نارها ، بمعنى انتقال الشحنات أثر الحرارة ، أو إذا كانت في الغمام نار مستكنة وانضغطت الغمامة وانعصرت وتفرقت<sup>(١٠٨)</sup> . وأشار ابن سينا إلى احتمال حدوث الارعاد بلا برق أو العكس ، ورسالة ابن سينا في الرعاد ، تضمنت الاشارة الى أسبابه ، فالرعد عنده ، يقع إذا تصادمت غمامتان ، وإذا دخلت في غمامة جوفاء ربح فدارت عليها ، وإذا ما سقطت نار في غمامة رطبة وطفقت ، وحين يقرع الريح غمامة عرضية جليدة قرعا شديدا ، وإذا دخلت في غمامة مجوفة وانفتحت ، واخيرا إذا ما احتكت غمامتان خششتان ببعضهما<sup>(١٠٩)</sup> . والصواعق عنده أما نار رجيية أو ريح نارية ، ويرى أن الصاعقة تكون لسبيين ، أولها احتكاك الريح بالغمام ومن ثم شدة خروجها وقد صارت نارا ، وثانيها ، اجتماع الكثير من الغمام الصغار ، فإذا اجتمعت مع بعضها صارت منها صاعقة .

#### وأما البصريات :

فقد درس العلماء العرب الحواس دراسة وافية ، وكان علماء اليونان والهنود قد أخطأوا في تحديد كيفية الإبصار ، فاشتغل العرب بها وخاصة الكندي الذي ألف في اختلاف المناظر واختلاف مناظر المرأة . وهناك من يعتقد أن ابن سينا قد سبق ابن الهيثم في الوصول الى

(١٠٦) فروغ : مغيرة العرب ، ١١٢

(١٠٧) نفس المرجع السابق ونفس الصفحة

(١٠٨) كحالة : العلوم البحتة ، ٢٢٦

(١٠٩) المرجع السابق ونفس الصفحة

الحسن بن الهيثم بموافقة على أنعال الحاكم ورضائه عنه ، تظاهر بالحيل والجنون ، حتى إذا ما غابت سيرة الحاكم عاد الى حياة البحث والعلم في بيته بجوار الأزهر . ومنهجه في البحث العلمي يقوم على الملاحظة والتجربة والأخذ بالاستقرار والقياس ، وبذلك أنه يستقريه الموجودات ، ويتصفح أحوال المبصرات ، ويميز خواص الجزئيات ، مع انتقائه المقدمات ، ولذا كانت لابن الهيثم شغافية علمية خاصة في البحث ، تدفعه وباستمرار للمزيد من التوسع<sup>(١١١)</sup> والتعمق في سير غور المسائل لتحقيقها . وقد صنف ابن الهيثم ما يقرب من مائتي رسالة وكتاب في الرياضيات والفلك والعلوم الطبيعية والفلسفة والطب ، أشار إليها الفقهني والبيهقي وابن النديم وابن أبي أصيبعة ، ودرسها حمجاب في مقالته عن الثروة العلمية لابن الهيثم<sup>(١١٢)</sup> ، وحدد كتاب تذكرة النوادر من المخطوطات العربية ، أماكن توزعها في المكتبات العربية<sup>(١١٣)</sup> ، ولا يزال الباحثون يعملون لكشف المزيد من تراث ابن الهيثم العلمي .

لقد كانت أبحاث ابن الهيثم موضع اهتمام كبير وفكري وفيتلو وماكس مايرهوف حتى عد بحق أعظم فيزيائي في العصر الوسيط ، بل اعتبر هؤلاء أن عظمة الابتكار الاسلامي إنما تتجلى في علم الضوء والبصريات ، وقد ألف ابن الهيثم في الضوء والاضلال وصورة كسوف القمر ، إلا أن أعظم مؤلفاته كانت ، كتابه « المناظر » الذي اعتبر أكثرها شمولاً ودقة وتحليلاً ، حتى أنه لا يقل أهمية عن الكتب الحديثة المؤلفة في موضوع انكسار الضوء وتشريح العين ،

قانون الأبصار ، وإن ابن الهيثم قد زاد عليه بتشريح العين وتفصيل نظريات الضوء ، وذهب هذا الفر إلى ، أن ما أورده ابن سينا في معرض تعريفه للبصر بأنه « قوة مرتبة في العصبية المجوفة ، تدرك صورة ما ينطبع في الرطوبة الجليدية من أشباح الأجسام ذوات اللون المتأدية في الأجسام الشفافة بالفعل الى سطوح الأجسام الصقلية » . إنما هو شرح لعملية الإبصار ليس الا .

ونحن وإن كنا لا نتفق مع ما ذهبت إليه هذه الفئة ، لنرى أن في تناولنا لجهود الحسن بن الهيثم ، كشف لمنجزات العلماء العرب في الضوء والبصريات وتوضيح لما حققوه في هذا المجال ، سبياً وإن البحث يبقى مبتوراً بدون كشوفات الحسن بن الهيثم البصرية والضوئية .

#### الحسن بن الهيثم ت ٤٣٠هـ / ١٠٣٩م

ولد ونشأ في البصرة ٣٥٤هـ / ٩٦٥م . ثم نزح الى مصر في كهولته ، أثر استدعائه من قبل الحاكم بأمر الله ، الخليفة الفاطمي ، عندما تنأى اليه قوله ابن الهيثم « لو كنت بمصر لعملت في نيلها عملاً ، تحصل به النفع في كل حالة من حالاته من زيادة ونقص ، فقد بلغني أنه ينحدر من موضع عال ، وهو في طرف الاقليم المصري »<sup>(١١٤)</sup> .

وفي محاولة لتنفيذ مشروعه ، سار ابن الهيثم الى الجنادل ، ولما لم يجد المكان العالي ، قتل عائداً الى القاهرة ، وتولى منصباً هاماً في الدولة ، حتى إذا ما شهرت أعمال الحاكم وتعديده على الناس ، وحتى لا يتهم

(١١٠) الفقهني : تاريخ الحكماء ، ١٦٥ ، البيهقي : تاريخ حكماء الاسلام ، ٨٥ ، زهير الكندي : الحسن بن الهيثم ، ٩ ، ابن أبي أصيبعة : حيون الاطباء ، ٥٥١

(١١١) مصطفى طليح : الحسن بن الهيثم ، ٣٠ / ١ ، Irving : Readings on Logie .P. 256 .

(١١٢) حمجاب ( محمد عل ) : الثروة العلمية لابن الهيثم ، مقالة مجلة الجمعية المصرية لتاريخ العلوم ، والعدد ١٣٦ / ٢ - ١٣٨

(١١٣) انظر تذكرة النوادر من المخطوطات العربية ، رويت وطبقت بجهود أباد سنة ١٣٥٠ سنة هـ .

وكيفية تكوين آقصور على شبكها . وبالأجمال ، فانه يبحث عن أحوال حاسة البصر من جهة محسوساتها ومدركاها وتتناول الكثير من ظواهر الضوء الأساسية ونحوها الذاتية ، وقد جاء الكتاب في سبع مقالات ، تناولت كيفية الإبصار وخواص البصر وتفصيل المعاني التي يدركها البصر وعللها وكيفية ادراكها وأغلاط البصر ، وفي ادراك البصر بالانعكاس عن الأجسام الصلبة والخيالات ، وأخيرا في كيفية ادراك البصر بالانعطاف من وراء الأجسام المشقة المخالفة لشيف الهواء<sup>(١١٤)</sup> . والكتاب يحققه صبرا منذ ٣ سنوات . وكانت هذه من أعظم مآثر ابن الهيثم في الضوء ، حيث أبطل النظرية القديمة التي كانت شائعة منذ عهد اليونان الى عصر ابن الهيثم نفسه وهي « أن الأبصار يكون بشعاع يخرج من البصر الى المبصر » ، إلا أن ابن الهيثم بين أن المبصر يجب أن يكون مضيا ، أما بذاته ، أو بأشراف ضوء من غيره ، وأن تكون بينه وبين العين مسافة ، وأن يكون بين كل نقطة من سطح البصر وبين العين خط مستقيم غير منقطع بشيء كثيف ، واستنتج من ذلك ، على أن السبب الرئيسي للإبصار هو وجود المبصر مع توافر هذه الشروط<sup>(١١٥)</sup> .

ويتسم بسقوط شعاع أو حزمة من الأشعة على الجسم المرئي وانعكاسه على شبكة العين<sup>(١١٦)</sup> . وعلل عدم ازدواج الصورة إذا نظر الى الشيء بعينين ، وذلك ان صورة الشيء تتأدى في كل عين ، حتى اذا وصلت الى ملتقى بصر العينين انطبقت صورتان ، اذا كانتا متماثلتين مع أنهما صورتان لا صورة واحدة .

وذعب أبعد من ذلك ، ويميز بين الأجسام المشقة التي ينفذ منها الضوء ولها قوة مؤدية للضوء ، والأجسام الكثيفة ، والتي لها قوة قبول للضوء ، ومن خصائص هذه الأجسام عند ابن الهيثم ، أنها إذا جاورت أجساما مضئية بذاتها ، استضاءت من ضوئها ، وأشرقت منها بفعل هذه المجاورة<sup>(١١٧)</sup> . ومن ناحية ثانية فقد كان ابن الهيثم أول من أقام التجارب على البيوت المظلمة ، ودخول الضوء اليها من الثقوب ، وكانت المناسبة التي هدته الى ذلك هي محاولته اثبات أن ضوء الشمس يشرق من جميع أجزاء سطح الشمس ، فأجرى التجارب على ضوء الشمس مدخلا إياه من ثقب يوصل الى غرفة مظلمة ، فتبين له أنه ينتشر داخل الغرفة انتشارا واسعا ، مما يدل على أنه يصدر من أجزاء مختلفة من الشمس ، ويرجع مصطفى نظيف ، ان الحسن بن الهيثم ، وهو يمين النظر في مواقع الأضواء النافذة من الثقوب قد عرض أمام بصره ، صورة منكوسة لجسم موجود في الخارج ، وقد عرض ابن الهيثم تجربته على الشكل التالي « اذا كان في موضع واحد عدة سرج في أمكنة متفرقة ، وكانت جميعها مقابلة لثقب واحد ، وكان ذلك الثقب ينفذ الى مكان مظلم وكان مقابل ذلك الثقب في المكان المظلم جدار أو قويع بجسم كثيف ، فإن أضواء تلك السرج تظهر على ذلك الجسم ، أو ذلك الجدار ، متفرقة وبعدد تلك السرج وكل واحد منها مقابل لواحد من السرج على السمت المستقيم الذي يمر بالثقب ، واذا ستر واحد من السرج ، بطل من الأضواء التي في الموضع المظلم الضوء الذي كان يقابل ذلك السراج فقط ، وأن رفع الستار عن السراج ، عاد ذلك

(١١٤) صبرة : تطوّر نظريات الضوء منذ ابن الهيثم حتى الوقت الحاضر ، ٧٤

(١١٥) فروخ : عبقرية العرب ، ١٠٧ ، نظيف : الحسن بن الهيثم ، ٤٢/١ ، جلال موسى : منهج البحث العلمي ، ٩٨

(١١٦) نظيف : الحسن بن الهيثم ، ٢٣/١

(١١٧) المرجع السابق ، ٨١

وأن سطحه المضيء هو الذي يكون مقابلاً لجرم الشمس؛<sup>(١٢١)</sup> بمعنى أن القمر غير مضيء من ذاته ، وأنه يكتسب ضوءه من الشمس ، وذهب الطبيعيون إلى أن ضوء القمر هو ضوء الشمس منعكسا عن سطحه إلى الأرض ، كما ينعكس الضوء عن سطوح الأجسام الصلبة .

ويعلق ابن الهيثم بقوله « ليس يوجد لأحد منهم قول برهاني يدل على أن ذلك واجب ضرورة ، ما لم يقيم البرهان على أن ذلك واجب ، فليس يحتمل وجهها غير ذلك الوجه الأمكاني ، وكان مظنوناً لا متيقناً<sup>(١٢٢)</sup> » فابن الهيثم يرى أنه ما لم يقيم البرهان على ما ادعاه الطبيعيون ، تبقى أمكانية الاتيان بفرضيات أخرى لتعليل الظاهرة وإداه ، بل ويمكنه ، وأن بتفسير للظاهرة مؤداه « أن ضوء القمر من خواص الأجسام المضيئة من ذاتها » ، إذ كل نقطة من سطحه المضيء يشرق منها ضوء على كل نقطة تقابلها ، أي أن ضوء القمر ثانوي يشرق عن القمر كما يشرق الضوء الثانوي عن سطوح الأجسام الكثيفة التي تستضيء بالأضواء المشرقة من الأجسام المضيئة بذاتها<sup>(١٢٣)</sup> .

أما ماهية الأثر الذي يظهر في وجه القمر فهو على صفة واحدة لا يتغير لا في شكله ولا في كيفية سواده . ويورد ابن الهيثم في رسالته عن ماهية ( ماهية ) الأثر الذي في وجه القمر ، آراء الطبيعيين حولله ، من اعتقادهم أن الأثر من نفس جرم القمر أو خارج عن

الضوء إلى مكانه<sup>(١٢٤)</sup> يضاف إلى ذلك أن ابن الهيثم عالج الشروط اللازمة لوضع الصورة الحاصلة بواسطة الثقب ، فاشتراط الضيق النسبي للثقب ، لأن الضيق يقلل الضوء ، فتكون الصورة أدنى إلى الخفاء عن البصر<sup>(١٢٥)</sup> .

كما درس ابن الهيثم خواص المرايا المتعددة ، وكيفية تجميع أشعة الشمس في نقطة واحدة ، تكون بمثابة النقطة التي تحدث فيها أشعة الشمس ، وهذا هو المبدأ الذي يقوم عليه القرن الشمسي في زماننا .

وتعمق ابن الهيثم أيضاً في استقراء أشعة الشمس الساقطة على مرآة ، والتي تتبعثر في اتجاهات كثيرة حسب السقوط .

إن هذه الدراسات مهدت الطريق لاختراع آلة التصوير - الكاميرا - بحجرتها المظلمة وعدستها ، وكذا الفائدة من العدسات اللامعة والمفرقة للأشعة ، ومن ثم صناعة الآلات البصرية ، القائمة على تسخير ظاهرة الزيغ الكروي الطولي<sup>(١٢٦)</sup> لتحسين رؤية العين بتلك الآلات ، النظارات الطبية فيما بعد ، وقاده هذا لدراسة العين وتشرحها ، وله في ذلك جهد لا ينكر بفضل رسوماته التشرحية .

وتستحق آراء ابن الهيثم في ضوء القمر وماهية الأثر الذي في وجه القمر وقفة تأملية . فقد كان الرأي الشائع عند الطبيعيين أن « ضوء القمر مستفاد من الشمس ،

(١٢٨) المرجع السابق ، ٨٣ .

(١٢٩) زهير الكندي : ابن الهيثم ، ١٤٤ .

(١٣٠) نظيف : ابن الهيثم ، ١٢١/١ .

(١٣١) ابن الهيثم : رسالة في ضوء القمر ، ٣ ، ضمن مجموعة رسائل الحسن بن الهيثم ، حيدر آباد الدكن ، سنة ١٣٥٧ هـ .

(١٣٢) أنظر رسائل ابن الهيثم ، ص ٤ ، جلال موسى : منهج البحث ، ٩٩ .

(١٣٣) نظيف : الحسن بن الهيثم ١/٢٢١ .

منها الى احدى التقطين المفروضتين بمثابة شعاع ساقط والواصل منها الى الاخرى بمثابة شعاع منعكس » وقد درس المسألة العديد من العلماء أمثال بودا وسارطون وفرنة وطوقان وفروخ والدمرداش ، ولكن مصطفى نظيف قد أتى ببرهانها في أكثر من مائة صفحة ، وناقش أوجهها حسب آراء ابن الهيثم<sup>(١٢٦)</sup> ، وهي تمثل ذروة التبوع عند الحسن بن الهيثم لزوايا السقوط والانعكاس .

#### السؤال :

كان للعرب فضل بين في علم السوائل ، فقد شرحوا بعض الظواهر التي تتعلق بضغط السوائل وتوازنها ، وكان ( منها جهم ) واضحا ودقيقا وسهلا ، وقد حفظ لنا ابن عساكر رواية المعتمر بن سليمان عن أبيه التي توضح مفهوم العرب لتكون ماء المطر في القرن الأول هـ . فالأمة عند خالد بن يزيد ، من النساء أو من الغيم السذي يحمله من البحر ، حيث يعذب به البرق والرعد<sup>(١٢٧)</sup> ، ويضيف خالد ، ان باستطاعته تحليل مياه البحر ، وأحضر القلال الى المجلس ، ووصف كيف يصنع به حتى يعذب<sup>(١٢٨)</sup> ويبدو أن مسألة استخراج الماء العذب من البحر كانت معروفة ، فقد لاحظ الكروخي أن أهل السفن يستخرجون من قرار البحر الماء العذب ويشربونه ، وذلك بأنهم يتخللون أنية من الأثك ، مثقوبة من أسفلها ، وفي فمها أنبوبة متخذة

جرم القمر ، أو متوسط بين جرم القمر وبين أبصار الناظرين اليه ، أو صورة تظهر بالانعكاس لأن سطح القمر صقيل ، أو أنه صور البحار التي في الأرض وترى بالانعكاس أو صور الجبال أو صورة قطعة من الأرض التي يقع عليها الشعاع المنعكس . وبعد أن يناقش ابن الهيثم هذه الآراء ويفندها ، يبين أن جوهر القمر مخالف لجوهر جميع الكواكب الباقية ، والظلمة في جرمه سببها أن ذلك الجزء لا يقبل الضوء قبولاً تاماً ، ويعمل هذه الظاهرة بالبراهين التالية :

- ان القمر يقبل الضوء من الشمس وليس فيه شيء من الشقيف<sup>(١٢٩)</sup> . ومعنى هذا أن في القمر القوة القابلة للضوء ، وليست فيه القوة المنفذة له .

- ان درجة قبول القمر للضوء تختلف من مكان لآخر على سطحه ويعزو ذلك الى كثافة ذلك الجزء .

وحري بنا أن نشير الى الدراسات الحديثة لسطح القمر ، والتي عللت الأثر بسبب وجود الجبال والوديان والحفر على سطحه . وليس ببعيد عما ورد في المقالة أن في جسم القمر تقعير ، فإذا أشرق عليه ضوء الشمس ، صار لمحيط التقعير ظل على باطن التقعير ، والأثر هو ظل محيط التقعير<sup>(١٣٠)</sup> .

وأخيراً نشير الى مسألة على غاية الأهمية ، تعرف بمسألة الحسن بن الهيثم أو « مسألة الهازن » وملخصها « إذا تعرضت نقطتان حيثما اتفق أمام سطح عاكس فكيف تعين على هذا السطح نقطة بحيث يكون الواصل

(١٢٤) انظر ، مقالة لي علي ، الحسن بن الهيثم في مائة الاثر الذي الذي في وجه القمر ، خريطة مكتبة الاسكندرية رقم ٢٠٤٦ ، نشرها عبد الحميد صبرة في مجلة تاريخ العلوم ، العدد الأول ١٩٧٧ ، ١٨٠٥ .

(١٢٥) ابن الهيثم : مائة الأثر ، ١٢ .

(١٢٦) الكوفي : الحسن بن الهيثم ، ١٥٩ .

(١٢٧) ابن عساكر : تاريخ دمشق ، ١١ ، خطوط ، ترجمة خالد بن يزيد ، بدران : جاذب تاريخ دمشق ، ١١ ، ١٢٣/٥ .

(١٢٨) نفس المراجع السابقة .



باهتمام العلماء العرب ، إذ حددوا مدى إمكانية صعود السوائل منها ، وتحليل ارتفاع الموائع فيها ، وهذا البحث قادمهم الى دراسة التوتر السطحي ، **Surface Tension** (١٣٣) وفسر ايدمرين علي ايدمرس الجلدكي ، ظاهرة التمرج في السوائل ، وجعله ( أمر يحدث بعد صدم وسكون بعد سكون ) .

ومن ناحية ثانية فقد وصف العلماء العرب طريقة لتجميد الماء في غير وقته ، باستعمال مقادير معلومة من الشب الباني الجيد المسحوق ويضاف اليه ماء في قدر ، ويجعل في تنور ويطين عليه حتى يتبخر منه الثلثان ويبقى الثلث ، ثم يرفع في قينة ويسد رأسها جيدا ، ويستعمل هذا الماء المحضر بالطريقة السابقة باضافته الى قناني مائية أخرى ، فتجمد ، وهناك طريقة أخرى استعملها المغاربة حيث ينقع بزر الكتان في خل غنمر جيد مركز ، فاذا جمد فيه ، يلقي في جرة أو حب مليء بالماء ، فانه يجمد ما كان فيه من الماء ، ولو في حزيران أو تموز (١٣٤) وقد اعتاد هارون الرشيد أن يحمل الثلج معه في أسفاره ، وكان يجلب له من الجبال الشمالية للعراق ، أو حتى من جبال لبنان ، الى أماكن حارة كالحجاز مثلا ، وهو أمر يقتضي المعرفة بوسائل جيدة لحفظ الثلج ونقله لمسافات طويلة ولعدة أيام .

#### الثقل النوعي :

ومن ناحية أخرى فقد عرف العرب الثقل لبعض

من الجلود الرقيقة مشعمة ، فلا يدخلها الماء في خرزها ويسد فم الجرة بكرة مشعمة ، قد جعل فيها خيط محدود في وسط الأنبوبة ، طوله مثل طولها ، وترسل الأنبوبة الى قعر البحر ، وعند شد الخيط ودخول الماء اليها ، تخرج الأنبوبة بالخيط المشدود في عروة مركبة عليها ، فيوجد فيها ماء عذب (١٣٥) .

وعرض البيروني لموضوع اتزان السوائل ، فشرح الظواهر التي تقدم على ضغط السوائل واتزانها وتوازنها ، وبين كيفية تجمع مياه الآبار والمياه الجوفية وكذلك صعود مياه الفوارات والعيون الى أعلى ، وبنى عليه التنايب وطريقة رفع الماء بآنايب الرصاص والروافع والبرايخ ، مستندا في ذلك الى سلوك السوائل في الأواني المستطرقة حيث تتساوى السطوح ، فان اخفضت أحدها عن الأخرى سال الماء الى أن ينتهي الماء أو تعود لحالة التوازن مرة أخرى (١٣٦) .

وقد حوى كتاب الخازني ، مواضيع هامة في موازنة السوائل ، منها على سبيل المثال ، موازنة عمود الميزان على سطح الأفق والميزان المائي ، وكذلك في أحكام الجسم المصمت ( المجوف ) في الماء وطفوه ورسوبه ، وعلل الحالات التي يمكن أن تغرق السفينة أو حتى حساب مقدار غوصها في الماء وهي عملة (١٣٧) ، وكتاب ميزان الحكمة كتاب معتبر في علم الطبيعة العامة ، وعلم الهندروستاتيكا والميكانيكا خاصة (١٣٨) .

كما حظيت الخاصية الشعرية في الأنابيب الدقيقة ،

(١٣٥) محمد بن الحسن الحاسب الكرخي : ألباط المياه الجوفية ، ١٠ - ١١

(١٣٦) جلال شوقي : دراسات البيروني في الطبيعة ، ٢٦٩ ، البيروني : الآثار الباقية ، ٢٦٢ - ٢٦٣

(١٣٧) عبد الرحمن الخازني : كتاب ميزان الحكمة ، ط حيدر ابد ، ٢٦ - ٢٨

(١٣٨) مرحبا : الترميز في تاريخ العلوم ، ٣٤٧

(١٣٩) أنور الرفاعي : تاريخ العلوم ، ١٤٠

(١٤٠) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، ١٢٤ ، الشمس : مقدمة لعلم المكتبات ، ٤١

ولم تقف جهود العلماء العرب على دراسة الثقل النوعي للمواد الصلبة ، بل شملت أيضا المواد السائلة ، وكانت نتائجهم متفوقة في اقتربها من الأرقام الحديثة :

المادة	الحازن	أرقام	الأرقام
الماء العذب البارد	١,٠٠	١,٠٠	
الماء الحار	٠,٩٥٨	٠,٩٥٩٧	
الماء اذا بلغ درجة الصفر	٠,٩٦٥	٠,٩٩٩	
ماء البحر	١,٠٤١	١,٠٢٧	
زيت الزيتون	٠,٩٢٠	٠,٩١	
حليب البقر	١,١١٠	١,٠٤ - ١,٤٢	
دم الانسان	١,٠٣٣	١,٠٤٥ - ١,٠٧٥	

وتعتبر نسب الحازني دقيقة ، لأن فرق الاختلاف انما يعود الى طبيعة الماء والسوائل وليست للخطأ أو عدم دقة الطريقة<sup>(١٣٨)</sup> . فقد استعمل الحازن ميزان الهواء Aero Meter في ذلك ، وقد ذكر محي الدين عبد القادر بن محمد الطبري ت ٩٧٦ هـ / ١٥٦٨ م . في كتابه « عيون المسائل من أعيان الوسائل » ، جداول فيها الأثقال النوعية للذهب والزئبق والرصاص والفضة والنحاس والحديد ولبن البشر والجبن والزيت والياقوت ، والياقوت الأحمر ، والزمرّد ، واللازورد والعقيق والماء والزجاج<sup>(١٣٩)</sup> .

المواد الصلبة والسائلة ، وقدروا ثقلها بدرجة دقيقة تقترب أحيانا مما قدره علماء العصر الحاضر ، وفي بعض الأحيان تطابق الدراسات الحديثة . بالرغم من اختلاف المستوى العلمي والتقني<sup>(١٣٥)</sup> . وقد أوجد العلماء أجهزة لتعيين الثقل النوعي ، فالبيروني مثلاً استخدم جهازاً لتعيين الثقل النوعي للمعادن والأحجار الكريمة ، ذا شكل مخروطي ، له مصب بالقرب من فوهته ، بحيث يتجه الى أسفل ، وتقوم طريقة البيروني على القاعدة المعروفة : الكثافة = الحجم / الكتلة = ث / ح / ك ، ولهذا كان يزن الجسم في الهواء وزناً دقيقاً ، ثم يلقيه في الاناء المملوء بالماء ، فعندما يغمر الجسم في الماء يزاح الماء الى وعاء آخر ، وهو حجم الجسم المغمور ، وأهمية الجهاز ، أن يكون معروفًا في هذه الفترة المبكرة من تاريخ العلوم<sup>(١٣٦)</sup> ويدخل في أبحاث الكثافة والحجوم وغيرها .

ان استعراض أرقام نتائج دراسات البيروني والحازن في الثقل النوعي ومقارنتها بالأرقام الحديثة تبين أن أرقام البيروني والحازن كانت قريبة جداً من القيم الصحيحة الحالية :

المادة	أرقام البيروني	أرقام المخازن	الرقم الحديث
الذهب	١٩, ٢٩	١٩, ٠٥	١٩, ٢٦
الزئبق	١٣, ٤٩	١٣, ٥٦	١٣, ٥٩
النحاس	٨, ٨٣	٨, ٦٦	٨, ٨٥
النحاس الأصفر	٨, ٦٧٦	٨, ٥٧	٨, ٤ (١٣٧)

(١٣٥) في مكتبة الأنبار الثلاثة لعلوم الأثرولوجي ، بيروت - هناك رسالة في النسب التي بين القلوات والجواهر ، أنظر المشرق ، المجلد العاشر ، سنة ١٩٠٦ ، ٩ .

(١٣٦) جلال شوقي : دراسة البيروني في الطبيعيات ، ٢٦٤ ، أبحاث الندوة العالمية لتاريخ العلوم حلب ٧٧ ، ٢٦٤ .

(١٣٧) الأرقام مقاربة الى الماء ، هل أساس أن الوزن النوعي للماء = ١ .

(١٣٨) الدومطلي : العلم عند العرب ، ٢٢٨ .

(١٣٩) كعالة : العلوم البحتة ، ٢٤٠ ، الرافعي : تاريخ العلوم في الاسلام ، ١٤٣ .

والقسرية والارادية والطبيعية<sup>(١٤٥)</sup>. ولا تخرج قوانين الحركة عن هذه المضامين كما يتضح من مناقشتها .

### القانون الأول :

يقول هذا القانون بأن الجسم يبقى في حالة سكون أو حالة حركة منتظمة في خط مستقيم ما لم تجبره قوى خارجية على تغيير هذه الحالة ، ويتعلق القانون بخاصية القصور الذاتي أو العطالة .

وقد تناول اخوان الصفا أجزاء من القانون في رسائلهم في أكثر من وضع عند حديثهم عن الحركة ، فالأجسام الكليات كل واحد له موضع مخصوص ، ويكون واقفا فيه لا يخرج الا بقسر قاسر ، فمتى وقفت الدابة ، سكن الدولاب وعدم الاستقاء<sup>(١٤٦)</sup> .

وابن سينا في الاشارات والتنبيهات ، ذكر « انك لتعلم أن الجسم اذا خلى وطباعه ، ولم يعرض له من خارج تأثير غريب ، لم يكن له بد من موضع معين وشكل معين فاذا في طباعه مبدأ استيجاب ذلك<sup>(١٤٧)</sup> . وما يريد ابن سينا بيانه أن الجسم لا يخلو من موضع وشكل طبيعيين ، لأن فيه طبيعة تقتضي ذلك ، شرطة أن لا يعرض له من الخارج أي تأثير ، لأن التأثير الخارجي ربما جعل للجسم موضعا وشكلا قسريا ، كتأثير الحرارة والآناء المتكعب في الماء .

ان التعمق في دراسة كثافة الأجسام ، وثقلها النوعي ، كانت المحوى للعالم العربي الأندلسي عباس بن فرناس ، بفكرة الطيران المعروفة النهاية<sup>(١٤٨)</sup> ، اذ وقع وأصيب بكسور سببت له آلاما عاشت معه لسنوات قبل وفاته .

### الحركة :

حدد ابن سينا في كتابه الشفاء العناصر الأساسية للحركة وهي ، المتحرك والمحرك وما منه واليه ، والزمان<sup>(١٤٩)</sup> . ويرى أبو البركات هبة الله ابن ملكا البغدادي ان اتصال الزمان لازم لاتصال الحركة<sup>(١٥٠)</sup> .

وقد قسم فلاسفة العرب الحركة الى عدة أقسام منها : الحركة الانتقالية والحركة الوضعية ، والحركة القسرية والحركة الطبيعية<sup>(١٥١)</sup> . وفي عصرنا يقوم علم الحركة على قوانين ثلاثة ، جرى العرف على نسبتها جميعا الى اسحق نيوتن ، علما أن بين العلما سواء من المشرق أو المغرب من سبقوه إليها ، غير أن فضل نيوتن في حسن وجودة صياغته لها ، وتعديده صورها الرياضية وعلى الأخص القانون الثاني<sup>(١٥٢)</sup> .

وقد جمع الجرجاني ت ٨١٦ هـ / ١٤١٣ م في كتابه « التعريفات » الحالات الممكنة للحركة في الكم والكيف والأين والوضع والحركة العرضية والذاتية

(١٤٥) الرافعي : تاريخ العلوم في الاسلام ، ١٤٣ .

(١٤٦) المحرك : الجسم الذي فيه الحركة ، المحرك : القوة المسببة للحركة ، ما فيه : المكان والموضع ، ماته وما له : مواضع الابتداء والانتها ، والزمان : الفترة الزمنية التي تتم فيها الحركة بقطع مسافة الانتقال .

(١٤٧) العراقي (محمد عاتق) : الفلسفة الطبيعية عند ابن سينا ، ط مصر سنة ١٩٩٦ ، ١٩٩ .

(١٤٨) مصطفى نظيف : الحسن بن الهيثم ، ١٢٢/١ .

(١٤٩) جلال شوقي : تراث العرب في الميكانيك ، ٣٦ .

(١٥٠) الجرجاني (علي بن محمد) : التعريفات ، ٤٥ .

(١٤٦) اشراق الصفا : الرسائل ، ٣٣٣/٣ ، ابن سينا : الاشارات والتنبيهات ، ٢٥٤/٢ .

(١٤٧) ابن سينا : الاشارات والتنبيهات ، ٢٧٣/٢ .

تضمن كتاب المناظر شرحاً للأوضاع التي يراها ابن الهيثم لتصادم الأجسام .

لقد كانت دراسة الحسن بن الهيثم لحركة تصادم الأجسام دراسة علمية مؤيدة بالتجربة والتحليل ، فأمكنه التوصل إلى القواعد الأساسية التي تحكم هذه الحركة ، ووقف على معنى كمي للحركة ، وقدم ابن الهيثم أول طريقة عرفها العالم لقياس صلابة الأجسام ، على أساس تباين ممانعة الأجسام للانفعال بالمصادمة<sup>(١٥٢)</sup> .

#### القانون الثاني :

وينص هذا القانون على أن القوة اللازمة للحركة تتناسب مع كل من كتلة الجسم المتحرك وتسارعه ، وبالتالي فإنها تقاس بحاصل ضرب الكتلة والتسارع بحيث يكون التسارع في نفس اتجاه القوة وعلى خط ميلها وبلغتنا الحديثة « تتناسب المعجلة التي يتحرك بها جسم تناسباً طردياً مع القوة المؤثرة عليه ، وتناسباً عكسياً مع كتلته » .

ونستطيع القول أن العرب قد وقفوا على بعض المعاني الواردة فيه ، ولم يتوصلوا إلى منطوق القانون ذاته ، ولنتعرض مقولات العلماء بهذا الصدد ، فابن سينا يرى بأن القوة في الجسم الأكبر ، إذا كانت مشابهة للقوة في الجسم الأصغر حتى لو فصلت من الأكبر مثل

وعليه فإن مبدأ القصور الذاتي أشار إليه ابن سينا أيضاً في طبيعيات الشفاء حيث إن الجسم وهو في حالة الاندفاع تكون قوته المستمدة من السبب الذي أثار حركته في الأصل ، قادرة على دفع تلك القوة التي تعوقه عن الحركة في اتجاه معين أي قادرة على مقاومة الوسط الذي تنطبق فيه ، حتى تتبدد أخيراً في الحلا<sup>(١٤٨)</sup> .

وينبه ابن سينا إلى أن الجسم له ميل للاستمرار في حركته ، يحس به المانع والذي لا يتمكن من منع حركته إلا فيما يضعفها أولاً ، حيث تأخذ الموانع الخارجية والطبيعية معاً في إفنائه قليلاً قليلاً<sup>(١٤٩)</sup> .

ويجمل القول ، أن ابن سينا قد توصل إلى القانون الأول للحركة بشقيه الخاصين بحالة السكون وحالة الحركة المنتظمة ومدافعة الجسم وطلبه البقاء على حاله ومقاومته للتغيير ، وهي ذاتية خاصة بالجسم ، حال سكونه وحال حركته<sup>(١٥٠)</sup> .

ومن ناحية أخرى ، فقد تضمنت مباحث ابن الهيثم معنى القصور الذاتي ، فقد ناقش ذلك في وصفه حركة الكرة بعد ارتدادها من السطح ، إذ لا تلبث الكرة حتى تهبط إلى أسفل للقوة الطبيعية المحركة لها إلى أسفل ، كما أسند تغير قوة الحركة من حيث الكم والمقدار إلى القوة ، وذلك وأصبح من اسناد تغير الحركة إلى فعل الممانعة في أقواله عن الانعكاس وعن الانعطاف ، وكذلك في تحليله لفكرة الحركة إلى مركبتين متعامدتين<sup>(١٥١)</sup> . وقد

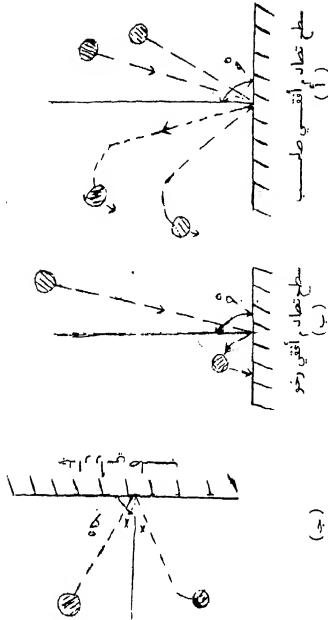
(١٤٨) نصر (سيد حسين : ثلاثة حكماء مسلمين ، ٤٨ .

(١٤٩) ابن سينا : الأشارات والتهيئات ، ٢٨٣/٢ .

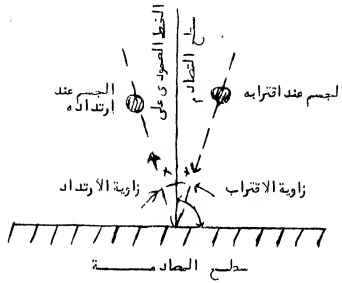
(١٥٠) جلال شوقي : تراث العرب ، ٦١ .

(١٥١) نظيف : الحسن بن الهيثم ، ١٤٨/١ .

(١٥٢) جلال شوقي : تراث العرب ، ٥٥ .



(شكل ٢٠) مسار الجسم العاكس قبل وبعد الصدمة  
عند انقاس ترات العرب الجليدية الميكانيكية لجورج ستوني



(شكل ٣ / تساوي زاويتي الاقتراب " السقوط " و الارتداد ( الانعكاس )  
عند تصادم جسم مع سطح أملس .

المفروض ، فيجب أن يحرك الثاني أكثر من الأول ، وذلك لأن المقسور انما يعاون الفاسر بحسب طبيعته المخالفة لطبيعة الفاسر ، ويستنتج نصير الدين بأن القوة غير المتناهية لو حركت بالفرض جسمين مختلفين ، لوجب أن يكون تحريكها إياهما متفاوتاً<sup>(١٥٦)</sup> .

ويقول هبة الله بن ملكا البغدادي ت ٥٤٧ هـ في كتابه «المعتبر في الحكمة» بازدياد السرعة عند اشتداد القوة ، فكلما زادت قوة الدفع زادت سرعة الجسم المتحرك وتقصّر الزمن لقطع المسافة المحدودة .

وكل هذه النصوص تبين أن العرب قد وقفوا على ما يكاد يكون كل معاني القانون الثاني للحركة ، وإن لم يتوصلوا إلى صياغته بشكل رياضي مناسب كما فعل اسحق نيوتن بعدهم<sup>(١٥٧)</sup> .

### القانون الثالث :

وينص هذا القانون على أن « لكل فعل رد فعل مساوٍ له في المقدار ، ومضاد في الاتجاه » .

ولنا أن نقرر ، أن العرب قد قالوا بأصول هذا القانون وعلى الأخص ، أبو البركات ، هبة الله بن ملكا البغدادي في كتابه المشار إليه سابقاً ، وكان يراقب لعبة شد الحلقه من قبل متصارعين ، فذهب إلى أن الحلقة المتجاذبة بين المصارعين ، لكل واحد من المتجاذبين في جذبها قوة مقاومة لقوة الآخر ، فإن غلب أحدهما ، كانت قوته مقهورة وليست معدومة .

الأصغر ، تشابهت القوتان بالاطلاق ، فإنها في الجسم الأكبر أقوى وأكثر ، إذ فيها من القوة شبيه تلك الزيادة ، ويضيف ابن سينا بأن الجسم الأقل مقدارا أقبل للتحرك وأسرع حركة<sup>(١٥٨)</sup> .

ويؤكد فخر الدين الرازي ، ازدياد القوة الطبيعية مع عظم الجسم ، فالأجسام كلها كانت أعظم كان ميلها إلى إحياؤها الطبيعية أقوى ، فإذا كانت كذلك ، كان قبولها للميل القسري أضعف<sup>(١٥٩)</sup> .

وذهب لمثل ذلك نصير الدين الطوسي في معرض شرحه لإشارة ابن سينا في الفصل التاسع عشر من النهج السادس من الالهيات ، وقد جاء منها « اعلم أنه لا يجوز أن يكون جسم ذو قوة غير متناهية يحرك جسماً غيره ، لأنه لا يمكن أن يكون الا متناهياً ، فإذا حرك بقوته جسماً ما ، من مبدأ يفرضه ، حركات لا تنهاه في القوة ثم فرضنا أنه يحرك أصغر من ذلك الجسم بتلك القوة ، فيجب أن يحركه أكثر من ذلك من المبدأ المفروض ، فتقع الزيادة التي بالقوة ، في الجانب الآخر ، فيصير الجانب الآخر متناهياً أيضاً ، وهذا محال<sup>(١٦٠)</sup> » ويشرح نصير الدين الطوسي هذه الإشارة على الكيفية التالية ، ان القوة التي لا نهاية لها ، هي التي تكون على أعمال أو حركات غير متناهية ، والحركة غير المتناهية هي الدورية ، وفي مثل هذه الحالة ، فإن القوى الجسمية غير متناهية ، ثم إذا فرضنا أن ذلك الجسم المحرك ، يحرك جسماً آخر شبيهاً بالجسم الأول في الطبيعة ، وأصغر منه في المقدار ، بتلك القوة عيها من ذلك المبدأ

(١٥٨) ابن سينا : الطبيعيات ، ١٥ ، جلال شوقي : تراث العرب ، ٦٦

(١٥٩) جلال شوقي : تراث العرب ، ٦٧

(١٦٠) ابن سينا الاشارات والنتيحات ، ١٦٥/٣

(١٥٦) المرجع السابق ، ١٦٧

(١٥٧) جلال شوقي : تراث العرب ، ٦٩

وهو يجاهد ليأخذ مكانه الطبيعي ، انما يسلك في ذلك أقرب الطرق ، الخط المستقيم ، كما حاولوا أن يعلموا العديد من خواص الجذب ، فالمدرة عند ثابت بن قرة انما تعود الى السفلى ، لأن بينها وبين كلية الأرض مشابهة في كل الأعراض من البرودة واليبوسة والكشافة ، والشيء ينجذب الى مثله والأصغر ينجذب الى الأعظم ، وإلى المجاور الأقرب قبل انجذابه الى مجاوره الأبعد . وعند اخوان الصفا أن الاجسام هي في أمكنتها الطبيعية الخاصة لا توصف بالخفة أو الثقل ، فاذا ما خرجت من أمكنتها وصفت بالثقل ، ان كانت حركتها نحو المركز (مركز الأرض) ، وبالخفيفة ان كانت حركتها نحو المحيط ، ولعل الثقل والخفة تكون أيضا بسبب الموانع التي تعوق الجسم من أن ينتظم في مكانه الطبيعي ، فيقع التنازع ، ويكون على أشده في المركز وأضعفه في المحيط<sup>(١٥٩)</sup> ولا تتعدى آراء ابن سينا هذا الإطار في الثقل والخفة ، ولم يأت فيها بجديد ، وانما عرضها على النهج الأرسطوي ، فلكل جسم مكانه الطبيعي أو ميزة تقتضي طبيعته أن يتحرك اليه ، فالتار مثلا تتحرك الى أعلى ، والجمر عادة وطبيعا يتحرك الى أسفل<sup>(١٦٠)</sup> ، والمتحرك الى الوسط هو الذي يسمى ثقيلًا ، اما المتحرك عن الوسط فيكون خفيفًا<sup>(١٦١)</sup> ، وقد علق فخر الدين الرازي على هذه المسألة بأن كل جسم له ميل الى المكان الملائم ويميل عن المكان الغريب ، والميل هو الثقل والخفة<sup>(١٦٢)</sup> .

ومن ناحية أخرى ، فقد أدرك علماء العرب ، أن قوة

أما فخر الدين الرازي ، في كتابه « المباحث الشرقية في علم الالهيات والطبيعات » عند حديثه عن الميل والمدافعة ، فيسرى ، أن وقوف الحلقة في الوسط بين المتجاورين تدل على فعل كل منها فيها فعلا متساويا وهو يتعدى المدافعة أي قوة الدفع وهو غير قوة الجذب أيضا . ويقرر أن الذي فعله كل منها لو خيل عن المعارض (العائق) لاقتضى انجذاب الحلقة الى جانبه ، وأنهى أن ما حدث يتعدى العلة الطبيعية والقوة النفسانية .

وجعل القول ، أن العرب بالفعل قد توصلوا الى أصول الفانوزين الأول والثالث للحركة ، وكادوا أن يتوصلوا الى القانون الثاني للحركة في صورته الكاملة<sup>(١٥٨)</sup> .

#### أما الجاذبية الأرضية :

فقد درس العرب منذ القرن التاسع الميلادي ، قوة التناقل الناشئة عن الجاذبية الأرضية ، وسموها القانون الطبيعي أو الميل الطبيعي ، حيث افترضوا أن لكل جسم مكانه الطبيعي في منظومة الكون ، فاذا ما أخرج منه قسرا ، نزع الى استعادة مكانه الطبيعي . وقد درس مجموعة من العلماء تفاصيل تساقط الأجسام تحت تأثير الجاذبية الأرضية . ومنهم على سبيل المثال ، ثابت بن قرة ، واخوان الصفا ، والبيروني وابن سينا ، وأبو البركات هبة الله بن ملكا البغدادي وفخر الدين الرازي ونصير الدين الطوسي ، وذهبوا الى أن الجسم

(١٥٨) المرجع السابق ، ٧٧

(١٥٩) اخوان الصفا : الرسائل ، أنظر رسالة الساء والعالم

(١٦٠) أبو يان : تاريخ الفكر الفلسفي ، ٣٠٣ ، ماجد فخري : تاريخ الفلسفة الإسلامية ، ١٨٨

(١٦١) ابن سينا : الطبيعيات ، ٩

(١٦٢) المرجع السابق ، ٩٩



تظهر عندما تكون الشمس في نصف النهار، وإنما عند الطلوع أو الغروب، ولا يختلف هذا القول عن ما ذهب إليه العلم الحديث. وقد صرح البيروني مقولات الهنود حول ظاهرة المد والجزر، وبين أنها ترتبط بالتغير الدوري لوجه القمر<sup>(١٦٦)</sup>.

ولعل البيروني خير من فهم هذه الناحية من العلماء في عصره فهي علميا صحيحا، فقد عرف بأن الأرض تجذب ما فوقها نحو مركزها، وأن الأجسام تنزع دوما إلى المركز<sup>(١٦٧)</sup>، وأورد الأدريسي أن الأرض جاذبة لما في أبدانهم (أي أبدان الأجسام) من الثقل وتكون الأرض بمنزلة حجر المغناطيس الذي يجذب الحديد. وعرف الخازني في «ميزان الحكمة» أن الأجسام الساقطة تنجذب في سقوطها إلى مركز الأرض، وتجاوز ذلك إلى معرفة نسبة السرعة المتصاعدة في سقوط الأجسام، «فالثقل هو القوة التي يتحرك بها الجسم الثقيل إلى مركز العالم» والسرعة تزيد عندما يكون الوسط (الهواء) رطبا وغيرها من الأمور<sup>(١٦٨)</sup>.

ومن ناحية أخرى، فقد سخر العرب ظاهرة الجاذبية الأرضية لخدمة حياتهم اليومية، وخاصة في الأبرة المغناطيسية، إذ استعملوها في أسفارهم البحرية لتحديد الاتجاهات، ولأغراض أخرى، بعد تطور معرفتهم العلمية، زعم أن اليونان قد عرفت المغناطيس، وتأكدوا من اتجاهه نحو الشمال والجنوب على الأقطاب المغناطيسية الأرضية، إلا أنهم لم يعرفوا

التأثير الذي يزيد بكم الجسم وأنها تسلك أقصر الطرق في تساقطها، وتزيد سرعته مع مسافة السقوط ولا تعتمد تلك السرعة على كتلة الجسم، وبهذا الصدد يذكر هبة الله بن ملكا في كتابه المعتبر في الحكمة «وأياها لو تحركت الأجسام في الخلاء لتساوت حركة الثقل والخفيف والصغير والمخروط المتحرك على رأسه الحاد، والمخروط المتحرك على قاعدته الواسعة»، في السرعة والبطء، لأنها إنما تختلف الملامحة بهذه الأشياء بسهولة خرقها لما تحرقه من المقام المخزوق، كالماء والهواء وغيره<sup>(١٦٩)</sup>. وهذه الأخيرة إنما هي مبادئ للديناميكا الهوائية، حيث أن مقاومة الهواء تختلف باختلاف الشكل الهندسي للجسم الذي يتحرك في الهواء، فالسهم المائل مثلا يجعل من الهواء وسطا حاملا له، في حين أن الشكل المخروطي يلقي مقاومة من الهواء. ولعمري إنها اللبنة الأولى لدراسة حركة الأجسام في الهواء، وما يسمى في عصرنا بالديناميكا الهوائية<sup>(١٧٠)</sup>.

ولم تتوقف بحوثهم عند هذا الحد، فقد أدركوا أن للهواء وزنا، وأن له قوة رافعة كما في السوائل<sup>(١٧١)</sup>، وأدرك الخازني أن وزن الجسم في الهواء ينقص عن وزنه الحقيقي، وعلم ابن سينا حركة الرياح بتدخل جهة من الهواء لسفونة أو برودة وكذا الشمسيات التي هي كالشموس، خيالات تحدث في مرآة شديدة الاتصال والصلابة، والنيازك عند ابن سينا، خيالات أيضا في لون قوس قزح، إلا أنها مستقيمة، تكون في جنبه الشمس بمنة عنها أو يسرة، لا تحتمها ولا أمامها، وقلبا

(١٦٣) جلال فوري: قرات العرب، ٨٣.

(١٦٤) هبة الله بن ملكا: المعتبر، ١٠٧/٢.

(١٦٥) الخازني: ميزان الحكمة، ٥.

(١٦٦) البيروني: تحقيق ما للهند من مقولة، ٤٢٨/١٣٧.

(١٦٧) المرجع السابق، ٢٣٣.

(١٦٨) الخازني: ميزان الحكمة، ١٦ - ٢٠.

البصريات القليلين المشهورين في العالم كله . و يبدو ان شهرة ابن الهيثم الأوربية ، انما تعود الى اطلاق الاوروبيين على كتابه « المناظر » منذ فترة مبكرة ، لا سيما وان كتابه « المناظر » يعتبر أهم كتاب ظهر في القرون الوسطى ، لانه استوفى العديد من البحوث الضوئية ، وعالج القوانين الأساسية للانعكاس والانكسار والانعطف ، تلك القوانين التي تعرف خطأ بقوانين ديكارت بالإضافة الى المواضيع الأخرى ، مما حدا به H. Sutter أن يذكر بأن هذا الكتاب « المناظر » قد أثر تأثيراً عظيماً في دراسة علم المناظر أثناء القرون الوسطى من عهد روجر بيكون الى عهد كيبلر (١٧٠) .

كان العالم البولوني Witello أول من نشر كتابا في البصريات في أوربا سنة ١٢٧٠ م . ، وضعه كما قال هو نفسه على أساس ما جاء في كتاب بطليموس القلوزي ، وكتاب آخر لمؤلف عرف في العالم اللاتيني باسم « AL-Hazen » (١٧١) وما هو الا الحسن بن الهيثم .

ان هذه الإشارة التي أوردها « witello » ، كانت بداية التوجه الأوربي نحو دراسة منجزات الحسن بن الهيثم ، ومن يومها ، وأبحاث الحسن بن الهيثم تجد مكانها في الدراسات الأوربية اما بصورة مشتهرة أو بالاقتراس الضمني ، فقد درس جون بيكام سنة ١٢٩١ م ما أسماه « علم المناظر » ولدى تدقيقه من قبل الدوميلي ، خلص الدوميلي بنتيجة مزاها « ان مناظر peckam . آء ليست الا اقتباسا ناقصا من كتاب ابن الهيثم » (١٧٢) . أما روجر بيكون فكان أكثر نبلا ممن

البوصلة ، الاختراع الذي تنازعه كل من الصينيين والعرب والطلليان ، وتسقط دعوى الايطاليين لأنها تنسبها الى جيرارد الكريمني ، والذي أثبتت الدراسات المحدثّة الموثوقة ، ان جيرارد اعتاد أن ينسب ما ترجمه من التراث العربي لنفسه ، فيدعي التأليف وما هو بأكثر من مترجم وحتى مترجم ضعيف لأنه لم يكن يجيد العربية ، اما الادعاء الصيني فان المؤرخ الصيني Chuyu يذكر أن الصينيين عرفوا البوصلة عن طريق ملاحين أجنبية هندية أو عرب ، وحيث أن المراجع الهندية لا تذكرها ، فالتنازع انما وصلت الصين مع الملاحين العرب الذين كانوا يجوبون الهند والصين في رحلاتهم البحرية وأن البوصلة تطوير عربي لفكرة الأبرة المغناطيسية وامررها معروف .

ومن الجدير بالذكر ، ان بطرس فون ماريكو ، نقل مباشرة معلوماته عن المغناطيس من العرب ، وكذا كيفية استعمال البوصلة ، وأدخلها الى أوربا ، ورسالته المسماة « Epistole Mayneie » مشهورة ومعروفة في الأوساط العلمية الأوربية (١٦٩) .

#### أثر الفيزيائيين العرب في الترقى الأوربي :

يعد ابن الهيثم أعظم الفيزيائيين العرب بابتكاراته واختراعاته المتعددة ، ويبدو ان اهتمام علماء أوربا به في بدء نهضتهم يفوق اهتمامهم بأي عالم آخر ، ولعل سارطون أصاب كبد الحقيقة حين قرره ان ابن الهيثم هو أعظم عالم ظهر عند العرب في علم الطبيعة ، بل أعظم علماء الطبيعة في القرون الوسطى ، ومن علماء

(١٦٩) النمس : مقدمة لعلم الميكانيك ، ٣٩ .

(١٧٠) دي بور : تاريخ الفلسفة الإسلامية ، ١٩٢ .

(١٧١) نظيف : الحسن بن الهيثم ، ٢ .

(١٧٢) الدوميلي : العلم عند العرب ، ٢٠٨ .

وقد ترجم جيرار دي كرمونات ١١٨٧ ، رسالة ابن الهيثم في الشفق ، ونشرت رسالته في الضوء في المجلة الآسيوية - الألمانية ( Z d m g ) في العدد ٣٦ ، الصفحات ( ١٩٧ - ٢٣٧ ) ، نشرها المستشرق بارمان ، وفيها بحث عن ماهية الضوء وكيفية انتشاره والأجسام المشقة التي تنقله . (١٧٥) .

وترجم Carl Shoy مقالة ابن الهيثم في الأثر الظاهر في وجه القمر ، وكان عنوان مقالته في سنة ١٩٢٥ ،

Abhandlung des Shaicks... Ibn Al-Haitham: Über die Natur der Spuren (Flecken), die man der Oberfläche Des Mondes sieht, Hannover, 1925.

وأعادها عبد الحميد صبره فيما بعد في مجلة تاريخ العلم ، ١٩٧٧ ، العدد الأول ونشر أرمأن آبل بحثا عن المقالة بالفرنسية بعده بعشر سنوات وعنوانه

La Selenographie d'Ibn Al-haitham (965-1039) das ses rapports avec la sciences, Bruxelles, 19-23, Juin, 1935,p. 76-81. (١٧٦)

ومع أن كاجوري يقر في كتابه - history of physics ، بأن الحسن بن الهيثم كان أول طبيب وصف العين بصفة تشريحية ، فقد نسب اكتشاف الخراطة

سبقوه ، فاعترف بأیدی ابن الهيثم فيما توصل اليه من نتائج دراساته البصرية والضوئية سنة ١٢٩٤ م . وقد نشر رزنر سنة ١٥٧٢ ترجمة لاتينية كاملة لكتاب المناظر سماها « الذخيرة في الأوبتيكي للحسن » ، وقد بقيت الترجمة دستورا للبصرييات حتى القرن السابع عشر (١٧٣) . وتواكبت الدراسات عن ابن الهيثم فيها بعد ، فقد اطلع E. Weidemann على مخطوط عربي عنوانه « تنقيح المناظر للوي الأبيصار والبصائر » لكمال الدين الفارسي ، فألف على أثرها zu ibn alhaitams optik ، وترجم كيفية الأظلال ، وفقرات من رسالته في المكان ، ومسألة ابن الهيثم العددية ، التي أشرنا إليها سابقا ، ورسالته في المرايا المحرقة بالدوائر (١٧٤)

ومن الدراسات المحدثة التي جعلت ابن الهيثم وكشفه عناوينها الرئيسية نذكر :

H. J. Winter: The Optical researches of Ibn Al-Haitham in Contaurus, 31 (1954) p. 19-120

O. S. Marshall: Al-Hazen and the telescope, Astronomical society of the pacific, San Francisco, 1950

Donald, R. Hill: On the Construction of water Clocks, The Art Bulletin, 11, 1920,p.206-214 .

Library of the University of Leiden .

(١٧٣) هنار القاضي : أثر المدينة الأسلامية في الحضارة الغربية ، ٢١١

(١٧٤) المرجع السابق ، ٢١١

(١٧٥) المقري : السلة الثاقبة ، العدد ٢٤ ، سنة ١٨٩٩ ، ١١٠٧

(١٧٦) عبد الحميد صبره : مقالة الحسن بن الهيثم ، حلب ، المجلد الأول ، العدد الأول ، ١٩٧٧ ، هـ عبد الرحمن بدوي : أبحاث المستشرقين في تاريخ العلم ، عالم الفكر ، الكويت ، ١٩٧٨ ، ٣٩

الصوت<sup>(١٧٨)</sup> . ومعظم هذه الأبحاث وجدت طريقها الى الترجمة المبكرة .

وأخيرا فإن نظرية ابن سينا حول القصور الذاتي ، ظهرت لأول مرة بصورة واضحة في كتابات peter olivi ، وحرفت على يد جون بوريدان غير أن البحث الأوربي المنصف اعترف بما قدمه علماء الفيزياء العرب في مجالات الحركة والقوى والجاذبية ، مما يتعلم معه على أي باحث في تاريخ العلوم أن يتجاوزه .

أما ما قدمه العرب في علم الحيل وصنعة الآواني وتأثر الأوربيين بها وعلى الأخص الروافع ، فهذا مما أشرنا اليه في القسم الأول من بحثنا هذا .

ان تاريخ العلوم حلقات متصلة ، وان تتجاوز بعضها ، باعتبارها ليست ذات شأن يضعف حلقة النتائج الجنيذة ، ولا يضر بأية حال بنية الحلقة المتخاطة ، وعندها ، فإن إعادة الربط والوصل بين الحلقات يصبح أمرا عتيا ، وهذا ما نحاول أن نجذره ، فهلا تعاونوا ؟

المظلمة ذات الثقب الى باتيسنا دلابورتا من خلال وصفه لها في كتابه Magia naturalis ( السحر الطبيعي ) . ونحن وان كنا نقدر له رأيه ، فنورد ان حين بن اسحق في مقالاته العشر عن العين قد سبق ابن الهيثم في تشريح العين ، كما أن دلابورتا يثير في كتابه المذكور ، مسألة تأثيره بما توصل اليه ابن الهيثم بهذا الصدد<sup>(١٧٩)</sup> ، ولعل ابن الهيثم قد فسر عمل الكيرا تفسيراً مقبولا من الناحية النظرية والعلمية .

ولم يقتصر اهتمام علماء أوربا على منجزات الحسن بن الهيثم دون غيره ، فقد ترجمت أيضا بصريات الكندي الى اللاتينية ، وكان لها أثر في أعمال روجر بيكون وغيره . اما الكندي ت ٢٥٢هـ / ٨٨٦ م فينسب اليه أكثر من ٢٦٥ بحثا على شكل رسالة ومقالة وكتاب في الفيزياء والطقس والمذ والجزر والبصريات والصوت والموسيقى ، بالإضافة الى ماكتبه في المطر والظباب والرياح وأسبابها وانجاسها والكثافة والتلج والبرد والصواعق والرعد واختلاف سرعة الضوء عن سرعة



(١٧٧) نظيف : الحسن بن الهيثم ، ١٨٠ ، غدار الغاضي : أثر المدينة ، ٢١٢

(١٧٨) مرصبا : المرجع في تاريخ ، ٣٢٢ .

## (ملخص)

يعتبر معجم البلدان أهم مصنف في تراث الأدب الجغرافي العربي ، وقد كتب كثير من المستشرقين والباحثين حول هذا الكتاب ، حتى قال كراتشكوفسكي « لعله لم يتمتع جغرافي عربي بعدد من الدراسات مثل الذي افرد لياقوت<sup>(١)</sup> » . لكن الدراسات والأبحاث السابقة كانت في معظمها تتناول - على أهميتها - موضوعا واحدا من الموضوعات العديدة التي أشار إليها لياقوت عرضا أثناء تصنيفه الكتاب وبما يحاول هذا البحث من خلال قراءة متأنية لمعجم لياقوت البلداني النفيس ، أن يقدم عرضا موضوعيا لهذا المعجم ، ويوضح منهج صاحبه في البحث العلمي ، كما يبرز بعض الملامح السياسية الهامة التي يتضمنها معجم البلدان ، وبخاصة تلك المتعلقة بعصر لياقوت المضطرب الذي واكب المرحلة الأخيرة من الحروب الصليبية ، وطلائع الغزوة المغولية المدمرة للمشرق الاسلامي ، وكان للملامح الاقتصادية البارزة نصيب في هذا البحث ، وفي مقدمتها تطور القطاعات في الدولة الاسلامية ومصادر الثروة الاقتصادية والتجارية فيها ، إضافة الى بعض الظواهر الاجتماعية المتميزة التي رافقت تطور المجتمع العربي الاسلامي منذ الفترة السابقة على ظهور الاسلام وحتى عصر المؤلف الذي يغطي أواخر القرن السادس وأوائل القرن السابع للهجرة ، وأواخر القرن الثاني عشر وأوائل القرن الثالث عشر للميلاد . وعرض البحث كذلك الى بعض السمات الثقافية للحضارة الاسلامية كما أشار إليها لياقوت في معجمه علاوة على التعرف على مصادره ومراجعته التي استقى منها معلوماته ومواد معجمه . ولم يغفل البحث الإشارة الى الملامح الأثرية المتناثرة في ثنايا

قراءة ثانية في معجم البلدان  
لياقوت الحموي

احسان مبدقي العمد

وزارة الاعلام - الكويت

(١) كراتشكوفسكي : تاريخ الأدب الجغرافي العربي ، ١٩٦٢ ، ٣٣٧/١ .

الكتاب ، ناهيك عن الدراسات الرائدة التي كتبت عن معجم البلدان .

#### تمهيد :

الذين أشادوا بياقوت الحموي وآثاره العلمية والأدبية كثيرون ، منهم المعاصرون له واللاحقون به والمتأخرون عليه والمحدثون . هؤلاء وأولئك يغلب على بعضهم الاختصار والتعميم في معرض تقويمهم لتلك الآثار ، في حين يتسم تقويم البعض الآخر بالانفاضة والتخصيص . فابن خلكان وهو من المعاصرين ، يصف ياقوت بأنه « كانت له همة عالية في تحصيل المعارف . . . وإن الناس كانوا عقيب موته يشنون عليه ، ويذكرون فضله وأدبه »<sup>(١)</sup> ، والدعبي وهو من اللاحقين ينعت « بالأدب الإخباري صاحب التصانيف الأدبية في التاريخ والانساب والبلدان وغير ذلك »<sup>(٢)</sup> . وهو عند ابن تغري بردي المتأخر عنه « صاحب التصانيف والخط »<sup>(٣)</sup> .

وكان المستشرقون السابقون من المحدثين هم الذين نوهوا بتراث ياقوت ونهبوا إلى أهمية مؤلفاته وبخاصة معجم البلدان ، ويأتي في مقدمة هؤلاء المستشرق الروسي فريبن (Frahn) الذي كان أول من كتب منهم عن شخص ياقوت وعرف به ، وتبعه زميله سنكوفسكي (Senkowski) الذي وصفه « بأنه كاتب مدقق مجتهد ندين له بحفظ آثار قيمة . . . وقد أبدى الكثير من الغيرة والحماس في دراسة الأوضاع الجغرافية

والأنتوغرافية والسياسية لعصره » وجاء بعده فستنفلد (Wustenfeld) الألماني فوصف معجم البلدان بأنه « أحسن مؤلف وضعه واحد من العرب الكبار »<sup>(٤)</sup> وقفى عليه الأسباني بونس بويجس (Pons Boigues) فذكر أنه أوسع وأهم ، بل وأكد أقول أفضل مصنف من نوعه لمؤلف عربي للمصور الوسطى ، وأشار كراشكوفسكي (Krachkovski) إلى أن أهمية معجم ياقوت تتجاوز بكثير حدود الأهداف الجغرافية الضيقة . . . فهو جامع للجغرافيا في صورها الفلكية والوصفية واللغوية وللرحلات أيضا ، كما تنعكس فيه الجغرافيا التاريخية إلى جانب الدين والحضارة والأنثولوجيا والأدب الشعبي والأدب الفني في القرون الستة الأولى للهجرة »<sup>(٥)</sup> . وأشاد به المستشرق الهولندي كرامرز (Kramers) وبخاصة بالنسبة للإشارات التجارية التي وردت فيه ، واعتبره أثرا جليلا في هذا الميدان ، كما أكد أن علم التاريخ مدين لمعجم البلدان أكثر من علم الجغرافية<sup>(٦)</sup> . ونوه به المستشرق الفرنسي كارادوفو (Carra de Voux) حين قال « أن معجم البلدان من المؤلفات التي يجني للاستسلام أن يفخر بها كل الفخر »<sup>(٧)</sup> .

وأولى عدد من الباحثين المحدثين اهتماما عمائلا بمعجم البلدان ، فاعتبره نفيس أحمد كتابا ذا « أهمية فائقة ، إذ يصور العالم الإسلامي في الفترة السابقة على الحراب الذي أصاب ثقافته وثروته بأيدي المغول ويعتبر

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ١٩٤٩ ، ١٨٠/٥ ، ١٨٩ .

(٢) الدعبي : البر ، ١٩٦٦ ، ١٠٧/٥ .

(٣) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ١٨٧/٨ .

(٤) فستنفلد : مقدمة معجم البلدان ، ١٨٦٦ ص٧ .

(٥) كراشكوفسكي : تاريخ الأدب الجغرافي ، ١٩٦٣ ، ٣٣٥ ، ٣٣٦ .

(٦) ارتولد : تراث الإسلام ط١ ، الترجمة العربية ، ١٩٧٢ ، ١٤٤ .

(٧) صلاح الدين المنجد : اعلام التاريخ والجغرافيا ، ١٩٥٩ ، ٧٤/١ .

التي كانت مركز النشاط التجاري بين الخليج والهند في القرن السادس الهجري ، القرن الثاني عشر الميلادي . وكان خلال رحلاته التي اتسعت فيها بعد لتشمل المناطق الواقعة بين مصر وما وراء النهر ، يجتمع بأهل الأدب والعلم ويطلع على ما لديهم من كتب ، حتى اذا بلغ العشرين من عمره انفصل عن مولاه لجلسوة وقعت بينهما ، فاشتغل ياقوت بنسخ الكتب ليتكسب منها ، وحصل بالمطالعة فوائد زادت في ثقافته العلمية وحبيت اليه الاشتغال في العلم ومكنته منه . وتعود العلاقات الودية بين ياقوت ومولاه ثانية بعد بضع سنين ، ويصبح شريكا لمولاه في التجارة بالمضاربة . وقد أعطاه الأخير مالا خرج به للتجارة في جزيرة قيس ، فلما عاد من رحلته تلك الى بغداد عام ٦٠٦ هـ ، وجد مولاه عسكري بن ابي نصر قد توفي . فأعطى أولاده وزوجته من المال ما أرضاهم به ، وبقيت لديه بقية جعلها رأس ماله ، واستمر يعمل في التجارة بما فيها تجارة الكتب ، فكان يطوف بالبلاد ويتردد على الوراقين ودور الكتب ، ويتعرف على العلماء وكبار القوم الذين يرغبون في هذه البضاعة ، فعلت مكانته واشتهر أمره فسعى الى تغيير اسمه الى يعقوب تخلصا من اسم ياقوت الذي كان يطلق على الرقيق . لكن الناس لم يألفوا اسمه الجديد وظلوا يدعونه باسمه الأول ياقوت<sup>(٩)</sup> .

وفي اثناء تجوال ياقوت في مدن خراسان أدرتته جيوش التتار في مدينة مرو التي أخبها كثيرا وتقى ان يقضي بقية حياته فيها ، فغادرها مكرها الى اربل ،

الجهل الذي قام به ياقوت دراسة متقنة لما سبق بين يديه من مؤلفات جغرافية ذات قيمة ، وهذا انما كتب متعددة لم يعد يتيسر الحصول عليها ، كما استعمل المنهج النقدي الذي يأخذ به الجغرافي الحديث<sup>(١٠)</sup> . وعده جرجي زيدان « خزانة علم وأدب وتاريخ جغرافية »<sup>(١١)</sup> . وهو عند حسين مؤنس « معجم جغرافي خالد وديوان الجغرافية العربية الاكبر ، وكثرها الذي يمثل صرحا من صروح العبقري البشرية في كل العصور »<sup>(١٢)</sup> . وعند عمر كحالة « اكمل مصنف للمعلومات الجغرافية الوصفية والفلكية واللغوية واخبار الرحالين التي جمعها السلف »<sup>(١٣)</sup> .

#### صاحب المعجم :

وتتعرف على صاحب معجم البلدان قبل قراءته ، فاذا به في أول نشأته غلام رومي صغير مجهول الاسم يقع في الاسر خلال الحروب المتصلة التي كانت تنشب بين المسلمين والروم في آسيا الصغرى ، ويدخل في ولاء تاجر حموي في بغداد يدعى عسكري بن ابي نصر بن ابراهيم الحموي فيسميه ياقوتا ، وينسب اليه فيعرف منذ ذلك الوقت بياقوت الرومي الحموي . ويحدثنا ابن خلكان عن الحاق التاجر الحموي البغدادي لياقوت باحد الكتاب ليتنم به فيها بعد في ضبط تجارته ، فتعلم ياقوت من مولاه التجارة وأوفده في عدة رحلات تجارية زادت في خبرته ووسعت أفقه ، ومكنته من زيارة عدة بلدان أهمها منطقة الخليج العربي حيث زار البصرة وبعض موانئ الخليج وجزره ، وبخاصة جزيرة قيس

(٩) نقيس احد : الفكر الجغرافي في التراث الاسلامي ، ١٩٧٨ ، ١٠٣ ، ١٠٧ .

(١٠) زيدان : تاريخ آداب ، ١٩٧٧ ، ٩٢/٢ .

(١١) مؤنس : تاريخ الجغرافية ، ١٩٦٧ ، ٤١٨ .

(١٢) كحالة : التاريخ والجغرافية في العصور الاسلامية ، ١٩٧٢ ، ٢٤٠ .

(١٣) ابن خلكان : وفیات الاعيان ، ١٩٤٩ / ٥٠ ، ١٧٨ - ١٨٩ .

كتب وصل اليها منها ارشاد الارب الى معرفه الاديب المشهور بمعجم الادباء ، والمقتضب من كتاب جهرة النسب ، والمشارك وضعاً والمفروق صقفاً . وفقد من مؤلفاته كتاب المبدأ والمال في التاريخ ، وكتاب الدول ، ومجموع كلام ابن علي الفارسي ، وعنوان كتاب الاغاني ، وكتاب اخبار الفتي ، وكتاب معجم الشعراء . وقد اتهم ابن الشعار الموصلي ياقوت بأنه « كان ضئيلاً بما يجتمع ، لا يجب اطلاع احد على ما يؤلف ، شديد الحرص عليه ، لا يفيد لمخلوق فائدة البتة ، وكان ربما سئل عن شيء وهو به عارف ، لم يجب عنه ، شحا وجفاء طبع ، هكذا كانت شيمته مع الناس ، وخلف كتاباً ، وأوصى أن توقف ببغداد بدير دينار بمسجد الشريف الزيدي ، شاهدته بالموصل ، وهو كهل أشقر أحر اللون ، أزرق العينين ، وكانت بينه وبين أخي صداقة وأنس تام . واقضيت شيئا من شعره ، فأجاب الى ذلك ، وجعل يماطلني ويعذني هكذا مدة من الزمان ، ثم سافر الى الشام فإ عدت رأيته بعد ذلك »<sup>(١٦)</sup> .

وقد يكون في هذا الاتهام بعض مبالغة المتعاصرين وتناقضهم ، الا ان ياقوت يشير الى شيء من ذلك في مقدمته لمعجم الادباء التي يقول فيها : « فقد رأي جماعة من أهل العصر ، وقد نظمت لآلئ هذا الكتاب ، وأبرزته في أبهى من الحلل على ترائب الكعاب ، فاستحسنوه ، والتسوه لينسوخوه ، فوجدت في نفسي شحا عليهم ويخلا بعطف جده عليهم ، لأنه مني بمنزلة الروح من جسد الجبان والسوداوين من العين والجنان ها مع كوني غير راض لنفسي بذلك المنع ، ولا حامد لها

ومنها الى الموصلي بعد ان قاسى الكثير من المتاعب والاهوال وضيق ذات اليد . وفي الموصلي استأنف ياقوت عمله في نسخ الكتب ، وقد نسخ منها الكثير ، اذ يحدثنا ابن الشعار المبارك بن ابي بكر بن حمدان الموصلي (ت ٦٥٤هـ - ١٢٥٦م ) الذي التقى يساقوت في الموصل ، ان ياقوت « كتب بيده في مدة سبع سنين ثلاثمائة مجلد »<sup>(١٧)</sup> . واذا علمنا ان هذه الكمية نسخها ياقوت خلال الفترة (٥٩٦هـ - ٦٠٣هـ) ، امكننا القول انه نسخ بعد هذا التاريخ مئات اخرى من الكتب ، وهذه مهمة شاقة لم تكن تدرك على صاحبها فيما يبدو الكثير ، وقد شكا ياقوت من ذلك وهو في الموصل حيث قال انه كان « يمارس حرفه ويخته . . . ويذنب نفسه في تحصيل اغراض هي لعمر الله اغراض من صنف يكتبها واوراق يستصحبها ، نصب فيها طويل واستمتع بها قليل ثم الرحيل . . . وهيئات مع حرفة الادب بلوغ وطر او ادراك أرب »<sup>(١٨)</sup> . وكتب ياقوت وهو في الموصل رسالة مؤثرة الى جمال الدين علي القفطي وزير الملك الظاهر بن صلاح الدين صاحب حلب ، شرح له فيها ظروفه السيئة والتمس منه الوفاة عليه والاقامة في كتفه ، فلم يغيب القفطي رجاءه فاستقدمه الى حلب حيث استمر ياقوت فيها يطلع على الكتب وينسخها ويجمع الى اهل العلم والادب . واكمل خلال تلك الفترة مسودة معجم البلدان الذي اهداه الى الوزير القفطي اعترافا بفضلته عليه . ولم يلبث ياقوت ان توفي في حلب وهو في الخمسين من عمره (٥٧٤ - ٦٢٦هـ) (١١٧٨ - ١٢٢٩م) .

وقد صنف ياقوت بالاضافة الى معجم البلدان عدة

(١٤) ابن الشعار : معجم البلدان ، غ استنبول ، ١٧٠/٩ .

(١٥) ابن سلكان : ولبث الاماني ، ١٩٤٩/٥ ، ١٨٤/١٨٧ .

(١٦) ابن الشعار : معجم البلدان ، ١٧٠/٩ ، ابن السعدي ، تاريخ اربل ، قسم ٢ ، ص ٢٨ .



ثلاثة آلاف ورقة . ومع ان حجم معجم البلدان قريب من حجم تاريخ الطبري المختصر ، الا ان ياقوت تمسك برأيه في عدم اختصار كتابه حتى تكتمل الافادة منه<sup>(١٩)</sup> . ويشتمل معجم البلدان على مقدمة وخمسة ابواب ، وهو بعامه ، يغطي اسماء البلدان والجبال والادوية والقيعان والقرى والمحال والاطوان والبحار والامهار وغيرها من المعالم البارزة في العالم المعروف آنذاك وبخاصة العالم الاسلامي . ونشير ابتداء الى الاهمية الكبيرة للمقدمة التي كتبها ياقوت لهذا المعجم ، لاحتوائها على نقاط رئيسية نجملها فيما يلي :

أولا : دواعي تأليف معجم البلدان وأسبابه ، وتتلخص في ما جاء في القرآن الكريم من حث للشير على السير في الارض والتفكير في عاقبة من عمروها قبلهم ، وحاجة المسلمين الى معرفة أحوال أمصارهم وفتروحها ووصف جغرافيتها ، والالام بأماكن الزيارة والحج والغزوات والمواقع التي يرد ذكرها في كتب السيرة والتاريخ والأدب<sup>(٢٠)</sup> .

ثانيا : مصادر المعجم ، وتضم عرضا موجزا قويا لحركة التأليف الجغرافي لدى علماء العرب والمسلمين ، بالإضافة الى الفرائد التي حصل عليها من دواوين العرب والمحدثين وتواريخ أهل الادب ، ومن أفواه الرواة وتقارير الكتب ، وما شاهده في أسفاره وحصله في تطوافه وهو كما يقول أضعاف ذلك<sup>(٢١)</sup> .

ذلك الصنع ، لكنها طبيعة عليها جُبلت ، وسجية اليها جُبرت . . وقد أقسمت ألا أسمح بإعارته ، مادام في مسودته . . فحملهم منعي على احتذائه وتصنيف شرواه في استوائه وما أظنهم يشقون عباده ويمسنون ترتيبه وأسطاره ، وأن وقفت لنظر الجميع ، فستعرف الظالم من الضالم ، فإذا هدبته ونقحته وبيضته ، فتمتع به ، وإذكري في صالح دعائك<sup>(٢٢)</sup> .

وفي قول ياقوت تبرير معقول لهذا التصرف الذي أجبر عليه كما يقول خوفا من أن يحدوا أقرانه حذوه مادام في مسودته ولم يخرج الى النور بعد ، فربما سطوا عليه أو انتحلوه وهو امر له في تاريخ الأدب العربي أشباه ونظائر . ولعل ذلك هو ما جعل ياقوت يقول في مقدمته لمعجم البلدان : « ولئى على ناقل هذا الكتاب والمستفيد منه ألا يضع نصبي ، ونفسي نفسي له وتعيبي<sup>(٢٣)</sup> .

#### معجم البلدان :

يقع معجم البلدان في خمسة مجلدات في طبعة بيروت المتداولة . وقد بدأ ياقوت في جمع مادته منذ شبابه واستمر في ذلك حتى قبيل وفاته ، حيث بادر في تسويد أوراقه خشية بغنة الموت قبل تبليج فجرة على حد تعبيره . وكان يود لو يمتد به العمر فيضاعف حجمه ، ورفض بشدة اختصار الكتاب ، والاستجابة الى طلبات متكررة باختصاره . ويذكرنا ياقوت هنا بعزم شيخ المؤرخين الطبري على جعل تاريخه في ثلاثين ألف ورقة ، الا ان همة طلابه قصرت عن ذلك فاختصره في

(١٩) ياقوت : معجم الادباء ، القاهرة ، ٥٨/١ ، ٩٣، ٩٢ ، الطالع : المعجم

(٢٠) ياقوت : معجم البلدان ، ١٤، ١٣، ١٩٥٥

(٢١) قارن : ياقوت ، معجم البلدان ١٩٥٥ : الطالع : المعجم ، ١٣/١ ، البديدي ، تاريخ بلدان ١٩٣/٢

(٢٢) معجم البلدان : ١٩٥٥ ، ١/١ - ١٠

(٢٣) معجم البلدان : ١٩٥٥ ، ١/١ - ١٢

والغنيمة ، وأدار الباب الخامس على جمل من اختيار البلدان . وكانت المقدمة والأبواب الخمسة الأولى من كتاب معجم البلدان والتي لا تتجاوز الأربعين صفحة ، موضوع رسالة دكتوراه لوديع جويده ، نشرت في لندن عام ١٩٥٩ بعنوان :

Jwaiden, Wadie: The Introductory Chapters of Yaqut's Mu'jam AL-Buldan, Leiden, 1959.

#### طريقة ياقوت في البحث العلمي :

التزم ياقوت طريقة علمية دقيقة في معجم البلدان تتمشى مع الروح الواضحة في مقدمته . وقد نوه بذلك عبد المعين الموسوي في بحثه عن « الفكر العلمي عند ياقوت الحموي » (٢٣) . وتبدأ هذه الطريقة بذكر الأسماء الواردة فيه على حروف المعجم ، مع التأكيد على كتابة شكل تلك الأسماء بالحروف خوفاً من الالتباس والتصحيف . ثم يعرض بإيجاز سبب التسمية واشتقاقها اللغوي ، ويحدد مواقع البلدان وظروف فتحها في كثير من الأحيان ذاكرة أي معلومات مفيدة عنها ، ويخلص إلى التنويه بأسماء المشهورين المنسوبين إليها . فكان معجم البلدان بهذه الطريقة أشبه ما يكون بالموسوعة الجغرافية والتاريخية واللغوية والأدبية ، وجاء هذا المعجم أوفى واشمل عمل عربي من نوعه بعد معجم أبي عبيد البكري ( ت ٤٩٦هـ / ١١٠٢م ) . ويسود ان هذا الشكل الموسوعي في التأليف لم يرق لبعض المتأخرين على ياقوت مثل ابن عبد الحق البغدادي ( ت ٧٣٩هـ / ١٣٣٨م ) والسيوطي ( ت ٩١١هـ / ١٥٠٥م ) على أساس ان المعجم الجغرافي

ثالثاً : منهج تأليف المعجم ، من حيث حرصه على تسويحي الدقة في الوصف ، وضبط الأسماء ومواقع الأمكنة بالنقط والتحريك ، والإشارة إلى ذلك قولاً وكتابة منعاً للبس والتحريف والتصحيف ، إضافة إلى ميله إلى الشرح والتفصيل ونفوره من الاجتزاء والاختصار ، وتنبية القارئ إلى ما يرد في الكتاب أحياناً من أساطير ، تبرا من صحتها ، وأوردها على علاقتها حتى يقف الناس على ما قبل فيها ويكونوا على بينة منها ، وبذلك حفظ لنا معجم البلدان بعض ما كان لدى عدد من الأمم والشعوب من أساطير تهم الباحثين في علم الميثولوجيا .

وربما وأخيراً : تشمل المقدمة معلومات مفيدة بالنسبة لسيرة ياقوت الذاتية ورأيه في عدد من قضايا العلم والأدب ، والجهود الفنية التي بذلها طوال حياته لجمع مادة معجمه ليغيد به الناس ، عله يظفر منهم بالشاء والدعاء ، فينال ذكراً زكياً من المؤمنين ، ويمشي في زمرة الصالحين كما كان يأمل ويرجو (٢٤) .

وأما البابان الأول والثاني فتتجسر فوائدهما في الوقوف على تطور مفهوم الجغرافية الوصفية وعلاقة المعلومات الفكرية بها ، في حين افرد ياقوت الباب الثالث لشرح معاني المصطلحات الفنية الواردة في المعجم ، كالبريد والفرسخ والميل والأقليم والكورة والمخلاف والريستاق والطنسوج ، والسكة بمعنى الطريق ، والمصر ، والقطيعة ، وغيرها ، سالكا في ذلك أحدث الطرق في التأليف والتصنيف . وتخصص الباب الرابع لأقوال الفقهاء في أحكام أراضي الفقه

(٢٣) نسيم البلدان : ١٢/١ - ١٣.

(٢٤) جلة مجمع دمشق : جلد ٤١/ ٢٥٦.

الاسلامي ، كما هو الحال بالنسبة للتاريخ على السنين الذي يبعثر المادة التاريخية ولا يربط بين موضوعاتها . ولكن ليس بالامكان تجنب هذا التوزيع في المعاجم الابجدية بعمامة ما دمنا نرسم الحصول على المعلومات المطلوبة بأقل جهد وأقصر وقت . ومع ذلك فقد بذل ياقوت جهدا رائعا ومشكورا في عرض مواد معجمه ، بهمة عالية وعمل ذو وب ، ويمكن للباحثين المحدثين ان يصوروا خارطة كبيرة لذلك العالم الذي وصفه ياقوت ، ويحاولوا جهدهم وضع اسماء البلدان والامكان في مواقعها ، وبالتالي يسهل استخراج خارطة مماثلة لكل جزء من ذلك العالم ، كما فعل المستشرق الفرنسي ياربييه دي مينار (Barbier de Meynard) الذي وضع كتابا في جغرافية وأدب فارس وماجاورها معتمدا على معجم البلدان لياقوت كمصدر رئيسي في دراسته ، كما افاد المستشرق الانجليزي جي بي سترينج (G. Le Strange) من هذا المعجم في وضع كتابه الشهير بلدان الخلافة الشرقية (Lands of Eastern Caliphate) (٢٨) .

وقد حرص ياقوت في اثناء اعداد وجمع مواد معجم البلدان أن يراعي أصولا علمية دقيقة تشير الدهشة والاعجاب وهي :

أولا : الاعتماد على مصادر موثوقة بها ، وهي كثيرة جدا من بينها : فتوح البلدان للبلاذري ، وكتاب الفتوح لابن

و يثيني ألا يخلط به غيره مما يبين في علم آخر لثلا ينتشع الفهم ويطول الكلام فيؤدي الى الاملال ، وهذه حال معجم البلدان ، فان الغرض انما هو معرفة اسماء الاماكن والباق على الربع المسكون من الارض مما ورد به خبر او جاء في شعر ، وبيان جهته من الارض وموضعه من اصقاعها ، فما زاد على هذا القدر فهو فضل لا حاجة اليه (٢٤) .

لكن هذا الخلط والتنويع اللاحق بالمعلومات الجغرافية المجردة الواردة في معجم بلدان ياقوت ، مهما كان الرأي فيه ، فانه يضفي على المعجم ترويحاً ومجالاً وفائدة يمس بها كل من أسعفه وقته بقراءة هذا المعجم المفيد ، كما أن ذلك يدل من ناحية أخرى على ثقافة ياقوت المتنوعة الواسعة ، والملمة الجيد بتاريخ البلدان واخبارها ، وبتمكنه من لغة العرب واتساعهم ووقوفه على اشعارهم (٢٥) اضافة الى معرفته بالفارسية وبشيء من اللاتينية ، كما يتضح ذلك من تفسيره الصحيح لاشتقاق اسماء بعض الاماكن والبلدان ، ويتجلى هذا على سبيل المثال في اثناء حديثه على طرابلس ، وطيزناباد ، وهمدان (٢٦) .

على ان اتباع حروف المعجم في ذكر المواد ، وان كان الغرض منه تسهيل طريق الفائدة من معجم البلدان من غير مشقة كما يقول صاحبه (٢٧) ، الا ان هذه الطريقة تفقت المعلومات البلدانية الخاصة بكل جزء من العالم

(٢٤) ابن عبد الحق : مراد الاطلاع ، ١٠١٩٥٤ / ١

حاجي خليفة : كشف القرون ، ١٣٣٢ / ٢

(٢٥) صلاح الدين المنجد : اعلام التاريخ والجغرافية ، ١٠١٩٥٩ / ١٠١٣٧٤

(٢٦) ياقوت : معجم البلدان ، ٤ / ١٠٥٤٠٥٤

(٢٧) نفس المصدر ، ١ / ١٠٥٤٠٥٤

(٢٨) المعجمي : المستشرقون ، ١٠١٩٤٤ / ١٠١٢١٤

نصر بن عبد الرحمن الاسكندر (ت ٥٦١هـ / ١١٦٦م) المعروف باسم «فيما اتلف واختلف من اسماء البقاع»، ونسبه لنفسه تحت عنوان «ما اتفق لفظه واختلف مسماه» والذي ما يزال مخطوطاً<sup>(٣١)</sup>.

ويقول ياقوت في ذلك بعد أن اطلع على الكتابين «فوجدته - أي كتاب نصر - تأليف رجل ضابط قد انفذ في تحصيله عمراً وأحسن فيه عينا وإشراً، ووجدت الحازمي رحمه الله، قد اختلسه وادعاه، واستجهل الرواة فرواه، فأما أنا فكل ما نقلته من كتاب نصر، فقد نسبته إليه وأحلته عليه، ولم أضع نصبه، ولا أحملت ذكره وتعبه، والله يبيحه ويرحمه»<sup>(٣٢)</sup>. وقد ألف المستشرق الألماني هير (M. Heer) كتاباً حول مصادر ياقوت نشر في ستراسبورغ ١٨٩٨م<sup>(٣٣)</sup>.

ثانياً: الافادة من المشاهدة والمعاينة الشخصية التي اكتسبها من تجارته وأسفاره التي امتدت من النيل الى جيحون كما ذكرنا. وقد اشار ياقوت الى ذلك أكثر من مرة كلها دعت المناسبة الى ذلك، فنراه مثلاً يسهب في الحديث عن خوارزم وخراسان وطبرستان، ويقول عن الأخيرة «رأيت اطرافها وعابنت جبالها... ولابد من احتمالك لفصل فيه تطويل بالفاصلة الباردة، فهذا من عتدنا بما استفدناه بالمشاهدة والمشاهدة»<sup>(٣٤)</sup>، ويذكر انه زار البصرة ثماني مرات. ويقول في اثناء تعريفه

حذيفة اسحاق بن بشر القرشي، وكتاب فترج الشام لابي حذيفة بن معاذ بن جبل، وكتاب خطط مصر للقضاة، وكتاب أبنية الاسماء (الابنية) لابن القطاع وكتاب ما اتلف واختلف من اسماء البقاع لنصر بن عبد الرحمن الاسكندر، وكتاب اشتقاق البلدان أو أنساب البلدان لابن الكلبي، وكتاب جزيرة العرب للحسن الهمداني، وكتاب جبال تيمامة لابي الأشعث الكندي، وكتاب في مياه العرب للغندجاني، بالإضافة الى العديد من كتب البلدان والمسالك والممالك التي ألفها ابن خرداذبة وابن واضح، والجهاني وابن الفقيه والبلخي والاصطخري وابن حوقل والبيشاري المقدسي والمهلبى وابن ابي عرون البغدادي وغيرهم<sup>(٣٥)</sup>. ويلاحظ ان جانباً من هذه المؤلفات قد فقد أوضاع ولم يصل الينا بعد، مما يجعل لانتقاسات ياقوت عنها أهمية تراثية كبيرة، ناهيك عما تدل عليه من سعة المصادر التي رجع اليها ياقوت في تأليف معجمه، فكان لا ينفك منذ نشأته وحتى وفاته يطلع في امهات الكتب ويعكف على الافادة منها والانتقاس عنها، وقد أكد ذلك معاصره ابن الشعار في ترجمته لياقوت فقال في ذلك «فما يعلم انه منذ كان عمره سبع سنين الى ان توفي، ما خلعت يده من كتاب يستفيد منه او يطالعه او يكتب منه شيئاً أو ينسخه»<sup>(٣٦)</sup>. وكان ياقوت أميناً في الاشارة الى اقتباسه عن هذه المصادر. وتدد في مقدمته بمن يجتلس مؤلفات الآخرين ويسدعها مثل الحازمي محمد بن موسى (ت ٥٨٤هـ / ١١٨٨م) الذي اخذ من كتاب ابي الفتح

(٣١) ياقوت: معجم البلدان ١/٢١١.

(٣٢) ابن المنصور: تاريخ اربل ١٨٨٠، ٢/٥٢٧.

(٣٣) الفزركلي: الاعلام، ١٩٦٩، ٧/٣٣٩.

(٣٤) ياقوت: معجم البلدان ١١.

(٣٥) الطبري: المشترقون، ٢/٧١٦.

(٣٦) ياقوت: معجم البلدان ١٣/٤.

قريش بن الحارث بن بخلد بن النضر بن كنانة<sup>(٤١)</sup> .  
ويذهب مثل ذلك في تحقيقه خبر فذلك حيث يقول «وفي  
فذلك اختلاف كثير في امره بعد النبي ﷺ وأبي بكر وآل  
رسول الله ﷺ ومن رواية خبرها من رواه بحسب الأهواء  
وشدة المراء ، وأصبح ما ورد عندي في ذلك ما ذكره احمد  
بن يحيى بن جابر البلاذري في كتاب الفتوح له<sup>(٤٢)</sup> .  
فاذا لم يجد ياقوت ما تطمئن اليه نفسه من صحيح  
الاخبار ، ظل يبحث ويستقصي حتى يصل الى ضالته  
فيهذا ويطمئن . وقد حدث مثل ذلك معه عندما كان  
يحقق مواضع الحميرية حيث تبين له بعد البحث  
والتنقيب في المصادر وجود عملة بالري كانت تدعى ايضا  
الحميرية نسبة الى منشئها الخليفة العباسي محمد  
المهدي ، وقال بعد ان توصل الى هذه المعلومة « فلما  
وقفت على هذا فرج عني<sup>(٤٣)</sup> . وواجه مثل هذا  
الموقف لدى جمعه بعض المواد الأخرى لمعجمه ، بل قام  
ياقوت بعد البحث والتحقيق بتصحيح أخطاء وقع فيها  
بعض من سبقه في هذا الميدان ، مثل ابن الكلبي  
والبلاذري وأبي حنيفة الدينوري والمسعودي وابن بطلان  
وغيرهم<sup>(٤٤)</sup> . وتوصل في نفس الوقت الى معلومات  
مفيدة عن طبرستان ، وبني النضير ، والبرامكة ، وآل  
الصفار ، ودارات العرب وعدد العشرات من أيامهم في  
أثناء حديثه عن مواقعهم<sup>(٤٥)</sup> .

بقريه بلجان بين البصرة وعبادان » رأيتها مرارا آخرها  
سنة ٥٨٨ هـ أو بعدها<sup>(٣٥)</sup> وكذلك الحال بالنسبة  
لجزيرة قيس في الخليج العربي<sup>(٣٦)</sup> ، والخليج العربي  
نفسه الذي يشير اليه قائلا : « وأما في زماننا هذا فاني  
سافرت في ذلك البحر وركبته عدة نوب<sup>(٣٧)</sup> ، كما  
يشير الى زيارته للقدس واجتيازه ببلدة رأس العين في  
الجزيرة ، وإلى مشاهدته نهر جيحون وهو جامد في اعلاه  
وجار في اسفله<sup>(٣٨)</sup> ، وهكذا تتراوح عباراته في مثل هذه  
المواضع والبلدان بين شاهدها ، وزرعها حيناً ، واجتازت  
بها ، ورأيتها حيناً ودخلتها حيناً ، ورأيتها مرارا ، وهو  
امر يجعل من صاحب معجم البلدان شاهد عيان  
مستنيراً ، ومصدراً موثقاً به في أي بحث عن المناطق  
والبلدان التي زارها ، ومن بينها منطقة الخليج في اواخر  
القرن السادس وأوائل القرن السابع للهجرة<sup>(٣٩)</sup> .

ثالثاً : استقصاء سبل البحث العلمي الدقيق ، من  
ملاحظة وتحقيق واجتهاد واستقراء وتحفظ ، فكان  
ياقوت لا يثبت القول المنقول في معظم الأحوال الا اذا  
اطمأن اليه نفسه ، وقد اتبع ذلك في كثير من الاخبار  
كما هو الحال في حديثه عن سبب تسمية قريش بهذا  
الاسم ، فبعد أن يعدد الروايات المختلفة في هذا الشأن  
يقول : « والذي تركن اليه نفسي انه اما ان يكون من  
التجمع ، او تكون القبيلة سميت باسم رجل يقال له

(٣٥) نفس المصدر : ٤٣٩/١ ، ٤٧٩ .

(٣٦) نفس المصدر : ٤٢٢/٤ .

(٣٧) نفس المصدر : ٨/٥ .

(٣٨) نفس المصدر : ١٩٧/٢٠١٤ ، ٣٠١٨٣/١ .

(٣٩) نفس المصدر : ٤٧٩ ، ٣٤٦/١ ، ١٩٩/٢ ، ١٥٠/٤ ، ٨/٥ ، ٤٠٣ .

(٤٠) ياقوت : معجم البلدان ، ٣٣٧/٤ .

(٤١) ياقوت : معجم البلدان ، ٣٣٩/١ . البلاذري : فتح البلدان ، ٣٣-٣٨ .

(٤٢) نفس المصدر : ٦٥/٥ .

(٤٣) نفس المصدر : ٣٨٥/١ ، ١٨٥/٢ ، ٤٢٤ ، ١٥٤/٤ ، ٥٠٤ ، ٣٥١ .

(٤٤) نفس المصدر : ١٢/٤ - ١٦ - ٢٤/٢ .

ياقوت في ذلك « والذي يظهر لي من اشتقاقه وسبب تسميته بهذا الاسم ، أنه من عمارة الضيزين . . . ، وأن الفرس ليس في كلامهم الضاد ، فتكلموا بها بالطاء فغلب عليها ، ومعناه عمارة الضيزين ، لأن إباض العمارة . ثم وقفت بعدما كتبت هذا جملة على كتاب الفتوح للبلاذري فوجدت فيه : قالوا كانت طيزنا باز تدعى ضيزنا باز ، نسبت الى ضيزين بن معاوية بن عمرو بن العبيد السليحي . . . ، فاستحسنتم لنفسي صدق ما ظهر لي فكرته على ما كان »<sup>(٤٧)</sup> . ومثل ذلك يقول عن المدائن « والذي عندي ان هذا الموضع كان مسكن الملوك من الاكاسرة الساسانية وغيرهم ، فكان كل واحد منهم اذا ملك بني لنفسه مدينة الى جنب التي قبلها وسميت مدائن »<sup>(٤٨)</sup> .

وأما الاجتهاد ، فكان ياقوت يلجأ اليه اذا لم يسمعه الدليل القاطع أو النص المقتنع ، كما فعل في محاولته معرفة اشتقاق اسم « مائة » اذ يقول : « لم أقف على احد يقول في اشتقاقه ، وأنا اقول فيه ما يستحسن لي ، فان وافق الصواب فهو بتوفيق الله ، والا فالاجتهاد مصيب ، فلعلة يكون من المنة وهو القدر ، وكأنهم اجروه مجرى ما يعقل »<sup>(٤٩)</sup> .

واذا اعيت ياقوت كل هذه الوسائل والطرق في الوصول الى الحقيقة المنشودة ، اعترف بذلك اعتراف العالم الواثق من نفسه ، وأشار الى ذلك بعبارات واضحة كقوله عند الحديث عن غزوة ذي قرد : « وهذا

وكان ياقوت أيضا يراسل أهل الثقة من البلدان ويلتقي ببعضهم فيسلم عن بلادهم ويستقصي منهم صحة الأخبار المنسوبة اليها ، مثل اصفهان ، وأندرين احدى قرى حلب ، ومرباط وهي ميناء ظفار<sup>(٤٥)</sup> . وتشبه اتصالاته بأهل الأمصار والبلدان التحقيقات الصحفية حول قضية او موضوع من الموضوعات ، فقد سمع عن عادة غريبة كانت تنسب الى أهل مرباط بشأن اختلاط الرجال بالنساء ليلا خارج المدينة للسمر والمجالسة والملاعبة . وقد شك ياقوت في صحة الخبر ، فاجتمع برجل منهم أديب عاقل وجري بينها الحديث على النحو التالي :

ياقوت : « ولغني عنكم شيء أنكرته ولا أعرف صحته ؟

الرجل : لعلك تعني السمر .

ياقوت : ما اردت غيره .

الرجل : الذي بلغك من ذلك صحيح ، وبالله أقسم انه لقيح ، ولكن عليه نشأتنا ، وله مذ خلقنا ألفنا ، ولو استطعنا ان نزيله لأزلناه ، ولو قدرنا لغيرناه ، ولكن لا سبيل الى ذلك مع مر السنين واستمرار العادة »<sup>(٤٦)</sup> .

أما الاستقراء والاستنتاج ، فقد توفرا لياقوت بما كان يتمتع به من حضور ذهن ودكاء متقد ، ففراه يحقق بالاستقراء والاستنتاج مثلا اسم موقع ضيزنا باز بين الكوفة والقادسية ، ويتوصل بذلك الى الحقيقة ، يقول

(٤٥) نفس المصدر : ٢٠٧/١ ، ٢٦١ ، ١٢٢/٢ ، ٩٧/٥ ، ٢١٠

(٤٦) ياقوت : معجم البلدان ، ٩٧/٥

(٤٧) نفس المصدر : ٥٤/٤ ، ٥٥

(٤٨) البلاذري : فتوح البلدان ، ١٩٥٧ ، قسم ثلث ، ٣٤٨

(٤٩) ياقوت : معجم البلدان ، ٧٥/٥

(٤٩) نفس المصدر : ٢٠٤/٥

أذنت لمن حققه أن يصلحه ويقره<sup>(٥٥)</sup> . وقال في تحقيقه اسم «عزور» : «انا اخشى ان يكون صحف بالذي قبله (اي عازورا) فتبحث عنه<sup>(٥٦)</sup> . ومثل ذلك قال في «قاشره» من أقاليم بلبل في الأندلس «ووجدت في نسخة اخرى من كتاب خطط الأندلس قاتبتة فتحقق<sup>(٥٧)</sup> . وفي ذلك أكثر من دليل على دقة ياقوت العلمية وتواضعه .

وابعا : التحفظ عند ذكر الأساطير التي نقلها من مصادره ، وقد أعرض عن ذكر الكثير منها خوف التهمة ، ولكونها تخالف المؤلف من العادة ، وقد استبعد ياقوت وقوعها ، وتبرأ من عهدتها وقد معظمها مؤكدا «أن الملة الاسلاميه تجل عن مثل هذه الخرافات» وكان المبرر عنده ليرادها حتى يعرف القاريء<sup>(٥٨)</sup> ما قيل في ذلك حقا كان او باطلا<sup>(٥٩)</sup> .

ويضيق المجال هنا عن ذكر امثال تلك الاساطير التي تصلح لبحث مستقل ، ويمكن للباحث في هذا المجال الرجوع الى مواد عديدة في معجم البلدان وردت فيها أساطير ، وكان لياقوت موقفه المذكور منها ، ومن بين تلك المواد : بغداد ، بلط ، الشحر ، مدينة النحاس ، النيل ، وأزوار وهمدان . وتشكل هذه الأساطير وما فيها من خيال وأهداف ومعان ، مصدرا غنيا لحواة البحث في الميثولوجيا عند العرب والمسلمين<sup>(٦٠)</sup> .

الباب فيه نظر الى الآن لم يتحقق فيه شيء<sup>(٦١)</sup> ، كما ذكر مثل ذلك عن مدينة «جوسف» من أعمال قوهستان عندما قال : «لم أتحقق ضبطها ، ووجدته في بعض الكتب هكذا<sup>(٦٢)</sup> . ويقول عن دير الوليد «بالشام لا ادري أين هو<sup>(٦٣)</sup> . وعن الصين يقول ياقوت «وهذا شيء من اخبار الصين ، ذكرته كما وجدته ، لا أضمن صحته ، فان كان صحيحا فقد ظفرت بالغرض ، وان كان كذبا نعرف ما يقول الناس<sup>(٦٤)</sup> .

بل لقد بلغت الروح العلمية الحقيقية عند ياقوت درجة جعلته يطلب من قارئه ان يتحقق من ضبط بعض الاسماء التي يجالجه شك فيها ، أو عجز هو نفسه عن تحقيقها ، وأجاز لباحث أن يضبط ما يحتاج الى ذلك على عادة بعض مشاهير العلماء المسلمين . وأشار ياقوت الى مثل ذلك أكثر من مرة في معجم البلدان ، وبخاصة عند ذكره التقسيمات الادارية البيزنطية ، اذ قال : «وفي اخبار الروم اساء عجزت عن تحقيقها وضبطها ، فليعذر الناظر في كتابي هذا ، ومن كان عنده أهلية ومعرفة وقتل شيئا منها بحثا ، فقد اذنت له في اصلاحه مأجورا<sup>(٦٥)</sup> وكرر مثل هذا القول في اسم موقع «القراري» حيث قال : «وأنا مثلك فيه ، هل أوله قاف أم فاء ، ولعله منسوب الى رجل من بني فزارة وقد

(٥١) ياقوت : معجم البلدان ٢٤٩/٤ .

(٥٢) نفس المصدر : ١٨٤/٢ .

(٥٣) نفس المصدر : ٤٤٠/٢ .

(٥٤) نفس المصدر : ٤٤٠/٣ ، الوحي ، الفكر العلمي عند ياقوت ، مجلة مجمع دمشق ٣٦٤/٤٦ .

(٥٥) نفس المصدر : ٩٨/٣ .

(٥٦) نفس المصدر : ٣١٦/٤ .

(٥٧) نفس المصدر : ١١٩/٤ .

(٥٨) نفس المصدر : ٢٩٧/٤ .

(٥٩) نفس المصدر : ٤٦٠ ، ١٢/١ .

(٦٠) ياقوت : معجم البلدان ، ٤٦٠/١ ، ٤٤٨/٣ ، ٣٣٧/٥ ، ٣٣٩/٨ ، ٣٢٧/٤١٢ .

### الدقة تغلب على معلومات معجم البلدان :

أدى اتباع ياقوت لهذا المنهج العلمي في تأليف معجمه الى الحصول على معلومات دقيقة كثيرة عن العالم المعروف الى زمانه وبخاصة العالم الاسلامي ، وكانت هذه المعلومات أكثر دقة بالنسبة للاقطار التي زارها وتردد عليها ، كمصر وبلاد الشام والعراق ومنطقة الخليج العربي وبلدان المشرق الاسلامي . وأمثال تلك المعلومات تضيق عن الحصر ، نذكر منها على سبيل المثال ، وصفه الدقيق لشبه جزيرة العرب ، وبحر الروم ( المتوسط ) وبحر الهند ( المحيط الهندي ) والخليج العربي ، وبحر الخزر ، وتبعه لمجرى كل من دجلة والنيل ، وظاهرة قصر الليل صيفاً في بلاد البغداد التي ذكرها المسعودي بقوله : « والليل في بلادهم في غاية القصر في الصيف ، حتى ان احدهم لا يفرغ من طبخه حتى يأتيه الصبح » وأشار ضمناً الى تأثير ارتفاع الجبال على التنفس ، وذلك حين روي ان « بالثبت جبل يقال له جبل السم ، اذا مر به احد تضيق نفسه ، فممنهم من يموت ، وممنهم من ينقل لسانه » وغير ذلك من المواد التي تزخر بالمعلومات والفوائد (٦١) .

على ان دقة ياقوت في معجم البلدان لم تكن كاملة تامة في جميع المواضيع والأماكن التي تحدث عنها ، وقد أشار هو الى ذلك ونبه عليه كما ذكرنا ، وقد حاول عبد المؤمن بن عبدالحق البغدادي ( ت ٧٣٩ هـ / ١٣٣٨ م ) حين اختصر معجم البلدان في كتابه « مراصد الاطلاع على اسماء الامكنة والباقاع » حاول ان يصحح ما يحتاج الى تصحيح في بعض مواد المعجم . يقول ابن عبد الحق البغدادي في ذلك : « وربما زدته يسائنا في بعض

المواضع ، أو أصلحت ما تنبته عليه من خلل وجدته في ذكره لبعض الاماكن ، اما لانه ( ياقوت ) نقله عن غيره على ذلك الوجه وهو خطأ او ظنه كذلك ، وقد عرفته انا وحققته وسألت عنه اهل المعرفة من سكانه ومجاوريه والمسافرين الى جهته ، وقد يكون مما رأيته في سفرى واجتزت به ، وبخاصة في أعمال بغداد ، فانه كثير الخطأ فيها ، ولم أقبل منه شرطه الذي شرطه ، ولا التزمت حظره الذي حظره في اختصاره وتغييره فان ذلك شرط لا يلزم ، ومظنة الفائدة تقدم (٦٢) . لكن الاخير لا يشير في كتابه صراحة الى المواد والمواضع التي اصلحها . مما جعل محقق مراصد الاطلاع على محمد البجاوي يشير الى ذلك في العديد من الموارش ، وذلك في اي حال لا ينقص من قيمة معجم البلدان وأمانة صاحبه العلمية وبذله غاية جهده في الضبط والتحقيق .

ويكفي ياقوت فضلاً انه استطاع بخبرته وألميته وثقافته الموسوعية ، ان يعطي من خلال معجم البلدان صورة صادقة الى حد كبير عن حضارة عالم الاسلام في عصره ، وان يصف بطريق غير مباشر جانباً من أحوال ذلك العالم السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية ، وهذا امر يستحق التوقف عنده والتأمل فيه ، لما له من أهمية في التعرف على حضارة العالم الاسلامي قبيل الغزو المغولي المدمر لاقاليم المشرق الاسلامية التي لم تكد تسير في طريقها الطويل للتخلص من الصليبيين حتى دهمها الغزو المغولي الذي كان ياقوت احد الضحايا الذين شردوا وأوذوا بسببه .

### الملاحح السياسية في معجم البلدان :

تتمثل أولى الملاحح التي تواجه من يقرأ معجم البلدان

(٦١) نفس المصدر : ١/٢٠٣٨ ، السعدي : مروج الذهب ، ١٠/١١٩٦٥ .

(٦٢) ابن عبد الحق البغدادي : مراصد الاطلاع ، ١/ح



والنسل في ربوعها ، فكانت اولى المناطق الاسلامية التي هب عليها اعصار التتار المدمر . وقد اشار ياقوت الى هذه الحقيقة بجلاء وبصيرة نافذة كما يتمثل ذلك في قوله : « وأنت على تلك الشواحي حوادث الدهر وصروف الزمان ، أولا من خوارزم شاه محمد بن تكش بن ألب أرسلان . . . فانه لما ملك ما وراء النهر وباد ملك الخانية ، وكانوا جماعة قد حفظ كل واحد منهم طرفه ، فلما لم يبق منهم أحد ، عجز عن حفظ تلك البلاد بسعة مملكتها ، فخرّب بيده أكثر تلك الثغور واتبعها عساكره . فجلا أهلها عنها وفارقوها . . . فبقيت تلك الجنان خاوية على عروشها . . ثم تبع ذلك حوادث سنة ٦١٦هـ التي لم يمر منذ قامت السموات والأرض مثلها ، وهو ورود التتار خذلهم الله من أرض الصين ، فأهلكوا من بقي هناك متماسكا فيمن أهلكوا من غيرهم ، فلم يبق من تلك الجنان المندرة والقصور المشرفة غير حيطان مهدومة وآثار من أهم معدومة » . ويذكر ياقوت ان اجتياح خوارزم شاه لمناطق ما وراء النهر تم في حدود سنة ٦٠٠هـ « فطرد عنها الخطا وقتل ملوك ما وراء النهر المعروفين بالخانية ( اي الخانات ) » (٦٣) . ويصف التكية التي حلت بالمسلمين هناك وصفا صادقا مؤثرا رأى فيه حالهم بقوله : « وقد كان اهل تلك البلاد اهل دين متين وصلح مبين ، ونسك وعباد ، والاسلام فيهم غرض الحق حلو المعنى ، يحفظون حدوده ويلتزمون شروطه ، ولم تظهر فيهم بدعة استحقوا بها العذاب والجلاء ولكن الله يفعل بعباده ما يشاء » (٦٤) . وياقوت هنا يحصل خوارزم شاه كل المسئولية في هذه الاحداث التي انتهت بتقدم التتار نحو بلاد المشرق الاسلامي ، ولا يشير الى الدافع الذي

قراءة ثانية ، في الاحساس الواقعي الذي يحسه بوحدة العالم الاسلامي الكبيرة وذلك برغم وجود الكيانات السياسية المتعددة التي كانت قائمة فيه ، والأخطار الداخلية والخارجية التي تهددته فترة من الزمن ، وهنا يعتبر ياقوت الحموي شاهدا عيانا واعيا لأثار المرحلة الاخيرة من الغزوة الصليبية الطارئة ، التي استهدفت قلب العالم الاسلامي ، وبخاصة مصر وبلاد الشام . وهذا الوصف السياسي الذي قدمه ياقوت عرضا وهو يتحدث عن الأماكن والبلدان يرقى الى مرتبة الوثائق والمذكرات الشخصية المعاصرة لتلك الأحوال ، مما يجعلها تحتل أهمية بالغة لدى المؤرخين للأسباب التالية :

أولا : لأن المعلومات التي ذكرها ياقوت في معجم البلدان يعتبر جانب منها وثائق معاصرة كتبها عالم مسلم مستر شاهد الاحداث السياسية وانفصل بها وسجل ملاحظاته عنها . من ذلك مثلا ان ياقوت يجعل خوارزم شاه محمد ابن تكش بن أرسلان (ت ٦١٧هـ / ١٢٢٠م) المسئولية المباشرة في اضعاف قوة المسلمين في مقاطعات ما وراء النهر ، وذلك عن طريق قضائه على مملكة الخطا المناخة للتتار في الشرق . وكان عدد كبير من سلاطين تلك المقاطعات المسلمين يحتفظون في ظل مملكة الخطا بمرآتهم وقوتهم النسبية التي تحفظ حدودهم مع التتار . وقد ادى قضاء خوارزم شاه على تلك الدولة وهؤلاء السلاطين الى حدوث فراغ عسكري وسياسي وسكاني لم يملأ بقوة عسكرية منظمة ودائمة . مما أدى الى انهيار الخطوط الدفاعية الاولى عن ديار المسلمين في تلك المناطق التي وقعت فريسة سهلة بأيدي التتار الذين ما لبثوا ان اجتاحتها وأهلكوا الحرث

الدولة من جهود لتعزيز تلك الحدود ، وهو امر يتمشى مع السياسة الدفاعية التي تبنتها دولة بني العباس وعدم اخذها بسياسة الفتوح الاموية ، التي كانت ترى في الفتوح ( الهجوم ) خير وسيلة للدفاع عن حدود الدولة وهيبتها . ويزودنا ياقوت بأرقام عن عدد المسالحي والحصون الدفاعية المنتشرة من خراسان الى الديلم ، والتي بلغت احدى وثلاثين مسلحة ، ترابط في كل منها حامية يتراوح عدد افراد كل منها ما بين مائتين الى الف مقاتل ،<sup>(٦٧)</sup> .

ولا ينسى ياقوت ان يذكر الرباطات التي كانت منتشرة على طول حدود العالم الاسلامي البرية والبحرية ، وبخاصة في مناطق ما وراء النهر . فكان في منطقة بيكند بين جيحون وبخارى « من الرباطات ما لا اعلم ببلد من البلدان ما وراء النهر اكثر منها ، بلغني ان عددها نحو الف رباط » . وكذلك الحال بالنسبة لبذخشان في شمال اقليم طخارستان المتاخم لبلاد الترك ، وباب الابواب شمال ارمينية على بحر الخزر ، ودمياط وطرابلس ( الغرب ) ومنستير على الساحل الشرقي لتونس . ونقل ياقوت عن البكري وصفا لبلدة المنستير فيقيد بأن هذه البلدة كانت تضم رباطات وحصونا للرجال والنساء ، اهمها القصر الكبير الذي يقال ان الذي بناه بالمنستير هرثة ابن اعين القائد العباسي عام ١٨٠هـ / ٧٩٦م . ويصف ياقوت هذا القصر بقوله : « وهو حصن كبير عال متفن العمل ، وفي الطبقة الثانية مسجد لا يخلو من شيخ خير فاضل يكون مدار القوم عليه ، وفيه جماعة من الصالحين

جعله يقدم على محاربة الخطا وهو ما ذكره بعض المؤرخين من ان سلطان سمرقند وبخارى المسلم هو الذي حرصه على ذلك لتخليص المسلمين في تلك المناطق من التبعية لزعماء مملكة الخطا الكفار<sup>(٦٨)</sup> .

ثانيا : رسم ياقوت أمثال هذه الصورة المؤثرة بروحه الاسلامية الصادقة ، كلما ذكر مكانا وقعت فيه احداث ماثلة ، وبذلك ربط ربطا مت لازما بين المكان والانسان وحوادث الزمان ، مما يجعل مؤلف معجم البلدان يدخل ايضا في نطاق التصنيف الخاصة بالجغرافية التاريخية . وكثرت اشارات ياقوت الماثلة في اثناء تعريفه ببلدان الاندلس وما سقط منها في ايدي الاسبان ، وما كانوا يفعلونه بأسرى المسلمين<sup>(٦٩)</sup> . كما أورد تفاصيل أوفى عن الغزوات التي كان الروم يشنونها على الثغور الاسلامية في شمال بلاد الشام ، وسقوط طرسوس وحلب في أيديهم . وانتقد ياقوت موقف الأمراء المسلمين المتخاذل في ذلك الوقت ، وعدم توحيد جهودهم لجهاد الروم ووقف غاراتهم على ديار المسلمين التي وقعت كما يقول وسيف الدولة - الحمداني - حي يرزق بيمافارقين ، والملوك كل واحد مشغول بمحاربة جاره من المسلمين ، وعطلوا هذا القرض ( الجهاد ) ، ونعوذ بالله من الخيبة والخذلان ، ونسأله الكفافية من عنده<sup>(٧٠)</sup> .

ثالثا : وياقوت حين يتحدث عن الثغور والرباطات والمسالحي في البلدان الواقعة على الحدود الشمالية للدولة الاسلامية ، يقدم معلومات قيمة عن نظام الدفاع عن تلك الحدود زمن الدولة العباسية ، وما بذله خلفاء تلك

(٦٤) ابن الأثير : الكامل ، ١٢٠١٦٦ / ٢٥٩ ، سيجر المسروري : قبل البستان الجامع لجميع تواريخ أهل الزمان ، خطوطه سراي أحد الثالث ، ١١٤٠ / ٢٩٥٩ .

(٦٥) ياقوت : معجم البلدان ، ٣٧٠ / ١ .

(٦٦) نفس المصدر : ٢٩ / ٤ .

(٦٧) نفس المصدر : ٣٦٠ / ١ ، ٤٣ / ٥ ، ٤٥ ، ٣٨٥ .

كما ندد بالظلم لكونه يؤذن بخراب البلاد وجملاء أهلها عنها . فهو على سبيل المثال يصف العدل والاستقرار والرخاء الاقتصادي في مناطق ما وراء النهر قبل اجتياح التتار لها ، إذ كان في منطقة غرستان كما يقول : « عدل حقيقي وبقيّة من عدل العمرين » ، وأهلها صالحون وعلى الخير مجبولون » . وكان فيها مياه كثيرة وساتين وازر وزبيب يحمل إلى البلدان . ومثل ذلك يقول عن أسفيجاب والطلقان ومرو وساهو التي كانت من أعمار بلاد الله وأزهرها وأوسعها خصبا وشجرا ومياه ورياضا مزدهرة ، كما كانت المياه الجارية في بيوت بعضها والمكتبات كثيرة فيها . وكان ياقوت في هذا الوصف شاهد عيان لأنه أمضى بضعة سنوات يتنقل في ربوعها<sup>(٦٧٠)</sup> .

وفي المقابل يصف ياقوت الخراب الذي حل في بعض البلاد الإسلامية الأخرى ، نتيجة لتكالب العمال والولاء على جمع المال من الرعية ، وعدم اتفاقه على شؤون الولاية ، إضافة إلى غياب السلطان العادل ، وكثرة الحروب والجيوش التي كانت تعيث في تلك البلاد فسادا . وقد أشار ياقوت إلى خراب كرمان وعزا ذلك « إلى اختلاف الأيدي عليها وجور السلطان بها ، لأنها منذ زمن طويل خلت من سلطان بقيم بها ، إنما يتولاها الولاة فيجمعون أموالها ويحملونها إلى خراسان . وكل ناحية انفتت أموالها في غيرها خربت ، إنما تعمر البلدان بسكنى السلطان » وتحدث ياقوت أيضا عن خراب عدد من قرى العراق ، وأرجع السبب في ذلك إلى « مداومة العساكر السلجوقية ومسروهم عليها ونزولهم فيها ، علاوة على « اختلاف السلاطين وقتال بعضهم بعضا ،

المرابطين ، وقد حسبوا أنفسهم فيه منفردين عن أهل الوسطين ، وفي قبلة حصن فسيح مزار للنساء المرباطات . . . وأهل القيروان يتبرعون بحمل الأموال اليهم والصدقات ، وكانت هذه الرباطات تقوم في المدن الإسلامية الواقعة في الثغور الممتدة على طول حدود بلاد المسلمين ، مثل فرغانة وأسفيجاب وفاراب وبيكند وطرسوس والموانئ الإسلامية المطلة على بحر الروم ( المتوسط ) . ويشير ياقوت إلى أن الثغور الهامة كمدينة أسفيجاب والبلدان المجاورة لها ، كانت معفاة من ضريبة الخراج ، « وذلك ليصرف أهلها أخراجها في ثمن السلاح والمعونة على المقام بتلك الأرض ، وكذلك كان ما يصاقبها من المدن »<sup>(٦٧١)</sup> .

وفي هذا الميدان ، أي نظام الدفاع عن الدولة الإسلامية ، يمدنا ياقوت بمعلومات قيمة أخرى عن المراقب والمناظر والمنازل التي كانت منتشرة على طول الخطوط الامامية للحدود من جهة ، وبين هذه الخطوط ومركز القيادة من جهة أخرى ، كما كان الحال في باب الأيوان وقزوين ، حيث يذكر أن المناظر كانت تصل بين قزوين وواسط مقر إقامة الحجاج بن يوسف الثقفي وإلى بني أمية على العراق والمشرق في أواخر القرن الأول الهجري ، « فإذا دخن أهل قزوين دخن المناظر إن كان نهرا ، وإن كان ليلا أشعلوا نيرانا فتجسد الخيل اليهم » . فكانت تلك المناظر والمنازل بمثابة وسائل إنذار مبكر وسريع للمسلمين من الأخطار التي قد تدهمهم<sup>(٦٧٢)</sup> .

وأخيرا : أشاد ياقوت في أثناء حديثه عن البلدان بالعدل واعتبره سببا في عمرانها وخصبها وإزدهارها ،

(٦٧٠) ياقوت : معجم البلدان ، ١/ ١٦٩ ، ٢/ ٣٠٣ ، ٢/ ٥١٣ ، ٢/ ٢٠٩ ، ٢/ ٢١٠ .

(٦٧١) نفس المصدر : ١/ ٢٨١ ، ٣/ ٣٠٣ ، ٣٠٠/ ٥ .

(٦٧٢) نفس المصدر : ١/ ١٧٩ ، ٧/ ٤ ، ١١٤/ ٥ .



ام حبيب ، نهر ام عبدالله . كما نتعرف على بعض الاقطاعات التي منحت في الدولة الاموية في المواد : سلوقية ، عرب ، سمرقية ، نهر العلواء ، مدينة ، مرغاب ، نهر بن عمير . واقطاعات بعض الخلفاء العباسيين في المواد : بغداد راون ، سوق العطش ، سوقة خالدة ، صف ، قطيعة اسحاق ، قطيعة ام جعفر ، مرعش ، نهر ابي الحبيب .

ويوضح ياقوت المفهوم الاسلامي لهذه القطائع التي كانت تتم في الصواري والاراضي البور التي لا مال لها ، ويقول في ذلك ان « القطائع من السلطان انما تجوز في عفو البلاد التي لا ملك لأحد عليها ، ولا عمارة توجب ملكا لأحد »<sup>(٧٩)</sup> . وهذه ناحية اقتصادية هامة لان الخلفاء والولاة كانوا يوجه عام لا يتصرفون بملكات الغير ، واذا ارادوا امتلاك ارض مملوكة لأجل المنفعة العامة كبناء مسجد او مدينة ، عملوا الى شراء الاراضي من اصحابها ، كما فعل الحجاج بن يوسف الثقفي في واسط ، والمهدي في المحمدية بالري ، والمعتصم في سمر من رأى .<sup>(٨٠)</sup> وهذه على كل حال قاعدة اسلامية سنها الرسول ﷺ لأول مرة عندما ابتاع ارض مسجده في المدينة ورفض امتلاك الارض دون التعويض على اصحابها .<sup>(٨١)</sup> وهنا يعتبر معجم بلدان ياقوت مصدرا هاما ورئيسيا في دراسة تطور الاقطاعات في الدولة الاسلامية .

وفي اثناء حديث ياقوت عن البلدان والاراضين يذكر شيئا عن عمارتها واستصلاحها ويورد اميانا بعض

المقدس ، وحطين ، والرملة ، وعسقلان وعكة ، ويبروت ، وصور ، وانطاكية ، وحصن الكرك ، وديماط ، والمنصورة<sup>(٧٧)</sup> . وكانت هذه المعلومات هي الاساس الذي استقى منه هارتفيش ديرينبورغ (Hartwig Derenbourg) مادة بحثه « الصليبيون في معجم ياقوت » المنشور في الكتاب الصادر في باريس ١٨٩٥ بمناسبة الذكرى الثوية لمدرسة اللغات الشرقية الحية<sup>(٧٨)</sup> .

Les Croisades d'après le dictionnaire de Yakout

### الملاحق الاقتصادية :

الاقطاعات : ويتضمن معجم البلدان كذلك اشارات اقتصادية كثيرة وقيمة من بينها اقطاعات الارضين العديدة التي منحت لبعض الاشخاص من قبل الرسول ﷺ والخلفاء من بعده ، سواء في عهد الخلفاء الراشدين او دولة بني امية او دولة بني العباس . ويمكن تتبع هذه الاقطاعات ومعرفة الاشخاص الذين منحوها في مواضع متعددة من المعجم . فبالنسبة للاقطاعات في عهد الرسول ﷺ نجدها في معجم البلدان في ثانيا المواد : حبرون ، الشقراء ، ظبية ، عتيق ، الغميم ، الغورة ، فح ، قالس ، القبلية ، قطيعة ، مدينة ، ينح . ونجد الاقطاعات التي منحت في عهد الخلفاء الراشدين وبخاصة في حكم عثمان بن عفان في المواد التالية في المعجم : سنينيا ، شاطيء عثمان ، شط ، عرصه ، نشاستج نهر الاساورة ، نهر

(٧٧) نفس المصدر : ٢١٢/١ ، ١٧١/٥ ، ١٤٤ ، ١٢٢/٤ ، ١٢٣ ، ٧٠ ، ٦٩/٢ ، ١٧٤ ، ٤٧٣ ، ٣٧٤ ، ٢١٢/٢ ، ٥٢٥ ، ٢١٩/١ .

Centenaire de L'Ecole des Langues Orientales Vivantes, 1795 — 1895, Paris PP. 71 — 92

(٧٨)

(٧٩) ياقوت : معجم البلدان ، ٣٧٦/٤

(٨٠) نفس المصدر : ١٧٤/٣ ، ١٦٥/٥ ، ٢٤٨

(٨١) البلاذري : فتوح البلدان ، ٥ ، السهوي : وفاء السلف ، ٣٢١-٣٢٢/١

وهم يحرّكونه تحريكاً ، فإذا بلغ حد استحكامه صب على وجه الأرض»<sup>(٨٦)</sup> . وذكر ياقوت أيضاً التضخم المالي في بلدة بنجهير بنواحي بلخ نتيجة لكثرة وجود الفضة فيها ، ويصف بدقة طريقة استخراج هذا المعدن من جبل الفضة القريب منها والتنافس الشديد على استخراجها فيقول : « والدراهم بها واسعة كثيرة ، لا يكاد احدهم يشتري شيئاً ولو جرة بأقل من درهم صحيح ، والفضة في أعلى جبل مشرف على البلدة والسوق ، والجبل كالغربال من كثرة الحفر ، وإنما يتبعون عروقها يحدونها تدلهم على أنها تقضي إلى الجواهر ، وهم إذا وجدوا عرقاً حفروا أبداً إلى أن يصيروا إلى الفضة ، فينتفخ أن لرجل منهم في الحفر ثلاثمائة ألف درهم أوزانداً أو ناقصاً ، فربما صادف ما يستغني به هو وعقبه ، وربما حصل له مقدار نفقته ، وربما اكسب وافتقر لغلبة الماء وغير ذلك وربما يتبع الرجل عرقاً ويتبع آخر شعبة أخرى منه بعينه ، فيأخذان جميعاً في الحفر ، والعادة عندهم أن من سبق فاعترض صاحبه فقد استحق ذلك العرق وما يفضي إليه ، فهم يعملون عند هذه المسابقة عملاً لا تعلمه الشياطين ، فإذا سبق أحد الرجلين ذهب نفقة الآخر هدراً ، وإن استويا اشتركا ، وهم يحفرون أبداً ما حييت السرج وانفذت المصابيح ، فإذا صاروا في البعد إلى موضع لا يحصي السراج لم يتقدموا ، ومن تقدم مات في أسرع وقت ، فالرجل منهم يصبح غنياً ويسعى فقيراً ، أو يصبح فقيراً ويسعى غنياً »<sup>(٨٧)</sup> . وفي هذا النص الطريف وصف

المعلومات القيمة عن الثروات الزراعية والحيوانية والمعدنية فيها ، إضافة إلى ذكر بعض الصناعات مما يدخل في التاريخ الاقتصادي للدولة الإسلامية . فقد كان في مدينة شيراز مثلاً شجرة تفاح نصفها حلون ونصفها الآخر حامض ، كما كان في بلدة شترة بالاندلس تفاح يحيط الواحدة منه ثلاثة أشبار . واشتهرت تاهرت بالسفرجل ، وتبريز بالشمش ، وغزة ورفح بالجميز ، وفلسطين وتونس بالزيتون .<sup>(٨٨)</sup> وفي مصر كمثال آخر ، يشير ياقوت إلى أهمية مياه النيل ، وقياس مستوى ارتفاعها للزراعة ، ويورد كشفاً بأساء مائة وستة وثلاثين نوعاً من الطيور كانت توجد في منطقة بحيرة تنيس ، بالإضافة إلى ثمانين نوعاً من الأسماك فيها<sup>(٨٩)</sup> . وكان في بلدة البشمور قرب دمياط خراف ممتازة وصفها ياقوت بأنها « ليس في الدنيا مثلهما عظماً وحسناً وعظم الآيات »<sup>(٩٠)</sup> .

المعادن : أما المعادن فأهمها الذهب في غانة وما وراء النهر . وأشار إلى معادن أخرى مثل الفضة والحديد والنحاس والزنك والتوتياء والنوشادر والفيروزج ، والبلازورد ومعدن البلخس المقاوم للياقوت ، والنفط والقحم الحجري وحجر المس والملح . ويلاحظ أن معظم هذه المعادن كان موجوداً بكثرة في الأقاليم الشرقية من الدولة الإسلامية ، مثل كرمان وخراسان وأقصى بلاد الشام<sup>(٩١)</sup> . وكان بعض سكان شمال العراق يستخدمون القار في رصف الأرض ( الأسفلت ) حيث كان القير « يطرح في القدور وينحل له ، ويظهر عليه بمقدار يعرفونه ويوقد تحته حتى يذوب ويختلط بالرمل ،

(٨٦) ياقوت : معجم البلدان ، ٨/٢ ، ٥٨ ، ١٣ ، ٢١٣ ، ٣٠٢ ، ٣٢٢/٣ ، ٥٥ ، ٣٦٧ ، ٣٨١ ، ١٢٢/٤

(٨٧) نفس المصدر : ٥٢٢/٢

(٨٨) نفس المصدر : ٤٨٨/١

(٨٩) نفس المصدر : ٣٨٨ ، ١٧٢/١ ، ٤٩٨ ، ١٢/٢ ، ٤١٩ ، ٤٧١ ، ٥١/٣ ، ٤٥٤/٤

(٩٠) ياقوت : معجم البلدان ، ٢٩٩/٢

(٩١) نفس المصدر : ٤٩٨/١ ، ٤٩٩

أو لآخر تحولت القوافل عنها إلى غيرها ، وفقدت تلك المراكز التجارية أهميتها وازدهارها وربما خربت كما حدث لبلدة برقيمد من أعمال الموصل . وكانت هذه البلدة عمراً للقوافل بين الموصل ونصيبين ، فلما زاد تعرض لصوصها للقوافل التجارية بعد القرن الرابع الهجري ، « وكثرت منهم هذه الأفاعيل تجنبتهم القوافل ، وجعلوا طريقهم على باشريز وانتقلت الأسواق إلى باشريز » وأصبحت برقيمد بلدة « خراباً صغيرة حقيرة » على حد وصف ياقوت (٨١) . وكان أعراب يادية الشام يتقاضون من تجار منطقة الجزيرة الفراتية مالا مقابل خفارتهم القوافل التجارية ، إذ كان في الرصافة كما يقول ياقوت نقلاً عن الأصمعي « جماعة من أهل الشروة ، لأنهم بين تاجر يسافر إلى أقطار البلاد ، وبين مقيم فيها يعامل العرب (٨٢) » . وقد وصف ابن بطوطة في رحلته بعض الطرق التجارية التي كانت قوافل الحجاج تسلكها أيضاً . ونوه بالمحطات والمراكز التجارية التي كانت تقوم على تلك الطرق داخل جزيرة العرب ، وكيف كان بعض أمراء العرب يشتركون مع رجال قبائلهم في المحافظة على هذه القوافل التي كانت تحمل التجارات إضافة إلى الحجاج ، فكان عرب تلك المراكز « يتعشون مع الحجاج في البيع والتجارة (٨٣) » . وياقوت وهو يشير إلى التجارة الداخلية لا يغفل عن ذكر المراحل والمسافات بين البلدان ، رحجارة الأميال المنصوبة عليها معرفة تلك المسافات ، والتي كان العابرون يكتبون على بعضها أحياناً أبياتاً من شعر الحنين إلى الأوطان (٨٤) .

دقيق للعمل في مناجم الفضة في تلك المنطقة ، والظروف الصعبة والخطرة التي تكثفت هذا العمل ، وبخاصة عندما يوغل العمال في الحفر وتقتل نسبة الأوكسجين اللازم للتنفس مما تعذر معه الإضاءة أو الحياة . وهنا أيضاً تفسير اقتصادي لغلبة العملة الفضية في المناطق الشرقية للدولة الإسلامية ، ومن قبل عرفت هذه الظاهرة أيضاً في الدولة الساسانية (٨٥) .

الصناعة : أما الصناعات التي اشتهرت بها بعض البلدان فقد أشار ياقوت إلى الكثير منها في معجمه . وذكر على سبيل المثال صناعة المنسوجات في تيس والحير في فاس ، والفخار والسبك الملح في تونس ، كما نوه بما كانت تلباه صناعة الكاغذ أي ورق الكتابة من اهتمام بسبب انتشار العلم والحاجة إلى تدوينه . ويحدثنا ياقوت عن وجود دور لصناعة الكاغذ في بغداد وخوفاً بأذربيجان وشاطبة بالاندلس وأشهرت المناطق الشرقية للجزيرة العربية المطلة على الخليج العربي بالبرود الفطرية والرماح الحظية والنبل الفاخرة الصنعة (٨٦) .

التجارة : وهناك اشارات بالغة الأهمية بالنسبة للتجارة الداخلية بين أقطار الدولة الإسلامية ، حيث كانت القوافل التجارية تعبر البلاد في طرق معروفة مخفوة تنتشر عليها المدن والقرى والمراكز التجارية والخانات (٨٧) . ويلاحظ أن مصلحة هذه المدن والقرى الواقعة على الطريق البرية كانت تنضمي توفير الأمن للقوافل التجارية ، فإذا لم يتوفر الأمن عند أحداها لسبب

(٨٨) نفس المصدر : ٣٥٤/١

(٨٩) نفس المصدر : ٥١/٢ : ٩١ ، ٩٢ ، ٣٧٨ ، ٤٠٠ ، ٤٠٧ ، ٤٢٢ ، ٣٠٩/٢ ، ٣٧٣/٤ ، ٣٨٩

(٩٠) ياقوت : معجم البلدان ، ٥٤/٣ ، ٧١

(٩١) نفس المصدر : ٣٨٧/١

(٩٢) نفس المصدر : ٤٧/٣ : ٤٨

(٩٣) ابن بطوطة : حفة الظفار ، ١٩٦٠ ، ١٧٤

(٩٤) ياقوت : معجم البلدان ، ٤٦٢/١ ، ١٨٥/٤

في نقل تجارة الهند الى البلدان المجاورة . وقد لعبت البصرة وسيراف ولا و صحار و هرمز و جزيرة قيس والبحرين دوراً هاماً في هذه التجارة ، التي شارك فيها ياقوت نفسه فزار البصرة من أجل ذلك ثماني مرات ، وتردد على موانيء وجزر الخليج « عدة نوب » على حد تعبيره (١١٠) . وعبر الخليج كانت المراكب التجارية تتوجه الى السند والهند وسيلان والصين ، كما وصلت تجارة المسلمين البحرية الى موانيء ظفار وحضرموت واليمن والبحر الاحمر وسواحل أفريقيا الشرقية حتى سفالة وجزيرة القمر وهي مدغشقر حسب رأي ياقوت (١١١) . وتطلق التسمية اليوم على أربع جزر بين مدغشقر والساحل الشرقي لأفريقيا بما يعرف بدولة جزر القمر . ويعتبر معجم البلدان مصدراً أساسياً لمن أراد التوسع في البحث عن النشاط التجاري لهذه المنطقة حتى القرن السابع الهجري ، القرن الثالث عشر الميلادي .

وياقوت وهو يورد هذه الاشارات التجارية يذكر ان بعض الجواسيس كانوا ينتحلون صفة التجار للوقوف على الاخبار (١١٢) ، كما يقدم البنا فكرة عن اسعار بعض المواد الغذائية في بغداد زمن المنصور ، وفي واسط في عهد ياقوت نفسه ، وبذلك يعطي معلومات مفيدة عن تطور الاسعار خلال فترة تصل الى حوالي خمسة قرون (١١٣) . ويشير عرضاً كذلك الى ضريبة الخوانيت

أما التجارة الخارجية فكانت تتم بطريقتين بري وبحري ، يتصل تجار المسلمين بواسطتهما بغيرهم من تجار الأمم والشعوب ، ومن بينها الخنز فكان التجار من أراضي المسلمين يجتازون بمراكبهم بحر قزوين الى ارض الخنز ويجلبون من هناك اللور الكثير (٩٥) . وقد ذكر ابن فضلان في رسالته ان التجار المسلمين استطاعوا ان يكونوا جالية كبيرة في مدينة اتل عاصمة الخنز حيث كان « على المسلمين رجل من غلمان الملك ، يقال له خز ، وهو مسلم ، واحكام المسلمين المقيمين في بلد الخنز والمختلفين اليهم في التجارات مردودة الى ذلك الغلام المسلم ، لا ينظر في أمورهم ، ولا يقضي بينهم غيره » (٩٦) . كما تردد التجار المسلمون على بلاد الصغالة القريبة من بلاد الخنز ، وكانوا يقصدون تلك البلاد بانواع التجارات (٩٧) . أما التجارة مع الروس فكانت تتم على غير اتل حيث كان الروسية يوافقون بتجارهم هناك ، ومنها الجواري والسمور والجلود ، ويلتقون مع التجار المسلمين لتبادل العروض التجارية (٩٨) .

كما يشير ياقوت الى التجارة البحرية بين الموانيء الاسلامية في بحر الروم ( المتوسط ) كنقل الأخشاب من شمال بلاد الشام الى مصر (٩٩) . ويورد تفاصيل وافية عن التجارة البحرية المزدهرة في موانيء وجزر الخليج العربي ، والدور الذي كانت تقوم به هذه المراكز

(٩٥) نفس المصدر : ٨٨/١ : ٣٤٢

(٩٦) رسالة ابن فضلان : ١٩٧٨ : ١٩٤

(٩٧) ياقوت : معجم البلدان : ٤١٦/٣

(٩٨) نفس المصدر : ٩٩/٣ : ٨٠ ، ٤٨٨/٤

(٩٩) نفس المصدر : ٩٨/٢

(١٠٠) نفس المصدر : ٤٣٩/١ : ٨/٥

(١٠١) نفس المصدر : ٤٩١/٣٤٣/١ : ٤٤٠/٣

(١٠٢) نفس المصدر : ٤٤٨/٤

(١٠٣) نفس المصدر : ٤٥٩/١ : ٣٥٠/٥



« وكان بنو معد نزولاً بتهامة وما والاها من البلاد ففرقتهم حروب وقعت بينهم ، فخرجوا يطلبون المنسح والريف مما يليهم من بلاد اليمن ومشارف أرض الشام (١١٦) » . وكان ابو سفیان زعيم قريش يمتلك قرية نقنس من قرى البلقاء بارض الشام ثم انتقلت الى ولده بعده (١١٧) . وكانت القبائل العربية في شمال الجزيرة تفتنم فرصة حروب ملوك الطوائف في فارس وتغير على السواد مما جعل الفرس يغفرون خذلن سابور الممتد من هيت الى كاظمة والخليج لصد تلك الغارات (١١٨) .

وفي هذا المجال يورد ياقوت معلومات قيمة عن تحرك القبائل العربية داخل الجزيرة العربية وخارجها قبل الاسلام ، ويعدد مواطن عدد بارز منها فقد ذكر تفرق قضاة والازد ومواطن بني سعد وبني اسد وطيء وكلب وتغلب ويكر وربيعة ومضر . واستشهد بآيات شعر للاخنس بن شهاب التغلبي تعتبر بمثابة وثيقة تاريخية حول منازل بعض قبائل العرب وهي لكيز ويكر وتميم وغسان وبهراء وايداد وتغلب . يقول الشاعر :

لكل اناس من معد عمارة  
عروض اليها يلجأون وجانب  
لكيز لها البحرين والسيف دونها  
وان ياتها بأس من الهند كارب  
تطايير عن اعجاز حوش كائنا  
جهام هراق مائه فهو آيب

التي فرضت في بغداد زمن المهدي ، ومقدار خراج عدد من الاقاليم والولايات . ويبدو ان الأرقام التي أوردها ياقوت قريبة من الصحة ، من ذلك ما ذكره عن جلة خراج فارس مع الأهواز في عهد الحجاج بن يوسف الثقفي وهو ثمانية عشر ألف درهم . والراجع ان هذا الرقم هو الذي وهم فيه معظم المؤرخين وسحبوه على خراج العراق كله زمن الحجاج متهمين اياه بكسر خراج هذا الاقليم (١١٩) .

#### الملاح الاجتماعية :

وتصادفنا في معجم البلدان عدة ملاح اجتماعية هامة منها :

أولاً : ظاهرة الهجرة السكانية من جزيرة العرب ، على اعتبار ان هذه المنطقة كانت في معظم الحقب التاريخية منطقة طرد بشرى الى المناطق الأكثر خصباً . وتعود هذه الظاهرة الى ما قبل الاسلام ، فيذكر ياقوت نقلاً عن رسالة ابي دلف مسعر بن مهلهل ان الأخير صادف وهو في طريقه الى الصين بموضع القليب « بوادي عرب من تخلف عن تبع لما غزا بلاد الصين ، هم مصاييف ومشات في مياه ورمال ، يتكلمون بالعربية القديمة لا يعرفون غيرها ويكتبون بالحميرية ولا يعرفون قلمنا ، يبدلون الأصنام ، وملكهم من أهل بيت منهم (١٢٥) » . ويتحدث ياقوت أيضاً عن هجرة أخرى لبني معد من تهامة الى اليمن ومشارف بلاد الشام قائلاً :

(١٠٤) ياقوت : معجم البلدان ، ٢٢٧/٤ ، ٤٤٨ ، احسان العماد : الحجاج ، ٤٢٥ ، ٤٢٨

(١٠٥) ياقوت : معجم البلدان ، ٤٤٣/٣ ، ٤٤٤

(١٠٦) نفس المصدر : ٣٢٩/٢ ، ٣١/٥

(١٠٧) نفس المصدر : ٣٠٠/٥

(١٠٨) نفس المصدر : ٣٣٠/٢ ، ٣٩٢

فبما اختلف واختلف من اسباب البقاع عن وجود بقايا أولئك العرب الأوائل حتى القرن السادس الهجري في بلدة ألبان بين غزنة وكابل ، حيث كانوا ما يزالون على مذهب الخوارج « الا انهم مدعون للسلطان ، وفيهم تجار ومياسير وعلماء وادباء يخالطون ملوك الهند والسند الذين يقربون منهم ، ولكل واحد من رؤسائهم اسم بالعربية واسم بالهندية (١١٢) » . وامثال هؤلاء كما يقول ابن خلدون « انفتحتهم الدولة الاسلامية العربية ، فبما منهم الثغور القصية ، واكثرهم الاقطار المتباعدة ، واستلحمتهم الوقائع المذكورة ، فلم يبق منهم ... الا سمع من ذكر اسمائهم في انساب اعقاب متفرقين في الامصار ... فتقطّعوا في البلاد (١١٣) » .

وفي أخبار البيعة الاستطلاحية التي ارسلها الخليفة العباسي الواثق بالله لاستطلاع أحوال السد الذي بناه ذو القرنين ليحول دون تقدم ياجوج ومأجوج ، ذكر ياقوت ان البيعة اجتازت حصوناً فيها « قوم يتكلمون بالعربية والفارسية هم مسلمون يقرأون القرآن ولهم مساجد وكتاتيب ، الا انهم كانوا منقطعين عن العالم الاسلامي ولا يعرفون شيئاً من أخباره (١١٤) » .

ثانياً : وكان العرب لدى انتقاسهم الى الامصار والاقاليم يسمون بعض مدنها باسماء المدن والمواطن التي قدموا منها عليها تذكروهم بمواطنهم الأولى وبعديء من شوقهم وحنينهم اليها ، وهي ظاهرة انسانية مألوفة ومعروفة . فقد بنى أهل دومة الجندل بلدة أخرى بهذا

ويكرر لها بر العراق وأن تحف  
يحل دونها من في اليمامة حاجب  
وصارت تمسيم بين قف ورملة  
لها من جبال منتسأى ومذاهب  
وكلب لها خبت فرملة عالج  
الى الحرة السرجلاء حيث تحارب  
وغسان جن غيرهم في بيوتهم  
تجملد عنها خسر وكتائب  
وبهراء حي قد علمنا مكانهم  
لهم شرك حول الرصافة لاحب  
وغارت ايباد في السواد ووطنها  
برازيق عجم تبغني من تضارب  
أرى كل قوم قاربوا قيد فلهم  
ونحن خلعتنا قيده فهو سارب (١١٥)

وعندما جاء الاسلام وتكونت نواة دولته في المدينة انقلبت ظاهرة الهجرة السكانية من الجزيرة العربية ابعاداً أوسع . فقد أدى ذلك داخل الجزيرة نفسها الى حدوث تركيز سكاني في منطقة المدينة مركز الدولة الجديدة ، ويتدفق الأعراب على المدينة للانفاذة من المعطاء (١١٦) ، ولم تلبث اعداد غفيرة من القبائل العربية أن خرجت ضمن جيوش الفتح خارج الجزيرة العربية حيث فتحت الاقطار وأقامت في الامصار والثغور وفي بيوت المدن المفتوحة كما حدث في خراسان (١١٧) . وقد أسهم عرب الفتح في نشر الاسلام والعربية في البلاد المفتوحة . ويحدثنا ياقوت نقلاً عن نصر الاسكندردي صاحب كتاب

(١١٥) نفس المصدر : ٣٥١/٤

(١١٦) نفس المصدر : ٣٨٥/١ ، ٣٠٥/٣

(١١٧) نفس المصدر : ٢٤٤/١

(١١٨) ابن خلدون : المعبر ، ١٩٥٩ ، ٦/١

(١١٩) ياقوت : معجم البلدان ، ١٩٩/٣

يذكر عَرَضاً اختيار العرب المهاجرة الى الامصار ، اختيار الشعوب والقبائل الأخرى التي كانت تعيش داخل الدولة الاسلامية ، او تلك التي تقيم على تخومها كالنبط والاساورة والبخارية والاكرد والديلم والجرجة والترك والصقالبة والخزر والروس والبلغار والزنج واهل الصين ، فاورد وصفاً لجانب من عاداتهم وتقاليدهم . واعتمد في هذه الاخبار على رسائل الرحالة والمبعوثين كما هو الحال بالنسبة لرسالة ابن فضلان في وصف الرحلة الى بلاد الترك والخزر والروس والصقالبة ، التي وضعها اوائل القرن الرابع الهجري ، ورسالة ابي دلف في ذكر ما شاهده ورآه في بلاد الترك والصين والمند (١١٨) .

#### رابعاً : ظاهرة الحنين الى الأوطان :

وطبيعي ان يساكب هجرة العرب الى الاقاليم والامصار حنين قوى الى اوطانها ومرايعها الأولى . وقد وجدت هذه الظاهرة الانسانية بين جميع المهاجرين العرب ابتداء من المسلمين الأوائل الذين هاجروا من مكة الى المدينة ، وانتهاء ، بأولئك الذين رابطوا في الامصار والثغور . ويبرز معجم البلدان بالأشعار الرقيقة المرفقة التي تعبر بصديق عن هذه المشاعر . ويبدو ان ياقوت اقتبس هذه الأشعار من كتاب الحنين الى الأوطان للقاضي الشريف ابي طاهر الحلبي (١١٩) .

ونورد فيما يلي طائفة من هذه الأشعار على سبيل المثال لا الحصر نظراً للأهمية الاجتماعية لها ، واعتبارها وثائق تدل على هذه الظاهرة بوضوح .

الاسم قرب عين التمر في العراق ، وشهدت الأندلس بالأندلس وملكوها سموا عدة مدن بها باسماء مبدن الشام ، مثل حمص وتدمر (١١٥) .

ثالثاً : وياقوت حين يتحدث عن بعض المدن كالبصرة والكوفة يورد بيانات عمرانية هامة عن مساحتها وسكانها . فالبصرة كانت تضم في عهد زياد بن ابيه ثمانين ألف مقاتل من العرب وعيالهم مائة وعشرون ألفاً ، اي ان عدد سكانها حوالي منتصف القرن الأول الهجري مائتا ألف نسمة . وازيف الى هؤلاء في زمن عبيد الله بن زياد الفان من البخارية المقاتلين الذين نقلهم من بخاري وفرض لهم العطاء وبني لهم سكة في البصرة عرفت بالبخارية نسبة لهم . فقد تطورت البصرة زمن خالد ابن عبد الله القسري في اوائل القرن الثاني للهجرة فاصبح طولها فرسخين وعرضها فرسخين الا أنفاً (١١٦) . وشهدت الكوفة تطوراً مماثلاً ، فبعد ان كانت تضم على عهد زياد بن ابيه حوالي مائة واربعين ألف نسمة بينهم ستون ألف مقاتل من العرب ، أصبحت حوالي عام ٢٦٤ هـ / ٨٧٧ م تمتد ستة عشر ميلاً وثلاثي ميل . وكان فيها ذلك الوقت خمسون ألف دار للعرب من ربيعة ومضر ، واربعة وعشرون ألف دار لسائر العرب ، وستة آلاف دار لليمن . فاذا قدرنا ان كل دار يسكنها ستة اشخاص في المتوسط ، وجدنا ان سكان الكوفة في القرن الثالث الهجري كانوا يبلغون حوالي نصف مليون نسمة (١١٧) . ولم يُغفل ياقوت وهو

(١١٥) نفس المصدر : ١١٤/١ ، ٣٠٤/٢ ، ١٠٧/٥

(١١٦) نفس المصدر : ٣٥٦/١ ، ٤٣٤

(١١٧) نفس المصدر : ٤٣٤/١ ، ٤٣٦/٤

(١١٨) ياقوت : معجم البلدان ٣١٢/١ ، ٣٣٣ ، ٤٨٦ ، ٤٨٧ ، ٤٨٨ ، ٤٨٩/٢ ، ٨٨/٣ ، ٧٩ ، ٨٣ ، ٤٤١ ، ٤٤٨ ، ١٨٧/٤ ، ٣٥٢ ، ٣٨٨ ، ٤٠٧ ، ٦/٥

٣٣ ، ٤٤ ، ٤١ ، ٤٤٨ ، ٣١٣ ، ٤٢٦

(١١٩) نفس المصدر : ٣٣٤/١ ، ٣٦٦ ، ٤٢٩ ، ٤٧٧ ، ٤١/٢ ، ٥٢ ، ٢١٠ ، ٢٢٠ ، ٢٤٨ ، ٢٥٥ ، ٢٠٣ ، ٣٥٢ ، ١١٩/٣ ، ١٣٩ ، ٢٦٠ ، ٢٨٧ ، ٣١٣

٣١٥ ، ٣٨٨ ، ٣٩٤ ، ١٠٢/٤ ، ١٣٢ ، ١٤١ ، ١٦٧ ، ٣١٦ ، ٣٢٧ ، ٨٣/٥ ، ١١٢ ، ١٨٣ ، ١١٢

قال بلال مؤذن الرسول يتشوق الى مكة (١٢٠) :

الا ليت شعري هل أبیتن ليلة  
بفخ وعندي اخضر وجليل  
وهل اردن يوماً مياه مجنة  
وهل يبدؤن لي شامة وطفيل

وقال مصعب بن عبد الله الزبيري يتشوق الى المدينة  
ومنازلها (١٢١) :

اقول لثابت والوعين همى  
دموعاً ما انتهها انحدارا  
اعرني نظرة بقرى دجيل  
تحملها ظلاماً او نهارا  
فقال ارى برومة او بسلع  
منازلنا معطلة فغارا

وانشد اعرابي حنيناً الى الحجاز (١٢٢) :

تطاول ليلى بالعراق ولم يكن  
على باكناف الحجاز يطول

فهل لي الى ارض الحجاز ومن به  
بعاقبة قبل الفوات سبيل

اذا لم يكن بيبي وبينك مرسل  
فريح الصبا في البك رسول

ومن شعر اعرابي في الامصار يتشوق الى نجد (١٢٣) :

اكرر طرقي نحو نجد وانني  
اليه وان لم يدرك الطرف انظر  
حنيناً الى ارض كأن تراهها  
اذا مطرت عود ومسك وعنبر

مضى يستريح القلب اما مجاور  
بحرْب واما نازح يتذكر

وقال آخر يتمنى القفول الى نجد (١٢٤) :

سمعت رحيل القافلين فشاقني  
فقلت اقرأوا في السلام على دعد  
احن الى نجد واني لايس  
طوال الليالي من قفول الى نجد  
تَعزُّ فلا نجد ولا دعد فاعترف  
بهجر الى يوم القيامة والوعد

ويصف اعرابي مرابط في الثغور الرومية حنينه الى  
نجد بقوله (١٢٥) :

تبدلت من نجد ومن يحمله  
محلة جند ، ما الاعارب والجنه ؟

واصبحت في ارض السنود وقد أرى  
زماناً بارض لا يقال لها بند

(١٢٠) نفس المصدر : ١٨٣/٥ .

(١٢١) نفس المصدر : ٣٠٠/١ .

(١٢٢) نفس المصدر : ٢٢٠/٢ .

(١٢٣) ياقوت : معجم البلدان ، ٢٦٢/٥ .

(١٢٤) نفس المصدر : ٢٦٤/٥ .

(١٢٥) نفس المصدر : ٢٦٤/٥ .

خليلي طال الليل والليل السقي  
بعمري وأستأنست برقا بماتجا

وقال مالك بن الرب يشوق إلى موطنه بجزيرة  
العرب (١٢٩) :

لعمري لئن غالت خراسان هامي  
لقد كنت عن بابي خراسان نائيا  
الا ليت شعري هل ابستن ليلة  
بجب الغضا أزجي القلوص التواجيا  
فليت الغضا لم يقطع الركب عرضه  
وليت الغضا مائى الركاب ليايا

الم ترن بعث الضلالة بالهدى  
واصبحت في جيش ابن عفان غازيا

وهذا العباس بن الأحنف يقول في هذا  
المعنى (١٣٠) :

قالوا خراسان أدنى ما يبراد بكم  
ثم القفول فيها جشأ خراسانا

عين الزمان اصابتنا فلا نظرت  
وعذبت بغننون المهجر السوانا

وقال عبد الرحمن بن داره ممن كان يقيم بخص  
بالشام (١٣١) :

خليلي ان حانت بخص منيتي  
فلا تدفني وارفعاني إلى نجد  
ومرا على أهل الجنب باعظمي  
وان لم يكن أهل الجنب على القصد  
وان انتما لم ترفعاني فسلماً  
على صارة فالقور فالأبلق الفرد

وينسب إلى الشاعر العماني محمد بن زوزان مما  
يشوق به إلى بلده صحار (١٣٢) :

لحى الله دهرا شردتني صروقة  
عن الأهل حتى صرت مغترباً فرداً  
الا ايها الركب اليمانون بلغوا  
تحية نائي الدار فقيتم رشدا  
إذا ما حللتكم في صحار فاطموا  
مسجد بشار وجوزوا به قصدا  
فعرجوا إلى داري هناك وسلموا  
على والدي زوزان فقيتم جهدا

وقال شاعر يمني مغترب يمين إلى اليمن (١٣٣) :

خليلي اني قد ارقمت وغميت  
كبقر يمان فاقعدا علانينا

(١٢٦) نفس المصدر : ٣٠٣/٢ .

(١٢٧) نفس المصدر : ٣٩٤/٣ .

(١٢٨) نفس المصدر : ٤٤٨/٥ .

(١٢٩) نفس المصدر : ٣٥٣/٢ .

(١٣٠) ياقوت : معجم البلدان ، ٣٥٣/٢ .

الارجاء ، عادية البناء (أي ضخمة البناء ) ، لها صحن عظيم الف ذراع في الف ذراع ، كان يرقف فيها في الأعياد ، وعند ورود الرسل من البلاد ، في كل جانب منها خمسمائة فرس بالراكب الذهب والفضة كل فرس فيها على يد شاكري « ومنظرة الحلبة التي » جعلت ليجلس فيها الخليفة ويستعرض الجيوش في أيام الأعياد (١٣٣) » .

وكان بعض الناس يقصدون القصور والمباني الأثرية وأحياناً الديارات الواقعة خارج المدن لقضاء وقت من الراحة والاستجمام ، ويشهدون هناك في أحيان أخرى سباقات الخيل . وقد شهد مثل هذه السباقات الرسول ﷺ والحجاج بن يوسف والمأمون وغيرهم (١٣٤) . ويحدثنا ياقوت ان المأمون اقتطع جملة من البرية عملها ميداناً لتركض الخيل واللعب بالصوالجة ، وحيزاً لجميع الوحوش ، وفتح له باباً شرقياً الى جانب البرية ، وأجرى فيه نهراً ساقه من نهر الملع ، وابتنى . . منازل خاصته وأصحابه سميت المأمونية (١٣٥) . اما البعض الآخر من طلاب اللهور والعبث والمتع والتهتك ، فكانوا يقصدون أماكن معروفة لهذا الغرض في الجانب الشرقي من بغداد ، وفي باري ، وقطربل في العراق ، ودالان ودموران قرب دمار من أرض اليمن ، حيث كانوا يجامسون بعض الانحرافات والمعادات الخلقية السيئة ، وهو أمر لا يخلو منه عصر من العصور ولا حضارة من الحضارات (١٣٦) . ويلاحظ

خامساً : وهناك اشارات متفرقة وكثيرة عن الترف الاجتماعي والعمراني الذي شهدته بعض المدن الاسلامية ، واوردها ياقوت عند حديثه على تلك المدن ، والثروات الطائلة التي انفقت في بناء القصور العباسية ، وبخاصة في عهدي المتوكل والمقتدر . ومن ذلك وصف قصر دار الشجرة الذي بناه المقتدر « وإنما سميت بذلك لشجرة هناك من الذهب والفضة في وسط بركة كبيرة مدورة ، امام ابوابها وبين شجريستانها ، ولها من الذهب والفضة ثمانية عشر غصناً ، لكل غصن منها فروع كبيرة مكللة بأنواع الجواهر على شكل الثمار ، وعلى اغصانها انواع الطيور من الذهب والفضة ، اذا مر الهواء عليها ابانت عن عجائب من انواع الصفيير والهدير ، وفي جانب الدار عن يمين البركة ثمان خمسة عشر فارساً على خمسة عشر فرساً ، ومثله عن يسار البركة ، وقد لبسوا انواع الحرير المديج مقلدين بالسيف ، وفي أيديهم المطارد ، يتحركون على خط واحد ، فيظن ان كل واحد منهم الى صاحبه قاصد (١٣٦) » . ويمكن للباحث ان يطلع على مقدار ثروة على بن احمد الراسبي ، وهو واحد من العمال المتنفذين زمن المقتدر ، كما اوردها ياقوت ، ليكون فكرة عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية التي كان يتمتع بها أفراد هذه الطبقة من الناس (١٣٧) واورد ياقوت أيضاً معلومات لا تقل أهمية عن تلك ، حول بعض رسوم الخلافة في بغداد ، مثل دار الخيل التي كانت « من دور الخلافة المعظمة في بغداد ، وكانت داراً عظيمة

(١٣٦) نفس المصدر : ٢/ ٤٢١ .

(١٣٧) نفس المصدر : ٢/ ٤٨٢ .

(١٣٨) نفس المصدر : ٢/ ٤١٩ ، ٥/ ٢١٢ .

(١٣٩) نفس المصدر : ٢/ ٢٧٦ ، ٥/ ٣١٨ .

(١٤٠) ياقوت : معجم البلدان ، ٢/ ٤ .

(١٤١) نفس المصدر : ١/ ٣٢١ ، ٢/ ٤٦٠ ، ٥/ ٣٧١ ، ٥/ ٣٧٤ ، ٥/ ٢٢٤ .

مدينة ساوة بين الري وهمدان كانت توجد دار كتب كبيرة وصفها ياقوت بأنه « لم يكن في الدنيا أعظم منها ، بلغني أن الستر احرقوها » ، وذلك عام ٦١٧هـ / ١٢٢٠م (١٣٩) . وفي مدينة مرو الشاهجان وحدها بخراسان ، كان يوجد عشر دور كبيرة للكتب قبل تدمير للغول لها . ويقول ياقوت في هذا الشأن انه أقام بمرور ثلاثة أعوام وأنه « لولا ما عرا من ورود التتر الى تلك البلاد وخرابها لما فارقتها الى الممات ، لما في اهلها من الرفد ولسين الجانب وحسن العشرة ، وكثرة كتب الأصول المتقنة بها ، فاني فارقتها ٦١٦هـ وفيها عشر خزائن للوقوف لم أر في الدنيا مثلها كثرة وجودة ، منها خزانتان في الجامع احدهما يقال لها العزيزية وفقها رجل يقال له عزيز الدين ابو بكر عتيق الزنجاني او عتيق بن ابي بكر . . . . . وكان فيها اثنا عشر ألف مجلد او ما يقابلها ، والاخرى يقال لها الكعالية ، لا ادري الى من تنسب وبها خزنة شرف الملك المستوفي ابي سعد محمد بن منصور في مدرسته ، ومات المستوفي هذا في سنة ٤٩٤هـ ، وكان حنفي المذهب ، وخزانة نظام الملك الحسن بن اسحاق في مدرسته ، وخزانتان للسمعانيين ، وخزانة اخرى في المدرسة العميدية ، وخزانة لمجد الملك احد الوزراء المتأخرين بها ، والخزائن الخاتونية في مدرستها والضميرية في خانكاه هناك . وكانت سهلة التناول ، لا يفارق منزلي منها مائتا مجلد وأكثر بشير رهن تكون قيمتها مائتي دينار ، فكننت ارتع فيها واقتبس من فوائدها وانساني حبها كل بلد وإماني عن الأهل والولد . وأكثر فوائد هذا الكتاب وغيره مما جمعته فهو من تلك الخزان (١٤٠) » .

هنا ان ياقوت أثبت في أثناء تعريفه بالمدن والأقاليم ما كان قد رآه او روي له او نقله من مصادره من صفات حسنة واخرى سيئة نسبت الى بعض المدن والبلاد وسكانها ، مثل ما ذكره عن أهل حمص والموصل ومرو ورمباط وصقلية والبريس والنيط . وياقوت في ذلك لم يقصد ذم هؤلاء او أولئك وإنما قدم لنا جانباً آخر مما كان يقال او يكتب (١٣٧) .

### الملاحم الثقافية :

وسجل ياقوت في معجم البلدان بطريق غير مباشر عدة ملاحم ثقافية في الدولة الاسلامية . وقد استوفته هذه الملاحم لأنه كان أدبياً شارك في ثقافة عصره عن طريق نسخ الكتب والمناجزة بها ، الى جانب جهوده المشكورة في التأليف ، فضلاً عن ان رصد ياقوت لجوانب من الحياة الثقافية جاء قبيل اجتياح المغول للمشرق الاسلامي وتدميرهم لمعظم المراكز الثقافية فيه . ويمكن تلمس هذه الملاحم تحت المؤسسات التالية :

أولاً : المساجد : وكانت المساجد الاسلامية مؤسسات دينية ثقافية واجتماعية هامة منتشرة في جميع انحاء الدولة . كما كان يلحق بمعظمها مكتبات تضم صنوف العلم والمعرفة (١٣٨) .

ثانياً : المكتبات : اذ كان هناك العديد من دور الكتب العامة والخاصة في معظم المدن الاسلامية ، وقد شاهد ياقوت نفسه بعضها وأفاد منها فائدة مباشرة . ففي

(١٣٧) نفس المصدر : ١/ ٣٦٩ ، ٤٨٣ ، ٤٨٥ ، ٩٧/٥ ، ٢٢٤ ، الفكر العلمي عند ياقوت ، مجلة جمع دمشق ، ١٦/ ٣٧٢ - ٣٧٦ .

(١٣٨) نفس المصدر : ٥/ ١١٤ ، ٢١٠ .

(١٣٩) نفس المصدر : ٣/ ١٧٩ .

(١٤٠) ياقوت : معجم البلدان ، ٥/ ١١٤ .

وهذا النص الفريد من نوعه لا يحتاج الى تعليق بقدر ما يحتاج الى وقفة تأمل وإعجاب بالحضارة الاسلامية وعظمتها . ويلاحظ هنا ان دور الكتب كانت تلحق بالمدارس والمساجد التي ما زالت تعتبر من أهم مراكز الثقافة في عالم الاسلام . والمعروف ان نواة المساجد والمدارس قد نشأت في وقت مبكر من تاريخ الدولة الاسلامية ، حتى ان ياقوت يذكر عن ابن عساكر ان المدينة المنورة كان فيها زمن ابي بكر الصديق مكتب لتعليم القراءة والكتابة<sup>(١٤١)</sup> .

وكان هناك أيضاً في العالم الاسلامي مكتبات خاصة يمتلكها العلماء والتأهون والراغبون في العلم . ومن بينهم على سبيل المثال لا الحصر أبو حاتم محمد بن حبان البستي (ت ٣٥٤هـ) المحدث الشهير وصاحب التصنيف العديدة ، التي كان طلاب العلم يسافرون للاطلاع عليها « وكان أبو حاتم قد سبل كتبه ووقفها وجمعها في دار رسمها لها ، فكان السبب في ذهابها مع تطاول الزمان ، ضعف السلطان ، واستيلاء ذوي العيب والفساد على أهل تلك البلاد » . وقد تأثر الخطيب البغدادي من ضياع بعض كتب ابي حاتم البستي ، فقال : « ومثل هذه الكتب الجليلة كان يجب ان يكثر بها النسخ ، فيتناقل فيها أهل العلم يكتبونها ويحفظونها احرازاً لها<sup>(١٤٢)</sup> » ، وأبو القاسم بن عباد بن العباس الطالقاني (ت ٣٨٥هـ) ، وأبو المعالي عبد السلام بن محمود ابن احمد الفقيه الحكيم (ت ٥٢٦هـ) الذي كان يستصحب جميع أمواله وكتبه اينما توجه ، وخزانة كتب ابي نصر سابور بن اردشير وزير بهاء الدولة

التي وقفها صاحبها على طلاب العلم في كرخ بغداد ، ويقول ياقوت عنها انه « لم يكن في الدنيا أحسن كتب منها ، كانت كلها بخطوط الأئمة المعتبرة واصولهم المحررة ، واحتوت فيها أحرق من محال الكرخ عند ورود طغول بك أول ملوك السلجوقية الى بغداد سنة ٤٤٧هـ » . وكان بعض العلماء يوقفون كتبهم على طلبة العلم كما فعل العالم الأندلسي محمد بن عتيق بن فرج الطليطلي (ت ٤٨٥هـ) . وياقوت نفسه ، الذي أوصى بان توقف مكتبته بعد موته على مسجد الزيدي في بغداد ، وعهد الى المؤرخ عز الدين بن الأثير لتنفيذ وصيته<sup>(١٤٣)</sup> .

ولئن دلت ظاهرة وقف الكتب على شيء فائما تدل على حب المسلمين للعلم وتشجيعهم طلابه ، وقد بلغ من محبة أحد الطلاب للعلم وحرصه على سماع العلم وتقنيده ، حدا جعل هذا الطالب وهو الحسين بن أحمد بن علي البيهقي من أهل خسرورد (ت ٥٣٦هـ) ، لا يكف عن الكتابة رغم تقدمه بالسن وفقدته لأصابع يده . ويقول ياقوت عن هذا الرجل انه قد « أصابته علة في يده ففقط أصابعه ، فكان يمسك بيده ويضع الكاغد على الأرض ويمسك برجله ويكتب خطأ مقروءاً وينسخ<sup>(١٤٤)</sup> » .

ومع ذلك فان صناعة الوراقة التي كانت تشمل بيع الكتب ونسخها لم تكن حرفة مربحة كثيراً لأصحابها الذين احترفوها حباً في الكتاب ونشره ، ومنهم ياقوت الحموي نفسه الذي اشتكى من سوء بخته وقلة حظه في

(١٤١) نفس المصدر : ٢١٧/٢ .

(١٤٢) ياقوت معجم البلدان ١/ ٤١٥-٤١٨ ، الذهبي ، تذكرة الحفاظ ، ٣/ ٩٢٠ .

(١٤٣) ياقوت : معجم البلدان ، ١/ ٥٢٤ ، ٥٢٥ ، ٥٢٦ ، ٦٦ ، ٧/٤ ، ١٦١/٥ ، ابن علكان : وفيات الأعيان ، ١٤٩٩ ، ١٨٩/٥ .

(١٤٤) ياقوت : معجم البلدان ، ١/ ٥٢٨ .



الناس ، وحل الى دمشق بالقصد الى السماع عليه ،  
 حمله الملك المحسن احمد بن الملك الناصر من بغداد ،  
 فسمع عليه هو وخلق كثير من أهل دمشق ، وكان قد  
 انفرد بكثير من الكتب <sup>(١٤٦)</sup> ، ومنهم سعد الحارثي بن  
 محمد بن سهل البليسي (ت ٥٤١هـ) فقيه صالح  
 ومحدث مكث ، سافر الكثير وركب البحر حتى وصل الى  
 الصين ، وانتسب لذلك صينياً ، وعاد الى بغداد واقام  
 بها وتعلم الكتابة الصينية <sup>(١٤٧)</sup> ، وابو القاسم منصور  
 بن أحمد بن الفضل الاسفاري (ت ٥٠٢هـ) ، وكان  
 وحيد عصره في حفظ شعائر الاسلام واهله ، متبعاً  
 للأثر ، واعطا حسن الكلام حلو النطق بعيد الاشارة  
 في كلام الصوفية . . . يدخل على السلاطين والجبابرة  
 يذكرهم الله ويحثهم على طاعته ، ويأمرهم بالمعروف  
 وينهاهم عن المنكر ، لا يخاف سطوتهم ، ولا يبالي بهم  
 فيقبلون منه امره <sup>(١٤٨)</sup> ، ومن هؤلاء أيضاً العالم  
 الرحالة ابو بكر عتيق السمنطاري الصقلي (ت  
 ٤٦٤هـ) الذي « سافر الى الحجاز وحج وساح في  
 البلدان من أرض اليمن والشام الى أرض فارس  
 وخراسان ، ولقي بها من العباد وأصحاب الحديث  
 والزهاد فيكتب عنهم جميع ما سمع ، وصنف كل ما  
 جمع ، وله في دخول البلدان ولقياه العلماء كتاب بناء على  
 حروف المعجم في غاية الفصاحة <sup>(١٤٩)</sup> ، والرحالة  
 الشاعر ابراهيم بن عثمان الأشعبي الغزي الذي « سافر  
 الدنيا ومات بخراسان عام ٥٢٤هـ <sup>(١٥٠)</sup> ، والمحدث  
 المشهورة أمة الله بنت محمد بن أحمد النبالاني <sup>(١٥١)</sup> .

هذه الصناعة على ما ذكرناه . كما اورد شعراً لزميله ابي  
 حاتم الوراق يقول فيه <sup>(١٤٥)</sup> :

ان الوراق حرفة ملمومة  
 محرومة ، عيشي بها زمن  
 ان عشت ، عشت وليس لي أكسل  
 اومت ، مت وليس لي كفسن

ثالثاً : العلماء : هؤلاء كانت تزخر بهم المدن  
 والأقاليم الاسلامية وقد اشتمل معجم البلدان على  
 أسماء فئات من العلماء النابهين الذين ذكرهم ياقوت بعد  
 تعريفه باسم البلد او القطر الذي ينتمون اليه . ويلاحظ  
 ان ياقوتاً اهتم بصفة رئيسية بتراجم أولئك العلماء الذين  
 عاصروه ، او سبقوا عصره بقليل مما يجعل لتراجمه  
 الموزعة اهمية خاصة . وكان بعض هؤلاء العلماء  
 ينتقلون في البلاد الاسلامية استكمالاً لعلمهم من جهة  
 ونشر علمهم بين الناس من جهة أخرى . وفي هذا  
 الصدد ذكر ياقوت أسماء العديد من علماء المغرب  
 والأندلس الذين ارتحلوا الى المشرق للاستزادة من  
 العلم . وكان الطلب شديداً على العلماء النابهين يسعى  
 الكثيرون اليهم ويتمنون سماعهم . ويذكر ياقوت ان  
 أبا حفص عمر ابن محمد بن المعمر بن أحمد المؤدب  
 الدارقزي المنسوب الى دار القز وكانت عملة كبيرة في  
 بغداد (ت ٦٠٧هـ) « سمع الكثير . . . وطلبه

(١٤٥) نفس المصدر : ٤٦٣/٤ .

(١٤٦) ياقوت : معجم البلدان ، ٤٢٢/٢ .

(١٤٧) نفس المصدر : ٤٩١/١ ، ٤٤٠/٣ .

(١٤٨) نفس المصدر : ١٧٨/١ .

(١٤٩) نفس المصدر : ٢٥٣/٣ ، ٢٥٤ .

(١٥٠) نفس المصدر : ٢٠٣/٤ .

(١٥١) ياقوت : معجم البلدان ، ٢٥٦/٥ .





## دراسات رائدة لمعجم البلدان :

أشرنا فيما سبق الى ان صفى الدين عبد المؤمن بن عبد الحق البغدادي (ت ٥٧٣٩هـ/١٣٣٨م) كان أول من اختصر هذا المعجم في كتاب اسماء «مراصد الاطلاع على اسماء الأمكنة والبقاع» ، وبعد ذلك بحوالي قرنين قام جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ/١٥٠٥م) باختصاره ثانية في كتاب عرف باسم «مختصر معجم البلدان» . ويستفاد من فبيل تاريخ الأدب العربي لبروكلمان ان هناك نسخة من المختصر الأخير في مكتبة آصفية بحيدر آباد (١٦٢) .

الا ان أول دراسة في مادة معجم البلدان قام بها ياقوت الحموي نفسه وضمها كتابه المطبوع «المشترك وضعاً والمفترق صقعاً» اذ يقول في مادة تلك الدراسة : «هذه طرفة طرفية ، وملحة مليحة تشرب اليها النفوس ... انتخلتها من كتابي الكبير المسمى بمعجم البلدان ، وانتزعتها من رياض حدائقه الكثيرة الافتنان ، فيها اتفق من اسماء البقاع لفظاً وخطأ ، ووافق شكلاً ونقطاً ، واختلف مكاناً ومحلّاً ، واختلف صقعاً ومعتلاً ... ليخف على الحامل ثقله ويتيسر على الناقل نقله (١٦٣) » .

وفي القرن التاسع عشر تنبه عدد من المستشرقين الى أهمية معجم البلدان لياقوت مدفوعين الى ذلك بالحاجة الى جمع أكبر قدر من المعلومات عن الأقطار الاسلامية . ونورد فيما يلي جانباً من العرض القيم للدراسات الاستشرافية للمعجم ، والذي ضمنه وديع جويده

المباني الأثرية وابوابها واعمدتها في بناء قصورهم وبيوتهم ، كما هو الحال بالنسبة لبقايا مدينة زندورود وايوان كسرى ، وعين شمس ، وقرطاجنة ، ومعرة النعمان ، وسامراء ، والغريب ان خراب الأخيرة كان سريعاً ، اذ كانت في القرن الثالث الهجري تحمل انقاضها الى بغداد ويعمر بها . فقال ابن المعز في ذلك :

قد افقرت سر من را  
وما لشيء دوام  
فالنقص يحصل منها  
كأنها أجسام  
ماتت كما مات فيل  
تسل منه العظام

وكان البعض ينتقد هدم الآثار ، وازالة معالمها ، ويرى فيها قيمة تاريخية ، واداة للتفكير والاعتبار ، ومن هؤلاء القاضي ابويعلى عبد الباقي بن أبي حصن المعري الذي يقول :

مررت برسم في سيث فراغني  
به زجل الاحجار تحت المعاول  
تناولها عبد الذراع كأنها  
رمى الدهر فيها بينهم حرب وائل  
أنتلفها ؟ شلت يمينك خلها  
لمعتبر او زائر او سائل  
منازل قوم حدثتنا حديثهم  
ولم أر أحلى من حديث المنازل (١٦٤)

(١٦٠) ياقوت : معجم البلدان ، ١/ ٢٩٤ ، ٣١٢ ، ٤٦٠ ، ٥/ ٢ ، ١٣ ، ١٤/ ٣ ، ١٥٤/ ٣ ، ١٧٦ ، ١٩٢ ، ٣٩٥/ ٤ .

(١٦١) ١، 880، 42-1937، ( G.A.L.S. )، Leyden، Brockelmann، Geschichte der arabischen Litteratur Supplement band،

(١٦٢) ياقوت : المشترك ، ١٨٤٦ ، ٤ ، ٣ .

Jwaideh : The Introductory Chapters of Yaqut's Mujam Al-Buldan، Leiden، 1959، pp. IX-XI. (١٦٣)

بحته دراسة لمقتطفات من رسالة أبي دلف موجودة في معجم البلدان .

وبعد ذلك نشر المستشرق الإيطالي المعروف ميشيل اماري ( Michele Amari ) في ليبنيز ١٨٥٧ كتابه المشهور « المكتبة العربية الصقلية » ( Bib- lioteca Arabo-Sicula ) وهو عن تاريخ جزيرة صقلية ، وقد ضمته عدة نصوص عربية بدءاً بالمسعودي وانتهاء بحاجي خليفة . واشتمل الباب الحادي عشر من الكتاب على المقتطفات التي أوردتها ياقوت في معجم البلدان عن جزيرة صقلية ومثلها وقراها (١٦٥) .

وفي عام ١٨٦١ ظهرت في باريس دراسة للمستشرق الفرنسي باربييه دي مينار ( C. Barbier de Meynard ) بعنوان « معجم جغرافي تاريخي في أدب فارس والأقطار المجاورة لها ، مستخرج من معجم البلدان لياقوت » ( Dictionnaire Geog- raphique, Historique et Litteraire de la Perse et des Contrees Adjacentes, Extrait du Modjem El-Bouldan de Yaqout. )

أما النصيرص التي أوردتها ياقوت في معجم البلدان عن العرب قبل الاسلام ، فكانت موضع دراسة قام بها المستشرق الألماني لودولف كريسل ( Ludolf Krehl ) بعنوان « حول ديانة العرب قبل الاسلام » ( Uber die Religion der Vorislamischen Araber. ) وقد نشرت هذه الدراسة في

مقدمة ترجمته للفصول التمهيدية لمعجم البلدان لياقوت (١٦٤) . فقد قام عدد من كبار المستشرقين النصف الثاني من القرن الماضي بدراسات علمية تتعلق بموضوعات معينة في المعجم . ففي عام ١٨٢٣ نشر المستشرق الروسي فرين ( C. M. J. Fraehn ) في بطرسبورغ أول دراسة استشرافية من معجم البلدان تحت عنوان « رسالة ابن فضلان وتقارير عربية مختلفة اخرى عن الروس الاقدمين والشعوب المجاورة لهم » ( Ibn Fozslan's und anderer Araber Berichte Uber die Russen alterer Zeit und ihr Nachbarn. ) وكان فرين بهذه الدراسة أول من نشر معلومات عن الروس والسلاف والبلغار القاطنين ضفاف نهر الفولغا ، وعن الشعوب المجاورة له ، معتمداً في الدرجة الأولى على رسالة ابن فضلان المثبتة في معجم البلدان لياقوت . وقد نشرها متنازع ترجمة لاتينية ، مضيفاً إليها ما عثر عليه من كتب العرب عن قبائل روسيا القديمة . كما يعتبر فرين أيضاً أول من كتب عن ياقوت وعرف به ، وقد احتفظ بحته بقيمته الى اوائل القرن العشرين (١٦٤) .

وكانت دراسة فرين فائقة لأبحاث ودراسات مماثلة ، فقد نشر المستشرق الألماني كورد دي شولتسير ( Kurd de Schloezer ) الرسالة الأولى لابي دلف متنا وترجمة لاتينية ، وهي رسالته للدكتوراه ، ( برلين ١٨٤٥ ) ، وذلك بعنوان : « ابرودلف ، مسعر بن مهلهل ، ورسالته عن رحلته الآسيوية » ( Abu Dolef Misaris ben Mohalhal de ite- nere asiatico Commentarius. )

(١٦٤) جريدة : الفصول المقدمة لمعجم البلدان ، ص ٣٠

كراتشكوفسكي : تاريخ الأدب الجغرافي العربي ، ٣٣٦ ، العنقي : المستشرقون ، ٩٣٤/٣ .

(١٦٥) اماري : المكتبة العربية الصقلية ، ١٨٥٧ ، ١٠٥ ، ١٣٦ .

وفي عام ١٩٢٩ نشر المستشرق إيرنست داممان (Ernest Dammann) بحثاً بعنوان «إسهام المصادر العربية في التعريف بأفريقيا السوداء» (Beitrag aus arabischen Quellen Zur Kenntnis des negrischen Afrika, Kiel, 1929). ويكاد هذا البحث السدي ضم دراسة للمصادر العربية المتعلقة بالأفريقيين السود، أن يكون اعتماده الأساسي قائماً على المعلومات الواردة في معجم البلدان لياقوت، وآثار البلاد وأخبار العباد للقرظي.

وخلال الفترة الواقعة بين ١٨٦٦ و ١٨٧٢ تمكن المستشرق الألماني فستفيلد (F. Wustenfeld) من نشر معجم البلدان لأول مرة في ستة مجلدات تخصص المجلد الأخير منها للفهارس، وقدمت الملاحظات والفهارس المختلفة التي وضعها أساساً للدراسة منهجية لمعجم ياقوت البلدان ومصادره، كما كتب في أثناء عكوفه على نشر المعجم مقالين عن أسفار ياقوت وعلاقتها بمعجم البلدان، وتناولت المقالة الأولى «تجزؤ ياقوت كما صورته في معجم البلدان». ونشرت في مجلة الجمعية الشرقية الألمانية عام ١٨٦٤ (Jacut's Reisen, aus seinem geographischen Worterbuche beschrieben, ZDMG, 1864, XVIII, 397-493.) في حين كانت المقالة الثانية بعنوان «ياقوت رحالة كما هو أديب وعالم» وصدرت عن نشرة الجمعية العلمية الملكية في جوتنجن عام ١٨٦٥ (Der Reisende Jacut als Schriftsteller und Gelehrter, Nachrichten Von der Konigl. Gesellschaft der Wissens-

لبيزج عام ١٨٦٣، والمعروف أن هذه التصورس اقتبسها ياقوت من كتاب الأصنام لابن الكلبي، كما أن المستشرق الألماني يريولوس فلهوزن (J. Welhausen) ضمن كتابه القيم «بقايا الوثنية العربية» (Reste arabischen Heidentums) جميع المقطعات التي أوردها ياقوت من كتاب الأصنام المذكور، وتابع ترجمتها بالتعليق والتحليل، ورجع إلى مصادر كثيرة أخرى مكنته من جمع مادة غزيرة حول الموضوع الذي يدور عليه كتابه (١٩٦٦).

وكانت أراضي الحارر في جزيرة العرب موضوع دراسة أخرى قام بها المستشرق الألماني اوتولوث (Otto Loth) معتمداً على ما ذكره ياقوت عن تلك الحارات في معجمه. وقد نشرت هذه الدراسة في مجلة الجمعية الشرقية الألمانية عام ١٨٦٨، بعنوان «حارر بلاد العرب عند ياقوت» (Die Vulkanregionen—Harra's—Von Arabien nach Jakut, ZDMG. 1868. XXII, 365—382.)

أما الاشارات المتنوعة التي أوردها ياقوت عرضاً عن الصليبيين فكانت محور دراسة ثانية عملها المستشرق الفرنسي هرتفيج ديرنبورج (Hartwig Derenbourg) بعنوان «الصليبيون في معجم ياقوت» (Les Croisades d'après le dictionnaire de yakout.) ونشرت في كتاب الذكرى المئوية لمدرسة اللغات الشرقية الحية في باريس عام ١٨٩٥ (Centenaire de l'Ecole des Langues Orientales Vivantes. 1795—1895. Paris, 1895, pp. 71—92)

وبالرغم من مرور أكثر من قرن على طبعة فستفلد لمعجم البلدان فإن هذه الطبعة كما يقول كراتشكوفسكي ما تزال من أهم المراجع لجميع المشتغلين بالدراسات العربية ، وقد أعيد نشر هذه الطبعة بالافتت في طهران عام ١٩٦٥ . أما طبعة القاهرة التي جاءت في عشرة أجزاء وأشرف عليها محمد أمين الخانجي الكتيبي ( ١٩٠٦ ) فلم تأت بجديد ، وإن كانت أحياناً تقدم قراءات أفضل للأساء . وأضاف إليها الخانجي مجلدتين استدرك فيها على معجم ياقوت البلدان وسماه « منجم العمران في المستدرك على معجم البلدان » . وقد لاحظ كراتشكوفسكي أن هذه الاستدراكات قد تمس أحياناً نقاطاً عاجلها ياقوت فيورد الناشر المعلومات المتأخرة عن ذلك ، ولكنه في أغلب الأحيان يقصر كلامه على بلاد ومدن العالم الحديث في أوروبا وأمريكا وإسترايا ، وهذه الاضافة وإن لم تمثل قيمة ما من وجهة النظر العلمية ، إلا أنها برهان طريف على استمرار الأنماط القديمة للمعاجم الجغرافية التقليدية بين الأوساط العربية المتقدمة الى بداية القرن العشرين ( ١٦٩ ) .

وقد استمرت العناية بمعجم البلدان وصاحبه بعد ذلك من قبل كثير من الباحثين والأدباء العرب أمثال محمد كرد علي ، وأسعاف النشاشيبي ، وعباس الغزاري ، وعبد الوهاب عزام ، وعلي أدهم ، وعبد الله خلص ، وأبو الفتح التوئاسي ، وعبد المعين الموحى ( ١٧٠ ) . وليس من شك في أن كثرة الدراسات التي افردت لياقوت ومصنفاته ، تعتبر خير شاهد ودليل على علو كعب هذا الرجل ومكانته العلمية في التراث

chaften, Gottingen, 1865, No. 9, pp. 233—243. )

وفي أواخر القرن الماضي ( ١٨٩٨ ) نشر المستشرق الألماني يوستوس هير ( F. Justus Heer ) دراسة عن مصادر ياقوت تحت عنوان « المصادر التاريخية والجغرافية لمعجم البلدان لياقوت » ( Die historischen und geographischen Quellen in Jacut's geographischem Wörterbuch, Strassburg, 1898. ) وقد وصف وبيع جريدة هذا الكتاب بأنه ما يزال أفضل واشمل دراسة وضمت عن معجم البلدان ومصادره ( ١٧١ ) .

وقدم المستشرق الروسي كراتشكوفسكي ( Krachkovski ) عدة دراسات حول معجم البلدان بينها « تحليل الاستشهادات الشعرية في معجم البلدان لياقوت » . إذ المعروف أن هذا المعجم يضم حوالي خمسة آلاف بيت من الشعر بينها عدد من الأبيات لياقوت نفسه . والكثير من هذه الأشعار جاءت شواهد تزيد النص وتكمله ، كما أن القصائد التي قيلت في الفتح والحنين الى الأوطان وغيرها من المواضيع تعتبر وثائق على جانب كبير من الأهمية ، في ضوء ندرة الوثائق التي ترجع الى القرون الهجرية الأولى . ويمكن للباحثين أن يجدوا في هذا الشعر مادة خصبة ومفيدة ، وبخاصة في القرن الأول الهجري . وكان كراتشكوفسكي من أوائل الذين تنبهوا الى هذه الحقيقة . كما وضع هذا المستشرق الكبير دراسة أخرى حول الرسالة الثانية لأبي دلف في معجم البلدان ، وشهزور في معجم ياقوت ( ١٦٨ ) .

( ١٦٧ ) جريدة : الفصول النهائية لمعجم البلدان ، ١ ، ١٠٠ .

( ١٦٨ ) الطبعي : المشرقون ، ٣ / ٩٥٥ .

( ١٦٩ ) كراتشكوفسكي : تاريخ الأدب الجغرافي العربي ، ١ / ٣٣٧ .

( ١٧٠ ) الطوسي : الفكر العلمي عند ياقوت الحموي ، مجلة مجمع دمشق ، ١٦ / ٣٢٢ ، ٣٢٣ .

العربي الاسلامي ، الذي يمثل فيه معجم البلدان مكانة بارزة .

والحق ان ياقوت الحموي نفسه كان يدرك أهمية العمل العلمي العظيم الذي قام به ، فوصف كتابه الضخم بأنه « اوجد في بابه ، مؤمر على جميع اضرابه واترابه ، لا يقوم لثله الا من أيد بالتوفيق ، وركب في طلب فوائده كل طريق ، فغار وانجد ، وطوّح بنفسه فابعد ، وتفرغ له في عصر الشببية وحرارته ، وساعده العمر بامتداده وكفايته ، وظهرت منه امارات الحرص

وحركته » وياقوت وهو يشير هنا الى المعاناة الكبيرة التي عايشها وهو يجمع مادة كتابه القيم حباً في العلم والمعرفة وانتفاع الناس بهما ، كان كل أمله ومبتغاه ، أمنية في ان لا ينسب هذا الجهد الى سواه ، ودعاء توجه به الى الله عز وجل « ان لا يحرمه ثواب التعب فيه ، وان تكون جائزته على ما اوضع اليه ركاب خاطره ، واسهر في تحصيله بدنه وناظره ، دعاء المستفيدين وذكر زكي من المؤمنين بان يحشر في زمرة الصالحين (١٧١) . رحم الله ياقوت الحموي رحمة واسعة وجزاء عن عمله وجهده ونصبه أحسن الجزاء .





المصادر والمراجع :

اعتمد البحث على طبعة بيروت لمعجم البلدان - دار صادر ، دار بيروت ، ١٩٥٥ ، وذلك لتيسر هذه الطبعة وتداولها في أيدي الباحثين . وأشار الباحث في مواضع قليلة أخرى نطلبها البحث إلى طبعة لايزج القيمة ١٨٦٦ .

مصادر مخطوطة :

- شجر السروبي : علم الدين الصافي (ت ٦٨٦هـ).
- فحل البستان الجامع لجميع تواريخ أهل الزمان استبول ، مكتبة سراي أحمد الثالث ، خ/ ٢٩٥٩ .
- ابن السكيت : المبارك بن أبي بكر بن حمدان الموصلي (ت ٦٥٤هـ) عقود الجمان في شعراء هذا الزمان . استبول ، مكتبة اسعد الحنفي ، خ/ ٢٣٢٣ - ٢٣٣٠ .

مصادر ومراجع مطبوعة :

- ابن الأثير : حلي بن محمد الشيباني ، أبو الحسن ، هو الدين (ت ٦٣٠هـ) .
- التكمال في التاريخ .
- ط بيروت ، دار صادر ، ١٩٦٦ .
- آرتونسد : توماس (ت ١٩٣٠) .
- تراث الاسلام ( ط ١ ، ترجمة : جرجيس فتح الله ) .
- ط بيروت ، دار الطليعة ، ١٩٧٢ .
- البغدادي : أحمد بن علي الخطيب ، أبو بكر (ت ٤٦٣هـ) .
- تاريخ بغداد ( أو مدينة السلام ) .
- ط بيروت ، دار الكتاب العربي ، ( بدون تاريخ ) .
- ابن بطوطة : محمد بن إبراهيم اللواتي ، أبو عبد الله (ت ٧٧٩هـ) .
- تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار .
- ط بيروت ، دار صادر ، ١٩٦٠ .
- البسلاني : أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩هـ) .
- فروع البلدان ( تحقيق صلاح الدين النيد ) .
- ط القاهرة ، مطبعة لجنة البيان العربي ، ١٩٥٦ .
- ابن تاري بري : يوسف ، أبو الحسن ، جمال الدين (ت ٨٧٤هـ) .
- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة .
- ط القاهرة ، من طبعة دار الكتب ، ( بدون تاريخ ) .

- حاجي خليفة : مصطفى بن عبد الله (١٠٦٧هـ) .  
 كتف الطنون من اساس الكتب والقنون .  
 ط مكتبة المكي بغداد ، عن طبعة ١٩٤١ .
- حيسنه : عبد الرحمن .  
 اعلام الجفران العرب ومطولات من آثارهم .  
 ط بيروت ، دار الفكر ، ١٩٧٠ .
- ابن علسون : عبد الرحمن بن محمد ، ابو زيد (ت ٨٠٨هـ) .  
 كتاب العمري وحيوان الميثاء والبحر .  
 ط بيروت ، دار الكتاب اللبناني ، ١٩٥٩ .
- ابن علكسان : احمد بن محمد ، ابو العباس ، شمس الدين (ت ٦٨١هـ) .  
 ولغات الأحياء وثبات ابناء الزمان .  
 ط القاهرة ، دار السعادة ، ١٩٤٨ - ١٩٤٩ .
- البحري : محمد بن احمد بن عثمان ، ابو عبد الله ، شمس الدين (ت ٧٤٨هـ) .  
 العمري خير من غير .  
 ط الكويت ، مطبعة الحكومة ، ١٩٦٠ - ١٩٦٦ .  
 تذكر الحفاه .  
 ط بيروت ، عن مطبعة حيدر اباد الدكن ، ( بدون تاريخ ) .
- زيسندان : جرجي بن حبيب (ت ١٩١٤م) .  
 تاريخ آداب اللغة العربية .  
 ط بيروت ، دار الحياه ، ١٩٦٧ .
- السمهوري : علي بن احمد نور الدين (ت ٩١١هـ) .  
 وفاء الوفا بآخبار دار المصطفى .  
 ط بيروت ، عن طبعة القاهرة ، دار احياء التراث العربي ( بدون تاريخ ) .
- الطبرسي : محمد بن جبر (ت ٣١٠هـ) .  
 تاريخ الرسل والنور .  
 ط القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٠ .
- ابن عبد الحق البغدادي : عبد المؤمن ، صفي الدين (ت ٧٣٩هـ) .  
 مرصد الاطلاع على اسماء الاسكنة والنباح .  
 ط القاهرة ، دار احياء الكتب العربية ، ١٩٥٥ .
- المطليسي : نجيب .  
 المستشرقون .  
 ط القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٥ .

محمّد : إسماعيل صديقي .

الحيدري : يوسف الحلبي .

ط بيروت ، دار الكتاب ، ١٩٧٢ .

فهم : حمد الله يوسف .

مصادر الكبرى ومجموع الجغرافيا .

ط القاهرة ، مطبعة للنشر ، ١٩٧٤ .

أبن الفضل : أحمد بن الفضل بن القيس بن خالد بن حمد (ت ق ٤٠٠) .

رسالة أبن الفضل في وصف الرحلة إلى بلاد الترك والخرق والقرص والصفحة .

ط دمشق ، مطبعة وزارة الثقافة ، ١٩٧٨ .

الموسم : يوليوس (ت ١٩١٨م) .

تاريخ الدولة العربية (ترجمة حمد الله الحلبي ، بيروت) .

ط القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٦٨ .

الفرابي : (تقريباً بن محمد بن عمرو (ت ٩٨٢م) .

أثر البلاد وأخبار العباد .

ط بيروت ، دار صادر ، ١٩٦٠ .

كشافة : عمرو رضا .

التاريخ والجغرافيا في التصور الإسلامي .

ط دمشق ، المطبعة الصحفية ، ١٩٧٢ .

كراتكوفا : (تقريباً بن يوسف بن أحمد (ت ١٩٥١) .

تاريخ الأوب الجغرافيا العربي (ترجمة صلاح الدين سليم) .

ط القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٦٣ .

كنس : أحمد طه .

الطريق إلى دمشق .

ط بيروت ، دار الفنون ، ١٩٨٠ .

أبن السعدي : لفافك بن أحمد الحلبي ، أبو الزكيات ، حرف الدين (ت ٦٣٧هـ) .

تاريخ أدبي (لجنة التأليف والترجمة والنشر) .

ط بيروت ، المركز القومي للدراسات والبحوث ، ١٩٨٠ .

الموسم : صلاح الدين .

أعلام التاريخ والجغرافيا عند العرب .

ط بيروت ، مؤسسة دار الفنون العربية ، ١٩٥٩ .

نليس أحمد : الفكر الجغرافي في التراث الاسلامي (ترجمة فصي عثمان) .  
ط الكويت ، دار العلم ، ١٩٧٨ .

ابن هشام : عبد الملك ابو محمد (ت ٢١٣هـ) .

سيرة النبي ﷺ (السيرة النبوية) .

ط القاهرة ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، ١٩٣٦ .

الواقسي : محمد بن عمر بن واقد (ت ٢٠٧هـ) .

كتاب المغازي .

ط طهران ، عن طبعة دار المعارف بالقاهرة ، ١٩٦٦ .

بالوت بن عبد الله الحسوي : (ت ٦٢٦هـ) .

- معجم البلدان ط ليدج ١٨٦٦ .

- معجم البلدان ط القاهرة ، مطبعة دار السعادة ، ١٩٠٦ .

- معجم البلدان ط بيروت ، دار صاهر ، ١٩٥٥ .

- معجم الأدياء ط بيروت ، دار احياء التراث العربي ، عن طبعة دار المأمون بالقاهرة .

- للتشرك وصفاً والفرق صفاً ، ط جوتنجن ١٨٤٦ .

Brockelmann : Geschichte der arabischen Litteratur Supplementband, ( G. A. L. Supp. ), Leyden, 1937—42.

Jwaideh. W : The Introductory Chapters of yagut's Mujam Al—Bukdan, Leiden, 1959.

### مجلات ودوريات :

مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ، المجلد السادس والأربعون ، دمشق ١٩٧١ .

مجلة المقتبس ، القاهرة ، المجلد الأول ، ١٣٢٤هـ .

مجلة الجمعية الشرقية الألبانية .

Z. D. M. G : Zeitschrift des Deutschen Morgenlandischen Gesellschaft.



(١)

هذا كتاب غزير بأفكاره المتحررة ومواقفه المتطرفة واتجاهاته المتصلبة . وقد جاء بأسلوب مركز بشكل لا يتيح لغارته تخطي أي سطر من سطوره دونما وقفة متبصرة لكل ما يبطنه من فحوى او يظهره من معنى . وربما كان الأجدر بإدارة مجلة « عالم الفكر » ان تطلب ترجمة هذا الكتاب ترجمة كاملة دون الاكتفاء بعرض موجز لأهم أفكاره واتجاهاته .

والكتاب يتناول موضوعات معاصرة على درجة كبيرة من الأهمية لأنها تشكل أرضية عريضة واسعة للجدل العلمي والفلسفي والفقهى والقانوني والسياسي والاقتصادي والاجتماعي او غير ذلك من مبادئ المعرفة العلمية المنظمة .

ونسأول جهدنا في عرض ما تضمنه من فكر وتحليل وعسى ان نكون قد أفلحنا في إبراز أهم أفكاره وفرضياته .

الصبراع من أجل أن تكون إنساناً  
" الجريمة وعلم الإبرام والوضوئية "

تأليف: د. تيفت ود. سوليغان

عضو تحليل، عدنان الدورى

استاذ بجامعة الكويت

والكتاب مطبوع حديثاً ( ١٩٨٠ ) يحمل عنواناً مشيراً ولكنه يمثل اتجاهاً ليبرالياً معاصراً يتناول تحليل مفهومي الجريمة والعقاب من زاوية فلسفية جدلية وأخرى اجتماعية علمية جديدة . فهو يدعو الى ربط الجريمة وربط العقاب بعملية المعاناة البشرية من أجل تحرير الذات . اذ يرى أن علماء الاجتماع ، الأكاديميين منهم والممارسين على السواء ، قد عجزوا حتى الآن عن رسم طريق أمام الانسان المعاصر الى حياة اجتماعية آمنة مستقرة . ذلك ان العنف والمظاهر السلطوية التي تمارسها الدولة وكل ما يتفرع عنها من مؤسسات سلطوية لا يمكن ان تحقق بحال من الاحوال بعض ما يطمح به أفراد المجتمع من استقرار اجتماعي وسلامة فكرية .

وان بناء حياة اجتماعية متكاملة متوافقة ، من وجهة نظر مؤلفي هذا الكتاب ، ينبغي أن تعتمد على كفاءة الانسان ذاته وعلى مدى جدواه الوظيفية في المجتمع الذي يعيش فيه . كما أن تطور الحياة الاجتماعية وتقدمها يخضعان بالدرجة الأولى لما يقدمه الأفراد انفسهم من عون متبادل بناءً ومن خلال تعاون جماعي ايجابي ملموس .

ويوضح الكتاب كيف أننا لا نزال نعيش حياة أقل ما يقال فيها انها تقوم على الاتكالية المطلقة والاعتماد الكامل على الآخرين ، ولذلك فليس من الصواب الاصرار على الاعتقاد باستقلالية ظاهري الجريمة والعقاب عن حقل الاقتصاد او عن الدولة او حتى استقلاليتها عن الحياة ذاتها . ان غالبية علماء الاجتماع وعلماء الجريمة الأكاديميين يخفون في ادراك أهمية الظروف الأساسية التي تحيط بحياة الانسان المعاشية لأنهم لا يزالون يدورون في فلك الدولة وحول محور القانون والخضوع لسلطان كل منها . ان ظروف الانسان المعاشية تستدعي التعاون الكبير بين الأفراد وهذا التعاون هو الذي يطبع عجلة الحياة في مظهرها المعاصر .

حتى أنصار الفكر الراديكالي انفسهم ، ممن ينضون تحت مظلة الفكر الاشتراكي في علم الاجرام المعاصر لا يستطيعون الافلات من فكرة مركزية الدولة وقوة سلطانها في توجيه دفة الحياة الاجتماعية نحو التقدم والحركة والتطور . ان مثل هؤلاء لا يستطيعون ان يتجاوزوا في تحليلاتهم الايديولوجية امكانية العيش خارج اسوار مركزية الدولة لأنهم لا يزالون يربطون بين عملية التنظيم الاجتماعي ذاته وبين قوة فاعلية السلطة المركزية للدولة .

واذا كانت أهمية علم الاجرام ، كمعرفة علمية متخصصة ، لا زالت اليوم بعيدة المثال في وعي مجتمعاتنا المعاصرة فان هذا العلم وحده لاشك يستطيع أن يكون الدرع الدفاعي المنيع الذي يمكن أن يحمي الأفراد ضد تسلط الدولة ، ولذلك ينبغي انفاذ هذا العلم من السقوط في جاذبية الدولة أو الخضوع لسلطانها وتبعيتها . ان مهمة علم الاجرام ، او عالم الاجرام الجديد ، أن يمر نفسه من سلطان الدولة بآليات عدم جدوى النظرة العقابية التقليدية نحو الجريمة والتي لا تزال تربط الجريمة بقوانين الدولة الجزائية ربطاً عضوياً مباشراً . ان غياب علم اجرام جديد بهذا المعنى يتركنا نتطلع دوماً الى الدولة في كل ما يتصل بشؤون الجريمة والعقاب الأمر الذي يجعلنا نسير في مدار الدولة ونخضع لسلطانها .

## ( ٢ )

ويتضمن هذا الكتاب مقدمة طويلة اعقبها فصول أربعة جاوز بعضها الخمسين صفحة . ولعل ابرز ما في مقدمة الكتاب تلك الفكرة التي تناولت صراع الانسان الطويل نحو تحقيق انسانيته ، وذلك من خلال تبني فلسفة علم اجرام حديث من علوم الانسان المعاصرة . وقد استطاع المؤلفان وهما من علماء الاجتماع الأميركيين ، ان يبلوروا فلسفة هذا الكتاب حول موضوع الجريمة وعلم الاجرام الجديد .

يقول المؤلفان اننا بدأنا نسمع اليوم بعض أصوات علماء الجريمة الرافضين لبعض التعريفات القانونية التقليدية التي التصقت بفكرة الجريمة وفكرة العقاب او حتى بمفهوم معاملة المذنبين ان مثل هذه التعريفات لا شك تحجب وراءها تلك المعاني الإنسانية لمفهوم العدالة الاجتماعية ، فمعاناة الانسان المسجون خلف قضبان

الماركسيين انفسهم يرسخون سلطان الدولة بعد نجاح محاولتهم في قلب النظام القائم .

فالبديل المطلوب هو نظرة انسانية مفتوحة نحو العالم بحيث يسود التوافق بدل التغيير والدوبان بدل الالغاء والتناغم بين الانسان وبين كل ما هو طبيعي .

اننا لا نزال نعيش في عالم يتميز بالوان العنف والعدوانية ، سواء كان ذلك في مجتمعاتنا الكبيرة او المحلية ، او في بيوتنا او في مدارسنا او في دوائر عملنا او مصانعنا وحقولنا الزراعية . ان جميع هذه المؤسسات تصطبغ بصبغة القهر والتسلط والقمع والعدوانية وطلب الطاعة العمياء ، ونحن لا نزال نتصرع من خلال مفاهيم اجتماعية محدودة لا تخرج عن دائرة الطاعة او حدود الواجب او الخوف من العقاب . ولذلك فنحن لم نعد نشعر بوجود العنف من حولنا لأننا غير منفصلين عنه بل صار جزءاً من حياتنا . كما أنه ليس بوسعنا ادراك لا مشروعية العنف الذي نعمانيه ، ولا يمكننا تقويم لا أخلاقياته ، لأننا نعجز في الواقع عن ادانة مصدر هذا العنف وهو الدولة . ان الدولة بوصفها صاحبة السلطة المطلقة تستطيع ان تمارس اعمال القتل والايداء والحبس ومصادرة المال وانتهاك حرمة البيوت ومصادرة الحريات الفردية ، ومع ذلك فان مثل هذه الأعمال تكسب التسميات الاجرامية التقليدية حين يقوم بها فرد من الأفراد حيث يصبح هذا الفرد قاتلاً او سارقاً او مغتصباً او منتهك حرمت . اما العنف المشروع الذي يصدر عن سلطة شرعية كالدولة فهو الذي لا يمكن ادانته لأنه يستند الى شرعية تقوم على سيادة الدولة على الافراد . وموجز ما يراه مؤلف هذا الكتاب ان معاناتنا لا تنبت عن تلك الأفعال الاجتماعية التي يعاقب عليها القانون كجرائم ، بل عن تلك الأفعال المشروعة التي لا توصم

السجون لا تختلف عن معاناة أخيه الانسان الآخر الذي يموت جوعاً في أفريقيا الشرقية ، أو أولئك الأطفال الذين يحرقون أحياء بقنابل حرب فيتنام . إن للمعاناة الانسانية واحدة مهما اختلفت أسبابها وتباينت صورها وأشكالها . اننا في الواقع لا نستطيع أن نفرس جريمة الايداء التي يرتكبها شخص ضد آخر وفقاً لنطق ذلك القانون العلمي الأحادي الذي يقوم على السبب والنتيجة . ان هذا القانون لا يأبه للمعاناة الانسانية الذاتية التي يعانيها الانسان في سبيل تحقيق المساواة الاقتصادية والاجتماعية . ان مفهوم العقاب المعاصر ، مهما اختلفت أشكاله وصوره ، لم يعد له ثمة معنى مقبول وذلك من خلال ما يمارس فيه من جراحة طبية وابلام بدني وتعذيب نفسي وعزل مادي يقيد حرية الانسان بصورة قاسية بحيث لا يرى ضوءاً ولا يسمع صوتاً ولا يقابل بشراً .

اننا لا نستطيع ان ندرك معنى الحرية ذاتها الا اذا خرجنا عن مجال الدولة المغناطيسي الجاذب ، كما كان عالم الفلك « كوبرنيك » لا يستطيع ان يتصور حركة الأرض الا حين يتاح له الخروج منها بعيداً عنها والنظر اليها من على سطح الشمس . ويظهر ان صاحبي هذا الكتاب لا يدعون الى تصحيح مسيرة علم الاجرام الحالي كفرض من فروع المعرفة العلمية او وضع هذا العلم في اطار فكري انساني جديد . انهم في الحقيقة يدعون الى اقامة مجتمع بديل لمجتمعنا الراهن حيث لا يكون هناك حاجة الى علم إجرام او الى عقاب ينبعث عن سلطان الدولة . ان العلاج هو في الغاء الدولة والغاء الرأسمالية معاً والغاء كل ما يفتقر عنها من مؤسسات سلطوية وهذا لا شك يلغي حاجتنا الى علم اجرام يقوم على سلطة الدولة . ومع ذلك فان المؤلفين لا يقدمان الحل الماركسي بديلاً لمواجهة الحالة . انهم يعتقدان بان

مصالح طبقة التجار وذوي اليسار فقد استخدم مفهوم الجريمة لحماية هذه المصالح . ان القانون الجنائي لا يهدف لحماية تلك الاعراف والمعايير الاجتماعية السائدة في المجتمع بل هو قد جاء لحماية مصالح الدولة . فالدولة غالباً ما تنتهك بعض الاعراف والمعايير الاجتماعية تحت بعض المبررات الاقتصادية والسياسية . لقد كانت انظمة الرق ، التي سادت لدى مجتمعات كثيرة ، بعض جهود أولئك الذين يملكون السلطة الكافية لتقرير مشروعية الرق . وحين انحسر النظام الاقطاعي وضعفت فعالية مؤسساته انبثقت السلطة المركزية للدولة تحت أشكال مختلفة تحت مظلة سيادة الدولة متبينة حماية الأفراد . وهكذا بدأت الدولة أو ( الصفوة ) تضع تعريف الجريمة المناسب وتفرض لها العقاب المناسب ، وصارت الجريمة مفهوماً رسمياً يرتبط بمخالفة القانون ، والخروج على النظام القائم ، وهذا بذاته عمل موجه ضد سلطة الدولة . ان تاريخ تطور القانون الجنائي وما تضمن من ممارسات رسمية لمواجهة ظاهرة الجريمة تعكس تلك الانماط المناسبة التي تتضمن مطلب الضبط والطاعة .

وهذه لا شك ترتبط ببعض الخلفيات الجغرافية والاقتصادية والاجتماعية السائدة في كل عصر من العصور .

وكذلك كان شأن العقوبة ذاتها كجزاء رسمي يصدر عن سلطة رسمية هي الدولة . لقد صار العقاب ذلك الضرر المتعمد الذي يصدر عن سلطة ذات شرعية لمعاينة فرد من الأفراد عن فعل معين ضار بمصلحة الدولة . ومن هنا فان فكرة قبول القانون ذاته تعتبر تبريراً للدولة مهما اتخذت هذه الدولة من اجراءات لمواجهة المشكلات او التماسه التي تخلفها بنفسها . ان

بوصمة الجريمة والاجرام . ان مثل هذه الأفعال المشروعة قد تشجع الكثير من العوز والتعاسة والدمار والصراع ، ومع ذلك فهي تعاسة تظل غير منظورة لأنها بعيدة عن الإشارة والتنويه .

### ( ٣ )

ان التعريف القانوني للجريمة ، الذي لا يزال يقوم على فكرة الضرر بالمصلحة الاجتماعية لا يرتبط بالضرورة بين مخالفة القانون وبين حدوث بعض الضرر بالمصلحة الاجتماعية او حتى انتهاك بعض المعايير الاجتماعية او القيم الأخلاقية . ذلك ان هناك جرائم كثيرة لا ينشأ عنها ضرر ما لأحد من الأفراد سوى صاحبها كجريمة التسكع وجريمة السكر او حتى تغيب حدث صغير عن بيته او عن مدرسته . وهناك من الناحية الأخرى أفعال ضارة مؤلة لا يمتنصها التعريف القانوني للجريمة كمقوبة الاعدام ذاتها وعقوبة الحبس والحرب وتلوث البيئة والتعصب والعنصري والاباحية الجنسية والمعاملة القاسية التي يلقاها الصغار من قبل ذويهم .

ان الجريمة من الناحية القانونية لا تعدو كل فعل او امتناع يرد بنص في القانون الجزائي ، وهذا يفيد بأن الجريمة كل مخط سلوكي معين يخرج على معيار قانوني معين وكل ما عدا ذلك لا يشكل جريمة . وهذا يفيد ببساطة ان غياب نص القانون الجزائي ذاته يؤدي الى اتعدام الجريمة ذاتها .

وكذلك شأن العقوبة كجزاء رسمي فهي تمثل ذلك الضرر او الايلام المتعمد الذي تلحقه سلطة ذات صلاحية شرعية بفرد معين وذلك عن فعل اعتبره ضاراً بها . وإذا كانت الدولة قد نشأت في أول مرآه لها لحماية



مضاعفة تعاستنا ومعاناتنا في سبيل تحقيق مجتمع انساني صالح سليم . وان الضرر الرسمي الذي يصدر عن سلطة شرعية يشيع في مجتمعا التعاسة والعناء والتناقض والدمار والحاجة . ورغم هذا فان الفسر الذي قد يلحق بالفرد من جراء سرقة لا قانونية او من قبل سلطة تحتمي وراء القانون يظل يسير في دورته المعتادة دون توقف . واذا كانت الكرة الأرضية عاجزة اليوم عن حماية مواردها الطبيعية من النفاذ العاجل فان الضمير الانساني عاجز اليوم عن حماية نفسه من الاندثار والضياح ، واذا كان لا بد من العيش بدون سلطة او بدون قهر سلطوي فعلينا التركيز على حياة مجتمعية جديدة قائمة على التعاون المتبادل .

وفي اطار بيئة محددة باقتضابات طبيعية معينة فان صراع الانسان لكي يكون انساناً يصبح امتداداً حيوياً للحياة ذاتها . فاذا كان الانسان لا يزال يسعى الى تطوير موارد الطبيعة بما يسر له حياته الطبيعية فان من الأولى ان يبدأ الانسان بتطوير ذاته بما يكفل بقاء الحياة الى الجنس الانساني عامة وذلك من خلال ما يتمتع من ذكاء وحب وحيوية وما يحس به من تعاون نحو الآخرين . ان حرصنا اليوم على المشاركة الجماعية في ما نملكه من خيرات الطبيعة ينبغي أن يمتد الى مشاركة انسانية اخرى في خدمة اهداف الجنس الانساني الذي ننتمي اليه .

فكرة قبول القانون تعني ان الأطفال الذين نساء معاملتهم او الجياح الذين يتضورون جوعاً وضحايا العنف البدني وضحايا عنف الدولة لم تعد اليوم مشكلات ينبغي ان نهتم بها بصورة مباشرة او نتحمل مسؤولياتها . لقد صار القانون ذاته وما يفرضه من علاقات تبعية هي الأمور التي تجاوزت الآن درجة معاناتنا . ان الأفعال الضارة التي تقع بيننا اليوم كالاغتصاب الجنسي والقتل والحرب وقسوة العقاب والاستغلال الاقتصادي والأيذاء البدني يمكن تقليصها وتخفيف آثارها وأضرارها فيما لو تركنا القانون جانباً وأقمنا بدله مجتمعات انسانية تقوم على المساواة والحرية والتعاون المشترك . ولعل هذا يتيح لنا الطريق الى إيجاد حلول اجتماعية عادلة لكل ما نعانيه من صراعات وتناقضات تعاني منها مجتمعاتنا .

ان الشعور بمسؤولية الفرد نحو الجماعة يمكن ان يكون البديل الصالح لكل المسؤوليات المتعددة التي تضطلع بها تلك اللجان الكثيرة التي تشكلها لاجل إيجاد الحلول البيروقراطية لمشكلاتنا الراهنة . ان الشعور بالعدالة في حياتنا اليومية والطرق التي نستجيب بها لمواجهة صراعاتنا وتعاستنا يمكن ان تكون بادراكنا الكبير لدى شعورنا بالحاجة الى الآخرين .

## ( ٤ )

ولعل هذا لا يفق عند حدود تحقيق مطلب العدالة والمساواة فحسب بل ينبغي أن يمتد الى ذلك المصدر الداخلي الذاتي الذي يقودنا الى التعامل مع الآخرين كما نرغب ان نعامل نحن به في ظروف مماثلة . واذا كنا لا نريد ان نكون محكومين لأحد فان علينا أن لا نحكم الآخرين .

ولا شك ان فعوى الكتاب تتلخص في ان جلور مشكلاتنا الراهنة تنحصر في اننا لا نركز على دراسة الجريمة من الناحية العلمية بمعدل عن مطلبين اساسيين هما مطلب دراسة الدولة ذاتها التي تنشئ القانون الجنائي ومطلب دراسة المعاناة الانسانية من أجل تحرير انفسنا . ان اغفالنا لأهمية المطلب الأخير هو المستول على

تقييد ارادتهم . انها قوة متحررة تعمل من خلال ما تملكه من مهارات خاصة لتكون ذات تأثير معين على الآخرين . وفي اطار بيئة تتميز بتنظيم اجتماعي يقوم على مثل هذه الحرية فانه لا مكان للخوف من تسلط فردي أو عدوان على الآخرين .

ولعل هذا لا يعني اطماع الجياع من البشر وفق احساسنا الادمي بالآلام الجوع بل يمتد الى تلك المشاركة الوجدانية من خلال التعاون الكامل مع الآخرين وتطوير علاقاتنا بهم على نحو يلا ذلك الفراغ الانساني الفسيح الذي يفصل بيننا .

ان تحقيق مثل هذه المطالب الكبيرة يستلزم مواصلة الصراع نحو تحقيق انسانيتنا .

ان الحرية التي نشهدها لنا وللآخرين ينبغي أن تكون حرية خلاقة تعمل بدون سلطة أو تسلط على الآخرين أو



العدد التالي من المجلة

---

العدد الثالث - المجلد الرابع عشر  
أكتوبر - نوفمبر - ديسمبر  
قسم خاص عن  
أرب المراتلات  
بالإضافة إلى الأبواب الثابتة





٣	بموربيا	٥	الخليج العربي
٢٥٠	المغاربة	٥	السعودية
٢٥٠	السودان	٤٠٠	البحرين
٢٥	تيمبيا	٤٠٥	البحر الشمالية
٤٠٠	مسقط	٤٠٠	اليمن الجنوبية
٥٠٠	العراق	٢٠٠	العراق
٥٠٠	لبنان	٢٠٥	لبنان
٥	المغرب	٢٥٠	الأردن

### الاشتراكات:

البلاد العربية ٢٥٠٠ دينار

البلاد الاجنبية ٣٠٠

تحويل قيمة الاشتراك بالنقد الكويتي لحساب وزارة الاعلام بموجب حوالة مصرفية خالصة المصاريف على بنك الكويت المركزي وترسل مسرة عن الحوالة مع اسم وعنوان المشترك الى :

وزارة الاعلام - المكتب الفني - ص.ب ١٩٣ الكويت